

هان شاو غونغ

قاموس ما تشياو

馬橋詞典

منشورات تكوين | مرايا مكتبة ترجمة: يارا المصري

TAKWEEN PUBLISHING



قاموس ماتشياو

مكتبة

t.me/soramnqraa

الكاتب: هان شاو غونغ

عنوان الكتاب: قاموس ماتشياو

ترجمة: يارا المصري

العنوان باللغة الأصلية: 马桥词典

الكاتب: 韩少功

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنفيذ داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-78-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

B & R BOOK PROGRAM

Arabic translation copyright @ 2023 by Beijing Normal University Press (Group) co., ltd.

The translation is in collaboration with the Beijing Normal University Press (Group) co., ltd.

ALL RIGHTS RESERVED

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60



takween.publishing@gmail.com



takweenkw



takween_publishing



TakweenPH



www.takweenkw.com

هان شاو غونغ

مكتبة

t.me/soramnqraa

قاموس ما تشياو

رواية

الترجمة عن الصينية

يارا المحربي

مرايا

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



المحتويات

قاموس ماتشياو: الكلمات والحكايات عبر التاريخ والتجربة ...	١٣
الشخصيات	٢٥
مداخلُ القاموس / فصولُ الرواية	٢٧
النهر	٣٣
نهرُ لُوَه	٣٥
الهمج (وهمجُ أسرةِ لُوَه)	٤٠
الثالثُ من الشهرِ الثالث	٤٥
قوسُ ماتشياو	٤٧
الرفيقُ القديم	٥٢
حلو	٥٧
صبغةُ اليود	٦٢
خشونة	٦٤
القَدْرُ نفسُها	٧٤

٧٦	وَضَعُ الْقَدْر
٧٨	الْأَخُ الْأَكْبَرُ الصَّغِيرُ (وآخرون)
٨١	مَنْزَلُ الْخَالِدِينَ (وَالْكُسَالَى)
٩٣	الْعِلْم
٩٨	الْيَقْظَةُ
١٠٣	النَّوْم
١٠٥	أَدَاءُ الْأَغَانِي
١١١	إِصَابَةُ الْأَحْمَرِ
١١٣	رَجُلُ التَّشْوِشِ
١٢٤	لِي. غِي. لَانْغ
١٢٧	التَّيْنِ
١٣٣	التَّيْنِ (تَتْمَةُ)
١٣٥	عَفْرِيتُ الْقَيْقَبِ
١٤٤	يَرْغَبُ
١٤٧	الْحَيَاةُ الْعَزِيزَةُ
١٥٥	وَضِيع
١٥٨	امْرَأَةُ الْحُلْمِ
١٦٥	لَا صِقْ - يَلْتَصِقْ
١٦٩	بِذِيءٍ (وَالْمَنْظَار)

الأراضي المذكورة (والحقول المؤنثة)	١٧٣
ثقب الطمث	١٧٦
الأجربة التسعة	١٧٨
تبدد	١٩٠
في الحال	١٩٣
النّبة «ما» (والعام ١٩٤٨)	١٩٥
الشعائر الطاوية	٢٠٥
كسب غير مشروع	٢٠٩
النّبة «ما» (تتمة)	٢١٢
قرع أرض العليق	٢٢٠
العام ١٩٤٨ (تتمة)	٢٢٣
بعوض الجيش	٢٣١
العائلة العامة	٢٣٣
تايران	٢٣٨
عصيدة	٢٤٧
خائن للصين	٢٤٩
السُّخط	٢٦٠
المرأة القرمزية	٢٦٦
هذا هو	٢٦٩

٢٧٧.....	الكونفوشية
٢٧٩.....	الجلدُ الأصفر
٢٨٢.....	دُوارُ الشارع
٢٩١.....	الشيءُ الملَوَّن
٢٩٣.....	الأنحاءُ الأجنبية
٢٩٦.....	حقُّ التعبير
٣٠٧.....	الأحمرُ يضيءُ السماء
٣١١.....	أهلية
٣١٧.....	نفوذ
٣٢٣.....	ابنُ آوى الشرس
٣٢٥.....	الغالي
٣٣٠.....	الغالي (تتمة)
٣٣٥.....	رقصةُ الأسد
٣٤٠.....	الرئيس هونغ
٣٤٣.....	الشعراتُ الثلاث
٣٥٢.....	وُلِدَ في الحظيرة
٣٥٣.....	أمطار تشينغ مينغ
٣٥٥.....	فضَّة
٣٥٨.....	الرُّوح

٣٦٦.....	فِظَّة (تتمة)
٣٨٠.....	ظهورٌ مثبتةٌ بالمسامير
٣٨٤.....	جذر
٣٨٧.....	ركوبُ العربية
٣٩٤.....	فمٌ.. أوه إيه
٣٩٧.....	«ما» مُعْتَمَد
٤٠١.....	القريبُ الشبح
٤٠٨.....	الشُّعلة
٤١٣.....	أبُ الوردَةِ الحمراء
٤٢٠.....	الرجلُ المُسن (والنخ)
٤٢٥.....	طعام (كما يُستخدَمُ في الربيع)
٤٢٩.....	العاملُ النموذجي (كما هو مُستخدَمُ في الأيامِ الصَّحوة)
٤٣١.....	التحدُّثُ بالطاوية
٤٤٣.....	الحالي - الآن - الماضي 现
٤٤٦.....	محظوراتُ الفم (وقَلْبُ قدميك)
٤٥٢.....	طوقُ العشبِ المعقود
٤٥٩.....	سؤالُ الكتب
٤٦١.....	الوزير أسود
٤٦٣.....	الوزير أسود (تتمة)

٤٧٦.....	طحنُ اللعنات
٤٧٨.....	الثواني الثلاث
٤٨٠.....	جوهرةُ يَشْمِ الخس
٤٨٨.....	تقديمُ الكرمة
٤٩٢.....	العابرُ المُسن
٥٠٦.....	الدماغُ المُحَطَّم (وغيرُها)
٥٠٨.....	ملاحُ تثيرُ الشفقة
٥١١.....	تربةُ الأسنانِ القرمزية
٥١٤.....	ينتهي البستان
٥١٦.....	الأرواحُ الطافية
٥٢٤.....	مسترخ
٥٢٦.....	الأبخرةُ الوبائيةُ للعشبِ الأصفر
٥٢٨.....	التأكيدُ على الأسماء
٥٣٣.....	كسولٌ (كما يستخدمُها الرجال)
٥٤١.....	غشاءُ فُقاعة (وإلخ)
٥٤٥.....	زنزانةُ الديموقراطية (كما يستخدمُها المُدانون)
٥٥٢.....	تيان آن مين
٥٥٨.....	وحشي
٥٦١.....	الموهبةُ الغربية

٥٧١.....	تناسخُ الأرواح
٥٧٤.....	جاردينيا أو ياسمين
٥٧٨.....	كوي يوان
٥٩٢.....	فَتَحُ العيون
٥٩٦.....	إيقافُ الجَنَّةِ
٥٩٨.....	آه
٦٠٦.....	إخوةُ القَدْرِ المنفصلة
٦١٢.....	البدايةُ (النهاية)
٦١٤.....	كلامٌ فارغ
٦٢٢.....	طريقُ المسؤولين
٦٢٤.....	حاشية

قاموس ماتشياو

الكلمات والحكايات عبر التاريخ والتجربة

سمكة كبيرة

ذهب بطلُ هذا الكتاب إلى سوق الخضار في هاينان، أقصى جنوب الصين، وعند بائعٍ للسّمك أشار إلى سمكةٍ وسأل عن «اسمها» فقال البائع إنَّها «أسماكُ البحر» فأعاد السؤال: ما نوعُها من فضلك؟ ردَّ البائعُ بنفادٍ صبرٍ: سمكةٌ كبيرة.

وإذ يشيرُ الكاتب إلى أن «صَيَّادي هاينان -وهي منطقةٌ بحرية- وضعوا مفرداتٍ محددةً لمئات الأنواع من الأسماك، تكفي لتأليف قاموسٍ سميك».. نفهم على الفور أنَّ بائعَ الأسماك يعتز بـ«لغته وهويته المحليَّتين» بنفس المقدار إلى حدٍّ أنه لا يعطي إجابةً عن نوع السمكة إلى مُشترٍ يتحدث معه بـ«الماندرين»، وعدا أنَّ «القواميس» لا تُدرجُ معظم مفرداتِ العامية في متنها، كما يقولُ الكاتبُ كذلك، فإنَّ اللغات المحليَّة ستبقى حيَّةً فقط في إطار مستخدمِها، كأنَّها نوعٌ من التشفير بين مجموعة بشرية، يحفظُ ثقافتها وأساليبَ التواصلِ بين أفرادها، بل ويضعُ أي إنسانٍ لا يتحدث بهذه اللغة المحلية أو تلك خارجَ الإطارِ المعرفي لها، كما حدث مع بطل هذا الكتاب وبائع السمك.

وهذا الكتاب، مغامرة في الكشف عن الإطار المعرفي والثقافي والإنساني لأهل قرية «ماتشياو»، إلا أنها تطابق في الواقع أي قرية أخرى في الصين أو في العالم، يتحدث أهلها لغة محلية خاصة بهم.

وعن مغامرة كتابه يقول المؤلف هان شاو غونغ: «يُعدُّ تأليفُ قاموسٍ من أجل قرية بالنسبة لي محاولة، وإذا اعترفنا بأن معرفتنا بالبشرية تبدأ دائماً من أشخاص محددين أو مجموعات محدّدة، وإذا فهمنا أنّ أي حياة محدّدة، سيكون لها دائماً تعبير لغويّ معيّن، فإنّ قاموساً كهذا قد لا يكون دون معنى».

قاموس ماتشياو

وهذا الكتاب، وإن كان مكتوباً بصيغة «القاموس» إلا أنّه ليس قاموساً بالمفهوم المعروف عن القواميس، فهنا شبكة تُرى من خلالها حياة الناس في إحدى القرى جنوب الصين، إنّ «رواية» مكوّنة من مائة وخمسة عشر مدخلاً، يفسر كلّ مدخل شاب من الشباب المتعلّم، الذين أرسلوا إلى المناطق الريفية، أو انضموا إلى القوات من أجل الزراعة والتنمية والدفاع عن المناطق الحدودية منذ العام ١٩٥٠ إلى نهاية الثورة الثقافية، ومعظم هؤلاء الأشخاص حاصلون على تعليم ثانوي أو متوسط.

تسرّد الرواية وصفاً حقيقياً للحياة الريفية الشائعة في الصين، وتعكس الوضع الحقيقي لنضال الأمة الصينية وكفاحها من أجل البقاء، كما تُظهر الجانب الآخر للثقافة الصينية التقليدية. وتختلف شروح الكلمات عن شروح القاموس الشائعة، إذ يمتدّ معناها إلى ما

وراء الكلمات، إلى قصصٍ وشخصياتٍ وأحداثٍ تتشابكُ مع خلفية العمل التاريخيَّة، وإلى تعاملِ الشخصيات مع مصطلحاتٍ شاعت في هذه الفترة مثل «حملة إصلاح الأراضي الزراعية»، «مُلاك الأراضي الطغاة»، «التعاونيات»، «كومونات الشعب»، «التطهيرات الأربعة» و«الثورة الثقافية».

وحدة العقل البشري

تُعَدُّ رواية «قاموس ماتشياو» من أبرز وأهم أعمال الكاتب هان شاو غونغ، وحين نُشرت العام ١٩٩٧ اتهمه البعض بسرقة فكرة عمله من كتاب آخر صدر العام ١٩٨٤ بعنوان «قاموس الخَزَر» للكاتب الصربي الراحل ميلوراد بافيتش؛ وقد وُصِفَ هذا العمل حين صدوره بـ «الرواية المعجمية» ويدل الوصفُ على ما فعله بافيتش، بسرّد قصة شعب الخَزَر من خلال اللغة الصربية السيريلية، ودفاعاً عن عمله احتكم الكاتب هان شاو غونغ إلى القضاء، وأثبت أنَّه لم يقرأ رواية «قاموس الخَزَر» ولم يطلع عليها قبل تأليف روايته «قاموس ماتشياو»، وإن كان ثمة دلالة هنا، فإنها قد تعني وحدة العقل البشري، في قدرته رغم اختلاف اللغات التي يتحدث بها البشر، على ابتكار الأفكارِ نفسِها، ولا يعني ذلك -هنا تحديداً- أنَّ كاتباً سرق من كاتبٍ آخر، كما هو الحال في تاريخ السرقات الأدبية.

وفيما تُرجمت رواية «قاموس الخَزَر» إلى نحو ثلاثين لغة، ليس من بينها اللغة العربية، فإنَّ هذا الكتاب هو الترجمة الأولى والوحيدة حتى اليوم، لرواية «قاموس ماتشياو» عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية،

ويمكننا القول إن كلا العاملين من الأعمال النادرة في الأدب العالمي بشكل عام، التي تعتمد على مفهوم القاموس لكتابة عمل إبداعي روائي.

العامية والقاموس

إذا كان القاموس يشير في العادة إلى لغة معيارية أو فصحي، فإن ذلك لا يعني أن اللغة العامية أو اللهجات المشتقة من لغة فصحي تفتقر إلى قاموس. إن قاموسها متداول وإن لم يكن مدوناً، ويرتبط أكثر بحياة الناس. وبالنظر إلى «قاموس ماتشياو» يمكننا رؤية عناصر سياسية، وأخرى متعلقة بالفلكور والعادات الشعبية، وحياة الريف اليومية. ويحيط الراوي بصور من فترات زمنية مختلفة، لتعكس الحكايات المتوارية في الشكل السردي لقاموس حياة أهل ماتشياو، تاريخهم، ثقافتهم، أنماط تفكيرهم وجغرافيا القرية. وفيما يستنبط الكاتب من الكلمات قصصاً ذات حس أدبي، فإن بعض الكلمات مفردات وهمية من تأليف الكاتب، مثل كلمة «دوار الشارع». وتثير رواية «قاموس ماتشياو» جدل الفصحي والعامية في الإبداع؛ وعن علاقته بذلك واستخدام العامية يقول الكاتب هان شاو غونغ:

«بدأ اهتمامي باللهجات في أوائل الثمانينيات، ولم يكن لذلك علاقة بتوظيف الملابس الغربية، أو العادات والتقاليد الدخيلة، أو مما هو خارج المؤلف، كما لم يكن له علاقة بتوظيف مفهوم الاستشراق، وهو ما أراه غير صحيح في رأيي. هناك مدخل في هذه الرواية وهي (امرأة الحلم)، إذا كنا مطلعين بشكل كافٍ على لغة أجنبية ما، فربط (امرأة الحلم) بكلمة (lunatic) في اللغة الإنجليزية، يظهر الطبيعة البشرية المشتركة

المخفية في اللهجة، أو التجربة الثقافية المشتركة للبشرية. يستخدم أهل ماتشياو «الحلم» لوصف المرض العقلي، ويستخدم البريطانيون والأميريكيون كلمة (luna) كأصلٍ لكلمة المرض العقلي، وقد لاحظوا العلاقة بين الليل والحالة العقلية، هل هذه محض مصادفة؟ مثال آخر هو (الشعلة)، وهو مفهوم مجرد جداً في لهجة ماتشياو، أنت تقول (الشعلة) متقدة، وأقول أنا (الشعلة) خافتة؛ ويُقال إن المتعلمين شعلتهم متقدة، والمرضى شعلتهم خافتة، ماذا تعني هذه العبارات؟».

وبما أن استخدام اللغات العامية أو اللهجات يقتصر على مجموعات بشرية محددة أو محدودة، فهل يلقي استخدامها في الكتابة نجاحاً، قياساً باللغة المعيارية أو الفصحى؟ يجيب الكاتب:

- «ترسخ الكثير من الحكمة الشعبية في اللغة العامية، لذا فهي تُعدُّ مصدراً لغوياً جيداً بالنسبة لنا، لكن لا بُدَّ من عدم المبالغة في استخدامها، لأنَّ الإفراط سيشكل عقبات في القراءة، وقد يعيق التواصل بين المؤلف والقارئ أو حتى انقطاعه، لذا عليك أولاً أن تكون انتقائياً أثناء استخدامها، وثانياً عليك الاستفادة من ثراء بعض اللغة العامية الجيدة بطريقة أفضل، والبحث عن مزاياها وتجنب عيوبها».

تُلقي إجابة الكاتب هان شاو غونغ ضوءاً إضافياً على هذه الرواية، إذ يأخذنا الكاتب في رحلة مع الكلمات التي قد يقتصر استخدامها على القرية، أو قد يشيع استخدامها خارجها كذلك، ما يكشف عن العادات المحلية في الريف، وقصص القرويين، والفترة التاريخية، في حكايات تتقاطع بين الريف والمدينة، بين فترة الثورة الثقافية وحتى ما بعد الإصلاح والانفتاح.

مكتبة

t.me/soramnqraa

اللغة قفزةً عاليةً تنوءُ بثقلِ الحقائق

إن كان الكاتب هان شاو غونغ ابتكرَ شكلاً لروايته هو القاموس، فإنَّه ابتكرَ كذلك ما يرى أنَّها كلماتٌ جادةٌ حسب تعبيره في حوارٍ معه، أو كما قال أيضاً في الحوار ذاته «مزيجٌ من الحقيقة والخيال» ويضربُ مثلاً على ذلك بكلمة «دُوارُ الشارع» قائلاً:

- «لا يمكن قبول هذا النوع من الخيال من قِبَل القراء إلا إذا كان له أساس معين في الحياة الواقعية، ويتوافق بشكل عام مع قوانين علم اللغة. هناك كلماتٌ في اللغة الصينية مثل (دُوارُ السيارة)، و(دُوارُ البحر)، و(الحنين إلى الوطن)، تُقابل كلماتٍ في اللغة الانجليزية مثل (دُوارُ السيارة carsick)، (دُوارُ البحر seasick) و(الحنين إلى الوطن homesick) وبهذه الطريقة، ربما يكون من المعقول اختراع (دُوارُ الشارع)، وفقاً لقانونِ اشتقاقِ الكلمات في اللغة الصينية أو الإنجليزية».

ونفهمُ هنا أنَّ اللغة قفزةً عاليةً تنوءُ بثقلِ الحقائق، أو ببساطة ما يمكن أن نفهمه عن علاقة اللغة بالواقع أو بالحياة، وهو الإطار الذي يحكمُ اشتقاقَ كلماتٍ جديدة، وفي هذا السياق يقول هان شاو غونغ:

- «تأتي هذه الكلمات الجديدة أيضاً من خبرات الحياة؛ لقد رأيتُ العديدَ من المزارعين الذين لا يريدون الذهاب إلى المدينة، ولا يجرؤون على ركوب سيارة، يَتَقَيَّأُونَ عندما يشمُّون رائحة البنزين، يسلكون طريقاً بعيداً عن محطة الحافلات إن رأوها. إنَّ مجتمع الفلاحين الصغير عرضةٌ لهذه الظاهرة الفسيولوجية، ويمكن لنمط الحياة الاجتماعية طویل المدى أن يغير الوظيفة الفسيولوجية للشخص».

وحين علّق مُحاوره قائلاً: «في الواقع، نحن من «تغيرنا».. لقد تكيّفنا مع المدينة». قال هان شاو غونغ: «أجل، لقد تغلبنا على دُوارِ الشارع».

البحث عن الجذور

وُلِدَ هان شاو غونغ - الكاتبُ والمترجم والأستاذ في جامعة هونان العام ١٩٥٣، في مدينة تشانغشا، بمقاطعة هونان. وفي العام ١٩٨٥، دعا إلى ما يُعرف بـ«أدب البحث عن الجذور»، ونشر مقالاً بعنوان «جذور الأدب» في مجلة «الكاتب» العدد الرابع عام ١٩٨٥. لقيت رواياته القصيرتان «أبي، أبي، أبي»، و«المرأة، المرأة، المرأة»، وكذلك قصته القصيرة «سأعود» استجابةً حماسية، وأعيدَ طبعُها.

نال جوائز عدة داخل الصين وخارجها: جائزة القصة القصيرة المتميزة دورة العام ١٩٨٠ ودورة العام ١٩٨١، وسام فارس الفنون والآداب من وزارة الثقافة الفرنسية العام ٢٠٠٢، جائزة لوشون في دورتها الرابعة، جائزة نيومان للأدب الصيني في دورتها الثانية العام ٢٠١١، عن روايته «قاموس ماتشياو». تُرجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة. كما تَرَجِمَ إلى اللغة الصينية رواية «كائن لا يُحتمل خفّته» لميلان كونديرا، و«كتاب اللاطمأنينة» لفيرناندو بيسوا.

اللعبةُ الخطيرةُ والجميلةُ أيضاً

- «اللغة هي لغة الإنسان، قدّمت الإنجازات اللغوية المختلفة حتى الآن للبشر أدوات لفهم العالم، وعززت وعينا الثقافي، لكن المعرفة لم تنتهِ. إنّ العلاقة المعقدة بين اللغة والحقائق، وكذلك بين اللغة والحياة،

تسبب الحيرة والاضطراب لمشاكل البشر في العصر مرارًا وتكرارًا. وفي هذا الكتاب، يحاول الكاتب التركيز على الأشخاص والأشياء وراء الكلمات، وتوضيح معنى ووظيفة بعض الكلمات في الحياة الواقعية، وفضل التأكيد على العلاقة الوثيقة بين اللغة والحقائق، في محاولة للتماس مع جوهر الحياة في اللغة».

والاقتباس السابق للكاتب هان شاو غونغ، من مقدمة الطبعة الصينية لروايته «قاموس ماتشياو» ولعلَّ اقتباساً آخرً للكاتب يكون ذا مغزى في فهم علاقته باللغة، يقول:

«العلاقة بين اللغة والحقائق ليست فقط لعبة خطيرة للغاية، ولكنها أيضًا لعبة جميلة جدًا. طول الرواية وقصرها ونجاحها وفشلها يكمن هنا، بالمعنى الدقيق للكلمة، بعد وصف أي حقيقة باللغة، فإنها تنفصل عن الحقيقة. أين ذهبت الحقيقة؟ يمكنك الاقتراب منها، لكن لا يمكنك الوصول إليها في النهاية. في هذه الحالة، ليس لدينا «حقائق»، ولكن لدينا فقط تعبير عن الحقائق. بعبارة أخرى، التعبيرات المختلفة للحقائق، هي «الحقائق» التي يمكننا الحصول عليها. الشجرة التي تنمو على ورق المسودة، هي في الواقع شجرة في عين الكاتب».

السمكة الكبيرة ورحلة الترجمة:

إن كانت هذه الرواية مغامرةً لمؤلفها، فإنها كانت كذلك في رحلة ترجمتها من اللغة الصينية إلى اللغة العربية، وحينما أقول «اللغة الصينية» فإنني أعني هنا «الماندرين» وهي اللغة التي كان يسأل بها بطل الكتاب بائع الأسماك في هاينان عن نوع سمكة.

تطرح قصة «السمة الكبيرة» أول تحدّ واجهني في ترجمة «قاموس ماتشياو» حيث وردت في النص الأصلي كلمات صينية ليست مُدرجة في القاموس القياسي للماندرين، أو ما يمكن القول إنّها «كلمات عامية صينية»، وتطلّب تدقيق هذه الكلمات.. سياقاً ومعنى.. مناقشات مع المؤلف ومع أصدقاء صينيين. وعموماً، فإنّ فهم الكلمات العامية الصينية، واختيار المفردات والكلمات المكافئة لها في اللغة العربية، كان التحديّ الأهمّ في ترجمة هذا الكتاب.

كما كان من الأهمية الشديدة مراعاة فهم المفردات في اللغة الصينية والاختلافات بينها، واختيار المرادف أو المعنى الأقرب لها في اللغة العربية، وإضافة الكلمة باللغة الصينية، أي الكلمة مكتوبة بالرموز وطريقة نطقها وشرحها حيثما وردت في الرواية، لإيصال المعنى المراد للقارئ ومنعاً للالتباس. وأودّ الإشارة إلى أنّه بخلاف كتابة الرموز الصينية وطريقة نطقها، سيرد أيضاً ذكر للنغمات في اللغة الصينية سواء الصينية الكلاسيكية أو الحديثة، مثل النغمة الأولى (مستوية)، النغمة الثانية (صاعدة)، النغمة الثالثة (هابطة ثم صاعدة)، والنغمة الرابعة (هابطة).

وكان من ضمن ذلك استشارة القاموس (قاموس المفردات الصينية)، و(قاموس الصينية - الإنجليزية) و(قاموس الصينية - العربية) للوصول إلى مرادف أو معنى للكلمة يحمل المعنى الظاهري ويتخطاه إلى المعنى الضمني وامتداداته مثل مدخل «كسب غير مشروع». واللغة الصينية كما اللغة العربية، وكما لغات أخرى في العالم، يتضمن قاموسها كلمات لها منطوق واحد وأكثر من معنى، الأمر الذي تطلّب -عدا فهم معنى

الكلمات العامية الصينية- فهم المعنى المحدد للكلمات معينة في سياق النص. وأشير كذلك إلى أنني في رحلة ترجمتي لرواية «قاموس ماتشياو» كنتُ أعود أحياناً للترجمة الإنجليزية للرواية، لأرى كيف عاجلت المترجمة «Julia Lovell» مداخل ترجمة بعض الكلمات، كما أُشير كذلك إلى أن الترجمة الإنجليزية لا تتضمنُ فصولاً من النص الصيني، فيما استوفت الترجمة العربية هذه جميعَ فصول الرواية.

إن كانت قصة «سمكة كبيرة» تتصل بازدواج الخطاب بين لغة فصحي «الماندرين» وأخرى عامية «لهجة أهل هاينان» فإن ذلك يعني الرواية كلّها، في إحالتها إلى «قاموس ماتشياو» ليس ككلمات فقط، وإنما كمضامين ثقافية واجتماعية وتاريخية، ولجلاء هذه المضامين، كان لا بُدَّ من القراءة عنها، لترجمتها بشكل صحيح، أو لوضع هوامش شارحة لها. وفي ترجمة أي عمل من أي لغة، تشكّل المضامين الثقافية والاجتماعية والتاريخية تحدياً واجباً للمترجم. وفي رحلة الترجمة واجهتُ هذا التحدي بالقراءة عن الثورة الثقافية، الحرب الأهلية في الصين، وحرب المقاومة ضد اليابان، واطلعت على صور للريف الصيني خلال الفترة الزمنية للرواية، كما قرأتُ عن الأدوات والمعدات المستخدمة في الزراعة. أي كان الأمر «بحثاً معرفياً» للخلفيات والإحالات والمضامين الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي استندت إليها الرواية.

وأخيراً أودُّ الإشارة إلى أنني استشرتُ الكاتب «هان شاو غونغ» في ترجمة وضبط الكثير من العبارات والكلمات العامية، ودارت بيننا مراسلاتٌ واقتراحاتٌ للاتفاق على صياغاتٍ ومعاني لضبط النص. وأودُّ هنا أن أشكر الكاتب على سعة صدره وسرعة استجابته وتعاونهِ،

كما أشكر جميع الأصدقاء الصينيين الذي استشرتهم لكي تكون الترجمة دقيقة نصّاً ومعنى.

ولقراء هذه الرواية في ترجمتها العربية، أقول، إن كل قارئ سوف يكتشف أن لديه «سمكة كبيرة» يحتفظ بها في لهجته المحلية، ولعلّ تلك السمكة هي جذر اللغة في كل منطقة من مناطق العالم، وهي الإحالة على ما يملكه البشر جميعاً من مضامين ثقافية واجتماعية وتاريخية تشكل الحياة البشرية منذ القدم وحتى اليوم وفي المستقبل كذلك.

يارا المصري

الشخصيات

- الوزير أسود: اسمه الحقيقي مو جي شينغ، أحد الشباب المتعلمين الذين أرسلوا إلى الريف.
- ما بن رن: أحد أهالي ماتشياو الذين فرّوا إلى جيانغشي.
- شي العصا الطويلة: رجل مجهول الهوية من أهل ماتشياو.
- مامينغ: أحد «الملوك الأربعة السماويون» في ماتشياو.
- ما بن يي: سكرتير مكتب فرع الحزب الشيوعي في قرية ماتشياو.
- وان يو: أمهر شخص في «أداء الأغاني» في ماتشياو.
- شيونغ شي: ابن تجي هوانغ وشوي شوي.
- شوي شوي: زوجة تجي هوانغ، ووالدة شيونغ شي.
- المدير خي: كادر من كوادر الكومونة.
- داي شي تشينغ: يطلق عليه الناس «الأجربة التسعة»، وهو حمو بن يي.
- غوانغ فو: معلم التربية الرياضية، من مثقفي ماتشياو.

- ماون جيه: لقبه «النَّدْبَة ما»، والد غوانغ فو، شخصية عظيمة في تاريخ ماتشياو.
- ما تزي يوان: والد بن يي.
- فوتشا: من طلاب المرحلة المتوسطة في ماتشياو، محاسب.
- ماو غونغ: مالك أراضي خائن للصين، وكان رئيسَ لجنة الحماية.
- يان تراو: ابن ماو غونغ الأكبر.
- مينغ تشي: عم فوتشا.
- وان شان هونغ: الأخ الأكبر وان، المعلم وان، لجنة الدعاية وان، من كوادر الكومونة.
- تجي هوانغ: من أهالي ماتشياو «الغاليين» (الحمقى)، نحات.
- تبيه شيانغ: زوجة بن يي، ابنة داي شي تشينغ.
- الأذان الثلاث: أحد «الملوك الأربعة السماويون» في ماتشياو، ابن تجاو تشينغ.
- تجونغ تشي: أحد الـ «فمّ أوه إيه»، ويُلقَّب بـ «ما معتمد».
- شينغ تشيو: ابن بن يي وتبيه شيانغ.
- العم لوه: «أب الوردة الحمراء» أعزب طيلة حياته، وكان عمدة قرية ماتشياو.
- تجاو تشينغ: والد الأذان الثلاث وكوي يوان.
- كوي يوان: ابن تجاو تشينغ الأصغر.
- يان وو: ابن ماو غونغ الأصغر، أخ يان تراو.

مداخلُ القاموس/ فصولُ الرواية

النهر 江

نهرُ لُوَه 罗江

الهمج (وهمجُ أسرة لُوَه) (以及罗家蛮) 蛮子

الثالثُ من الشهرِ الثالث 三月三

قوسُ ماتشياو 马桥弓

الرفيقُ القديم 老表

حلو 甜

صبغةُ اليود 碘酊

خشونة 乡气

القدرُ نفسُها 同锅

وَضَعُ القدر 放锅

الأخُ الأكبرُ الصغيرُ (وآخرون) (以及其他) 小哥

منزلُ الخالدين (والكُسالي) (以及烂杆子) 神仙府

العلم 科学

اليقظة 醒

النوم 觉

أداء الأغاني 发歌

إصابة الأحمر 撞红

رجل التشو تشو 觉觉佬

لي.غي.لانغ 哩咯啲

التنين 龙

التنين (تتمة) (龙(续)

عَفْرِيتُ الْقَيْقَبِ 枫鬼

يرغب 肯

الحياة العزيزة 贵生

وضيع 贱

امرأة الحلم 梦婆

لاصق - يلتصق 𩶛

بذيء (والمنظار) (以及穿山镜) 下

الأراضي المذكرة (والحقول الموثنة) (以及母田) 公地

ثقب الطمث 月口

الأجرية التسعة 九袋

تبدد 散发

في الحال 流逝

النّبة «ما» (والعام ١٩٤٨) (以及 1948 年) 马疤子

الشعائر الطاوية 打醮

打起发 كسبٌ غيرُ مشروع

马疤子(续) (تتمة) «ما» النَّدْبَةُ

荆界瓜 قرعُ أرضِ العُلّيقِ

一九四八年(续) (تتمة) العام ١٩٤٨

军头蚊 بعوضُ الجيشِ

公家 العائلةُ العامة

台湾 تايوان

浆 عصيدة

汉奸 خائنٌ للصين

冤头 السُّخَطُ

红娘子 المرأةُ القرمزية

渠 هذا هو

道学 الكونفوشية

黄皮 الجلدُ الأصفر

晕街 دُوارُ الشارع

颜茶 الشاي المُلَوّن

夷边 الأنحاءُ الأجنبية

话份 حقُّ التعبير

满天红 السماءُ الحمراء

格 أهلية

煞 نفوذ

ابنُ آوى الشرس 豺猛子

الغالي 宝气

الغالي (تتمة) (续) 宝气

رقصةُ الأسد 双狮滚绣球

الرئيس هونغ 洪老板

الشعراتُ الثلاث 三毛

وُلِدَ في الحظيرة 挂栏

أمطار تشينغ مينغ 清明雨

فظةٌ 不和气

الروح 神

فظةٌ (تتمة) (续) 不和气

ظهورٌ مثبتةٌ بالمسامير 背钉

جذر 根

ركوبُ العربة 打车子

فمٌ.. أوه إيه 呀哇嘴巴

«ما» مُعْتَمَد 马同意

القريبُ الشبح 走鬼亲

الشعلة 火焰

أبُ الوردةِ الحمراء 红花爹爹

الرجلُ المسن (والخ) (以及其他) 你老人家

طعام (كما يُستخدَمُ في الربيع) (春天的用法) 茹饭

العاملُ النموذجي (كما هو مُستخدَمُ في الأيامِ الصَّحوة) 模範(晴)

天的用法)

التحدُّثُ بالطاوية 打玄讲

الحالي - الآن - الماضي 现

محظوراتُ الفم (وَقَلْبُ قَدَمَيْكَ) (以及翻脚板的) 嘴煞

طوقُ العشبِ المعقود 结草箍

سؤالُ الكتب 问书

الوزير أسود 黑相公

الوزير أسود (تتمة) (续) 黑相公

طحنُ اللعنات 磨咒

الثواني الثلاث 三秒

جوهرةُ يَشْمِ الخس 葛玮

تقديمُ الكرمة 放藤

العابرُ المسن 津巴佬

الدماغُ المُحَطَّمُ (وغيرُها) (以及其它) 破脑

مَلامحُ تثيرُ الشفقة 怜相

تُرْبَةُ الأَسنانِ القرمزية 朱牙土

ينتهي البستان 罢园

الأرواحُ الطافية 飘魂

مُسْتَرخ 懈

الأبخرَةُ الوبائيةُ للعشبِ الأصفر 黄茅瘴

التأكيد على الأسماء 压字

كسولٌ (كما يستخدمها الرجال) (男人的用法) 懶

غشاء فقاعةٍ (والخ) (以及其它) 泡皮

زنزانة الديموقراطية (كما يستخدمها المدانون) (囚犯的用法) 民主仓

تيان آن مين 天安门

وحشي 狠

الموهبةُ الغريبة 怪器

تناسخُ الأرواح 放转生

جاردينيا أو ياسمين 梔子花，茉莉花

كوي يوان 亏元

فتحُ العيون 开眼

إيقافُ الجثة 企尸

آه 嗯

إخوةُ القَدْرِ المنفصلة 隔锅兄弟

البدايةُ (النهاية) (归元) (归完)

كلامٌ فارغ 白话

طريقُ المسؤولين 官路

حاشية 后记

النهر

يُنطَقُ «النهر» عند أهلِ ماتشياو «gang»، ويُشيرُ إلى جميعِ الممراتِ المائية، بما فيها الجداولُ والقنواتُ الصغيرة، لا يقتصرُ فقط على الأنهارِ الشاسعة، مثلما يُطلقُ أهلُ الشمالِ «بحر» على البحيراتِ والمستنقعات، التي يكون وقعُها غريباً على أهلِ الجنوب. يبدو أنَّ الاهتمامَ بمسألةِ المساحةِ أمرٌ تُركَ للأجيالِ اللاحقة.

«river» «النهر» و«stream» «الجدول»، مُقسَّمٌ في اللغةِ الانجليزيةِ حسبَ المساحة. أمّا في فرنسا المُطلّة على بحرِ المانش، فإنَّ «Heuve» تشيرُ إلى النهرِ الذي يصبُّ في البحر، وتشيرُ «riviere» إلى نهرٍ داخليٍّ أو رافدِ نهرٍ آخر، ولا علاقةَ لهما بالمساحة. ويبدو جليّاً أنَّ ثمةَ العديد من النظرياتِ المختلفةِ حولَ تسمياتِ الأشكالِ المائيةِ الأربعةِ في مناطقِ العالم، وليس هناك تطابق بين تسميةٍ وأخرى.

فهَمَ أهلُ ماتشياو المساحةَ فيما بعد، إلّا أنهم لم يُولوا اهتماماً كافياً لها، بل أحدثوا تغييراً بسيطاً في النغمة. فإن نُطِقَت كلمةُ «النهر» بنغمةٍ مرتفعةٍ مستوية، فإنَّها تشيرُ إلى النهرِ الكبير، وإن نُطِقَت بنغمةٍ قصيرةٍ وسريعة، فإنَّها تشيرُ إلى الجداولِ والوديانِ الصغيرة، وعلى الغريبِ أن

يسمع الكلمة لفترة كافية كي لا يخطئ معناها. وقعت في الخطأ ذاته عندما وصلت إلى ماتشياو، وذهبت إلى النهر حسب إرشادات السكان المحليين مُفعماً بالفرح، لأكتشف عند وصولي أنَّ النهر أمامي ضيقٌ إلى حدٍّ أنَّ بوسعي العبور من ضفة لأخرى بخطوة واحدة. كانت هناك أعشابٌ مائيةٌ سوداء، وأفَاع مائيةٌ تختفي في لمح البصر، ليس مناسباً على الإطلاق للسباحة أو الاستحمام.

«النهر» الذي يُنطقُ بالنعمة القصيرة والسريعة ليس «النهر» الذي يُنطقُ بالنعمة المرتفعة والمستوية. وبينما أسيرُ بمحاذاة النعمة القصيرة والسريعة لفترة، أدخلُ إلى خريِر الماء، ثم أدلفُ إلى سكونِ المياه، ثم أدخلُ إلى الخريِر مرةً أخرى، ويغمُرُ جسدي شعور بالتفكك والالتام، يختفي ويعاودُ الظهورَ باستمرار. صادفت رجلاً مُسنّاً يرعى الماشية، وقال لا تنخدع بضيق هذا النهر، كانت مياهه في الماضي زيتية وقابلةً للاحتراق إلى حدٍّ أنَّه يمكنُ استخدامها في إشعالِ القناديل.

نهر لُوِه

تصبُّ مياه ماتشياو في نهر لُوِه، الذي يبعدُ عن القرية مسيرة نصفِ يومٍ. كان هناك قاربٌ تجديفٍ صغيرٍ لعبورِ النهر، فإذا لم يكنِ المراكبيُّ موجوداً، فبوسعِ عابري النهرِ استخدامِ القاربِ بمفردهم، أما إذا كان موجوداً، فأجرةُ عبورِ الشخصِ خمسةُ فنٍ^(١). يسحبُ القاربُ إلى الجهةِ الأخرى، ويثبتُ عصا الزانةِ في مقدمته، ويقف على الشاطئِ لجمعِ الأجرة. يبللُ كلُّ تذكرةٍ بلعابه، وبعد أن يجمع عدداً كبيراً من التذاكرِ يضعُها في قُبْعَةٍ صوفيةٍ بالية، ويثبتُها جيداً على رأسه. هكذا يجمعُ أجرةَ عبورِ النهرِ في الشتاءِ أو الصيفِ. وفي الواقعِ تكونُ صفحةُ الماءِ صيفاً أكثرَ اتساعاً والتيارُ أشدَّ سرعة، تغمرُ المياهُ الطينيةُ الصفراءُ الأرجاءَ في مواسمِ الفيضان، وتطمسُ انعكاسَ صورِ الأشياءِ عليها، وتدفعُ بأكوامِ وأكوامِ من القاذوراتِ إلى الشاطئِ، بينما ينتشرُ زبدٌ عطنٌ في المواضعِ الضحلةِ تنبعثُ منه رائحةٌ كريهة. إلّا أنَّ الناسَ يصبحون أكثرَ عدداً على الشاطئِ في تلكِ الأوقات، يقفون بإصرارٍ في انتظارِ الدجاجِ والخنازيرِ

(١) فنٌ: وحدة من العملة الصينية. (المترجمة).

«جميعُ الهوامشِ في الكتاب من وَضَعِ المترجمة».

النافقة الطافية من أعلى النهر، وطاولات مكسورة أو طسوت خشبية قديمة، أو ألواح متناثرة من الخيزران، فيتشلونها ويعودون بها إلى المنازل، وهذا ما يُسمَّى الحصول على الثروة من الفيضان.

وبالطبع، يكون هناك جثمان امرأة أو طفل انتفخ إلى كرة لحم بيضاء ضخمة، يتدحرج مع الأمواج ويُحْدَقُ بعيونٍ خاوية تبعثُ الخوفَ في الناس فيهربون.

يحمل الأطفال الأكثر شجاعة، عصياً طويلةً من البامبو ويلكزون باستمتاعٍ كرات اللحم البيضاء المنتفخة.

كان الناس عند شاطئ النهر يصطادون السمك، أو يُنزلون الشباك أو الخطافات. رأيتُ ذات مرة مجموعةً من النساء تمشي أمامي، ولم أكن قد وصلتُ إلى النهر بعد، وفجأةً التفتن وركضن وهنَّ يصرخن مذعورات، كأنَّ أمراً ما قد حدث. وعندما أمعنْتُ النظرَ من حيث عُدن، وجدتُ أنَّ كلَّ الرجالِ كباراً في السِّن كانوا أو شباباً، حمَّالين أو رعاة ماشية، قد خلعوا بناطيلهم في لحظة، وقفزوا بمؤخراتهم العارية في النهر صارخين، وحينئذٍ تذكَّرتُ أنَّ الصوتَ المكتومَ الذي سمعته منذ قليل كان صوتَ مفرقات، استخدمت في الماء لقتل الأسماك، بعد صدور الصوت المكتوم، خلعوا بناطيلهم حتى لا تتبلَّل وقفزوا لانتشال الأسماك. كما لم يظنُّوا أنَّ هذا الفعل المفاجئ السريع سيخيفُ أيَّ شخص.

خلال السنوات الست التي قضيتها في قرية ماتشياو، لم تكن علاقتي وثيقةً بنهر لُوِه، إذ كنتُ أعبرُهُ في بعض الأحيان فقط أثناء ذهابي ماشياً إلى مركز المحافظة. وبالحديث عن عبور النهر، فقد كانت الخمسة

فإن مشكلة كبيرة، إذ لم يكن «الشباب المتعلم» يملك الكثير من النقود، وما أن يجتمع الرجال حتى تدهمهم رغبة في أن يكونوا طغاةً ومستبدّين كالغزاة اليابانيين^(١)، ودائمًا ما نريدُ التهرّب من دفعِ أجرة عبورِ النهر.

كان ثمة شاب يُلقَّب بـ«الوزير أسود»، وكان بطلاً في هذه الأمور، إذ بعد الوصول إلى الضفة المقابلة يتظاهرُ بأنّه أحدُ العمال السريّين الذين يهبّون لمساعدة الآخرين، ويغمزُ لنا لنسير إلى الأمام، ليكون هو المسؤول عن دفع الأجرة.

كان يلمسُ جيّبه الأيسر، ويقبُضُ جيّبه الأيمن إلى الخارج، وبعد أن يماطلُ بما يكفي ويرانا ابتعدنا، حينها فقط يظهرُ على وجهه المكرُّ قائلاً إنّهُ لا يملكُ نقوداً، حتى وإن كان لديه نقود فلن يدفع الأجرة، أيها السلحفأة المسن، ماذا ستفعلُ إذن؟ بعدها يركضُ ويلوذ بالفرار، معتقداً أنّه لاعبُ كرة سلة، وأنّ المراكبيّ لن يلحقه مهما كان. لكنّه لم يتوقع أنّ السرعة لا تمثّل للرجل أيّ مشكلة، فقد حملَ زانته وانطلقَ خلفه، ورغم بُطئه في الركض وابتعاده عنا شيئاً فشيئاً، فإنّه لم يتوقف عن ملاحقتنا، طاردنا لمسافة لي^(٢)، اثنين لي، ثلاثة لي، أربعة لي..... إلى أن ترنّح كلّ منا يميناً ويساراً لاهثين وسالّ لعابنا، كانت النقطة السوداء لا تزال تصيحُ فينا من بعيد. وكان الجميع واثقاً من أنّ المراكبيّ ما لم يقتله فلن يستعيد الثلاثة جياو^(٣) أجرة القارب، حتى وإن ظلّ يلاحقه بالزانة حتى الأفق فلن يعود أدراجه. كما لم يكن المراكبيّ ذكياً مثلنا على الإطلاق، إذ لم يفكر

(١) تسمية الشعب الصيني للعدوان الياباني في حرب المقاومة ضد اليابان.

(٢) لي: وحدة مسافة صينية تساوي نصف كيلومتر.

(٣) جياو: عُشر يوان أو عشر فن.

كم هو مؤسفٌ ألا يَضَعُ في اعتباره نقودَ الأجرة أو فقدانه القارب، أو أنه ترك مجموعةً من الزبائن عند ضفةِ النهر.

لم يكن أمامنا إلا أن نجمعَ النقودَ مدعنين، ونرسلَ «الوزيرَ أسود» لتجنبِ المتاعبِ لاحقاً. من بعيدٍ رأيتُ الرجلَ يعيدُ له الفكّة، وفمه يُفَتِّحُ ويُغَلِّقُ، على الأرجح كان يشتم، ولم تصلنا أيُّ جُمْلَةٍ بسببِ اتجاهِ الريحِ المعاكسِ.

لم أرَ هذا الرجلَ مرّةً أخرى. وحين بدأت حركةُ كَشْفِ المُعَادِينِ للثورة، أَصْبَحْتُ إحدى بنادِقنا محورَ التحقيق. حصلنا على الأسلحةِ في المدينةِ أثناءِ الثورةِ الثقافية، وبعد أن نفدتُ طلقاتها رفضنا التخلي عنها، فجلبناها سرّاً إلى الريف. وخشينا بعد انتشارِ الشائعاتِ أن نُتهمَ بحيازةِ السلاح، فكلّفنا الوزيرَ أسودَ بإلقاءِ البندقيةِ في النهرِ أثناءَ عبوره، واتفقنا على أن نُبقي الأمرَ بيننا ونكتُم السرَّ كزجاجةٍ مغلقة، ولا أعرفُ تحديداً إلى الآن كيف كُشِفَ هذا الأمرُ.

يؤسفني فقط أنني ظننتُ نفسي ذكياً، واعتقدتُ أن إلقاءَ البندقيةِ في النهرِ يعني أننا تعاملنا مع الأمرِ بطريقةٍ جيدة. لكن لم يخطر ببالنا أن الجهاتِ المعنيةَ من المُحالِ أن تغلِقَ التحقيقَ بسببِ فقدانِ هذهِ البندقية، بل على العكس، ظنُّوا أننا خبأنا هذا السلاحَ لغرضٍ خفي. وبعد استجواباتٍ واعترافاتٍ لا نهائية، تحمّلنا حتى فصلِ الشتاءِ إلى أن تراجعَت مياهُ نهرِ لُوِه، وكُشِفَتُ مساحةٌ شاسعةٌ من الرمال. فحملنا رؤوسَ مدمّاتنا^(١)، وحفرنا بإخلاصٍ حيثُ أُلْقِيَتِ البندقيةُ لاستخراجِ

(١) مشط الأرض أو مشط التربة وهو على شكل شوكة.

براءتنا. حفرنا في الشاطئ لمدة خمسة أيام، واتسعت مساحة حفرنا، حتى
كدنا نحرق الأراضي الزراعية الخصبة الشاسعة للكومونة الشعبية في
البرد القارس، ورغم ذلك لم نسمع أي صوت اصطكاك معدني بمدامتنا.
لا يمكن أن تجرف المياه بندقية ثقيلة كهذه، ولا يمكن أن ينتشلها
أحد من قاع النهر. المثير للاستغراب: أين ذهبت؟
لا يسعني إلا أن أشك في أن هذا النهر الغريب يضمّر لنا نية شريرة،
وأنه يريد الزج بنا في السجن لسبب نجهله.

في ذلك الوقت فقط شعرنا بغموض هذا النهر، وكانت المرة الأولى
التي نضعه في اعتبارنا. كان مغطى بأول تساقط لثلوج الشتاء، ينعكس
على سطحه ضوء أبيض باهر، كأن ميضاً أضاء العالم فجأة وتجمد هناك
لفترة طويلة. كان ثمة آثار أقدام باهتة على الشاطئ، جعلت طيوراً مائية
عدة تحلق صعوداً وهبوطاً باضطراب وبسرعة جنونية، تنزل أحياناً على
الجليد ما يصعب تمييزها، وأحياناً تظهر من حيث لا أتوقع، وتعبّر في
خطوط بيضاء صفحة الماء الضيقة ذات اللون الأخضر القاتم. بدأت
عيناى تذرفان الدموع في هذا الوميض الأبدي.

لم يعبر أحد النهر، واستبدل المراكبي المسن برجل متوسط العمر
أكثر شباباً، يجلس القرفصاء عند الشاطئ لفترة واضعاً يديه في كمّي
قميصه، ثم يعود أدراجه.

التفت ورأيت ضفة النهر لا تزال خالية.

الهمج (وهمجُ أسرة لُوِه)

من الشائع أن يُطلقَ على الرجالِ متوسطي العمر «الرجالُ الأقوياء» - 汉子 - وتُنطقُ «hànzi». واعتاد أهلُ ماتشياو أن يطلقوا على الرجالِ «همج» أو «الرجالُ الهمج» أو «همجيُّ الأسرِ الثلاث»، أمّا مصدرُ «الأسرِ الثلاث» فمجهول. هناك مقولةٌ قديمة: «رغم أنه لم يتبقَّ سوى ثلاثِ أسِرٍ في مملكةِ تشو، فإنَّ مملكةَ تشين لا بد أن تُهزم»، و«الأسرُ الثلاث» المذكورةُ لا تشيرُ تحديداً إلى الرجال.

من غير المعروفِ ما إذا كان ذلك تقليداً من تقاليدِ أسلافِ مملكةِ تشو أن تشيرَ «الأسرُ الثلاث» إلى شخصٍ واحد، وأن يكون منوطاً به حملُ رسالةِ «الأسرِ الثلاث». كان لديَّ تصوُّرٌ في السابق: إن كانت سُلالةُ الشخص تأتي من الوالدين، وسُلالةُ الوالدين تأتي من أربعةِ أجداد، وسُلالةُ الأجداد تأتي من ثمانيةِ أجدادِ كبار... فطبقاً لتعاقبِ هذه السلسلة، سيُتاحُ تضمينُ التعدادِ الهائلِ للبشرية في نطاقِ الأسلاف، وهم الأسلافُ المشتركون لكلِّ شخص. ولا تُعد الأمانةُ الجميلةُ في أن يكونَ «الجميعُ في نطاقِ البحارِ الأربعةِ إخوة» كلاماً فارغاً في هذه المعادلةِ الحسابيةِ البسيطة، بل لها أساسٌ فسيولوجي. فنظرياً، كلُّ

شخصٍ هو من نسلِ البشرية، وكلُّ شخصٍ يجمعُ ويلخّصُ العواملَ الوراثيةَ للجنسِ البشري كَلَّةَ عبرَ عشراتِ العقود. إذن فهل كلُّ فردٍ هو مجردُ فردٍ واحدٍ؟ لا يزالُ فرداً واحداً فقط؟ ذكرتُ في مقالٍ سابقٍ أنَّ مفهومَ «الفرد» ليس كاملاً، فكلُّ فردٍ هو أيضاً «مجموعة». وأتمنى أن تكونَ «الثلاث» - في «همجي الأسرِ الثلاث» بلهجةِ أهلِ قريةِ ماتشياو - مرادفاً تقليدياً لكلمة «كثير». وهكذا، سيصبحُ «همجي الأسرِ الثلاث» تقريباً مرادفاً آخرَ لـ «مجموعة»، وسيؤكِّدُ على الخلفيةِ الجماعيةِ للفرد، ويتوافقُ كذلك مع أفكارِ الغربية.

كلمةُ «همج» - 蛮 - وتُنطقُ «mán» شائعةٌ في الجنوب، ولفترةٍ طويلةٍ كانت التسميةُ الشائعةُ لأهالي الجنوب. وفقاً للسجلات، ففي عصرِ الربيع والخريف (٧٠٠ عام قبل الميلاد) كان ثمة مملكةٌ تُدعى مملكةُ لُوِه، أو لُوِه جيا مان. وما ذُكر في «تزوهِ تجوان»^(١): «في السنة الثانية عشرة من حكم لو هوانغ غونغ، انقسم جيش تشو ووصل إلى بينغ، وأراد شعب لُوِه مهاجمتهم»، يعتبرُ أقدمَ دليل. عاش أهلُ دولةِ لُوِه في جنوب غرب محافظة ييتشنغ - مقاطعة هوبي الآن، وكانت مجاورةً لدولةِ «با» من الجهة الجنوبية الغربية، وسُمِّيت لاحقاً مدينة لُوِه تشوان، وذُكرَ هذا في المجلدِ الثامن والعشرين من «شروخُ كتابِ الممراتِ المائية». كانت «لُوِه جيا مان» تُدعى «لُوِه تزي غوا»، وتعتمدُ على نهر بينغ كحاجزٍ طبيعيٍّ للدفاع، وقد تصدَّت لعدو الشمالِ القوي، وعند رؤية جنود مملكةِ تشو يعبرون الجنوب، اضطرت «لُوِه جيا مان» إلى المقاومة والقتال، وحققت نصراً غيرَ

(١) هو عمل من بين الأعمال الصينية الأولى للتاريخ السردى، ويغطي الفترة من ٧٢٢ إلى ٤٦٨ قبل الميلاد، يُعد شروحاتٍ لسجلات الربيع والخريف الصينية القديمة.

متوقع. لكن كان هناك تفاوت كبير في المساحة بين تشو ولوه، وفي النهاية لم تستطع الأخيرة أن تكون نداً لمملكة تشو. قرأنا في كتاب «تزوّه تجوان» أنّ أهل دولة لوه فُروا مرتين؛ المرة الأولى إلى مقاطعة جيجيانغ، التي تُعرف في التاريخ بمسقط رأس «أهل دولة با»، وفُروا في المرة الثانية بعد نحو عشرين عاماً في عهد الملك وين في عصر مملكة تشو إلى شمال مقاطعة هونان، وهي منطقة محافظات يوي يانغ، وبينغ جيانغ، وشيانغ شين الآن. وسُمّي النهر على اسم الشعب، ومن هنا جاءت تسمية نهر لوه.

كان من الصعب تحيّل هذه الهجرة الطويلة للشباب والعجائز في ذلك الوقت. وحسب المعطيات التاريخية، فقد أسّس الأهالي «مدينة لوه» بعد أن وصلوا إلى هنا، إلّا أنّه لا أثر لها الآن. وأظنّ أنّ بلدة «تشانغ لي» التي تقع بمحاذاة نهر لوه هي مدينة لوه قديماً. «لي» و«لوه» متجانستان تقريباً، ويمكن اعتبار ذلك دليلاً؛ هي بلدة صغيرة تقع بجانب النهر عند سفح الجبل، لا بُدّ أن أمرّ بها وأنا ذاهب لجمع الخشب والخيزران. ثمة طريق مرصوف بالأحجار يخترق البلدة كلّها، تنساب أعلاه رائحة الخمر الحلوّة، وتُفضي أصوات القباقيب الخشبية إلى رصيف ميناء رطب وصاخب، وهناك أيضاً أبواب ونوافذ مغلقة، يبدو أن أحداً لن يطلّ منها مطلقاً. ويقول السكان المحليون إنّ عموداً حديدياً أسفل الميناء لا يُرى إلّا حين تنحسر المياه، نُقِشت على جزئه العلوي كتابات بلغة قديمة غامضة. لم أكن مهتماً بعلم الآثار في ذلك الوقت فلم أذهب لرؤيته. أكون مُتعباً كلّ مرّة إلى حدّ أنّ كلّ شيء يُظلم أمام عيني، وبعد أن أشرب طاسة من النبيذ الحلو، أنام على جانب الطريق بملابسي قبل أن أستعدّ للمضي في طريقي. كنتُ أستيقظ مرّاتٍ

عدة بسبب رياح الشتاء القارسة، وما أن أفتح عيني لا أرى إلا النجوم المبعثرة تتراقص فوق رأسي.

إن لم تكن تشانغ لي مدينة لُوِه، إذن ثمة بعض الكلمات المتاحة كمرجع، والتي يحتوي كلُّ منها على مقطع متجانسٍ مع كلمة «لُوِه» مثل: لُوِه بينغ - لُوِه شان - باو لُوِه - تونغ لُوِه دونغ، والتي صادفتُها من قبل. كانت هذه القرى والبلدات المطبوعة في ذاكرتي إلى الآن، تظهرُ في ذهني مصحوبةً بقواعد الحوائط والسلام الحجرية الموغلة في القَدَم، والوميض العابر للمراوغة والحذر في أعين الرجال والنساء.

كان ثمة علاقةٌ وثيقةٌ بين أهل دولة لُوِه وأهل دولة با. فالمثل «أغاني شعب با» شائعٌ للغاية هنا، ويشيرُ إلى أغانيه القديمة. ونهايةُ نهر لُوِه هو «با لينغ - قمة با»، ويُعرفُ حالياً بـيوي يانغ. وذُكرَ في المجلد أربعمئة وثلاثة وتسعين من «تاريخ أسرة سونغ»، في السنة الثالثة من يوان يُوِه، أي في حكم الإمبراطور جي زونغ (العام ١٠٨٨ ميلادي) أنَّ «هيج أسرة لُوِه - لُوِه جيان مان» قد مروا بفترةٍ من التمرد والنهب، ثم سيطرَ عليهم زعماءُ أسلافِ التوجيا، ووُضعَ حدٌ لتمردهم. ويبدو جلياً أنَّ التوجيا وشعب لُوِه كانا متعاونين، كما أنَّ اعتبار شعب التوجيا من نسل «شعب با» قد أصبح رأياً عاماً بين المؤرخين. والدليلُ الآخرُ الجديرُ بالملاحظة، أنَّ ثمة ذكراً لقصص «إخوة وأخوات أسرة لُوِه» في أساطير التوجيا، فيما يبدو أنَّ رابطةً وثيقةً جمعت بين «أسرة لُوِه» وأسلافِ التوجيا.

وما يثيرُ الغرابةَ أنني لم أعثر على قريةٍ أو بلدةٍ على طرفي نهر لُوِه تحملُ اسمَ «لُوِه»، وقلماً سمعتُ أنَّ أحداً يحملُ لقبَ «لُوِه»، عدا عمدةً مُسنّاً في القرية التي عشتُ فيها، عملَ أجيراً سنوياً في الماضي، وكان من

عائلة من الرُّحْل. لا يسعني إلا أن أُنخِّل موجةً من الاضطهاد، وعاصفةً دمويّةً لا نعلّم عنها شيئاً اليوم، ولا يمكننا تصوُّرها، جعلت كلمة «لُوه» من المحرّمات هنا؛ إذ أُجبرَ أهلُها على تغيير أسماء عائلاتهم، وطمس تاريخهم، والسفر في رحلاتٍ طويلة إلى أماكن أخرى، مثلما وصف بعض المؤرخين. تحمّلوا مشقة السفر وتنقّلوا في مجموعاتٍ إلى غربِ هونان، قويتشو، قوانغشي، يوننان والجلال الشاهقة في جنوب شرق آسيا، ولم يعودوا من جديد. ومن حينها، أصبح نهر لُوه معروفاً لكنّه غير موجود، بقي اسماً دون مضمون، أصبح فما لا يُصدر صوتاً، بل يبت صمتاً لا نهائياً. ولن نعرف ما قاله في الماضي حتى لو انتشلنا هذا الفم من قبر.

وحقيقةً، لقد ضاع وطنهم وحُكم عليه بالهلاك، واختفى دون أثر، ولم يتبقّ إلا بعض الأوعية البرونزية التي تحلّلت، وتتهشّم ما أن تلمسها. عندما كنتُ أحرثُ الأرض القفر هناك عثرتُ على مجموعة كبيرة من رؤوس الأسهم ورؤوس الحراب، لكنّها شديدة الصغر، أصغر مما رأيته في الكتب، ويبدو أنّ المعادن كانت نادرة حينها، وكان يجب استخدامها باقتصادٍ شديد. لم يتفاجأ السكان المحليون بالأشياء التي استخرجتها من الأرض، ولم يعيروها اهتماماً، بل تركوها إلى جانب الطريق، ووضعها الأطفال في سلالٍ ولعبوا وتبارزوا بها. وكلّما رأيتُ لاحقاً معرضاً للأوعية البرونزية في مُتحفٍ تحت حماية مشددة، أشعرُ أنّ شيئاً ما ليس صحيحاً، ما هذه الأشياء؟ حين كنتُ في قرية ماتشياو وطأتُ على ماضي أسرة هان، ولا أدري كم من آثارٍ تاريخيةٍ ثمينةٍ وطأتها.

الثالثُ من الشهرِ الثالث

في كلِّ عامٍ، في اليومِ الثالث من الشهرِ الثالث من التقويم القمري الصيني، يتناولُ أهلُ ماتشياو الأرز الأسود، ويضيفون إليه منقوعَ نوعٍ من الأعشابِ البرية، فيصطبغُ بالأسود، ويأكلونه حتى تتلَطَّخَ أفواههم بلونٍ أسودَ قذر. وفي اليومِ ذاته، يشحذُ كلُّ الناسِ السكاكين، ويصدرُ دويٌّ مُزِلِزٌ من منازلهم، ترتجفُ على إثره أوراقُ الأشجارِ في الجبال. وعدا شحذِ بِلَطاتِ قطعِ الأخشاب، وسكاكينِ المطبخ، والمناجلِ وقِطَّاعاتِ العلف، كان على كلِّ عائلةٍ أن تشحذَ سيفاً يُعلَّقُ في الخصر، يُشحذُ إلى أن يلمعَ نصلُه كالثلج، وينسابَ النورُ الباردُ ويتراقصُ ويتدفقُ أعلاه، باعثاً في الناسِ نوعاً من الأفكارِ الشريرة. كانت هذه السيوفُ نائمةً في الصدأ، والآن استيقظَ كلُّ منها لامعاً، تفورُ بالحياةِ في أيدي الهمج وهمج الأسرِ الثالث، لتُبقي الناسَ لا إرادياً على مسافةٍ من بعضهم. وإذا لم يمسكُ الناسُ مقابضَ هذه السيوفِ بقوة، لعلَّها كانت ستُطلقُ العنانَ لأنفسِها، وتترزُّ، وتنسلُّ من البابِ إلى أهدافِها المحددة، وتفعلُ أشياء ستفاجئُ الناسَ - عاجلاً أم آجلاً ستفعلُ ذلك.

بوسعي أن أعدَّ تلك العادة مراسمَ استعدادٍ للزراعةِ بدايةً كلّ
عام، ولا أفكّرُ في الحرب، لكن ما هو غيرُ منطقي أنَّ المعاولَ وشفراتِ
المحارثِ تُسحَدُ مع الاستعدادِ للزراعة، فلماذا تُسحَدُ سيوفُ الخصر؟
ما أن تلمعَ السكاكين، يَحُلُّ الربيع.
الثالثُ من الشهرِ الثالثِ هو ارتجافُ الهواءِ على حدِّ السكاكين.

قوس ماتشياو

اسم ماتشياو بالكامل هو «قوس ماتشياو». وقوس تعني القرية والأرض التي تحتلها القرية أيضاً، ومن الواضح أنها وحدة قياس قديمة. القوس (غونغ) يساوي المساحة التي يغطيها إطلاق سهم. وهناك نحو أربعين عائلة في قوس ماتشياو، وعدد من الماشية والخنازير والكلاب والدجاج والبط، وتقع قرب حقول أرز في وادين ضيقين. وحدود القرية كالتالي: من الشرق حقول شوانغ لونغ حيث يرى نهر لوه من بعيد، وتفصل المياه المتدفقة من قمم تيان تزي إلى الوادي بين سلاسل جبال تيان تزي في الشمال ووادي تشاي تزي، وتجاور بلدة تجانغ جيا فانغ من الغرب، ولونغ جيا تان من الجنوب، وثمة طريق صغير بين طريق تشانغشا ويوي يانغ السريع أنشئ في الستينيات، ولا بد أن يسلك أي شخص هذا المسار إن كان ذاهباً بالحافلة إلى مركز المحافظة. يستغرق المشي من أول قوس ماتشياو إلى نهايته حوالي ساعة، ولا يمكن أن يكون هذا إلا باعثاً على الدهشة، كيف للقدماء أن يكونوا بهذه القوة والمهارة ليرموا بسهم فوق هذه المساحة الشاسعة؟

هل ينكمش الناس جيلاً بعد جيل؟

يُقالُ إِنَّ قَوْسَ ماتشياو (ماتشياو: جسرُ الحصان - mǎqiáo 马桥) كان يُدعى في الأصلِ قَوْسُ ماتشياو (ماتشياو الثانية تُترجمُ حرفياً: جسرُ الأم - 妈桥 mǎqiáo)، لكن عدا وثيقة قديمة سُجِّلَ فيها هذا، لا توجد أيُّ أدلةٍ أخرى، وربما كان خطأً إملائياً خَلَفَهُ الأُسلاف. وبعدَ دخولِ العصرِ الحديث، تطوَرَ نظامُ السجلاتِ بشكلٍ أوضحَ كالتالي:

قبلَ العامِ ١٩٥٦ سُمِّيتَ قريةُ ماتشياو، وتنتمي إلى بلدة تيان تزي. من العامِ ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ سُمِّيتَ مجموعةُ ماتشياو، وتنتمي إلى تعاونية دونغ فينغ.

وفي العامِ ١٩٥٨ سُمِّيتَ فريقُ الإنتاجِ الثاني عشر، وتنتمي إلى كومونة تشانغ لي الشعبية (كومونة كبيرة).

من العامِ ١٩٥٩ إلى العامِ ١٩٧٩ سُمِّيتَ فريقُ إنتاجِ ماتشياو، وكانت تنتمي إلى كومونة تيان تزي الشعبية (كومونة صغيرة).

وبعدَ العامِ ١٩٧٩، حُلَّتِ الكومونات، وأصبحت قريةُ ماتشياو وجزءٌ من بلدة تيان تزي، في نطاقِ بلدةِ شوانغ لونغ إلى الآن.

يحملُ أغلبُ أهالي قريةِ ماتشياو لقبَ «ما - mā 马»، وتنقسمُ القريةُ إلى قسمينِ علوي وسفلي، أي أعلى القوسِ وأسفله. وفي الماضي، كان الأثرياءُ والَّذين يحملون لقبَ «ما» يعيشون في أعلى القوس. ولم يكن هذا شائعاً في المنطقة، بل على العكس، ففي بلدةِ تجانغ جيا فانغ القريةِ تحملُ العائلاتُ لقبَ «لي»، وفي بلدةِ لونغ جيان تان تحملُ لقبَ «بينغ»، ورأيتُ الأمرَ غريباً أنَّ اسمَ القريةِ ولقبَ العائلةِ مختلفان، وحسبَ إحصائياتي التقريبية، يُمثِّلُ هذا الوضعُ نصفَ إجماليِّ سكانِ هذه المحافظة.

وحسب ما سُجِّل في كتاب «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد»: مرَّ قوسُ ماتشياو في بداية حكم تشيان لونغ إمبراطور أسرة تشينغ بفترة ازدهار، وسُمِّي ولاية ماتشياو، كان عددُ سكانها نحو ألف نسمة، تحيطُها أسوارٌ وأربعةُ حصون، ودفاعاتها محصنة، لا يستطيع قطعُ طرقٍ متشردون اختراقها. في السنة الثامنة والخمسين من حكم الإمبراطور تشيان لونغ، حدث أن فقدَ شخصٌ يُدعى «ماسان باو» من ولاية ماتشياو صوابه أثناء مأدبة عشاءٍ في منزلٍ أحد أقاربه، وزعمَ أنه نسلُ تزواج بين والدته وكلبٍ مقدس، وأنه متجسّدٌ في صورة ابن السماء المختار، وأنه السلفُ الأعظمُ لزهرة اللوتس، وعليه أن يؤسس مملكة اللوتس. وعلى الفور فقدَ ثلاثةٌ من أفراد عائلته صوابهم أيضاً، وهم «ما يو لي» و«ما لاو يان» و«ما لاو غوا»، ومضوا يصرخون ويهتفون بشعرٍ أشعث، وأعلنوا «ماسان باو» ملكاً، وأصدروا مرسوماً يقضي بأن زوجته وهي من عائلة «وو» إمبراطورة، وأن إحدى بنات أخواته وفتاة كنيتهما «لي» هما محظيتاه.

وزعوا المراسيم في كلِّ مكان، وشنوا حملة تمردٍ وعصيان، وحشدوا مجموعةً من قطاع الطرق من مناطق تصل إلى ثمانية عشر قوساً، ونهبوا بضائع التجار، وهجموا على مراكز نقل الحبوب التابعة للحكومة، وقتلوا عدداً لا يُحصى من الناس. وفي اليوم الثامن عشر من الشهر الأول من العام الخامس والتسعين، انطلق قائد قوات «تجين آن» مينغ آتو (منغولي) ونائبه الجنرال إيسانا (من المانشو) بنحو ثمانمئة جندي من قواته، انقسموا في طريقين واتجهوا لقمع التمرد. هاجمت قوات الطريق الأيسر سدَّ تشينغ يو، وسدّدت ضرباتها إلى الأسوار بالبنادق

والمدافع، وأحرقت النارُ معاقلَ اللصوص الذين أُجبروا على الهرب إلى النهر وهلكَ العديدُ منهم، بينما عبرت قواتُ الطريقِ الأيمنِ النهرَ بعدَ الهجومِ بوضعِ ألواحٍ خشبيةٍ عندَ قريةٍ «خينغ تزي بو»، وشنّت هجوماً ليلياً على مخبأ المجرمين في ولاية ماتشياو. عند الفجر، فرّ نحو مائتين من المجرمين عبر الحاجز إلى الشرق في لحظة وصولِ قوات الطريق الأيسر، والتي حاصرتهم وقتلتهم جميعاً، فيما قُطعت رؤوسُ «ما يولي» وستةٍ من وزرائه المحتالين على الفور وعُلقت كعبرةٍ للآخرين، ودُمّرت جميعُ معاقلِ المجرمين القريبة من ماتشياو، وسُلّمَ الأفرادُ الذين ساعدوا القوات في إخمادِ التمردِ راياتٌ حُمِرَ كُتِبَ عليها «مواطنون صالحون» وغُرِزَت أُمَامَ المنازلِ لتفادي هجومِ الجيش.

بعثَ كتابُ «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد» داخلي شعوراً بالحزن، إذ إنَّ «ماسان باو» الذي أُدرجَ اسمُه في قائمةِ المحافظة الجديدة لـ «زعماء انتفاضة الفلاحين» والذي عُرِفَ بين أهالي ماتشياو بالإمبراطور ابن السماء، ذُكِرَ بصورةٍ مريعةٍ في هذا السَّجَلِ الذي دَوَّنَتْهُ سلطاتُ أسرة تشينغ، ولم تخطر بباله خلالَ الأشهرِ الثلاثةِ القصيرةِ من التمردِ خطةٌ عظيمةٌ لبني مملكةٍ ويحاربُ العدو وينقذُ العالم، بل اتخذ لنفسه خمسَ محظيات. وحسبَ المعطياتِ التاريخية، كان يفتقرُ إلى حسِّ التمرد، وحين سمعَ بوصولِ القوات، دعا بعضَ العرَّافين لينصبوا مذبحاً ويصلُّوا للرب، ويقصُّوا الورقَ وينثروا حبوبَ الفول، ليتحوَّلَ الورقُ إلى جنرالاتٍ، وحبوبُ الفول إلى جنودٍ تتصدى لمدافع وبنادق الجيشِ الفولاذية. كما كان يفتقرُ إلى أخلاقياتِ التمرد، فحين اعتُقِلَ، لم تكن لديه النزاهةُ للتضحية بنفسه، بل كتبَ اعترافاً دون توقفٍ في أربعين صفحة، يتضمنُ عباراتٍ كثيرةً من

طلب العفو والتحقير من نفسه مثل «ضئيل» و«حقير»، لتوسل الشفقة من المنتصرين، وأظهر اعترافه غير المترابط جنونه بصورة واضحة على الورق. وخلال صعود وسقوط «مملكة اللوتس» وحسب الإحصائيات الرسمية، كان عددُ الفلاحين الذين فقدوا أرواحهم في ماتشياو وما حولها نحو سبعمائة شخص، كما أنَّ العديد من النساء اللاتي تزوجن منذ عقود ورحلن بعيداً، عُدن بإصرارٍ للانضمام إلى أقاربهن ورفاقهن في مصيرهم المشترك. لقد ضحى الجميع بأنفسهم، وخاضوا معركةً دامية، فقط من أجل أن يتركوا مصيرهم في يد مجنونٍ كهذا.

هل هو اعترافٌ كاذب؟ أرجو بصدق أن تكون هذه الاعترافات جزءاً من التاريخ الذي لفقَه حكامُ أسرة تشينغ، وأرجو بصدق أن «ماسان باو» الذي كانت نهايته أن سكب عليه الجنودُ الكيوسين وقُيّد إلى شجرة، وأُشعلَ مثل «فانوس سماوي»، ليس هو الذي وُصفَ في كتاب «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد»، وأنَّ السبعمائة روح التي تبعته، لم يُستهزأ بها من قبل مجنونٍ كهذا.

ربما ثمة تاريخٌ آخر؟

كانت الفوضى التي أثارها «مجرمو اللوتس» أعظمَ حدثٍ في تاريخ قرية ماتشياو، وواحدةً من الأسباب الرئيسية لاندثار القرية. ومن حينها انتقل المزيد والمزيد من الناس إلى أماكن أخرى، وانخفض عدد السكان تدريجياً، وأصبحت القرية بدخولها القرن الجديد مهجورةً ومقفرة. وحين رتبت السلطات العليا انتقال الشباب المتعلم إلى الريف، كان التركيز منصباً على إرسالهم إلى القرى الفقيرة التي يقطنها قلة من السكان وحقولها كثيرة، وكانت ماتشياو واحدةً من القرى التي وقع الاختيار عليها.

الرفيق القديم

اندلعت في نهاية عهد أسرة مينغ اضطرابات أكبر، وعلى نطاق أوسع بالمقارنة مع فوضى «مجرمو اللوتس». شنّ تجانغ شيان تجونغ حملة تمردٍ في شانشي، واشتبك مراراً مع «قوات المدمّات» وهم القتلّة المأجورون من هونان ضمنَ قواتِ جيش الحكومة، وزرعت الخسائر الفادحة في الأرواح كراهيةً شديدةً في نفسه لكلّ أهلِ هونان، لذلك قاد جيشاً وقتل عدداً لا يُحصى من الناس، وأُطلقَ عليه فيما بعد «تجانغ الذي لا يسأل» وتعني أنّه لا يسأل عن اسم الشخصِ وهويته قبل قتله، حينها كان الجنودُ يعلّقون رؤوسَ الأشخاص في السروج، ويضعون حولِ خصورهم سلاسل من الأذانِ المقطوعة، تعبيراً عن استحقاقهم مكافأة.

«اجتاح هونان مائة ألفٍ من أهلِ جيانغشي»، هكذا كان المشهدُ بعدَ المذبحة. وقيلَ إنّهُ بسبب هذه الفترة من التاريخ، أصبح أهلُ هونان يطلقون على أهلِ جيانغشي كلّهم بلا استثناء تسمية «الرفيق القديم»، دلالةً على العلاقات الطيبة.

لم يكن ثمة حاجزٌ جغرافيٌّ كبير بين هونان وجيانغشي، وتنقّل الناس جيئةً وذهاباً بسهولة. وهناك على الأقل موجةٌ اجتاحت فيها أهلُ هونان

جيانغشي، كان ذلك في أوائل الستينيات من القرن العشرين. حين جئتُ إلى ماتشياو، وأثناء عملي في الحقل، كان موضوعُ الحديثِ المفضَّلِ لدى الرجال عدا النساءِ هو الطعام. وبالحديثِ عن كلمة «يأكل»، كانوا يستخدمون النُّطقَ الأقوى، أي يستخدمون النُّطقَ القديمَ لكلمة (qià) (恰)، وليس نطق القرونِ الوسطى لكلمة (qì 喫) ولا النُّطقَ الحديثَ (chī). وتُنطق (qià) بنغمةٍ هابطة؛ النُّطقُ الجريءُ وفتح الفم في المقطع اللفظي، متبوعاً بنغمةٍ هابطةٍ واضحةٍ وخفيفةٍ أكثر ممَّا يعبرُ عن شغفِ المتحدث. تناولُ الدجاجِ والبطِ والبقرِ والخروفِ والكلابِ والسمكِ واللحمِ أيضاً، واللحمُ هو التسميةُ المختصرةُ للحمِ الخنزير. تناولُ الباو تزي والمانتو والفطائرِ المقلية والكعكِ المقلي وشعيرية دقيق الأرز وكعكِ الأرز الدبق، وبالطبع الأرز. حظينا بمحادثاتٍ ممتعةٍ لم نمل منها، لم نضجرُ من التفاصيل والتكرار، تحدَّثنا ببهجةٍ وبلا توقُّفٍ عن الجديد، كنا نتحدَّثُ حتى نتراقص فرحاً، وتتورد وجوهنا، وكلُّ كلمةٍ دافئةٍ وخفيفةٍ مغمورةٍ في اللعاب يدفعها اللسانُ بقوةٍ إلى الخارج، لتنفجرَ في نورِ الشمسِ وتُخلفَ آثارها.

كانت هذه الأحاديثُ في الغالب استعادةً للذكريات، كأن نستعيدَ ذكرى مَأدبةٍ عيدِ ميلادٍ أو جنازةٍ لا تُنسى. كنَّا نتكلَّم ونتكلَّم إلى أن يصبحَ الحديثُ افتراضاتٍ وتفاهراً؛ فما أن يعلنَ أحدُهم أنَّ بإمكانه تناول ثلاثة جين^(١) من الأرز دفعةً واحدة، يعلن آخرُ أنَّ بوسعه تناول عشرين قطعة من الباو تزي. وهذا لا يُعدُّ شيئاً، فقد ينخرُّ أحد الأقوياء،

(١) جين: يساوي نصف كيلوغرام.

ويقاطعُ الحديثَ قائلاً إِنَّ بوسعه تناول عشرة جين من شحمِ الخنزير بالإضافةِ إلى اثني جين من الشعيرية وهكذا. وبالطبع يترتبُ على ذلك خلافاتٌ ونقاشاتٌ ودراسات، بعضُهم لن يقتنع، والبعضُ الآخرُ سيؤدُّ المراهنة، وآخرون سيتطوعون ليكونوا حُكَّاماً، وهناك من سيقترحُ قوانينَ المسابقة، وآخرون سيقابون المتسابقين لمنعهم من الغش، كأن يمنعوهم من قلي شحم الخنزير إلى أن يصبحَ بقايا زيت، وهكذا. كانت هذه الضوضاءُ المتماثلةُ غالباً ما تُثارُ قبلَ الوجباتِ بفترةٍ طويلة.

يتحدثُ السكانُ المحليون في أوقاتٍ كهذه عن سنة «بناء الكانتين» وهذه التسميةُ الشائعةُ عندهم للإشارة إلى «القفزة الكبيرة إلى الأمام» إذ يتذكرون الماضي دائماً عبر معدتهم، ليضيفوا طعماً ومذاقاً حقيقيين لكلِّ شيء. كما أنَّ «أكل الحبوب» يشيرُ إلى الخدمةِ العسكرية، و«أكل حبوب البلد» يشيرُ إلى الذهابِ إلى المدينةِ للعملِ موظفاً أو عاملاً، و«تناولتُ لحمَ الكلابِ المرَّةَ الفاتئة» يشيرُ إلى اجتماعِ حكوميٍّ يُعقدُ في القرية، أمَّا «تناولُ الأرز الجديد» فيعني عيدَ بدايةِ الخريف، و«إعداد كيك البابا» أو «ذبح خنزير العام» يشيران إلى نهايةِ العام، و«جلسَ ثلاثة أو أربعة أشخاصٍ إلى المائدة» تشيرُ إلى عددِ الأشخاصِ في نشاطٍ جماعيٍّ ما.

لم يكن لديهم طعامٌ كافٍ في السنواتِ التي أسموها بـ «بناء الكانتين»، إذ اخضرت عيونُ الجميعِ بسببِ الجوع، وتحتمَّ عليهم رغم ذلك أن يطأوا الجليدَ لإصلاحِ الخزاناتِ المائية، حتى النساءُ أُجبرنَ على تعريةِ النصفِ الأعلى من أجسادهن، وتدلَّت أثداؤهن وهنَّ يحملن الرمالَ على أكتافهن، فيما يحملن الأعلامَ الحمراء والطبولَ والشعارات

لإظهار حماسِهن الثورية التي لا تهابُ البردَ القارس. العم جي (شخصٌ لم أره من قبل) توقفَ تنفّسه وسقطَ ميتاً في موقعِ العمل. عجزَ الكثيرُ من الشبابِ عن تحمُّلِ هذا الشقاءِ وفروا إلى جيانغشي لسنواتٍ طويلة.

فيما بعد صادفتُ رجلاً عائداً من جيانغشي إلى قرية ماتشياو، واسمه «بن أر»، عمره يقاربُ الأربعين عاماً، قدّم لي لفافةً تبغٍ وناداني «الرفيق القديم»، وردّ على أسئلتي الفضولية قائلاً إنّه هربَ ذلك العام إلى جيانغشي بسببِ جرّةٍ من عصيدةِ الذرة (انظرُ مدخل «عصيدة»)، كان قد جلبها من كانتين جماعي، وكانت عشاءَ عائلته، لذلك انتظرَ عودةَ زوجته من الحقلِ وعودةَ طفليه من المدرسة. كان يتصوّرُ جوعاً، فلم يسعه إلا أن يتناولَ حصّته أولاً، وحين سمعَ صوتَ طفليه في أوّلِ القرية، هرعَ بابتهاجٍ لتقسيمِ العصيدةِ في الأطباق، لكنّه اكتشفَ أن الجرّةَ خاويةٌ حين فتحها. أظلمَ كلُّ شيءٍ أمامَ عينيه من فرطِ الهلع، أين اختفتِ العصيدةُ التي كانت في الجرّةِ للتو؟ هل تناولها كلّها دون أن يعي؟

بحث في المنزلِ بارتباكٍ مرّةً أخرى، عاجزاً عن التصديق، لكنّه لم يجدَ أيّ عصيدة! كانت جميعُ الأواني والطسوتِ والقُدورِ خاوية. وفي ذلك العام لم تكن هناكِ كلابٌ أو قططٌ لتسرقَ الطعام، حتى ديدان الأرض والجراد التهمها الناس.

لم يكن صوتُ اقترابِ خطواتِ طفليه مرعباً إلى هذه الدرجة من قبل.

شعرَ بالخزي، ولم يستطع إخبارَ زوجته عن فعلته، لذا فرّ مذعوراً إلى جُرفٍ خلفَ المنزلِ واختبأ بين الأحراج.

سمعَ بإبهام صوت البكاء في المنزل، وسمعَ زوجته تنادي على اسمه في كل مكان، لم يجرؤ على الرد، ولم يجرؤ على إفلات صوت بكائه، ولم يطأ باب منزله مرةً أخرى. قال إنه يعمل الآن في وادٍ جنوب جيانغشي، يقطعُ الأشجارَ ويحرقُ الفحم. وبالطبع... مرّت أكثر من عشر سنوات الآن، ولديه أطفالٌ وعائلةٌ هناك.

تزوَّجت امرأته السابقة من جديد، لكنها لم تلمُه، بل دعتَه لتناول وجبة لحم هذه المرة. أمّا طفلاه فكانا ينجلان من الغرباء، لذا ذهبوا للعب على التلة، وقد حلَّ الظلام ولم يعودا بعد.

سألته إن كان يفكرُ في العودة.

بعدها أدركتُ كم أن سؤالِي أبله.

ظهرت على وجهه ابتسامةٌ باهتة، وهزَّ رأسه رافضاً.

قال إنَّ كلَّ شيءٍ كما هو، حتى الحياة هناك كما هي هنا، وقال إنه يأملُ في الحصولِ على وظيفةٍ عاملٍ بدوامٍ كاملٍ في مزارعِ الأشجارِ هناك، كما قال إنَّ عدداً من الذين رحلوا عن ماتشياو، استقروا هناك وسمُّوا قريتهم «ماتشياو» وأنهم يلقَّبون أهالي هونان بـ«الرفيق القديم».

عاد إلى جيانغشي بعد يومين، وفي يومٍ رحيله أمطرت السماءُ رذاذاً، كان يسيرُ متقدماً زوجته السابقة بعشر خطوات، على الأرجح كانت تودعه. جلبوا مظلةً، أمسكتها المرأةُ لكن لم تفتحها. سحبها ليساعدها على عبورِ قناةٍ، ثم ما لبث أن تقدمها على الفور بعشر خطوات، واحدٌ يسيرُ خلفَ الآخر متقدِّمين إلى الأمام في المطر الغزير والضباب الكثيف. لم أره مرةً أخرى.

حلو

يعبّر أهل ماتشياو عن النكهات بأسلوبٍ شديد البساطة، فكلُّ شيءٍ شهى المذاق يُختَصَرُ بكلمة «حلو». تناول الحلوى «حلو»، تناول الأسماك واللحوم أيضاً «حلو»، تناول الأرز والفلفل الحار والقرع المر «حلو» أيضاً.

يجد الغرباء صعوبةً في فهم ذلك، هل أدّت غِلظة حاسة التذوّق لديهم إلى افتقارهم للمفردات اللازمة للتعبير عن النكهات؟ أم أن افتقارهم المفردات أفقَدَ ألسنتهم القدرة على التمييز بين النكهات؟ كان هذا أمراً نادراً الحدوث في الصين التي تُعدُّ فيها ثقافة الطعام والشراب متطورةً إلى حدٍّ ما.

وعلى نحوٍ مماثل، فإنَّهم يستخدمون كلمة «حلوى»، للإشارة إلى كلّ الحلويات، فالفاكهة المُسكرة «حلوى»، البسكويت «حلوى»، الكيك والكعك الهش والخبز والزبدة كلّها «حلوى». وحين رأوا أعواد الآيس كريم في شارع تشانغ لي للمرّة الأولى، أطلقوا عليها «حلوى» كذلك. بالطبع ثمة استثناءات، فالمنتجات المحلية لها اسمها الخاص، مثل «تسي با - كعك الأرز الدّبق» و«كعك الأرز». والتسمية العامة

لـ «حلوى»، تقتصرُ فقط على الأطعمةِ الغربيةِ والحديثة، أو على الأقل، من مكانٍ بعيد. وحين كنا نحن الشباب المتعلم نشترى البسكويت من الشارع، كانوا يطلقون عليه «حلوى»، وكان وقع ذلك غريباً ومزعجاً. ربما كان الطعامُ الذي يتناوله أهل ماتشياو يكفي فقط لسدّ جوعهم، ولم يكن لديهم الوقتُ الكافي للقيام بتحليلٍ شاملٍ وفهمٍ نكهاتِ الطعام. بعد مضي سنواتٍ عديدةٍ، قابلتُ أجنبياً يتحدثون اللغةَ الإنجليزية، واكتشفتُ أنَّ المفرداتِ التي يستخدمونها للتعبير عن النكهات شحيحةٌ أيضاً، كأنَّ يصفوا المذاقَ اللاذعَ الذي يجعلهم يتعرقون، سواءً أكان الفلفلُ الأسود، الفلفلُ الحار، الخردل، والثوم بكلمة «hot»، وانتهى الأمر. تساءلت في نفسي، هل هم كأهلٍ ماتشياو أيضاً، لديهم تاريخٌ من الجوعِ وعدم القدرةِ على تمييزِ النكهات؟ لا يمكنني السخريةُ منهم، لأنني أعرفُ مذاقَ الجوع. عدتُ في إحدى المرات إلى القريةِ متلمساً طريقي في الظلام، لم أكرث لغسلِ يديّ ووجهي (كنتُ مغطىً بالطين)، ولم أكرث لقتلِ البعوض (الذي كان يهاجمني بضراوة)، بل ابتلعتُ خمسةَ أطباقٍ من الأرزِ دفعةً واحدةً (وكلُّ طبقٍ يزنُ نصفَ جين)، لم أعرف بعد انتهائي ماذا تناولتُ للتو، وما مذاقه. لم أرَ أو أسمع أيَّ شيءٍ في تلك اللحظة، كلُّ ما شعرتُ به هو اضطرابٌ أمعائيٌ بشدة، فماذا تعني لي كلُّ هذه الكلماتِ التي تستخدمُها الطبقةُ العليا لوصفِ النكهات، ذلك الهراءُ المنمَّق، الغني والدقيق؟

كشفت كلمةَ «حلو» جهلَ أهلٍ ماتشياو بثقافةِ الطعامِ والشراب، ورسمتُ حدودَ معرفتهم بهذا الجانب، لكن إنَّ ألقيتَ نظرةً فاحصة، ستدركُ أنَّ كلَّ شخصٍ في الحقيقةِ يحوزُ مختلفَ النقاطِ العمياء. ومدى

وعى البشر لا يتطابق تماماً، والمصباح الخافت لوعيمهم بعيد كل البعد عن إضاءة العالم كله. وإلى وقتنا هذا، من الصعب على العديد من الصينيين التمييز بين ملامح وجوه مواطني أوروبا الغربية، وأوروبا الشمالية وأوروبا الشرقية، كما أنه أمر شديد الصعوبة تمييز الاختلافات الثقافية بين الإنجليز، والفرنسيين، والإسبان، والنرويجيين والبولنديين. وأسماء الدول الأوروبية ما هي إلا رموز فارغة في الكتب المدرسية، فالكثير من الصينيين لا يستطيعون الربط بينها وبين ملامح الوجوه والملابس واللغات والعادات. كان هذا أمراً لا يُصدّق بالنسبة للأوروبيين، بالضبط كما هو أمر لا يُصدّق بالنسبة للصينيين، ألا يستطيع الأوروبيون التمييز بين أهل شانغهاي وغواندونغ وأهل الشمال الشرقي؛ لهذا يفضّل الصينيون استخدام التسمية الشائعة «الغربيون» و«الأجانب»، مثلاً يفضّل أهل ماتشياو استخدام كلمة «حلو». وتبدو هذه العادة مثار سخريّة لرجل إنجليزي يعترض على أن يُعرّف كألماني، أو فرنسيّ يعترض على تعريفه أمريكياً.

وبالمثل، فثمة عدد كبير من الصينيين إلى وقتنا هذا وحتى العديد من الاقتصاديين يرون أنه لا يوجد فرق كبير بين الرأسمالية في أمريكا، والرأسمالية في اليابان، والرأسمالية في غرب أوروبا، والرأسمالية في السويد وغيرها من الرأسماليات في الدول الأوروبية الأخرى. كما لا يوجد اختلاف ذو أهمية بين رأسمالية القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر، أو رأسمالية ما قبل الحرب في القرن الحالى، أو رأسمالية ستينيات القرن الحالى ورأسمالية التسعينيات. إذ بالنسبة للعديد من الصينيين يكفي استخدام «رأسمالية»، وهو كافٍ للتعبير عن حبهم أو عدائهم.

قرأت أثناء إقامتي في الولايات المتحدة مجلةً سياسيةً مناهضةً للشيوعية، واستغربت بشدةً لأنّ الذوق السياسيّ لمحرري المجلة توقّف عند مستوى «حلو» مثل أهل ماتشياو. ومثالٌ على ذلك، أحياناً يشجبون أحد الأحزاب الشيوعية قائلين إنّهُ ماركسي زائف، وإنّهُ خائن للماركسية، وأحياناً أخرى يشجبون الماركسية (إذن أليس الزيفُ والخيانةُ أمرين جيدين؟)، ومن ناحيةٍ أخرى يكشفون أنّ لأعضاء الحزب الشيوعي علاقاتٍ خارجِ إطارِ الزواجِ وأبناءً غيرَ شرعيين، ثم يسخرون من أنّ كبت أعضاء الحزب رغباتهم أمرٌ مخالفٌ للطبيعة الإنسانية (إذن أليست العلاقات خارجَ الزواجِ والأبناء غيرَ الشرعيين متسقةً مع الطبيعة البشرية؟). لم يروا تناقضاتٍ وارتباكاً في منطقهم، بل رأوا أنّ كلّ شيءٍ مناهضٍ للحزب الشيوعي يستحقُّ الاحتفاء، وإنّهُ جيدٌ جداً، وإنّهُ حلو. وقرأت في هذه المجلة خبراً: أنّ امرأةً كنيثها تشين، هربت من هاينان إلى هونغ كونغ، وأعلنت أنّها مناهضةٌ للحزب الشيوعي، فرحبت بها إحدى الحكومات الغربية ومنحتها اللجوء السياسي والحماية. وبعدَ أشهرٍ عدة، قابلتُ مسؤولاً من سفارة هذا البلد، وشعرتُ بالحزن والغضبِ نيابةً عن حكومته. أخبرته على مائدة العشاء أنّي أعرفُ هذه الأنسة المدعوة تشين، وأنّها لم تُشارك في أيّ نشاطاتٍ سياسيةٍ في هاينان، بل نظّمت «مسابقة الجزيرة الحارة الأدبية»، واختلست نحو مائتي ألفِ يوان من رسوم الاشتراك في المسابقة من الشباب في مختلف أنحاء البلاد، ثم تركت كومةً من مسودات المسابقة في الفندق، وأخذت المالَ ولاذت بالفرار إلى هونغ كونغ. لم تفلح في إقناعي أنّ أكون حَكماً في مسابقتها، لكن هذا ليس مهماً. وفي إعلانها للمساهمات في الصحيفة، أصبح

العديد من الكتاب المشهورين في العالم مثل ماركيز، كونديرا، بورخيس وغيرهم -بدرجةٍ مثيرةٍ للدهشة- حكاماً في مسابقتها، على الأرجح كانت تتوهمُ جائزة نوبل عظيمةً للآدابِ تُمنَح في هاينان.

يبدو أنَّ معلوماتي أثارت حيرةً مسؤول السفارة، فقطب حاجبيه وقال، ربما تكون قد اختلست المال، ربما تصرفت بحماقة، لكن ألا يمكن اعتبار ذلك شكلاً خاصاً من أشكال المقاومة السياسية؟

ثم أشاح بيده بقوة.

عجزتُ عن إكمال حديثي، لا أريدُ أن أغَيِّرَ موقفَ هذا الدبلوماسي الجالس أمامي على مائدة العشاء. بوسعك دعمُ أو مناهضةُ أي موقفٍ سياسيٍّ جادٍ ملتزمٍ بالسلام، لكن لا يمكن أن يحدث ذلك دون احترام. شعرتُ أنني في مأزق، مثلما لم يكن بمقدوري أن أجعل أهل ماتشياو يميزون الفروق بين أنواع «الحلوى» لغوياً، لا يمكنني الآن أن أجعل الدبلوماسي يميّز أنواع «المعارضة» في الصين، ففي ذلك البلد الذي يراه غامضاً وغريباً، الاحتيالُ قطعةٌ شهيةٌ من «الحلوى»، هكذا كلُّ شيء.

صبغة اليود

يستخدم الصينيون العديد من الأسماء الشعبية للإشارة إلى المنتجات الصناعية. وُلِدْتُ في المدينة، وظننتُ أنني حَدائِيُّ بما يكفي، إلى أن عرفت قبل ذهابي إلى الريف، أَنَّهُمْ يطلقون على محلولِ اليود صبغةَ اليود، مثلما اعتدتُ أن أُسمِّي الزئبق «الدواء الأحمر»، وأُسمِّي الجنتيانا «الدواء البنفسجي»، وأُسمِّي بطارية التخزين «الدواء الكهربائي»، وأُطلقُ على الأميتر «مقياس النار»، وعلى الأكواب الخزفية «الوعاء الأجنبي»، وعلى صفارة إنذارِ الغارة الجوية «ويّ وا»، والصفارة «النفخ في مزمار».

وبعدَ مجيئي إلى قرية ماتشياو، كنتُ دائماً ما أَصَحِّحُ للقرويين بعضَ التسمياتِ الريفية، على سبيل المثال، يُطلَقُ على الميدانِ العام في المدينة «ميدان» وليس «أرضاً»، وليس «جُرْناً» أيضاً.

لم أتوقع مُطلقاً أن الرجال والنساء العجائز والشباب يستخدمون هنا مصطلحاً علمياً رسمياً: صبغة اليود. كما أَنَّهُمْ لا يعرفون ما هو محلولُ اليود، وتعجبوا بشدةٍ من استخدامي كلمةً عجيبةً كهذه. حتى أَنَّ امرأةً عجوزاً ذاتَ سمعٍ ثَقِيلٍ وعينين غائمتين تتحدثُ بنبوةٍ علميةٍ أكثرَ مني؛ ويبدو استخدامهم لهجةَ ماتشياو في نطقِ «صبغة اليود» كأَنَّهُمْ

يُفْشُونَ إِشَارَةً سَرِيَّةً عَرَضاً، إِشَارَةً سَرِيَّةً تُخْفَى غَالِباً، وَلَا يَنْطَقُونَهَا إِلَّا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، لِلتَّوَاصُلِ مَعَ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ الْبَعِيدِ.

سَأَلْتُ عَنْ أَصْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَكِنْ كُلُّ افْتِرَاضَاتِي بَاءَتْ بِالْفَشْلِ، لَمْ يَأْتِ أَيُّ مُبَشِّرٍ أَجْنَبِي هُنَا مِنْ قَبْلِ (رَبِّمَا افْتَتَحَ الْأَجَانِبُ مُسْتَشْفَى وَاسْتَخْدَمُوا الْأَسْمَاءَ الْعِلْمِيَّةَ لِلْأَدْوِيَةِ)، كَمَا لَمْ يَمُرَّ جَيْشٌ كَبِيرٌ مِنْ هُنَا (رَبِّمَا أَصِيبَ جُنُودُ الْجَيْشِ الْجَدِيدِ وَاسْتَخْدَمُوا الْأَسْمَاءَ الْجَدِيدَةَ لِلْأَدْوِيَةِ)، كَمَا أَنَّ مَعْظَمَ الْمُعَلِّمِينَ دَرَسُوا فِي الْمَحَافِظَةِ، وَالَّذِينَ دَرَسُوا أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ دَرَسُوا فِي يُوِي يَانِغٍ أَوْ تَشَانْغِشَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعُودُوا بِمَفْرَدَاتٍ أَكْثَرَ حَدَاثَةً مِنَ الْمَفْرَدَاتِ هُنَا. ثُمَّ عَلِمْتُ أَخيراً أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَهَا عِلَاقَةٌ بِشَخْصٍ غَامِضٍ.

أَخْبَرَنِي الْعَمُّ لُوَهْ عَمْدَةُ الْقَرْيَةِ الْمَسْنِ وَهُوَ يَدَخِّنُ غَلِيُونَهُ، أَنَّ شَخْصاً يُدْعَى «شِي الْعَصَا الطَّوِيلَةَ»، كَانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَخْدَمَ «صِبْغَةَ الْيُودِ» هُنَا.

خشونة

لم أعرف الكثيرَ عن «شي العصا الطويلة». لم تكن هناك طريقةٌ لمعرفة من أين جاءَ هذا الشخص، وما هويته، ولماذا انتقلَ إلى هنا، حتى أنه لا يعرفُ اسمه ولقبه، فكلمةُ «شي» لا تبدو كلقبٍ عائلة. قال أحدُهم إنَّ ذقنه منحسرةٌ إلى الخلف، وجفنيه مزدوجان، لا يشبه أيَّ شخصٍ هنا. لم أدرك أهميةَ هذه السماتِ إلَّا بعدَ فترةٍ طويلة.

ومن بين مختلفِ الأقاويلِ التي سمعتها، من المرجحِ أنَّه جاءَ إلى القرية في الثلاثينيات، وعاشَ فيها ما يزيدُ عن عشرٍ أو عشرين سنةً، أو ربما لفترةٍ أطول. جاءَ برفقته رجلٌ كهلٌ ساعده في إعدادِ الطعام، والاعتناء بعدةِ أقفاصٍ للطيور، وكان يتحدثُ «بطريقةٍ خشنة»، وهذا يعني أنَّه يتحدثُ بلهجةٍ غريبةٍ صعبةِ الفهم، كأن يقول: «صبغةُ اليود»، أو أن يقول: «يرى» بدلاً من «يَعُدُّ» أو «يلعب» بدلاً من «يلهو»، وأنَّ «الصودا» تعني الصابون، والتي أصبحت رائجةً هنا، ثم ما لبثت أن انتشرت في المناطق القريبة من القرية.

يمكنُ التخمينُ من هذه الكلماتِ أنَّه شخصٌ قد قرأ في العلوم الحديثة آنذاك، وأنَّ لديه على الأقل معرفةً بالكيمياء، وقيل إنَّه كان يحبُّ

أكل الثعابين، لذا ليس من غير المعقول تماماً تخيُّله شخصاً من غوانغدونغ يحبُّ أكل الثعابين.

خلفَ انطباعاً معقداً لدى أهالي قرية ماتشياو، ومدَّحه البعض قائلاً إنَّه جلبَ أدويةً وأقمشةً وأعوادَ كبريتٍ أجنبية عند مجيئه، واستبدلها بالحبوبِ والأرزِ بسعرٍ معقولٍ إلى حدٍّ ما، وإنَّ صادفَ مَنْ يريدُ استبدالَ أفعى، فإنَّه يبتهجُّ وتسهلُ معه المساومة. كما كان قادراً على تشخيصِ الأمراض، وحتى توليدِ النساء. كان الأطباء المحليون يذمُّونه قائلين إنَّه مشعوذٌ ليس إلَّا، حتى الرسوم البيانية المتعلقة بالين واليانغ لا يفهمها، فكيف يستطيعُ تشخيصَ الأمراض؟ حتى أنَّه يتجرأُ على أكلِ الثعابين «ذات الأسنان الشَّصِيَّة» السامة، فكيف لضميره ألا يكون مسموماً؟ على أنَّ تلك الافتراءات تبذرت لاحقاً. أصيبت إحدى النساء في بلدة تجانغ جيا فانغ بعسرِ الولادة، إلى حدٍّ أنَّها كانت تتدحرجُ على الأرضِ وتصرخُ من شدة الألم، وتملَّكتُ الأطباء الحيرة، وذُعرَ أهالي القرية، وفي النهاية تولى عمُّها زمام المبادرة وشحذَ سكيناً على السلامِ الحجرية استعداداً لَشقِّ بطنِها. ولحسن الحظ أنَّه في لحظةٍ وضع السكينِ على بطنِها، وصلَ «شي العصا الطويلة» وصرخَ فيه بحدةٍ أفزعت الرجل فلم يحرك السكين. كان «شي العصا الطويلة» مُتمهلاً، شرب الشاي وغسل يديه، وطرَد كل المتطفلين خارج الغرفة، وبعد أكثر من ساعةٍ سُمِعَ صوتُ بكاء، ثم خرج بهدوءٍ ليشربَ الشاي، دخل الناسُ فوجدوا المولودَ، والمرأة -دون توقعٍ- سالمةً معافاة.

وحين سُئِلَ كيف فعلَ ذلك، ردَّ عليهم بنبرةٍ خشنة، ولم يفهم أحدٌ ما يقوله.

كبرَ الطفلُ بصحةٍ جيدة، وحينما أصبح يتحدث ويركض، كان والداه يجبرانه على الذهابِ إلى منزلِ «شي العصا الطويلة» والسجود له عدَّة سجّادات، وبدأ أن «شي العصا الطويلة» أحبَّ الطفل، وكان يتحدثُ معه دوماً، ويلعبُ معه ومع الأطفالِ الذين يأتون برفقته، وشيئاً فشيئاً، أصبح الأطفالُ يتحدثون بلهجةٍ خشنةٍ قائلين إنَّ لحمَ الثعابين لذيذ، ويُحدثون جلبةً لأجلِ أن يصطادَ ذووهم الثعابين لأكلها.

لم يأكل أهلُ ماتشياو الثعابين من قبل، ففي رأيهم أنَّ الثعابين هي «الحشرات» الأكثرُ سُميةً في العالم، وأنَّ لحمها لا بُدَّ أن يقضي على استقامة المرء، وكان مرعباً بالنسبة لهم أنَّ «شي العصا الطويلة» يشربُ دمها ويتناولُ لحمها نيئاً، وتهامسوا فيما بينهم أنَّ هذا نذيرُ شؤمٍ للقرية، ومنعوا واحداً تلو الآخر أطفالهم من الذهابِ إلى منزله للعب، وكان السببُ الرئيسي خشيَتهم أن يفسدَهم بإطعامهم لحمَ الثعابين، وهدّدوا الأطفالَ قائلين: هل ترون هذا المدعو شي؟ إنَّه يبيعُ الأطفالَ، وربما سيضعكم يوماً ما في سُوالٍ ويبيعكم في الشارع، ألم تروا كم في منزله من أشولة؟

فكَّرَ الأطفالُ قليلاً، ولم يتذكَّروا رؤيةَ أيِّ أشولةٍ في منزله، لكنَّهم من ملامحِ الكبارِ الجادة، لم يجرؤوا على الذهابِ إلى منزله، وأقصى ما كانوا يفعلونه أن يتجمَّعوا ويتطلَّعوا إليه من بعيد، ولا يجرؤُ أحدٌ على الذهابِ إليه حين يرون تلويحاتِ يديه المُرحة.

وبسببِ مهارته في توليدِ النساء، لم يشعل أهالي القرية النارَ في منزله ويطردوه هو والرجل الكهل من القرية، لكنهم لم يضمروا أيَّ نيةٍ حسنةٍ تجاهها. ازدروا كسله، وكان شعره الكثيفُ الذي يغطِّي ساقيه برهاناً

على كسله. ولم يتحملوا إسرافه، إذ كان يُطعمُ بعضَ الطيورِ في الأقفاصِ البيضِ وشرائحَ اللحم. كما كرهوا وجهه الكالِحَ الشاحب؛ لا مبالٍ ومتعجرف، لا يحملُ أيَّ احترامٍ لكبارِ السن، ولا يفسحُ لهم المقعد، ولا يقدمُ السجائرَ أو الشاي، ويوبِّخُ ضيوفه دائماً، ولو تحدَّثَ بكلامٍ لا يفهمونه، تظهرُ على وجهه ابتسامةٌ ساخرة، ويمضي إلى أشغاله مغمماً بشيءٍ ما. ألا يبدو من ملامح وجهه الشرسة أنه يتحدثُ بكلامٍ فظ؟ هل يظنُّ أن بإمكانه سبَّ الناسِ إن لم يفهموا كلامه؟ لقد أضفى على كلمة «خشونة» شكلاً محدداً، شكلاً لا يتعلَّقُ فقط بالكلمة، بل سمة ما، سمة باردة وقاسية، نوعٌ من الخبث الذي يزرعُ الخوفَ في الحياة. لقد جعلَ لكلمة «خشونة» -التي كانت في الأصلِ مزعجةً للسمع- ثقلاً مذموماً، يخرج مُكرهاً من بين الأسنان. وليس بوسعنا أن نعرفَ ما إذا كان أسلوبُ أهلِ ماتشياو سيُلحِقُ ضرراً بالغرباء الذين سيأتون مستقبلاً إلى القرية، أو سيغيِّرُ من سلوكِ هؤلاء تجاه جميعِ الغرباء، لا نعرفُ إذا كان ذلك سيَجلبُ المتاعب.

استقصى فريقُ عملِ حملةِ إصلاحِ الأراضي الزراعية ومقاومةِ الهيمنة حين وصلَ القرية، عن وجودِ مَلَكٍ أراضٍ طغاة، انتابَ الناسُ شيءٌ من الخوفِ والتردد، حتى أن بعضهم كان يوصدُ الأبوابَ حينَ يرى فرداً من الفريق. وفي النهاية، قَتَلَ الفريقُ أكبرَ مالكِ أراضٍ طاغٍ في بلدة لونغ جيا تان، وحملوا رأسه وتجولوا به، وطرقوا كلَّ الأبوابِ ليراه الناسُ ويأخذوا عِبرة، وحين رأوا الدماء، فتحو الأبوابَ وفركوا أيديهم في لهفةٍ للمشاركةِ في الحدث. وبحثَ عددٌ من الرجالِ عن الفريق، وذكروا أولاً «شي العصا الطويلة».

- ما تهمته؟

- الاستغلال، أكوّل ويتكاسل عن العمل، ولا يزرع الخضراوات بنفسه.

- وماذا أيضاً؟

- يحمل سلسلة أجنبية تدق.

- هل هي ساعة جيب؟ ساعة الجيب من المنقولات، وماذا أيضاً؟

- يأكل الثعابين السامة، ألا ترى أن هذا وضع؟

- أكل الثعابين لا يدل على أي مشكلة، الأهم هل لديه تلال أم لا؟

هل لديه حقول أم لا؟ نريد تقنين هذه السياسة.

- لديه حقول، لديه، كيف لا يكون لديه!

- أين؟

تبلبل الرجال، وقالوا اذهبوا وعاینوا، بالتأكيد ستعرفون أين.

- أين مكانها؟

أشار البعض إلى الشرق، وأشار البعض الآخر إلى الغرب.

وجد فريق العمل بعد الاستقصاء أن «شي العصا الطويلة» لا يستحوذ على أي أراضٍ أو تلال، وعدا عدة أقفاص طيور، كان منزله خالياً، كما أنه لا يحمل ساعة جيب كذلك، فقد أهداها - كما قال - إلى أحد أصدقائه في بلدة لونغ جيا تان. لا يمكن لهذا الشخص أن يكون مالك أرضٍ طاعياً أو اعتباره عدواً. بعث حُكمُ الفريق الغضب في الرجال، ولم يقتنعوا بأي كلام قيل لهم، كتموا غيظهم وغضبهم لبعض الوقت ثم قالوا إنَّ بينغ شي إن (وكان مالك أراضٍ طاعياً في بلدة لونغ

جيا وان) قُتِل، فلماذا لا يُقْتَل «شي العصا الطويلة؟» يا لفرطِ التواءه وخبثه! شَتَّان بينه وبين بينغ شي إن! إنَّه يعاملُ عَجُوزَه كحفيده!

لم يفهم فريقُ العمل معنى عبارة «يعاملُ عَجُوزَه كحفيده». وبعدَ أيامٍ من الاستقصاء، توصلوا إلى دليلٍ كبيرٍ يفضي إلى شيءٍ ما: سَرَتْ شائعةٌ مذهلةٌ في قريةٍ ماتشياو أنَّ عمرَ المدعو شي يزيدُ عن مائةِ عام، وأنَّه تناولَ حَبَّةَ أكسيرِ الحياةِ الغربي، لذلك هو في ذروةِ صحتهِ إلى الآن، وأنَّ الرجل الذي يعيشُ معه ليس والده، بل حفيده، وأنَّه عنيدٌ وعارضُ الأسرة ولم يتناول الجرعة، لذا أصبحَ في مثل تلك الهَيْئَةِ الأشبه بليفةٍ قديمة. ذُهِلَ بعضُ الناسِ حين سمعوا هذا الأمر، وتغيرت نظرتهم تجاه المدعو شي، وذهبوا بخوفٍ إلى منزله للاستفسارِ عن الأمر. تحدَّثَ الكهلُ بلهجةٍ أشدَّ خشونة، ولم يفهم أحدٌ جملةً ممَّا يقوله، ولم يرغب «شي العصا الطويلة» في إطالة الحديث. وصادفَ مرَّةً أن لاحقه أحدُ الأشخاصِ بالسؤال، ولفرطِ تزلُّفه ومضايقته، غمغمَ شي على مضض، وقال إنَّه في الواقع لا يعرفُ كمَ سنَّةَ عاش، وإنَّ الإمبراطورَ قد تغيَّرَ مرَّاتٍ عدَّة على كُلِّ حال، وأنَّه خبيرٌ مُجَرَّبٌ ولا يفاجئه الكثير. ثم طلب من الرجل الذهابَ إلى النوم، وأصغى الشخصُ منتبهاً أنَّه لم ينادِه بأبي، بل بـ«الصبي»، أي بنبرةٍ تُستخدَمُ قطعاً لصرفِ الجيلِ الأصغرِ سنًّا.

من المُحال أن يتغاضى أهلُ ماتشياو عن أكسيرِ الحياة. جاء البعضُ أمامَ المدعو شي بعملاتٍ فضية، والآخرُ بالنبيد واللحم ليحصلوا على الكنز. كما أنَّهم كانوا يرسلون زوجاتهم أحياناً، لأنَّ شي قال إنَّ جسدَ كُلِّ شخصٍ مختلف، لذا يكونُ الإكسيرُ مختلفاً، كما أنَّ مَنِي بعضِ الرجالِ يكونُ ضعيفاً، فلا بد أن يحصل على «القمم الثلاث» للمرأة، وهذا يعني

اللعاب، حليب الثدي والسائل المهبل، فيمزجها بالأكسجين ويدمجُ الين واليانغ ليحقق الدواء مفعوله. بالطبع هذا أمرٌ شديد التعقيد، ويتطلب دراسةً جديّة، وكان أكثر الأمور التي لا يفضلُ عملها. وفي بعض الأحيان كان طالبو الأكسجين يفشلون مراراً وتكراراً، حتى وإن جاءوا «بالقمم الثلاث» لا ينجح الأمر، لذا وتحت توشُّل الشخص، يباشرُ عملاً صعباً بدلاً عنه ليتشله من تعاسته، فيأخذُ امرأته ويغلقُ الباب ويسدُّ الناموسية، ثمَّ يُصدرُ السريرَ صريراً قوياً بدرجةٍ مُقلقة. تطلب ذلك جهداً كبيراً لفعله، لذا تقاضى أجراً أعلى.

بعد تكرارِ هذا الأمر، تناقلت الأطرافُ المعنيّة الكلامَ بينها، في البداية احمرَّت وجوه النساء وساورتهنَّ الشكوكُ، ثم شجبت وجوه الرجالِ بشكلٍ مُروّع، لم يعرفوا كيف يواجهون الأمر. وبعدَ وقتٍ قصيرٍ من ذهابِ فريقِ العملِ إلى الجبال، أرسلت أمُّ أحد أطفالها للتجسسِ على شيءٍ وكشفِ سرِّه، وجاء الطفلُ بالخبر؛ لا ينادي المدعو تشي الرجلُ بأبي إلا في غيابِ الناس!

وهذا يعني أنّه كان يجعلُ أباه يتظاهرُ بأنّه حفيده، وأنّه لم يعيش مائة عام، وأنّه لا وجودَ لأكسجين الحياة!

- «محتال!» فهمَ قائدُ فريقِ العملِ وأوماً برأسه.

ثم قال موظفٌ آخر: «اكشفوا كم احتالَ في أموالكم، وفي حبوبكم وفي نسائكم، وسنصفّي معه الحساب».

اتقدَّ الرجالُ غضباً، لكنَّهم تردّدوا، ولم يرغبوا في سردِ التفاصيل. أدركَ فريقُ العملِ موقفَهم الحرج، وفكّروا في الأمرِ إلى أن خطرت ببالهم

فكرة، وهي أن يكلفوا أحد المتعلّمين الذين يتقنون كتابة المقالات، بتلخيص فساد أخلاق «شي العصا الطويلة» وتواطئه مع مُلاك الأراضي الطغاة، ومساعدته لقطاع الطرق، ومعارضته لإصلاح الأراضي الزراعية، والتجارة غير المشروعة وغيرها في عشرتهم، وفي النهاية اتهم بأنه بلطجيّ معادٍ للثورة، وقيد بحبال ثخينة.

- إذن، هل لديك أكسير الحياة أم لا؟

- لا، لا.

ارتجف جسده أمام فريق العمل، وزال الكبرياء عن وجهه، وسأل المخاط من أنفه من شدة خوفه.

- ماذا كنت تبيعهم؟

- أ... أسبرين.

- لماذا تكذب؟

- أنا... أنا... معادٍ للثورة، أخلاقي فاسدة وأتواطأ مع مُلاك الأراضي الطغاة...

ثم سرد عن ظهر قلب التهم الموجهة إليه، ولم يخطئ في كلمة واحدة.

- هل فهمت ذلك؟

- لدي ذاكرة خارقة، لا أنسى ما أقرؤه، كلّها عبارات إنشائية تافهة، عبارات إنشائية تافهة.

- كلام فارغ! هذه التهم الموجهة إليك، عليك أن تقرّ بذنبك بصدق.

- أعترف بجرمي، أعترف.

قاده فريقُ العملِ إلى مركزِ المحافظة. وفي الطريق، تقياً أحدُ الجنودِ المسؤولين عن مرافقةِ المجرمين - ولم يكن قد تناول شيئاً - سائلاً أصفر، ثم أخضرَ ثم أسود، تقياً حتى ابيضَّت عيناه وفقدَ وعيه. ركعَ «شي العصا الطويلة» على الأرض وأجرى له تنفساً صناعياً، ثم جعله يتجرَّع ماءً من دلوٍ ليغسلَ معدته، وحين استقرَّت حالته حملَه على ظهرِه إلى مركزِ المحافظة، وسلَّمه إلى الحكومةِ بسلاحِه، وبالطبع سلَّم نفسه أيضاً. ويقال إنه سُئِلَ بعدَ هذه الحادثة، لماذا لم يقتنص الفرصةَ ويلوذُ بالفرار؟ فقال إنه لم يرغبْ في الفرار، وإنَّه يريد أن يُولَدَ من جديد، ويخرجَ من حفرةِ الروث، ويكون في خدمةِ الشعب.

لوحِظَ أدائه الملتزمُ بالقانونِ أثناءَ اقتياده إلى مركزِ المحافظة، وخففت الحكومةُ عقوبتهَ لعامين، ثم أُرْسِلَ إلى أحدِ المزارعِ للإصلاحِ عن طريقِ العمل. ويُقالُ أيضاً إنَّ ثمة خطأً في تلك الأحداث، وإنَّه لم يقضِ أيَّ فترةٍ من عقوبته، وإنَّ أحدَ الضباطِ الكبارِ في مركزِ المحافظة أُعجِبَ به، وكفَّله للخروجِ من السجنِ لِيُنمِّي قدراته، وأرسلَه إلى أحدِ المناجمِ ليعملَ طبيباً. رآه بعضُ الناسِ يشربُ الشاي في أحدِ مقاهي الشاي في مركزِ المحافظة. كان قد قصَّ شعرَه الطويلَ وحلقَ رأسه، وكفَّ عن التحدُّثِ بكلامٍ خشن، وكلَّمَا خاضَ في أي موضوع برضا وبهجة، لا يكونُ بمقدوره منعُ نفسه من التباهي في الخفاءِ قائلاً إنه لأجلِ أن يحرزَ تقدماً في ذاك العام، سمَّم أحدَ الجنودِ في الطريقِ إلى مركزِ المحافظة ثم أنقَذَ حياته، وخفَّفَ عقوبته لمدة عامين بضربة واحدة، وهكذا وهكذا.

لا أعرفُ إذا كانت هذه القصةُ حقيقية.

توفي والدُه بعد فترةٍ وجيزة، واختفت آثارُ خشونتهما من قريةٍ
ماتشياو، ولم يتبقَّ غيرُ قليلٍ من الكلماتِ الوحيدةِ مثل «صبغة اليود»
و«الصودا»، والتي فاجأتني بعدَ سنواتٍ عديدة. بالطبع، تركَ ثلاثةَ
أبناءٍ على الأقل في قريةٍ ماتشياو، لديهم الذقنُ المنحسرةُ للخلفِ ذاتها،
وأصبحوا شخصياتٍ بعضِ الكلماتِ التي سأذكرها، واستحوذوا على
قصصِ ماتشياو اللاحقة.

القِدْرُ نَفْسُهَا

لا يستخدم أهل ماتشياو في حديثهم عباراتٍ مثل أسرة واحدة، عرق واحد، إخوة، بل يطلقون على الإخوة والأشقاء «إخوة القِدْر نفسها». وإذا تزوّج رجلٌ مرّةً أخرى، يُطلق على الزوجة السابقة «زوجة القِدْر السابقة»، ويُطلق على الزوجة الأرملة إن تزوّجت مرّةً أخرى أو زوجة الأرملة إن تزوّج مرّةً أخرى «زوجة القِدْر التالية». ويمكن ملاحظة أنّهم يولون اهتماماً أكبرَ بالقدور مقارنةً بقرابة الدم، وهذا يعني الأهمية التي يولونها للطعام.

حين جاء الشبابُ المتعلّم إلى قرية ماتشياو، سكن كلُّ سبعة أفرادٍ معاً، وتناولوا الطعامَ من قِدْرٍ واحدة. بيدَ أنّه لم يكن أمراً ذا أهمية بالنسبة للسكان المحليين أنّ لكلِّ فردٍ من السبعة لقباً مختلفاً، ولكلٍّ منهم صلاتٌ قرابةً مختلفة، قِدْرٌ واحدة فقط هي الفيصلُ بالنسبة لهم لتحديد الكثير من الأمور الكبيرة. على سبيل المثال، يجبُ الذهابُ إلى السوق في شارع تشانغ لي في اليوم الخامس من كلّ شهر، وإذا كان العملُ كثيراً في الحقول أو التلال، يقرّرُ الفريقُ إرسالَ شخصٍ واحدٍ من كلّ قِدْر، ويظلُّ البقية في القرية لإكمالِ العمل. حينئذٍ تجفُّ شفاه الشباب الذين يرغبون في

الذهاب إلى السوق لإقناعهم، مصرّين على أنّهم ليسوا عائلةً واحدة، وأنّ لكلّ منهم حقّ الذهاب إلى السوق، لكن عبثاً، كانت القدرُ التي يتشاركونها خلفهم، دليلاً قاطعاً يدحضُ جدالهم عديمَ الجدوى.

ثمة فترة اشتعلت فيها نيرانُ الحبِّ بين شابٍ وفتاة، واستهلاً حياتهما الصغيرة السعيدة بحماس، وفصلاً قدرَيهما عن باقي الشباب، وجلب ذلك لهما منفعةً غيرَ متوقعة في إحدى المرات. لا يُقسَّمُ الفريقُ الزيت حسبَ نقاطِ العمل أو حسبَ كلّ شخصٍ بسببِ ضآلةِ كمّيته، لذلك حدّدوا في النهاية طريقةً لكلّ قدرٍ مقدارَ جين من الزيت، ليحظى الجميعُ بكميةِ الزيت الكافية لدهنِ القدر، وليستمتعوا أيضاً بفضيلة مشاركة الحظّ السعيد. وحين جاء أمينُ المخزن وتفقدَ مطبخَ الشباب، وتأكّد أنّ هناك قدرَين، وزّعَ حصّتي جين من الزيت، أي ضعفَ ما توقعوه.

أقاموا مائدةً باذخةً من الأرز المقلي، ومسحوا بسعادةٍ أفواههم المزيّنة، وخططوا لشراء عددٍ من القدور، وانتظار توزيع حصص الزيت القادمة وجعل أمين المخزن يراها.

وَضْعُ الْقَدْرِ

حين تُغادرُ المرأةُ المنزلَ للزواج، فإنَّ أهمَّ طقسٍ في مراسِمِ الزواج هو أن تَضَعَ العروسُ قَدْرًا جديدةً على موقِدِ منزلِ أهلِ زوجها، وأنَّ تجلبَ الماءَ لغسلِ الأرز، وتقطعَ الحطبَ لإشعالِ الموقد، وتطبخَ وجبةً من الأرز، دليلًا على أنَّها أصبحت فردًا من عائلةِ زوجها. «وَضْعُ القدر» هو مرادفٌ للزواج، وغالبًا يُختارُ وَضْعُ القدرِ في الشتاء، ليس لتجنبِ الانشغالِ في أعمالِ الزراعة، ولا من أجلِ تسديدِ المصاريف بعدَ حصادِ الخريف، بل أخبرني الناسُ أنَّ بوسعِ العروسِ ارتداءَ طبقاتٍ من المعاطفِ المبطَّنةِ بالقطنِ في الشتاءِ فقط، لتتجنبَ شجارَ الشبابِ ومزاحهم الخشنِ بغرضِ اللهُو في حفلِ الزفاف، هذا هو السببُ الأهم.

أخذني فوتشا من قبل إلى حفلِ زفاف، وفي ضوءِ القناديل والشموع الخافتة، ورائحةِ النبيذ اللاذعة، والخيالات الأنيقة، جلستُ عندَ زاويةِ الجدارِ مندسًّا بين جموعِ الناسِ أقشُرُ بذورَ البطيخ، حين سمعتُ فجأةً صوتَ صرخة، فيما تَضَخَّم ظِلُّ أسودٍ بسرعةٍ أمامي، ودفعني بشدةٍ إلى الجدارِ حتى كدتُ أختنق. حاولتُ بصعوبةٍ رفعَ رأسي من خلفِ هذا الظل، لأكتشفَ أنَّه شخص؛ كانت العروسُ ترتدي معطفًا مطبوعًا

بالزهور، وبدت بوجهها المغطى بشعرها الأشعث كأنها على وشك
البكاء. انتابني دعرٌ شديد، وقبل أن يتسنى لي تحليص نفسي من الثقل
الشديد، الأرجح من قدمها أو ظهرها، أمسكتُ بها الأيدي، وفي جلبة
الصراخ ارتمت بخطوات متأرجحة في حضن رجلٍ آخر، وغرقت
صرخاتها وسط الضحكات المدوية.

سمعتُ في اليوم التالي أن جسد العروس أصيب بخدوش زرقاء
وبنفسجية، رغم أنها كانت ترتدي أربع طبقات من المعاطف المبطنّة
بالقطن، وستة أحزمة، وهذا بسبب جنون الشباب ووقاحتهم.
يجب ألا يكون لأهل الزوج رأيٌ في ذلك.

وعلى العكس من ذلك، إن لم يتصرف المدعوون بجنون ووقاحة،
يفقد أهل الزوج ماء وجههم، ويحتقرهم الآخرون. ثمة رجلٌ في القرية
يُدعى تجاو تشينغ، كان بخيلاً في مراسم زواج ابنه الأكبر، إذ مزج النيذ
بالماء، وقدم في المائدة قطعاً صغيرة جداً من اللحم، الأمر الذي استاء
منه الضيوف، فقرروا الانتقام منه. لم يحرك أحدهم إصبعاً تجاه العروس
طيلة الحفل، وتحاشوها أو تظاهروا بعدم رؤيتها إن لمستهم عن قصد. في
اليوم التالي بكت العروس وأحدثت جلبة وقالت إنها لم تتوقع أن يحتقرها
الناس هكذا، فكيف ستواجههم؟ وتملك أخويها اللذين رافقها لوضع
القدر غضبٌ شديد، ولم يكرثا لموافقة العروس، ورفعوا القدر عن الموقد
وخرجوا عائدين إلى المنزل. لم تفكر العروس حتى في فسخ الزواج، وحين
رأت القدر غير موجودة وليس من حلٍّ آخر، بكت بحرقة وتبعث تلك
القدر عائدة إلى منزل أهلها.

وهكذا حلَّ الزواج.

الأخ الأكبر الصغير (وآخرون)

يشير «الأخ الأكبر الصغير» إلى الأخت الكبرى، وبتطبيق المبدأ ذاته، يُشار إلى الأخت الصغرى بـ «الأخ الصغير»، و«العم الصغير - شياو شو- أي الأخ الأصغر للأب» و«العم الصغير - شياو بو- الأخ الأكبر للأب» يشير إلى العمّة، و«الخال الصغير» يشير إلى الخالة وهكذا.

انتهت منذ البداية إلى أن قرية ماتشياو والمناطق القريبة منها تفتقر إلى تسميات أنثوية مستقلة للنساء اللاتي تربطهم بهن صلات قرابة، وفي الغالب يضعون كلمة «صغير» بعد التسميات المذكورة للإناث كتمييز طفيف. المرأة وكلمة «صغير» مرتبطتان إلى الأبد؛ المرأة إنسان ضئيل. لا أعرف إن كان لهذا المبدأ علاقة بتعاليم قديمة كتعاليم كونفوشيوس «وحدهما المرأة والشخص التافه من الصعب التعامل معهما».

يبدو أن اللغة ليست موضوعية ومحيدة، أو تفتقر إلى القيمة كلياً، إذ يتشوّه فضاء اللغة دائماً في ظلّ تأثير بعض الأفكار. وقد سهّلت ظاهرة إخفاء أسماء النساء فهم مكانتهن وحالتهم، ولم يكن صعباً فهم سبب ربط أرجلهم أو ربط صدورهم لتكون مسطحة، ولم تنزل نظراتهم

بخجلٍ إلى السلامِ أسفلَ الإفريز أو العشب، ولم يشعروا بالخزي والخوف من هويتهم كنساء.

لا يُمنَحُ الأعلى منزلةً اسمًا، مثل الأباطرة، الذين يتمتعون دائمًا بامتياز «الاسم المحرم». وعلى الجانب الآخر من ظاهرة تحريم الأسماء تلك، لا يُمنَحُ الأقلُ منزلةً أسماءً أيضًا. يُمنَحُ الناسُ أسماءً للحيوانات الأليفة مثل «شياو مي، لولو، بيل».. المجرمون فقط يتم تجاهلُ أسمائهم، ويُنادون بالأرقام، مثل عدد البضائع. نتجاهلُ أسماء الذين نكنُّ لهم كراهيةً شديدة، أو نقول «هذا الشيء» أو «هذا الرجل» وغيرها، ونحرمهم من مكانتهم في اللغة. وما يُعرَفُ بـ«الفئران الحغيرة» هم الذين لا فائدة من استخدام أسمائهم في الحياة العامة، هي فائضة عن الحاجة، وقلة استعمالها تؤدي إلى إلغائها كليًا. وهذا ما حدث في الثورة الثقافية، إذ صودرت أسماء مثل: المعلم، المهندس، الدكتور، الفنان. لم يكن في نية السلطات إلغاء هذه المهن، ولا القضاء على هؤلاء الأشخاص عن عمد، في الواقع، كانت السلطات حريصة على التطور السريع لمختلف المشاريع باسم الثورة. لا يوجد سوى دافعٍ نفسيٍّ قوي من جانب السلطات لإضعاف -أو حتى محو- حق تسمية هؤلاء الأشخاص، فأي تسمية يمكن أن تكون بدايةً لفكرٍ ونظامٍ عقائدي.

تتخلل دراسات النظرية والاسم الفلسفة كلها في الصين القديمة، فأي نظرية، تعتمد على الاسم كمرتكز وأساس، وتركز على جميع الحُجج وتلخصها.

نزعُ أسماء النساء في قرية ماتشياو هو في الواقع إعطاؤهن أسماءً مُذكَّرة. وهذه ليست ظاهرة نادرة إلى هذا الدرجة، فاللغة الإنجليزية

التي سادت مئات السنوات من عصر التنوير، تشير إلى الإنسان والرجل بـ (Man)، وإلى الرئيس بـ (Chairman)، والوزير بـ (Minister) وغيرها من الأسماء المذكورة البراقة، وتنتقد إلى الآن من قبل تيار النسوية. على أن اللغة الإنجليزية لم تصل في انحيازها للذكورة إلى مستوى اللغة في ماتشياو: أن تُلغى الأسماء المؤنثة كلياً. واجهت صعوبة كبيرة في بحث ما إذا كان تحريف هذه اللغة قد أثر على علم النفس الجنسي أو حتى على البيولوجيا الجنسية لنساء ماتشياو، وإلى أي درجة غير الواقع.

في الظاهر اعتادت أغلب النساء الصراخ والتحدث بصوت عال، حتى أنهن تعلمن الشجار والشتيمة، وتملكهن البهجة ما أن يتولين زمام الأمور أمام الرجال. قلما كانت أيديهن ووجوههن نظيفة، وقلما كنَّ يرتدين ألواناً زاهية، بل يختبئن في ملابس الذكور، البناتيل الواسعة أو السترات المبطنّة بالقطن القاسية والجافة، ويخفين أي أثر لأنوثتهن. كما أنهن ينجلن من التحدث عن الحيض، ويُشرن إليه بـ «ذاك الشيء». و«ذاك الشيء» هو بالضبط كأن تكون بلا اسم. وكان من النادر أن أرى أثناء عملي في الحقل امرأة تطلب إجازة للحيض، بل يطلبن إجازة للاهتمام بالمزارع، أو رعي الخنازير أو مساعدة العمال وغيرها من تلك الأمور، لكنهن لا يمنحن إجازة لأجسادهن، وخطر بيالي أنهن لتأكيد أدوارهن الذكورية كـ «أخ أكبر صغير» يجب عليهن القضاء على حيضهن.

منزلُ الخالدين (والكُسالى)

ثمة طريقٌ مرصوفٌ بالأحجارِ أعلى قوس ماتشياو، على جانبيه أكواخٌ ريفية، وعلى أحدِ جانبي الطريق جدارٌ خشبيٌّ عادي، مائلٌ إلى الشرقِ والغرب، لكنَّه ما يزالُ يحتفظُ بمنصَّاتٍ مربعةٍ عاليةٍ من الطوب. وإنَّ أمعنتَ النظرَ ستكتشفُ أنَّ هذه المنصَّات هي مناضدُ بيعٍ منذ سنواتٍ، وأنَّ هذه البيوتَ القديمة تُظهرُ أناقةَ واجهاتِ المحلات. مناضدُ البيعِ هي حُطامُ التجارة. ورد في كتاب «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد» أنَّ هذه المنطقة شهدت ازدهاراً في عهدِ الإمبراطور تشيان لونغ من أسرة تشينغ، وأنَّ مناضدَ البيعِ المتهاككة - تلك التي زالَ طلاؤها، وغطَّها ذرقُ الدجاجِ والبط - هي على الأرجح دليلٌ ماديٌّ على ذلك.

أثرٌ آخرٌ قديمٌ يثيرُ الشك، قدَّرَ حديديةُ ضخمةٌ بها شقوقٌ وتصدَّعاتٌ طويلة، متروكةٌ في الأحراجِ خلفَ مخزنِ حبوبٍ عام لا يكثرُ لها أحد، قاعها مليءٌ بالأوراقِ العفنةِ ومياهِ المطر. الحجمُ الكبيرُ للقدرِ مثيرٌ للدهشة، فهي تكفي لطهي سلَّتين من الأرز، وستكونُ المغرفةُ على الأقل في حجمِ مدَّة. لم يعرف أحدٌ لمن كانت هذه القدر، ولماذا يحتاجُ صاحبُها

إلى قِدرٍ كبيرةٍ كهذه؟ ولماذا تركها لاحقاً؟ إنَّ استُخدمت هذه القِدرُ لطهي الطعام للأجيرين، إذن فصاحبُها حتماً مالكٌ أراضٍ ثري، وإنَّ استُخدمت لطهي الطعام للجنود، فصاحبُها حتماً جنرالٌ عالي الرتبة، كانت هذه التخمينات كافيةً لإخافتي.

عن الازدهار الذي وصفه كتاب «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد»، كان ثمة زاويةٌ في منزلٍ قديمٍ أعلى قوسٍ ماتشياو؛ منزلٌ مبنيٌّ من الطوب الرمادي والقرميد نُزعت بوابته، ويُقالُ إنَّ الأسدَ الحجريَ أمامها قد حُطِمَ أثناء الثورة الثقافية، لكنَّ العتبةَ الحجريةَ التي يقترُبُ ارتفاعُها من ركبةِ إنسانٍ تكشفُ عن السلطةِ والجاه في ذلك الوقت. كانت هناك نافذةٌ لم تُنزع، ونقوشُ التنانين المحلقة والعنقاوات الراقصة أعلاها في غاية الدقة والاتقان، ينمُّ عن عيشٍ مفعمٍ بالترف. يصفُ السكانُ المحليون بنبوةٍ مازحةٍ هذا المنزلَ الذي لا سيِّدَ له بـ«منزل الخالدين». وعلمتُ فيما بعدُ أنَّ «الخالدين» تشيرُ إلى أربعةٍ كسالى لم يؤدوا عملهم بصدقٍ في الحقول، وهم «الملوكُ الأربعةُ السماويون» لقرية ماتشياو، وعاشوا هنا لزمانٍ طويل.

ذهبتُ مرَّةً إلى منزلِ الخالدين، إذ أرسلني الكادرُ لنقشِ اقتباساتِ الرئيس ماوتسي تونغ بالأحمر والأصفر، ولا يمكن تحاشي هذه الزاوية. كنتُ أعرفُ حين وصلتُ أنَّ ملوكَ المنزل إما توفُّوا أو هربوا، ولا يوجدُ إلَّا «مامينغ». لم يكن في المنزل، سعلتُ مراتٍ عدَّةً عندَ البوابةِ ولم أتلَقَ إجابةً، ولم يسعني إلَّا أنْ أرتقي بذعرٍ سلا لم حجريةٍ متهالكةٍ لأدلفَ إلى ذلك الظلامِ المليءِ بالغبار، وحاصرتني حالةٌ من ذُعْرِ الموشك على كارثةٍ مميتة. لحسن الحظ كانت إحدى زوايا الغرفة اليمنى ينقصُها

بضع قطع قرميد تسلك عبرها شعاع نور، لاذت إليه عيناى من الخطر الداهم. استطعت أن أرى شيئاً فشيئاً أن جداراً من الطوب هنا، ولم أدري لماذا انتفخ إلى الخارج مثل بطن بوذا. كانت الجدران الخشبية مُحَرَّمَةٌ بالثقوب الدودية، والأعشاب تنمو في كل مكان، ولانسحاق الطوب المهشم صوت مسموع. كما كان هناك تابوت ضخم يستند على الجدار، مغطى بالأعشاب أيضاً، بالإضافة إلى مُشَمَّعٍ بال. رأيت سرير صاحب المنزل؛ حصيرة بالية وسط عُش من القش عند زاوية الجدار، تعلوها حشوة قطنية سوداء كالدخان، على الأرجح هي موقع تدفئة قدمه، مربوطة بإحكام بحبل من القش، تنم عن براعته في الوقاية من البرد. وإلى جانب العش بطاريتان قديمتان وزجاجة نبيذ وعُلب سجائر ملونة، يمكن رؤيتها كاستيلاء مُتَقَطِّعٍ للعالم خارج بوابة منزل الخالدين.

دهمتني رائحة قوية ولاذعة، اختفت حين أدت رأسي إلى الناحية الأخرى، ثم شممتها مرة أخرى حين أدت رأسي إلى الجهة التي تأتي منها. لم يكن بمقدوري إلا الشعور بأن الرائحة الكريهة هنا لم تعد غازاً، بل شيء صلب دون شكل، متراكم منذ مدة طويلة، تحتر وتخذ شكلاً نهائياً، حتى أن له وزناً ثقيلاً، يخفف سيد المنزل الوطء بلا ريب، فلا يثير هذه الرائحة اللاذعة مطلقاً.

تفاديت بحذر أيضاً الرائحة الكريهة المتصلبة، وبحثت عن موضع يمكن فيه لأنفي الاسترخاء قليلاً، وكتبت لافتة اقتباس: «تناول الطعام الجاف إن كنت مشغولاً، تناول المرق إن كنت متفرغاً، وفي الأوقات العادية وازن بين الجاف والسائل» آملاً أن تفيد صاحب المنزل.

سمعتُ شخصاً يتنهدُ خلفي ويقول: «حين يضطربُ الوقت، يكونُ الاضطرابُ وشيكاً».

لا يُسمَعُ وقعُ خطواتٍ للشخصِ خلفي، ولا أدري متى ظهر، كان هزياً إلى حدٍّ أنَّ صُدغِيه غائران بعمق، يضعُ قُبعةً قطنيةً ويرتدي معطفاً مبطناً بالقطن في غير أوانه، ويضع يديه في كُمَيْه ويتسَمُّ لي، هو قطعاً صاحبُ المنزل. كانت حافةُ القُبعةِ كجميعِ الرجالِ هنا، دائماً مائلةً بزاوية كبيرة.

حينَ سألتُه، أوماً برأسِه وقال إنَّه بالفعل مامينغ.
ثم سألتُه ماذا قال للتو.

ابتسم مرَّةً أخرى وقال إنَّ هذه الكتابةَ المُبسَّطة^(١) غيرُ منطقية، ففي أصولِ المقاطعِ الصينية الستة، الكتابةُ التصويريةُ هي أفضلُ طريقةٍ للتواصل. مثل رمز «الوقت 時» المكتوب بالطريقةِ التقليدية، مقطعُ المعنى جهةَ اليسار هو «اليوم 日» ويُنطقُ rì والمقطعُ اللفظي جهةَ اليمين «寺 sì»، أي معناها «日» وتُنطقُ «寺»، فلماذا نغيِّرُ شيئاً بهذه الجودة؟ إنَّ غيرَها بإضافةِ المقطعِ «寸» ويُنطقُ cùn لن يستطيع القارئُ تتبَّعَ المعنى، وستبدو قبيحةً للعين، وستعبثُ تماماً بنسيجِ الكلمات، في الحقيقة هذا تمرُّدٌ وفوضى. حين يضطربُ الوقت، يكونُ الاضطرابُ وشيكاً.

أحسستُ برهبةٍ من هذا الكلامِ المتعلِّم، كان خارجَ نطاقِ معرفتي كذلك، فغيَّرتُ الموضوعَ على الفورِ وسألتُه أين كان منذ قليل.
قال إنَّه كان يصطادُ السمك.

(١) أي الكتابة بالرموز الصينية المُبسَّطة.

- «السّمك؟». لاحظتُ أنّه لا يحملُ شيئاً في يديه.

- «هل تصطادُ السّمك أنتَ أيضاً؟ لعلّكَ تعلمُ أنّ معنى صيدِ السّمك لا يتعلّقُ بالسّمك، بل بالطريقة. السّمكُ الكبير والسّمكُ الصغير، سمكٌ أو دون سمك، كلّ صيدٍ وله طريقته وله طاو، لكلّ متعته الخاصة بغض النظر عن النتيجة. المكارون والشرسون فقط من يعميهم الجشع، فيستخدمون في الصيد الطحالب السّامة والمتفجرات، والضرب بالعصا في الشباك، إنّهُ مناخٌ فاسدٌ من الجهل والاضطراب، عاداتٌ مقرفة وشريرة لا تُحتمَل، لا تُحتمَل!» احمرّ وجهه من الانفعال وسعل.

- هل تناولت الطعام؟

غطى فمه وهزّ رأسه.

خشيتُ بشدة أن يطلبَ مني إعارته قليلاً من الأرز، فلم أنتظر حتى ينتهي من سعاله وقلت: «صيدُ السّمك جيد، السّمك المطهو على البخار لذيذ».

- «ما الشهي في السّمك؟» نخرَ بازدراءٍ وأكمل قائلاً: «مثل تناولِ الرّوث، قذارة!».

- إذن... هل تأكل اللحم؟

- آه، الخنازيرُ أشدُّ الحيواناتِ غباءً، لحمُها يتلفُ الكفاءة، البقرُ أشدُّ الحيواناتِ حماقةً، لحمُها يُفقدُ الذكاء، أمّا الماعز، الماعزُ أشدُّ الحيواناتِ جبناً، لحمُها يفسدُ جرأة المرء، كلّها أشياء سيئة.

لم أسمع بهذه الأمور من قبل.

لاحظَ الرجلُ ارتياي، ثم ابتسم ابتسامةً جافةً وقال: «الأرضُ شاسعة، وما زلت تخاف ألا تجد ما يؤكّل؟ انظرْ إلى الفراشات كم ألوانها زاهية، كم صوت الزيز صافٍ، وفرسُ النبي تطيرُ فوقَ الجدران، والعَلَقَةُ تتنحَّى بجسمِها، مئاتُ الأنواعِ من الحشرات، تجمعُ خلاصةَ السماء والأرض، وتُراكمُ حكمةَ القديم والجديد، إنّها الأُطعمةُ الشهيةُ الأشدُّ ندرةً.. الشهية!» فرقعَ بلسانه ثم ضربَ شفّتيه ولسانه باستمتاعٍ بالغ، وفجأةً، كأنّه تذكّرُ أمراً ذهبَ إلى عُشّه والتقطَ جرّةً خزفيةً، وأراني شيئاً أسودَ داخلها. «تذوّق، للأسف لم يتبق من التنين الذهبي المخلل الذي أحتفظُ به غيرُ القليل، مذاقه طيب حقّاً».

حين نظرت، كان التنينُ الذهبي في الأصل ديدانَ الأرض، فشعرتُ بتقلباتٍ في جهازِي الهضمي بأكمله.

- «تذوّق، تذوّق». فتحَ فمه بحفاوة، وكشفَ عن سنٍّ ذهبية، وهبَّ نفسٌ أصفرٌ له رائحةُ نِتنة.

انطلقتُ هارباً في الحال.

لم أقابله لمدةٍ طويلة، ولم تُتخ لي الفرصةُ تقريباً لمصادفته، فهو لا يخرجُ للعمل، كما أنّ الملوكَ الأربعةَ السماويين لم يلمسوا الأدوات الشائعة كالماول وعمود الحَمْل^(١) لعشراتِ السنوات، ويُقالُ إنّهُ مهما

(١) عمود الحَمْل: عصا من خيزران أو خشب، يستخدمها الحَمَّالون لموازنة الأحمال أثناء عملهم، كأن يعلقوا على طرفيها سلّتين أو دلوين، وهي أداة شائعة الاستخدام لدى أصحاب هذه المهنة الذين يحملونها على الكتف، وتُسمّى أيضاً «النّير» وإن كانت الكلمة الأخيرة تستخدم عادةً للإشارة إلى العمود الذي يوضع على عنق الثور في الحراثة أو إدارة السواقي.

كان عدد الكوادر التي تذهبُ لنصحهم وتوبيخهم وحتى ربطهم بالحبال، فإنَّ ذلك دون جدوى. وإنَّ هَدَّوهم بإلقائهم في السجن، يكونُ ذلك غايةَ ما يتمنون، فالبقاءُ في السجن سيوفرُ عليهم إعدادَ الطعام. على أنَّهم في الواقع قلَّما يطبخون، ورغبتهم في السجن ما هي إلَّا محاولةٌ للدفعِ بكسلهم إلى حالةٍ مُطلقة، نقية، ونهاية. لم يترافقوا من قبل، ولم تكن لديهم أوقاتٌ محددةٌ للوجبات، من يجوع يختفي، ثم يُرى عائداً وهو يمسحُ فمَه، ربما تناولَ حشراتٍ أو ثماراً بريَّة، أو سرقَ فجلة أو حبوباً من بيت أحدهم وتناوله نيئاً. أمَّا إنَّ أشعلَ أحدهم ناراً لطبخِ الطعام، فإنَّهم يعدون ذلك عملاً مبتدلاً يتطلبُ مجهوداً كبيراً، ويسخرُ منه الآخرون. لا يملكون شيئاً، حتى ملكية المنزل بالطبع غير محددة، لكنَّهم في الوقتِ ذاته يملكون كلَّ شيء، فحسبَ كلام مامينغ «المشهد قابل للتغيير لا ينتمي إلى شيء، والمُتبطَّل هو سيد الكل». كانوا يمرحون طوال اليوم، يلعبون الشطرنج، يدندنون بأغاني الأوبرا، ويستمتعون بالمشاهد الطبيعية، يتسلقون الجبال ويتأملون الأفق البعيد، يستوعبون الجبال والأنهار، وينهلون من القديم والجديد، ويبدون في هيئةِ كأنَّهم انفصلوا عن العالم وصعدوا إلى السماء وأصبحوا خالدين. لا يستطيع العاملون في الحقول منعَ أنفسهم من الضحك حين يرونهم يرتقون الجبل، فيما الأربعة لا يكثرثون، بل على العكس، يسخرون من هؤلاء الذين يعملون طيلة اليوم في الحقول، الطعامُ موجودٌ لطبخه، وطبخه لأجلِ تناوله، الكبارُ يطبخون لأبنائهم، والأبناءُ يعملون لأحفادهم، يكدحون في حياتهم كالماشية، أليس هذا مثيراً للشفقة؟ رغم ادخارهم أموالاً كثيرة، فإنَّ الواحدَ منهم لا يرتدي أطولَ من ذراع، ولا يتناولُ

إِلَّا ثَلَاثَ وَجِبَاتٍ فِي الْيَوْمِ، كَيْفَ لَذَلِكَ أَنْ يُضَاهِي دَعْوَتَهُمَ لِلشَّمْسِ
وَالْقَمَرِ بِالْأَصْدِقَاءِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ بَيْتُهُمْ، وَاسْتِمْتَاعَهُمْ بِالْمَنَاطِرِ
الْجَمِيلَةِ وَالْوَقْتِ الْجَيِّدِ وَالسَّعَادَةِ الْكَبِيرَةِ وَالثَّرْوَةِ!

وهكذا لم يكن وقوفهم للتأمل في النهار غريباً على الناس إن رأوهم
هناك، وكانوا يتجاهلونهم.

كان من بين الملوك الأربعة السماويين راهب طايوي يُدعى «ين»
يذهب أحياناً إلى القرى البعيدة لأداء بعض الطقوس، في حين ذهب
«خو أرتسي» إلى مركز المحافظة لتسوّل الطعام، غادر ولم يعد إلى القرية
منذ أكثر من شهر. وصرّحت المحافظة أنّ لتسوّل أهل ماتشياو الطعام
هناك تأثير سيء، ولا بُدَّ أن تخضع القرية لرقابة صارمة، وأنّه يتحتّم
علينا مساعدة مَنْ هُم في ضيق حقيقي، فليس على الناس الموت جوعاً في
سبيل تحقيق الاشتراكية. لم يكن لعمدة القرية المسن العم لُوّه خياراً آخر،
واضطر إلى إرسال المُحاسب فوتشا لإحضار سلّة حبوبٍ من المخزن
وإيصالها إلى منزل الخالدين.

كان مامينغ رجلاً عنيداً، وحدّق فيه قائلاً: «لا، هذا عرّق الناس
وجهدُهم، وتأخذونه لتتصدقوا به؟ هذا ليس منطقياً!».

لكن ما قاله منطقيّ، لذا اضطر فوتشا إلى العودة بسلّة الحبوب.
لا يتناول مامينغ الطعام الذي يُقدّم له صدقة، ولا يستخدم مياه
الآخرين، فهو لا يستخرج الطين ولا يجلب الأحجار لجدار البئر، ولن
يستخرج الماء من البئر مهما كلف الأمر. كان يحمل دلوّاً خشبياً، ويذهب
إلى جدولٍ قريبٍ بمسافة اثنين أو ثلاثة لي، ويشتدّ تبعه إلى حد أن عروق

جبينه الزرقاء تبدو نافرة، يمشي لاهثاً، تلتوي عظام جسمه بسبب ثقل الدلو، يمشي خطوتين ويستريح ثلاثاً، ويبدو شكل أنفه ووجهه مشوهاً لفرط شعوره بالألم. يشعر الآخرون بالتعاطف تجاهه حين يروونه في هذه الحالة، ويقولون إن البئر لكل أهل القرية، فكيف نحرّمك من حاجتك القليلة من الماء؟ فيضغط على أسنانه قائلاً بغيط: «مَن يعمل أكثر يُكافأ أكثر، مَن يعمل أقل يُكافأ أقل». أو يتباهى بمعرفته قائلاً: «مياه الجدول عذبة».

قدّم له أحدهم صحناً من شاي السمسم والزنجبيل والملح وأصرّ على أن يشربه، وقبل أن يكمل عشر خطوات، تقيأ بشدة، وغطى اللعاب فمه وابتضت عيناه. وقال إن ذلك ليس عدم امتنان، بل لأن معدته لا تتحمل هذا الطعام الشعبي، وإن مياه البئر لها رائحة ذرق بط، فكيف يشربها؟ بالطبع لم يفرض تماماً إحسان الآخرين، فهذا المعطف المبطن بالقطن الذي يرتديه صيفاً وشتاءً صدقة من أهل القرية؛ في البداية أصرّ على رفضه، إلى أن غيّر عمدة القرية كلامه قائلاً إن هذا ليس صدقة، بل تناشده القرية ألا يرتدي ملابس رثة ويتجوّل بها، لأن ذلك يريق ماء وجه قرية ماتشياو، وهكذا أصبح رجلاً ذا نخوة ومروءة، يساعد الآخرين في تحقيق أمنياتهم، وقبل المعطف الجديد على مضض. وحينما يذكر هذا الأمر، يذكره كأنه مُني بخسارة كبيرة، فيقول لا يهم كم عُمر عمدة القرية، فهو لم يحفظ ماء وجهي على الإطلاق، هذا المعطف يحرق العظام، يُمرّضك إن لم تكن مريضاً.

لم يكن يخاف البرد، وغالباً ينام في العراء، وإذا ذهب إلى مكان ثم فقد الرغبة في المشي يتشاءب، ويتكوّر بملابسه مثل كعكة وينام أحياناً أسفل

الأفاريذ، وأحياناً إلى جانب البئر، ولم يرَ أيَّ مشكلةٍ في ذلك. وحسبما قال، حين تنام في العراء يكونُ أعلاك متصلاً بروح السماء، وأسفلك متصلاً بروح الأرض، ومن الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى الساعة الواحدة صباحاً يُدمَجُ الين في اليانغ، وفي الظهيرة يُجمَعُ اليانغ في الين، وهذا أفضلُ مقوٍّ للجسم. قال أيضاً إنَّ الحياة حُلُمٌ، وإنَّ أهمَّ شيءٍ في حياة الإنسان هو الحُلُم؛ إنْ نمتَ إلى جانبِ مساكنِ نملٍ ستحلُمُ أحلامَ امبراطور، وإذا نمتَ بين أجماتِ الزهور ستحلُمُ أحلاماً رومانسية، وإنْ نمتَ أمامَ رمالٍ متحركة ستحلُمُ أحلاماً ذهبية، وإنْ نمتَ أعلى قبرٍ ستحلُمُ أحلاماً مخيفة. لم يكن يملك شيئاً في حياته إلاَّ الأحلام، ولم يهتم بشيءٍ في حياته إلاَّ المكان الذي سينام فيه. الأكثرُ بؤساً مَنْ يعيشُ حياته مستيقظاً، ولا يختبر العيش وهو نائم، النوم - الاستيقاظ - النوم والاستيقاظ، النوم دائماً أولاً. مَنْ لا يحلم يعيش نصفَ حياة، وهذه في الحقيقة خسارةٌ كبيرة.

رأى الآخرون كلامه جنوناً ومثارَ سخرية، ما زادَ العداوةَ بينه وبين أهلِ القرية يوماً بعدَ يوم، وأدَّى إلى المزيدِ من الصمت والنظرات الغاضبة في العلن.

لأكن دقيقاً، لم تربطه أيُّ علاقةٍ بالعامّة، أو بكلِّ التغيرات القانونية والأخلاقية والسياسية في قرية ماتشياو. إصلاح الأراضي الزراعية، حركة القضاء على قُطّاع الطرق والطغاة، فِرَق المساعدة المتبادلة، الجمعيات التعاونية، الكومونات الشعبية، حركة التطهيرات الأربعة، الثورة الثقافية، لم يعنِ له كلُّ ذلك شيئاً، لم يكن تاريخه، كلّها ألعابٌ استمتع بمشاهدتها من بعيد، ولم تُؤثر فيه مطلقاً. في سنة بناءِ الكانتين، جاءت إلى القرية كوادُرُ تفتقرُ إلى الخبرة، وربطوه بحبلٍ وجُرّوه إلى موقعِ العملِ

لإصلاحه، ومهما ضربوه بالعصا أو جلدوه بالسوط، كان يَقلِبُ عينيه مفضلاً الموتَ على العمل، ومفضلاً الموتَ على الوقوف، ومُتمرِّغاً في الطينِ بلا توقف. ولم تكن عودته إلى منزله بعد مجيئه أمراً يسيراً، لذا كرَّرَ قائلاً إِنَّه سيموت أمامَ هذه الكوادر، وأينما ذهبت زحفَ إليها، إلى أن حمله الناسُ وهرعوا به إلى منزلِ الخالدين. كان أقوى من أيِّ سلطة إن تخلَّى عن الرجولة وأساء التصرف. وهكذا أحبطَ آخرَ محاولاتِ المجتمع لمضايقته والاعتداءِ عليه، وأصبحَ من حينها عدماً بالنسبة لمتشياو، فراغاً، طيفاً يطفو. ونتيجةً لذلك، ومع حلولِ مراجعةِ المنشأ الطبقي، وتوزيعِ الحصص، وسياسةِ الإنجاب وحتى إحصائياتِ السكان، ساعدتُ القريةُ في هذه الأعمال، ولم يذكرُ أحدٌ وجودَ شخصٍ يُدعى مامينغ، ولم يروا داعياً لوضعه في الاعتبار.

إنَّه بالتأكيد ليس مُدرجاً في الإحصائية السكانية الوطنية.

إنَّه بالتأكيد ليس مُدرجاً في الإحصائية السكانية العالمية.

ويبدو جلياً أَنَّهُ لم يعد إنساناً.

إنَّ لم يعد إنساناً، فماذا يكون؟ المجتمع مزيجٌ من البشر. لقد رَفَضَ المجتمع، فحرَّمه من أهليته إلى أن وصلَ إلى هذه النقطة، أَخْنُ أَنَّهُ، لطالما رَغِبَ في بلوغِ منزلةِ الخلود.

الأمرُ الذي فاجأني قليلاً، أَنَّهُ في المنطقةِ القريبةِ من قريةِ ماتشياو، توجد العديد من الكائنات الحية مثله الذين تركوا عالم الإنسان طواعية. كان ثمة أربعة ملوكٍ سماويين في ماتشياو، ويُقالُ إِنَّ العديدَ من القرى القريبة والبعيدة كان فيها سابقاً كُسالى مثلهم، لكنَّهم لم يكونوا معروفين

للغرباء، فقط إن اكتشفهم الغريب مصادفةً وسأل بفضولٍ عنهم، حينها يتحدث الأهل عن هذه الكائنات الحية، كأئهم نسوا أمرهم. هم عالم آخر انهار واختفى داخل هذا العالم.

قال لي فوتشا من قبل إنهم لم يكونوا يقظين مُطلقاً (انظر مدخل «اليقظة»)، وإن أغلب آبائهم كانوا ميسوري الحال، وأذكاء لدرجة الوقاحة. بينما هم، كانوا مشاغبين قليلاً في صغرهم، وغير مجتهدين في الدراسة، وهذا الدليل الأول. مامينغ على سبيل المثال، لم يكتب واجبه أبداً، لكن عند نظم المقطوعات الشعرية، كان فصيحاً، مثال على ذلك: «نرى العلم الوطني فيشعر الكل بالاضطراب، نرقص رقصة اليانكو^(١)، فتتورط في اللاجدوى». ورغم أن الكلمات معادية للثورة، فإن مطابقة الصوت والمعنى لا تشوبها شائبة، أليس كذلك؟ عند انتقاده أشاد الجميع بالموهبة الأدبية لهذا الطفل، لكن شخصاً مثله يفسد إذا فقد أبويه، ويصبح عِلْمياً (انظر مدخل «العلم»). من يدري إن كان ممسوساً.

(١) رقصة اليانكو: رقصة شعبية صينية تقليدية، ابتكرها المزارعون الذين كانوا يعملون في حقول الأرز في عهد أسرة سونغ.

العلم

يُقَطَّعُ أَهْلُ مَاتَشْيَاوِ الْأَخْشَابَ فَوْقَ التَّلَالِ، ثُمَّ يَحْمِلُونَهَا عَائِدِينَ ثُمَّ يَضَعُونَهَا عَلَى الْأَرْضِ لِتَجْفَ وَبَعْدَهَا تُحْرَقُ. تَكُونُ الْأَخْشَابُ الرُّطْبَةُ ثَقِيلَةً جَدًّا وَمَوْئِلَةً لِلْكَتْفَيْنِ، لِذَا خَطَرَتْ لَنَا فِكْرَةٌ نَحْنُ الشَّبَابُ الْمُتَعَلِّمُ، هِيَ أَنْ نَضَعَ الْأَخْشَابَ تَجْفُ فَوْقَ التَّلَةِ ثُمَّ نَعُودُ بِهَا. فِي كُلِّ مَرَّةٍ نُقَطَّعُ الْأَخْشَابَ وَنَتْرَكُهَا لِتَجْفَ تَكُونُ خَفِيفَةً أَثْنَاءَ حَمْلِهَا. رَأَى الْعَمَلُ لَوْ أَنَّهَا طَرِيقَةٌ جَيِّدَةٌ، وَحَمَلَ عَنِي الْأَخْشَابَ لِيَجْرِبَ، فَاتَسَعَّتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ إِنَّهَا خَفِيفَةٌ حَقًّا.

قُلْتُ إِنَّ كَمِيَّةً كَبِيرَةً مِنَ الْمَاءِ تَبَخَّرَتْ مِنْهَا.

أَنْزَلَ الْحَمُولَةَ، وَحَمَلَ الْأَخْشَابَ الرُّطْبَةَ الَّتِي قَطَعَهَا لِلتَّوْ وَمَشَى هَابِطًا التَّلَةَ. أَدْهَشَنِي سَلُوكُهُ، فَلَحَقْتَهُ وَسَأَلْتُهُ لِمَاذَا لَا يَجْرِبُ طَرِيقَتَنَا؟

- إِنَّ الَّذِي لَا يَرِيدُ حَمَلَ الْأَخْشَابَ لَا نِيَّةَ لَهُ فِي الْعَمَلِ.

- لَيْسَ الْقَصْدُ أَنَّنِي لَا أَرِيدُ حَمْلَهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نَحْمِلَهَا بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ إِلَى حَدِّ مَا.

- أَيُّ طَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ؟ أَلَيْسَ هَذَا يَعْنِي أَنْ تَتَعَلَّمَ الْكَسَلُ؟ انْظُرْ إِلَى السَّيَّارَاتِ وَالْقَطَارَاتِ وَالطَّائِرَاتِ فِي مَدِينَتِكُمْ، أَلَيْسَتْ تِلْكَ

أفكار أناسٍ كُسالى؟ كيف يمكنك اختراع هذه الأسماء الشيطانية
إن لم تكن كسولاً؟

خطفَ هذا الكلامُ أنفاسي.

ثم أردفَ قائلاً: «عِلْمٌ هنا وعِلْمٌ هناك، انظر، سيصبحُ الجميعُ مامينغ». ويقصدُ سيدَ منزلِ الخالدين. لم يخرج مامينغ من منزله للعمل من قبل، حتى أموره الخاصة لا يقوم بها، وأحياناً يعود بشمرة قرع ويتناولها نيئة لأنه أكسلُ من أن يشويها، وهكذا اعتاد تناول الطعام النّئى، يمضغُ الأرز الذي يعثرُ عليه نيئاً، فتتلطّخُ زاويتا فمِه بطحينِ الأرز. كان الناس يسخرون منه، فيسترسُلُ في تفسيرٍ وراء تفسيرٍ قائلاً إن طُبِخَ الطعام لا يكون مغذياً، وإن الحشرات والذئاب في الجبال تأكلُ الطعام النّئى، لذلك قوّتها أشدُّ من الناس، وقلّما تمرض، فما السيئُ في ذلك؟ كما أنّه لا يحملُ دلوَ البول، بل يحفرُ حفرةً أسفلَ قدمه عند زاوية الجدار، ويأتي بعضاً مجوّفةً من الخيزران من منزله ويتبولُ عبرها، ويرى أن التبولَ بهذه الطريقة أكثرَ علميّةً من حملِ الدلو، فضغطُ الماء يكون أقل، من الأفضل أن تترك المجرى مفتوحاً على أن تسدّه.

لم يكن يغسلُ وجهه حين يحلُ الشتاء، فتتكوّنُ على وجهه قشرة، تتساقطُ قطعاً إذا فركها أو كسرها بيده أو قشرها؛ ولم يقل إنه يخافُ الماء البارد، بل قال إن تكرارَ غسيلِ الوجه ليس علمياً، فهو يتزعزُعُ الزيوت الطبيعية ويؤذي البشرة.

والأكثرُ إثارةً للسخرية أنّه يستغرقُ نصفَ ساعةٍ للعودة إلى المنزل بحمولةٍ ماءٍ من الجدول، تحديداً حين يصعدُ التلّة، يسيرُ في طريقٍ متعرج

على شكل «之»، ويمشي في انعطافاتٍ والتواءاتٍ لمدةٍ طويلةٍ ويجد نفسه لا يزالُ في منتصفِ الطريق، ويتعجب الذين يجلسون في خمولٍ واسترخاءٍ أعلى التلّةِ قائلين: «أليس من الأفضل أن تضع الدلو وتغني لنا أغنية؟» فيرد مامينغ: «ماذا تعرفون أنتم؟ إنَّ المشي بهذه الطريقة يوفرُ الطاقة، عندما بنى تجان تيان يو^(١) طرقَ السكك الحديدية في بادالينغ بناها على شكل «之»».

لم تكن لديهم أيُّ فكرةٍ عمّن يكون تجان تيان يو.

- «وكيف لكم أن تعرفوه!» بدا متعجباً ومتغرساً، في ترفعٍ عن هدرِ كلامه مع هؤلاء الناس، فحمل دلوَي الماء، وسار في انعطافاتٍ كالسابق، موفراً طاقته الثمينة حتى يصل إلى منزل الخالدين.

قال الناس لاحقاً إنَّ الكسولَ في منزل الخالدين يغدو عِلْماً يوماً بعد الآخر، والمكان هناك على وشك أن يكون أكاديميةً علمية. يُمكن تخيُّل أن معنى كلمة «العِلْم» التي عرفها أهل ماتشياو من مامينغ، لم تترك لديهم انطباعاً طيباً. وأظنُّ أنَّهم لم يلقوا نظرةً على كُتُبَاتِ الزراعة العلمية التي وزعتها السلطاتُ المعنية لاحقاً، إذ قُطعت واستُخدمت كلفافاتٍ تبغ، كما أنَّهم لم يكثرثوا للبثِّ المتكررِ حول الطريقة العلمية لإطعام الخنازير، إلى حدِّ أنَّهم قطعوا سلكَ البثِّ المعدني واستخدموه كطوقٍ لدلوِ البول، كان كلُّ هذا نابعاً من نوعٍ من القصورِ النفسي، أو

(١) تجان تيان يو Zhan Tianyou: مهندس سكك حديد، وأول من أنشأ خط السكك الحديدية من نانغ شان إلى تيان جين.

بمعنى آخر، الاستهزاء والسخرية من الملوك الأربعة السماويين هي امتدادٌ للعلم. ذهبت مجموعة من شباب ماتشياو ذات مرة إلى شارع تشانغ لي لحمل الكِلْس، وشاهدوا باصاً يجري إصلاحه في الطريق العام، وتملكهم فضولٌ شديد. أحاطوا الباص واستولت عليهم رغبة مفاجئة في طرقِ الباص بعمودِ الحَمْلِ بقوة، حتى أحدثوا فجوتين في هذا الهيكل الذي كان منذ قليل في حالة جيدة. ظهر السائق المستلقي أسفل الباص وكان يشتم ويحمل مفتاح صامولة ليضربهم، ففرق الشباب، إلا أن دافعاً مجهولاً دهمهم بعد هروبهم، وعادوا وهم يصرخون ويقذفون الباص بالحجارة.

لا ضغينة يضمرونها للسائق، ولا عادة التخريب السيئة، فهم لا يستطيعون على سبيل المثال أن يطرقوا بعمودِ الحَمْلِ جدارَ منزلٍ أحدهم أو بابه. لكن لماذا فقدوا السيطرة على أنفسهم أمام الباص؟ لا يسعني إلا الشك أن ثمة احتقاراً غير مُدركٍ مُوَارَى داخلَ ابتساماتهم، احتقارُ كلِّ الأشياء الجديدة، كلِّ نتاج العلم، كلِّ الوحوش الميكانيكية القادمة من المدن الحديثة. ففي نظرهم، كل ما يُسمَّى المدن الحديثة ليست إلا مجموعة ضخمة من العلم أو الكُسالى.

ولو لم مامينغ على حادثة الاعتداء على الباص هو قطعاً أمرٌ بعيد الاحتمال وليس عادلاً، لكنَّ عملية فهم كلمة ليست عملية عقلانية فحسب، بل عملية حسية أيضاً، لا يمكن فصلها عن الصورة المحددة، الجو المحدد، والحقائق المحددة المرتبطة بالكلمة في بيئة استخدامها، وغالباً ما تُحدّد هذه الأشياء اتجاه فهم الناس للكلمة إلى حد كبير. «الأوبرا النموذجية» كلمة بغیضة، لكن بالنسبة لشخص ترتبط ذكرياته

عن الحب أو الشباب بنغمات هذه الأوبرا، ستغمُرُه مشاعرُ فياضة إن سمع هذه الكلمة. أمّا كلماتُ كـ«النقد»، «الموقف»، «قضية» فلم تكن كلماتٍ سيئة، لكنّها بالنسبةِ إلى شخصٍ اختبرَ الرعبَ الأحمرَ للثورة الثقافية، ستجعله يرتجفُ خوفاً وتوجُّجُ كراهيةٍ راسخةً إن سمعها. قد يكون للفهم الحقيقي لهذه الكلمات في شكلها النهائي، تأثيرٌ طويلُ المدى على الحالة النفسية للفرد أو الأمة في المستقبل واختيارات الحياة، وليس المعنى الحرفي لها. إذن كلمةُ «العِلْم» ليست مسؤولةً عن الهجمات المستبدة للعلم لُوّه وغيره من أهالي قرية ماتشياو على العلم، كما أنّها ليست مسؤولةً عن اعتداء شباب ماتشياو بعصيّهم على منجزات العلم.

مَنْ المُلَام؟ مَنْ جعل «العِلْم» شراً لا بد لأهل ماتشياو تجنُّبه؟

يمكنني القولُ فقط إنّ مامينغ ليس وحده المسؤول.

اليقظة

لا تحمل كلمة «اليقظة» في أغلب قواميس اللغة الصينية معنى سلبياً. ففي كتاب «تسي يوان - أصل الكلمات» (المطبعة التجارية ١٩٨٩) كلمات مثل «الإفاقة من الثمالة»، «الاستيقاظ من الحلم»، «اليقظة» وغيرها، يكون الاستيقاظ ضد الارتباك والحيرة، ومرادفاً للإدراك، الوضوح والذكاء.

والسطر في قصيدة «الصيد» للشاعر الصيني تشو يوان: «العالم كله مشوش وأنا وحدي صافٍ، الناس كلهم سُكاري وأنا وحدي يقظ» أضفى بريقاً متألّفاً لكلمة اليقظة.

لكنّ أهل ماتشياو لا يرون الأمر هكذا، بل على العكس، اعتادوا التعبير عن الاشمئزاز بتجعيد أنوفهم وزمّ شفاههم، واستخدام الكلمة في التعبير عن كلّ السلوك الأحمق. «اليقظة» تعني الحمق، و«اليقظ» بالطبع تعني الأحمق، هل بدأت هذه العادة من أسلافهم بعد أن قابلوا تشو يوان؟

في العام ٢٧٨ قبل الميلاد، ظنّ تشو يوان اليقظ أنّه يقظ، وعجز عن تحمّل هذيان العالم اللاحدود، فعزم على التضحية بنفسه، ومواجهة الشرّ

بالموت، وانتحر غرقاً في نهر «مي لُوَه»^(١)، الروافد المنخفضة لنهر لُوَه، والذي يُسمَّى الآن بلدة تشو تانغ، حيث عاش هناك بعد نفيه. ولاية تشو التي استغنت عن خدماته في ذلك الوقت، بعد أن خدمها بإخلاصٍ وولاءٍ، كانت: «تنافست حشودُ الوزراءِ بغيرةٍ من أجل النجاح وتعبوا لتحقيق التقدم، في حين فُصلَ الوزراءُ الجيدون، وأبعدوا بالنفي عن قلوبِ عامةِ الناس» (من سجلات الممالك المتحاربة). التفت متأملاً العاصمة «ينغ»، ينظمُ قصائدَ حزينة، ويتضرَّعُ إلى السماء بأسى، وقد أحبطت طموحاته الكبيرة. إن لم يستطع إنقاذ هذا العالم، فبوسعِه رفضه على الأقل. إن عجز عن تحمُّل الغدرِ والنفاقِ حوله، فعلى الأقل بمقدوره إغلاق عينيه، لذا اختار في النهاية الوحدةَ المظلمةَ لقاعِ النهرِ ملاذاً لأمِّ قلبه المُعذَّب.

وتجدُّرُ الإشارةُ إلى أنَّ طريقَه صوبَ المنفى كان عَبْرَ تشين يانغ، وشو بو وغيرها من الأماكن، وصولاً إلى حدودِ نهر شيانغ ومنها استقرَّ في أرضِ لُوَه، والتي كانت في الواقع دولةً مجاورة، وأكثرَ مكانٍ لا يجبُ على وزيرٍ خُفِّضَ رتبتهُ الذهابُ إليه. قُتِلَ شعبُ لُوَه وطُرِدَ بلا رحمة على أيدي مملكة تشو الجبارة، وكان هذا أوَّلَ ملاذٍ لهم. وحين قُتِلَ وطُرِدَ شعبُ مملكة تشو بوحشيةٍ على أيدي مملكة تشين الأشدَّ قوة، وصل تشو يوان إلى هنا بعد أن سلك الطريقَ ذاته تقريباً؛ كان التاريخُ يعيدُ نفسه، لكن مع تغييرِ الأدوار. ما الفائدة من إحياء الضغائن بين الهائمين في الأراضي الأجنبية بعد أن أذلَّهم الزمن؟

(١) رافد مهم في مستجمعات المياه في بحيرة دونغ تينغ، والمعروف بموقع انتحار الشاعر تشو يوان، شاعر ولاية تشو خلال فترة الممالك المتحاربة، احتجاجاً على فساد تلك الحقبة. يتكون النهر من التقاء نهري مي ولُوَه، ونهر مي هو الفرع الرئيسي.

كان تشويوان وزيراً خاصاً ذا منصبٍ رفيعٍ في مملكة تشو، مسؤولاً عن الوثائق والمراسلات الرسمية في البلاط الملكي، وبالطبع كان على دراية بتاريخ مملكة تشو، وعلى دراية بقتلها وطردها لشعب لُوَه. لا أدري أيّ مشاعر راودته حين رسا على ضفة نهر لُوَه يملأه الحزن ورأى تلك الوجوه المألوفة، وسمع اللغة المألوفة واختبر العادات الشعبية لهؤلاء الذين نجوا بأعجوبة من سكاكين وفؤوس شعب تشو؟ يصعبُ أنْ أتخيلَ شعبَ لُوَه الذي أُذِلَّ وأُفقرَ، وهو في مواجهة وزير سابقٍ للمملكة الباطشة، وهم يتقدمون بصمتٍ ويقبضون على سكاكينهم بهدوء، ثم يقدمون له أخيراً معلقةً ووعاء، فهل ارتحفت يدا الوزير؟

لم يُسجَل التاريخُ كلُّ هذا، بل أغفلَ كلَّ شيء.

انتابني شعورٌ مفاجئٌ أنَّ تشويوان اختار هذه الأرض ملجأً لنومه الأبدي، ربما لأسبابٍ معقدةٍ لا نعرفُ عنها شيئاً. أرض لُوَه مرآة، تجعله يرى عبثية الازدهار والانحطاط، الاتحاد والتفرقة. أرض لُوَه دواءٌ قوي، تمحو كلَّ التحفظات المتراكمة في نفس وزير البلاط. صوتُ أمواج النهر الباردة تسفَعُ ذاكرته، فلا يتأملُ فقط الضغينة التي يحملها تجاه مملكة تشو، بل يتأملُ ولاءه لها أيضاً، ويتأملُ المعتقدات التي لطالما ثمنها وناضل من أجلها طيلة حياته. لم تكن هذه المرة الأولى التي يُنفَى فيها، ولديه حتماً الخبرة الكافية والجلدُ النفسي لمواجهة هذه الصعوبات. كان في ارتحالٍ منذ وقتٍ طويل، ولا بُدَّ أنَّه اعتاد الجوع والبرد في رحلة منفاه. لا بُدَّ أنَّ هزة نفسية جوهرية وقعت له حين اختفى أخيراً عند نهر «مي لُوَه» تاركاً ضفةً خاوية، جعلته خائفاً من حياة أكبر خارج هذه

الحياة، جعلته يشعرُ باضطراب لا يمكن التخلص منه تجاه تاريخ أكبر خارج التاريخ، فلم يسعه إلا أن يطأ الفراغ.

في أيِّ مكانٍ آخر بوسعه الحصول على يقظةٍ ساطعةٍ كهذه؟

في أيِّ مكانٍ آخر بوسعه أن يفهم أكثر اليقظة التي لطالما ثمنها؟
كلُّ هذا تخمين.

كان تشو يوان يسيرُ في أرضٍ لَوَه عاري القدمين، ملتفًا بالأزهار والحشائش، يشربُ الندى ويأكلُ الأبقحان، يأمرُ الريحَ والمطرَ، يتحدثُ مع الشمس والقمر، وينامُ مع الحشرات والطيور، فيما بدا قطعاً أنه فقدَ عقله. كان يقظاً (حسبَ فهمه وحسبَ شرح تسي يوان - أصل الكلمات)، وكان بالتأكيد يقظاً (حسبَ أهل ماتشياو).

وقد حَقَّقَ مَعْنِيَّ كلمة «اليقظة» أوَّلَ ما رمى بنفسه في النهر: الحُمُوق والتعقل، الجنة والنار، الحاضر المادي والخلود الميتافيزيقي.

لم يفهم أهل لَوَه حقاً ولأى وزير تشو للمملكة، لكنهم تعاطفوا مع العدو الذي قُهر، ومنحوا تشو يوان التعاطف ذاته، الذي عُرِفَ لاحقاً بعيد قوارب التنين في اليوم الخامس من الشهر الخامس من كلِّ عام. يرمون بلفافات الأرز على أمل أن تُبعدَ الأسماك والروبيان عن جثة تشو يوان، ويقرعون الطبول والغونغ بقوة على أمل إيقاظ الشاعر من سُباته العميق في قاع النهر، ويصرخون مرّة تلو الأخرى بشدة لاستدعاء روحه، يصرخُ الرجال والنساء العجائز والصغار حتى تنفر عروقهم، وتحتفظ عيونهم وتُبعِّع أصواتهم ويتصببون عرقاً. أمواج صراخهم التي تصلُ إلى السماء تطمسُ كراهيتهم لجيش تشو، وذلك كي ينقذوا رجلاً

واحدًا، شاعرًا غريبًا. سُجِّلَتْ هذه الطقوس للمرة الأولى في كتاب «المهرجانات في جينغ تشو» الذي كُتِبَ في عهدِ الأسرِ الجنوبية من قبل تزونغ بين من أسرة ليانغ. وقبل ذلك لم يكن ثمة ذكرٌ لإحياء ذكرى تشو يوان. وفي الواقع تجديفٌ قوارب التنين هو من مراسم تقديم القرابين الذي شاع في جنوب الصين، وليس له علاقةٌ مؤكدةٌ بالشاعر تشو يوان. وربطُ الاثنين معاً هو الأرجح من تخيُّلاتِ الأدباء واختلاقهم للتاريخ، لأجلِ تشو يوان، ولأجلِ أنفسهم. إذْ هل السعيُّ إلى المزيد والمزيد من طقوسِ القرابين المهيبة والضخمة يعني: إنْ كان ثمة مجدٌّ من نوعٍ ما في نهايةِ المطافِ كوعِدٍ ومكافأة، فهل سيكون الذين ضحوا بأنفسهم في سبيلِ الحضارة أكثرَ اطمئناناً وسعادة؟

لم يرَ تشو يوان مجدًا، ولا أيُّ تشو يوان بوسعه الحصولُ على المجد، بل على العكس، ففَهِمُ أَهْلُ ماتشياو لكلمةَ «اليقظة» واستخدمهم لها يُخفي وجهةَ نظرٍ أخرى، يُخفي نفورَ الأسلافِ من سياساتِ الدولِ القوية وثقافتِها الغريبة، ويُخفي التباساً لا مناصَّ منه بين مراكزَ تاريخيةٍ مختلفة؛ فاستبدال معنى كلمةَ «اليقظة» بـ«الحق» و«الغباء» هو أخذودٌ أحفوريٌّ يخرقُ تاريخَ أَهْلِ لُوَه التاريخي ومعتقداتهم.

النوم

تُنطق كلمة «النوم - jiào» في ماتشياو «qo» بنغمة صاعدة، وتعني الذكاء، وهي ضدُّ معنى «اليقظة»، مثل كلمة «الإدراك - juéwù - 觉悟». والمعنى الآخرُ لكلمة «النوم» كما تُنطقُ في الماندرين «jiào» ليس الذكاء، بل مُشوَّشُ الذهن، مضطربٌ ومرتبك، مثل كلمة «النوم - shuìjiào».

«اليقظة» و«النوم» كلمتان مُتضادَّتان. وعلى عكس الفهم العام للماندرين، استُبدِلَت هاتان الكلمتان في امتدادٍ معناهما: يرى أهلُ ماتشياو اليقظةَ حمقاً وغباءاً، أمّا النومُ ذكاء. كان هذا الاستبدالُ يبدو غريباً ومزعجاً لهؤلاء الغرباء الذي يأتون للقرية للمرة الأولى.

علينا الاعتراف بأنَّ التمييزَ بين الذكاءِ والغباءِ له أبعادٌ ووجهاتُ نظرٍ شتَّى بين مختلفِ الناس. وكما يبدو، علينا أن نسمحَ لأهلِ ماتشياو بالحريةِ المطلقةِ في استخدامِ الاستعاراتِ الاستثنائيةِ لديهم لكلمتي اليقظةِ والنومِ في اللغة انطلاقةً من خبرتهم. لنأخذ مامينغ على سبيل المثال، بوسعِ الناسِ التعجبُ من قذارتهِ ووضاعتهِ، والسخريةُ من رائحتهِ النتنةِ وعناده وبلاهتهِ وأَنَّهُ عاشَ ككلب. لكن ماذا إنْ نظرنا إلى الأمر من وجهةِ نظرٍ أخرى؟ من وجهةِ نظرِ مامينغ؟ ربما عاشَ لا

تنقصه السعادة، ولا ينقصه أن يكون حراً وطليقاً، إلى حدّ أنّه قارنَ نفسه بالخالدين. ولا سيما بعد انتهاء كواليس المهزلة المريرة: القفزة الكبيرة إلى الأمام، الحملة ضد اليمينيين، الثورة الثقافية... تحوّل الكثير الكثير من ذكاء البشر إلى سُخف، والكثير الكثير من الاجتهاد إلى خطأ، والكثير الكثير من الشغف إلى خطيئة، أمّا مامينغ المتفرج من بعيد، كان على الأقل بريئاً، على الأقل لم تتلطّخ يده بالدماء، وكانت صحته أقوى من معظم الناس رغم نومه في العراء.

إذن هل كان ذكياً أم غيباً؟

هل كان «يقظاً» أم «نائماً»؟

في الواقع، كلُّ زوج من المتضادات هو تجميع مفاهيم مختلفة، وتقاطع لممارسات حياتية مختلفة تفضي إلى قطبين متناقضين. تحتبئ هذه التقاطعات في اللغة السرية، والتي غالباً ما تضيف شيئاً من الحيرة لدى المسافرين بعيداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أداء الأغاني

إن رأيت رجالاً ماتشياو متجمّعين وجالسين القرفصاء عند زاوية الجدار أو قُرب المدفأة، ورأيتهم يضعون يداً على خدّ أو يغطّون فمهم بيديهم، ستعرف أنّهم يغنون. هناك نوعٌ من السرية والتواطؤ يلفّ غناءهم، إذ لم يكن صوتهم منخفضاً فحسب، بل يتجنبون في الغالب عيونَ وآذانَ الغرباء، ويؤدون غناءهم في أماكن نائية، فالغناء بالنسبة لهم ليس نوعاً من الأداء المُعلن بقدر ما هو لعبة تتم في دائرة صغيرة. اعتقدتُ في البداية أنّ هذا الخوف بسبب الحظر الحكومي والنقد السياسي، إلى أن علمتُ أنّهم يؤدون تلك الطقوس الغنائية السرية منذ سنواتٍ عديدة قبل الثورة الثقافية، ولا أدري ما السبب.

يُطلق على غناء ماتشياو «الغناء المضاد» وأيضاً أداء الأغاني (fāgē)، والكلمة لها خصائصٌ مماثلة مثل «إلقاء كلمة - fāyán 发言» في مؤتمر، أو «توزيع الأوراق» على طاولة الورق. أَلَفَ «مي تشينغ» في عهد أسرة هان كتابه المشهور «النصائح السبع - 七发 qīfā»؛ نوعٌ من الشعر على مقام تسي فو^(١)، وأغلبه سؤالٌ وجواب. وغناء أهل ماتشياو هو تحدي للسؤال

(١) نثرٌ مُقَفَّى.

وجوابه، ولا أدري هل هي «كلمة fā» ذاتها المقصودةُ في عهد أسرة هان أم لا.

يحبُّ الشبابُ الاستماعَ إلى الذين يؤدون الأغاني، ويعلّقون بالهتافاتِ أو النقدِ بعدَ كلِّ مقطع. وإن كان من بينهم شخصٌ كريم، يُخرجُ بعضُ الأموال ويشتري طاسةَ خمر، أو يستخدمُ سمعته في الحصول على طاسةٍ خمرٍ بالدفع الآجل ليكافئ المغني. وبعد أن ينتهي المغني من جولة، يشربُ رشفةً من الخمرِ فتمنحه قوتها القدرة على إلقاء كلمات أغاني أكثر صعوبةً وأشدَّ قوةً ومكرًا، ويحاصرُ منافسه في زاوية ويتحداه حتى لا يكادُ الأخيرُ يرى شيئًا، ولا يُنزِلُ يده مطلقاً من على فمِه أو خدّه.

تبدأُ أغانيهم دائماً من أحداثِ الدولة، كأن يسأل المغني منافسه مَنْ هو وزيرُ الدولة الحالي؟ ومَنْ رئيسُ الدولة؟ مَنْ هو نائبُ رئيس اللجنة العسكرية للدولة؟ مَنْ هو الأخ الأكبرُ لنائب رئيس اللجنة العسكرية للدولة؟ ما المرضُ الذي عانى منه الأخ الأكبرُ لنائب رئيس اللجنة العسكرية مؤخرًا؟ وما نوعُ الدواء الذي يتناوله؟ وهكذا تباعاً. أدهشتني هذه الأسئلة الصعبة. أقرأُ الجريدة كلَّ يوم، وأخشى أنني لا أستطيعُ التحدث عن الأشخاص العظماء البعيدين بهذه الدراية التي يتحدثون بها، ولا أستطيعُ تذكُّر مرضِ السرطان أو السكري الذي يعانون منه بهذه الدقة. أظنُّ أنَّ الذاكرةَ الاستثنائية لهؤلاء الرجال الذين تنبعثُ من أجسادهم رائحةُ روثِ الماشية، نابعةٌ حتماً من تمرين خاص. ومثلما لا ينسى المبعدون من مناصبهم والمشرّدون ملوكهم، فلا بدُّ أنَّ أسلافهم اعتادوا الانتباهَ إلى النشاطات في البلاط الملكي.

تلي ذلك أغاني عن طاعة الوالدين، ويميل المغنون إلى انتقاد وتصيد أخطاء بعضهم، مثل أن يوبّخ أحدهم الآخر لأنه لم يندف القطن لوالديه الحبيين، أو أنه لم يشتر تابوتاً لوالده بالتبني، أو لم يرسل اللحم المقدد المدخن إلى أعمامه في عيد الفوانيس في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الأول، أو أن عرّض الدهن على اللحم لا يتجاوز البوصتين، وأن اللحم يحتوي على ديدان، وهكذا. يدينون دائماً بصرامة ونزاهة، ويسألون الآخر إن كان يحترق الفقراء ويتزلف إلى الأغنياء؟ هل هذا جحودٌ ونكرانٌ للجميل أم لا؟ وهذا الذي يأكل الكلاب والخنازير كلّ يوم، ألم ينمو له قلبٌ حيوانات؟ بالطبع يتحتم على الطرف الآخر أن يكون سريع الحيلة، ويجب أن يستخدم على الفور الطقس أو ألم القدمين وغيرها من الأسباب ليرر أفعاله السيئة، ويشنّ هجوماً مضاداً، ويكشف عن سلوكٍ جديدٍ لعقوق الوالدين ارتكبه الطرف الآخر. ولا يبخل الاثنان في المبالغة في الحقائق، وعليهما تحمّل هذا الاستجواب المتبادل في الغناء، ومثل هذه الأخلاق الشعبية مُسلّمٌ به بصرامة.

ما ورد أعلاه هو منافسة افتتاحيةٌ ضروريةٌ لتعكس موقفَ المغني. يمكنهم الاسترخاء بعد ذلك وإلقاء أغاني الـ qoqo؛ والمعنى الموسّع لـ «Qo» هو أضحوكة، مثل «كلام qoqo» تعني كلاماً مضحكاً وساخراً، ويمتدُّ معناها إلى غير لائق، فـ «أغاني qoqo» تشير إلى أغاني المغازلة التي تثير حواسّ الجسد، وهي أكثر العروض التي يتحمس لها الشباب، والتي يمكن أدائها بطريقة المواجهة، شرط أن يؤدي طرفٌ دورَ الرجل، ويؤدي الطرف الآخر دورَ المرأة؛ طرفٌ يحب والآخر يرفض الحب.

سَجَلْتُ بَعْضَهَا بِعُنَايَةِ:

أَفَكَّرُ فِيهَا وَأَفَكَّرُ

أَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَلَا أَعْرِفُ عَلَامَ أَدُوسٍ

وَلَا أَسْتَطِيعُ إِمْسَاكَ عِصِيِّ الطَّعَامِ

وَعِنْدَمَا أَقْرَفُ لَا أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ.

وَهَنَّاكَ أَغْنِيَةُ أُخْرَى أَكْثَرَ سَخَافَةً:

أَفَكَّرُ فِيهَا وَأَسْتَشِيطُ غَضَبًا

أَتَنَاوَلُ الْأَكَلَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَا أَسْمَنُ

إِنْ لَمْ تَصَدَّقْنِي سَأَخْلَعُ مَلَابِسِي لِتَرَى

لَسْتُ إِلَّا جِلْدًا عَلَى عَظْمٍ.

وَهَنَّاكَ أَغْنِيَةُ أُخْرَى مَفْزَعَةٌ تَمْدُحُ امْرَأَةً حَمَقَاءَ تَتَأَمَّرُ عَلَى قَتْلِ زَوْجِهَا:

أَزْوَاجُ الْأَخْرِيَّاتِ مَهْذَبُونَ وَأَذْكَاءُ،

زَوْجِي مِثْلَ حَطَبٍ،

بَضْرِبَتِي فَأَسٍ أَوْ ثَلَاثٌ سَيُقْتَلُ،

وَسَيَأْتِي الْجَمِيعُ لِلتَّدْفِئَةِ بِالنَّارِ.

وَهَنَّاكَ أَغْنِيَةُ حَزِينَةٍ:

لَا أَقْوَى عَلَى فِرَاقِكَ

أَرْسُمُ ظِلًّا وَالصَّقَّةَ عَلَى الْحَائِطِ،

لَمْ أَقَابِلْكَ مِنْذَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ أَوْ أَسْبُوعَيْنِ،

أَحْتَضِنُ الظِّلَّ وَأَبْكِي.

وأخرى عن اليأس في الحب:

حبُّنا لا جدوى منه.

مثل طحينِ الأرز لا طعامٍ دجاجِ الآخرين،

كبر أبناؤها،

ولا ينادونني «والدي» بل يا رجل!

وتُعَدُّ هذه الأغاني أغانيَ عاطفية، عندما تُؤدَّى، سيؤدي المغنون

بالضرورة «الأغاني البذيئة» (انظر كلمة «بذيء»):

أرى ابتكَّ ذاتَ العشرين عاماً،

لا تغلقي البابَ وتدَّعي العِفَّة،

أرى وجنتيكِ متوردتين بلونِ الخوخ،

وما بين فخذي مبلل،

جروْ منزلكِ لم يتوقف عن النباح،

والماءُ أمامَ البابِ متدفقٌ وأبيض.

ثِقْلُ يضربُ على سريرك،

يحفرُ ثقباً في الأرضِ طوالَ اليوم.

وفي كلِّ مرَّةٍ يصلُ المغني إلى هذه الأغنية، تغادرُ النساءُ الحاضراتُ بخطواتٍ سريعة، مُحْتَقَنَاتِ الوجوه وهن يشتمن، بينما يتابع الشبابُ ظهورَهن الرائعةَ بنظراتهم، وأعناقُهم ممدودةٌ كدِيكَةٍ تتقاتل، يقفون باضطرابٍ تارة، ثم يجلسون القرفصاء، وتلمع وجوههم بضحكاتٍ

بلهاء مجنونة، ويتعمدون المبالغة في ضحكهم ليصل صوت الضحكات
للنساء المتعديات.

وهناك بعض الأغاني عن معاناة النساء، مثل أغنية غناها «وان يو»
من القرية السفلى، تحكي عن امرأة تُشيعُ بنظراتها طفلها غير الشرعي
المستلقي في طستٍ خشبيٍّ يطفو مع تيار نهر لُوِه:

سِرْ بهدوءٍ وثبات،

لا تدع الأحجار تؤذي رأسك،

ليس لأنَّ أمك لا تريدك، ليس لديك أب، وأمك تشعرُ بالعار.

سِرْ بهدوءٍ وثبات،

لا تدع الأمواج والرياح تبلِّلك،

ليس لأنَّ أمك لا تريدك

تستيقظُ في جوف الليل وتصرخُ ثلاث صرخات.

وكما غنى وان يو، واجه الطستُ الخشبيُّ دوامة، ودارَ في دائرة
عائداً، كأنَّه لا يريدُ الرحيلَ وإنَّما البقاء في حضنِ والدته. حين يصلُ في
غنائه إلى هنا، تَحْمُرُّ عيونُ النساء، ويمسحنها بطرفِ الأكمام، وتسمعُ
إيقاعَ نشيجهن، فيما تسقطُ زاويةُ فمِ زوجة «بن رن» ويقعُ علفُ الخنازير
من يدها، وتتكىُّ على كتفِ امرأةٍ أخرى وتنفجرُ في بكاءٍ حاد.

إصابة الأحمر

يُقالُ إِنَّ أَهْلَ ماتشياو يعتبرون الزواجَ من العذراوات مُحَرَّمًا، وتُسمَّى ليلةُ الزواج «إصابة الأحمر» وهو ما يُعدُّ أمرًا مشؤومًا. وعلى العكس من ذلك، تلقى النساءُ الحوامل غيرُ المتزوجات -ببطونهن المنتفخة- الرضى من الجميع. أخبرني «لي مينغ غاو»، الباحثُ في العادات الفلكورية لقومية دونغ من الجمعية الثقافية الإقليمية في هونان، أنَّ هذا الأمرَ ليس غريبًا، ففي الأماكن والأوقات التي ينخفض فيها الإنتاجُ يكون الإنسانُ أهمَّ قوةً منتجة، ويكون الإنجابُ أهمَّ مسؤولية تقعُ على عاتق النساء، أهمَّ بكثيرٍ من المحافظةِ على أخلاقِ العفة. تفضيلُ الرجالِ النساءَ ذواتِ البطون الكبيرة وقتَ اختيارِ الزوجة، ظاهرةٌ شائعةٌ في العديد من المناطق في جنوب الصين.

ويبدو هذا التفسيرُ معقولًا، لذا يمكن اعتماذه كمرجع مؤقت.

أحدُ الأشياءِ التي تتعلَّقُ بهذه العادة، أنَّ رجالَ ماتشياو يضمرون عداوةً وكرهيةً للمولودِ الأول، وينظرون إليه كابنٍ غيرِ شرعيٍّ مجهولِ الأصل، وليس من لحم الزوج ودمه، فإمَّا يغرقه في دلو البول، أو يخنقه بحشية السرير، ويكون الرجالُ مغتبتين بعد الانتهاء من الأمر. وتُسمَّى

هذه العادة «تفضيلُ الابنِ الأصغر»، أي قتلُ الابنِ الأكبر، وهي ممارسةٌ مستترَةٌ قام بها أهلُ ماتشياو لفترةٍ طويلة. والأمهاتُ اللواتي يعجزن عن تحمُّلِ ذلك، يُلْفَنَ الطفلُ في معطفٍ مبطنٍ بالقطن قبل أن يشن الزوجُ هجومه، ويضعُنه على جانب الطريق العام أو في طستٍ خشبيٍّ ليرحلَ مع التيار. كانت قصةٌ شائعةٌ أن يُتركَ مصيرُ الأطفالِ إلى السماء.

حُظِرَ هذا التصرفُ البربري بعد مجيءِ الحزبِ الشيوعي، وقلما سُمِعَ عنه. ومن غير المعروف إن كان هناك أشخاصٌ يرتكبون هذا الفعلَ سرّاً. ولم يكن عصياً على الفهم حين غنى وان يو أغنية «عشرةُ أطفالٍ يرحلون مع النهر» وارتفعت أصواتُ البكاءِ في الأرجاء، أن هذه الأغنية أثارت البؤسَ والمعاناة التي خاضها النساءُ في الماضي.

رجلُ التشو تشو

«وان يو» أفضلُ مَنْ يؤدي الأغاني في ماتشياو، لكنني لم أتعرفُ إليه إلا بعد مجيئي إلى القرية بفترةٍ طويلةٍ جداً. أُعْطِيتُ أوامراً بإنشاء فريق دعاية فنية لنشرِ فكر ماوتسي تونغ، أي تحويل الملفات والافتتاحيات التي ترسلها السلطات العليا إلى حكاياتٍ مصحوبةٍ بالمصفقات وقرع الطبول والغونغ، ونقلها إلى القرى والبلدات الأخرى لتقومَ بالأمرِ ذاته. وكان لا بُدَّ من الهتافِ ببعض الشعارات في نهاية العرض. كان من الصعب الهتافُ بالشعاراتِ بطريقةٍ منظمةٍ ومنسجمةٍ في صوتٍ واحد، لذا قُسمَت الشعاراتُ الطويلةُ إلى جملٍ قصيرةٍ، ما خلق بعضَ المشاكلِ التي لا مفرَّ منها. حين قُسمَت مقولةٌ للرئيس ماو إلى ثلاثِ جمل: ١- محاربة الفلاحين الفقراء ٢- تعني ٣- محاربة الثورة! تحوَّلتُ إلى شعاراتٍ معاديةٍ للثورة، إلا أنَّ الجميعَ رفعوا أيديهم مهللين كالسابق ولم تبدُ لهم العباراتُ غريبة.

كما أُعْطِيتُ أوامراً بتنفيذِ مسرحياتٍ نموذجيةٍ ثورية؛ كانت مواردُ القرية شحيحة، ولم يسعهم تنفيذُ ذلك إلا في حدودٍ ما أُتيحَ لهم، فلم يهتموا كثيراً بالأزياء وخشبة المسرح وغيرها من الجوانب. لذا حينما

صعدت المرأة ذات الشعر الأبيض المسرحَ تتدلى من رأسها حبالٌ طويلةٌ من الكتان، وجهت وجوه الأطفال من فرط الذعر، ولم تكن للبطل يانغ تزي رونغ عباءة، لذا اضطر إلى ارتداء معطفٍ واقٍ من المطر ليهزم النمرَ أعلى الجبال. ذات مرّة كانت رياح الخريف شديدة، وأطاحت بالديكور الخشبيّ أعلى المسرح وأيضاً ببابٍ مغطّى بالقطن، وبعد أن هزم الرفيق المسكين تزي رونغ النمر بحماسٍ وبمُثلٍ سامية، ضربه جبل الثلج الساقط، فابيضت عيناه، وظلّ يترنح يميناً ويساراً إلى أن سقط على خشبة المسرح. لحسن الحظ أنّ ضوء القناديل على المسرح كان خافتاً ولم يره الجمهورُ بوضوح، وظنّوا أنّ استلقاء البطل حركةً قتالية، فصفقوا له. قال الفلاحون إنّ المسرحيات القديمة أفضل، إلّا أنّ المسرحيات الجديدة أكثر إثارةً ومتعة.

ورغم إصابة يانغ تزي رونغ، فإنّ أدائه كان ناجحاً إلى حدٍّ ما. كان ذهنه مشوشاً، ونسي الكلمات، لكنّه تعامل مع الأمر بطريقة جيدة؛ حين رأى الطبول والغونغ غنى عن الطبول والغونغ، وغنى عن الكراسي والطاولات حين رآها، ثم غنى أخيراً بنفسٍ واحدٍ عن إصلاح الأراضي الزراعية والتعاونيات والكمونات الشعبية وبناء نظام الري وزراعة السلجم، واستحسنه الجمهور. لم تسمع كوادِر الكومونة العرض بوضوح، إلّا أنّهم كرروا كم كان جيداً، وقرروا إرسال فريق الدعاية في ماتشياو إلى المحافظة للمشاركة في العروض ممثلاً الكومونة.

كان الذهابُ إلى مركز المحافظة أمراً شديداً الندرة، كما أنّ البروفات كانت دائماً أكثر راحةً واسترخاءً من حَمَلِ الطين. استغلَّ بعض الرجال والنساء هذه الفرصة النادرة للتواصل بحرية، ووضع بعضهم الماكياج

لبعض، وحزموا وحملوا الملابس وغيرها من الأمور. كان الجميع سعيداً، وشعر سكرتيرُ فرع الحزب في القرية «ما بين يي» أنَّ هذا حفظ ماء وجهه، وأخبرني بحماسٍ أنَّه يريد مسرحيةً بها أربع فتيات، لا يهم عن ماذا ما دام بها أربع فتيات.

سألته عن السبب.

- «ألم تحصلوا على أربعة معاطف حمراء السنة الفائتة؟ لقد كلفت هذه المعاطف الفريق مقدارَ حمولتين من الحبوب، ومن المؤسف أن تظلَّ في صندوق».

اتضح أنَّه لا يريد التغاضي عن حمولتي الحبوب.

ورأى الجميع الاقتراح صائباً.

ولأجل تحسين العرض، اقترح شخصان من مركز ثقافي إضافة أغنية شعبية لتعكس الخصائص الثقافية الشعبية لأهل ماتشياو. فكر بين يي وقال إنَّ ذلك ليس أمراً صعباً، فصوتُ وان يو حاداً ومثاليٌّ لأداء أغاني الجنائز أو أغاني المناسبات السعيدة، دعوه يغني!

أثار ضحكُ أهل القرية استغرابي، ولا سيما النساء اللواتي انحنين إلى الأمام وإلى الخلف من شدة الضحك. سألت عن هوية هذا المغني، فأعطوني نبذة عنه، وقد ذكّرني بشخص مألوفٍ إلى حدٍّ ما، بلا لحية، حاجباه المحنَّيان خفيفان جداً، كما أنَّه يملأ رأسه تماماً فيبدو مثل فجلة لامعة. أذكرُ أنَّه كان يغادرُ القرية حاملاً عصا حمل، ولا أدري ما يذهب لفعله. كما أذكرُ أنَّه كان يتفرجُ على غناء الآخرين، وحين ألحَّ عليه أحدهم أن يغني، ردَّ بلبعةٍ كلاسيكية، وبنبرة أنثوية حادة: «لن أغني، لن

أَغْنِي، لَا تَسْخَرُوا مِنْ أَخِيكُمْ الصَّغِيرِ أَيُّهَا الرِّفْقَاءُ». حَتَّى أَنْ وَجَّهَهُ أَحْمَرَ خَجَلًا أَثْنَاءَ حَدِيثِهِ.

كَانَ يَعِيشُ فِي كُوخَيْنِ فِي الْقَرْيَةِ السُّفْلَى، مَطْلَقٌ وَلَدِيهِ طِفْلٌ، وَيُقَالُ إِنَّهُ بَذِيءٌ قَلِيلًا، يُسْمَعُ صَوْتُهُ الْحَادُّ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا النِّسَاءُ، وَيَثِيرُ ضَحْكَهُنَّ دَائِمًا، أَوْ يُطَارِدُنَّهُ بِالْحَجَارَةِ. عَمِلَ طَحْنًا فِي الْبَدَايَةِ، مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّتِي يَأْتُونَ لَطْحَنِ الْأُرْزِ وَالْحُبُوبِ، لِذَا كَانَ لَهُ تَعَامُلٌ كَبِيرٌ مَعَ رَبَاتِ الْبُيُوتِ. وَبِمَرُورِ الْوَقْتِ اكْتَسَبَتْ كَلِمَةُ «الطَّحْنِ» مَعْنًى فَاسِقًا. يَسْأَلُهُ النَّاسُ دَائِمًا، كَمْ امْرَأَةً طَحَنْتَ؟ فَيَتَسَمُّ بِخَجَلٍ وَيَجِيبُ سَائِلَهُ: «لَا تَسْخَرْ مِنِّي، أَلَّا تَعْرِفَ أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَكُونَ مَتَحَضِّرِينَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْحَدِيثِ؟».

ذَهَبَ وَانْ يَوْ فِي إِحْدَى الْمَرَاتِ لَطْحَنِ الْأُرْزِ فِي لَوْنِغِ جِيَا وَانْ، فَسَأَلَهُ أَحَدُ الْأَطْفَالِ عَنْ اسْمِهِ، فَرَدَّ أَنَّهُ الْعَامِلُ الْمَسْنُوعِي، فَسَأَلَهُ الطِّفْلُ مَاذَا سَيَفْعَلُ هُنَا؟ فَقَالَ إِنَّهُ هُنَا لِيضْرَبَ كَعَكَةَ الْبَابَا لِأُمِّهِ. ائْتَدَعَ الطِّفْلُ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْمَنْزِلِ وَحَكَّى كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّفْصِيلِ. وَانْخَرَطَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ يَشْرَبْنَ شَايَ الزَّنْجَبِيلِ فِي ضَحْكٍ سَاخِرٍ مَا أَنْ سَمِعْنَ هَذَا. اسْتَشَاظَتْ أُخْتُ الطِّفْلِ الْكُبْرَى غَضَبًا، فَأَطْلَقَتْ الْكَلْبَ عَلَى وَانْ يَوْ الَّذِي هَرَبَ كَفَّارٍ مَذْعُورٍ، إِلَى أَنْ تَعَثَّرَ وَسَقَطَ فِي حَفْرَةِ السَّمَادِ.

زَحَفَ إِلَى أَثْلَامِ الْحَقْلِ وَجَسَدُهُ مَغْطًى بِالرَّوْثِ، وَخَلَّفَ وَرَاءَهُ بَقْعَةً كَبِيرَةً فِي الْبَرَكَةِ كَأَنَّ ثَوْرًا كَانَ مُسْتَلْقِيًا فِيهَا. سَأَلَهُ أَحَدُ الْمَارَةِ بِدَهْشَةٍ: «أَيُّهَا الطَّحَّانُ وَانْ، لِمَاذَا قَفَزْتَ فِي حَفْرَةِ السَّمَادِ الْيَوْمَ؟».

- «كُنْتُ... كُنْتُ أَرَى كَمْ يَبْلُغُ عَمَقُ هَذِهِ الْحَفْرَةِ».

- «هَلْ كُنْتَ تَتَفَحَّصُ الْإِنْتَاجَ أَيْضًا؟».

غمغم وهو يسير بخطواتٍ واسعة.

تبعته مجموعة أطفالٍ يصفقون ويضحكون، فتناول حجراً وهددهم، وتلوَّى خصره مراتٍ عدَّة، فأقصى ما يمكن أن يبذله من مجهود لا يتجاوز رمي عصا بامبو، لذا ضحك الأطفال باطمئنانٍ أكثر.

أصبحت عبارة «تفحصُ الإنتاج» إحدى توريات قرية ماتشياو، وتشير إلى الذين يقعون في مواقف صعبةٍ مثل وان يو ويحسنون إخفاءها. فإذا تعثر أحدُهم وسقط، يسأله أهل ماتشياو بسخرية: هل تتفحصُ الإنتاج؟

كان وان يو ابن عم السكرتير بن يي في القدرِ نفسها. في إحدى المرات نزلت امرأةٌ جميلةٌ ضيفةً في منزل بن يي، فكان وان يو يزوره تقريباً كل يوم، يجلسُ واضعاً يديه في كُمَيْهِ ومثرثراً بصوته الحاد الأثوي إلى وقتٍ متأخِرٍ من الليل. وذات ليلة، جلست مجموعةٌ حول نارِ المدفأة، فسحب كرسياً دون اكتراثٍ واندسَ بينهم؛ سأله بن يي بغضب: «ماذا تفعلُ هنا؟».

ردَّ بثقةٍ وشجاعة: «شايُ الزنجبيل الذي تعدُّه السيدة زكيُّ الرائحة، زكي».

- نحن نعتدُّ اجتماعاً هنا.
- اجتماع؟ حسن، سأعتدُّ اجتماعاً أنا أيضاً.
- هذا اجتماعٌ لأعضاءِ الحزب، هل تفهم أم لا؟
- وإن كان اجتماعاً لأعضاءِ الحزب، لم أعتدُّ واحداً منذ أكثر من شهر، لا بدُّ أن أعتدَّ اجتماعاً اليوم وإلا سأصبحُ بائساً.

سأله العمُّ لُوَه: «هيه، متى انضممتَ إلى الحزب؟».

نظرَ وان يو إلى الآخرين، ثم عاد ونظرَ إلى العمِّ لُوَه قائلاً: «أَلَسْتُ عضواً في الحزب؟».

- وهل لديك عضو بين فخذيك؟

انفجرَ الجميعُ ضاحكاً ما إن قال العمُّ لُوَه ذلك.

شعر وان يو حينها بالإحراج وقال: «حسنٌ حسنٌ، دخلَ العبدُ بالخطأ إلى البلاطِ الملكي، سأرحل، سأرحل».

انتابه غضبٌ عارمٌ ما أن خرجَ من الباب، وهَدَّدَ أحدَ أعضاء الحزب الذي كان على وشكِ الدخول قائلاً: «حسنٌ، حينما يريدُ الرجلُ عقدَ اجتماعٍ ترفضون ذلك، لا تدعوني إذا عقدتُم اجتماعاً آخر!».

لم يشارك في أيِّ اجتماعٍ فيما بعد، وكان يبرُرُ رفضه كُلَّ مرَّةٍ مؤكداً أنَّه على صواب: «لماذا رفضتم مشاركتي في الاجتماع حين أردتُ ذلك؟ تريدونني أن أشارك في الاجتماعات التافهة بعدما انتهيتُم من الاجتماعات الجيدة وتهتمُّون بي الآن، دعني أخبرك، مستحيل!» ازدادت شكواه بسبب استيائه من طردِ الكوادر له من لجنة الحزب. وذات مرَّةٍ انهمك في مساعدة مجموعة نساءٍ في صبغ القماش، وقضاءٍ وقتٍ طيب، وبينما كان يتحدث ويتحدثُ ببهجة زَلَّ لسانُه؛ قائلاً: «الزعيم ماو ليس له لحية، ألا ترون أنَّه يشبه العجوزَ وانغ سان من بلدة تجانغ جيا فانغ؟». وقال أيضاً إنَّ لديه صورتين للزعيم، إحداهما ملصقة أمام دلو الأرز، والأخرى أمام دلو البول. فإنَّ وجدَ نقصاً في دلو الأرز يصفعُ الصورة، وإنَّ لم يكن هناك بول في الدلو الآخر، يصفعُ الصورة الأخرى.

تضاعفَ رضاهُ وابتهاجه حين رأى النساءَ يضحكن ملءَ أفواههن، وقال إنَّه سيذهب إلى العاصمة السَّنة القادمة، وسيبحثُ عن الرئيس ماو، ويسأله لماذا تجبُ زراعةُ حقولِ أزر الماء البارد مرَّتين في العام؟

حينما وصلَ الكلام إلى آذانِ الكوادر، أمروا ميليشا الشعب بحمل أسلحتهم وتقييده وجلبه إلى الكومونة. عاد بعدَ أيامٍ مغمماً، وعلى وجهه كدمات عدَّة.

سأله الناس: «ماذا حدث؟ هل دعَتك الكومونة لتفحص الإنتاج؟». لمسَ وجهه قائلاً بابتسامةٍ مريرة: «الكوادرُ الذين رافقوني ينظرون لي نظرة تقدير، لم يكن العقابُ قاسياً، لم يكن قاسياً».

وما يعنيه أنَّ الكومونة رأت أنَّه فلاحٌ فقير، وغرَّمته فقط مائة جين من الحبوب. ومذاك، تحوَّلت عبارَتنا «ينظرون لي نظرة تقدير» أو «الكوادرُ تنظر لي نظرة تقدير» إلى توريةٍ في ماتشياو، وتعني السخرية من النفس أو غرامة الحبوب.

بدا مُحبطاً، وفي حالةٍ يُرثى لها حين انضم إلى فريق الدعاية الفنية في البداية؛ حبلٌ من القش يلفُ معطفاً رثاً مبطناً بالقطن، يرتدي قبعة صوفية على نحوٍ مائل، ولا يرتدي جوارب أسفل البنطلون المرفوع إلى أعلى الخصر، وقد تورَّدت ساقاه بسبب البرد، وكان يحملُ سوطاً فيما بدا أنَّه عادَ من الحقلِ منذ قليل. قال ما الذي نفعله بالضبط! تارةً نمنعه من الغناء، وتارةً نطلبُ منه الغناء والذهابَ إلى المحافظة، كأنَّه مَبُولَةٌ ليلية تُوضَعُ أسفلَ السرير إن لم تُستخدم، وتُسحبُ إن رغبَ في استخدامها، لا خيرَ يأتي من «خي» رئيسِ الكومونة!

لكنَّ هذا في الحقيقة لم تكن له علاقةٌ على الإطلاق بـ«خي» رئيس الكومونة.

سأل بطريقةٍ غامضة: «هل يمكنني أداء أغاني qoqo الآن؟ الحزب الشيوعي...؟» ثم أشار بيده إشارةً توحى بالرفض.

- «ما هذا الهراء الذي تقوله!» أعطيته ورقةً فيها كلماتٌ أغنيةٍ عن محصول حرث الربيع. «احفظ الكلمات اليوم، والبروفة غداً، وبعد غدٍ ستفحصُها الكومونة».

نظرَ إلى الورقة لبعض الوقت، ثم أمسكَ بيدي قائلاً: «سأغني هذا؟ المعاولُ والمدَّماتُ وعِصِيُّ الحِمْلِ ومَلءُ حفرِ السَّماذِ وغرسُ شتلاتِ الحبوب؟».

لم أفهم ما يقصده.

- «أيها الرفيق، أنا أذهبُ إلى الحقول كلَّ يومٍ وأقومُ بهذه الأمور اللعينة، وتريدُ منِّي الصَّعودَ على المنصَّةِ والغناءَ عنها؟ كلَّما خطرتُ ببالي المعاولُ تصبَّبتُ عرقاً، وتسارعت ضرباتُ قلبي. أيُّ غناءٍ هذا تريدني أن أغنيه؟».

- ماذا ظننتَ أنَّك ستغني حين دعوناك إلى هنا؟ حين نأمرُك بالغناء ستغني، إن لم تغنَّ اذهبْ إلى العمل!

- أوه أوه أيها الرفيق، لماذا أنتَ غاضبٌ هكذا!

ولم يُعد لي ورقةً كلماتِ الأغنية.

لم يكن صوته عذباً كما قال الناس، ورغم صفائه، فإنَّه كان قوياً، جافاً، ومباشراً جداً، يبدو تماماً كصوتِ صرخاتِ امرأة، حاداً كصوتِ

خَدَشَ حَافَةَ سَكِينٍ عَلَى السِّرَامِيكِ. وَخَيَّلَ لِي أَنْ فَتَحَاتِ أَنْوْفُ الْمُسْتَمْعِينَ
تَتَقَلَّصُ مَرْتَجِفَةً، فَالْجَمِيعُ لَا يَسْتَخْدِمُونَ آذَانَهُمْ فِي الْإِسْتِمَاعِ إِلَى الْأَغَانِي،
بَلْ يَسْتَخْدِمُونَ أَنْوْفَهُمْ، جِبَاهَهُمْ وَمُؤَخَّرَاتِ أَعْنَاقِهِمْ، لِتَحْمُلِ طَعْنَاتِ
السَّكِينِ مَرَّةً تَلَوَّ الْأُخْرَى. لَا تَسْتَطِيعُ مَاتَشْيَاوُ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْ طَعْنَاتِ
السَّكِينِ تِلْكَ. وَأَتْنِي الْجَمِيعُ عَلَى غَنَائِهِ إِلَّا الشَّبَابَ الْمُتَعَلِّمَ.

اعْتَرَضَ الشَّبَابُ الْمُتَعَلِّمُ عَلَى اعْتِزَازِهِ بِتَبَرُّجِهِ وَأَزْيَائِهِ، وَلَمْ يُوَافِقُوا
عَلَى ارْتِدَائِهِ ذَلِكَ الْحِذَاءَ الْبَالِي، كَمَا أَرَادَ ارْتِدَاءَ بَنْطَلُونِهِ الْمُخْمَلِي الْمُضْلَعَّ،
بَلْ وَارْتِدَاءَ نِظَارَةٍ. وَقَالَ الْمَرْكَزُ الثَّقَافِي فِي الْمَحَافِظَةِ، كَيْفَ يُمْكِنُ لِرَجُلٍ
يَبْدُو كَمُفَكِّرٍ أَنْ يَعْمَلَ فِي حَرْثِ الرَّبِيعِ؟ مُسْتَحِيلٌ مُسْتَحِيلٌ. فَكَّرُوا فِي
الْأَمْرِ، وَقَرَّرُوا أَنْ يَظْلَّ حَافِي الْقَدَمِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذَ طَرَفِي بَنْطَلُونِهِ، وَأَنْ
يَرْتَدِيَ قُبْعَةً مِنَ الْخِيزِرَانِ وَيَحْمِلَ مِعُولًا عَلَى كَتِفِهِ.

كَانَ فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ: «مِعُولٌ؟ أَلَنْ أَبْدُو مِثْلَ حَارِسِ مَاءِ مَسْنٍ؟ يَا
لِلْقُبْحِ! يَا لِلْقُبْحِ!».

رَدَّ الْمَرْكَزُ الثَّقَافِي: «وَمَاذَا تَفْهَمُ أَنْتَ؟ هَذَا فَنٌّ».

- «لَأَحْمِلَ دَلْوَ الرَّوْثِ إِذَنْ، أَلَيْسَ ذَلِكَ أَكْثَرَ فَنِيَّةً؟».

وَلَوْلَا إِشْرَافُ بَنِي بِي عَلَى الْبُرُوفَةِ، لَمَا انْتَهَتْ تِلْكَ الْمَجَادَلَاتُ. وَفِي
الْوَاقِعِ لَمْ يَرِ بَنِي بِي الْمِعُولَ جَذَابًا، لَكِنْ لِأَنَّ الرِّفَاقَ مِنَ الْمَحَافِظَةِ قَالُوا
إِنَّ الْمِعُولَ جَيِّدٌ، لَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ يُوَافِقَهُمُ الرَّأْيَ. «إِنْ أَرَادُوا أَنْ تَحْمِلَهُ
سَتَحْمِلُهُ»، وَبَخَّ وَانْ يَوْ قَائِلًا: «يَا لَكَ مِنْ يَقْظٍ مِثْلَ خَنْزِيرٍ؟ عَلَيْكَ أَنْ
تَحْمِلَ شَيْئًا دَائِمًا، وَإِلَّا سَتَبْدُو مِثْلَ أَبْلِهِ عَلَى الْمَسْرَحِ! كَيْفَ سَتَكُونُ لَكَ
الْقُدْرَةُ عَلَى الْغِنَاءِ؟».

طرف وان يو بعينه ولم يحرك ساكناً.

انزعج بن بي، وأدّى حركاتٍ استعراضية ليفهم وان يو المقصود، كَحَمْلِ المِعُولِ أو وضعه على كتفه الأيسر قليلاً ثم على الكتف الأيمن. في أيام البروفة التي تلت ذلك بدا وان يو خاملاً، يحمل معوله ويقف جانباً، لا أنيس له سوى ظله، كان أكبر سناً من الممثلين الآخرين، ولا يستطيع مشاركتهم الدردشة. وحينما تأتي نساء لمشاهدة الجلبة، يملكه خجلٌ شديد، وينكمش وجهه في ابتسامة مرّة ويقول: «لا تنظرن أيتها السيدات، فطبعٌ جداً».

لم يذهب معنا في النهاية إلى المحافظة. في اليوم الذي ركبنا فيه الجُرَّار، نظرنا هنا وهناك ولم نر ظله، وحين جاء بعد فترةٍ طويلةٍ اكتشفنا أنّه لا يحمل معولاً. سألناه أين المِعُول، غمغم قائلاً لا يهم، لا يهم، سأستعير معولاً آخر عندما نصل إلى مركز المحافظة. فقال رئيسُ الفريق إنّ الجميع في الشوارع هناك لا يحملون معاول كالقرية، وماذا سيحدث إن لم يجد معولاً مناسباً؟ اذهب وأحضره في الحال! لكنّ وان يو وضع يديه في كُمّيه مُغمغماً ولم يتحرك، ورأينا أنّه لم يتقبّل أمر المِعُول ببساطة، وأنّه لا يريد حمله على كتفه.

اضطر رئيسُ الفريق إلى استعارة معولٍ من مكانٍ قريب، وحين عاد اكتشف أنّ وان يو اختفى، فرّ بعيداً.

في الواقع لم يرافقنا مطلقاً إلى المحافظة، رغم أنّه تمنّى ذلك، وغسل حذاءه وملابسه استعداداً لمرافقتنا، حتى أنّه طلب منّي سرّاً مساعدته في عبور الطريق بعد الوصول، فالسياراتُ أشدُّ ما يخافُ منه، وإنّ هاجمه

بلطجية الشارع حتماً لن يتغلب عليهم، كما أنَّ النساءَ جميلات، وقد يضيعُ لآثِه سينظرُ في جميعِ الاتجاهات. أراد مني إنقاذه في أيِّ وقت، لكنَّه لم يتبعنا إلى مركز المحافظة، وصمَّم على مواجهةِ المِعولِ حتى النهاية، ثم شرح لي لاحقاً، أنَّه عجزَ رغمِ محاولاته عن تذكُّرِ كلماتِ الأغنية التي تتحدث عن ملءِ حفرِ السَّهاد، وجرفِ الأعشاب، وتوزيعِ الرِّوث، وغرسِ شتلاتِ الحبوب، وأُصيبَ بالاضطرابِ والإحباط، وولَّدَ فيه هذا الغناءُ رغبةً في السَّباب، ولو كان ذهبَ إلى مركز المحافظة حقّاً، لحدثت واقعةٌ كبيرةٌ لا محالة. وليس أنَّه لم يجتهد، فقد تناولَ مخَّ خنزير، ومخَّ كلبٍ ومخَّ بقرة، ولم يتذكَّرِ إلَّا بضِعَّ جُمْل، وشرَّد ذهنه مفكِّراً في الأشياءِ التي تحدثُ بين الرجالِ والنساء، لم يكن لديه خيارٌ إلَّا الابتعاد في اللحظةِ الأخيرة.

ولأنَّه غادرَ دونَ استئذانٍ أحد، غرَّمه بنِ بي لاحقاً خمسةَ عشرَ جين من الحبوب.

ويبدو أنَّ وان يو لم يكن جاداً بشأن الكثير من الأمور، إلَّا أنَّه كان جاداً بشأن الغناء، لم يتحلَّ بالصرامة في أوقاتٍ كثيرة، لكنَّ تعلُّقه بأغاني (تشو تشو - qoqo) كان أكثرَ رسوخاً. كانت لديه القدرةُ على التضحية في سبيلِ الفن، وكان على استعدادٍ للتخلي عن الوظيفةِ الجميلةِ في مركز المحافظة، وللتخلي عن العملِ وليُوبَّخَ ويُعاقَبَ من قبلِ الكوادر، بدلاً من الموافقةِ على فنِّ المعاول، أو أيِّ فنٍّ دونَ نساء.

لي.غي.لانغ

ذات يوم، رأى وان يو النحات تحي هوانغ يضرب زوجته إلى حدّ صراخها طلباً للمساعدة، فذهب لنصحه، وأخبره أنّه رأى ما فعله، وأنّ عليه ألا يكون عنيفاً هكذا. وحين رأى النحات رأسه ووجهه الحليقين، تأجّج غضبه، وقال: «من بين أيّ فخّذين جئت أيها الخثالة، ما دخلك إن ضربت هذه الزوجة الخائنة حتى الموت؟». فردّ وان يو: «علينا جميعاً أن نكون متحضّرين في المجتمع الحديث، النساء رقيقات، لا يمكن ضربهنّ كما تشاء، ألا تعرف ذلك؟». بعد أن تجادلا لبعض الوقت، قال النحات بابتسامة مُتهكّمة: «حسنٌ، إن كنت تحب الرفيقات سأرضيك، إن تحمّلت ثلاث لكّماٍ مني، سأحترمك».

كان وان يو يتصرف أغلب الوقت كمثقفٍ واهن، يخافُ الألم، فلدغةٌ علّقةٌ في الحقول تجعله يتلوّى صارخاً، لذا شحب وجهه حين سمع كلام النحات، تلعثم، وأراد على الأرجح أن يفعل شيئاً جيداً وينجزه حتى النهاية أمام المتفرجين، لذا أغلق عينيه بقوة، واستجمع شجاعته، وصاح بإصرار: «حسنٌ».

بالغ وان يو في تقدير قوته، حتى إغلاق عينيه بقوة لم يُجدِ نفعاً، فما

أَنْ سَدَّدَتْجِي هَوَانِغِ اللِّكْمَةِ الأولى، صرَخَ وَسَقَطَ فِي مَصْرَفِ المِياه، وَظَلَّ
هَكَذَا لِبَعْضِ الْوَقْتِ.

ضَحَكَ النِّحَاتُ ضَحْكَةً هَازِئَةً وَتَرَكَهَ وَغَادَرَ.

نَهَضَ وَانْ يَوْ بِصَعُوبَةٍ وَانْدَفَعَ أَمَامَ ظِلِّ أَسْوَدٍ قَائِلًا: «أَضْرَبْ مَرَّةً
أُخْرَى، أَضْرَبْ!» لَمْ يَتَحَرَّكِ الظِّلُّ الْأَسْوَدُ وَسَمِعَ النَّاسَ حَوْلَهُ يَضْحَكُونَ،
فَرَكَّ عَيْنَيْهِ وَأَمْعَنَ النَّظَرَ وَأَدْرَكَ أَنَّ هَذَا الظِّلَّ لَمْ يَكُنِ النِّحَاتُ، بَلْ طَاحُونَةٌ
حَبُوبٌ.

زَارَ غَاضِبًا أَمَامَ بَابِ مَنْزِلِ تَجِي هَوَانِغِ: «عَزِيزِي هَوَانِغِ الْأَحْمَقُ،
لِمَاذَا هَرَبْتَ بَعِيدًا؟ تَعَالِ أَضْرِبْنِي إِنْ كَانَتْ لَدَيْكَ الشَّجَاعَةُ! يَا رَجُلًا
شَرِسًا كَذِئْبًا، لَا يُمْكِنُكَ حَتَّى تَنْفِذَ كَلَامَكَ، أَنْتَ مَدِينٌ لِي بِلِكْمَتَيْنِ،
أَنْتَ، أَنْتَ لَسْتَ رَجُلًا!» وَرَغِمَ بَطُولَتُهُ، فَإِنَّهُ تَرَنَّحَ دَائِخًا، وَوَجَّهَ رُوحَهُ
الْبَطُولِيَّةَ وَشَجَاعَتَهُ إِلَى الْمَكَانِ الْخَطَأِ: لَمْ يَكُنِ النِّحَاتُ هُنَا، بَلْ أَعْلَى التَّلَّةِ.

عَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ بِخَطَوَاتٍ مَتَعَثِرَةٍ، وَتَهَكَّمَ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ فِي الطَّرِيقِ
عَلَى جِسْدِهِ الْمَغْطَى بِالْوَحْلِ: «أَيُّهَا الطَّحَّانُ، هَلْ تَفَحَّصْتَ الْإِنْتَاجَ مُجْدِدًا؟».

لَكِنَّهُ ابْتَسَمَ بِحُزْنٍ: «سَأَبْلُغُ! سَأَبْلُغُ! حِينَ تَتَوَلَّى حُكُومَةُ الشَّعْبِ
زِمَامَ السُّلْطَةِ، فَهَلْ سَتَخَافُ مِنْ ابْنِكُمْ هَوَانِغِ الْغَالِي أَنْ يُحْدِثَ جَلْبَةً؟».

ثُمَّ أَضَافَ: «أَقْبَلُ أَنْ يُقَطَّعَ جِسْدِي إِرْبًا عَلَى الْقَلْقِ مِنْ انْحِيَاظِ
الرَّئِيسِ خِي».

كَانَ يُقَحِّمُ الرَّئِيسَ خِي فِي كُلِّ شَيْءٍ، مُصِرًّا عَلَى أَنَّهُ يَحِيكُ مَوَامِرَةً
ضَدَّهُ، وَلَمْ يَفْهَمْ النَّاسُ حَوْلَهُ مَصْدَرَ هَذِهِ الْكِرَاهِيَةِ الْغَامِضَةِ، وَحِينَ
سَأَلُوهُ لَمْ يَمْنَحْهُمْ أَيَّ سَبَبٍ مَقْنَعٍ.

كان شيئاً طبيعياً بالنسبة له أن يُضربَ من أجل النساء. وكان يتورطُ طوعاً في الشجارات بين الأزواج مرّةً تلو الأخرى، ويهبُ -بلا استثناء- للدفاع عن النساءِ المظلومات، لذا دفعَ الثمنَ آلاماً جسدية، وحتى من شعرِه وأسنانه. وكان نساءً من اللواتي يهبُ لمساعدتهن يرين أنه يتطفلُ ويتدخلُ في ما لا يعنيه، فيسدّدُن له الضرباتِ مع أزواجهن، ما أشعره بالحزن والظلم. وبشكلٍ عام فهو لن يتجادل مع هؤلاء النساء. يقول الناس إنّه الـ«لي.غي.لانغ» هُنَّ، وكان يتهجّجُ لسماع ذلك.

«لي.غي.لانغ» كلمةٌ صوتية، شائعة الاستخدام في السُّلم الموسيقي الصيني المكوّن من خمسِ نغمات، وتُستخدَمُ في مفرداتِ ماتشياو للتعبير عن العشاقِ أو السلوكياتِ المعبّرة عن الحب، أو بصورةٍ أكثر دقة، تُستخدَمُ للتعبير عن الحبِّ الأقلّ رسمية، والأقلّ جديةً وصدقاً، حبُّ أكثر مرحاً، مثل نعمةٍ خافتةٍ على الهوتشن، حالةٌ غير واضحةٍ تقع بين الحبِّ والصدقة. ولهذا السببِ تحديداً، لا يمكن إلاّ استخدامُ كلمة «لي.غي.لانغ»، هذه الكلمة الغامضة التي لا معنى ثابتاً لها، لتعطي معنى موسعاً لتخيّلاتِ ذاتِ حدودٍ غائمة. العلاقاتُ الجنسيةُ غيرُ الشرعية بين الأحرار هي «لي.غي.لانغ»، المداعباتُ بين الرجالِ والنساءِ يُطلقُ عليها «لي.غي.لانغ» كذلك. ويمكن استنتاج أن أهل ماتشياو إن رأوا الرقصَ الثنائي أو النساءِ والرجالَ يمشون معاً في المدينة، سيصنّفون ذلك قطعاً ضمنَ نطاق الـ«لي.غي.لانغ»؛ نطاقٌ خارجُ الزواج يفتقرُ إلى التحليل والتعبير الواضحين.

هناك العديدُ من مناطق الوعي المشوّشة والضبابية لدى أهل ماتشياو، و«لي.غي.لانغ» واحدةٌ منها.

التَّين

«التين» كلمة نابية، تشير إلى العضو الذكري، ويمكنك في كثيرٍ من الأحيان سماع مثل هذه الشتائم في قرية ماتشياو:

- أنت أيها التَّينُ الميت!

- انظرْ إلى تَنِينِ الغبي!

- انتبه يا تَين، لقد دُستَ على قدمي!

كان لسانُ وان يو قدراً كذلك، لكنَّه لا يتحمل أن يسبَّه أحدٌ واصفاً إياه بالتَّين؛ فما أن يتعرَّض لهذه الإهانة حتى يحتقنَ وجهه، ويلتقط أيَّ شيءٍ أمامه، حجراً كان أو معولاً ليتشاجرَ مع الآخر، ولا أعرفُ ما سببُ ذلك.

قابلتُ وان يو للمرَّة الأخيرة حين عدتُ من مركز المحافظة إلى ماتشياو، إذ طلب مني شراء صابون وجوارب نسائية، رأيتُ ابنه وأنا أقف أمام كوخه، كان يسدُّ البابَ أمامي بحذرٍ ثم بصقَ عليّ.

أخبرته أنني أريدُ مقابلةَ والده، لا بُدَّ أنَّ وان يو الراقِد في السرير سمع كلامي، فلم يُخرج وجهه من الناموسية السوداء الرثة، إلَّا حين وقفتُ أمامَ سريره:

- إلامَ تنظر؟ هذا هو شكلي!

لم يكن ما قاله مضحكاً على الإطلاق، كان هزياً وذوياً كحزمة خشبٍ جاف، ووجهه أصفرَ شمعيّاً، أدهشَ خاطري.

- لقد افتقدتك، أضناني الحب.

لكن هذا لم يكن مضحكاً أيضاً.

سألته عن أحوال مرضه، وأخبرته كم هو مؤسفٌ أنه لم يذهب إلى المدينة للغناء، فلوحَ بيده مراتٍ عدة قائلاً: «أمرٌ جيد، خيراً فعلت، أغاني عن الزراعة؟ هل تسمي ذلك المِعولَ ودلّو البول اللذين يتأرحجان هنا وهناك غناء؟».

تنهدَ وقالَ إنَّ أكثرَ الأوقات تشويقاً كانت الأيام من الشهر الأول إلى اليوم الثامن من الشهر الثالث، حين لم يكن هناك أيُّ عمل، وكان يلهو كلُّ يومٍ ويؤدي الأغاني من هذه القرية إلى تلك القرية، من هذا الجبل إلى ذاك الجبل، كان أمراً ممتعاً للغاية. وقالَ إنَّ الفتيات كنَّ يغنين «أغاني القاعات»، تجلسُ الواحدةُ قبالةَ الأخرى ويؤديان الأغاني، وبعد أن ينتهين من مقطع، يسحبُن الكرسيَّين إلى الأمام قليلاً إلى أن تصبحا وجهاً لوجه، تحتضن كلُّ منهما الأخرى، وتتلامسُ الوجنتان، وتغني كلُّ منهما في أذنِ الأخرى بصوتٍ خافتٍ كطينِ البعوض، لا يفهمه سوى الطرفِ الآخر. ويسمَّى هذا «الغناء قريباً من الأذن». كان وان يو مبتهجاً وعيناه تلمعان، ثم فرقعَ بلسانه قائلاً: «هؤلاء الفتيات مثل حباتِ الفاصوليا، اعصرهنَّ وسيخرجُ الماءُ منهنَّ!».

كنتُ أشعرُ بالمللِ ذلكَ اليوم، وأثارت الأغاني البذيئة فضولي بعضَ

الشيء، فرجوته أن يغني لي. تظاهر بالخجل والتردد قبل أن يوافق: «هل تريد أن أرتكب خطأ؟».

- لقد اشتريت لك الصابون والجوارب، أَلن تشكرني؟

استعاد وان يو نشاطه، وقفز من السرير، وظلَّ يدور في الغرفة إلى أن رطب حنجرته واستعاد تركيزه، وأدركت فجأة أنه مفعم بالحيوية والقوة، وتلاشى شحوب مرضيه، وكان ثمة شعاعان ينطلقان من عينيه. غنى بضع جمل، ولم يتسنَّ لي فهم غنائه، إذ أشار بيده مرَّات عدة، وسعل بقوة وصمت، ثم امتدت يده ببطء إلى حافة السرير.

- «أخشى أنني لا أستطيع أداء الأغاني». شدَّ على يدي بقوة بيده الباردة.

- لا، إنَّ صوتك عذب.

- عذب حقاً؟

- بالطبع، بالطبع.

- لا تهزأ مني.

- لا أهزأ منك.

- هل تعتقد أنَّ بمقدوري الغناء في المستقبل؟

- بالطبع، بالطبع.

- وكيف تعلم أنَّ باستطاعتي الغناء؟

شربت قليلاً من الماء.

أظلمت عيناه، وتنهد تنهيدة طويلة، ومال برأسه إلى السرير قائلاً:

«لا أستطيع الغناء، لا أستطيع الغناء، وكلُّ هذا بسبب خي رئيس الكومونة الشرير».

بدأ الحديث مجدداً عن بُغْضِهِ الغامض للرئيس خي، لم أعلم ما الشيء الصائب لقوله، لذا لم يسعني إلاَّ المماطلة في شرب الماء البارد.

ذات يوم بعد مرور أشهر، سُمِع صوتُ مفرقاتٍ مشؤوم، خرجتُ لأتَقصَّى الأمر، وعلمتُ أنَّ وان يو قد تبدَّد، أي مات (انظرُ مدخل «تبدَّد») وقيل إنَّه مات وحيداً، وإنَّ تجاوز تشينغ اكتشف جثته بعد أيام، وحين لفظ أنفاسه الأخيرة لم يكن في جيبه إلاَّ ثلاث حَبَّات فول، وإنَّه افتقرَ حتى إلى طعامٍ بائٍ في منزله. تركَ طفلاً في عمر العاشرة، أخذه عمُّ بعيد. رأيتُ منزله العاري المليء بخيوط العناكب وذَرَقِ البط، كان فارغاً حتى من خزانة واحدة، وملابسه مكومة في سلَّة مهترئة تقفز عليها دجاجاتُ جاره. ويقول الناس إنَّه عانى بسبب النساء طوال حياته، وإلاَّ، ما طلبت زوجته الطلاق، وكانت لتطبَّخ له وجباتٍ ساخنة.

لم يكن لديه حتى تابوت لدفنه، وفي النهاية تبرَّعَ بن يي بسلَّةِ حبوب، وقَدَّم الفريقُ سلَّةً أخرى، يمكن استبدالها بألواح من خشب التنوب لصنع تابوت.

وحسب العادات المحلية، وضع الناس كيساً صغيراً من الأرز في التابوت، ودسوا عملةً معدنيةً في فمه، واكتشف تجاوز تشينغ أثناء تغيير ملابس وان يو:

- ليس لديه تين!

دُهِلَ الجميع.

- «حقاً! حقاً ليس لديه تنين؟».

ألقى الناس واحداً تلو الآخر نظرة على الجثة، واكتشفوا أن هذا الرجل ليس لديه تنين، أي ليس لديه قضيب.
ذهل الجميع.

بحلول وقت المغيب انتشر الخبر في القرية بأكملها، وتهاست النساء فيما بينهن بذهولٍ وحيرة. كان العم لوه الوحيد المنزعج مما يجري، وقال بثقة بالغة، لا داعي لتخمين ما هو واضح، لو لم يكن وان يو مخصياً، فلماذا ليس لديه لحيّة وحاجبان؟ وقال إنه سمع منذ فترة طويلة أن وان يو تحرّش بزوجة عائلة ثرية قبل أكثر من عشر سنوات في شارع تشانغ لي، وأعتقل في الحال. كان زوجها يسيطر على شارع تشانغ لي، ويترأس أيضاً المجموعات المدنية للحكومة الدمية^(١). وكيفما توسّل وان يو الصفح، فقد قطعوا تيننه بسكين.

حين سمع الناس ذلك، لم تتوقف التهديدات، فكّروا في تودّده الدؤوب للنساء، ومساعدته هن في أعمالهن، وأنه كان يضرب عوضاً عنهن، هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ بعد عقودٍ من الرعد، لم تهطل قطرة مطر، رعى الخنازير لعقودٍ ولم يتناول كرة لحم، هل أُصيب بالجنون؟ واتضح أن هذا الطفل ليس من لحمه ودمه، وحين فكّر الناس، أدركوا أنه لا يشبه وان يو بتاتاً.

(١) الحكومة الدمية: هو مصطلح يطلق على دولة يُزعم أنها مستقلة ولكنها في الحقيقة تعتمد على قوة خارجية. تتمتع بالسيادة اسمياً ولكن يُتحكّم بها بشكل فعلي من قبل دولة أجنبية. تحافظ الدولة الدمية على المظاهر الخارجية للاستقلال مثل العلم، النشيد الوطني، الدستور، رموز القانون وشعار الدولة، بينما هي في الواقع مجرد جزء من الدولة الأجنبية التي أنشأت أو دعمت الحكومة الدمية.

أضحت القرية أكثر هدوءاً برحيل وان يو، مع عددٍ أقل من الأغاني؛ يُسمَع أحياناً صوت صراخٍ خافت، وإن أصغيت بتركيزٍ ستبين أنها الريح، وليس وان يو.

دُفِنَ وان يو في جبال تيان تري. عبرت قرب جسده مرّات عدّة أثناء ذهابي إلى قطع الأخشاب. وفي عيد تشينغ مينغ^(١)، كان قبره الأكثر حيويةً بالزائرين؛ اقتلعت الحشائش من تلة القبر، وكانت هناك كمية من رماد الورق المحروق، وبقايا شموع وأعواد بخور، وأوعية أرز تُقدّم كقرايين. رأيت العديد من النساء المألوفات وغير المألوفات، جئن من القرية ومن خارجها، وذهبن هناك للنحيب والبكاء حتى احمرّت أعينهن. كان بكاؤهن صادقا، بلا خجل، حتى أن امرأةً بدينة من بلدة تجانغ جيا فانغ جلست على الأرض وضربت على فخذيها، وانتحبت أن وان يو كبدها ورثتها، متألّمة من أن كبدها ورثتها عاش فقيراً طيلة حياته، وحين مات لم يكن يملك إلا ثلاث حبات فول.

كان هذا تقريباً تجمعاً عفويّاً لعالم النساء، وتعجبت أن أزواجهن لم يتدخلوا في هذه الدموع. قال فوتشا إنهم كانوا يدينون للطحان وان يو بالمال مقابل العمل، لذلك لم يُعلّقوا على الأمر. خطر ببالي أن ثمة سبب آخر، هو عدم شعورهم بأنّه رجلٌ حقيقي، ولا علاقةً مشبوهةً جمعتهم بنسائهم. لم يعد يتطلب الحذر، ولا داعي للقلق بشأنه.

(١) تشينغ مينغ: عيد كنس القبور، أو يوم كنس القبور، يقع في اليوم الأول من الفصل الشمسي الخامس من التقويم الشمسي القمري الصيني التقليدي. تزور الأسر قبور أسلافها لتنظيفها والدعاء لهم، وأداء طقوس القرايين، التي تشمل عادةً حرق البخور والورق الأصفر.

التَّيْنِ (تتمة)

يرسمُ أهلُ ماتشياو التَّيْنِ باللونِ الأسود، له قرنٌ وعلٍ، ومخالبُ
نسرٍ، وجسمٌ ثعبانيّ، ورأسٌ ثورٍ، وشواربُ روبيانٍ، وأنيابُ نمِرٍ، ووجهُ
حصانٍ، وحراشفُ أسماكٍ وغيرها، كلُّ شيءٍ مهم. تُرسمُ هذه التنانينُ
على الجدرانِ، على المرايا، أو تُنقشُ أعلى السريرِ مع الأمواجِ والسحبِ،
البحرِ واليابسةِ والهواءِ، كلُّ شيءٍ موجود. وهكذا، فالتَّيْنِ ليس حيواناً
واحداً على الإطلاق، وليس له علاقةٌ بالديناصوراتِ في العصورِ
القديمة، التَّيْنِ هو نمطٌ صينيٌّ لتجميعِ كلِّ الحيواناتِ، إنه تلخيصُ
موجزٌ لكلِّ الحياتِ على الأرضِ.

التَّيْنِ مفهوم، رمزٌ شاملٌ للقدرةِ المطلقة، ويكاد يكون اعتقادٌ بعضِ
المؤرخين أنَّه اندماجٌ طواطم القبائلِ القديمةِ منطقياً.

القواربُ التي تُصنعُ على شكلِ تَيْنٍ تُدعى قواربُ التَّيْنِ. وحين
كنتُ من الشبابِ المتعلِّمِ في قريةِ ماتشياو، حُظِرَت عادةُ تجديفِ قواربِ
التَّيْنِ القديمةِ بسببِ الثورةِ الثقافية. سمعتُ أهلَ القريةِ يقولون إنَّ
تجديفَ قواربِ التَّيْنِ في الماضي كان نشطاً ومرحاً، وكان الناسُ عند
ضفةِ نهرِ لُوِه يتنافسون على موقعِ الصدارة، وأفرادُ الطرفِ الخاسرِ

يرتقون الضفة ويخلعون بناطيلهم ويضعونها فوق رؤوسهم، ويتعرضون
للسخرية والإهانة من الناس. وسمعتُ كذلك أنَّ قوارب التَّين حينها
كانت تُدهَنُ مئآتُ المراتِ بزيتِ التونغ، وتُحَرَّقُ أعوادُ البخور في
مراسمٍ لا نهائيةً للتضريحِ إلى الآلهة قبلَ صناعةِ القارب، كما لا تُعرَّضُ
هذه القواربُ إلى ماءِ المطر أو أشعةِ الشمس، ولا تنزل الماءَ كيفما اتفق
حتى يومِ المسابقة، فتقرعُ الطبولُ والأبواق، ويحملها الشبابُ إلى مكانِ
المسابقة. ورغم سيرهم بمحاذاةِ النهر، فإنَّ الرجال لا يستطيعون ركوبَ
القوارب، بل تمتطي القواربُ الرجال!

سألتُ لماذا الأمورُ معكوسةٌ بهذه الطريقة.

قالوا كي ترتاح القوارب، لا يمكن تركُّها للتعب.

وفي ذلك الوقت، يصبحُ التَّينُ حيواناً، ورجلاً محدودَ القوة.

عَفْرِيثُ الْقَيْقَبِ

كانت لدي محاولة طموحة قبل تأليف هذا الكتاب، لكتابة سيرة ذاتية عن كل شيء في ماتشياو، ولما كنت قد انخرطت في كتابة الفن الروائي منذ أكثر من عشر سنوات، فإنني أصبحت على نحو متزايد أقل ولعاً بقراءتها وكتابتها، وأعني هنا تلك الروايات التقليدية ذات الحبكة القوية. إذ في هذا النوع من الروايات تَحجُبُ الشخصيات الرئيسية والحبكة الرئيسية والجو العام رؤية الكاتب والقارئ وتهمنُ عليهما، وتجعلهما غير قادرين على الالتفات إلى أي شيء آخر. ورغم وجود بعض الاستطراد العرضي، فإنه مجرد زخرفة جانبية للخط الرئيسي، نعمة قليلة في ظل الاستبداد. ولا بُدَّ من الاعتراف بأن هذا النوع من الروايات منظورٌ واحدٌ يقترب من الواقع، ولا خطأ في ذلك. لكن إن فكرنا قليلاً في الأمر، سندرك أن الحياة الواقعية لا تكون هكذا في كثير من الأوقات، ولا تتوافق مع الخط الرئيسي المتحكم في السبب والنتيجة. فالإنسان يقبع في تقاطع من اثنين، أو ثلاثة أو حتى أربعة من الخيوط، وخارج كل خيط عدد كبير من الأشياء والأشكال التي تُعدُّ جزءاً لا غنى عنه من حياتنا. إذن في هذه الشبكة المتنوعة والمتشابكة من

الأسبابِ والتتائج، هل ثمة شرعيةٌ لهيمنةِ الموضوعِ الرئيسي في الرواية (الشخصيات، الحكمة، الجو)؟

الأشياء التي لا يمكنُ اعتبارها ضمنَ الرواية التقليدية، غالباً هي الأشياء التي تبدو «غير ذات مغزى». لكن حين تهيمنُ السلطة الدينية، يكون العلمُ غير ذي أهمية، حين تهيمنُ البشرية، تكون الطبيعةُ غير ذات أهمية، حين تهيمنُ السياسة، يكون الحبُّ غير ذي أهمية، حين يهيمنُ المال، لا يكون للجمال أهمية. أظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ في العالم متطابقٌ من حيث الأهمية، لذا فالأشياء التي تبدو أحياناً «غير ذات مغزى»، لا تكون إلاَّ صرفاً لوجهة نظر الكاتب عمّا يراه ذا مغزى، أو رفضاً من وجهة نظر القارئ عمّا يراه ذا مغزى، ولا يمكنُ أن يدخل ذلك ضمنَ المنطقة المثيرة لاهتمامات الناس. ويبدو جلياً أنَّ الأحكامَ على المغزى ليست غريزةً فطرية، بل هي على العكس، مُجرّد تياراتٍ سائدة وعاداتٍ ونزعاتٍ ثقافية مؤقتة، تكشفُ عن نفسها دائماً حسب تشكيل الرواية بذاتها لنا. وبشكلٍ آخر، الأيديولوجيا المخبأة في تقليد الرواية، تكررُ نفسها باستمرارٍ عبرنا. مكتبة سر من قرأ

ذاكري وخيالي ليسا مُهيئين للتقاليد.

لذا، أتمنى دائماً أن أتلخّص من الخطّ الرئيسي للسبب والنتيجة، وألتفتُ إلى بعض الأشياء التي لا أهمية لها، مثل أن أتمعّن في حجر، أو أرنو إلى نجمة، أو أدرس مطراً غزيراً لا يستحق الذكر، أو أتأمل ظهراً أحدٍ لا أعرفه ولن أعرفه أبداً؛ على الأقل يجبُ أن أكتب عن شجرة. في مخيلتي، ينبغي أن تكون هناك شجرةٌ ضخمةٌ في ماتشياو، لا بُدَّ أن أجعل شجرةً، بل شجرتين، أجعل شجرتي قَيْقَب كبيرتين تنموان على أوراقِي،

وتنتصبان على المنحدر الخلفي لمنزل العم لُوَه في ماتشياو السفلى. أُنْخِلُ ارتفاعَ هاتين الشجرتين، الشجرة الأكبر تتجاوز سبعة أو ثمانية تشانغ^(١)، والأصغر خمسة أو ستة تشانغ. وكلُّ مَنْ يأتي إلى ماتشياو سيرى قممهما من بعيد، برؤية واسعة وممتدة.

أعتقدُ أنَّ هذا جيد: سأكتبُ سيرةً ذاتيةً عن شجرتين.

قريةٌ دونَ أشجارٍ مثل عائلةٍ دونَ والدين، أو رأسٍ دونَ عينين، قبيحةُ المنظرِ مهما تطلَّعتَ إليها، وستشعرُ دائماً أنَّها تفتقرُ إلى مرتكز، ومرتكزُ ماتشياو هو شجرتا قَيْب. لا يوجد طفلٌ لم يتنفس ظلَّهما البارد، أو يتشرَّب صوتَ حشراتِ السيكاذا، أو لم تبعث عُقْدُها الغريبةَ خيالاتٍ غريبةً ومرعبة. لا تحتاجُ الشجرتان إلى مَنْ يعتني بهما، فبوسعِ الناسِ الابتعادُ عنهما حينَ انشغالهم ونسيانُهما تماماً. لكنَّهما دائماً على استعدادٍ لقبولِ ومرافقةِ الأشخاصِ الوحيدين، وأن يمحو حفيفُ أوراقهما كآبَتَهُم. والغلالةُ الفضيةُ المنسكبةُ من ستارِهما المورق، مُنْقَطَةٌ وبراقة، ومتداخلة، تتراجعُ تارةً وتنبسُ تارةً أخرى، وتَبُّ أحلاماً صافية.

لا يعرف أحدٌ مَنْ زرعَ هاتين الشجرتين، حتى الفرقُ القديمةُ لا تتحدث بتفصيلٍ عن الأمر. وعن تسميتهما بعِفريتِ القَيْب، يُقالُ إنَّ حريقاً اندلع في الجبال قبل سنوات، واحترقت جميعُ الأشجارِ على المنحدر عدا هاتين الشجرتين ظلَّتتا على حالهما، حتى أنَّ أوراقهما وأغصانَهما لم تتلف، تدفعان في المرءِ شعوراً بالمهابة والتقدير عند النظر إليهما يوماً

(١) تشانغ: وحدة قياس صينية، تساوي ثلاثة أمتار وثلاث المتر.

بعد يوم. ومن حينها ازدادت الحكايات حولهما، قال أحدهم إِنَّ عَقْدَ الشجرتين تشبه أشكالاَ بشرية، يزداد طولها خِفَةً مع الرياحِ العاصفةِ أو المطرِ الغزير، وتنكمش إلى طولها الأصلي إن رأت أحدهم قادماً. وكانت قصةُ مامينغ أكثرَ غموضاً، قال إِنَّه نامَ ذاتَ مرَّةٍ بالصدفةِ أسفلَ الشجرتين، وعلَّقَ قبعةَ الخيزرانِ على غصنٍ صغيرٍ مكسورٍ لِعِفْرِيتِ الشجرةِ الصغير، واستيقظَ في منتصفِ الليلِ على صوتِ الرعد، ورأى عبرَ ضوءِ البرقِ القبعةَ معلقةً على قمةِ الشجرة، ما كان غريباً جداً.

تباهى مامينغ بمهارته في الرسمِ أثناء شبابه، وقال إِنَّه رَسَمَ هاتين الشجرتين من قبل، لكن بعد انتهائه من الرسم، أصابه ألمٌ شديدٌ في ذراعه اليمنى لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ مع تورُّمٍ وحمى، ولم يجرؤ على رسمِهما مرَّةً أخرى. لا يمكنكُ رسمِهما، فضلاً عن قطعِ أخشابهما، لذا أصبح ارتفاعُهما بمرورِ الوقتِ علامةً مميزةً تُرى من بُعدِ عشراتِ لي. كان البعضُ ينشرُ أغصانَهما في السابق، ويعلِّقون عليها قماشةً حمراءَ ويغرسونها أمامَ بابِ المنزلِ لدرءِ الأرواحِ الشريرة، أو ينحتون أخشابَهما على شكلِ أسماكٍ لاستخدامِها كقرايينٍ للتضُّعِ للآلهةِ وإبعادِ الكوارث، ويُقالُ إِنَّ ذلك كان فعَّالاً. شاركتُ ذاتَ مرَّةٍ في مشروعِ بناءِ أعمالِ الري، وذهبتُ إلى الكومونة لوضعِ بعضِ الخطط، كما أُرسلُ المعلم «فان» الذي يُدرِّسُ في المدرسةِ المتوسطةِ للمشاركةِ في المشروع أيضاً. ذهبنا معاً إلى مكتبِ الري التابعِ للمحافظة لنسخِ خريطةِ هذه الكومونة. وفي غرفةِ المراجعِ المغبرةِ الخائقة، علمتُ أَنَّ الحكومةَ لم تسمحِ أو ترسمِ أيَّ خريطةٍ كاملةٍ للمنطقة منذ العامِ ١٩٤٩، وكلُّ التصميماتِ أساسُها الخريطةُ العسكريةُ التي تركها الجيشُ الياباني حين غزا الصين. كانت خرائطُ استراتيجية كالتي

استخدمها تجوغه ليانغ^(١)، مرسومةً بالأبيض والأسود على مقياس من ١:٥٠٠٠، كلُّ كومونة تحتلُّ صفحة، ولم تعتمد هذه الخرائطُ على مستوى سطح البحر كمرجع، بل على بوابة «شياو وو مين» في مدينة تشانغشا. ويُقالُ إنّ اليابانيين قبل الاحتلال رَسُوا الصينيين الخونة لرسم هذه الخرائط في السر، وإنَّه لَأمرٌ مدهشٌ مدى استعدادهم الجيد وكفاءتهم في ذلك الوقت.

رأيتُ شجرتي قَيْقَبَ قريةٍ ماتشياو على هذه الخريطة، ما كان مثيراً للإعجاب، إذ وضع اليابانيون دائرةً حمراءَ حولهما، وقال المعلمُ فان بدراية إنّ هذا المكان كان موقِعاً لتنقلِ طائراتِ اليابانيين.

وهكذا تذكّرتُ أنّ أهل ماتشياو رأوا طائراتِ يابانيةً حقاً. قالَ بن يي إنّ المرّة الأولى التي رأوا فيها هذا الشيء العجيب، ظنَّ عمُّه الأكبر أنّها طائرٌ ضخّم، ونادى على الشباب لينثروا الحبوبَ في الحقلِ لجذبها، وطلب من الجميع إحضارَ الحبالِ للقبضِ عليها.

لم تهبط الطائرة، فتوعّد السماءَ بثقةٍ قائلاً:

- أراكِ لا تنزلين! أراكِ لا تنزلين!

كان «شي العصا الطويلة» الوحيد الذي خَمَّنَ أنّ هذه طائرة يابانية على وشك إسقاطِ قنابل، لكن للأسف كان هذا الغريبُ يتحدث بلهجةٍ خشنةٍ عصيةٍ على فهم الجميع. قالَ عم بن يي إنّ الياباني قصيرُ القامة، فكيف يكون الطائرُ الياباني ضخماً هكذا؟

(١) تجوغه ليانغ: كان رجل دولة صيني واستراتيجي عسكري في عصر الممالك الثلاث، والذي أصبح رمزاً للحيلة والحكمة في الفولكلور الصيني.

انتظر أهل القرية يوماً دون جدوى، ولم تهبط الطائرة لتناول الحبوب، لكنّها في المرّة الثانية لمجيئها أسقطت قبلةً هزّت الأرض، تُوفي العم الأكبر في الحال، انفجر فمّه وطار فوق الشجرة، بدا كأنّه يريد قضم عشب العصفير في الأعلى، وظل بن يي يعاني من ضعفٍ في السمع حتى الآن، ولا أدري أكان الانفجار هو السبب أم فزعُه من رؤية هذا الفم يطير صوب جذع الشجرة.

تُوفي ثلاثة أشخاصٍ من القرية جرّاء الانفجار، وإن أضفنا شيونغ شي (انظر مدخل «الحياة العزيزة») الذي مات في انفجارٍ متأخّر بعد عشرين عاماً، يرتفع عددُ القتلى إلى أربعة أفراد.

يمكننا التفكير في الأمر بهذه الطريقة؛ لولا هاتان الشجرتان، هل كانت الطائرات اليابانية ستحلّق وتُسقط القنابل؟ لا يحتاج اليابانيون في الأساس إلى الاهتمام بقرية جبلية صغيرة، ولولا عدّهم عفريت القيقب مكاناً للهبوط، لما حلّقوا هنا، وعلى الأرجح لما رأوا جموع الناس في الأسفل وهم يصيحون، وكانوا سيلقون القنابل في مناطق يعتقدون أنّها أكثر أهمية.

حدث كل شيء بسبب هاتين الشجرتين، بما في ذلك موت أربعة أشخاصٍ والأحداث اللاحقة.

ومن حينها، سكنت الشجرتين أسرابُ غربان، كلّما نشرت أجنحتها تبدّى سوادٌ مُتصدّع في عيون الناس، حاول البعض طردها، استخدموا النيران وقصفوا أعشاشها، لكنّ هذه الكائنات المشؤومة -بشكلٍ مثيرٍ للدهشة- كانت تعود وتقف بعنادٍ على قمتي الشجرتين.

كانت الغربانُ تنعقُ سنةً وراءَ الأخرى. ويُقالُ إنّ ثلاثَ نساءٍ انتحرنَ شنعاً أسفلَ تلكَ الشجرة، لا أعلمُ شيئاً عنهن، أعرفُ فقط أنّ واحدةً منَ بينهن تشاجرت مع زوجها، وشنقت نفسها بعد تسميمه، حَدَّثَ هذا منذ فترةٍ طويلةٍ جداً.

كنتُ أعبُرُ هاتين الشجرتين كَأَنِّي أعبُرُ بأيّ شجرةٍ، بأيّ عشبٍ، بأيّ حجرٍ، لا أولي اهتماماً كبيراً لهما. ولم يخطر ببالي أنّ هاتين الشجرتين، المتواريتين في عمقِ الأيام، تحبّان احتمالاتٍ غامضة، تحشدان الأخطار، وتنفجران في اللحظة الحاسمة وتقرران مصيرَ شخصٍ أو أشخاصٍ عديدين.

أفكّرُ أحياناً أنّ كلّ شجرةٍ مختلفةٌ عن الأخرى، مثلما يختلفُ كلّ شخصٍ عن الآخر. هتُلر شخصٌ أيضاً، فإن جاء كائنٌ فضائيٌّ للتعرفِ عليه، فطبّقاً لحواسه الخمس وأطرافه، وطريقة وقوفه وجلسه ومشيه، وبعض الأصوات ذات الإيقاع التي يصدرها كالكائنات المماثلة له، سيعرّفه الكائنُ الفضائيُّ وفقاً لقاموسه الذي على الأرجح يملكه، أنّه إنسان، لا يوجد خطأ في ذلك. «أغاني تشو» ألواحُ البامبو من أسرة هان المُكتشفة، هي كتاب، إذا قرأه باحثٌ عبري لا يفهم اللغة الصينية، فوفقاً لأشكالِ الرموز، والأدوات المستخدمة في الكتابة وموقع اكتشافه، وإن كان الباحثُ بالذكاء والمعرفة الكافية، سوف يستنتج أنّها لغةٌ صينية، وهذا أيضاً لا خطأ فيه. لكن ما المغزى من هذه «الأشياء التي لا يشوبها خطأ»؟

مثلما نعدُّ عَفْرِيتَ القَيْقَبِ شجرةً، شجرةَ قَيْقَبٍ، فما مغزى صوابٍ كهذا؟

لا إرادة وحرية للشجرة كما الإنسان، إلا أنها في شبكة السبب والنتيجة المعقدة، تحتلُّ بهدوءٍ موقعاً هاماً. ومن هذا المنطلق، فالفرق بين شجرة وأخرى يكون في بعض الأحيان كالفرق بين هتلر وغاندي، أو الفرق بين «أغاني تشو» وبين دليل ماكينة حلاقة كهربائية، فرقٌ أكبرُ مما يمكننا تصوره، حتى لو كنّا على درايةٍ كبيرةٍ بعلم النباتات، ففهمنا بدائيٌّ أمام شجرةٍ محجوبة.

اختفت شجرتا القَيْقَب أخيراً في بداية صيف ١٩٧٢، ولم أكن حينها في القرية. حين عدتُ لم أرَ قمتيهما من بعيد، وشعرت للحظة أنَّ المعالم أمامي ليست نفسها، وكدتُ أظنُّ أنني أخطأتُ الطريق. اكتشفتُ بعد دخولي القرية أنَّ المنازل أصبحت أكثرَ اتساعاً، وأكثرَ إشراقاً، وكانت هناك بقعةٌ بيضاءٌ لافتة للنظر. اتضح أنَّ ظلالَ الشجرتين اختفت، وانتشرت في كلِّ مكانٍ نشارةٌ وقطعُ الخشبِ التي تفوح منها رائحةُ العصارَةِ الكثيفة، وأكوامٌ من الأغصان تحتلُّ بها أعشاشُ الطيور وخيوطُ العناكب، لكن لم يحملها أحدٌ إلى منزله كحطبٍ للتدفئة، وتحولت التربةُ إلى موجاتٍ، تشيرُ إلى معركةٍ شرسةٍ ضدَّ شجرةٍ أسقطت منذ وقتٍ ليس بعيداً. شملت رائحةٌ تشبه الفلفل، إلا أنني لم أعلم مصدرها.

صوتُ وطءِ الأغصانِ والأوراقِ هو صوتُ الشيوخوخة.

أمرت الكومونة بقطع الشجرتين، وقيل إنَّ ذلك لصنعِ كراسي قاعة الاجتماعات الجديدة، ولتخطيط خرافةٍ عِفريتِ القَيْقَب. في ذلك الوقت لم يرغب أحدٌ بحملِ معولٍ أو منشار، فلم تكن باليدِ حيلةٌ إلا أن تأمر كوادِرُ الكومونة مالكَ أراضٍ خاضعاً للمراقبة بالإشرافِ على العمل، كما أضافوا أسرتين فقيرتين، ووعدوهما بتخفيف عشرة يوان من ديونهما،

حتى أجبروهما على البدء في العمل بتردد. رأيتُ في الكومونة فيما بعد صفّاً من الكراسي الجديدة المصنوعة من خشب القَيْقَب التي أُستخدمت في اجتماعاتِ الحزب، اجتماعاتِ تخطيطِ الإنجاب، واجتماعاتِ الري وتربيةِ الخنازير وغيرها، وخلّفت آثارَ أقدامِ قدرة، وبقايا حساءٍ من المآدب. على الأرجح مذكاً، بدأ نوعٌ من الحِكَّة ينتشرُ في العشراتِ من القرى المجاورة؛ عندما يتقابلُ المصابون، رجالاً أو نساءً، يحكُّون بجنونٍ ولا يعرفون هل يضحكون أو يبكون، ويفسدون هندامهم، وكان البعضُ لا يستطيع الاحتمال، فيتكئُ على الجدارِ بظهره ويحكُّ إلى الأسفلِ وإلى الأعلى، إلى اليمينِ وإلى اليسار، أو ترى آخرَ يتحدثُ عن التعليقاتِ القادمة من المحافظة ويدهُ في بنطاله. تناولوا الأدويةَ الصينيةَ التقليدية، لكنّها كانت دونَ فعالية. ويُقالُ إنّ الفريقَ الطبي من المحافظة لم يعرف سببَ المرض، ووجد الأمر غريباً.

كان ثمة شائعةٌ تقول إنّ هذا «جدري القَيْقَب»، أثارتَه عفاريت القَيْقَب، لأنّها تريدُ إفسادَ مظهرهم الجاد، والانتقامَ من القتلِ الذين قطعوا الشجرتين.

يرغب

«kěn 肯» فعل دالٌّ على الرغبة والتمني والسباح، مثل «هزَّ رأسَه موافقاً - kěnsōu 肯收»، «مستعدٌّ للعمل kěngàn 肯干»، «شغلَّ عقلَه - استعملَ رأسَه kěndòng nǎojīn 肯动脑筋» وغيرها، وتُستخدَم للتعبير عن الميول النفسية للفرد.

يستخدمُ أهلُ ماتشياو كلمةَ «يرغب» على نطاقٍ أوسع، ليس لوصفِ الإنسانِ والحيوانِ فحسب، بل لوصفِ كلِّ الأشياءِ في العالم. وتلك بعضُ الأمثلة:

هذا الحقلُ «يرغب» في زراعةٍ محصول.

كَمْ هذا عجيب، الخطبُ في منزلي لا «يرغب» في الاشتعال.

هذا القارب «يرغب» في الذهابِ بعيداً قليلاً.

لم «ترغب» هذه السماءُ في أن تُهطل أمطاراً لما يزيد عن شهر.

لا «ترغب» معزقةُ بن يي في حرثِ الأرض.

لا يسعُنِي إلَّا أن أختبر شعوراً ما عند سماعي هذا الكلام؛ كلُّ شيءٍ له إرادةٌ وحياة: الحقل، الخطب، القارب، السماء، المعزقة وغيرها، كلُّ

هذه الأشياء مثل الإنسان، حتى أن لديها أساءها وقصصها الخاصة. وفي الواقع، اعتاد أهل ماتشياو حصراً التحدث معها، نصحتها أو توبيخها، الشناء عليها أو إعطاءها الوعود، مثل أن يوبّخوا المحرّاث بشدة، فيتحرك بشكل أسرع في الحقل، أو أن يضعوا الفأس على فم زجاجة النبيذ لتتسرب أبخرة الخمر، فتكون أشدّ قوة عند قطع الخشب. ربما، إن لم يكونوا خاضعين لقوة خارجية، وإن لم يكن الأمر دعاية علمية، لما أقرّ أهل ماتشياو بأن هذه الأشياء هي أشياء ميتة دون مشاعر أو قدرة على التفكير.

وفي ظلّ هذا الافتراض فقط، إن ماتت شجرة، سيكون لدينا سببٌ للشعور بالحزن، وحتى تخليد ذكراها لفترة طويلة. ولكن حيث تسقط تلك الأشجار ولا يكون ثمة حزن، لا تعود إلى الحياة مطلقاً، إذ لم تكن إلا تكاليف وموارد مُهدرة. والأشخاص في تلك الأماكن لن يستخدموا «يرغبوا» بهذه الطريقة.

راودتني في صغري خيالات غريبةٌ كالتجسيد والأرواح. على سبيل المثال، كنت أعدّ الزهور الملونة على الأشجار هي حلمُ الجذور، أو أن الطرق الجبلية الوعرة مؤامرةٌ حاكتها الغابات، وهذه بالطبع سذاجة. وبعد أن نضجتُ وأصبحتُ أكثر قوة، كنتُ أستخدمُ الكيمياء والفيزياء لتفسير الزهور والطرق الجبلية، أو بمعنى آخر، لأنّه كان بمقدوري استخدامُ الكيمياء والفيزياء لتفسير الزهور والطرق الجبلية، بدأتُ أصبحُ أكثر قوةً ونضجاً. المشكلة إذن: هل نمطُ التفكير القوي نمطُ تفكيرٍ صحيح؟ لفترة طويلة، كان الرجال أقوى من النساء، فهل تفكيرُ الرجال صحيح؟ كانت الإمبراطوريات أقوى من المستعمرات،

فهل تفكيرُ الإمبراطورياتِ صحيح؟ إن كان ثمة مخلوقاتٌ في الفضاءِ
الخارجي أكثرَ تقدماً وأشدَّ قوةً من البشر، فهل يعني ذلك أنَّه يجبُ
استخدامُ أفكارِها لتدميرِ الأفكارِ البشريةِ واستبدالِها؟
هذا سؤال.

سؤالٌ لا أستطيعُ الإجابةَ عنه، مُعضلة، لأنَّني أتمنى أن أكون قوياً،
وأتمنى العودةَ مرَّةً تلوَ الأخرى إلى طفولتي الصغيرةِ الضعيفة، وإلى حُلُمِ
جذورِ الأشجارِ ومؤامرةِ الغابات.

الحياة العريضة

في أحد أيام الشتاء، كان شيونغ شي ابن تجي هوانغ الذي يسيلُ المخاطُ من أنفه، يلهو على التلّ الشمالي مع بعض الأطفالِ رعاةِ الماشية. كانوا يحفرون حفرةً لإخراج ثعبانٍ من سُبَاتِه الشتوي لشيّه، لكنهم استخرجوا كتلةً ثقيلةً صدئةً لم يعرفوا ما هي، طَرَقَ عليها شيونغ شي بقوةٍ بمنجل، قائلاً إِنَّه يريدُ استخدامَ طرفي تلك الكتلةِ ليصنعَ بها سكاكينَ مطبخٍ من أجلِ أمّه لتبيعهما في السوق.

أثار طَرَقُهُ انفجاراً ضخماً، رفع بالأطفالِ الذي يبحثون عن حُفْرِ الثعابين عالياً مسافةً طويلة، وكانت أقدامُهم وأرجلُهم في الهواء بلا حيلة. بعد سقوطهم متألّمين، التفوا ورأوا لدهشتهم أَنَّ شيونغ شي اختفى، ولا يوجد شيءٌ سوى أوراقِ عشبٍ وترابٍ يتساقطُ كثيفاً، ورذاذٍ مطرٍ باردٍ يتساقطُ من السماء. اكتشف الأطفالُ أَنَّ هذا الرذاذَ أحمرُ اللون، فلم يبدو مثل دماء؟

لم يفهم الأطفالُ ما يجري، وظنُّوا أَنَّ شيونغ شي مختبئ، لذا نادوا عليه بصوتٍ عالٍ لبعض الوقت، لكنَّهم لم يسمعوا إجابة. التقط طفلٌ إصبعاً مغطىً بالدماء، وشعر بالخوف، فذهب وأعطاه إلى أحد الكبار.

لاحقاً، جاء أشخاص من الكومونة وانشغلوا لبعض الوقت، ثم جاء أشخاص من المحافظة وانشغلوا لفترة، إلى أن توصلوا إلى استنتاج مفاده: أنَّ هذه قبيلة أسقطتها طائرة يابانية العام ١٩٤٢، انفجرت بعد ثلاثين عاماً. أو بشكلٍ آخر، كانت الحرب الصينية اليابانية مستمرة في قرية ماتشياو حتى ذلك العام، وأودت بحياة شيونغ شي.

كان تحبي هوانغ وزوجته في غاية الحزن والأسى، وكان الأمر أشدَّ وطأةً عليه. إذ اعتقد أنَّ ثمة علاقة بين زوجته ووان يو، وأنَّ شيونغ شي طفلٌ غير شرعيٍّ في الغالب، لذا لم يعامله بلطفٍ ومودة. وبعد وفاة وان يو، اكتشف أنَّه لم يكن رجلاً، لذا تلاشت شكوكه، ونظر إلى شيونغ شي بعين الأب الحنون. كان يقطف له الكستناء البرية وغيرها من الثمار أثناء عودته من مقالع الأحجار أعلى الجبل، ولم يخطر بباله أنَّه لن يكون وجودُ هاتين اليدين الصغيرتين اللتين تأخذان الكستناء بعد ذلك اليوم، لم يكن شيونغ شي في المنزل، لم يكن في الحقل، ولا عند الجدول، ولا فوق التلة، ولا في أيِّ مكانٍ قريب من التلة، لم يكن في أيِّ مكانٍ في العالم، تحوَّل الابنُ إلى انفجارٍ هائل، ثم اختفى في الصمت، إلى الأبد.

كان رأسُ شيونغ شي كبيراً ومستديراً بشكلٍ استثنائي، وجسده مكتنزاً، ترمش عيناه اللامعتان الجميلتان مثل والدته شوي شوي، نظرةً واحدةً جانبيةً منه تشعُّ بسحرٍ أنثوي، تذكُّرُ المرءَ بتجربة والدته على المسرح، وحين يراه الناسُ يقرصون مؤخرته أو وجهه، ويتنافسون فيما بينهم على احتضان هذا السحر. كان يكره هذا النوع من المضايقات، وما لم يعطوه شيئاً لذيذاً للأكل، كان يتجاهلهم، ويتأمل الغرباء بعدائية.

كان بإمكانه معرفة إذا كان لديك ما يؤكّل في جيبيك باستدارةٍ خاطفةٍ من عينيه، وما إذا كانت ابتسامتك تستحق ثقته أم لا، أو إذا كان بحاجةٍ إلى الانتظارِ والترقبِ لبعضِ الوقت. كان أكثرُ ما يمقته ويثيرُ غضبه كلمات الكبارِ اللطيفة، كان يشتمُ ويركُلُ ويبصقُ، إلى أن يعصّ فجأةً في النهاية. عصّ فمهُ الشبيهُ بفمِ الأسدِ كلّ شيءٍ بدءاً من حلمةِ أمه. لم يفلت أحدٌ من أسنانه في المدرسةِ الابتدائية، سواء كان صبيّاً أو فتاة. وأخيراً، حتى أساتذته لم ينجوا منه.

قطع حافة الطاولة بسكين، ورفض القيامَ بنقدِ ذاتيٍّ أمام مدير المدرسة. «ستقومُ بالنقدِ الذاتيِّ شئت أم أبيت، لقد أفسدتكُم بدلاي!» أمسك المديرُ بأذنه وسحبه إلى غرفةِ الأساتذة، لكنّه عصّ المدير، وأمسك بنطلونه وهرب وهو يصرخُ شامخاً.

قال المديرُ غاضباً: «سأضربك أيها الشقي الحيوان!».

- ستضربني الآن، لكن انتظر حين تعبر أمام منزلي وأنت مسنٌ تتكئ على عصا، سأدفعك إلى حفرة!

تنبأ بالنصرِ بعد سنواتٍ لاحقة.

لاحقه مديرُ المدرسة بعمودِ الحُمْلِ لمسافةٍ طويلة.

لم يستطع المديرُ اللحاقَ به، إذ ارتقى شيونغ شي كرة اللحمِ هذه، التلّةُ المقابلةُ في لحظة، وهناك وضع يديه في خصره وأكمل سبابه: «لي شياو تانغ أنت أيها الخنزير اللعين، عانتك ظاهرة...».

سبَّ المديرَ باسمه مباشرةً، ولا أعرف من أين له معرفةُ هذا الاسم. بالطبع، كان من المستحيل أن يكملَ دراسته، وقال الجميعُ إنَّ تحجي

هوانغ ربّي كارثةً لأنّه لم يهتم بتقويمه، أيكون هذا طالباً؟ الكلبُ يسمع الكلام أكثر منه!

كان يذهب إلى المدرسة لاحقاً، ويرى زملاءه من بعيدٍ يقرأون معاً بصوتٍ عالٍ، أو يرمون الكرة أو يمارسون التمارين الصباحية. وإن صادف أحداً من زملائه، تظاهر بأنّه يمتطي حصاناً: «هيا... ووه» ويقفز بعيداً كأنّه يحظى بوقتٍ ممتع، كما لو أنّ كلّ شيءٍ في المدرسة لا يعنيه.

في أحد الأيام، كان تشونغ شي يلعب بالرمال برفقة بعض الأطفال، وأثار غيرة رفاقه لأنّه كان يستحوذ على بوطٍ قديمٍ يملؤه بالرمل، لذا عزموا على الانتقام منه، فتبرزوا عند بئر القرية وألصقوا به التهمة، وقالوا إنّ شيونغ شي من فعل ذلك، ومضوا يهتفون ويصيحون إلى أن وصلوا إلى موقع عمل الكبار وأبلغوهم، فاستشاط الكبار غضباً، وشعرت شوي شوي والدته بالحرج الشديد، وامتقع وجهها، ووبّخت شيونغ شي قائلة: «هل سيحدث لك شيءٌ إن لم تثر المتاعب ليوم واحد؟».

- أنا... لم أفعل ذلك.

- وتجروّ على مقاطعتي! لقد رآك كلّ هؤلاء الناس، ليسوا عمياناً، هل في عينيك حباتٌ فول؟

- لم أفعل ذلك.

- لا يوجد ماءٌ للشرب، اذهب واجلب الماء! ستُحضّر الماء لكلّ منزل، وستذهب إلى النهر لإحضاره!

- لم أفعل شيئاً.

- «لا تزال تكذب؟» صفعته شوي شوي صفعةً مدوية، ترتجّ شيونغ شي، وظهرت علاماتٌ أصابعٍ حمراء على وجهه فجأة.

ذهبت النساءُ لنُصح شوي شوي حينما رأينها ستضربه مرّةً أخرى قائلات: «انسي انسي، الأطفالُ سُذَّج، لا يفهمون شيئاً، ويتصرفون دائماً هكذا، لو ضربناهم نضربهم مرّاتٍ عدّة، لكن لا نضربهم بقسوةٍ شديدة...» ضاعفت هذه النصائحُ من غضبِ شوي شوي، وتحوّلت إلى نوعٍ من الضغط، كيف تكون مختلفةٌ عنهن ما لم تكن أشدَّ سخطاً وقسوة، لا فائدة من إقناعها، فلا نهاية لاثقة للأمر. كان عليها أن تشني كُمّي قميصها لتواجه هذا الضغط. «طراااخ»، ثم دوّت صفعتان، لم يبدُ كصوتٍ صادرٍ من الوجه، بل من برميلٍ خشبيٍّ مكسور.

عضّ شيونغ شي على شفتيه بقوةٍ وحدّق في والدته، طَفّت الدموعُ في عينيه، لكنّ لم تتدفق، بل حُبِسَتْ، ثم تراجعت تدريجياً.

لم يعد إلى المنزل في ذلك اليوم، ولا في اليومين التاليين. بحث عنه تحي هوانغ وشوي شوي في كلّ مكانٍ أعلى التلّة، وساعدهما أهلُ القرية في البحث، حتى كاد الجميعُ أن يصلَ إلى حافة اليأس، ثم أخبرهم رجلٌ مسنٌ يقطفُ الأعشابَ إنّه عثرَ على شيونغ شي في عُشٍّ من القش. كان ينامُ في العُشّ، تبدو هيئته بريّة، وباستثناء وميضِ عينيه العابر، كان جسده مغطّى بالأوساخ، وملابسه كخرقٍ بالية. لمدةٍ أحدَ عشرَ يوماً، أكلَ الثمارَ البريةَ والأعشابَ ولحاءَ الشجر، وحين أعادوه إلى المنزل، سلقت له شوي شوي بيضتين، فقضمَ قضمَةً وكزَّ على أسنانه في هيئةٍ عجيبة، وتوقّف عن الأكل، وهرع إلى الخارج وجلس تحتَ شجرةٍ مُحدّقاً في الجميع، ثم تناولَ أعشاباً من جانبه ودسّها في

فمه. ذُهِلَ الجميع لأنّه ترك البيض المسلوق وأكل الأعشاب، هل أصبح حيواناً إذن؟

على الأرجح، وتأثير ما حدث، فقدت شوي شوي رشدها بعد أن اختفى شيونغ شي في الانفجار الضخم، وظلّت لفترة من الوقت لا تصدّق أنّ ابنها مات، كانت تذهب إلى الجبال وتهتف باسمه حتى يتلاشى صوتها، معتقدة أنّه يختبئ في أحد الكهوف. استمر ذلك حتى لم يبقَ أمام النساء خيارٌ إلّا أن يُرينها إصبعاً لم تره مطلقاً، ونصفَ قدم، وطبقاً به عظامٌ مكسورةٌ ولحم، جحظت عيناها بشكلٍ مرعب، وسقطت مغشياً عليها.

قالت لها النساء حين أفاقت: «عليك أن توسّعي أفق تفكيرك، ما دمت وصلتِ إلى هذه المرحلة، عليك أن توسّعي أفق تفكيرك. رحيلُ شيونغ شي المبكر جيد، ألمّ يعيش حياةً عزيزة؟ لم يقلق من الأكل أو اللبس، وكان يلهو كلّ يوم، وحين عبث قدر استطاعته، رحل، دون مرضٍ أو ألم، إنّه محظوظ، أكنتِ تريدين أن يعاني في المستقبل؟».

تشيرُ «الحياةُ العزيزة» إلى حياة الرجل قبل عمر الثامنة عشر، أو حياة المرأة قبل عمر السادسة عشر. وانطلاقاً من هذا المفهوم، تشيرُ «الحياةُ الغنية» إلى حياة الرجل قبل عمر السادسة والثلاثين، وحياة المرأة قبل عمر الثانية والثلاثين. أن تعيش إلى هذا العمر يعني أنّك عشت حياةً غنية، وما يتبع ذلك يسمى «الحياة الوضيعة»، حياةٌ عديمة القيمة. ومن هنا، فالموت المبكرُ أمرٌ جيد، الموت المبكرُ ذو قيمة.

ليس لدى والدي شيونغ شي سببٌ للحزن.

تجمعت نساء القرية حول سريرها، وتحدثت كل واحدة بحنانٍ وعاطفةٍ أكثر من الأخرى. يا شوي شوي، عاش ابنك شيونغ شي ولم يشك الجوع مرةً، أليس هذا أمراً جيداً؟ عاش ابنك شيونغ شي ولم يشك من البرد، أليس هذا جيداً؟ لم يشهد شيونغ شي موت أبويه، ولم يُشيع إخوته وأخواته، لم يُجرح أو يحزن، أليس هذا جيداً؟ إن جعله الرب يعيش، عليه أن يتخذ زوجة، ويعيش مستقلاً، يتشاجر مع إخوته على جرة اليوم، وغداً يتشاجر مع أخواته على صحن، وأحياناً سيتشاجر مع أبيه وأمه، ما الفائدة من ذلك؟ زرنا الشتلات في الصيف القاطظ، ألا تعرفين كيف الأمر، الشمس تحرق رؤوسنا من الأعلى، والماء يغلي أسفلنا، وطرفا اليوم سير إلى الظلام، ما أن يشقشق الفجر نذهب إلى الحقول، ولا نعرف شتلات الأرز من الأعشاب إلا من لمسها، تعرفين كيف هو الأمر، نُصلح خزانات الماء تحت نور القمر، وتُسلخ بشره أذرنا، وبأقدام عارية ندوس الجليد، ونتجمد حتى نتبول على أنفسنا، فما الجيد في ذلك؟ رحل شيونغ شي دون أن يعاني أي شيء، قضم الجزء الحلو من قصب السكر، قضم الجزء من العظم الذي يغطيه اللحم، ورحل مع صرخة، لا يزال والده يتألم، ووالدته تتألم، ويودعه العديد من الأعمام، إنه يستحق حقاً، عليك أن توسعي أفق تفكيرك.

تحدثن عن عاملٍ كهلٍ يعيش في القرية العليا، من أسر الضمانات الخمس، توفي أبناؤه جميعاً قبله، ويعيش الآن مثل كلب، أعرج، حتى أنه يعجز عن جلب الماء، ويعاني الأمرين. فكّري يا أخت شوي، إن عاش شيونغ شي حياةً مديدة، عاش حياةً وضيعةً، ألن يكون وضعه أسوأ بكثير؟

كَنْ يَرَيْنَ أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَوَانِهِ. لَمْ يَمْتَنِ قَبْلَ أَوَانِهِنَّ،
لَأَنَّهُ لَيْسَ أَمَامَهُنَّ مَخْرَجٌ. وَحَدَهُ شَيُونُغْ شِي مَنْ مَاتَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَنَالَ هَذَا
الْحَظَّ.

تَوَقَّفَتْ شُوِي شُوِي أَخِيراً عَنِ الْبُكَاءِ.

وضيع

عندما يتقابل كبار السن، يحيون بعضهم دائماً: «هل أنت وضيع؟» فيما معناه «كيف حالك؟». وتُستخدَم هذه الكلمة للسؤال عن أحوال كبار السن، على سبيل المثال: والدَة يان تراو وضيعَة للغاية، تتناولُ في الوجبةِ صحنِي أرز.

في لغةِ ماتشياو، تعني الشيخوخةُ حياةً وضيعَة، كلّما عشتَ عمراً أطولَ ازددت وضاعةً. ورغم ذلك، ثمة أناسٌ يتمنون العيشَ عمراً أطولَ، إلى أن يصبحوا عمياناً، وصُمّاً، وتتساقطُ أسنانُهم، ويفقدون رشدهم، ولا يستطيعون النزولَ من السرير، ويعجزون عن تمييز الآخرين. الحياةُ تظلُّ هي الحياة.

وانطلاقاً على الأرجح من رغبةِ بعض الأشخاصِ ذوي النية الطيبة، قلّما تُستخدَم كلمةُ «وضيع - 贱 jiàn» في اللغةِ المكتوبة. وحين تُسجَلُ الكلماتُ العامية، تُستبدَلُ «وضيع - jiàn» بكلمة «الصحة - 健 jiàn»، والتي تشابهها في النطقِ الصوتي: «هل أنت بصحةٍ جيدة؟» هي أكثرُ سلاسةً وتماسكاً، ولتصبحَ تحيةً شائعة، وتمحو لونَ الحياةِ القاسي.

وحسب هذه اللغة، فأكثر الأشخاص وضاعةً في ماتشياو رجلٌ أعرج، من أسر الضمانات الخمس^(١)، يُدعى الأب تزي شينغ؛ كم عاماً عاش، حتى هو لا يعرف، عاش حتى توفي أبناؤه، وأحفاده، وأبناء أحفاده، وهو لا يزال يعرج ويعيش. كان يعيش في قلق، لذا عزم على الانتحار شنقاً، لكنَّ الحبل قُطِع، قرر الانتحار قفزاً في البركة، لكنه اكتشف بعد قفزه أنَّ المياه ليست عميقة بما يكفي. وذات ليلة ذهب إلى منزل تجي هوانغ ليستعير طبقةً. فتحت شوي شوي الباب، حاملةً مصباح كيوسين، ورأت في البداية وجه رجلٍ كهل، وحين دققت النظر، اكتشفت أنَّ هناك كُرتين تلمعان خلفه مثل لمبتين، استغربت شوي شوي، لذا رفعت المصباح أعلى، وحينها وهن جسمها: أيُّ لمبتين! كان ثمة رأس ذو شعرٍ يلهث خلف الرجل، وجسمٌ يتلوى ببطءٍ في الظلام.

كان نمرأ! اللمبتان .. آه آه .. عينا نمر!

لا تذكر شوي شوي إن صرخت أم لا، تذكر فقط أنَّها سحبت الرجل وأغلقت الباب وسدته، ثم أوصدته بالمزلاج الخشبي، وبمعوّلين أيضاً.

بعد أن استعادت أنفاسها، استرقت نظرةً عبر النافذة، ورأت الحقل خاوياً، فقط، ضوء القمر الشاحب يطفو، واختفت اللمبتان.

في الأيام التي تلت ذلك، لم يظهر النمر مرةً أخرى، ربما كان يعبر أحياناً من قرية ماتشياو. لم يشعر الأب تزي شينغ بالسرور، بل ملأه

(١) أسر الضمانات الخمس: يعكس إنشاء هذا النظام المبدأ الثابت للحماية القانونية للمسنين والأطفال في الصين، وتتضمن الضمانات: الطعام، الملابس، الرعاية الطبية، المسكن والدفن.

الحزن. قال: «هل ترون كم حياتي وضیعة؟ حتى النمر لا یرغبُ في لحمي، تبعني طوال الطريق ولم يكلف نفسه عناء فتح فمه، أخبروني لم يعيش أشخاص مثلي؟».

امراة الخلم

شوي شوي من محافظة بينغ جيانغ، تزوجت وانتقلت إلى ماتشياو الواقعة عند نهر لوه. يُقال إن أختها الصغيرة ممثلة أوبرا مشهورة في بينغ جيانغ، ذات موهبة جيدة في الغناء، وتؤدي مشية اللوتس ببراعة تلقى إعجاب الجمهور. كما يُقال إن شوي شوي تفوق أختها موهبةً وجمالاً، لكنّها بعد إنجابها شيونغ شي، أصيبت بألم في الظهر، وتكسر صوتها وتصدّع، ما أن تفتح فمها، تتدفق هسهسة من حلقها، وتخرج الكلمات جافةً ومشتتة. أصبح مظهرها غير مرتب من حينها، قميصها غير مزرّر بشكل صحيح، ومائل إلى أحد جانبيه. كان شعرها أشعث ووجهها متسخاً، وترى بقعاً سوداء على وجهها وأجزاء أخرى من جسدها. كانت غالباً تنسج القماش، وتبحث عن علف للخنازير، وتنخل الأرز مع النساء الأكبر سناً منها، وتسمعن يبصقن البلغم وينظفن أنوفهن، لذا لم يكن ثمة ضرورة لتهتم بمظهرها، ولا ضرورة لأن يكون هناك أي شيء مميز في الأيام المظلمة.

حين تتزوج الإناث ويتنقلن إلى منزل أزواجهن، ولا سيما حين ينجبن، يتحولن إلى نساء، إلى زوجات، ولا يولين أنفسهن اهتماماً كبيراً.

على أنَّ مظهر شوي شوي كان فوضوياً بدرجةٍ مفرطة، كأنَّ ثمة رغبة في الإساءة إلى نفسها عن عمد، ورغبة في الاحتفاظِ بنفسها كرهينةٍ والانتقامِ من شخصٍ ما. كانت تخرج مراراً لإطعامِ الخنازير، ترتدي حذاءً رجالياً بالياً، وردفاها يهتزان على الجانبين، وتصيحُ بصوتٍ خشنٍ لطردِ الدجاجِ من بستانِ الخضار، وقطراتُ دماءِ الحيض تلتطّخ بنظلوها، مكشوفةٌ وظاهرة. من الصعب القول إنَّ هذا إهمالٌ عادي.

بعد وفاة شيونغ شي، تحوّلت شوي شوي إلى امرأةٍ الحلم، ويُعرفُ ذلك في الماندرين بالشخصِ المريضِ عقلياً. كانت تبدو على وجهها ابتسامةٌ شاردة، لا تحتملُ رؤيةَ نباتاتِ البطاطا الحلوة، فإن رأتها اقتلعتها من جذورها، كأنَّها تعتقدُ أن ابنها يختبئُ أسفل الأرض، وأن باقتلاعها للبطاطا، ستُخرجُ ابنها من هناك. وعموماً، تكون حالتها أفضلَ قليلاً في الصباحِ عن الظهيرة، في الأيامِ الصحوّةِ عن الأيامِ الممطرة؛ تصبح نظرتها صافية، وسلوكها جيداً، وتشتغل في المنزلِ والحقل، وتكون كأيِّ شخصٍ آخر - في أحسن الأحوال - شخصاً قليلَ الكلام. يشتدُّ اضطرابها ويسوءُ في مغاربِ الأيامِ الممطرة، كلّما اشتدَّت الغيومُ إعتاماً، أصبح تنفّسها أثقل. صوتُ قطراتِ المياهِ من حوافِ الأفاريز، أوراقُ شجرٍ زاويةٍ تطيرُ عبرَ النافذة، أساساتُ الجدرانِ الرطبة وقوائمُ السرير، وجوهُ الجيرانِ الغائمةُ تدريجياً، صوتُ نقيقِ الدجاجِ والبطِ الخافتِ الذي يعلو في المنزلِ فجأةً، كلّ هذا كان كفيلاً بإدخالها في حالةِ الحلم. كانت تمقّتُ نورَ القمر، إن رآته خارجَ النافذة يرتجفُ جسدها، وترتبطُ منديلَ رأسٍ منقوشاً على رأسها، ثم تخلعه، ثم ترتديه مرّةً أخرى، وتكرّرُ ذلك مرّاتٍ لا تُحصى.

ولولا أن رَبَطَ تجي هوانغ يديها بحبل، ربما كانت ستفعل ذلك طوال الليل. تقول دائماً إنَّ هذا ليس منديل رأسها، فتخلعه، ثم تعود وتقول إنَّها تشعر بالبرد، ولا يمكنها الاستغناء عن منديل الرأس، فترتديه مُجدداً.

تَطْلُق شوي شوي وتجي هوانغ في النهاية، وعاد بها أهلها إلى بينغ جيانغ. وبعد مرور سنواتٍ، حين عدتُ لزيارة قرية ماتشياو، سألت عنها. فوجئ الناسُ بشدة لأنني لا أعرف أحوال شوي شوي، وتكاد دهشتهم كما لو أنني لم أسمع عن الرئيس ماو. ألم تسمع عنها؟ هل حقاً لم تسمع عنها؟ عجزوا عن تقبل جهلي، وشعروا بالأسف تجاهي. قالوا إنَّ شوي شوي ذاتُ صيتٍ كبيرٍ الآن، ويُحاطُ منزلُ عائلتها غالباً بالسيارات والدراجات النارية والهوائية، ويستفيدُ الباعة المتجولون والتجارُ من شعبيتها للقيام بأعمال تجارية. كان الناسُ يأتونها من بعيد، ويطلبون منها توقُّع الرقمِ الفائز في اليانصيب. كانت تذاكرُ يانصيب الرفاهية، ويُنَاصِبُ الرياضةُ تُباعُ بجنونٍ في الأرياف آنذاك. وكانت شوارعُ البلدة خاملة، والمتاجرُ فارغة، والزبائنُ قليلين في مقاهي الشاي والحانات، إذ وضع الناسُ كلَّ أموالهم في تذاكرِ اليانصيب. وبختمهم كوادِرُ القرية واحداً واحداً، وحذَّرت من أن الأمورَ إذا استمرت على هذا المنوال، فلن يشتري أحدُ الأسمدة والمبيدات، فكيف سندفعُ بالإنتاج؟ هل ستستمرُّ التجارة؟

أصبح توقُّع الرقمِ الفائزِ شغلَ الناسِ الشاغل. في ذلك الحين، لم يكن اهتمامُ الناسِ منصباً على الموظفين الحكوميين أو التجار، ولا على المثقفين، بل على مرضى الأمراض العقلية. إذ بدأوا فجأةً في السؤال

والبحث عن هؤلاء المجانين، والتودد والتزلف لهم، حتى أنهم لم يبخلوا في رشوتهم بمظاريف النقود الحمراء، طالبين منهم الإشارة إلى الرقم الفائز، حتى يكتبوا الرقم عند شراء التذاكر، ويكسبوا ثروة بضربة واحدة. تناقلت السنة الناس أن العمل في نوع التنبؤ هذا يكون الأطفال أذكى من الكبار، النساء أذكى من الرجال، الجاهل أذكى من المتعلم، والأهم: المجنون أذكى من العاقل.

بالطبع كانت شوي شوي الأكثر تميزاً بين مرضى الأمراض العقلية، ويُقال إنَّ تنبؤها صحيح، ولم تخطئ، وإنَّها جعلت الكثير من الذين اشتروا تذاكر اليانصيب أغنياء في ليلة، لذا انتشرت شهرتها على نطاق واسع بالطبع.

قابلتُ في مركز المحافظة أحدَ المراسلين في محطة إذاعية، وذُهل من معرفتي بـ شوي شوي، وأخبرني أنَّه ذهب لزيارتها. ثرثر هذا الرجل الذي درس أربع سنوات في الجامعة، قائلاً إنَّه استقل باص رحلات طويلة إلى بينغ جيانغ، وانتظر حوالي خمس ساعات إلى أن استطاع مقابلتها. لم يحصل على أيِّ إشارة ملموسة، فامرأة الحلم لا تفشي هذه الأسرار بسهولة. أَلقت شوي شوي نظرة عليه، وأشارت فحسب إلى لوحة معلقة على الجدار لشمس تشرق من خلف الجبل. بالطبع المراسل رجلٌ ذكي، وسريع البديهة، وبعد عودته خطرت بباله أغنية الشرق الأحمر، وحسب النوتة الأولى في أغنية «الشرق الأحمر» |٥٥٦٢|، أكمل الرقم في تذكرة اليانصيب، على أنَّه لم يتوقع النتيجة التي أعلنت بعد أيام، وكاد أن يُصاب بالإغماء: كان الرقم الفائز ١١٦٢!

فات حظّه في الشراء العابر!

لم يشعر بالحق، وقال بفصاحة إن اللوم لا يقع على شوي شوي، بل على سوء فهمه. يا له من أحمق، أحمق للغاية! لقد نسي أن السطر الأول في أغنية «الشرق أحمَر» هي «الشرق أحمَر»، والسطر الثاني «الشمس تشرق»، والنوطة الموسيقية هي بالضبط |١١٦٢|!

أخبرني ذلك بوجهٍ كئيبٍ مظلم، وصدرت عنه تنهيدات طويلة. أمام هذا المراسل الذي يصدّق شوي شوي بلا أدنى شك، أدركت معنى «امرأة الحلم»: جميع الأشخاص البعيدين عن المعرفة والمنطق (الأطفال، النساء، المصابون بالأمراض العقلية)، هم في أذهان الكثير من الناس ضعفاء وبائسون، على أنهم في بعض المواقف المصرية، يصبحون فجأةً الأقرب للحقيقة، والأكثر موثوقيةً وتصديقاً.

يجب أن أعترف بأن المعرفة والعقل لا يحلان كل مشاكل الحياة. وأنا مندهش من أن القدرة على رفض المعرفة والعقل غالباً ما تكون أقوى بكثير مما نعتقد. قدّم الطبيب النمساوي سيغموند فرويد وصفاً نظرياً دقيقاً ومنهجياً عن هذا منذ فترة طويلة من خلال تحليله النفسي. كانت لديه شكوكٌ حول العقل، وقليلٌ من الإيمان بالوعي، وشدّد على دور العقل الباطن، واعتقد أن اضطراب وضحالة وغموض العقل الباطن ليسوا بلا معنى، بل على العكس، اعتبره منبع الوعي وقوته الدافعة، ففي ثنايا اللاوعي تختبئ حقيقةٌ أهم، تتطلب دراسةً حذرة.

يرى فرويد أن اللاوعي أكثر عرضةً للظهور في الأطفال، النساء، ومرضى الأمراض العقلية، ويظهر بشكل أيسر في الأحلام، حيث يكون العقل ضعيفاً أو مهدوماً. ألف طبيب الأمراض النفسية كتاب «تفسير الأحلام»، وأصبح سيد تفسير الأحلام. وفي رأيه، الأحلام هي الظهور

الخفي للاوعي، وهي أهم مدخل لدراسة الأمراض العقلية. ولعله كان سيفاجأ قطعاً من الكلمة التي يستخدمها أهل ماتشياو لوصف المرأة المجنونة: امرأة الحلم. وكان حتماً سيفهم الموقف المتناقض لأهل ماتشياو تجاه امرأة الحلم، والذي يتمثل في العطف والشفقة (حين أعمال المنطق السليم) والتوقيف (حين يكون القدر غير متوقع).

عبارة «امرأة الحلم» هي تلخيص موجز ودقيق للاكتشافات الفرويدية: الأحلام هي الجنون العميق للإنسان العاقل، أمّا الأمراض العقلية فهي أحلام جليلة في النهار.

يبدو أن المكانة الفريدة التي تحتلها «امرأة الحلم» في ماتشياو، تدعم جميع وجهات النظر الهامة لمناهضة الفكر: في أكثر الأماكن غير العلمية، غالباً ما يختبئ علم أكثر عمقاً.

لا أعرف أي لغة أخرى بوسعها ذلك. الأصل الاشتقاقي لكلمة مجنون في اللغة الانجليزية «lunatic» هي «luna»، والتي تعني القمر. إذن بمعنى ما، المجانين هم أيضاً سكان القمر؛ يظهر القمر في الليل، وهو بالطبع، الوقت القريب من الحلم. يذكر القارئ أن نوبات المرض العقلي لدى شوي شوي حدثت من وقت الأصيل إلى الليل، وعلى خلفية المصابيح أو نور القمر دائماً. كما أن المعرفة والمنطق يتطلبان الوضوح، لا يمكنها أن تحيا في الظلام الضبابي. ربما ضوء القمر هو المحفز الطبيعي للمرض العقلي (المعنى الأول لامرأة الحلم) والألوهية (المعنى الثاني لامرأة الحلم). الذي يجب نور القمر، والذي يجب تأمل القمر أو المشي أسفل نوره، كقصيدة أو حلم، يهيم على حدود عوالم دنيوية، ويمتلك نزعة عقلية خارقة.

وهكذا، يجبُ على كلّ مستشفياتِ الأمراضِ العقليةِ أن تعتبرَ نورَ القمرِ أخطرَ أنواعِ الفيروساتِ.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، يجبُ على كلّ المدارسِ اللاهوتيةِ، وعلى كلّ المعتقداتِ المطلقةِ والمداركِ التي تتجاوزُ العلمَ، أن تعتبرَ نورَ القمرِ أعلى أشكالِ التنويرِ.

لامق - يلتحق

بحثُ في كلِّ قاموسٍ وجدته، بالإضافةِ إلى طبعةِ العام ١٩٩٣ الصادرة عن دار نشر جيانغسو التعليمية من «قاموس اللهجات الصينية الحديثة»، لكنني لم أعر على الكلمة التي سأحدثُ عنها. عثرتُ فقط على كلمة «𪛗𪛘» عوضاً عن الكلمة الأخرى. وتعني كلمة «𪛗𪛘» في القاموس «يزعج - يضايق - يهزأ - يعبت - يغازل»، تقتربُ من المعنى الذي أقصده قليلاً. نُطقُ «𪛗𪛘» «niǎo»، قريبٌ من كلمة «nia» التي كنتُ أبحثُ عنها عدا اختلافٍ بسيطٍ، لذا أتمنى من القارئ تذكر ذلك.

تستخدم «Nia» ككلمةٍ بذيئةٍ في الغالب، وربما بسبب ذلك كان على قاموس النبلاء، والقواميس ذاتِ الورق المُقَوَّى الموجودة في الجامعاتِ والمكتباتِ وغرفِ استقبالِ الشخصياتِ العامة التي تستندُ إلى أخلاقيات لغوية رفيعة، أن تتجاهلَ هذه الكلمة، أو أن تمرَّ عليها على الأقل، أو أن تلتزمَ بالتعميماتِ المبهمة. أمّا في الحياة الواقعية، بين أهلِ ماتشياو، فكلمة «nia» كلمةٌ شائعة، وكان أمراً معتاداً سماعُ الشخصِ يقولُ هذه الكلمةَ لعشراتٍ أو لمئاتِ المراتِ في اليوم الواحد، فهم لا يعيشون وفق القواميس المتداولة.

استخدامات كلمة «nia» المتعددة في قرية ماتشياو:

١- «nia»، حين تُنطقُ بالنغمة الثانية، أي بنغمة صاعدة، تعني يلتصقُ أو التصاق. فإذا أَلصَقُوا مَظْرُوفاً، يقولون: «nia المَظْرُوفَ جيداً - أَلصَقُ المَظْرُوفَ جيداً»، ويُطلقون على ما هو لزجٌ مثل الغراء أو الصمغ، هذه الأشياء «شديدة الـ nia - شديدة الالتصاق» أو «تلتصقُ وnia». يُطلقون على الصخور المغناطيسية «الصخور الـ nia - الصخور اللاصقة»، وعلى البزاق «امرأة الوحل الـ nia - امرأة الوحل اللزجة».

٢- حينما تُنطقُ «nia» بالنغمة الأولى، أي بنغمة عالية ومستوية، تعني المودة، الحميمة، المضايقة، لَصِيقٌ كالْبَشْرَةِ تلامسُ الشَّعر. «الحصول على الـ nia»، تعني أن تكون قريباً وحميماً مع الآخرين، يعني أن تكون مبادراً. «بدء nia»، يعني إغراء الآخرين ليكونوا قريبين وحميمين منك بطريقة معينة، ويحملُ ذلك معنىً سلبياً.. وتُستخدَمُ غالباً لوصفِ العلاقة بين الأطفال وذويهم، وبين الرجال والنساء، فإن وقعت امرأة في الغرام، تصف حبيبها قائلةً «إنَّه شديد الـ nia - الالتصاق». فنبرة صوتها، نظرة عينها وحركاتها ونحو ذلك، تُذكِّرُ الناسَ بخصائصِ الصمغ أو الغراء.

٣- وإن نُطِقَت «nia» بالنغمة الثالثة، أي بنغمة هابطة ثم صاعدة، تعني العبث، الإزعاج، الاهتمام، التطفل ونحو ذلك، وهي قريبةٌ من معنى كلمة «惹 - خَلَقُ أو إثارة مشكلة - rě» في الماندرين؛ مثل «لا تُثِرِ المشاكل - لا nia المشاكل»، «لا تُثِرْ نزاعاً - لا nia نزاعاً» وغيرها. يقول أهل ماتشياو كذلك «الثلاثة الذين لا تلتصقُ بهم - الثلاثة الذي لا nia بهم»، وهم الأطفال، كبار السن، والمتسولون. ويعني أن أفراد

هذه المجتمعات الثلاثة من الصعب التعامل معهم، ومن الأفضل عدم مصادقتهم، فضلاً عن الشجار معهم، حتى وإن كنت على حق، فالصواب أن تراجع، وتفرّ بعيداً.

هكذا يتعامل الناس مع الصمغ والغراء، يخشون أنه بمجرد أن يلتصق، سيصعب الخلاص منه، وسيجدون أنفسهم في موقف حرج. ويمكن ملاحظة أنه على الرغم من أن استخدام كلمة «nia» قابل للتغير، فإن معانيها الضمنية لا تزال متصلة في خط واحد، وتتقاطع امتداداتها في نقطة مشتركة.

٤- إن نُطِقَت كلمة «nia» بالنغمة الرابعة، أي نغمة هابطة، تعني العلاقة الجنسية. وهناك العديد من الكلمات المشابهة في لهجة الشمال، مثل «cào - 禽» والتي تعني «يُضاجع». ولاحقاً، اختلطت على العديد من قراء الكتب بكلمة «cāo - 操». حمل بعض الناس الذين كانوا جنوداً أو عاشوا حياة تجوال هذه الكلمة إلى الجنوب، إلى ماتشياو.

في الواقع، تبدو كلمة «يُضاجع - 禽» الشمالية مختلفة عن كلمة «يلتصق - لَصِقٌ» قليلاً. أولاً، يعبرُ شكل الرمز عن فعلٍ ذكوري (شرح الرمز: 人 ويعني شخص، 肉 ويعني لحم)، لذا من المناسب للغاية استخدام نبرة ونغمة مباشرة، سريعة وقوية. أمّا نغمة نُطِقَ كلمة «nia» رقيق، رخيم وناعم، أسلوبٌ يوحي بالحنان والرقّة. ومن المعنى الأصلي لكلمة «nia»، أو على الأقل من معاني الكلمة المذكورة أعلاه، فحالة «nia - يلتصق» تشير بالطبع إلى حالة الالتصاق، القرب، الحميمية، العُبث والتشابك، والتي تشبه إلى حدٍّ ما حالة الصمغ والغراء، حالة تفتقر إلى العنف والهجوم.

وحتى وقتنا هذا، أثبتت كل الأبحاث الفسيولوجية تقريباً، أنَّ الإثارة الجنسية تكون أبطأ عند النساء عن الرجال، وتحتاج إلى الرقة والنعومة لتحفيزها. هي عملية «nia» (بالنغمة الاولى)، وعملية «nia» (بالنغمة الثانية)، وعملية «nia» (بالنغمة الثالثة)، تتطلب اهتمام الرجال وتعاونهم. ويمكن أن ينتج عن هذا تخمينٌ جريء: «nia» أكثر انسجاماً مع الطبيعة الفسيولوجية للمرأة عن «cao»، وتحظى باهتمام أكبر من النساء. إن كان ثمة لغةً أنثويةً في العالم، فإنَّ الكلمة الجنسية الأكثر استخداماً ستكون هي الكلمة الأولى، وليست الأخيرة.

اكتُشفَ كتابٌ نسائي في محافظة جيانغ يونغ التابعة لمقاطعة هونان، كُتِبَ بلغةٍ لم يتم تداولها إلّا بين النساء، وحظي باهتمام كبير من النسويات. ومع ذلك، فإنَّني أشكُّ فيما إذا كان للمرأة أن تحظى بلغةٍ مستقلة. لكن بالنظر إلى ترسُّب الكثير من آثار المجتمع الأمومي في الجنوب، وبالنظر إلى أنَّ الجنوب دخل تاريخياً في المجتمع الأبوي متأخراً خطوةً عن الشمال، فإنَّ فسيولوجيا وعلم نفس المرأة تنعكسُ بشكلٍ أكبر في اللهجات الجنوبية. لذا أودُّ أن أعتبر كلمة «𠂇𠂇𠂇𠂇» دليلاً من الأدلة على هذه التكهّنات الجريئة.

بذيء (والمنظار)

(xià - 下) هي اختصارٌ لكلماتٍ مثل دنيء، قدر، وضع، ويشتقُّ معنى الكلمة من السلوك الجنسي غير اللائق، وحتى السلوك الجنسي العام. ظهرت كلمة «بذيء - 稀下»^(١) في عامية هونان بعد الثمانينيات، وتشيرُ إلى مثيري الشغبِ والبلطجية، إذن فهي امتدادٌ وإضافةٌ لكلمة «بذيء - 下».

فيما يتعلقُ بجسم الإنسان، الرأسُ في الأعلى، أي أنَّ التفكيرَ والروحَ يتجهان نحو الأعلى، ويتمتعان بمكانة رمزية مثل «مهيّب»، «رفيع»، «سام» و«ميتافيزقي» وغيرها من الكلمات. أمَّا الأعضاء التناسلية ففي الأسفل، لذا فالسلوك الجنسيُّ ينتمي إلى ما هو «بذيء».

يبدو أنَّه من الصعب القول إنَّ هذا محضُ مصادفة، فأنَّ بُنى المعابد على الجبال، ويُسجَنُ المجرمون في الجحيم، ويسكنُ النبلاءُ القصور، ويركعُ العامةُ على حافةِ السلام، وتُرفعُ رايةُ المنتصرِ عالياً، بينما تُنكسُ رايةُ الخاسر، هي حتماً تجسيدٌ وتحقيقٌ لمعتقدٍ من نوعٍ ما. وأظنُّ أنَّ كلَّ هذا نابعٌ من ارتباكِ سكانِ الكهوفِ في العصرِ القديم وفهمهم الأوَّلي

(١) الكلمة من لهجة تشانغشا.

لأجسادهم. ومذآك، أصبحت المعابد والنبلأ ورايات النصر امتداداً لرأس سكان الكهوف، وحظيت بالاتجاه العلوي، وكل ما هو عكس ذلك، يُنزل إلى الأسفل إلى الأبد، إلى الجزء المخزي في الجسد.

يُقال إن ماتشياو كانت في الماضي شديدة البذاءة، ولم تعتدل إلا بعد تقويم شرس من كوادِر الكومونة. لم يذهب «خي» رئيس الكومونة لجمع الأراضي الخاصة والسماد والبط والدجاج التي تجاوزت الحصة المخصصة فحسب، بل أظهر شيئاً عجيباً في الاجتماع، عدستين طويلتين سوداوين: «ما هذا؟ منظار! بوجود هذا الشيء، وبغض النظر عما تفعلونه، فبإمكانى رؤيته! إن قبضت على أحد، سأعاقبه! إن قبضت على عشرة، سأعاقبهم! لا رحمة!».

كان في الواقع منظاراً، من محطة الغابات التابعة للكومونة، ويُستخدم لمراقبة حرائق الجبال.

حتى أن بن بي ارتبك من الكلام، وألقى بنظرات قلقة إلى المنظار. بالطبع لم يجرؤ الناس على إثارة الفوضى بعدها، حتى وان يو لم يتلفظ بشتائم لبضعة شهور، ورفض أداء أغاني التشو تشو حتى لو ضرب حتى الموت. كانوا ينامون مبكراً عند هبوط الليل، ويعم الهدوء في القرية، ولا ترى أضواء. وقال العديد من الرجال، إنهم لم يجرؤوا على لمس زوجاتهم خلال تلك الفترة.

كان وان يو مستاءً من المنظار بشدة، واشتكى لي من قبل قائلاً: «هذا ظلم، ظلم شديد! أنتم أهل المدينة لديكم أفلام تشاهدونها، وحدائق حيوانات تزورونها، ولديكم سيارات وقطارات، ماذا لدينا نحن أهل الريف؟ لدينا فقط هذه الحياة الثقافية الفقيرة».

كان يشيرُ إلى أغاني التشو تشو والعلاقات بين الرجال والنساء، «ولا بُدَّ من استخدامِ منظار، ماذا يجري في العالم! بالإضافة إلى ذلك، إن لم يسمح الحزبُ الشيوعيُّ للجميع أن يتصرفوا ببذاءة، فمن أين سيأتي الحزبُ الشيوعيُّ الصغيرُ لاحقاً؟».

لن أتناقش فيما إذا كانت شكاوى وان يو من خي رئيسِ الكومونة معقولة أم لا، فما هو غيرُ واقعي، اعتبارُ التحفظِ الجنسي الذي يمثله المنظارُ على أنه تخصصُ الحزبِ الشيوعي. حين حكم حزبُ الكوميتانغ الصين، حظرت الحكومةُ العسكريةُ الرقصَ الثنائي في غوانغجو ووهان وعددٍ من الأماكن، وعُدَّ الرقصُ شكلاً من أشكالِ الانحلال «الضار بأخلاقيات المجتمع». وفي زمنٍ مبكرٍ قليلاً، حين حكمت أسرةُ تشينغ الصين، أُدرجت «رومانسيةُ المقصورةِ الغربية» في أعلى قائمةِ الأوبرا المحظورة، وعدَّت الحكومةُ الرواياتِ الغراميةَ والشعرَ «أعمالاً قدرة»، وتم الاستيلاءُ على الكتبِ وحرقها. كلمةُ «بذيء - xià» ليست كلمةً يستخدمُها أهلُ ماتشياو الآن فحسب، بل تكادُ تمرُّ عبرَ تاريخِ طويل، وتكشفُ عن التحيزِ الأخلاقي للسلوكِ الجنسي مُشكلاً مساراً في خطٍّ واحدٍ يتغلغلُ في منطقِ اللغةِ الصينية منذ آلاف السنين. وطالما ظلت كلمةُ «下» دونَ تغييرٍ أو إلغاء، فمن الصعبِ جداً على الناسِ التخلصُ من ظلالِ التحيزِ بطريقةٍ حقيقيةٍ وشاملةٍ وكاملة. حتى لو كان شخصاً منفتحاً ومستنيراً، فقد لا يتمكنُ من التخلصِ من الصورةِ النمطيةِ الذهنيةِ المتأصلةِ في دمه؛ لم يكنِ إلا مستخدماً تقليدياً للقاموس، ينزلُ على مسارِ معنى الكلمةِ باستخدامِ منظاره، مثل حمارٍ برسن، ولا يسعُه سوى السيرِ إلى الأمام. إذن انطلاقاً من هذا المعنى، هل يخلقُ

الأشخاصُ الكلمات، أم تخلقُ الكلماتُ الأشخاص؟ هل الرئيسُ خي
مسؤولٌ عن تَعَنُّتِهِ وتزَمُّتِهِ، أم أصبحت كلمةُ «بذيء» رِسَنَهُ؟ وبالتالي،
هل ينبغي على متحدثي اللغةِ الصينية، ومن ضمنهم أهلُ ماتشياو تحمُّلُ
مسؤوليةِ الرئيسِ «خي»؟ هذه حتماً مشكلة.

الأراضي المذكَرَة (والحقول المؤنثة)

أكثر ما يفضُّله أهل ماتشياو عدا التحدث عن الطعام، هو الكلام البذيء. يمكن أن تكون جميع أنواع الكلمات القدرة جريئة بما يكفي لتجعلك مذهولاً، فزعاً، دائخاً، حتى تكاد الشمس والقمر تفقدان نورهما، ويظلم كل شيء حولك. إلى حد أن الأشياء العادية مثل الفجل، المحراث، عصا الحمل، الكهف، البئر، التلال، الطيور، الهاون، العشب، الموقد... كل شيء يمكن أن يستدعي أفكاراً بذيئة، ويتحوّل إلى ذريعة أو تشبيه لبذاءتهم، مثيراً نكاتاً كثيرة مُكرّرة، وقصصاً توقد ضحكاً متأججاً، تُصبح بذاءتهم أكثر جنوناً كالبلطجية أثناء الزراعة في الحقل.

الأخت تلحقني بخطوات سريعة

تجعلني زلقاً مثل سمكة لوتش

يحب اللوتش عصيدة الرز

وينزل داخلها

عدّ هذا النوع من الأغاني لبقاً في موسم الزراعة، ولم يكن في العادة

مسموحاً به، وحظرتَه الحكومة، لكنّه شُجّعَ في موسم الزراعة، وصمّت الكوادرُ أذانيها عنه. قال وان يو من قبل، إنّ هذا يُسمّى «الأرض المُدَنّسة»، لذا كلّما كُنْتَ أكثرَ بذاءةً كان أفضل. الأرضُ غيرُ المُدَنّسةِ هي أرضُ موات، أرضُ باردة، لا تنتجُ براعمَ أو تُكوّنُ جذوراً.

وفقاً لرأي أهلِ ماتشياو، الأرضُ والحقلُ مختلفان، الأرضُ «مذكّرة»، والحقلُ «مؤنث». أي أثناءَ زراعةِ الأرض، لا بُدَّ للنساءِ أن يعملنَ فيها. وأثناءَ الزراعةِ في الحقول، ينبغي على الرجالِ العملُ فيها. وهذه تدابيرُ هامةٌ لضمانِ محصولٍ جيد. تُعرَسُ شتلاتُ الأرز في الحقول، لذلك يجبُ أن توكلَ مهمّةُ غرسها إلى الرجال، وكان وقوف النساءِ قريباً لاستراقِ النظر من المحرمات.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، سُمِحَ بالبذاءةِ الجنسيةِ بين النساءِ مؤقتاً أثناءَ العملِ في الأراضي، وكان مقبولاً ويلقى الثناءَ الشفهي. لم يكن الأمرُ تسليّةً بقدرِ ما هو صراعٌ من أجل الإنتاج، رسالةٌ مقدسةٌ لا بُدَّ من إنجازِها بشعورٍ بالمسؤولية. لم تعدد بعضُ الشاباتِ المتعلّماتِ هذا النوع من الأمور، ولم يملكن خياراً إلّا التملّص لشعورهن بالخرج، فكُنَّ يغطّين أذانهنَّ عابسات، فتشعرُ النساءُ المحلياتُ بالإحباط، ويتوقفن عن بذاءتهن، ويتوتر الرجالُ، ويطلبن من الكوادرِ نقلهن إلى مكانٍ آخر للعمل.

رأيتُ بأنّ عيني جموحَ النساءِ أثناءَ عملهنَّ في الأرض، مثل أن يطلبن من أحدَ الشبابِ المجيء إلى جانبِ الأرض، ثم يُنزلنَ بنظلوتهِ ويقذفن بكُرّي روثٍ على أعضائه لتلقيه درساً، ثم يرحلن وهنَّ يُطلقن ضحكاتٍ صاخبة. بالطبع لا يستطعن التعامل بتلك الطريقة مع الشبابِ المتعلّم،

لكن هناك بعض التحرشات الصغيرة التي تحدث بين حينٍ وآخر، كأن يأخذنَ قبعتك ويجلسنَ عليها، ثم يضحكنَ أو ينادينَ عليك، ويطلبنَ منك أن تحزَرَ لغزاً ثم يضحكنَ أيضاً ضحكاً مدوياً. ولا ريب أنك لن تستطيعَ فهمَ اللغز، لكن من دويِّ ضحكاتهن المجنونة، ستدركُ أنَّ هذا اللغزَ ليس بالضرورةٍ يمكنُ حلُّه، وقد لا يُحلُّ أبداً.

ثقبو الطمث

الحقول أمومية، هي مؤنثة، لذلك تُسمَّى شقوقُ الماءِ الجاريةِ في الأثلامِ «ثقبو الطمث». لدى البشرِ سوائِلُ طمثية، وهي ما تُدعى اصطلاحاً بالدورةِ الشهرية، إذن فليس غريباً أن تكون للحقولِ ثقبو طمث.

كانت مهمّةُ تعديلِ تدفقِ المياهِ وفقاً لحاجةِ حقولِ شتلات الأرز، وسدّ أو حفرِ ثقبِ الطمثِ تقعُ على عاتقِ منظمي الماء. وأوكل هذا الدور إلى كبار السنّ في أغلب الأحيان، فكانوا يحملون المعاولَ على أكتافهم، ويتجولون بمفردهم في أثلامِ الحقول، وبين حينٍ وآخر تُسمَعُ أصواتُ خطواتٍ متقطّعة، كلُّ خطوةٍ شديدةِ الصفاءِ والدقة، كأنّها أحجارٌ مضيئةٌ تُلَقَى في الليالي المورّقة.

في ثقبِ الطمثِ بركٌ صغيرةٌ يتدفّق منها الماء، وتسبحُ في قاعها أسماكٌ صغيرةٌ عكسَ التيار، حيث كان الناسُ يغتسلون ويستحمون بعد انقضاءِ يومِ العمل. وإن لم ترغبِ النساءُ في الذهابِ إلى النهرِ البعيد، يغسلن المناجلَ والمعازقَ أثناءَ مرورهن بالبرك، كما يغسلن أيديهن وأرجلهن، ويغسلن لطخاتِ الوحلِ والعرقِ عن وجوههن، وتبدّئ

وجوههن براقَةٌ وعيونهن لامعة، ثم يتَّجهن إلى أدخنة الطهي في المساء؛
كنَّ يتغيرن بعد مرورهن بثقوبِ الطمث.

تصدأ ملامحُ وجوههن في كدحِ النهار، وفي طريقِ العودةِ إلى
منازلهن فقط، يُعيدُ خريزُ الماءِ المتدفقِ من شقوقِ الطمثِ رونقهن.

الأجرة التسعة

حسبما أتخيل، لا يمكن أن يكون المتسولون إلا في ثياب رثة ووجوه ذاوية، أمّا أن نربط المتسول بالحياة المترفة، فهذه سخافة لا تُصدق. أدركت أنني على خطأ بعد مجيئي إلى قرية ماتشياو، فالعالم به شتى أصناف المتسولين.

كان حما بن بي متسولاً يعيش حياة باذخة، يعيش أياماً أفضل من أغلب ملاك الأراضي، لكنه لم يمتلك شبراً واحداً من الأراضي الزراعية ولا يمكن تصنيفه كمالك. ولم يمتلك دكاناً، لذا لا يمكن أن يُعدّ رأسمالياً، وعده فريق حركة إصلاح الأراضي على مضض، ووفقاً للظروف مجرد «فلاح غني متسول». رأت فرق العمل التي راجعت المنشأ الطبقي مرةً تلو الأخرى، أن هذا الاسم غير مناسب، لكنهم لم يجدوا تسمية مناسبة من بنود السياسة، وقرروا اعتماده لأنهم لم يعرفوا كيفية تسوية الأمر.

اسم هذا الشخص داي شي تشينغ، عاش في شارع تشانغ لي، حيث هناك محور اتصال بين اليابسة والماء، ومركز دائم لتجميع وتوزيع الأرز، الخيزران، زيت الشاي، زيت التونغ، والمواد الطبية. وبالطبع كان صاحباً مليئاً بالمواخير، مكاتب الرهونات، متاجر الأفيون والخمر وغيرها من

الأعمال المعقدة، لدرجة أن المياه الطافحة من المصارف تفوح برائحة زيت قوية، وتصيب الريفين الذي اعتادوا تناول عصيدة الذرة بالغثيان عند شمها عن بُعد. ومذاك، أُطلق على شارع تشانغ لي «نانجينغ الصغيرة»، وأصبحت مكاناً يتباهى به الريفيون أمام الغرباء. كان الناس يحملون بعض أوراق التبغ، أو شرائح بامبو مكسورة، ويسIRON مسافة إلى أن يصلوا إلى الشارع، قائلين إنهم هنا للتجارة، لكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك، إنما ليشاهدوا الجلبة والضجة، أو يستمعوا إلى الأغاني وسرد القصص. ولا أعرف منذ متى بدأت أعداد المتسولين تزداد في الشارع يوماً بعد الآخر؛ هؤلاء الناس بأجسادهم الهزيلة وشعورهم الطويلة، بوجوههم الصغيرة وعيونهم المتسعة، الذين يرتدون أحذية مختلفة الألوان والمقاسات، زادت من النظرات التي تريد ابتلاع القُدور في سوق الشارع.

جاء داي شي تشينغ من بينغ جيانغ، وأصبح زعيم هؤلاء المتسولين. يُصنّف المتسولون درجات: مَنْ له جيب واحد، ثلاثة أجربة، خمسة أجربة، سبعة أجربة، وتسعة أجربة. كان هو من ذوي التسعة أجربة، أعلى درجة، لذا سُمي احتراماً «السيد الأجرة التسعة»، وتعرفه البلدة كلها. كان يعلّق على العصا التي يستخدمها للتسول قفصاً به طائر مينا يهتف: «جاء السيد الأجرة التسعة! جاء السيد الأجرة التسعة!». لا حاجة لأن يطرّق الباب الذي يهتف الطائر أمامه، ولا حاجة له بالكلام أيضاً، فلا توجد أسرة لا تستقبله بوجه مبتسم. كانوا يمنحون مقداراً ملعقة أرز للمتسولين العاديين، أمّا السيد الأجرة التسعة، فيجب أن يكون المقدار ملء كوب بامبو، وأحياناً يرشونه بهدايا ثقيلة، ويدسون نقوداً في جيوبه، أو أرجل الدجاج المجففة، طعامه المفضل.

في إحدى المرات أعطاه تاجرٌ ملحٍ جديدٌ على المنطقة، لا يعرف القواعد، عملةً نقديةً واحدة، فاستشاط غضباً وألقى العملة على الأرض بقوة.

تفاجأ تاجرُ الملح لأنه لم يتعرَّض لموقف كهذا من قبل.

- «يا لك من وقح!» قال السيد الأجرة التسعة محدقاً فيه بسخط.

- أنت أنت أنت هل تريد المزيد!

- أنا السيد الأجرة التسعة تجولتُ عبرَ تسع مقاطعات وثمان عشرة محافظة، ولم أرَ سيداً جريئاً ودينياً مثلك!

- يا للغرابة، هل أنت المتسولُ أم أنا؟ خذها إن أردت، أو اتركها وارحل، لا تعرقل تجارتي!

- «هل تظن أنني متسول؟ أنا متسول؟» اتسعت عينا السيد الأجرة التسعة، وشعر بحاجة إلى تلقين هذا الأحق درساً: «في الطبيعة عواصفٌ طارئة، وفي الحياة مصائبٌ غيرُ منتظرة؛ السنة مشؤومة، تواجهنا كارثةٌ وطنية، جفافٌ في الشمال وفيضانٌ في الجنوب، والحكومة والعامة في حالةٍ من القلق. أنا داي شي تشينغ، رجلٌ عادي، أعرف أن الأولاد وبرَّ الوالدين صوابُ الحياة، وأضع الوطنَ قبل العائلة، والعائلة قبل نفسي. هل أمدُّ يدي إلى الحكومة؟ لا، هل أمدُّ يدي إلى والدي وإخوتي وأقاربي؟ لا أيضاً! أتجولُ بقدَمين عاريتين، رجلٌ ذو طبيعة طيبة، يُحسِّن نفسه بلا كلل أو ملل، لا أنهبُ ولا أسرق، لا أغشُّ ولا أخدع، أحترمُ ذاتي وأتصرفُ بكبرياء، وأساعدُ نفسي. فكيف أتحمّلُ

رجلاً تافهاً متعجرفاً مثلك! رأيتُ الكثيرَ من الرجالِ الأغنياءِ المتعجرفين الذين يملكون نقوداً فاسدة...».

لم يسمع تاجرُ الملحِ كلاماً منطقياً وفصيحاً كهذا من قبل، وكان يتراجعُ خطوةً تلو الأخرى بسببِ لعبهِ الطائرِ نحوه، ولم يسعه إلا أن يرفعَ يده معذراً: «حسنٌ حسنٌ حسنٌ، ليس عندي ما أضيفه على ما قلت، أريدُ الالتفاتَ إلى تجارتي، غادرُ، غادرُ، غادرُ!».

- «أغادر؟ لن أفعل شيئاً اليوم حتى أوضح لك ما أقوله! أخبرني بوضوح، هل أنا متسوّل؟ هل أتيتُ لك اليوم للتسوّل؟».

أخرج التاجرُ - بوجهٍ تعيس - عدداً من العملاتِ النقدية، ودسّها في عبّه بنوعٍ من يأسٍ حسمته الهزيمة. «أجل أجل، أنت لم تتسوّل اليوم، ولم تأتِ لتسوّل مني».

لم يأخذ السيد الأجرة التسعة النقود، وجلس على عتبة البابِ بغضب: «نقود قذرة، نقود قذرة، اليوم أتسوّل العدالةَ فحسب! إذا اعترفت أن ما أقوله منطقي، سأعطيك أموالاً كلها».

أخرج حفنةً كبيرةً من العملاتِ النقدية، أكثرَ من عملاتِ تاجرِ الملح، لأمعةٍ وبرّاقة، جذبت أنظارَ الكثيرِ من الأطفال.

لولا حاجته المفاجئة لدخولِ الحمامِ لاحقاً، لما وجدَ تاجرُ الملحِ طريقةً لصرفه من العتبة. أو صد التاجرُ بابَه حين عاد السيد، الذي ما لبث أن طرقَ البابَ بقوةٍ بعصاه، لكنّه لم يفتح، وسمع أصواتَ سبابٍ مقدعٍ من رجالٍ ونساءٍ في الداخل.

افتتح تاجرُ الملحِ محله رسمياً بعد أيام، وأقام مأدبةً لحمٍ ونبيد،

ودعا الجيران والشخصيات الهامة في البلدة. وحين انطلقت المفرقات، ظهرت فجأة مجموعة من المتسولين بشياهم الرثة، كتلة سوداء تفوح برائحة حامضة كريهة غامضة، أحاطت المتجر تصرخ وتصيح. حين أعطوهم خبز مانتو، قالوا إنه حامض وفسد، وألقوه بعيداً، وحين أعطوهم دلواً من الأرز، قالوا إنَّ به رملاً، وبصقوه على أرض الشارع. لم يستطع أحدٌ من المارة العبور، وأُلقيت حبات الأرز على أنوف وجباه ضيوف المأدبة. وفي النهاية، جاء أربعة متسولين واقتحموا المأدبة وهم يقرعون الطبول وغونغ قديم ويؤدّون رقصة شعبية احتفاءً بالمناسبة السعيدة، وأجسادهم ملطخة بروث الخنازير والكلاب، فأفزعوا الضيوف الذين غطّوا أنوفهم وتفرقوا في الأرجاء، فاستغل المتسولون الفرصة وبصقوا على الأطباق الشهية. أدرك تاجر الملح بعد هروب نصف ضيوفه سُلطة السيد الأجرة التسعة، وأدرك أنَّه وقع في مأزق حرج، طلب من الجيران الاعتذار منه بالنيابة عنه. كان السيد الأجرة التسعة نائماً أسفل شجرة ضخمة عند ميناء النهر، ولم يعرهم أيَّ اهتمام. لذا لم يملك تاجر الملح أي خيار إلا أن يجهز رأسَي خنزيرين مدخنين، وجرتين من الخمر المعتق، ويذهب للاعتذار شخصياً، كما رشا الأجرة السبعة بمساعدة الجيران، والذي يأتي في الدرجة الثانية بعد السيد الأجرة التسعة، ليتوسَّط بينهما. حينها فقط فتح السيد عينيهِ على مهل، وقال بخبث إنَّ الطقسَ حارٌّ جداً.

هرع التاجر ليهوِّيه بالمروحة.

تثاءب داي شي تشينغ، ولوّح بيده قائلاً إنَّه يعرف.

كان مقصده شديد الغموض، لكنَّ لم يكن سهلاً على تاجر الملح أن

يُحصل على هذه الجملة منه، واكتشف بعد عودته أنَّ المتسولين غادروا، ولم يبقَ إلاَّ أربعة يعدون أنفسهم من الأجرة الخمسة، رآهم متحلِّقين حول الطاولة يلتهمون الطعامَ والنبيد، ربما كان ذلك تحسباً للظروف الطارئة، دون إفراط.

ابتسم التاجر قائلاً: «كلوا كلوا»، حتى إنه ملأ كؤوسهم بنفسه.

لم يكن سهلاً على داي شي تشينغ بلوغ هذه المراقبة الصارمة لتحركات المتسولين. ويُقال إنَّ الأجرة التسعة كان في الماضي رجلاً أعرج من جيانغشي، رجلاً تفوق شجاعته الآخرين، له قبضةٌ حديديةٌ لا يمكن لأحدٍ من المتسولين أن يتحدَّها. لكنَّه كان خبيثاً، يجمع نقوداً كثيرة، وعند تقسيم حقول المتسولين، منح الحقول الجيدة إلى ابن أخيه، أي أنَّ الأراضي الخصبة لم توزع توزيعاً عادلاً. طفق الكيلُ بـ داي شي تشينغ الذي كان حينذاك الأجرة السبعة، إلى أن رافقه رجلان تحت إمرته ذات ليلةٍ مظلمة، وضربوا الأجرة التسعة بالحجارة حتى الموت. أصبحت الأمور تُنجزُ بشكلٍ أكثرَ عدلاً منذ أن تولَّاهَا الأجرة التسعة؛ أعاد تقسيم حقول المتسولين، ووازن بين الحقول الخصبة والجرداء، وتناوب كلُّ شيءٍ في أوقاتٍ محددةٍ لكي لا يتكبد الجميعُ الخسائر، وليحظى كلُّ منهم بفرصةٍ «غسل الصحون». كما اشترط في حال مريضٍ فردٍ من جماعته ولم يستطع العمل في الحقول، فسيأكل من الحقول العامة، وتُخصَّصُ له حصَّةٌ من النقود تُؤخَذُ من السيد، ما زاد من امتنان الجميع له.

لم يتحلَّ السيد الأجرة التسعة بأخلاقِ التسوُّلِ فحسب، بل كان موهوباً كذلك. كان في «معبد خمس زهور اللوتس - معبد وو ليان»

عند ضفةِ النهر، رفات بوذا^(١) جاءت من جبل بو تاو. كانت رائحةُ
البخورِ قوية، ويبدو أنَّ الرهبانَ هناك غدوا أكثر نشاطاً وسمنة، إلا أنَّ
أحداً لم يذهب لتسوّلِ طبقٍ أرزٍ من قبل، إذ خافوا من إغصاب بوذا،
ولم يجرؤوا على أخذ شيءٍ بالقوة كذلك. لا يؤمن السيد داي بالأرواح
الشريرة، وأصرَّ على غسل هذا «الصحن»، ذهب بمفرده وطلب رؤيةَ
سيد المعبد، وقال إنَّه يشكُّ في صحة وجود رُفات بوذا في المعبد، ويرغب
في رؤيته بعينه. لم يتخذ الراهب الاحتياطات اللازمة، وأخرج الرُفات
من الزجاجِ ووضعها في يد السيد داي. ودون أن ينطق الأخير كلمةً،
ابتلعها دفعةً واحدة، وأثار غضب الراهب حتى ارتجف جسده، وقبضَ
على ملابسه وبدأ في ضربه.

قال: «اشتدَّ عليَّ الجوعُ حين جئت إلى هنا، كان عليَّ تناول الطعام». -
«سنضربك حتى الموت أيها الهمجي». ولوَّح الرهبانُ بعصيهم
غاضبين.

- «اضربوني، اضربوني، وأثيروا جلبهً ليرى الناس كيف فقدتم
رُفات بوذا أيها المغفلون الصُّلع!» هدَّدهم على الفور.
وكما هو متوقع، لم يجرؤ الرهبانُ على ضربه، بل أحاطوه وهم على
وشك البكاء.

- هكذا إذن، أعطوني ثلاثين دولاراً^(٢) فضياً، وسأعيد لكم الرُفات.
- كيف ستعيدها؟

(١) رُفات بوذية متبقية بعد حرق رهبان بوذا أو الرهبان، تشبه حبات بلورية.

(٢) دولار فضي: كان العملة القياسية المتداولة في الصين القديمة.

- هذا ليس من شأنكم.

لم يصدقوا كلامه، ومع ذلك لم يكن أمامهم خيارٌ آخر، فأسرعوا وأعطوه ثلاثين دولاراً فظيلاً. عدّها داي شي تشينغ، وقبل الهدية بابتهاج، ثم أخرج عشبة الكروتون التي يحملها معه، وهي نوعٌ من المسهّلات.

ابتلع العشبة، وبعد لحظات، جحظت عيناه، وتبرّزَ كومةٌ كبيرةٌ خلفَ قاعةِ بوذا، رائحتها كريهة تنخرُ الأنف. عثر سيدُ المعبد وبعض من تابعيه على الرُّفاتِ في كومةِ الإسهال، وغسلوها ونظّفوها، وشكروا الأرضَ والسماءَ وأعادوها إلى الزجاجةِ من جديد.

مذاك، لم يكن ثمة شيءٌ يضاهي قدرته على التسوّل، واتسعت شهرته أكثر فأكثر، وامتدت سلطته إلى منطقة نهر لُوّه في محافظة بينغ جيانغ، حتى أنّ زملاءه من مرتبةِ الأجرةِ التسعة جاؤوا من ميناء ووهان العظيم لزيارته، مكررين كيف يبجلونه كمُعَلِّم. كان يحرقُ عظمةَ سلحفاةٍ ويتنبأُ أيّ الأوقاتِ أفضل للتسوّل، وأيّ الأماكن أكثر فائدة، وكان الآخرون ينفذون ما يقوله، والكلُّ يكسب. وحين تُقامُ حفلاتُ الزفافِ أو الجنازاتُ في الشارع، كان الناس يحتفظون له بكرسي ضيف الشرف على المائدة. وإن لم يأت، يقلقون أنّ المأدبة لن تسير على ما يرام، وأنّ المتسوّلين سيأتون لإفسادها. أهده السيد تجو، وهو موظفٌ حكوميّ سابق، لوحةً نُقِشَ عليها مقطعان بلونٍ ذهبي وأسود، مصنوعةٌ من خشبِ شجرِ الكمثرى، وثقيلةٌ إلى حدٍّ أنّ مجموعة أشخاصٍ حملوها.

المقطعان: «سلوكُ الناسِ تجاهِ الأمورِ مختلفٌ كسيلٍ متدفقٍ». «الغني والفقر، سيّان للمتسوّل الذي صدره أرحبُ من الكون».

النقش الأفقي: «القلب الصافي يُنقى العالم» وموشى باسم السيد الأجرة التسعة.

بعد أن أهدى السيد الأجرة التسعة اللوحة، اشترى منزلاً ذا قمر يد أسود في شارع تشانغ لي، يحتوي على أربعة أجنحة وثلاث ردهات، جمع فوائد القروض، واتخذ أربع زوجات. بالطبع لم يكن بحاجة للخروج كل يوم والتسول، كان يخرج في اليوم الأول واليوم الخامس عشر من كل شهر للقيام بأعماله بجدية، ويسير في الشوارع مع أتباعه. كان ما يفعله دون طائل، إلا أن المقربين منه يعلمون ألا غنى له عن التسول، ويُقال إنه إن لم يتسول لما يزيد عن عشرة أيام أو نصف شهر، تنتفخ قدماه، وإن لم يسر بقدمين عاريتين لثلاثة أو خمسة أيام، تغطي قدميه بقع حمراء وتحكه ليلاً ونهاراً، إلى أن يتقشر جلده وينزف.

أكثر ما أولاه اهتماماً هو التسول في اليوم الثلاثين للسنة القمرية الأخيرة. في اليوم ذاته من السنة، يرفض إقامة جميع المآدب، ويمنع إشعال النار في المنزل، ويأمر زوجاته الأربع بخلع الحرير والقطن المبطن، وارتداء ملابس رثة، ويحمل كل منهم طبقاً أو جراباً، ويخرجون للتسول فرادى، ويأكلون ما يجلبونه. حتى ابنته تبيه شيانغ حين كان عمرها ثلاث سنوات فقط، خرجت معه باكية بعد ضربها وشتمها، لتتعلم التسول في البرد القارس وهطول الثلوج، تطرق كل باب، وتسجد للتحية كلما ظهر أحدهم.

قال: «لا يدرك الأطفال كيف سيكبرون في المستقبل، إن لم يذوقوا طعم المعاناة؟».

ثم أكمل قائلاً: «لا يعرف الناس إلا أطياب البحار والجبال،

لا يعرفون أنَّ طعامَ التسوُّلِ هو الأَشهى مذاقاً، يا للأسف، مؤسِفٌ حقاً!.

صنّفه الحزبُ الشيوعي لاحقاً «الفلاح الغني المتسوِّل»، لأنّه استغلَّ موظفيه (المتسوِّلين الأقلَّ درجة من الأجرة السبعة)، كما أنّه متسوِّلٌ غنيّ (إلاّ عشيةَ السنّة الجديدة - اليوم الثلاثين من الشهر القمري الأخير)، لذا تركَ هذا التصنيفُ السخيف دونَ تغيير. كان على الناسِ الإقرارُ بواقع أنّه من ناحيةٍ يملكُ منزلاً كبيراً وأربعَ زوجات، ومن ناحيةٍ أخرى يرتدي الملابسَ الرثّة دائماً ويسيرُ حافي القدمين.

لم يقتنع بذلك وشعر بالظلم، وقال إنّ الحزبَ الشيوعي هدم الجسرَ عند عبوره النهر، وحين وصل عدّوه حليفاً يُعتمدُ عليه. اندلعت حركةٌ تطهيرٍ قُطّاعِ الطرقِ والطغاةِ في ذلك الوقت، وهرب عدّةٌ لصوص، انضم داي شي تشينغ إلى فريقِ العمل، وأرسل المتسوِّلين ليكونوا مخبرين، ويُبْقوا عيونهم على العناصرِ المريبةِ في الشوارع، كما ذهب إلى كلّ منزلٍ لـ «عدّ الصحون»، أي كَمَ عددُ الصحونِ التي غسلتها كلّ عائلةٍ تحت غطاءِ التسوُّل، لمعرفةٍ إن كان هناك ضيفٌ أم لا، وما إذا كانوا يخبئون عناصرَ مثيرّةً للشك. على أنّ ذلك دامَ لفترةٍ مؤقتةٍ بالطبع، إذ لم يتوقع داي شي تشينغ مطلقاً أنّ الثورة ستقضي على مصيرِ المتسوِّلين، وأنّ تعدّه من طغاةِ شارع تشانغ لي، وتقيدّه وتدور به في حملةٍ تشهيرٍ في الريف.

في النهاية تُوفّي في السجن متأثراً بمرضه، ويُقالُ إنّ أصدقاءه في السجن سمعوا قوله قبل أن يموت: «هكذا يكونُ الرجلُ العظيم، في أوجِ تألّقه، لا يستطيعُ ألفُ شخصٍ إيقافه، وفي لحظةٍ العائر، لا يستطيعُ عشرةُ آلافٍ شخصٍ رفعه مهما حاولوا».

في الوقت الذي قال فيه هذا الكلام، كان قد أصبح عاجزاً عن الوقوف.

بدأ مرضه من قدميه، تورّمتا إلى حدٍّ أنه لم يستطع ارتداء الجوارب أو الحذاء الذي قصّه من جانبه؛ اختفى منحنى كاحليه، وأصبحت قدماه منتفختين مثل كيسَي أرز، بعدها ظهرت بقعٌ حمراء، وتحوّل لونها إلى أرجوانيٍّ بعد شهر، ثم إلى أسود بعد شهرٍ آخر، وظلَّ يحكُّها حتى لم يعد في قدميه موضعٌ سليم، وامتلأت بالجروح وغطّتها القروح. كانت صرخاته تُسمَع في الزنزانة طيلة الليل، فأرسل إلى المستشفى، وأعطاه الطبيب البنسلين، لكن لم يُجدِ نفعاً، جثا أمام باب الزنزانة الحديدي وطرقة بقوة متوسلاً الحارس:

- اقتلوني! اقتلوني بسكين!
- لن نقتلك، نريدُ تقويمك!
- اتركوني أتسوّل إن لم تقتلوني.
- لتنطلق هارباً، أليس كذلك؟
- أتوسّل إليك يا بوذا، أتوسّل إليك يا سيّدي، اجعلني أخرج للتسوّل، انظر قدميَّ أو شكتنا على التعفّن...
- ابتسم الحارسُ بفتورٍ قائلاً: «لا تمارس الألاعيب أمامي!».
- لا أمارس الألاعيب، إن كنتَ تشكُّ فيّ رافقوني بالسلاح.
- اذهب اذهب اذهب، بعد الظهيرة ستشتغل في حملِ طوبِ الفرن.
- لم يكن الحارسُ راغباً في الثرثرة.
- لا لا لا، لا أستطيع حمل الطوب.

- ستحملُ الطوبَ حتى إن لم تكن تستطيع حملهُ، هذا يُسمَّى
الإصلاح عن طريق العمل، أما زلتَ تريد التسوُّل؟ هل ترغب
في اللهو والاستمتاع بدلاً من العمل؟ سيَقوِّمُ المجتمعُ الجديدُ
عظامَ الرجالِ مثلك!

في النهاية لم يسمح له الحارسُ بالتسوُّل. وذات صباح، بعد مرورِ
أيام، اكتشف السجناءُ أثناءَ تناولِهِم طعامَ الإفطار، أنَّ داي شي تشينغ
منكمشٌ داخلَ لحافه، وحين ذهب أحدهم لإيقاظه، اكتشف أنَّه كان
متيبساً، بعينٍ مغلقة وأخرى مفتوحة، وتطايرت من كومةِ القشِّ جانبَ
وسادته أربعُ أو خمسُ بعوضاتٍ ماصّةٍ للدماء.

تَبَدَّدَ

حين حكى لي الناس قصة داي شي تشينغ، استخدموا كلمة «تَبَدَّدَ»، قالوا إنَّ والد تيبه شيانغ لن يتسؤل بعد الآن، لقد تَبَدَّدَ. ويبدو جلياً، أنَّ تَبَدَّدَ تعني مات.

هذه إحدى الكلمات التي أفضّلها في قاموس ماتشياو، فالكلمات مثل توفي، الموت، انتهى، مات بسبب كِبَر السن، رحل، رأى ملك الجحيم، رُفِعَت ضفيرته^(١)، مدَّ ساقيه، أغلق عينيه، انقطع نفسه، انتهى كل شيء وغيرها، هي مرادفات لكلمة «تَبَدَّدَ»، والتي بالمقارنة بها تبدو بسيطة وضحلة، شتآن بينها وبين الكيفية التي تُظهِرُ بها كلمة «تَبَدَّدَ» العملية بوضوح، وبدقة وحساسية. انتهت الحياة، أي تحللت وتفككت جميع العناصر المكونة لهذه الحياة؛ يتحلل اللحم والدم في التربة والمياه، ويتبخر إلى هواء وغيوم، أو تقضمه الحشرات، ويتحوّل إلى صريرهم الخريفي، أو تمتصّه الجذور، فيتحوّل إلى مساحات الأعشاب الخضراء

(١) رُفِعَت ضفيرته: كان الرجال في عهد أسرة تشينغ يجدلون شعرهم في صفائر أيضاً، فيضطر الجلادون إلى رفع الضفيرة حين القتل. أصبح رفع الصفائر مرادفاً لقطع الرأس، ثم أصبح يُشير إلى الموت لاحقاً.

والزهور الملونة تحت ضوء الشمس، إلى أن يتحوّل إلى مدّ شاسع غير مرئي. عندما نتأمل البرية حيث ينمو كل شيء، نشعر بجميع الأصوات الخافتة والروائح الخفيفة، التي تطفو في هواء الأصيل الذهبي، الرطب والقليل البرودة، وتُرَجّع صداها أسفل شجرة قَيْقَبٍ عتيقة. نعلم أنّ ثمة حيوات هنا، حيوات أسلاف لا حصر لها - لكننا لا نعرفُ أسماءهم.

تتعاقب الفصول الأربعة، تدور عقاربُ الساعة، إلّا تبدّد كل الأشياء، خطّ مستقيم لا رجوع فيه، يكشف الحقيقة المطلقة للزمن. وحسب القانون الثاني للديناميكا الحرارية، فهي عملية إنتروپيا، جسدٌ منظم، يتفكّك ببطءٍ إلى حالة فوضوية، موحدة، متماثلة، وفي عزلة صامتة - وحينها لا يكون هناك فرق بين الجثة والتربة المدفونة فيها، لا فرق بين قدمي داي شي تشينغ وأسنانه.

التراكم والتماسك هو بالطبع عكس التبدّد. التماسك جوهر الوجود، وجوهر الحياة؛ يتجمع الدّم والطاقة ليكون الإنسان، تتجمّع السحب لتشكّل الأمطار، تتجمّع الرمال لتكون الأحجار، تتجمّع الكلمات لتنتج الأفكار، تراكم الأيام لتخلق التاريخ، يتجمّع البشر ليكونوا عائلات، أحزاباً أو إمبراطوريات، وبمجرد أن يضعف هذا التماسك، تأتي بداية الموت. أحياناً، كلما توسّعت الأشياء وازدهرت، وتجاوزت حدود قدرتها على الحفاظ والاستمرار في الحياة أصبح التماسك الداخلي أكثر صعوبة. وانطلاقاً من هذه النقطة، يمكننا فهم أنّ كلمة «تبدّد» التي تستخدمها ماتشياو، لا تعني موت المرء فحسب، إذ استخدمت لاحقاً للإشارة إلى أي وضع سيء وكارثي، ولا سيما المصائب المتوارية في الخير.

بعد سنواتٍ لاحقةٍ سمعت بعض كبار السن يتحدثون عن تقييمهم للتلفزيون، وقالوا بذعر: «ألن تبدد إن شاهدنا التلفزيون كل يوم إلى حد الإفراط؟». لم يكن هذا إلا قلقاً من أن الناس يحصلون على الكثير والكثير من المعلومات الشاملة من التلفزيون، كما أنه يحفز العديد من الرغبات، كيف سيتماسكون إذن؟ وإن عجزوا، هل سينتهي أمرهم؟ لا أستطيع القول إن كان خوفهم من مشاهدة التلفزيون منطقياً أم لا. أدركت فقط أن «تبدد» لها دلالات أكثر شمولاً مما كانت عليه منذ عشرين عاماً. كما أدركت أنهم يتسمون بإحساس يقظة عنيدة مثل أهل ماتشياو تجاه أي حالة تبدد، كالحالة الذهنية أمام تلفزيون ملون، وحالة الاندماج مع عالم أكبر.

في الحال

تتضمنُ الكثيرُ من القواميسِ هذه الكلمة.

يُعرِّف (قاموسُ اللهجاتِ الشعبيةِ في الصين - طبعة دار نشر نان خاي العام ١٩٩٤) الكلمةَ: سرعةٌ وشدةُ التيار - «流势 - liúshì» وأيضاً «流澌 - liúsi» وتعني «مياه النهر - أو قطع الجليدِ الطافية عند ذوبانِ الأنهار». في قصيدة تشو يوان «الأغاني التسع. خي بو (إله النهر)»: «نسبحُ أنا وأنت في نهر جيو خي (النهر الأصفر)، وتهبُّ الرياحُ العاصفةُ على مياهِ النهرِ وتثيرُ الأمواج». كان استخدام 流澌 في الأصل لوصفِ التدفقِ السريعِ لتيارِ النهر. وتُستخدَمُ اليومَ بمعنى: في الحال، فوراً، بسرعة. مثل: «لم يلمس طعامه، ووضعَ عصا الطعام وغادرَ في الحال».

ويُعرِّف (قاموسُ اللهجاتِ الصينيةِ الحديثة - طبعة ١٩٩٣ عن دار نشر جيانغسو التعليمية): liúxiē 流些 أو liúshí 流时، ظرفَ حال، وتعني: على الفور، حالاً، «حين سمع ذلك الخبر، جاءَ على الفور».

يستخدمُ بعضُ الروائيين من جنوب الصين هذه الكلمةَ بطريقتهم الخاصة، مثل تجو لي بو، في أعماله كـ(التغيرات العظيمة في الجبال)،

يستخدمُ كلمة «流水 liúshuǐ - الماء الجاري»، مثال على ذلك: «هطلَ المطر، فنادى على الجميع «في الحال» ليأتوا إلى الحقولِ ويجمعوا الحبوب». وبالإضافة إلى كلمة «流逝» التي عرّفها القدماءُ «بقطع الجليد الطافية عند ذوبان الأنهار»، فيجب أن نستبعد مؤقتاً كلمات «流勢»، «流些»، «流时»، «流水»، «流逝»، ورغم الفروقات البسيطة بينها، فإنها تعبّر عن المعنى ذاته، وهو «في الحال - فوراً». ولا شك أن هذه الكلمات جاءت من المناطق الجنوبية حيث تكثر المجاري والأنهار المائية «流»، مثل كلمة «马上 - mǎshàng المقطع الأول يعني حصان»، والتي على الأرجح جاءت من المناطق الشمالية حيث تكثر الخيول.

تعبّر «في الحال» عن إحساس أهل الجنوب المبكر بالزمن. «تأمل السيد النهر العظيم الهادر: ينسابُ الزمنُ كالماء المتدفق». أدركوا أن الجداول الصغيرة، أو النهر العظيم، يختفي إلى الأبد، وأن الشباب المنقضي يتحول إلى شيخوخة، وتذوي الأعشاب الخضراء في طرفة عين، وأن هناك بطبيعة الحال، حاجة ملحة لتقدير الوقت. قد يكون الانسياب بطيئاً، ورغم بطئه، فالخوف من الانقضاء يفرض على الناس استخدام كلمة «في الحال» من وقت لآخر لتحذير الأجيال القادمة بضرورة التصرف بسرعة وفي الحال، وإضفاء ضرورة ملحة من نوع ما للكلمة.

النَّدْبَةُ «ما» (والعام ١٩٤٨)

كان «غوانغ فو» يعمل أستاذاً للتربية البدنية في المحافظة، وهو أحدُ المثقفين القلائل في قرية ماتشياو، كما أنَّه الوحيدُ من أهل ماتشياو الذي استقرَّ في المدينة وحظي بوظيفةٍ ثابتة.

كان والده الرجل العظيم الوحيد في القرية، ولكن لفترةٍ طويلةٍ جداً، لم يرغب أهل القرية في ذكر هذه الشخصية العظيمة، وتحدّثوا عن ماضيه بكلماتٍ متحفظة. علمتُ لاحقاً أنَّ الشخصية العظيمة تُدعى «ما ون جيه»، الذي أُعيدَ له اعتباره بعد تدقيقٍ من الحكومة العام ١٩٨٢، ونُزعت عنه تهمةُ «زعيمُ قُطَاع الطرق» و«بيروقراطي رجعي»، وحصل على لقب «بطل الثورة». كان غوانغ فو حينها عضواً في اللجنة الدائمة للمؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني في المحافظة، ثم أصبح نائب رئيس المؤتمر، وكان لذلك بالطبع علاقةٌ برّد اعتبار والده. في ذلك الوقت زرتُ غوانغ فو وعلمتُ المزيد عن العام ١٩٤٨، حين تولى ما ون جيه منصبَ رئيس حزب الكوميتانغ في المحافظة.

كما ذكرتُ سابقاً، كان ذلك العام ١٩٨٢؛ كان مساءً قائماً ممطراً، في مطعم توفو صغيرٍ في شارعٍ محاذٍ للنهر، افتتحه غوانغ فو لما عجزَ عن

كسب لقمة العيش من عمله أستاذاً للتربية البدنية، سجّلتُ كلامه في مفكرة صغيرة، وأنفي مليءً برائحة بقايا التوفو الحامضة، ثم راودني شعورٌ مفاجئ: بالنسبة لي، وبالنسبة لكلّ شيءٍ عرفته عن ما وُن جيه، فإنّ العام ١٩٤٨ لم يكن العام ١٩٤٨، لقد تأخر، لدرجة أنّه تحنّز وفسد، أو بشكلٍ آخر، تأخّر هذا العامُ إلى أن ظهرَ في مساءٍ ماطرٍ من العام ١٩٨٢، مثل القنبلة التي فجّرت شيونغ شي، تلك القنبلة من فترة الحرب الصينية اليابانية، التي جمّدت الزمنَ بهدوء، وظلّت قابعةً ومؤجلةً في التربة لثلاثين عاماً، إلى أن انفجرت في ربيعٍ مشرق، وبدويها الموغل في القدم، أمّام صدرِ طفل.

لا يمكننا القول إنّ كلّ الأشياء التي لا نعلمُ عنها شيئاً موجودة، ولا يمكن أن يكون لدينا سببٌ منطقيٌّ لاستنتاج وجودها. لذلك، قبل العام ١٩٨٢، كان العام ١٩٤٨ الذي خاضه ما وُن جيه، لا يعني لي شيئاً. وانطلاقاً من المبدأ ذاته، فالعام ١٩٤٨ الذي خاضه ما وُن جيه، والعام ١٩٤٨ لهاتشياو، ليس هو العام المذكور في الكثير من كتب التاريخ، والأحداث التي شكّلت هذا العام، مجموعةٌ من الأحداث والتغيرات العالمية التي تأثّر بها الناس واعترفوا بأهميتها وخلّدوا ذكراها؛ محادثات السلام بين حزب الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني في بي بينغ (بكين حالياً)، حملة لياو شي شيناغ وحملة هواي خاي، رفض ماوتسي تونغ بغضبٍ لاقتراح الحزب الشيوعي السوفيتي بالفصل بين الحزب الشيوعي الصيني وحزب الكومينتانغ بنهر اليانغتسي بترسيم حدود النهر، المنافسة الشرسة بين جماعة شيانج كاي شيك ولي تزونغ رن، أحداثٌ لم يعرف ما وُن جيه وأتباعه شيئاً عنها. وبسبب حاجز

جبال جيوليان، واضطراب الحرب، والجفاف وغيرها من الأسباب، أصبح الاتصال بين قوس ماتشياو والعالم أقل شيئاً فشيئاً، فمعرفة أهل ماتشياو بالعالم الخارجي، توقفت كلياً عند بعض قصص الجنود القدامى العائدين إلى الريف.

خدم هؤلاء الجنود القدامى مع ما ون جييه في الجيش الثاني والأربعين، ووصلوا إلى شاندونغ وآنهوي، وشاركوا في حملة بينغ خو، ودمروا دفاع الجيش الرابع والأربعين. احتقروا هذا الجيش، وهو جيش سيتشوان، الذي كان يفتقر إلى الانضباط والالتزام، ويدخن كل جنوده تقريباً الأفيون، لذا سحق الجيش الياباني مقراتهم العسكرية حين دخل متنكراً في زي مدني. كما ذاق قائد الفوج «ما» المعاناة أيضاً، إذ أعدّ كميناً مفخخاً في محافظة يوان جيانغ، وكان هناك أكثر من مائة لغم مدفون، وعديم الفائدة. انقسمت تلك الألغام الأرضية التي سُحنت من تجاو يانغ، مثل مغرقتي قرع، وانفجرت انفجاراً مدوياً، لكن لم يسقط على إثرها ضحايا من الجنود اليابانيين في دخان البارود، وهكذا انطلقوا صارخين كالعادة، ومزقوا الجيش الثاني والأربعين إلى أجزاء في ملح البصر. حين رأى ما ون جييه مدى سوء الأمور، أمر أتباعه بالتخلص من أي متفجرات في الحال وإلقائها في النهر، والتفرق في حرب عصابات. كان اليابانيون هنا لنقل الحبوب، وما داموا سيرجنون الأمر إلى الشتاء، حين تجف بحيرة دونغ تينغ، ولا تتمكن القوارب اليابانية من المغادرة، ستكون مهمته ورجاله قد أنجزت.

تذكروا حين كان ما ون جييه يصطحبهم للقبض على الأسرى، من يقبض على جندي ياباني يحصل على عشرة آلاف يوان، لذا كان على كل

سَرِيَّةٌ أَنْ تَقْبِضَ عَلَى أَرْبَعَةِ جُنُودٍ يَابَانِيِّينَ كُلِّ شَهْرٍ، وَقَائِدُ السَّرِيَّةِ الَّذِي لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِنْجَازِ الْأَمْرِ، يُضَافُ ذَلِكَ كَسَقْطَةٍ فِي سَجَلِهِ، وَتُضَاعَفُ لَهُ الْمَهْمَةُ الشَّهْرَ الْقَادِمَ، وَإِنْ لَمْ يَنْجِزِ الْمَهْمَةَ مَجْدِداً، يُعْفَى قَائِدُ السَّرِيَّةِ مِنْ عَمَلِهِ، وَيُضْرَبُ عَلَى مُؤَخَّرَتِهِ، وَيَخْضَعُ لِلْقَوَانِينِ الْعَسْكَرِيَّةِ؛ ثَلَاثُ ضَرْبَاتٍ بَعْضُ الْحَمْلِ، تَجْعَلُ الْمُؤَخَّرَةَ تَنْزِفَ. كَانَ هُنَاكَ قَائِدُ سَرِيَّةٍ مَنْحُوسٍ، مُؤَخَّرَتُهُ مِنْبَعِجَةٌ دَائِماً، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا مُطِيعًا لَأَيَّامٍ.

كَانُوا يَرْتَدُّونَ مَلَابِسَ مَدْنِيَّةٍ عِنْدَمَا يَعْتَرُونَ عَلَى مَكَانٍ لِلدِّفَاعِ، وَيَحْصِلُونَ عَلَى تَصْرِيحِ الْمَوَاطِنِ الصَّالِحِ^(١)، ثُمَّ يَتَنَكَّرُونَ وَيَسْتَنُونُ غَارَاتِ سَرِيَّةٍ عَلَى مَعَاقِلِ الْعَدُوِّ، وَالْأَكْثَرُ جَرَأَةً وَشَجَاعَةً مِنْهُمْ، يَعْضُ «ذِيلُ» الْقَوَاتِ الْيَابَانِيَّةِ. كَانَتْ هُنَاكَ سَرِيَّةٌ جُنُودُهَا كُلُّهُمْ مِنْ قَوْمِيَّةِ مِيَاو فِي شِيَانْغِشِي، يَجِيدُونَ السِّبَاحَةَ، وَكَانُوا الْأَكْثَرُ شَجَاعَةً، وَالْأَكْثَرُ قَبْضاً عَلَى أُسْرَى، لَكِنْ لِسُوءِ الْحِظِّ لَقُوا نَحْبَهُمْ فِي إِحْدَى الْغَارَاتِ فِي مَحَافِظَةِ هُوَا رُونْغِ أَثْنَاءِ أَدَاءِ وَاجِبِهِمْ. وَيَبْدُو أَنَّ بَعْضَ الرِّيفِيِّينَ تَحْتَ قِيَادَةِ الرَّئِيسِ «مَا» حَالِفِهِمُ الْحِظِّ وَاحْتَفَظُوا بِرُؤُوسِهِمْ، لَكِنْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقْبِضُونَ فِيهَا عَلَى أُسْرَى، يَتَضَحُّ أَتَمُّهُمْ مَنْغُولِيُونَ أَوْ كُورِيُونَ، وَلَيْسُوا يَابَانِيِّينَ، وَرَغْمَ أَنَّهُ سُمِّحَ لَهُمْ عَلَى مُضَضِّ بِتَقْدِيمِ تَقْرِيرِ أَدَاءِ الْمَهْمَةِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَحْصِلُوا عَلَى مَكَافَأَةٍ. وَغَالِباً كَانَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ يَنْفَسُونَ عَنْ غِيْظِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى مَاتْشِيَاوِ، قَائِلِينَ إِنَّ النَّدْبَةَ «مَا» غَيْرُ عَقْلَانِيٍّ، فَرُؤُوسُ الْمَنْغُولِيِّينَ التَّتَارِ هِيَ الْأَكْبَرُ، حَتَّى أَنَّهُ يَتَعَدَّرُ عَلَى ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ رِجَالٍ رَفْعُ كَيْسٍ مِمْتَلِيٍّ بِهَا

(١) تَصْرِيحُ الْمَوَاطِنِ الصَّالِحِ: بَطَاقَةُ الْهُوِيَّةِ الَّتِي أَصْدَرَهَا النِّظَامُ الْعَمَلِيُّ فِي الْمُنْطَقَةِ الَّتِي اِحْتَلَّتْهَا الْيَابَانُ أَثْنَاءَ حَرْبِ الْمَقَاوِمَةِ ضِدَّهَا.

مهما بلغت قوتهم، بعد خسارة جسيمة كهذه، لماذا حصل الآخرون على جائزة، ولم نحصل نحن إلا على الماء البارد؟
النَّدبة «ما» هو لقب ما ون جيه.

كان المستمعون مصدومين ومتعاطفين في آن: أجل، أجل، النَّدبة «ما» رجلٌ بخيل، عمل موظفاً حكومياً كبيراً، ولم نره يشتري لزوجته قلادة ذهبية. وفي إحدى المرات، دعا أقاربه بعد عودته إلى مسقط رأسه لتناول الطعام، وقَدَّم خمسة جين من اللحم، وملاً أطباقهم بالفجل!

كان عامُّهم، العام ١٩٤٨ مليئاً بمواضيع كهذه، أو بمعنى آخر، كان العالمُ الخارجي بالنسبة لهم، هو جيش سيتشوان الذي يدخُن الأفيون بكثرة، انفجار الألغام في تجاو يانغ التي لم تقتل أحداً، والمنغوليين التتار في الجيش الياباني وغيرها. في أحسن الأحوال، سمعوا بإبهام عن المعركة الثالثة في تشانغشا، حتى أنَّهم لم يعرفوا ما الذي يعنيه «١٩٤٨»، إذ لم يستخدمون مطلقاً التاريخ الميلادي. كانت «١٩٤٨» كلمة غريبة إلى أن تعرَّفَ عليهم، وكانوا يستخدمون المصطلحات التالية للإشارة إلى هذا العام:

١- عامُّ معركة تشانغشا الكبرى:

من الواضح أنَّ هذه تسمية خاطئة. فمعركتهم في تشانغشا كانت خيراً تأخراً لمدة ست سنوات، وظنُّوا بالخطأ أنَّه حدث وقع في العام ١٩٤٨. فإذا جاء غريبٌ لا يعلم عن المعركة الثالثة في تشانغشا، واعتمد على كلام ماتشياو فحسب لإدراك الزمن، ستحدثُ فوضى حتماً في نظام التاريخ.

٢- السنة التي تولَّى فيها «ماو غونغ» منصبَ رئيسِ جمعية حفظ السلام:

يمكن القول إنَّ هذا صحيح، أو خاطئ. يعيش ماو غونغ في قرية ماتشياو العليا، وتولَّى في ذلك العام وظيفة شخصٍ ما من بلدة تجانغ جيا فانغ، وجاء دوره ليتَّأسَّ جمعية حفظ السلام، ويتولَّى إدارة ثمانية عشر قوساً حول المنطقة. إذن لم يكن من الخطأ اعتماد هذا الحدث للإشارة إلى العام ١٩٤٨. تكمن المشكلة في أنَّ أهل ماتشياو لا يعرفون أنَّ اليابانيين قد استسلموا، وأنَّ جمعيات حفظ السلام التي سيطر عليها اليابانيون في كثيرٍ من المناطق قد حُلَّت ولم يعد لها وجود، وأنَّ «تصاريح المواطنين الصالح» لم تعد ضرورية. ولأنَّهم مقصيون عن كلِّ الأخبار، فقد كانوا ينجزون الأمورَ وفقاً للقوانين القديمة، ويستخدمون تسمية «جمعية حفظ السلام»، ما سيثيرُ ارتباكَ وحيرة الأجيال اللاحقة.

٣- عامُ تفتُّح البامبو في بلدة تجانغ جيا فانغ:

في بلدة تجانغ جيا فانغ أرضٌ مزروعةٌ بالبامبو، وحلَّ في العام ١٩٤٨ جفافٌ كبير، ولم يكن هناك محصولٌ في الحقل، بل تفتَّح من البامبو نوعٌ من الزهور البيضاء تُنتجُ بذوراً، وحين جمعوا البذورَ وقشروها اكتشفوا أنَّها ثخينَةٌ ومائلةٌ للحُمرة، وتفوحُ برائحةٍ زكية بعد طبخها، ومذاقُها يشابه مذاقَ الأرزِ المقشور. ذوى البامبو فوراً بعد تفتُّح الأزهار، إلَّا أنَّ الناسَ في المناطقِ المجاورة، اعتمدوا على هذه القطعة من الأرضِ لاجتيازِ المجاعة، وشعروا بالامتنانِ تجاهها، لذلك أطلقوا على البامبو «البامبو الصالح». خلَّفَ هذا الأمرُ انطباعاً عميقاً في أهل ماتشياو، واستُخدِمَ للإشارة إلى العام. وعموماً، هذه الطريقة ليست خاطئة، الأمرُ فقط أنَّ

الغرباء لا يعرفون شيئاً عن هذه الفترة، لذا أثناء التعداد السكاني، أو الخدمة العسكرية، أو التقديم في المدارس، كان على الذين وُلدوا في «عام تفتح البامبو في بلدة تجانغ جيا فانغ» وذويهم، أن يبذلوا مجهوداً ضخماً في الإشارة والتفسير، إلى أن يخبروا الغرباء بدقة عن عمرهم الحقيقي.

٤- عام ارتباك غوانغ فو في بلدة لونغ جيا تان:

يعني الارتباك هنا تعلّم القراءة والكتابة. لم يكن غوانغ فو ابن «ما ون جيه» ذكياً، وكان مولعاً باللعب واللهو في صغره، وقد اجتاز المرحلة الابتدائية في سبع سنوات. شعر بالخزي الشديد لرسوبه مرةً تلو الأخرى، وبعد أن كبر لم يرغب في الاعتراف بذلك، وسوف الوقت الذي «ارتبك» فيه لثلاث سنوات، أي إلى العام ١٩٥١. لذا إن اعتمد شخص لا يعرف تفاصيل الأمر، على سيرة غوانغ فو الذاتية أو على ما يقوله في تحديد الزمن، فسيزيح تاريخ ماتشياو ثلاثة فصول ربيع وخريف. لذلك، فهذا أيضاً مفهومٌ خطيرٌ جداً للوقت.

٥- عام طلب «ما ون جيه» العفو:

كان أمر طلب ما ون جيه للعفو حدثاً كبيراً، علّم به الجميع، لذا بدا من الملائم استخدام هذا الحدث لتحديد الزمن، وكان بالطبع ملائماً للغاية لأهل ماتشياو، ويسهل فهمه على الغرباء.

بالطبع، بالنسبة للصفح، يمكنني قول جمل عدة.

كان مناخ ذلك العام شديد التوتر؛ عكف الكثير من الريفيين في الشهر القمري الثاني عشر على حياكة وصنع حصائر القش وإرسالها إلى مركز المحافظة، لاستخدامها في لفّ الجثث، ويُقال إنّ رجالاً من بينغ

جيانغ جاؤوا وتحالفوا مع جيشِ المقاطعة، ونصّبوا «بينغ الحمار» قائداً، وأشاعَ الأخيرُ أنَّ عشرةَ آلافِ رجلٍ وثلاثةَ مدافعٍ ستهاجمُ ما وُن جيهه ورجاله عند ضفتي نهر لُوِه، لذا حين شعر ما وُن جيهه باقترابِ نهايته، وزَّعَ ميراثه على العامة، وجَهَّزَ لنفسه تابوتاً، وطلبَ من بينغ الحمار طلباً واحداً: ألا يكون القتالُ في المدينة، حتى لا يتعرض الناسُ للإساءة والأذى، والأفضل أن يتقاتلوا في بركةِ الطينِ الأبيض عند الروافِدِ السفليةِ لنهرِ لُوِه. لم يكثرِ بينغ الحمار لطلبه مطلقاً، وقطعَ رأسَ الرسولِ الذي بعثه ما وُن جيهه، وعلَّقها على جسرِ البوابةِ الشرقيةِ لبلدة باي شا، حيث لم يجزُ الريفيون هناك على عبورِ الجسر، واضطروا إلى الخوض في المياه أسفلَه. ذاع الخبر، وفرَّ العامةُ في مركزِ المحافظة هلعاً، لم يُسمع دويُّ المدافع بعد مرورِ بعضِ الوقت، ولم يُشاهد جيشُ بينغ الحمار يقترب من الحدود، بل أعلن ما وُن جيهه أنَّهم لن يتقاتلوا، كما حصلَ على لقبٍ جديد: حاكمِ المحافظة والقائد المؤقت للجيشِ الرابع عشر. حين كان يصطحب أتباعه ليتناولوا لحمَ الكلابِ في شارع تشانغ لي، يراهم الناسُ بالزيِّ العسكريِّ الوطني، حاملين أسلحةً أجنبيةً لامعة.

رأت الأجيالُ اللاحقةُ أنَّ ما وُن جيهه ارتكب فعلاً أحمقَ بالاعتمادِ على حزبِ الكوميتانغ في عامِ الخسارةِ الكبرى للحزب. وبشأن هذا، شرح لي غوانغ فو مراراً وتكراراً، أنَّ والدَه كان سيخضع للحزبِ الشيوعي الصيني منذ البداية، وأنَّه استسلمَ للبابِ الخطأ بسببِ الظروفِ الخاطئة. كان والدُه جندياً تنقَّلَ في الخارجِ لسنواتٍ عدة، وعرف بشكلٍ ما عن بعضِ أفعالِ الحزبِ الشيوعي، وسمع أنَّه يقتلُ الأغنياءَ ويساعدُ الفقراءَ، وأنَّهم جنودُ ماهرون، ولم يضرهم أيُّ ضغينة. وبسببِ ضغط

جيش المقاطعة، أرسل أحد إخوته «وانغ لاو مو» للبحث عن الحزب الشيوعي، إذ عملَ زوجُ أخته الكبرى حداداً في ليو يانغ، وعلى علاقةٍ وثيقةٍ بالحزب، إلا أن سوءَ الحظِّ كان حليفه، وأُصيب وانغ لاو مو بدُمْلٍ في ظهره ما أن انطلق؛ دهن دواءٌ من الأعشاب، وكان ألمه شديداً إلى حدِّ أنه استراحَ في نُزْلٍ لمدةِ يومين، وحين وصلَ ليو يانغ، كان زوجُ أخته قد انطلق إلى جيانغ شي.

- يومان، يومان فقط! إن لم يُصَب وانغ لاو مو بالدمْل، ونفد الأوامر في الحال، ألم يكن والدي سيصبح عضواً في الحزب الشيوعي؟

شرب غوانغ فو جرعةً من الخمر، وقال لي هذا الكلام محدقاً في وجهي بعينين جاحظتين.

بالطبع كان لغوانغ فو سببٌ للتحسُّر، إذ إن هذين اليومين غيرًا مصيرَ ما ون جيه ومصيرَ مائةٍ من أتباعه، وغيرًا مصيرَ غوانغ فو نفسه. لم يعثر وانغ لاو مو على الحزب الشيوعي، وتعرَّف عبرَ صاحبِ فرقةٍ مسرحية في يوي يانغ على ضابطٍ مساعد في اللواء شعبة B لحزب الكوميتانغ. جنَّدت شعبة B في اللواء «ما ون جيه» ومنحته العفو، وبدأت كل الترتيبات منذ هذا اللقاء.

كان ذلك في نهاية العام ١٩٤٨، مع بداية ضعفٍ وانهيارِ سلطةِ حزبِ الكوميتانغ في الصين، لم يجهل هذا الأمر سوى الريفيين في الشتاء البارد الموحش. وخطر ببالي، ربما لأنَّ أمراء الحرب في شعبة B في اللواء أدركوا مآل الموقف، وأنَّ العفو يُمنَح والأسلحة تُوزَّعُ في كلِّ مكان، أرادوا فقط إضافةَ القليل من الاضطرابِ والدمارِ للجيش الشيوعي الذي كان على

وشك الاتجاه جنوباً، أو مثلما أظهرت الأدلة التاريخية لاحقاً، وجود شقاق بين الشعبة B وبين شعبة H التابعة لحزب الكوميتانغ، والتي كانت الحكومة العسكرية لمقاطعة هونان تحت سيطرتها، وكان الصراع بينهما مستمراً لا يتوقف. لذا حاولت الشعبة B تجنيد قاطعي الطرق والصوص في منطقة الشعبة H، لتشر نفوذها وتسيطر على غريمتها. وعلى كل حال، كان العفو والدعم السخي الذي قدمته الشعبة B لهذا الريفي «ما ون جييه» قد بعث في نفسه السعادة، وتقبل بسرور خطاب التعيين، وثمانين مسدساً، ووعداً بالسلام لفترة على ضفتي نهر لُوِه. لم يكن يعرف الصراع القائم بين الفصائل داخل حزب الكوميتانغ. ولم يدرك نية رئيس شعبة B (لا نعرف ذلك الآن تماماً)، وظن أنهم ما داموا يرتدون الزي العسكري الوطني، فيجب أن يخافهم، ويطلب السلام.

لم يدرك أثناء شرب الخمر واحتفاله مع أتباعه، أن اتخاذ هذه الخطوة، سيقوده إلى الجحيم.

مرّ العام ١٩٤٨ على رمال شاطئ نهر لُوِه الجافة والعارية، ودفع بتغيرات تاريخية عظيمة، شيئاً فشيئاً، نحو الجنوب. أمّا بالنسبة لـ ما ون جييه ورجاله، فلم يكن العام ١٩٤٨ الذي قضوه في الجبال كالعام ١٩٤٨ المسجل في أوراق لواء شعبي B و H التابعين لحزب الكوميتانغ؛ يشبه هذا تماماً ما حدث بعد سنوات، حين شن جيش المحافظة الأحمر هجوماً مفاجئاً بالرشاشات على الندبة «ما» ورجاله تحت مسمى «مثيرو الشغب الفاشلون»، فالعام ١٩٤٨ في ذاكرتهم، حين كان الانتصار الثوري ساحقاً، لم يكن كالعام ١٩٤٨ الذي قضاه الندبة «ما» ورجاله في الجبال.

هذا انفصام ما في الزمن.

الشعائر الطاوية

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان قُطَّاع الطرق على ضفتي نهر لُوَه يتصرفون كُلَّ على هواه. وبشكلٍ نسبي، فإنَّ قاطع الطريق النَّدْبَة «ما» يتمتع بنفوذٍ وهيبَةٍ أعلى بقليلٍ عن العصاباتِ الأخرى، وليس ذلك بسبب امتلاكه الجنودَ والخيولِ القوية فحسب، بل لأنَّ لديه قوًى غامضة. كان يؤمن بالتعاليم الزرقاء^(١)، ويقيم الشعائرَ يومياً، ويركع لبوذا (آبلو كيتسبارا) عند طاولةِ البخور، ويجلس رجاله متربعين على وسائد من التيفا^(٢)، متمتمين بتراتيلهم. ويُقال إنَّ الذي يجلس طويلاً يهدأ قلبه، تصفو روحه، تعلو مهارته ويتعمَّق فهمه بالطاو، كما أنَّ الجلوسَ هكذا خلَّصه من السعالِ الذي لازمه منذ أكثر من عشرِ سنوات. ولاحقاً وضع رجاله قواعدَ للجلوسِ والوقوفِ بغضِّ النظرِ عن المكانِ الذي مكثوا فيه، كما كانوا يصومون عن الطعامِ والشرابِ لمدةِ يومين، ثم ينطلقون بسرعةٍ للقتال. وروى بعضُ الناسِ أقاويلَ لا تُصدَّق، عن أنَّهم رأوهم بأعينهم يتقاتلون

(١) لا تشير إلى البوذية التبتية، بل تُطلق على البوذية التبتية للبوذية الهان، وسميت بهذا الاسم

لأن الرهبان في أسرة هان كانوا يرتدون ملابس زرقاء.

(٢) التيفا: نبات البوط، عشب برِّي ينمو في البرك والمستنقعات.

ولا يُصابون إن تلقوا طعنات، وأن الرصاص لا يخترق راياتهم، ولا داعي للقول إن هذا كله كان نتيجة الجلوس على وسائل التيفا.

كانت لجيش النّدة «ما» ميزة خاصة، أن الجنود لا يرتدون أحذية أثناء القتال، يتسلقون الجبال والوديان بمرونة ورشاقة، ولا تُصاب أقدامهم بسبب الصخور أو المسامير. كان العامة يطلقون عليهم «الجيش حفاة الأقدام»، وقالوا إنهم كان يرتلون التعاويذ السرية للحراس الثلاثة عشر كل يوم لإجادة هذه المهارة. ثم أخبرني غوانغ فو فيما بعد، أن هذا بالطبع مبالغة كبيرة، فسبب ذهابهم إلى القتال بأقدام حافية، ليكونوا سريعين ورشيقين الحركة؛ يُصنع معجون من نوعين من النباتات، توت الورق وشتلة التونغ، ويُدهن به باطن القدم، ثم يُمسح بعد جفافه، ويُكرّر ذلك مرات عدّة إلى أن يُغطى باطن القدم بقشرة أصلب من أي نعل حذاء - هذا ما تعلّمه والدّه من شعب مياو في غرب هونان حين خدم في الجيش.

كان الناس في حالة من الدهشة تجاه هذا الجيش حافي الأقدام، وأينما ذهبوا تجد أطفالاً ونساءً عجائز يتبعونهم ليؤدوا الشعائر الطاوية ويتعلموا الجلوس على الوسائد، إلّا أنّهم بالطبع لم يجيدوا الجلوس، لأنّ جنونا يصيبهم ما أن يدخلوا في حالة النشوة، فحثّهم النّدة «ما» ألاّ يحذوا حذوه وألاّ يؤدوا الشعائر دون إشراف.

قال إن أهم عنصر في الشعائر الطاوية هو أن يُطهر المرء قلبه ويحد من رغبته، وأن يكون صالحاً. في ذلك الوقت كان هناك شح في المحاصيل، لذا كان أفراد العصابات يسرقون وينهبون في كل مكان، وكلّما جاء ما ون جيبه إلى المدينة صادفه رجالٌ ونساءٌ، كبارٌ وشباب، يشكون له باكين

من الظُّلم، منهم من سُرِّقَت أمواله، ومنهم من سُرِّقَت نساؤه، آمِلين أن يحقِّقَ لهم الرئيسُ «ما» العدالة.

دعا ما ون جيه زعماء العصابات في تشانغ لي، وعقدوا اجتماعاً واحداً، وقال إنَّه سيتغاضى عن الممتلكات المتنقلة، لكن يجب إطلاق سراح الأفراد، وإعادة الحبوب والماشية. عندما رأى أفراد العصابات مجيئه بمفرده مرتدياً صندلاً من القش، دون مرافقة جنديٍّ حارس، وإنَّه لا يحملُ مسدساً أو طلقةً واحدة، غمرهم شعورٌ طاغٍ من الاستقامة والطمأنينة قبل أن يبدأ في الكلام، حدَّقَ إليه البعض إلى أن غامت عيونهم، ورأوا هالةً من النور فوق رأسه، وفوق هذه الهالة سحابة أرجوانية، فوافقوا على كلِّ ما قاله. شرب الجميع الخمر، وقطعوا زاوية الطاولة كتعهد، ثم اختلفوا لتنفيذ الاتفاق.

كما اكتسب النَّدبة «ما» سمعةً مسؤولٍ صادقٍ ومستقيم. يقول الناسُ إنَّ جيشَه يريد الطعامَ لا النقود، ولا يأخذون شيئاً بعد أن يشبعوا. أو بشكلٍ آخر، أينما ذهب أتباعه وشعروا بالجوع بوسعهم طلبُ ما يؤكِّلُ من العامة بما يكفي لوجبة واحدة، ويُعدُّ أيُّ نهْبٍ عدا ذلك إزعاجاً للمواطنين، ويُعاقَبُ مَنْ يقرِّفُه. ذات مرَّة، دهن اثنان من جنوده وجهيهما برمادٍ التبغ حتى لا يتمَّ التعرفُ عليهما، واقتحما منزلَ مدير المدرسة المتوسطة في المحافظة، وسرقوا سوارِيَّ ذهبٍ من زوجته. سارعت إحدى مدبِّرات المنزل ونثرت طستاً من رماد الخشب على عتبة الباب، وطبعت آثارَ أقدامهما أثناء خروجهما، وفي اليوم التالي دعت النَّدبة «ما» إلى موقع الحادث. عاين «ما» آثارَ الأقدام، وتعرَّفَ في الحال على اللصين، وحبسهما في قفص، واستخدمَ سلكاً حديدياً لثقبِ

عظمتي الترقوة، وظلاً في القفص ثلاثة أيام أمام الناس، إلى أن تعفن الثُّقْبُ الناتج عن السلك وفاح برائحة كريهة، أشعل في أحدهما النار حتى الموت، وشوهدَ جسده يحترق بلهبٍ أصفر، وجلده يُطَقِّق، ولم يعدَّ الآخرَ زعيمَ عصابة، لذا خُفِّت عقوبته^(١)، ومات طعنًا بخنجر، وتُركَ جثة هامدة: دخل الخنجرُ وخرج مرَّاتٍ عدَّة، طعناتٌ مباشرةٌ دون انحراف، وتفجَّرت الدماء من الجروح بارتفاعٍ عدَّةٍ أقدام، وصبغت الحائط المجاورَ بلونٍ أحمر.

لم يطلب السجينان الصفح، ولم يصرخا، ولم تصدر عنهما آنةٌ واحدة. يستحقان! تأثر جميعُ الرجالِ الحاضرين بشدة.

كان جنودُ النَّدْبَةِ «ما» جشعين، جشعين بضراوة، وهذه الميزة جعلت كلَّ رجالِ العصاباتِ الأخرى ينظرون إليهم بعينٍ مختلفة. ومنذ ذلك الوقت، لم يُثر رجالُ العصاباتِ الأخرى المتاعبَ لجنود النَّدْبَةِ «ما» أينما ذهبوا وأيَّ طريقٍ عبروا، وإن رافقوا التجارَ لنقلِ البضائعِ كحماية، لم يكن هناك داعٍ لأن يحملوا أسلحة، يكفي أن يشيروا بأيدي خاوية. أُطْلِقَ عليهم «الحِرَابُ النزيهة». وكانوا حين يقابلون رجالَ العصابات، يتصافحون، ويذكرون صيتَ ما ون جيه، ويتبادلون عباراتٍ باللهجة الدارجة، لقلبِ الكوارثِ إلى حظٍّ سعيد، ثم يمضون في طريقهم بسلام وبلا عوائق. في بعض الأحيان يتركُّ لهم الآخرون طعاماً، أو يرسلون فخذَ بقرةٍ أو زجاجتين من النبيذ الجيد لتوطيد أواصرِ الصداقة.

(١) العبارة هكذا في النص الأصلي، وربما القصد أن القتلَ بالطعن أخفُّ من القتلِ بالحرق.

كسبٌ غيرٌ مشروع

يتضمنُ (قاموسُ اللهجاتِ الصينيةِ الحديثة) (طبعة العام ١٩٩٣ عن دار نشر جيانغسو التعليمية) هذه الكلمة، ويشرحها كالتالي:

١- لصوصيةٌ تافهة: حين الهروبِ من الجيشِ أو المجاعة، وفرارِ الكثيرِ من الناسِ من المدينة، يستغلُّ الفرصة للسرقة والنهب.

٢- يستغلُّ أو يخدع: إنه ماهر، لا تفكّر في خداعه. وأيضاً: طلبُ المالِ يحدثُ علانية، أمّا الاستغلالُ يكون في الخفاء.

يستخدم أهلُ ماتشياو هذه الكلمة أيضاً للإشارة إلى شعورٍ بالإثارة والبهجة.

تشيرُ هذه الكلمةُ تحديداً إلى السنةِ التي طرد فيها جيشُ النّدة «ما» بينغ الحمار من الشعبة H لجيشِ حزب الكوميتانغ، واقتحموا محافظة بينغ جيانغ، وهرع آلافُ الفلاحين من عشراتِ القرى في أرضِ لُوّه، وحقّقوا بنهمٍ ثروةً لأنفسِهِم، منهم مَن سرقَ ملحاً، منهم مَن سرقَ أرزاً، ومنهم مَن ارتدى أكثرَ من عشرِ طبقاتٍ من معاطفَ نسائية وبدا منتفخاً ومتعزّزاً لفرطِ شعوره بالحر، وآخر لم يحالفه الحظ ولم ينهب أيّ شيء، إلّا دلوّاً أو لوحاً خشبياً عاد به إلى منزله. والذي قام بأكثرِ شيءٍ لا يُصدّقُ هو

والدُّبْنِ يي، اسْمُهُ «ما تزي يوان»، إذ حمل مائةَ قطعةٍ من القرميدِ وخرج من المدينة، لاهثاً لفرطِ تعبهِ، ومهما غَدَّ السيرَ ظلَّ في المؤخرة. سخرَ أهلُ قريته من يقظته: لماذا لا يعود بحمولةٍ من الطين؟ ألم ترَ أيَّ طينٍ في منزلِكَ مطلقاً؟ ردَّ بقناعةٍ قائلاً: إنَّ منزله لا ينقصُه ملحٌ أو ثياب، بل ينقصُه عشراتٌ أو أكثرٌ من قطعِ القرميدِ لبناءِ حظيرةِ الخنازير، واستقرَّ رأيُه على قطعِ قرميدٍ (ماو تجو) الجيدةِ هذه، مناسبةٌ جداً!

لم يشعر مطلقاً أنه عانى أيَّ خسارة.

والأكثرُ من ذلك، لم يكن يعرف ما المصاييحُ الكهربائية. قطع بعضُ الشبابِ لمباتِ المصاييحِ من المدينة بالسكاكين آنذاك، لتعليقها على أسطحِ منازلهم بعد عودتهم. قالوا إنَّ منازلَ الناسِ هناك تضيء أثناء الليل، ولا تنطفئ حين هبوبِ الريح. رأى ما تزي يوان أنَّ هؤلاء مجانين كلياً، ومن غير المستحيل أن يوجدَ كنزٌ كهذا في العالم.

على أنَّ الكسبَ غيرَ المشروع أصبح واحداً من «جرائم» ما وون جيه لاحقاً، ولم يخطر بباله أنَّ هذا العددُ من الناسِ سيتبعه إلى المدينة. وللسيطرة على الفوضى أمرَ جنودَه بقمعِ اللصوص، ومن بينهم والدُّبْنِ يي المصاب، فبسببِ ثقلِ القرميدِ الذي يحمله على كتفه، كان في المؤخرة حين خروجهم من المدينة، وقبضَ عليه الجنود.

قبل أن تتسنى له الفرصة ليلتفتَ برأسه، شعر بتيارٍ بارد، وبُترَ نصفُ رأسه بما في ذلك عينٌ وأذنٌ بحدِّ السكين الأبيض، وطار في الهواء، وبقي النصفُ الآخرُ معلقاً على كتفه، ومع استمرارِ اندفاعِ الكتفِ في الحركة أكثرَ من عشرِ خطوات، تآرجحَ جسده وأطرافه، وطارَت الحمولة، إلى

أن سقطت على الأرض بعد لحظات. ارتعب القاتل الذي يقف خلفه حتى أنه لم يستطع التحدث لفترة طويلة.

قال كبار السن في ماتشياو، إنَّ أحداً -لحسن الحظ- اكتشف أثناء غسل الجثة، أنَّ ساقيه لا تزالان تتحركان، وحين لمسَه وجد يديه دافئتين، وثمة بصيصُ حياةٍ يخرج من فيه. كان ما و ن جيه ماراً من هناك، وتعرَّف على صديقه من القرية، فاستدعى في الحال طبيباً لعلاجِه؛ مزج معجوناً في طستٍ ووضعه على الجروح لوقف النزيف، كأنَّه يسدُّ فمَ جرَّة بقوة، ثم دسَّ في فيه القليل من عصيدة الأرز، وانتظر، وحين رآه ابتلع العصيدة قال: «لن يموت».

عاش والدُ بن يي أكثر من خمس سنواتٍ بعد أن عاد به الناس إلى ماتشياو، ورغم أنَّه أصبح بنصف رأس، ولا يستطيع القيام بأعمال الحقول أو التحدث، فقد كان بإمكانه الجلوس أسفل إفريز المنزل وصنع صنادل القش، وتقطيع علف الخنازير.

لم يستطع الرجل بنصف رأسٍ الذهاب إلى أي أماكن تجمعات، تجنباً لإخافة الجميع ولا سيما الأطفال، فاختبأ في منزله طيلة اليوم. ولم يتحمل الجلوس متبطلاً، لذا كان عليه أن يعمل، وهكذا، تمكَّن من إنجاز أمور أكثر من الناس العاديين.

أعتقد أنَّه من الصعب تصديق هذا الكلام، فضلاً عن تصوُّر شخص بنصف رأسٍ ينهك في العمل هنا وهناك، غير أنَّ كبار السن هكذا قالوا، وأصرُّوا على أنَّهم ارتدوا جميعاً صنادل القش التي صنعها والدُ بن يي الكهل بنصف رأس، لذا تركتهم يتحدثون.

النَّدْبَةُ «ما» (تتمة)

في إحدى الأمسيات الممطرة، أرسل جيشُ التحريرِ مُقَدِّماً أحدَ الأفرادِ ليلتقي ما وَنَ جِيه حاكم المحافظة عند مصباح كيروسين، لتعريفه بالوضع الحالي للبلد وسياسة الحزب الشيوعي الصيني، وحثه على الاستسلام والتخلي عن تمرده، وافق ما وَنَ جِيه، كما وافق على تولي منصبِ نائب رئيس «اللجنة الاستشارية»، والتوسع في جهودِ إقناع جيشِ العدو، والعصابات والنظام العميل بالاستسلام.

تولَّى النَّدْبَةُ «ما» منصبَ حاكم المحافظة بضعة أشهر، لكنه لم يجلس في مكتب، ولم يحصل على راتبٍ شهري، ولا يعرف حتى أين يجب أن يذهب لتلقِّي راتبه، كان لا يزال يفضل ارتداء صنادلِ القش، وبالكاد يقرأ ويكتب، إلَّا أَنَّهُ لم يكن مولعاً بكتابة الرسائل، بل يرسلُ أشخاصاً إلى العصابات، حاملين سهماً مصنوعاً من الخيزران كرمز، وأعلاه ثلاثُ بصماتٍ لأصابعه من الدم كبرهان. وحين يميزُ أفرادُ العصاباتِ بصماته ينفذون أوامره. وعموماً، أينما ذهبت هذه البصمات، يتمُّ تسليمُ السلاح؛ سلَّمت مجموعةُ «باي ما» من قوس «باي ني» في إحدى المرات ثلاثين سيفاً، ونُقِلَتْ بصوتٍ مجلجل إلى مركزِ المحافظة.

إِلَّا أَنْ مَا وَن جِيه لم يتوقع أَنَّ الأخ الأكبر لمجموعة باي ما «لونغ تو - رأس التَّين» الذي أقنعه بالاستسلام، سِيَزُجُّ به في السجن بعد شهرين ويُكَبَّل بالأصفاد.

كان مذهولاً بشدة، وذهب باحثاً عن قائد القوات العسكرية للمحافظة واستجوبه استجواباً متلعثماً، لم ينطق بكلمة حين عرض له الطرف الآخر كومة كبيرة من الأدلة الدامغة من ملف التحقيق؛ اكتشف أَنَّ مجموعة باي ما زِيَفَت استسلامها، وكانت تخبئ أسلحة وذخيرة استعداداً للفرار، كما أقنَعَ آخر يُدعى شو فلان بالاستسلام، يحمل في عنقه دماً كثيراً، وكان مسيطراً على الريف، واغتصب عدداً كبيراً من النساء... وأخيراً، رئيس أركانها، الذي كشفت الحكومة الجديدة أَنَّهُ يعمل جاسوساً عسكرياً لحزب الكوميتانغ، وأُرْسِلَ للسيطرة على مهمة «ما»، وتنفيذ اغتالات. هل يُسَمَحُ لشخص كهذا أن يُترك طليقاً بعيداً عن أيدي القانون؟

تعرَّقت جبهته عرقاً بارداً، ولم يسعه إِلَّا أن يومئ موافقاً.

عُلِّقَتْ في الشوارع الكثير من اللافتات التي تنادي بقمع الثورة المضادة بصرامة، وقيلَ إِنَّ فلاحين من أربع بلدات ذهبوا إلى مركز المحافظة لنقل حبال القش استعداداً لتقييد الناس، وقيلَ إِنَّ أحكامَ إعدام بالرصاص كانت تُنفَّذُ كلَّ يوم في سجن المحافظة، وإنَّ أعداداً كبيرة من السجناء اختفوا في ليلة، لا يُعرَفُ هل نُقلوا إلى أماكن أخرى أم أُعدموا. على أَنَّ الأقاويل الحقيقية والكاذبة أشارت في نهاية المطاف إلى ما وَن جِيه نفسه، إذ قالوا إِنَّ هذه «اللجنة الاستشارية» مرتعٌ للمستسلمين الزائفين، وإنَّه زعيمُ «المجرمين الاستشاريين». انتظر أن

تُرسل السلطات العليا أحداً للقبض عليه، انتظر أياماً ولم يحدث شيء، بل على العكس، دعت السلطات العليا لحضور هذا الاجتماع وذاك الاجتماع، كما أرسلوا له بذلة جيش التحرير الكاكية، والتي حين ارتداها ومشى في الشوارع، أصاب الناس الذين يعرفونه اضطرابٌ وتوتر، وتنحّوا إلى جانب الطريق ليفسحوا له.

هذه نهايةٌ غير واضحة، لأنَّ عددَ الأطراف المعنية قليل، ولأنَّ الأطراف المعنية لا ترغبُ في الكلام، فضلاً عن أنَّ كلامهم الذي حكوه بعد مشقّة آثار العديد من الشكوك، كما أنَّ الروايات مختلفة ومتعددة. قال آخرون إنَّ بينغ الحمار ندَّ الندبة «ما» استسلم، وتولّى وظيفة حكومية أعلى من خصمه. ورأى المدعو بينغ أنَّ أفضل طريقة لإظهار ولائه للحكومة الجديدة، هي التشهيرُ بأكبر عددٍ من الناس على أنَّهم مستسلمون زائفون. ويُقال أيضاً إنَّ ثمة تضارباً بين شعبة B وشعبة H التابعة لحزب الكوميتانغ، وأثناء الاحتلال الياباني، استخدمت كلُّ منهما قوة الشياطين اليابانيين لتُضعِف الأخرى، والآن وقد جاء الحزب الشيوعي، فكلُّ منهما تستخدم قوَّته لصدِّ وتنحية الأخرى. وبما أنَّه بمقدور الشعبة B استخدام الندبة «ما» للتحكُّم في الشعبة H، إذن، بوسع الشعبة H بالطبع استخدام الحزب الشيوعي للتخلُّص منه. كان الكل يستخدم القوى السريّة والأساليب المخادعة، فكيف للندبة «ما»، الريفيُّ الأحق، أن يكون ندّاً لهم؟

بالطبع يقول آخرون إنَّ الأمر لم يجر هكذا تماماً، ويعتقدون أنَّ العصابات استسلمت مُذعنة، وأنَّ طبيعة الندبة «ما» اللصوصية من الصعب تغييرها، وأنَّه - ولمراتٍ عدة - استعدَّ للخيانة والتمرد،

وهذه جرائمٌ شنيعة، وأنَّ الحكومةَ تغاضت عن ماضيه لموته، ليس إلا.

لم يكن بمقدوري التمييز بين حقيقة هذه التفسيرات من زيفها، لذا توجَّبت عليَّ الالتفافُ حولها، وتفسيرُ النهاية بذاتها. حتى أنني لا يمكنني بالضرورة أن أروي النهاية بذاتها بوضوح، لا يمكنني إلاً بذلُ قصارى جهدي وجمعُ المعلومات المتفرقة وربطها. ذات يوم، بعد مرور شهرين، عاد ما ون جيه من اجتماع في مكتب بلدية المحافظة، وحين أوْشَكَ على دخول المنزل سمعَ صوتَ بكاءٍ جماعي، ما أن فتح الباب، اندفعت نحوه سبعُ أو ثمانٍ نساءً بأعينٍ تملؤها دموعٌ متألثة، وبأفواه مفتوحة، توقَّفن عن البكاء فجأة، لكن النحيبَ ما لبث أن تعالَى مرَّةً أخرى بعد لحظات، وبكى معهن بعضُ الأطفال وأغرقت الدموع وجوههم.

ذهَلْ ذهولاً شديداً.

- المدير ما! حاكمُ المحافظة! يا مُعلِّم! الجُدُّ الثالث! العمُّ الثاني!... نادينه بمختلف الألقاب وهن يسجدن أمامه واحدة تلو الأخرى، وضربُ رؤوسهن بالأرض يُصدِرُ ضجيجاً هائلاً.

- لا نستطيع العيش!

- أعطنا محرّجاً!

- أعد لي حبيبي!

- لقد استسلمنا بعد الإنصات إليك! أنت المسؤول!

- لقد غادر، وترك عائلةً من سبعة أو ثمانية أفراد، كيف سأطعمهم؟!

اندفعت امرأة صوبه وأمسكت ياقة سترته وصفعته صفعة، وصاحت كأن جنونا أصابها: «أنت السبب! أعدهم لنا! أعدهم لنا!».

ذهبت زوجة ماون جيبه لتهدئة المرأة المجنونة ونصحها، وكانت ملابسها قد مَزَقَتْ بالفعل، وجُرِحَتْ يدها.

استغرق الأمر وقتاً إلى أن أدرك ما يجري؛ في الفترة التي أمضاها في الاجتماع، اندلعت حركة تمردٍ للـ «المجرمين الاستشاريين» في المحافظة، فقتلوا أولاً ثلاثة أفرادٍ من بلدة ماو لوه، ثم خططوا لأعمالٍ شغبٍ أكبر، لكنهم لم يتوقعوا سقوط رسالةٍ سريةٍ في يد الحكومة، وأن توجّه الضربة الأولى وتنفذ عقوبة الإعدام بحق زعماء أعمال الشغب، ومن بينهم أزواج هؤلاء النساء. رأين أزواجهنَّ يُستدعونَ لاجتماع، وغابوا أياماً. وفي النهاية، أخطرتهم الحكومة بالذهاب إلى مكانٍ يُدعى شارعُ العُلُق وفي استلام متعلقاتهم، كان الأمر بهذه البساطة.

تصبَّب جسده عرقاً بارداً بينما يستمع، يده خلف ظهره وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، يرفع رأسه وينظر إلى الأعلى، وتنهمر الدموع من عينيه. اتجه إلى النساء في الغرفة وصافحهن قائلاً: «أخوكنَّ يعتذرُ منكن، أخوكنَّ يعتذرُ منكن». كان يبكي بينما يفتح حقيبتَه، ويُخرجُ كلَّ النقود - وكانت أكثر من خمسين كواي - ويدسُّها في أيديهن. جففت زوجته دموعها، وجلبت من غرفة النوم، عملاتٍ صغيرةً يتركها ماون جيبه على الوسادة، على الطاولة، في الدرج، في الحمام أو الاسطبل. كان معتاداً على ترك النقود مبعثرة، ولحسن حظّه أن زوجته تجمع النقود من ورائه. ودّع الاثنان الزائرات بصعوبة وهما يبكيان.

لم يغمض له جفنٌ تلك الليلة، وحين نهض من سريره في اليوم التالي، رأى الديك أمام الباب يمدُّ عنقه، لكنّه لا يُصدِرُ صوتاً، وكان هذا غريباً إلى حدٍّ ما، دقَّ على الطاولة وهو شاردُ الذهن واكتشف أنّها لم تُصدِرُ صوتاً، لذا تعجّب أكثر. كان يعيش في معبدٍ طاويٍّ قديم، وثمة جرسٌ أمام القاعة، وقفَ وقرعَ الجرس، لكنّه لم يُصدِرُ أيَّ صوت! شعرَ بقلقٍ لا سبيلَ لتجنّبه. حرَّكَ حبلَ الجرسِ وقرعَ بقوةٍ إلى أن جاءَ الناسُ من حوله راكضين، مُحدِّقين إليه بعيونٍ فزعة. حينها أدرك أنّ الأمرَ ليس أنّ الجرسَ بلا صوت، بل أصابه الصمم. تركَ الحبل ولم ينطق بكلمة.

بعد تناوله العصيدة التي أعدتها زوجته، تنهَّد واستعدَّ للذهابِ إلى الطبيب، وفي اللحظة التي خرجَ فيها من الزقاق، صادف حشداً كبيراً في الشارع الرئيس، يتظاهرُ لقمع الثوريين المُعادين، وحفلَ تأبينٍ لشهداء الثورة الثلاثة من بلدة باو لُوِه. كان المواطنون المسلحون والتلاميذُ يهتفون متّجهين إلى السجن. لم يعرف ما الذي يهتفون به وأفواهُهم مفتوحة.

توقّف عن المشي، ثم اتكأ على الجدارِ وعاد أدراجَه على مهل. عدّد الخطواتِ من منزله إلى مدخلِ الزقاق إحدى وخمسون خطوة، وعودته من مدخلِ الزقاق تقريباً إحدى وخمسون خطوة، بالضبط عددُ سنواتِ عمره.

«كيف يُعقّل أن يكون عددُ الخطواتِ إحدى وخمسين خطوةً بالضبط؟» كان متفاجئاً قليلاً.

أعطته زوجته مظلةً، وحثته على الذهابِ إلى المستشفى.

- «أخبريني، كيف يُعَقَّلُ أن يكون عددُ الخطواتِ إحدى وخمسين بالضبط؟».

قالت زوجته شيئاً، لكنه لم يسمعه.

- ماذا تقولين؟

كان فمُ زوجته يُفَتِّحُ ويُغَلِّقُ بلا صوت.

تذكَّر مجدداً أنَّه أصبح أصمّ، فلم يسأل مرّةً أخرى، بل أوماً برأسه، «عجيب، عجيب».

بعد الظهيرة، زاره أحدُ الأطباءِ من أصدقائه لفحصِ أذنه، طلب بعض الأفيون من ضيفه، سأله الصديقُ ملوِّحاً بيده في إشارة، إِنَّكَ تمارسُ التمارين والشعائر الطاويةَ كلَّ يوم، ألا يُفترضُ بك عدمُ التدخين؟ ضرب على جبهته فيما معناه أنَّه أُصيبَ بنزلة برد، ويريد بعض الأفيون لتخفيفِ النزلةِ وأعراضِها، فأعطاه صديقه كيساً.

كان مساءً ذلك اليومِ ممطراً، بعد أن أدّى شعائره الأخيرة، ابتلع الأفيونَ وانتحراً! كان يرتدي ملابسَ نظيفة، ولحيتهَ محلوقة، حتى أنَّه قصَّ أظافره بعناية.

حسبما قال معظمُ الناس، لا مبررَ لانتحاره، فلم يكن معرضاً للخطر. ورغم أن بعضَ الاتهاماتِ كانت تحومُ حوله، كالقول إنَّه قرر الاستسلامَ لحزب الكوميتانغ، أو أن أتباعه قتلوا بعضَ العامةِ أثناءَ عملياتِ النهب، فإنَّه كان -بعدَ كلِّ شيءٍ- شخصيةً بارزة، وقدمت استشارته مساهماتٌ كبيرةٌ للحكومة الجديدة. والأكثرُ من ذلك، أنَّه وأحدُ كبارِ قادةِ الحزبِ الشيوعي كانا زميلين في تعلُّمِ حرفةِ النجارة، وكان يحمي عائلةَ هذا

القائد ويرسلُ لها الأرز. في اليوم الثاني بعد انتحاره، جاء رئيسُ قسمٍ من المقاطعة ليوصلَ شخصياً رسالةً كتبها الضابطُ الكبير. في نهاية الرسالة، دعاه الضابطُ الكبيرُ لزيارة العاصمة في الوقت الذي يناسبه، لاستعادة الأيام الخوالي.

كان ممدداً بالفعل في حصيرة الموتى المصنوعة من القش، ولم تتسنَّ له قراءة الرسالة. وبعد تلقي حكومة المحافظة تعليماتٍ من مكتب مفوض المحافظة والمقاطعة، اشترت له نعشاً وزوجاً من الشموع البيضاء ومفرقاتٍ نارية.

قرعُ أرضِ العُليق

إن ذَكَرَ شارعُ العُليق، فإنَّ أهلَ ماتشياو لا يعرفونه، حتى المناطق القريبة من القرية لا تعرفه، ولا سيما الشباب.

اختفى شارعُ العُليق منذ سنواتٍ طويلة. إن خرجتَ من البوابة الشرقية للمحافظة عبرَ شارع سان لي هوا، وعبرتَ نهرَ لُوِه، سترى حقولاً مستويةً لزراعة القطن أو البطاطا الحلوة، وإلى الشمال تعلو التضاريسُ قليلاً، حيث في الأعلى أحجارٌ متناثرةٌ وأعشابٌ جافة، وكوخان من القشّ أقما لحارسين. وإن اقتربت -على الأرجح- سترى روثَ بقَرٍ أو أفصاصَ دجاج بين الأعشاب، أو فردةَ صندلٍ من القش. هذا هو شارعُ العُليق، يكتب الناسُ اسمه الآن أرضِ العُليق، أرضِ البئر، أو حصن أرضِ العُليق. تصعبُ على الأجيالِ الشابة معرفةُ أنَّ هذا المكانَ كان في الماضي «شارعاً» رغم أنَّه يضجُّ بأكثرٍ من مائةِ عائلة، وبه معبدٌ كونفوشي شهير.

أصبح شارعُ العُليق اسماً دون معنى آني، وأرضاً قفراً.

لم يُستخدم اسمُ شارعِ العُليق إلا في قصة ما وُن جيه، حينها فقط أصبح اسماً ضرورياً، ورغم ذلك، لم يكن -بين بعضِ الناس- إلا مسألة تأجيلٍ لخرابٍ حتمي لعقود عدة. حدثت أعمالُ الشغبِ التي

أثارها «المجرمون الاستشاريون» في ذلك العام في ذلك المكان. أُمِرَ أكثر من خمسين زعيماً من زعماء العصابات الذين استسلموا لـ «اللجنة الاستشارية»، في المرحلة الأخيرة من الدراسة الجماعية، أن يشاركوا في الأعمال ويحفروا بركة مياه. بعد أن انهمكوا في الحفر وحمل الرمال مغمورين في عرقهم لثلاثة أيام، وما أن انتهوا من حفر البركة، سمعوا أصوات البنادق الرشاشة المتوارية فوق أسطح المنازل، أصواتاً كانت في البداية شديدة الغرابة، وشديدة البعد. أثار وأبل الرصاص زوبعةً ودويًا، لم يشعروا باختراق الرصاص لأجسادهم، بل ارتفع ضباب الغبار من أكوام الطين خلفهم، وتناثرت الرمال في الأرجاء، وبدأ جلياً أن شيئاً انفجر قربهم، وفي الوقت ذاته تفتحت سلسلة من زهور الغبار على جانب آخر منهم. ربما فهموا ما المعدن وما السرعة، وأدركوا مدى سلاسة وسرعة ومدى صعوبة إغفال اللحظة التي تخرق فيها الرصاص المعدنية الجسد، وفي النهاية، تساقطوا واحداً تلو الآخر في البركة التي انتهوا من حفرها للتو.

وإلى ما بعد العام ١٩٨٢، حين أعلنت الحكومة أن «أعمال شغب اللجنة الاستشارية» قضيةٌ أُسيء الحكم فيها، ناجمة عن أسباب معقدة مختلفة، حينها بدأ الناس يتحدثون عن الواقعة، ويذكرون مجدداً هذا الاسم الغريب: شارعُ العُلُق. يقول بعض كبار السن، إنَّ شارعَ العُلُق أصبح مسكوناً بالأشباح منذ واقعة الرشاشات، وإنَّ منزلاً بعد الآخر كان يشتعل لسبب مجهول، إذ اشتعلت سبعة منازل في أقل من سنتين، كما وُلِدَ الكثير من الأطفال، وفي أقل من سنتين كذلك وُلِدَ ثلاثة أطفالٍ بلهاء. يقول سيدُ الفينغ شوي، إنَّ ثمة عفاريت «حكومية» هناك، وإنَّ أسماك

البركة لا تستطيع مواجهتها، لذا كان لا بُدَّ من احتراق بعض البيوت. أمَّا بالنسبة لأشباح «الحكومة - guān 官»، فكان يقصدُ الكوارث التي تحلُّ بالحكومة، و«guan» تشابه النطق الصوتيَّ لكلمة «棺 - guān» ومعناها التوابيت، أي أنَّ أرواحَ الأموات لا تزالُ مُعلَّقة. غمغم سيدُ الفينغ شوي بهذه الجملة، لكنَّ لا أحدَ من الحاضرين انتبه إليها. بدأ بعضُ الناسِ يحفرون داخلَ المنزلِ وخارجَه، بعمقِ عدَّةِ أقدام، واستخرجوا وأزالوا جميعَ البقايا الخشبية التي اشتبهوا أنَّها توابيتُ متعفَّنة. وحفروا بركةً جديدة، ووضعوا بها آلافَ الأسماكِ الصغيرة، لتعزيزِ إمكاناتِ المياه، والتغلُّبِ على النارِ بالماء. الغريبُ أنَّ الأسماكَ لم تستطع العيشَ في هذه البركة، وتحولت جميعُها إلى اللونِ الأبيضِ في أقلَّ من شهر. وأخيراً، اشتعلت النيرانُ في متجرٍ لصناعةِ المِظَلَّاتِ في الجهةِ الشرقيَّة للشارع، وفقد الناسُ شيئاً فشيئاً الثقةَ في مكافحةِ النيران، واضطروا إلى الانتقالِ عائلةً تلوَ الأخرى، ولا سيما إلى منطقةِ خليجِ هوانغ.

في نهايةِ الخمسينيات، هُجِرَ شارعُ العُلَيِّق تماماً، وتحوَّلَ إلى أرضٍ قفر، حتى البئرُ هُدِمت، وتكاثرت يرقاَتُ البعوض .

على أنَّ المكانَ تحوَّلَ هناك إلى حقْلٍ جيد، وقيلَ إنَّه كان خصباً، صالحاً لزراعةِ القطنِ والبطاطا الحلوة، ويُنتِجُ نوعاً من القرعِ الحلو ذا مذاقٍ مُسَكِّرٍ جداً، سرعانَ ما اكتسبَ شهرةً كبيرة. في بعضِ الأحيان، إن أراد بائعو المحافظة جذبَ الزبائن، ينادون بنبذةٍ واثقة: «اشتروا اشتروا، قرعَ أرضِ العُلَيِّق من حصنِ أرضِ العُلَيِّق...».

كان البعضُ يُطلقُ على هذا القرعِ «قرعُ الأرضِ الذهبية»، ويعلِّقُ اليافطةَ على أكشاكِ البيع.

العام ١٩٤٨ (تلمة)

ظننتُ في السابق أنَّ الزمنَ في أيِّ مكانٍ هو شيءٌ له سرعةٌ ثابتةٌ وكميةٌ محددة، كسائلٍ شفافٍ يتوزَّعُ متساوياً، وباعتدالٍ ودقَّة. لا، في الواقع تشعرُ أجسادُنا بالزمن، على سبيل المثال فنحن -وبهذا الترتيب- نُولد، نكبر، نشيخ ثم نموت. لكنَّ الإنسانَ ليس شجرة، وليس حجراً، وربما عدا الوقتَ المعتاد، فإنَّ الوقتَ كإدراكٍ ذاتيٍّ هو الأكثرُ أهميةً للإنسان.

دائماً ما تكونُ طفولةُ المرءِ طويلة، وفي الأوقاتِ المضطربة والخطيرة والمؤلمة تطولُ مشاعرُ المرءِ أيضاً. ولا شكَّ أنَّ هذه الحالة شعورٌ نابعٌ من أحاسيسِ المرءِ الاستثنائية، وصفاءِ ذاكرته، وما يكتسبه من معارفٍ جديدةٍ غنية. وبالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون بعضَ الأيامِ المريحة والرتيبة، يمكننا أن نرى الوضعَ المعاكسَ في الحياة التي يُحاكي فيها اليومُ الواحدَ مائةَ يوم، ويحاكي فيها العامُ عشرةَ أعوام: أنَّ الزمنَ لا يطول، لا يكبرُ ولا يزيد، بل يتسارعُ وينكمشُ أكثرَ فأكثر، إلى أن يتحوَّلَ إلى صفر، ويختفي بلا أثرٍ في لمحِ البصر. وذاتَ يوم، يكتشفُ المرءُ فجأةً أنَّ المسنَّ في المرأة هو نفسه، ولا يسعه إلاَّ التحديقُ برعب.

وبالمبدأ ذاته، فالزمنُ القليلُ الذي نعرفه، كزمنِ القدماءِ على سبيلِ المثال، أو مواقيتِ البلدانِ البعيدة، يكونُ دائماً غائماً وضبابياً بدرجةٍ كافيةٍ لتجاهله، ككلِّ شيءٍ بعيد، يصبُحُ في مدى بصرنا ضئيلاً كالغبار، لا فرقَ بينه وبين العدم. حين قرأتُ الرواياتِ الأميركيةَ في الماضي، اكتشفتُ أنَّني أخلطُ على الدوامِ بين زمنِ العشرينياتِ والأربعينياتِ في ذلك البلد، كما بدا لي أنَّ القرنَ الحادي عشر والقرنَ الخامس عشر في بريطانيا هما الشيءُ نفسه. تملكِتنِي دهشةٌ خفية، إذ كيف لأجيالٍ لا يمكنُ الخلطُ بينها، أو تجاهلُ مسارِ حياتِها وموتِها في رواية، أجيالٍ امتدَّت لعشراتِ أو ربما لمئاتِ السنوات، أن تحتفي هنا حيث أكون، على مهل، لماذا هي قصيرةٌ جداً للحدِّ الذي لا يسعني إلا أن أقلبَ الصفحةَ أو حتى أثناءه؟ السببُ بسيطٌ للغاية: لأنني بعيد، لا يمكنني رؤيةَ كلِّ شيءٍ هناك بوضوح.

الزمنُ هو فريسةُ الإدراك.

يتجلَّى الزمنُ البشريُّ في الإدراك، وأصحابُ الإدراكِ الضعيفِ أو فاقدو الإدراكِ تماماً مثل مرضى الحالةِ النباتية في المستشفيات، ليس لديهم شعورٌ حقيقيٌّ بالزمن. الزمن، هذا السائلُ الشفافُ لا يتدفقُ مطلقاً بكميةٍ متساويةٍ وسرعةٍ ثابتة، بل يتشوَّه بهدوءٍ وفقاً لقوى الإدراكِ المختلفة، يمتدُّ أو يقصر، يتكثَّفُ أو يتسرَّب، ينتفخُ أو ينهارُ بشكلٍ غير محسوس.

تكن المشكلةُ في أنَّ الإدراكَ يختلفُ من شخصٍ إلى آخر، أي أنَّ إدراكَ المرءِ يختلفُ باستمرارٍ باختلافِ الموقف. إذن، في كومةٍ ضخمةٍ من شظايا عدساتِ الإدراكِ المحطَّمة، هل يمكننا الاحتفاظُ بصورةٍ

موثوقة وثابتة للزمن؟ وزمنٍ موحد؟ حين نتحدّثُ عن ١٩٤٨، عن أيّ نوع من قوى الإدراكِ المتعلّقةِ بالعام ١٩٤٨ نتحدّث؟ في ذلك المساءِ المُعتمِ المُمطر، في مطعمٍ صغيرٍ للتوفو محاذٍ للنهر، بكى غوانغ فو من أجل والده، ثم تحدّث عن جذور اللوتسِ قائلاً: إنّ جذور اللوتسِ في الماضي كانت حلوة، تصبحُ هَشَّةً بشكلٍ استثنائيٍّ بعد غليها، ولا يمكنكُ تناولُ مثلها الآن. وقال: إنّ جذور اللوتسِ الآن يُضافُ إليها السمادُ الكيماوي، فكيف ستكونُ لذيذةً كالسابق؟

تملكتني شكوكٌ خفيّةٌ حيالَ هذا الكلام. كنتُ أعلمُ أنّ بعضَ الأماكنِ تستخدمُ السمادَ الكيماويّ بإفراط، ما يؤثّرُ على جودةِ المحاصيل، لكنّ معظمَ جذور اللوتسِ طبيعيّة، ولا فرقَ بينها وبين جذور اللوتسِ التي يتحدّثُ عنها غوانغ فو المسن. راودني شكٌّ في أنّ مذاقَ جذور اللوتسِ لم يتغيّر، بل حاسةُ تذوقِ غوانغ فو هي التي تغيّرت. كان هذا أمراً طبيعياً بعد أن كبرَ سنه، ومع ابتعاده شيئاً فشيئاً عن سنواتِ الجوعِ وإصابته بمرضِ الكلى. غالباً ما نُجملُ الأشياءَ الماضية، كجذور اللوتسِ، أو كتاب، أو أحدِ الجيران، لأنّنا ننسى الموقفَ الذي ولّدَ استحساناً في ذلك الوقت، حتّى أنّنا نشعرُ أنّ تجربةَ مؤلّةٍ في الماضي رائعة، لأنّنا نعدّها أثراً رجعيّاً للسبب، ولم نعد نشارك فيها بعمق، فتوقف عن الشعورِ بالألمِ ونقدّرهُ.

لذا فإنّ ذلك الزمنَ الذي هو فريسةُ الإدراك، بدوره، يغيّرُ تصوراتنا. إلى أيّ درجةٍ كان كلامُ غوانغ فو معي حول العام ١٩٤٨، حقيقةً، صادقاً ودونَ تغيير؟ إلى أيّ درجةٍ كان مختلفاً عن ذاكرتهِ ومعتقداتهِ المثيرة للشكوكِ حول جذور اللوتسِ؟

تحدّث معي غوانغ فو عن قضايا إعادة الاعتبار لـ «اللجنة الاستشارية» التي تعيدُ الحكومة النظر فيها مؤخراً، قائلاً إنّ الحزب الشيوعي في النهاية ليس بسيطاً، وإنّه يُصلحُ الأخطاء التي ارتكبتها، ويلعقُ البصاق الذي بصقه، وإنّ هذا ليس أمراً من السهلِ عمله. اكتشف أنّ علبةَ السجائرِ فرغت حينما قال ذلك، فطلب من ابنه الذهابَ لشراءِ سجائر، وزجاجةٍ من الصودا لإكرام الضيف. كان ابنه في الثانية أو الثالثة عشر من عمره، لمعت عيناه حين سمع كلمة الصودا، وهرع إلى الخارجِ حافي القدمين. لم يشتِرِ السجائر والصودا فحسب، بل سارع بفتحِ الزجاجةِ بأعوادِ الطعام. بوووم - ذُهلَ للحظة، ثم بحث في المكان لبعض الوقت، وبحث في عتمة أسفل السرير، ومؤخرته المدببة ترتفع عالياً، على الأرجح لم يعلم إلى أين طارَ غطاءُ الزجاجةِ الصفيح.

خرج وعلى رأسه شبكة عنكبوت وقال إنّهُ لم يرَ شيئاً، ثم نفَضَ يديه وأخذَ زجاجةَ صودا وذهبَ إلى الخارجِ ليشربها، وهو يدندن أغنيةً رائجةً بإيقاعٍ نَساز.

سأله غوانغ فو بغضبٍ شديد: «هذا كلُّ شيءٍ إذن؟ ها؟».

- بحثتُ مرّاتٍ عدّة، لم أعثرُ على شيء.

- هل نَمَتَ له أجنحة؟ طارَ إلى السماء؟

لم أفهم لماذا يولي غوانغ فو اهتماماً بغطاءِ زجاجةِ صودا هكذه؟ ربما بوسعه استبدالها بنقود؟ أم هو غاضبٌ من السلوكِ المستهترِ لابنهِ؟

أجبرَ الصبيّ على البحثِ مجدداً، وتوقّف عن الكلامِ معي، وساعدته أنا أيضاً في نقلِ كومةٍ من الفحمِ من زاويةِ الجدار، ونقلِ دلاءٍ خشبيةٍ

ومعاولَ وغيرها من تلك الأشياء التي أصدرت صوتَ قعقعة، والتحقيقُ مرّةً بعد أخرى من الأماكن التي ربما اختفى فيها غطاءُ الزجاجَة، كان يتوعّدُ الغطاء: «هل تختبئُ يا ابنَ العاهرة! هل تختبئُ؟ سأعلمُ أين تتوارى!».

بالطبع لم يتوقّف عن توبيخِ الصبي: «ابحثْ يا بهيمة! ابحثْ! أنتَ أميرٌ نبيلٌ؟ دعني أسألك، لو لم يمنحني الحزبُ الشيوعي إعادةَ اعتبار، أكنتَ ستفكّرُ في شُرْبِ الصودا؟ أو ستفكّرُ في ارتداءِ الأحذية الجلدية المريحة؟ أو الذهابِ إلى المدرسةِ الثانويةِ مع قلمٍ حبرٍ في جيبك؟ أو شكّتُ على الموتِ حين كنتُ في فترةِ الإصلاحِ عن طريقِ العمل، ودهمني الجوعُ حتى أنّي كنتُ أستخرجُ العشبَ من روثِ الماشيةِ وأتناوله».

تجهّم وجهُ الصبي ومطّ شفتيه، ثم ركلَ قطعةَ فحم.

- «تركُلُ الفحم، يا لصيقَ الخنازير!» ثم ضربَه مدرّسُ التربية الرياضية على رأسه.

رفع الصبيُّ ذراعيه لصدّ الضربات، وعلى الأرجح استخدم قوةً أكثرَ من اللازم، ودفع والدَه خطوتين إلى الخلف، وكاد أن يسقط. «تجرؤُ على ضربِي؟ تجرؤُ على ضربِي أيها الحيوان؟» ثم انتزع زجاجةَ الصودا من يدِ الصبي وقال: «سأدفنُك حيًّا!».

اندفعَ الصبيُّ إلى البابِ لاهثاً بغضبٍ وشمّ قائلاً: «أيها النذلُ المسن! يا قاطعَ الطُّرق! كيف لك أن تكون مُعلِّماً وتضرب الآخرين بلا سبب؟» ثم أرسل سيلاً من الشتائم: «هل تعتقد أنّنا ما زلنا في المجتمع القديم^(١)؟ تظنُّ أن بوسِعِكَ ترهيبُ الآخرين، وجلبُ التعاسةِ

(١) يشير عموماً إلى المجتمع الصيني شبه المستعمر وشبه الإقطاعي قبل العام ١٩٤٩.

لهم، والتفريطُ في سيادة البلادِ وجلبُ العارِ لها؟» استخدمَ عباراتِ بلاغية. «أنتَ تستحق! تستحقُ أكلَ روثِ الماشية! سأكونُ أفضلَ حالاً إن حُبِسْتَ في السجن، سأكونُ رئيساً في المستقبل، وأنظّمُ حملاتٍ! لن أَمْنَحَكَ ردَّ الاعتبارِ هذا، تذكّرْ كلامي!».

- أنا أنا أنا...

وقفتُ الكلماتُ في حلِقهِ كلما حاولَ الشتيمة، كما لم يلحقَ بابنهِ رغمَ أنّه أستاذُ تربيةٍ بدنية، وكان يرتجفُ من شدةِ الغضب. لحسن الحظِ أنّي كنتُ أسنده، وعدنا إلى المنزلِ ليجلسَ ويهدأ. انتبאתني الدهشةُ من سلوكِ الصبي تجاهه. بالطبع قِيلَ كلامٌ في لحظةِ غضب، ولا مبررَ لأخذه على محملِ الجِد. إلّا أنّ نَبَشَ جراحِ والدِهِ بهذه الطريقة، يوضّحُ على الأقلِ أنّه لا يحملُ المأمرَ اتجاهَ الماضي، وأنّه لا يمكنُ مقارنةُ أيِّ حكمٍ خاطئٍ على قضيةٍ بأهميةِ زجاجةِ الصودا. أدركتُ في هذه اللحظةِ غموضَ الزمنِ مجدداً. مثلُ كثيرٍ من الناس، اعتقدَ غوانغ فو أنّ أيَّ شخصٍ يمكنُ أن يتعاطفَ مع معاناتِهِ. كلُّ شيءٍ يُقوِّلُهُ الزمن، يمكنُ أن يصبحَ أصلياً مثلَ الآثارِ الثمينة في المتاحفِ المُعترفِ بها عالمياً، وانطلاقاً من هذا النقطة، كان مثلُ والدي أو الكثيرِ من الأجيالِ السابقة، يُرشدون، يُعلِّمون الجيلَ الأصغرَ من خلالِ إعادةِ النظرِ في الأحداثِ الماضية، كالحديثِ عن الفترةِ التي قضاها في السجن، المجاعة، روثِ الماشية، أو العام ١٩٤٨.

لم يتوقَّع أنّ الزمنَ ليس أثراً تاريخياً، وأنّه وابنه لم يملكا وقتاً موحداً للتعايشِ والمشاركة. لذا حين أعادت الحكومةُ اعتبارَ والدِهِ العام ١٩٤٨، لم تخصَّصْ له واحدةً في الوقتِ ذاتِهِ، فركلةُ الصبيِّ القويّةُ للفحمِ تُظهرُ

أنه غير مهتم أو حتى يشعر بالاشمئزاز من الأحداث الماضية بما في ذلك
١٩٤٨.

يبدو أن لا منطق في ذلك، إذ إن الصبي لم يختبر الماضي، لكن بوسعه
على الأقل أن يشعر بالفضول تجاه هذا الماضي الغريب، وأن يستمتع
مثل الأطفال بالأساطير القديمة، عوضاً عن ركلها بغضب. التفسير
المنطقي الوحيد هنا هو: أنه ليس معادياً للماضي، بل للأثر القديم الممتد
في الحاضر، معادٍ للماضي في هذا المساء القاتم، الماضي المتمثل في غرور
والده ومحاضراته المتقدمة والموبخة، الماضي الذي انتزع نصف زجاجة
الصودا من يده.

بكى غوانغ فو من فرط غضبه، ما جعلني أتذكر سياسة ظلمت
عائلته، وتلك السياسة تنص على: «أن الموظفين في الإدارات أو الحاصلين
على رتبة ملازم أو أعلى من الذين عملوا في الحكومة القديمة قبل العام
١٩٤٧ هم تاريخياً معادون للثورة». والمعنى الضمني الفلسفي لهذا الحد
الزمني المطبق على أي شخص، أن الكل يعيش في الزمن ذاته، الكل بلا
استثناء. لكن بعد سنوات، أدرك الناس أخيراً أن هذه السياسة كانت
بسيطة للغاية، وأن غوانغ فو نفسه شعر بالسعادة بعد هذه المరాة بسبب
إلغائها. لكن على ناحية أخرى، منح الآخرين ما لا يريدونه، وفرض على
نفسه وعلى ابنه استمرار العيش في تصوّر زمني موحد، دون استثناءات.
فهو لم يخلط بين الماضي وبين الأثر القديم الممتد في الحاضر، بل خلط بين
ماضيه وماضي الآخرين، اعتقاداً منه أنه ينبغي على ابنه التألم من الماضي
لأنه يتألم من الماضي، أو ينبغي عليه تقدير الحاضر، لأنه يُقدّر الحاضر.
كان ينبغي على العام ١٩٤٨ الضخم والمهم في فؤاده، أن يكون له الحجم

والوزن ذاته في قلب ابنه، دون أن ينقص أو يتبدد، فضلاً عن أن يراه
عدمًا. لكنّه لم يتوقع أنّ العام ١٩٤٨ بالنسبة لابنه بعيدٌ وغائمٌ مثل زمن
أسرة تشينغ، وأسرة تانغ، وأسرة هان، ليس له علاقةٌ به على الإطلاق،
وأنّ ابنه يعيش خارج نطاقِ زمنِ والده، وأنّ غطاءً صغيراً من الصفيح
جعل ابنه يتوصّل إلى نتيجةٍ أخرى مفادها:

- «أنت تستحقّ السجن!»، «سأكون أفضل حالاً وأنت في السجن».

ربما، منذ هذا المساء، وفي محل التوفو الصغير ذاك، أصبح ماضيها،
بها في ذلك العام ١٩٤٨، منقسماً إلى حدٍّ أنّه لم يعد من الممكن وصله.

بعوض الجيش

بعوضٌ حجمه صغيرٌ جداً، شديدُ السواد، وإن أمعنت النظرَ سترى على رأسه نقطةً بيضاءً صغيرة. البقعةُ الحمراءُ الناتجةُ عن لسعته لا تُعد صغيرة، لكنها تصيبُ حاملها بحكةٍ شديدة، قد تستمر نحوَ ثلاثةِ أيام. أطلقَ عليه أهل ماتشياو اسم «بعوض الجيش». ويُقالُ إنَّ هذا النوعَ من البعوض لم يكن منتشرًا في ماتشياو من قبل، وإنما بعوضُ الفاكهة فحسب، ذلك النوعُ الرماديُّ السمين، والبقعةُ الناتجةُ عن لسعته كبيرة، تختفي بعد فترةٍ قصيرة، ولا تثيرُ حكةً شديدة.

يقولُ أهلُ ماتشياو، إنَّ جيشَ المقاطعة جلبَ هذا النوعَ من البعوض، فحين جاء بينغ الحمار مع جيشه إلى تشانغ لي، ومكثوا عشرةَ أيام، خلّفوا بعد رحيلهم أكواماً من شعرِ الخنازيرِ وريشِ الدجاج، وخلّفوا هذا البعوضَ السّام.

ومن هنا جاءت بداية تسميته بـ «بعوض الجيش».

اختبرتُ البعوضَ حين عشتُ في الريف، لا سيما أيام الصيف؛ بعد الانتهاء من العملِ في وقتٍ متأخّرٍ جداً، يُصدِرُ البعوضُ طنيناً عالياً، ويهجمُ على وجهك وقدميك العاريتين، لدرجةٍ أنَّه يمكنه رفعك. يعود

الناس إلى منازلهم جائعين بشدة، ولا تمتدُّ أيديهم إلا لتناول الطعام، وليس إلى أيِّ شيءٍ آخر، لذا كنَّا نلتهمُ الطعامَ كذئابٍ بينما ينبغي علينا ترقيصُ أقدامنا. نرقصُ أوقاتَ تناولِ الطعام، وإن توقَّفنا للراحة، قد نصبحُ فريسةً للبعوضِ المتوحش. كنَّا نحزُّرُ أيدينا في بعض الأحيان ونفركُ سيقاننا، فنفركُ بعضَ جثثِ البعوض. اعتاد الناسُ فركَ البعوضِ لا ضربه، لأنَّ الأيدي والسيقانَ من أجسادهم أيضاً، لا يمكن أن تتحمَّلَ الضرباتِ المتكررة التي لا حصرَ لها.

في الليل، يبدو أنَّ البعوضَ يصيبُه الإنهاكُ كذلك، فيرتاح، ويخفُّ طنينه قليلاً.

العائلة العامة

حقول الأرز في ماتشياو مختلفة الأشكال، متداخلة ومتعرجة، تقع في وادٍ بين جبلين، وتهبط بهدوءٍ حقلاً تلو الآخر ناحية بلدة تجانغ جيا فانغ، صوب أدخنة المطابخ ونور القمر. يُدعى هذا المكان «التيار الجاري القوي»، ويعرف الغرباء فور سماع الاسم أن حقولاً جارية كثيرة في هذه المنطقة. وما يُسمى الحقول الجارية هي حقول الأرز التي تقع في المناطق الجبلية، حيث تتجاوز كمية المياه الساكنة المياه الجارية، لذا تُنتج طيناً بارداً، والكثير من الشقوق العميقة المتوارية، التي إن سقطت فيها لن ترى ما فوق السطح، ومواقعها مألوفة فقط للذين يعملون في الحقل على الدوام.

تعرف ماشية ماتشياو هذه الشقوق أيضاً، فتتوقف فجأة عند الوصول إلى واحدة منها، ويجب على الرجل المسؤول عن المحراث أن ينتبه لها عن كثب.

لهذه الحقول أسماء خاصة بها، أو مسميات حسب أشكالها: حقل السلحفاة، حقل الأفعى، حقل اللوفة، حقل الشبوط، حقل المقعد الخشبي، حقل قبعة البامبو، أو مسميات حسب كمية الشتلات التي يسعها الحقل:

حقْلُ الثلاثِ شتلات، حقْلُ الثماني شتلات وغيرُها. وهناك تسمياتٌ حسب الشعاراتِ السياسية: حقْلُ الاتحاد، حقْلُ القفزةِ إلى الأمام، حقْلُ حملةِ التطهيرِ الأربعةِ والعلمُ الأحمر. ولهذا، لم تكفِ المسمياتُ للتعاملِ مع هذه الحقولِ المجزأةِ وكثيرةِ العدد، لذا كان لا بُدَّ من استعارةِ أسماءِ بعضِ الأشخاص، أو إضافةِ اسمِ الشخصِ أمامَ اسمِ الحقْلِ للتمييزِ بينها، على سبيلِ المثال «حقْلُ الثلاثِ شتلاتٍ لعائلةِ بنِ بي» و«حقْلُ الثلاثِ شتلاتٍ لعائلةِ تجي هوانغ»، يشيرُ إلى حقليْنِ منفصلين.

ليس صعباً إدراكُ أنَّ هذه الحقولَ كانت ملكاً للأفرادِ أو مُنِحتْ لأفرادٍ أثناءَ الإصلاحِ الزراعي، ومن الطبيعي جداً أن ترتبطَ بأسماءِ أصحابِ الأراضي.

مرَّت عشرُ سنواتٍ منذ بدايةِ الزراعةِ الجماعية، وفوجئتُ بأنَّهم ما زالوا يتذكَّرون جيداً أسماءَ حقولِ عائلاتهم، حتى الأطفالُ الذين في عمرٍ كبيرٍ إلى حدٍّ ما، يعرفون أين كانت مواقعُ حقولِ عائلاتهم في الماضي، وأيُّها كان «يرغبُ» أم «لا يرغبُ» في زراعةِ الشتلات، وعند وضعِ السماد، يضعون كميةً أكبرَ، وإن أرادوا التبول، يكونون على استعدادٍ لحلِّ سراويلهم هناك. في إحدى المرات، داس أحدُ الأطفالِ على قطعةِ خزفية، أو شكت على جرحِ قدمه، فألقاها بغضبٍ إلى حقْلِ آخر. فوراً، حدَّقت فيه امرأةٌ تقفُ بالقربِ منه وقالت: «أين ترمي هذا؟ أين ترمي هذا؟ أتريد العراك؟ سأؤخزُك بأعوادِ الطعام!».

كان هذا في الأصلِ حقْلُ عائلتها، منذ وقتٍ طويلٍ جداً. يثبتُ تذكُّرُ هذه المرأةِ المستمرُّ لحقْلِ عائلتها الخاص، أنَّ الملكيةَ العامةَ للأراضي في ماتشياو كانت حتى أوائلِ السبعينيات مجردَ نظامٍ ما،

لم يتسلل بعد إلى المشاعر، على الأقل ليس إلى الجميع. بالطبع، النظام والعاطفة ليسا الأمر ذاته، فضلاً عن كل الحقائق التي تصطبغ أسفل النظام؛ في ظل نظام الزواج، بوسع الزوجين أن يناما على السرير ذاته ويحلمان أحلاماً مختلفة ويكون كل منهما على علاقة بآخرين (أي يمكن أن نسّميه «زواجاً»؟). وفي ظل الإمبريالية، ربما تقع السلطة في يد حزب آخر يدير الشؤون من خلف الستار (أي يمكن أن نسّميه «النظام الإمبريالي»؟). وعملاً بالمنطق ذاته، عندما يذهب العديد من أهل ماتشياو للتبؤل في حقولهم التي كانت خاصة فيما مضى، فإن ملكيتهم العامة، ومفهومهم عن «العائلة العامة» على الأرجح متزعزعٌ قليلاً.

بالطبع لا يمكن القول إنهم يتوقون للملكية خاصة، في الواقع، لم يكن لدى ماتشياو ما يكفي من الملكية الخاصة. أخبرني أهل القرية، أنه حتى قبل جمهورية الصين، كانت حقوقهم الخاصة تضمّ التحكم فقط بثلاث بوصاتٍ من «الطين» على سطح الحقل، أي ثلاث بوصاتٍ من الطين العائم. أقل من ثلاث بوصاتٍ كانت ملك الإمبراطور والدولة. كل الأراضي تحت السماء، ملك للحاكم، يفعل المسؤولون الحكوميون ما شأؤوا، وليس لملّك الأراضي حق في منعهم. بمعرفة ذلك، ربما يمكن للغرباء فهم إنشاء ماتشياو للتعاونيات، ورغم أنه كان صعباً ألا يتدمر بعض الناس في الخفاء، فإنهم انضموا ما أن أصدرت الحكومة أوامرها، دون التفكير بعمق في الأمر.

ومن جهة أخرى، فإنهم يضيفون كلمة «عائلة» عند الحديث عن «العام» و«الخاص»، وهذه النقطة تختلف عن اللغات الغربية، فالخاص في الغرب يشير إلى خصوصية الشخص. عندما تتعلّق الملكية بالعلاقة بين

الزوج وزوجته، وبين الأب وابنه، هناك حدود واضحة للحقوق الخاصة. العائلة الخاصة بالنسبة لأهل ماتشياو هي العام داخل الخاص، أي ضمن العائلة، ليس ثمة فرق بين ما هو لي وما هو لك. ويشير العام في الغرب إلى المجتمع العام، فكلمة «public» في اللغة الانجليزية، هي مزيج مواز من الكيانات الخاصة المتساوية، والتي تكتسب عادة أهمية سياسية فقط، ولا علاقة لها بالأمور الفردية مثل الخصوصية. العائلة العامة في ماتشياو، تعني الخاص داخل العام واعتبار العام «عائلة»؛ الشجارات بين الأزواج، علاقات الحب بين الشباب، دفن كبار السن، دخول الأطفال المدرسة، ملابس النساء، تباهي الرجال، وضع الدجاج للبيض، اندساس الفئران في الجدران، تتولى العائلة العامة كل الأشياء الخاصة، وعلى عاتقها تقع المسؤولية كاملة، أي أن العائلة العامة تحولت إلى خاص كبير.

وبسبب هذا الإحساس الجماعي بالأسرة تحديداً، أطلق الناس على الكوادر «الوالدين الحكوميين». كان «ما بن يي» من قرية ماتشياو، في الثلاثينات حين تزوج، وبسبب عمله سكرتيراً للحزب، أطلق عليه العديد من الناس احتراماً «الأب بن يي» أو «بن يي العام».

وهذا يقترب من المعنى الأصلي لكلمة «عام - gōng 公» في اللغة الصينية. لم تكن كلمة «عام» تعني public في الصين قديماً، بل كانت تشير إلى زعماء القبائل أو إلى ملك الدولة، ومرادفاً لكلمة «سيد - jūn 君». وتوخياً للدقة، فترجمة كلمة public الغربية إلى «عام - gong» ليس مناسباً على الإطلاق، إذا استخدمنا ببساطة مصطلحات غربية مثل «الملكية الخاصة» و«الملكية العامة» في ماتشياو، فيبدو أنك ستخاطر بفصل الاسم عن الواقع.

كان بن يي «عام - غونغ - 公» ماتشياو (بمعنى الكلمة في الصينية القديمة)، وفي الوقت ذاته يُمثلُ «عام - غونغ» ماتشياو (بما تعنيه الكلمة في اللغة الانجليزية وبعض اللغات الغربية الأخرى).

تايوان

ثمة حقلٌ في التيارِ الجاري القوي يُدعى حقلُ تايوان، حقل لم أنتبه له من قبل. كنتُ أعملُ أنا وفوتشا في وردية الليل في موسم مكافحة الجفاف بالعجلات المائية، حيث نغوصُ في عمق نور القمر، ونتشاءبُ حين نتسلَّق العجلة المائية التي تُحدثُ صريراً بينما نديرها بأقدامنا، أصبحت الدواسة الخشبية التي تدورُ ببطء، مصقولةً ولامعةً للغاية بفعلِ عددٍ لا يُحصى من الأقدامِ العارية. فقدتُ تركيزي قليلاً، فزلتُ قدمي، وقبضتُ بشدةٍ على الحاجز، وصرختُ مثل كلبٍ معلقٍ. عندها أثارت العجلة التي تدور أسفلَ قدمي فوتشا الذعر، ودارت الدواسة مرةً تلو الأخرى بحيث لم نتمكن من إيقافها، مسببةً كدماتٍ زرقاء ونزيفاً في الساقين. نصحني فوتشا بعدم النظرِ إلى قدمي، قائلاً إنَّه من السهلِ أن تزلَّ قدمك بهذه الطريقة، لكنني لم أصدِّق كلامه، ولم أستطع تنفيذه، كان يستدرجني للحديث والدرشة مرةً تلو أخرى ليساعدني على الاسترخاء.

كان يحبُّ الاستماعَ إلى ما أحكيه حول المدينة، أو إلى بعضِ الأمورِ المتعلقةِ بالعلوم مثل المريخ وأورانوس، كان خريجَ المدرسةِ المتوسطة،

وشغوفاً بالعلوم. على سبيل المثال حين فهم مبدأ عمل الصخور اللاصقة (المغنطيسية)، قال إن جاءت طائرات العدو فيما بعد لإسقاط القنابل، ربما علينا صنع صخرة لاصقة ضخمة، لتلتصق بها طائرات العدو، أليس هذا أفضل من المدافع والصواريخ المضادة للطائرات؟

كان يفكر في اعتراضاتي بجدية، ونادراً ما يعبر عن دهشته من كل أنواع المعلومات العلمية التي أتباهى بها، مثلما لا تبدو عليه التعاسة وسط التعاسة العظيمة في الحياة اليومية، لا تبدو عليه الفرحة وسط الفرحة العظيمة، يحتفظ بوجه طفل ناضج وحكيم. اخترت مشاعره المختلفة إلى مشاعر منفردة متمثلة في اللطف والحنج، ونظرة صافية دائمة، تتسلل من زاوية غير ملحوظة. بمجرد أن تلتقي بهذه النظرة، ستحيطك في كل مكان، وسيدرك ويخترق أي فعل يبدُر عنك. ثمة عين وراء العين، نظرة خلف النظرة، لا يمكنك أن تخفي أي شيء أمامه.

اختفى ثم ظهر من مكان ما، حاملاً ثمرة شمام لأكّلها، على الأرجح سرقها من بستان منزل قريب، وبعد تناولها دفن قشورها وبذورها بحذر في حفرة وقال: «أمسينا منتصف الليل، لنذهب إلى النوم».

أضرب ساقِي لطرد الكثير من البعوض.

عثر على أوراق الشجر في مكان ما، ووضعها على قدمي وجبّتي، كانت فعالة جداً، وخفّ طنين البعوض بدرجة ملحوظة.

اتنابني قلق إذ رنوت إلى القمر الصاعد للتو من بين الجبال، وسمعت نقيق الضفادع الذي يعلو ويخفت، «هل سننام... هكذا؟».

- نعمل وقت العمل، ونستريح وقت الراحة.

- قال بن يبي «غونغ - العام» علينا رَيُّ هذا الحقلِ الليلة.

- هذه مشكلته، لا يهم.

- هل سيأتي ويتفحصه؟

- لن يأتي.

- كيف تعرف ذلك؟

- لا داعي لمعرفة ذلك، حتماً لن يأتي!

تعجبت قليلاً، ورأيت ذلك غريباً.

كان يعلم أنني سأسأل عن السبب. «خرافات، خرافاتُ الريف، لا تستمعوا لها». ثم سقط إلى جانبي، وأدارَ ظهره لي، وضمَّ قدميه بشدة استعداداً للنوم.

لم أكن مثله، أنا لم حين يغلبني النعاس، أو لا أنا لم حينما لا أريدُ النوم، كلُّ شيءٍ يمضي وفقَ نظامٍ محدد، كنتُ حقاً أريدُ النوم، لكنَّ عينيَّ كانتا يقظتين، وطلبت منه أن يروي لي بعضَ الكلامِ الفارغ (انظر كلمة «كلام فارغ») أو الخرافات. فشل في تغيير رأبي واستسلم، وأصرَّ على أنَّه سمعَ ذلك من مكانٍ آخر أيضاً - في كلِّ مرَّةٍ يحكي عن أمرٍ مهم، يشرحُ مصدره أولاً ويُقصي نفسه. قال إنَّه سمعَ فلان الفلاني يقول إنَّ هذا الحقلَ ملكٌ لشخصٍ يدعى ماو غونغ، وهو عدوٌّ لدودٌ لـ بن يبي. في السنة التي أنشئت فيها التعاونية الزراعية الإنتاجية الابتدائية، عاند ماو غونغ ورفض الانضمام إليها، انضمت كلُّ الحقولِ المحيطة، إلَّا حقله ظلَّ منفرداً. منع بن يبي رئيسُ التعاونية، ماو غونغ من أخذِ الماءِ من الحقولِ العليا، لكن ماو غونغ ظلَّ على عناده، وفضَّلَ جلبَ الماءِ من

النهر على أن يطلبه. في النهاية، اصطحب بن بي مجموعة من الرجال، واستغل فرصة إصابة ماو غونغ بأزمة ربو، وحمل برميلاً خشبياً^(١) منادياً بجمع محصول هذا الحقل قائلاً: «تحرير تايوان».

شغل ماو غونغ في السابق منصب رئيس لجنة الحماية، وامتلك عدداً كبيراً من الأراضي، كان مالك أراضي وخائناً للصين، وكان حقله بالطبع هو «تايوان»، ويُقال إنَّ وصمه بالخائن كان ظالماً بعض الشيء. في السابق، وقعت هذه المنطقة الرابعة عشرة تحت سيطرة النظام العميل الموالي لليابانيين، وكانت هناك لجنة حماية مسؤولة عن ماتشياو والأقواس الثمانية عشر المجاورة، وتناوب الأثرياء أو النبلاء على منصب الرئيس، إذ يُسلم غونغ^(٢) كل ثلاثة أشهر للشخص الذي يحلُّ دوره. لم يكن هناك راتب لهذا الرئيس، لكن يمكن استخدام الغونغ في التحدث قليلاً عن الشؤون العامة، وجمع «أموال صنادل القش» أينما ذهبت، أي استغلال الخدمات العامة في الحصول على قليل من الربح. حلَّ دور ماو غونغ في نهاية الثمانية عشر قوساً، وبحلول دوره كانت القوات اليابانية والعميلة قد استسلمت، فلم يكن مضطراً لتولي المنصب، ولكن نظراً لأن السكان المحليين لم يعرفوا ما يجري في الخارج، فقد تمَّ تمرير الغونغ إليه.

كان ماو غونغ يحبُّ أن يُبقي نفسه في دائرة الضوء، لذا ارتدى على الفور عباءة بيضاء ما أن تلقى الغونغ، وهزَّ عصاه العصرية، وكان يسعل بصوت عالٍ أينما ذهب. جمع الكثير من أموال صنادل القش، على الأقل

(١) برميل خشبي يستخدمه المزارعون في جنوب الصين لدرس الأرز.

(٢) الغونغ: آلة موسيقية تنتشر في الشرق وجنوب شرق آسيا، وهي آلة قرع دائرية معدنية تشبه الصفيحة، وتُضرب في منتصفها بمطارق ذات رؤوس من المطاط أو اللباد.

ضِعْفَ مَا جَمَعَهُ أَسْلَافُهُ، وَكَانَ يَأْكُلُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَحُلُّ فِيهِ، وَفِي ذَلِكَ كَانَتْ لَهُ أَسَالِيبُ شَتَّى. ذَاتَ مَرَّةٍ، بَيْنَمَا كَانَ يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ فِي مَنْزِلٍ وَانْ يَوْ، التَّقَطَّ خَلْسَةً أَحْشَاءَ دَجَاجَةٍ أَوْقَعَهَا وَالِدُ وَانْ يَوْ أَسْفَلَ الْمَوْقِدِ، وَخَبَّأَهَا فِي كُمِّ مَلَابِسِهِ، وَعِنْدَمَا جَلَسُوا إِلَى الْمَائِدَةِ، وَضَعَهَا فِي صَحْنِ الدَّجَاجِ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ الْمُضَيِّفُ، ثُمَّ رَفَعَ عَصِيَّ الطَّعَامِ وَ«اِكْتَشَفَ» الْأَحْشَاءَ، وَأَصْرَرَ عَلَى أَنَّ الْمُضَيِّفَ يَسْخَرُ مِنْهُ، وَغَرَّمَهُ خَمْسَةَ دُولَارَاتٍ فَضِيَّةً، وَبَعْدَ تَوْسَلَاتٍ مِنَ الْمُضَيِّفِ، سُوِّيتِ الْمَسْأَلَةُ بِدُولَارَيْنِ فَضِيَيْنِ. وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى، كَانَ فِي زِيَارَةٍ لِأَحَدِ الْعَائِلَاتِ فِي تَجَانُغٍ جَيَّا فَاغٍ، وَخَرَجَ أَوَّلًا وَتَغَوَّطَ فِي قُبْعَتِهِ لِإِثَارَةِ الْكَلْبِ، وَبَعْدَ جُلُوسِهِ خَمْنَ أَنَّ الْكَلْبَ قَدْ مَضَغَ الْقُبْعَةَ حَتَّى اهْتَرَأَتْ، وَخَرَجَ مَرَّةً أُخْرَى مُصْدُومًا، مُصْرَّأً عَلَى أَنَّ الْمُضَيِّفَ يَعَادِيهِ، هُوَ رَئِيسُ اللَّجْنَةِ، أَيُّ أَنَّهُ يَعَادِي الْجَيْشَ الْإِمْبَرَاطُورِي^(١) مُتَعَمِّدًا، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَتْرَكْ قُبْعَتَهُ دُونَ أَنْ يَمْسُهَا، وَتَرَكَ الْكَلْبَ يَمْضَغُهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ. لَمْ يَفْلَحْ كَلَامُ الْمُضَيِّفِ فِي إِقْنَاعِ مَاوْ غُونِغٍ، فَابْتَلَعَ مَهَانَتَهُ وَغَضَبَهُ بِصَمْتٍ، وَأَعْطَاهُ قَدْرًا حَدِيدِيَّةً.

فِي الْوَاقِعِ، يَعْلَمُ الْجَمِيعُ أَنَّ قُبْعَتَهُ مَهْتَرئةٌ مِنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ. لِأَنَّهُ زَرَعَ بِذُورَ الْمَرَارَةِ، لَمْ يَكُنْ صَعْبًا عَلَيَّ أَنْ أَتَخَيَّلَ أَنَّ الْقُرُوبَيْنِ اسْتَجَابُوا لِهَتَافِ بْنِ يِي «حَرِّرُوا تَايَوَانَ»، وَلَا سِيَمَا وَالِدَ وَانْ يَوْ، إِذْ لَمْ يَذْهَبْ لِيَدُوسَ عَلَى الشُّتَلَاتِ فَحَسَبَ، بَلْ مَزَّقَ عَرَائِشَ الْبُطِيخِ الْمَزْرُوعَةَ قَرَبَ حَقْلِ عَائِلَةِ مَاوْ غُونِغٍ. وَخَوْفًا مِنْ أَنَّ مَاوْ غُونِغَ لَنْ يَسْمَعَهُمْ، صَرَخَ بَعْضُ الشُّبَابِ فِي إِيقَاعِ مُتَعَمِّدٍ وَحَادٍ، مُحْدِثِينَ حَالَةً مِنَ الْارْتِبَاكِ الْمَطْلُوقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ شَرِّهَا كَلْبٌ أَوْ طَيْرٌ.

(١) الْجَيْشُ الْإِمْبَرَاطُورِي الْيَابَانِي.

سمعهم ماو غونغ بالفعل وجاء لاهثاً، وطأ التلة بعضا وسبَّ قائلاً: «بن يي أيها الحيوان، هل تسرق محصولي في وضح النهار، أتمنى لك ميتةً شنيعة!».

رفع بن يي ذراعيه قائلاً: «لا بُدَّ من تحرير تايوان!».

فصاح أعضاء الكومونة معه: «لا بُدَّ من تحرير تايوان!».

سأل بن يي بصوتٍ عالٍ: «كيف نتصرّف مع معارضي التعاونية؟».

ردّت الجموعُ بصوتٍ يصمُّ الأذان: «نحصد قمحَه، نأكلُ حبوبَه! خذْ ما تستطيع! نحصدُ قمحَه، نأكلُ حبوبَه! خذْ ما تستطيع!».

احتقنت عينا ماو غونغ بالدم لشدة غضبه وقال: «حسنٌ، حسنٌ، خذوا ما تريدونه، خذوا ما استطعتم، حين أموتُ من الجوع، وأتحوّل إلى شبحٍ جائعٍ سأخنقكم حتى الموت».

التفت ونادى على ولديه يان تزاو ويان وو، وطلب منهما إحصارَ سكاكين. كان الولدان لا يزالان طفلين، وقفا على التلة، مصدومين من المشهد، لا يجروان على الحركة. بصق ماو غونغ وشتمهما، وعاد متكئاً على عصا معوجة، ثم ما لبث أن جاء بكومةٍ من الحطب وأشعل النارَ قرب الحقل. كانت المياهُ مقطوعةً عن الحقلِ منذ وقتٍ طويل، والمحصولُ شديد الجفاف، لذا أشعلت هبةُ ريحٍ واحدة النيرانَ بقوة. نظر إلى النارِ وضحك بشدة، ثم دقَّ الأرضَ بقدمه وشتم قائلاً: «يا أبناء العاهرات، لن آكله، كلوه أنتم، كلوه أنتم، هاهاها...».

تحوّل حبوبُه في طرفة عينٍ إلى رماد.

بعد بضعة أيام، عجز ماو غونغ عن التنفّس، ومات.

يقول الناس إنَّ روح ماو غونغ ظَلَّتْ عالقة. في أحد أيام الشهر الثاني عشر القمري، جاء أفرادُ عائلةِ بنِ بي بحجَرِي رَحَى، ومَرُّوا أثناء عودتهم من المحجر بمنزل ماو غونغ. أنزلَ بنِ بي الحمولَةَ وصعد التلة للبحثِ عن أعشاشِ الدجاج البري، وما أن مشى خطوات، حتى سمع بغتةً صوتَ دويٍّ خلفه بعثَ فيه الذعر، وسمعَ كلُّ أهالي القرية السفلى تقريباً هذا الصوتَ الغريب. في البداية جاء بعضُ الأطفال، ثم عددٌ من الرجالِ ليروا ما هذه الجلبة، وما أن وصلوا المكان، حتى تسمَّروا في أماكنهم ذعراً، ولم يتمكنوا من تصديقِ ما يرونه أمامَ أعينهم: كان حجرا الرَّحَى الجديدان يتصارعان صراعاً حاداً مع هاون أمامَ منزلِ ماو غونغ.

وصولاً إلى هنا، سألني فوتشا إن كنت أعرفُ ما هو الهاون، أجبته بأنني رأيته من قبل، هو أداةٌ تُستخدمُ لدرسِ الأرضِ أو دق كعك الأرض اللزج، تشبه قليلاً الطست. وكنتُ أعرفُ أيضاً أنَّ ثمة نوعين من الدَّرس، الدَّرسُ اليدوي، والدَّرسُ بالقَدَم؛ الدَّرسُ اليدوي هو الدَّقُّ صعوداً وهبوطاً، أمَّا الدَّرسُ بالقَدَم فهو أقلُّ جُهداً، ويشبه الأرجوحة، حيث يقف الشخصُ على ناحية، ويدوس لترتفع يدُ الهاونِ من الناحية الأخرى، وما أن يُفِلَّتَ قدمه، تهبطُ اليدُ بقوةٍ على الهاون.

قال فوتشا إنَّه لم يصدق كيف لهاون أن يُقاتل، لكنَّ الكبارَ أصرُّوا على أنَّهم رأوه بأعينهم، ووصفوا كلَّ شيءٍ بالتفصيل. هاون حجري يتقاتلُ مع حَجَرِي رَحَى، يقفزُ وينزل، يندفعُ إلى اليسار ويندفعُ إلى اليمين، ويرتطمُ مُتصادماً ومدوياً وناشراً الشَّرَرَ من كلِّ جهة، ثم يُحدِثُ فتحاتٍ عميقةً في الأرض، كأنَّه يدكُّها دكاً. في تلك اللحظة، بدا أنَّ

الطيور القريبة والبعيدة جميعها حلقت إلى هنا، وغطت بسوادها الشجر وعلا صياحها.

اتجه رجلان أو ثلاثة رجالٍ أشدَّ قوةً لإيقافِ ما يجري، وجاؤوا بقضبانٍ للفصلِ بين طرفي المعركة الشرسة، حتى غمرهم العرقُ من فرط الإنهاك، وعجزوا عن إيقافها بقطعةٍ واحدة، كُسِرَ واحدٌ من القضبان التي تضغط على الهاون، فقفزَ من جديد بقوة، متجهاً بجنونٍ صوب حَجَرِي الرَّحَى، وتسبَّبَ في فرارِ المتطفلين إلى كلا الجانبين. الهاون وحجرا الرَّحَى، يتراجع الآخرُ إذا تقدَّم الأولُ، يهجم الآخرُ إذا قاومَ الأولُ. في النهاية ترك الأرض، قفزَ في القناة، وعبرَ الجسر، وانعطفَ إلى التلة، وأثارت جلبته حفيفَ العشب. ما أذهلَ الناسَ أنَّ هذه الأحجار كانت تنزفُ دماً أصفر، خلفَ أثره على الأرضِ وأوراقِ العشب. عندما تبقى نثارُ الأحجارِ على التلة، لم يكن هناك سوى قطعةٍ أو قطعتين من الحصى تتحركان وتتصارعان بضعف، تدفق الدمُ من كلِّ الحصى كينابيع، ثم شكَّلت تياراً تدفقَ من أعلى التلة في شكلٍ متعرجٍ لمسافة نصفِ لي، إلى أن صبغت بركةً لوتس بلونٍ أصفر.

بعد أن جمعَ الناسُ جثثَ حَجَرِي الرَّحَى والهاون المبعثرة على مساحةٍ كبيرة، استخدموها لسدِّ حُفَرِ التيارِ في حقولِ الأرز؛ أحجارُ الرَّحَى لسدِّ حقلِ الثلاثِ شتلاتٍ لعائلةِ بنِ بي، والهاون لسدِّ حقلِ ماو غونغ، وهكذا سوَّيت المسألة. (انظر مدخل «غشاء فقاعة»).

قال كبارُ السن لاحقاً إنَّ منزلَ السيدِ يحملُ ضغينة، وإنَّ هذه الضغينة امتدَّت لأحجاره، لذا تحملُ ضغينةً أيضاً، ومن الأفضلِ لأعدائه

تَوْخِي الحَذَرَ عِنْدَ المَرُورِ بِمَنْزِلِهِ، وَعَدُمُ تَرْكِ الْأَغْرَاضِ فِي كُلِّ مَكَانٍ حِينَ لَا يَكُونُ لَدَيْكَ مَا تَفْعَلُهُ.

وَمُذَّاكَ، وَرَغِمَ أَنَّ بِنِ بِي بِالطَّبْعِ كَانَ يَسْبُ مَاوْ غُونِغْ بِصَوْتٍ عَالٍ مِنْ حِينَ لآخر، فَإِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ المَرُورِ مِنْ أَمَامِ بَيْتِهِ وَالذَّهَابِ إِلَى حَقْلِهِ. انضَمَّتْ زَوْجَتُهُ وَوَلَدَاهُ أَخِيرًا إِلَى التَّعَاوُنِيَّةِ، وَبَاعَ بِنِ بِي الثَّورَ الَّذِي انضَمُّوا بِهِ إِلَى التَّعَاوُنِيَّةِ فِي السُّوقِ، وَقَالَ إِنَّهُ لَا يَرِيدُ أَيَّ شَيْءٍ. كَمَا كَانَ هُنَاكَ مِدْمَةً وَمَعُولٍ، لَمْ يَجْرُؤْ بِنِ بِي عَلَى الِاحْتِفَاطِ بِهِمَا، بَلْ أَرْسَلَ أَشْخَاصًا لِنَقْلِهِمَا إِلَى أَفْرَانِ الحَدِيدِ.

انفَجَرَتْ ضَاحِكًا عِنْدَ سَمَاعِي ذَلِكَ، لَمْ أَصْدُقْ أَنَّ أَمْرًا كَهَذَا حَدَثَ. ضَحِكُ فَوْتِشَا وَتَقَلَّبَ قَائِلًا: «وَأَنَا لَا أَصْدُقُ أَيْضًا، إِنَّهُمْ جَهْلَةٌ يَتَحَدَّثُونَ كَلَامَ أَرْوَاحٍ (انْظُرْ مَدْخَلَ «الرُّوحِ»). لَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اطْمَئِنَّ وَنَمَّ».

أَدَارَ لِي ظَهْرَهُ، وَلَمْ تَبْدُرْ عَنْهُ أَيُّ حَرَكَةٍ، لَمْ أَعْرِفْ إِنْ كَانَ نَائِمًا أَمْ لَا - أَمْ إِنَّهُ نَائِمٌ لَكِنَّهُ مَتَّقِظٌ وَيَنْصُتُ بَانْتِبَاهٍ. أَصْغَيْتُ أَنَا أَيْضًا، وَسَمِعْتُ كَذَلِكَ صَوْتَ تَنْفَسِي، وَسَمِعْتُ صَوْتَ فِقَاعَةِ مِيَاهِ صَغِيرَةٍ تَنْبَثِقُ مِنْ وَحْلِ حَقْلٍ مَاوْ غُونِغْ.

عصيدة

تُنطق gang، وتشيرُ إلى الحساء الخفيف. ماتشياو قريةٌ جبليةٌ فقيرةٌ تنقصها الموادُ الغذائية، وكلمة «تناول العصيدة» من الكلمات الشائع استخدامها.

ورد في «كتاب الأغاني - القصائد الصغرى»: «من الأفضل أن تقدم النبيذ، ولا تقدم العصيدة». وتُستخدمُ «العصيدة» للإشارة عموماً إلى المشروبات الأدنى من النبيذ، كالذرة المنقوعة في الماء على سبيل المثال. سُجِّلَت في «تاريخ أسرة هان» عبارة: «العصيدة كالنبيذ، اللحم كأوراق الفول»، في إشارةٍ إلى حياة البذخ والرفاهية، والتي يُشَبَّه فيها النبيذُ بالعصيدة، واللحمُ بأوراقِ الفول. يبدو جلياً أنَّ العصيدة كانت دائماً طعاماً وشراباً اقتصر على الفقراء.

حين جاء الشبابُ المتعلِّمُ للمرة الأولى إلى قرية ماتشياو، كانوا غالباً يسمعون بالخطأ «تناولُ العصيدة» على أنَّها «تناولُ الحبوب الجافة»، ويُساء فهمُها على أنَّها العكس. لكن في الواقع، كلُّ ز يُنطقُ g هنا، على سبيل المثال تُنطقُ «讲 - jiǎng» «gǎng»، «النهر - جيانغ - jiāng» يُنطقُ gāng. فتبدو «تناولُ العصيدة» أحياناً مثل «تناولُ النهر». وفي فترة الجفاف بين

المحصولين، زاد الماء في قدورِ كلِّ عائلة، وقلّت الحبوب، لذا ربما كانت عبارة «تناولُ النهر» مناسبة.

خائن للبين

يان تزاو هو الابنُ الأكبر لـ ماو غونغ، والمسؤولُ عن بعض الأعمالِ الشاقةِ في فريقِ العمل، يحملُ روثَ الماشيةِ المتعفن، يكسرُ الأحجار، يحرقُ الفحمَ وغيرَ ذلك. تراه يضعُ القرميدَ أثناءَ بناءِ البيوت، ويحملُ التوابيتَ في الجنازات، ويبدو منهكاً إلى درجةٍ أن فكّه يتدلى لشدة تعبهِ، وتنفرُ العروقُ الزرقاءُ من ساقيه على شكل عُقَدٍ خفيفةٍ وفظيعة. لهذا كان يرتدي في الأيامِ الحارةِ بنطلوناً طويلاً مرقعاً في طبقاتٍ فوق الأخرى ليغطي هاتين الساقين البشعتين.

كانت جدته لا تزال على قيد الحياة حين رأيته للمرة الأولى. جدته كانت امرأة السُّم؛ يُقالُ إنَّها امرأةٌ محليةٌ تصنع مسحوقاً ساماً من العقاربِ والأفاعي، وتخبئه تحت أظفارها، ثم تدسه خفيةً في طعامِ عدوٍ وشرابه، أو في طعامِ عابرِ طريقٍ غريبٍ لاقتناصِ حياته. وبشكلٍ عام فهو لاء الذين يدسُّون السُّم، يفعلون ذلك بدافع الانتقام، أو ثمة مقولة أخرى، إنَّهم يريدون الحصولَ على حياة الآخرين لإطالة أعمارهم. ويقول الناس إنَّ جدَّةَ يان تزاو أصبحت امرأة السُّم بعد إنشاءِ التعاونيات، وهذا حتماً بسببِ كراهيتها الطبقيَّة للفقراءِ ومتوسطي الحال من الفلاحين، وأنَّها لا

ترغبُ في الخضوع للحزب الشيوعي الصيني. توفيت والدَةُ بنِ بي منذ سنواتٍ طويلة، وراوده شكٌّ أنَّ سُمَّ هذه العجوزِ الساحرة هو سببُ وفاتها، وأضمر لها كراهيةً حتى الآن.

هبتَ الريحُ وهدمت كوخَ يان تزاو، فترجَّى أهلُ القرية لمساعدته في إصلاحه. ذهبْتُ أنا أيضاً لمزج الطين، وهناك رأيتُ تلك العجوزَ ذائعة الصيتِ بوجهها السمج، تشعلُ النارَ فوق الموقد، ولا تبدو عليها السَّمةُ الشريرةُ التي يحكي الناسُ عنها، ممَّا كان خارجَ توقعاتي كلياً.

أصلحنا الكوخَ في النهار، وحملَ الجميعُ معداته عائداً إلى المنزل، تبعنا يان تزاو وهتفَ بصوتٍ عالٍ:

- لماذا لم تتناولوا الطعام؟ لماذا غادرتُم دونَ تناولِ الطعام؟ هل هذا معقول!

كنتُ قد شملتُ رائحةَ لحمٍ زكية تنبعثُ من فوق الموقد، ورأيتُ كذلك أنَّ رحيلَ الناسِ غيرُ منطقي، لكن فوتشا أخبرني لاحقاً، أنَّ الناسَ لا يرغبون في تناولِ الطعامِ في بيته فحسب، بل لا يجروئون على لمسِ أكوابِ الشاي أيضاً، يتذكَّرُ الجميعُ أنَّ في منزله امرأةٌ سُمَّ عجوز. أخرجتُ لساني، واتجهتُ صوبَ المنزلِ بخطواتٍ سريعة.

بعد مرورِ بعضِ الوقت، ذهب يان تزاو إلى المنازلِ واحدٍ تلوَ آخر يترجَّى الجميعُ لتناولِ الطعام، كما أنَّه فتحَ بابَ منزلنا، وركعَ في البداية لاهثاً من الغضب، ثم سجدَ ثلاثَ سجدياتٍ صارمة قائلاً: «هل تريدون أن أقفزَ إلى النهر؟ أو أشنقَ نفسي؟ لم تكن العادةُ أن تُفعلَ الأشياءُ مجاناً

دُونَ أَنْ يُقَدَّمَ طَعَامٌ، لَقَدْ دَسْتُمْ عَلَى وَجْهِ كُلِّ مَنْ فِي مَنْزِلِ يَانَ تَزَاوُ، لَنْ أَعِيشَ الْيَوْمَ، وَسَأَمُوتُ هُنَا».

خَفْنَا، حَتَّى أَتْنَا سَحْبِنَاهُ بِسُرْعَةٍ، وَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّنا طَبَخْنَا وَجَبَةً فِي الْمَنْزِلِ، وَلَمْ نَخْطِطْ لَتَنَاوُلِ الطَّعَامِ فِي الْخَارِجِ. كَمَا أَتْنَا لَمْ نَبْذُلْ جَهْدًا كَبِيرًا، فَشَعَرْنَا بِالْخَرَجِ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

كَانَ وَجْهُهُ يَتَعَرَّقُ بِغَزَارَةٍ بِسَبَبِ انْفِعَالِهِ، وَلَمْ تَفْلَحْ مَسَاعِيهِ وَجْهُوهُ فِي تَحْرِيكِ أَيِّ شَخْصٍ، وَكَادَ أَنْ يَبْكِي: «أَعْلَمُ، أَعْلَمُ، أَعْلَمُ أَنْكُمْ قَلَقُونَ، قَلَقُونَ مِنْ تِلْكَ الْعَجُوزِ الْحَمَقَاءِ...».

- إِطْلَاقًا، إِطْلَاقًا، مَا هَذَا الْهَرَاءُ؟

- أَنْتُمْ لَا تَثْقُونَ فِي تِلْكَ الْعَجُوزِ الْحَمَقَاءِ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ لَا تَثْقُونَ بِي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَلْ تَرْغَبُونَ أَنْ أَقْطَعَ لَكُمْ قَلْبِي وَكَبْدِي وَرَتْنِي؟ حَسَنٌ، لَا تَأْكُلُوا إِنْ كُنْتُمْ قَلَقِينَ، إِنَّ أَخِي الْأَكْبَرَ الصَّغِيرَ^(١) يَغْسُلُ الْقُدُورَ لَطَهُو الطَّعَامِ مِنْ جَدِيدٍ! إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ قَلِقًا، فَلْيَذْهَبْ وَيَرِاقِبْ طَهِيه، لَنْ أَسْمَحَ لَتِلْكَ الْمَرْأَةِ الْعَجُوزِ أَنْ تَقْتَرِبَ هَذِهِ الْمَرْءَةَ!

- يَانَ تَزَاوُ، لِمَاذَا أَنْتِ غَاضِبٌ، هَلْ يَسْتَحِقُّ الْأَمْرَ هَذَا الْعَنَاءُ؟

- «أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكِبَارُ الْمُحْتَرَمُونَ الْكِرْمَاءُ، امْنَحُونِي طَرِيقًا لِلْحَيَاةِ!». قَالَ ذَلِكَ ثُمَّ سَجَدَ مِنْ جَدِيدٍ، وَدَقَّ رَأْسَهُ فِي الْأَرْضِ كَثُومٍ يُسْحَقُ بِمَدَقٍّ.

(١) انْظُرْ مَدْخَلَ «الْأَخِ الْأَكْبَرَ الصَّغِيرِ» (وَأَخْرُونَ).

توسَّلَ إلى كُلِّ من ساعدوه واحداً تلو الآخر، إلى أن انتهى به المطافُ
لجرحِ رأسِه لكثرة ما دَقَّها في الأرض، ورغم ذلك لم يفلح في دعوة
الناسِ إلى منزله. وحسبها قال، فقد تَخَلَّصَ من أطعمة ثلاثِ طاولات،
وألقاها في المصرف، وجعل أخته الكبرى تغسل الأرض مجدداً واستعارَ
اللحمَ لإعدادِ ثلاثِ موائد، وتزامن هذا مع انتهاء العمل. أمَّا جَدَّتُه فقد
أبعدها عن الموقد، وقَيَّدَها بحبلٍ وربطها إلى شجرة قَيْقَبٍ عند مدخلِ
القرية ليراها الجميع. دفعني الفضولُ لإلقاءِ نظرةٍ عليها، كانت هاتيكِ
العجوزُ ترتدي فردةً حذاءٍ واحدة، في حالةٍ بين اليقظة والنوم، عيناها
تنظران شزراً إلى نقطةٍ ما في أعلى اليمين، فمُّها الخالي من الأسنانِ يُفَتِّحُ
ويُغَلِّقُ، وتُصدِرُ بوهنٍ أصواتاً مبهمه. كانت قد بَلَّلت بنظلوها، وتفوحُ
منها رائحةٌ كريهة، بينما نظر إليها بعض الأطفال بخوفٍ من بعيد.

وُضِعَت طاولاتُ الطعامِ على المصطبةِ عند منزله، لكن لم يظهر أثرُ
لأي شخص. ورأيتُ أختَ يان تزاو الكبرى تجلسُ إلى جانبِ الطاولةِ
وتمسح دموعها.

وأخيراً، لم نستطع نحن الشبابُ المتعلِّمُ تحمُّلُ نهمنا وحبنا للطعامِ
الجيد، كما لم نكن نؤمنُ بالأرواحِ الشريرة أيضاً. تولَّى أحدهم زمامَ
المبادرة، وذهب بعض الشباب إلى الطاولات واستمتعوا بقطع من
اللحم. همس أحدهم وفمه مملئٌ بالدهن، إنَّه يكاد لا يتذكَّر مذاقَ اللحم،
ولا يهتم إن كان مسمماً أم لا، فهو يفضِّلُ أن يموت من الشبع.

وبسبب تقديرنا له تلك المرة، أصبح يان تزاو مذاك شديد الامتنانِ
لنا، صرنا لا نجلِبُ الحطبَ لأنفسنا إلا نادراً، بل يجلبه لنا عند الحاجة،
كانت لديه قدرةٌ استثنائية على رفع الأحمالِ الثقيلة. وكما أذكر، لم أرَ

أكتافه حرّة تقريباً، إن لم يحمل روث الماشية المتعفن، تراه يحمل حطباً، أو مأكينة درسٍ بها طينٌ ووَحْل. لا يمكن أن تكون كتفاه دونَ أحمالٍ في الشتاء، أو في الصيف، أو في أيامِ الصحو، أو في الأيامِ الممطرة. يبدو غريباً ومربكاً ومزعجاً للنظر إن لم يحمل شيئاً على كتفيه، مثل حلزونٍ دون صدفة. كان الأمرُ مثل عاهةٍ تُفقدُه اتزانُه، فيتعثّرُ في أول خطوةٍ، ويترنّحُ حقاً في مشيته عندما لا يحمل أي شيء، وتصطكُ أصابعُ قدميه وتحتقنُ بالدم.

إن كان يحمل قطناً، ترى القطنَ وقد غطاه تماماً، ويبدو من بعيدٍ كجبلٍ جليدٍ يقفزُ على الأرض تلقائياً، وهو شيءٌ غريبٌ جداً.

ذهبنا معاً ذاتَ مرّةٍ لإرسالِ الحبوب، وفي طريقِ عودتنا، وضع حجرين كبيرين في السلّتين الفارغتين، قال إن لم يكن هناك ضغطٌ كهذا، فلن يستطيع المشي متزناً. وكما توقعت، عندما انثنى عمودُ الحملِ عند رفعه على كتفيه، اندمجَ بجسده، وتحركَ جسده كاملاً في إيقاعٍ راقص، وأصبحت خطواته رشيقة، وبقفزاتٍ سريعةٍ اختفى في المقدمة، ولم يبدُ على الإطلاقٍ مثلما حملَ العمود بالسلّتين الفارغتين، أي شاحباً، سائراً بخطواتٍ متعثّرةٍ وغير منتظمة.

كما أنّه خائنٌ للصين. علمتُ لاحقاً في لغة ماتشياو، أنّ والدَه كان خائناً، وأنّ يان تزاو لم يستطع التملّص من وصمِهِ بالخائنِ كذلك، هكذا رأى الأمرُ بنفسِهِ. حين جاء الشبابُ المتعلّم للمرّة الأولى، ورأوه يحملُ روثَ الماشية المتعفن، ورأوا همّته ونشاطه في العمل، عدّوه بطبيعة الحال عاملاً نموذجياً، ذُهِلَ ولوّحَ بيده بعصبيةٍ وقال: «أفيقوا! أنا خائن، كيف أكون هذا الذي تقولونه!».

ذِعَرَ الشَّبَابِ الْمُتَعَلِّمِ.

يعتقد أهل ماتشياو أنَّ سياسة السلطات العليا في الفصل بين العدو وأبناء العدو في الواقع غير ضرورية. وانطلاقاً من هذا المنطق، حين تولَّى بن يي منصب سكرتير فرع الحزب، كانت زوجته تذهب إلى «تعاونيات التوريد والتسويق» لشراء اللحم، فتتظر إليها النساء بحسد ويقلن: «إنَّها سكرتيرة، لا يجزئ أحدٌ على إنقاص ميزانها!» وحين كان ابن بن يي ساهياً عن دراسته، وبَّخه أستاذه قائلاً: «أنت أيها السكرتير، هل تدر دُش في قاعة الفصل؟ وتنبول!».

أصبح يان تزاو لاحقاً «ثوراً أخرس» أي أخرس، لم يكن أخرس في الماضي، بل قليل الكلام فقط. ولأنَّه خائن، ولأنَّ في منزله امرأة تصنع السم، لم يكن - حتى بعدما ظهرت التجاعيد على جبهته - قد اتخذ زوجةً بعد. ويُقال إنَّ أخته الكبرى قد خدعته، وعثرت له على امرأة عمياء، وفي ليلة الزفاف، اكفهر وجهه ورفض دخول الغرفة، وظلَّ الليلة بأكملها ينقل طمي البركة، وهكذا فعل في اليوم الثاني، واليوم الثالث. فيما بكت المرأة العمياء المسكينة لثلاثة أيام في غرفتهما الخاوية. في النهاية، لم يسع أخته الكبرى إلَّا إعادتها إلى منزلها، وإرسال مائة جين من الحبوب، تعويضاً عن فسخ الزواج. ولما سبَّته أخته لكونه قاسي القلب، قال إنَّه خائنٌ ولا يريد أن يؤذي الآخرين.

تزوجت أخته وعاشت بعيداً في محافظة بينغ جيانغ، وكلما عادت إلى منزل أهلها، رأت أنَّ يان تزاو لا يملك قطعة ملابس واحدة جيدة، وأنَّ القدر ممتلئٌ إلى نصفها بعصيدة باردة دائماً، لا أثر لسخونة بها. كما أنَّ حصَّة الذرة التي يمنحها له فريق العمل وتبلغ بضعة عشرات جين، لا بدَّ

أن يدّخرها لأخيه الأصغر يان وو الذي كان يدرس (انظر مدخل «الموهبة الغربية»)، ليأخذها إلى المدرسة كوجبة، كلُّ هذا ترك عينيّ أخته الكبرى تسيلان دائماً بدموع لا تحف. كانوا فقراء إلى حدٍّ أنهم لا يملكون ألحفة كافية، فكانت أختهم الكبرى تتشارك السرير مع أخيها الأصغر كلما عادت إلى المنزل. ذات ليلة هطل مطرٌ غزير، واستيقظت أخته في منتصف الليل، لتكتشف أنها لا تشعر بقدميه في نهاية السرير، وأن يان تراو يجلسُ محنيّاً عند قائم السرير، لم ينم على الإطلاق، مُصدرًا في الظلام صوتَ نسيجٍ كالقطط. سألتُه أخته ما به، فلم يرد عليها، وذهب إلى المطبخ لقتلِ حبالِ القش.

بكت أخته أيضاً، وذهبت إلى المطبخ تمدُّ يدها عبثاً، فأمسكت بيد أخيها الصغير، قالت له: إن كنت عاجزاً عن التحمُّل، لا تعدّني فرداً من العائلة، عدّني شخصاً لا تعرفه، كيفما كان... وسأدعُكَ تتذوقُ طعمَ المرأة.

كان شعرها مشعثاً، وقد أنزلت ملابسها الداخلية، وأخرجت ثديها الأبيض كاليشب ناحية عيني أخيها الفزعتين. «خذني أنا، لن أُلومك».

سحبَ يده بشكلٍ مفاجئ، وتراجع خطوة.

- «لا أُلومك». قالت أخته وهي تمدُّ يدها إلى حزامٍ بنطلونها: «نحن لا نُعدُّ بشراً على أيِّ حال».

خرج من الباب كأنه يفرُّ من الموت، واختفى وقعُ خطواته في المطر والريح.

ركضَ إلى قبرِ والديه، وانفجرَ باكياً. وحين عاد إلى المنزل صباح اليوم التالي، كانت أخته قد رحلت، تركت له طبقاً من البطاطا الحلوة المطبوخة، وغسلت بعضَ الجواربِ وطوّتها ووضعتها على السرير.

ومذاك، لم تعد أخته إلى منزل أهلها أبداً.

ربما من حينها فصاعداً، أصبح يان تزاو أكثر عزوفاً عن الكلام، كما لو أن لسانه قد قُطِع. كان يفعل ما يُطلبُ منه، وإن لم يُطلبُ منه شيء يجلسُ القرفصاء جانباً، إلى أن يتوقف الناس عن إصدار الأوامر له، فيعودُ إلى منزله بصمت. وبمرور الوقت، كاد أن يصبح أحرص بحق. في إحدى المرات، أمر كل أعضاء الكومونة بالمشاركة في إصلاح الطرق، ومثل الجميع، شارك هو أيضاً، واكتشف أن مدّمته اختفت من موقع العمل، فانطلق باحثاً في كل مكان ووجهه محتقن من شدة غضبه. سأله أفراد ميليشيا الشعب المسؤولين عن مراقبتهم بحذر: «ما الذي تفعله حقاً؟» إلا أنه صرخ فحسب.

ظنّت الميليشيا أنه يراوغ ويتحايل، ورأت ضرورة التحقيق في الأمر، فدفع جنديّ بنديته إلى صدره وسأله: «أخبرني بالحقيقة، ما الذي تخطط للقيام به؟».

تعرّقت جبهته، واحمرّ وجهه إلى أذنيه ورقبته، والتوت عضلات وجهه المتبيسة في رعشات متواصلة، واتسعت عيناه في كل ارتعاشة، وفمه - ذلك الفم الذي ينتظره الجميع بقلق - كان مفتوحاً على اتساعه، ولفترة طويلة، لم تخرج منه كلمة واحدة.

- «تحدّث!» كان قربّه شخصٌ يتعرّق من القلق.

لاهنّأ، بذل جهداً مرّة أخرى، فبدت ملامح وجهه معذبة ومشوّهة بشدّة، انفجر بكلمة: «آه - وا - - مدّمة!».

- أيّ مدّمة؟

جحظت عيناه، ولم ينطق بكلمة ثانية.

- «هل أنت أخرس؟» سأله الجنديُّ وقد ازدادَ غضبُهُ.

كانت عضلاتُ وجنتيه ترتعش ارتعاشاتٍ متكررة.

- «إنَّه أخرس».. قال له أحد الواقفين: «لا يُغير كلامه أبداً، وربما قالَ كلَّ الكلامِ في حياةٍ ماضية».

- «لن تتحدث؟» التفت جندي الميليشيا محدقاً إليه وأردف: «قُلْ يحيا الزعيم ماو!».

صاح يان تزاو بنبرةٍ أشدَّ عصبية، ورفع إبهامه، ثم رفع ذراعيه وهتفَ في حركةٍ دالةٍ على معنى يحيا. إلَّا أنَّ الجندي لم يطلق سراحه، وأصرَّ على أن يقولها. في ذلك اليوم، صُفِعَ يان تزاو عدَّةَ صفعات، ورُكِّلَ أكثرَ من مرة، ومع ذلك لم يستطع قولَ العبارة كاملة، وفي النهاية صاح بكلمة «ماو».

عندما رأى الجنديُّ أنَّه أخرسُ بالفعل، عاقبه بحملٍ خمسِ مُحولاتٍ من الرمالِ مؤقتاً.

تأكَّدت هويةُ يان تزاو رسمياً كأخرس منذ تلك الواقعة. بالطبع لا حرج في كونه أخرس، فكثرةُ الكلام تستنزفُ طاقةَ المرء، والكوارثُ يبدأُ طريقُها من القم، والصمتُ يعني خلافاتٍ أقل. على الأقل ستبددُ شكوكُ بن بي حوله فيما إذا كان يتحدثُ بكلامٍ سيءٍ من وراء ظهره، أو يقولُ كلاماً معادياً للثورة، وسيخففُ بن بي من حذره. وقد خطر ببال بن بي ترشيحه حين أراد فريقُ العملِ إرسالَ شخصٍ لرشِّ المبيدات الحشرية، وقال هذا الذي ربَّته امرأةٌ سُمَّ لا يخافُ من السُّموم. ولأنَّه

أصبح ثوراً أخرس، لن يتحدث مع أحد، أو يحدث جلبة، لذا أرسل بمفرده لإنجاز العمل.

الثَّربَةُ في التياراتِ العظيمةِ شديدة البرودة، ولم تكن بيئة للحشرات من قبل. وحسبما يقول السكان المحليون، ظهرت الحشرات بسبب محركات الديزل، فما أن تعمل، تتحوّل الأعشاب والحشائش فوق التلال إلى حشرات. بالطبع يستدعي انتشار الحشرات استخدام المبيدات الحشرية. حاول فوتشا في البداية، ولأجل تجربة شيء جديد، رش المبيد الحشري ليوم، لكن بعد عودته بصق رغاوي بيضاء، وازرق وجهه وانتفخت قدماءه، واستلقى في سريره ثلاثة أيام، وقال إنه تسمم. ومنذ ذلك الوقت لم يجرؤ أحد على الاقتراب من رشاش المبيد، وخافوا أن يرسلوا مئلاك الأراضي أو الفلاحين الأثرياء لإنجاز هذه المهمة الشاقة فيسمّموا الناس أو الماشية أو الخنازير أو الكوادر. وبعد تفكير عميق، رأى بن يي أن يان تزاو خائن يتمتع بشيء من الصدق، ويطيع القوانين، وهو الأنسب.

تعرّض يان تزاو للتسمم في بداية الأمر، انتفخ رأسه كثمرة قرع، وكان في الأيام الحارة يربط قطعة قماش على رأسه لا تظهر إلا عينين تبرزان كلما طرفتا بين حين وآخر، فيبدو مثل لصّ مُقنّع. وبمرور الأيام، ازداد اعتياده على السُمّية، فخلع غطاء رأسه، ولم يرتد الكمامة التي أعطاهها له الشباب المتعلّم، حتى أنّه لم يغسل يديه قبل تناول طعامه بعد عودته إلى المنزل. كانت المبيدات الأشدّ سُمّية، ١٠٥٩، ١٦٠٥ أو شيئاً من هذا القبيل، لكنّه لم يكثر؛ فاليد التي كان يرش بها المبيد الحشري، يمكنها في لحظة أن تمسح فمه، أو تحكّ أذنه، أو تمسك حبة بطاطا حلوة

وتدسّها في فمّه، أو يشرب الماء البارد، ممّا يثيرُ دهشة الآخرين. كان لديه وعاءٌ خزفي، مليءٌ ببقايا المبيد، يُستخدمُ لمزجِ المبيدِ بالماء. في إحدى المرات، اصطاد بضعة سمكاتٍ من سمك اللخ ووضّعها في الوعاء، وفي لحظةٍ انقلبت وابتضت عيوئها. أشعل ناراً وشوى الأسماك وأكلها كأنّ شيئاً لم يكن.

تناقش أهل القرية مراراً في هذا الأمر، وأقروا أنّه تحوّل إلى إنسانٍ مسموم، وأنّ ما يجري في عروقه وأوردته ليس دماءً بشرية. وقالوا أيضاً أنّه توقّف عن استعمالِ الناموسية أثناء نومه، وإنّ البعوض يتجنبه من بعيد، فإن لمس أصابعه يموتُ على الفور، وإذا نفخ في بعوضةٍ تطيرُ أمامه، فيمكنُ لهذا الشيء الضئيل أن يدوخ ويسقط على الأرض؛ كان فمّه أشدّ فعاليةً من الرشاش.

السنخ

يطرأ على بعض الكلمات تغيرٌ غريب عند دخولها حيزَ الاستخدام: تنمو أضدادُها وتتكاثرُ داخلَ نفسِها، تظهرُ وتفيضُ، وأخيراً تُلغي نفسَها وتستكملُ نفيها. وانطلاقاً من هذا المعنى، فإنَّ هذه الكلمات هي المتضاداتُ المحتملةُ الخاصةُ بها منذ البداية، ولكن ليس من السهلِ على الناسِ اكتشافُها.

تحملُ هذه الكلماتُ ظلالها التي تصعبُ رؤيتها.

على سبيل المثال، المعنى الضمني الذي تحمله كلمة «يعرض - يكشف» هو «ينخفي». فعرضُ فيلمٍ إباحي على الأرجح يثيرُ دهشةَ المتفرجين وهلعَهم في البداية، ويجعلهم مذهولين وعيونهم متسعة. وبعد أن يعتاد المتفرجون هذا النوعَ من الأفلام، وبعد أن يتحوَّلَ العرضُ إلى تكرارٍ عنيفٍ غيرِ ذي قيمة، لن تظهرَ للأمرِ نتيجةٌ أخرى؛ سيصبح المتفرجون مخدَّرين، غيرَ مباليين وغيرَ مكترثين، وسيشاءون مرَّةً تلو الأخرى أمامَ المشاهدِ الجنسية. الاستثارةُ المفرطةُ للجنس تؤدي في النهاية إلى ضعفِ الإحساسِ الجنسي، وحتى فقدانه كلياً.

النقدُ هو المعنى الضمني لكلمةِ الثناء. من الممكن أن يثيرَ ذمُّ شخصٍ

والخطُّ من سمعته المزيّد من التعاطفِ تجاهه. ومن المرجح أن يُخفّض نقدُ فيلمِ توقعاتِ المشاهدين قبل مشاهدته، ثم يُتّج على العكس، إحساساً مفاجئاً بالرضا عند مشاهدته. لذلك فالشخص ذو الخبرة الواسعة والكافية في الحياة، سيدركُ حتماً المنطقَ الذي يجمعُ بين الثناء والنقد، ولن يعجزَ عن فهمِ رعبِ ما سمّاه السيد لوشون «التصفيقُ حتى الموت». يمكن أن يمنحَ الثناءُ العدوَّ مجداً وشرفاً مفرطاً، ويثيرَ الحسد، ويدفع الناسَ لتصيّد الأخطاءِ عن عمدٍ بطريقةٍ غير مسبوقة، ويزيد من إمكانية السُّخطِ على نطاقٍ واسع. يمكن أن يؤدي الثناءُ أيضاً إلى إثارة عقلِ العدو، وجعله متغطرساً ومتراخياً، ليرتكبَ أخطاءً جسيمةً في المستقبل، ودون أن ينتقده الآخرون، سيحطُّ من سمعته. في أحيانٍ كثيرة، يكون الثناءُ وليس النقد، أفضلَ طريقةٍ للتعاملِ مع العدو.

إذن، ماذا عن «الحب»؟ ماذا عن حبِّ يان تزاو لجَدَّتِه؟ وهل هناك مواردٌ ما وراءَ معنى الكلمة؟ بعد أن يتلاشى الشعورُ بالحب، هل هناك بقايا غيرُ متوقّعة؟

كانت جَدَّةُ يان تزاو امرأةً ذاتَ شخصيةٍ غريبةٍ جداً. تنامُ طيلة النهار، وتستيقظُ في الليل وتنزلُ من سريرِها لقطعِ الخطبِ أو غلي الشاي، وأحياناً تدندنُ بأغنية. لا تقضي حاجتها حين يسندُها يان تزاو لتذهبَ إلى الحمام، لكن ما أن يضعها في السرير، تفوحُ برائحتي البول والغائطِ الكريهيتين. كانت تصرخُ لرغبتها في تناولِ الثومِ المخلل، وحين يبذلُ يان تزاو مجهوداً شاقاً لاقتراضِ القليلِ منه، تصرخُ قائلةً إنَّها ترغبُ في تناولِ مقرمشاتِ الأرز، وتلقي بالثومِ من صحنها إلى الأرض؛ وبعد أن تتناولَ مقرمشاتِ الأرز، تقولُ إنَّها لم تتناول شيئاً، وإنَّها جائعةٌ إلى حدِّ

أَنَّ معدَّتَها ملتصقةٌ بظهرِها، وتلعن يان تزاو وتصفُّه بأنَّه قاسي القلب، يريدُ أن تموتَ جوعاً، وإنَّه رجلٌ عاق وغيرُ مخلص. هكذا كان يان تزاو، ولسنواتٍ طويلة، يعتني بهذه العجوز التي ربَّته هو وأخيه حائراً لا يدري ماذا يفعل.

كان انتحابٌ وأنيُّ يان يزاو نابعاً من حبٍّ مؤلمٍ لجَدَّتِه، فما أن يراها تُضرب عن الطعامِ بغضب، حتى يبلُغ ذروةَ اضطرابِه، وتنفرَ عروقُ زرقاءٍ من جبهته، ويكشَّر عن صفٍّ من الأسنانِ الناتئة، ويصرخُ صراخاً عالياً يسمعه سكانُ القريةِ العليا. كانت في منزله طاولةُ طعامٍ صغيرةٌ أصليحت مرَّاتٍ عدَّة، يحطمُها بضربةٍ واحدةٍ كلَّما ضاقَ صدرُه. أعلمُ بالطبع أنَّ هذا الصراخَ وتحطيمَ الطاولةِ نابعٌ من ألمه. والأمرُ المؤسف، أنَّني أعلمُ كذلك، أنَّ هذا الحبَّ المؤلمَ دفعَ جَدَّتَه إلى الاعتِياد عليه، واعتبارِ ألمه أمراً طبيعياً مألوفاً، غيرَ ذي قيمة، يصلُ إلى عدمِ تقديرِه أو ملاحظتِه. كانت تقلبُ عينيها دائماً، وتغمغمُ قائلةً إنَّها تشتاقُ إلى يان وو، شقيق يان تزاو الأصغر. يان تزاو مَن صنعَ لها حذاءً من القطن، لكنَّها تصرُّ على أنَّ مَن صنعه هو يان وو.. يان تزاو مَن حملها على ظهره إلى المستشفى، لكنَّها أصرَّت بعد ذلك على أنَّ مَن حملها على ظهره يان وو. لم يكن باستطاعةِ أيِّ شخصٍ تغييرَ ذاكرتها العجيبة.

كان يان وو يدرسُ بعيداً، يتعلَّم حرفةَ الطلاءِ أو الطبِّ التقليدي الصيني، ولم يكن يعتني بها مطلقاً أثناء وجوده في المنزل، حتى أنَّه لم يذهب لزيارتها في المستشفى حين مرضتُ مرضاً شديداً. كلَّما عاد إلى المنزلِ للزيارة، سحبته العجوزُ جانباً، وشكت له يان تزاو. وفي أحيانٍ أخرى، تُخرج من جيبيها - بابتسامةٍ كبيرة - قطعةً من كعك الأرز اللزج،

وقد دفأتها في جيبيها أياماً عدة، أو حبّتي جريب فروت جافّتين، تدسّهما في يده خلصة. كان يان وو ماهرّاً في النقد والتوبيخ، مثل أن يقول لأخيه الكبير إنّه مستاءٌ من صراخه: «إنها عجوز، مع تقدّم العمر يصبح كبار السنّ أكثر فأكثر كالأطفال الذين يحتاجون إلى الرعاية، عليك أن تعاملها كطفلة، لماذا تغضب منها؟».

بدا يان تزاو مذنباً، ولم ينطق بكلمة.

- إن أردت أن تثيرَ جلبّة اتركها، إنّها مفعمةٌ بالطاقة وطاقة اليانغ، بإثارته للجلبّة تُطلّق طاقتها، وتستعيد توازنها الجسدي، وستنامُ نوماً أفضلَ في الليل.

كان رجلاً ذا معرفة، لا يفهمُ معنى كلامه المنمق بسهولة.
ظَلَّ يان تزاو صامتاً.

- أعلمُ أنّها غليظةُ الطباع ونكّدة، ليس هناك حل، كلّما تشاجرت معها اشتدّت غلظتها، ليس من حل. أليست إنساناً؟ حتى وإن كانت كلباً، لا يمكنك أن تقتلها أليس كذلك؟ كيف تجرؤ على ضربها؟

كان يشيرُ إلى واقعة ضرب يان تزاو لجذّته على يدها منذ فترة قصيرة - تلك اليد التي كانت تلتقط حينها ذرق الدجاج لتدسّه في فمها. لم يفهم يان تزاو سبب انفجاره بهذه الطريقة، ولماذا كانت ضربته قوية، إذ تورّمت يدُ العجوز بضربتين، وتقشّر جلدُها بعد أيام. يقول الناس إنّ يان تزاو كان على تماسّ طويلٍ بالمبيدات الحشرية، وإنّ جسده مسموم، فإن ضرب أحدَهم يحرقُ جلده.

- «لحافها بحاجة إلى غسيل، تنبعث منه رائحة البول، هل تسمعني؟»
قال الرجل المتعلّم ثم غادر. في كلّ مرّة يعود، يأكل ويمسح
فمه، ويقوم ببعض الترتيبات ويغادر. بالطبع، يترك أكبر قدر
ممكّن من المال، كان يملك المال.

لا يمكنني القول إنّ تأنيب ونقود يان ووليس نوعاً من الإحسان،
حتى وإن كان ما يفعله ردّ فعلٍ خارجيّ ولاحقٍ للواقعة، الإحسان هو
الإحسان. لكنّ سبب هذا النوع من الإحسان هو على وجه التحديد، أنّه
قلماً مكث في المنزل، وقلماً تعرّض للتعذيب من قبل جدّته. لا يمكنني
القول أيضاً إنّ استخدام يان تزاو للعنف، لم يكن نوعاً من الفتور، حتى
في مواجهة مازوخي لا يستمع إلى المنطق، يظلّ الفتور فتوراً. وهذا الفتور
نابع من يأسه بعد فشل جميع الطرق، نابع من حبه الفاشل. وهنا، تبادل
الحب والكراهة الأماكن، تماماً كما هو الحال عند تظهير الصورة السالبة،
يتمّ ترشيح الأسود إلى الأبيض، ويتمّ ترشيح الأبيض إلى الأسود. وأمام
تلك العجوز من ماتشياو، يُرشّح إحسان المرء إلى فتور، ويُرشّح فتور
المرء إلى إحسان.

ثمة كلمة فريدة يستخدمها أهل ماتشياو: «السُخْط - yuā - وتُنطق
«ntóu»، وتشبه قليلاً كلمة «怨 - yuàn - تُنطق»، وتعني الشكوى والتذمر»،
وتحمل معنَي الحب والكراهية معاً. ينشأ السُخْط دائماً في هذه الحالة:
يفقد الطرف الآخر جميع صفاته المحبّية، لذلك لا تكون قوة استمرار
الحب هي المشاعر، بل نوعاً من التشبّث والمعاناة الذهنية. يمكن للمرء أن
يتخيل: بعد أن يستنفد الحب، ويحترق، ويستنزف، ويبدّد ويداس عليه من
قبل الطرف الآخر كلياً، تُترك بقايا الحب وحطامه مليئة بالمرارة، ومليئة

بمعاناةٍ تشتدُّ يوماً بعد يوم. هذا ما يعنيه «السُّخْط». يمكنُ للمُحِبِّ أن يحصلَ على شيءٍ في المقابل، على الأقل بعد منحه الحب، سيحتفظُ بقليلٍ من الذكرياتِ الحلوة. أمّا الساخِطُ فلا يحصلُ على أيِّ شيءٍ في المقابل، ولا يتبقى له أيُّ شيء، يُعطي ويُعطي إلى حدِّ فقدانِه وخسارته كلَّ شيء، بما في ذلك فقدانُ معنى الحبِّ ومميزاته تدريجياً. وفي هذه المرحلة، يفقدُ الساخِطُ حقَّه في أن يكونَ له ضميرٌ مطمئنٌ أمام الإجماعِ الأخلاقي.

كان يان تزاو ساخطاً على جدِّته.

توفيت جدُّته أخيراً.. عاد يان وو على الفورِ أثناءَ دفنها، وبكى بأشدَّ المشاعرِ حزناً، وركعَ أمام نعشِها، ولم يستطعَ أحدٌ رفعَه مهمَّا حاول. ورأى الجميعَ عبرَ دموعه الشفافة أنَّ حزنَه حقيقي. كان يان تزاو متبلِّداً، نظراتُه خاوية وجامدَ الوجه، يفعلُ ما يُطلَبُ منه، ربما بسببِ انشغاله في تلك الأيام بغسلِ العجوز، وإلباسِها الكفن، وشراءِ التابوت، فقد القدرةَ على البكاء، وربما نفدت دموعُه.

بسببِ منزلةِ عائلةِ يان تزاو الطبقيَّة، لم يحضرَ العديدُ من الناسِ جنازةَ العجوزِ السم، ولم يُطلَبُ من أحدٍ ترديدُ بكائياتِ الجنازة. جاء أقاربُ جدِّته لتقديمِ العزاء، ولم يمنعوا أنفسهم من التذمُّرِ والشكوى من يان تزاو قائلين إنَّ شقيقه يان وو أكثرُ برّاً، وإنَّ عينيه حمراوان من البكاء، حتى أنَّه جثا على ركبتيه، وإنَّ يان تزاو وحده من تصرَّفَ بوقاحة، وإنَّه لم يعاملها معاملةً حُسنَى، وكان يتشاجرُ معها دائماً، حتى أنَّه لا يجدُ مبرراً لتصرفاته الآن، وعيناه جافتان. ستكونُ حزيناً إن مات كلب، أليسَ كذلك؟ هذا الحثالةُ قاسي القلب، يجب أن يصعقه البرق!

وأمام هذه الأصواتِ الصاخبة، ظلَّ يان تزاو صامتاً.

المرأة القرمزية

الأفاعي كثيرةٌ في الجبال. تنسلُّ من مخابئها بين الأعشاب في الليالي الحارة، للاحتماء بالبرودة، تستلقي واحدةً واحدةً على الطريق، تلوَّى بنقوش أجسامها الرائعة، وتصوَّبُ نظراتٍ إلى المارة بعيونها الخضراء اللامعة، وامتدادِ ألسنتها، وارتعاشها، ترتجفُ كالزهور. لا تكون بالضرورة خطيرةً في هذه الأوقات. ذات مرة، بينما كنتُ عائداً إلى المنزل مساءً، أخطبُ ناعساً في مشيتي يميناً ويساراً، دسْتُ حافياً، ودون أن أنتبه على شيءٍ باردٍ ورخوٍ تحرَّك فجأة، وقبل أن تتسنى لي معرفة ما هذا الشيء، قفزتُ غريزياً من شدةِ الذعر، محاولاً باستماتةٍ وضعَ ساقي فوق رأسي. وبعد أن ركضتُ عدَّةَ تشانغ دونَ توقُّفٍ، خطرت في ذهني كلمة: أفعى! استجمعتُ شجاعتي وتفحصتُ ساقي، فلم أجد أيَّ لدغة، التفتُّ ولم أرَ ذيلَ أفعى يتبعني.

يقولُ الناسُ في الجبل إنَّ «أفاعي الشطرنج» تنتشرُ هنا، أي إنَّ جسمَها بالكامل يشبه لوحَ الشطرنج، كما تنتشرُ «منفاخُ الرياح»، وهي أفاعي الكوبرا، هجومُها أسرعُ من الريح، وصوتُ فحيحِها يبعثُ الرعبَ إلى حدِّ أنَّ خنازيرَ الجبل تتيبُّ في مكانها كأحجار.

كان أهل الجبل مقتنعين أنَّ الأفاعي فاسقة، لذلك كان صيادو الأفاعي يرسمون صورة امرأة على لوح خشبي، ويمسحونها بأحمر خدود، ومن الأفضل أن تبصق امرأة على اللوح، ثمَّ يُغرز على حافة الطريق أو أعلى التلَّة. ومن المُحتمل جداً أن يجدوا بعد مرور ليلة، أفعى ملتفة حول اللوح الخشبي، ثابتة لا تتحرك، كأنها ماتت من الثَّمالة، فيصبح من السهل على صيَّاد الأفاعي أن يضع فريسته في السلَّة. وانطلاقاً من المنطق ذاته قالوا، إنَّ الذي يخافُ الأفاعي ويسيرُ في الليل، من الأفضل أن يحمل عصا أو شريحة من الخيزران، إذ يُقال إنَّه عشيقُ الأفاعي، فإنَّ حملته، لن تجرؤ الأفعى على مهاجمتك.

إن صادفت أفعى سامةً في طريقك، ثمة طريقة واحدةٌ يستخدمها أهل الجبال، وهي أن يهتفوا بصوت عالٍ: «المرأة القرمزية». ويُقال إنَّ الأفعى تتجمَّد في مكانها إن هتفت بهذه الكلمات، ويُتاح ما يكفي من الوقت للهرب. أمَّا لماذا يجبُ الهتافُ بهاتين الكلمتين لا غيرهما، ومن أين مصدرهما؟ فلم يفصحوا عن أي تفاصيل.

في إحدى المرَّات، بينما كان يان تراو يرشُّ المبيدَ على التلَّة الشماليَّة، لدغته أفعى، فهرع عائداً وهو يبكي ويصيح، ظنّاً منه أنَّ أجله قد حان، واكتشفَ بعد ركضه لدقائق، أنَّ ساقه لا تؤلمه وليست متورَّمة، وأنَّ جسده ليس بارداً أو متشنجاً. بعد أن استراح جالساً، كان لا يزال على قيد الحياة، وبوسعه شربُ الماء ورؤية السماء وقرصُ أنفه. عاد إلى التلَّة في حالٍ من الترددٍ ليبحثَ عن الرشاش، لكنَّه ذُهلَ ما أن وصلَ المكان: أفعى بلون الطين، يبلغ طولها أكثر من ثلاثة أقدام، الأفعى التي لدغته للتو، ترقدُ ميتةً ومتيبسةً في حقل القطن.

كان أكثرُ سُمِّيَّةً من الأفاعي.

انطلقَ إلى بستانِ الشاي يملؤه الفضول، وبحثَ بين الأشجارِ حيث
تختبئُ الكثيرُ من الأفاعي ذاتِ اللونِ الطيني، مدَّ يده وجعلَ الأفاعي
تلدغه، وشاهدها تتلوَّى أسفلَ قدميه، وترتجف، إلى أن تتوقف بأعجوبة
عن الحركة.

عند حلولِ المغيب، جمعَ الأفاعي الميتة وحزمها بأخرى ميتة،
وحملها عائداً إلى المنزل، وظنَّ الناسُ لدى رؤيته من بعيد أنه يحملُ حزمةً
أعشابٍ مقطوعة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

هذا هو

حتى الآن، كلما تحدّثتُ عن يان تزاو أو غيره من الأشخاص استخدمت كلمة «هو - وتُنطق tā - 他». وثمة مرادفٌ لهذه الكلمة في ماتشياو وهي «渠 - وتُنطق qú». الفرقُ الوحيدُ هو أنَّ «他» تُستخدمُ للإشارةِ إلى الشخصِ البعيد، أي إلى ذاك الشخص، أمّا «渠» فتُستخدمُ للإشارةِ للشخصِ أمامك، الشخصِ القريب، أي إلى هذا الشخص. وأعتقدُ أنَّ أهلَ ماتشياو يرونَ كم هو مثيرٌ للسخرية وغيرُ قابلٍ للتصديق، أن يتحدثَ الغرباءُ الماندرين دونَ التفرقة بين «他» و«渠».

لديهم أيضاً بعضُ النكات، مثل «سيدٌ هناك (他) خادمٌ هنا (渠)»، «هذا هو» - تصف تعبيراً سخيماً عن السخرية من الذي يتظاهر بالتواضع أمام الناس، في حين يتصرف بعجرفة خلفَ ظهورهم. هنا، ورغم أنَّ الكلمتين تشيران إلى الشيء نفسه، فإنَّ طبيعتهما مختلفةٌ كلياً، ولا يمكنُ الخلطُ بينهما.

استخدمَ القدماءُ كلمة «渠» أيضاً للدلالةِ على الأشخاص. وردَ في كتاب (سجلات الممالك الثلاث): «عاد زوجُ ابنتي في الأمس، لا بدَّ أنَّه هو (qú) السارق». كما كانوا يستخدمون هذه الكلمة (التي تعني أيضاً

قناةً أو مجرى) في نَظْمِ القصائد: «ليكونَ الغديرُ صافياً هكذا، يجبُ أن تكون هناك مياهٌ جارِيَةٌ في منبعِهِ» (من أقوال تجو شي).. «عندما يلسعُ البعوضُ الجرارَ الزراعي، لا يمكن له (qú) أن ينشب أسنانه^(١) فيه». (الأغاني الشعبية القديمة)... على أننا لا نرى عبرَ هذه السطورِ الشعرية، معنى (qú) المرتبطَ بالمسافةِ القريبة. لطالما شعرتُ سرّاً أنَّ التمييزَ المتعمّدَ والعنيدَ بين المكانةِ المُتعيّنةِ للآخرين في اللغة، كان أمراً دخليلاً على أهل ماتشياو وغيرَ ذا أهمية.

وإلى الآن، لم يَقم أحدٌ بهذا التمييز بين الكلمتين في الماندرين - التي يرى متحدثوها أنَّها كافية - أو في الإنجليزية، الفرنسية، الروسية وغيرها من اللغات.

عدتُ إلى ماتشياو بعد مرورِ سنوات، وسمعتُ كلمة «qu» مجدداً، ورأيتُ الكثيرَ من الوجوه المألوفة والغريبة من الـ «qu». إلّا أنني لم أَرِ يان تزاو ك قريب - ك تشو. تذكّرتُ حين ساعدنا في جمع الحطبِ وحمله، وتعرّضنا له باستمرار، مثلاً نسرقُ منه - على غفلةٍ - المبيدَ الحشري، ونمزجُه بالحبوبِ لِنُسَمِّمَ الفئرانَ والدجاجَ والبط، أو نستبدله بالطحين من تعاونية التوريد والتسويق، ونُعَرِّضُه للتوبيخ واللوم الشديدين من كوادِرِ القرية.

أتذكّرُ تحديداً مظهرَه المضطرب؛ وجهَه المحتقن، وعروقُ جبهتِه النافرة، كأنَّها على وشكِ الانفجار، ينفجرُ غاضباً كلِّما رأى أحداً، ويزجرُ

(١) الأسنان هنا مجازية، لأنَّ البعوض ليس له أسنان، وإنما لأنثى البعوض ٤٧ حافة حادة في خرطوم اللسع، والأنثى هي التي تلسع وتمتص الدم، وليس الذكر الذي يتغذى على عصارة النباتات ورحيق الزهور.

ويصرخُ فينا بشراسة، معبراً عن شكوكِه إزاء تورطنا في المؤامرة. على أن ذلك لم يمنع مساعدته لنا في قطع الأخشاب أو حمل الأشياء، يكفي فقط أن نرى كتفيه دون أحمال، فنبتسم ونشير بأيدينا، ليذهب مغمماً إلى الحمولة الثقيلة.

لم أعثر عليه، وقال أهالي القرية إنَّ أحداً طلبه للعمل في بلدة لونج جياتان، وإنَّ زيارة منزله مستحيلة، ولا مبرر لها. كانت زوجته شديدة اليقظة^(١)، لا تجيّد حتّى الطبخ، وعند جمع المحصول، تجمع وتجمع إلى أن تسقط بمؤخرتها الكبيرة في الطين، كانت شخصاً من هذا الصنف.

ومع ذلك ذهبت؛ اتجهت صوب الباب الأسود القاتم وسط ضحكات الناس الساخرة، رأيتُ يقطينات مملوءة بالبذور معلقة على الحائط، والعديد من جلود الأفاعي الجافة البشعة، بدت مثل سجاجيد ملونة. رأيت - كما هو متوقع - ربّة المنزل في مظهر فوضوي وشعرٍ مُشعث، رأسها كبير، كأنَّ كلَّ ما تأكله يتجه وينمي رأسها، وعلى جبهتها تلمع ندبة ظاهرة، لا أعرف سببها. كانت لا تضحك حين ينبغي الضحك، وحين لا ينبغي الضحك تنفجرُ مقهقهة، كما أنَّ لطفها تجاهي كأننا أصدقاء، أشعرتني بشيء من الغرابة. وضعت أمامي كوب شاي، لم أشرب، بل ألقيتُ نظرة ورأيتُ على حوافّ الطبق لطخات سوداء دهنية جعلتني أشعرُ بالغثيان لبعض الوقت. بوجود ربّة منزل كهذه، لم تكن أرضية المنزل في الداخل مستوية، بل إنَّها أشدُّ وعورة من الخارج، فإن لم تأخذ حذرَكَ أثناء سيرك سiltوي كاحلك. الملابس الملونة بمختلف الألوان، تحوّلت في الواقع إلى لونٍ واحد، لونٍ رماديٍّ باهت، مكومٍ بفوضى على السرير. فجأة، سحبت

(١) انظر مدخل «اليقظة».

السيدة شيئاً من الداخل أفرعني، له أنفٌ وعينان، كان طفلاً، ولد هشتي
لم يصدر عنه أيُّ صوت، حتى أصوات الضحكات منذ قليل لم توقظه،
وكان ثمة ذبابتان أو ثلاث تتسلقُ وجهه، وعيناه مغلقتان.

كدتُ أشكُّ في أنَّه طفلٌ ميت، وقد أخرجته ربَّةُ المنزل لتقومَ بعرضِ
فحسب.

أعطيتها عشرين كواي في الحال.

كان هذا بالطبع بخلاً ونفاقاً إلى حدٍّ ما، كان بوسعي أن أعطيها
ثلاثين كواي، أربعين، خمسين أو نقوداً أكثر، لكنني لم أفعل ذلك، كانت
العشرون كواي كافيةً وفقاً لحساباتي وتقديراتي التي لم أصرح بها. ماذا
تكفي العشرون كواي؟ لم يكن تعاطفاً مع يان تراو، بقدر ما هو تحقيقُ
نوعٍ من الاشتياق، تعويضٌ عن نوعٍ من الذنب، استعادةٌ سلامٍ نفسي
ورضاً داخلي، وأيضاً استردادُ شعوري الذاتي بعزة النفس. خطر ببالي
أنَّ العشرين كواي كافيةٌ لدفعي إلى الغناء بسرعة، كافيةٌ لجعلي أعبثُ
بكاميرتي بسرعة، كافيةٌ لأنَّ أغادرَ هذا المنزلَ القذرَ البالي، إلى كنف نورِ
الشمسِ وغناء الطيور، وهذا حقاً ثمنٌ رخيصٌ جداً. إنَّ ظننتُ أنَّ عشرين
كواي ستجعلُ ذكرياتي القادمةً مفعمةً بالشاعرية والبريق الوردِي، حينها
سيكونُ المقابلُ قليلاً بالفعل.

تركتُ طبقَ الشاي في مكانه، وغادرت.

كنتُ أمكثُ في المساء في دارِ الضيافةِ التابعةَ لحكومةِ البلدة، دقَّ
أحدُهم بابي، وحين فتحت، لم يكن هناك أثرٌ لإنسانٍ في الخارجِ المعتم،
لا شيءَ إلَّا حطبٌ دخلَ مباشرةً إلى الغرفة. أخيراً رأيتُ بوضوحٍ أنَّ

يان تراو خلفها. بدا أشدَّ نحافةً من الماضي، كلُّ عَظْمَةٍ في جسده بارزة، وجسده كاملاً مجرَّدُ تركيبٍ عجيبٍ من زوايا حادة، لا سيما تفاحة آدم الناتئة، التي بدت كأنَّها ستقطعُ عنقه. كان فمه من الداخل أشدَّ احمراراً حين ابتسم، وبانت كلُّ لِيَثَّةِ السمكة.

لم تكن كتفاه خاليتين، إذ حمل حزمةَ حطبٍ لمسافةٍ تزيد عن عشرة لي.

من الواضح أنَّه جاء لزيارتي، ويبدو من لفتته، أنَّه يريد أن يهديني حزمةَ الحطب مقابل الحصول على اهتمامي وتعاطفي؛ ربما لم يجد شيئاً في منزله أكثرَ قيمةً من هذا.

كان لا يزال غيرَ معتادٍ على الكلام، يتفوه بمقاطع قصيرةٍ من حين لآخر، وغير واضحةٍ أيضاً، ويهزُّ رأسه معظمَ الوقت، موافقاً أو رافضاً رداً على كلامي، ليدفعَ بالمحادثة إلى الاستمرار. أدركتُ لاحقاً، أنَّ ذلك لم يكن العقبة الرئيسة أمام أحاديثنا، حتى لو كان ثوراً أبكم، بل لأننا لا نجدُ أيَّ موضوعاتٍ نتحدَّثُ فيها، فعدا الاسترسال في الكلام عن المناخ وحصاد العام، لم أدِرِ ما ينبغي عليَّ قوله، لم أدِرِ ماذا أقولُ لأثيرَ نظراته، وأجعله يُظهرُ أكثرَ من إيحاءاتِ الرأسِ أو هزّها. فاقمَ صمته من شعوري أكثرَ فأكثرَ بأنَّ الكلامَ فائضٌ عن الحاجة. كنتُ أتحدَّثُ عن أيِّ شيء: قلتُ إنَّكَ ذهبتَ اليوم إلى لونغ جياتان، وأخبرته أنَّني زرت منزله اليوم، وقابلتُ فوتشا وتجونغ تشي، وهكذا. استخدمتُ هذا الكلامَ التافهَ لربطِ الصمتِ قطعةً قطعةً على شكلِ محادثة.

لحسن الحظ كان هناك تلفزيون أبيض وأسود في الغرفة يعرضُ فيلماً قديماً عن فنون القتال، تظاهرتُ بالحماس، مركزاً نظراتي مراراً وتكراراً

إلى ركلاتِ الملائكةِ العاليةِ لمحاربي الكونغ فو، السيداتِ الشاباتِ
والرهبانِ المسنين، كذريعةٍ للصمت.

حالفني الحظُّ كذلك حين دفعَ طفلٌ لا أعرفُه بمخاطٍ في أنفه البابَ
مراتٍ عدَّةٍ ودخل، ومنحني شيئاً أنشغلُ به. سألتُه عن اسمِه، ووضعتُ
له مقعداً، وتحدَّثتُ مع المرأةِ التي لحقتهُ عن عمرِه، وعن سياسةِ تخطيطِ
الإنجابِ في الريف.

مرَّت نصفُ ساعةٍ تقريباً، بمعنى آخر، وصلَ لُ الشملِ واستعادةُ
الذكرياتِ إلى الهدفِ الزمني المحدد، وأمكنا الافتراق. نصفُ ساعةٍ
ليست عشرَ دقائق، ليست خمسَ دقائق، نصفُ ساعةٍ ليست خاطفةً،
ولا مملَّةً، لن تكونِ خاويةً أو عديمة الأهمية، بعيشِها، سنحظى بصديقٍ
في ذكرياتنا. وأخيراً استطعتُ تحمُّلَ رائحةِ العشبِ الزنخةِ الغريبةِ التي
تنبعثُ من جسده، رائحةٌ تشبه رائحةَ قَطْعِ البامبو الناضج. يبدو أنني
على وشكِ تحقيقِ النجاحِ بعد مرورِ كلِّ هذا الوقتِ المؤلمِ الطويل.

نهَضُ واستأذَنَ بالانصراف، وتحت إصراري الشديد حملَ الحطبَ
الثقيلَ مجدداً، وأصدر ضحكةً قويةً «هاها» صوبي، كأنه سيتقيأ. من
المؤكد أنَّ لديه كلاماً كثيراً يقوله، لكنَّ الكلامَ خرجَ على هيئةِ هذا التقيؤ.
حينَ خرج، لمعت فجأةً دمعةٌ في زاويةِ عينيه.

كان وقعُ خطواتِه في الليل بيتعدُّ شيئاً فشيئاً.

رأيتُ تلكَ الدمعة، حتى وإن كان النورُ خافتاً في ذلك الوقت،
ظَلَّتْ هذه الدمعةُ محفورةً بعمقٍ في ذاكرتي، ولم أتمكن من إغلاقِ عيني
ومحوها كلَّها مرَّةً واحدة، كانت نوراً ذهبياً، عجزتُ عن نسيانها حين

استرخيتُ وتحففتُ من الابتسامةِ الجامدةِ على وجهي. كان شعوراً يصعبُ الإفلاتُ منه؛ عجزتُ عن نسيانها عند مشاهدي أفلامِ الفنون القتالية، عجزتُ عن نسيانها وأنا أغسلُ قدمي في طستِ ماءٍ ساخن، عجزتُ عن نسيانها وأنا أركبُ باصَ الرحلاتِ الطويلةِ وأصرخُ في رجلِ سمينٍ أمامي، عجزتُ عن نسيانها وأنا أشتري الجرائد، عجزتُ عن نسيانها وأنا أحملُ المِظلةَ وأذهبُ إلى سوقِ الخضراواتِ وأشتمُ رائحةَ السمك، عجزتُ عن نسيانها تحت ضغطِ لطيفٍ ولكنه مُلحٌ من اثنين من النخبةِ الثقافيةِ لمشاركتها في تعديلِ موادَّ تعليميةٍ حول قوانينِ المرور، والذهابِ إلى مكتبِ الأمن العام ورشوةِ رئيسِ المرور للحصولِ على حقوقِ التوزيعِ الإلزامية، عجزتُ عن نسيانها حين استيقاظي.

تلاشى وقعُ خطواته في الليل.

كنت أعلمُ أنَّ هذه الدمعةَ تنتمي إلى البعيد. غالباً ما يصبحُ الأشخاصُ البعيدون، المفصولون عنا زمانياً ومكانياً، لطفاءً، مؤثرين ورائعينَ من خلالِ تصفيةِ الذاكرة، يصبحون أطيافاً ملوَّنةً تُحيطُ بتخيلاتِ أرواحنا، لكن ما أن يقتربوا، ما أن يتحولوا إلى «qu» ونراهم أمامنا، يتغير الأمر. إذ إنَّهم من المُحتمَل أن يتحولوا إلى غرابيةِ ضبابيةٍ وغيرِ مثيرةٍ للاهتمام، مُحاطين كُلياً بطيَّاتٍ مختلفةٍ من الخبراتِ والاهتماماتِ والكلام، لا يمكنُ النفاذُ إليها، وليس لديهم ما يقولونه لي - مثلما أكونُ أنا مختلفاً تماماً في أعينهم، ومعزولاً عن ذكرياتهم.

ما رغبتُ في العثورِ عليه «هو البعيد - tā»، لكنني لم أجد إلا «هو القريب - qu».

عليّ أن أهرب من «هو القريب - qu»، كما أنّني عاجزٌ عن نسيان
«هو البعيد - tā».

ميّزت لغةُ ماتشياو بحكمةٍ بين «qu» و«tā» للإشارةٍ إلى الاختلافِ
الكبيرِ بين القريبِ والبعيدِ، بين الحقيقةِ والوصفِ، وبين الحقيقةِ الظاهرةِ
والحقيقةِ على أرضِ الواقعِ. في تلك الليلةِ رأيتُ جليّاً لمعانَ دُمعةٍ صامتةٍ،
حين خطا خطوةً من «qu - هو القريب» إلى «tā - هو البعيد» هذا الرجلُ
المُرْكَبُ بمجموعةٍ من الزوايا الحادةِ الذي يحمل الحطب.

الكونفوشية

أعطيتُ زوجة يان تراو عشرين كواي، تلقتُها بسعادةٍ بالغة، وهي
تتفوهُ بشَتَّى الكلام المهذَّب:
- يان تراو يتحدثُ عنكم دائماً.
- كيف لك أن تكون كونفوشياً هكذا؟

تعني «الكونفوشية» في مفرداتِ ماتشياو التآدُب، والتحلي بالأخلاق،
والاهتمام بالمبادئ العامة، والجديّة والإسهاب في الكلام قليلاً، وعموماً
لا تحملُ هذه الكلمةُ أيَّ دلالةٍ ازدراءٍ أو ذم.

لكن عند التفكير في مقدارِ النفاقِ والتزييفِ الذي حمّله المعتقدُ
الكونفوشي على مرّ السنين، لم تكن هذه الكلمة ذاتَ وقعٍ طيبٍ على
نفوسِ الغرباء. يبدو أن أعمالَ الناسِ الصالحة، كمنحِ عشرين كواي،
ليست نابعةً من صدقٍ داخلي، وليست نابعةً من غريزةٍ طبيعية، بل
نتيجةٌ لتلقينٍ وقيودٍ ثقافية، وهذه حتماً فكرةٌ مُحْبِطَةٌ. هل يمكن أن يكون
هناك تعاطفٌ حقيقيٌّ وتقاربٌ بين الناسِ خارجَ حدودِ «الكونفوشية»؟

هل استبدلَ أهلُ ماتشياو مترادفاتٍ مثل العطف، النية الطيبة، اللطف
بكلمة «الكونفوشية» لأنَّهم عجزوا عن التخلُّصِ من الشكوكِ العميقةِ
حول طبيعة الإنسان؟ وكم من المحسنين يشعرون بالخوفِ والحزني إزاء
هذه الشكوك؟

الجلدُ الأصفر

«الجلدُ الأصفر» كلب، كلبٌ أصفرٌ عادي، لا يحملُ أيَّ مميزاتٍ أخرى لنستنبطَ منها اسماً. لا نعرفُ من أين أتى، ولا يبدو أنَّ له سيداً. ولأنَّ الشبابَ المتعلِّمَ لديه الكثيرُ من الطعامِ والحبوبِ، كما يرسلُ لهم آبائهم بعضَ الإعانات، فقد كانت قدورهم تفوحُ بروائحٍ أزكى. على أنَّ هؤلاء الأشخاصَ لم يتخلصوا تماماً من عادةِ الإسرافِ، فكانوا يلقون بالأرز المتعفنَ والخضراواتِ الفاسدةِ على الأرضِ أو في المصرف. وبمرورِ الوقت، كان الجلدُ الأصفرُ يأكلُ حتى يشبع، وبدأ أنَّه وجدَ ملاذاً، وكانت عيناه المفعمتان بالأملِ مسمرتين دوماً على أطباقنا.

كان يألَفُ أصواتَ الشبابِ المتعلِّمِ أيضاً؛ إن أردتَ مُناداته من بعيد، أو أردتَه أن يهاجمَ هدفاً ما، فعليكَ الحديثَ بلهجةِ مدينةِ تشانغشا، إذا تحدَّثتَ بلهجةِ ماتشياو، يلتفتُ برأسه يميناً ويساراً ويقفُ مكانه. غضبَ أهلُ ماتشياو بشدَّةٍ حين عرفوا ذلك.

حتى أنَّه كان يألَفُ أصواتَ أنفاسنا ووقعَ خطواتنا. كنَّا نذهبُ في المساءِ أحياناً إلى القرى المجاورة لزيارة الأصدقاء، أو نذهبُ إلى الكومونة لإجراءِ مكالمةٍ هاتفيةٍ، ونعودُ إلى القريةِ في ساعةٍ متأخرةٍ من

الليل. فتسلَّق قَمَّةَ تِيان تزي، حيث تكون قرية ماتشياو أسفلنا، تبعد عنا على الأقل خمسة أو ستة لي، غارقة في نور القمر الباهت الغائم، المتدفق برفق. في هذه اللحظة، يكون لا ضرورة للكلام، فضلاً عن الصَّفير، إذ تصدرُ حركةً من ماتشياو، ويندفع صوتُ حوافرٍ متقطعٍ وسريعٍ من جوفِ نور القمر، يقتربُ أكثر فأكثرَ بمحاذاةِ الدرب المتعرج، ويغدو أسرعَ فأسرع، متحولاً في النهاية إلى ظلٍّ أسود صامت، يقفزُ على أكتافِ ملابسنا أو ياقاتنا معبراً عن الترحيب بنا.

هذا ما كان يحدثُ كلَّ مرَّة. كان يلتقطُ ويُدركُ أيَّ صوتٍ على بعد خمسة أو ستة لي، لا يدخرُ جهداً في ملاقاتنا بحماس، فيصبحُ دائماً دفناً يرافقنا نحن العائدون في الليل، ومأوى نحتضنه مسبقاً.

لا أدري كيف استطاعَ البقاءَ حيّاً بعد رحيلنا عن ماتشياو. أذكرُ فقط أنَّه بعد أن عَضَّ كلبٌ مسعورٌ العم لُوه، شنت الكومونة حملةً كبيرةً للقبضِ على الكلاب. وقال بن يي إنَّ الجلدَ الأصفرَ كان الأشرسَ من بينها، والأكثرَ الذي ينبغي ضربه، كما أنَّه رفعَ البندقيةَ بنفسه، وأطلقَ ثلاثَ طلقاتٍ أخطأت القضاءَ عليه. جرَّ الجلدُ الأصفرُ ساقه الخلفيةَ النازقة، وانطلقَ إلى الجبالِ يعوي.

سمعنا في المساء نباحَ كلبٍ قريبٍ من بيتنا، نباحٌ مألوفٌ، استمرَّ لياليَ عدَّة. ربما كان مُستغرباً، كيف له أن يسمعَ صوتَ خطواتنا من بعيد، ولا نسمعُ نحن نباحه القريبَ طلباً للمساعدة؟

كنا حينذاك منشغلين بالبحثِ عن عملٍ للرحيلِ عن ماتشياو، ولم نعره اهتماماً، حتى أننا لم ننتبه متى توقَّف عن النباح.

حين زرتُ ماتشياو بعدُ سنواتٍ، تعرَّفتُ عليه، تعرَّفتُ على عرجه
بسيقانه الثلاث. نظرَ إليَّ نظرةً خاليةً من أيِّ تعبير، وعاودَ الاستنادَ
على أسفلِ الجدارِ وأغلقَ عينيه ونام. كان عجوزاً هزليلاً، قضى أغلبَ
الوقتِ مستلقياً، ولا يفهمُ لهجةَ تشانغشا. وعندما لمستُ رأسه، ارتجفَ
واستيقظَ فجأةً، ثم التفتَ بفضاضةٍ ليعضَّ عضَّةً كبيرةً، لكنَّه بالطبع لم
يعضني، بل قبضَ بشدَّةٍ على يدي بأسنانه تعبيراً عن تهديده وكراهيته.
نظرَ هذا الكلبُ الصامتُ إليَّ مجدداً، وأحنى رأسه وغادر.

دُوارُ الشارع

رغمَ وجودِ كلمتيّ في الماندرين مثل «دُوارُ البحر»، «دُوارُ الجو»، فإنّها لا تضمُّ كلمة «دُوارُ الشارع» التي يستخدمها أهلُ ماتشياو. ودُوارُ الشارع مرضٌ تشبه أعراضُه دُوارَ البحر، لكنه يحدثُ فقط في أسواقِ المدينة، ويصاحبه زرقةٌ في الوجه، عدمٌ وضوحِ الرؤية والسمع، وفقدانُ الشهية، الأرق، والإرهاك، نقصُ الطاقة، الشعورُ بالاختناق، الحمّى، الخفقان، التقيؤ والإسهال وغيرُها، وحينَ تُصابُ النساءُ بهذا المرض، يعانين من عدمِ انتظامِ الدورة الشهرية، ونقصِ اللبنِ بعد الولادة. العديدُ من أطباءِ الطب التقليدي في منطقة ماتشياو يقدمون صفاتٍ طبيّةً لدُوارِ الشارع، مثل العوسج الصيني، درنة الـ «غاستروديا» والجوز.

ولهذا، فأهلُ ماتشياو قلّمَا يمضون الليلَ في شارع تشانغ لي وهو الأقربُ لهم، فضلاً عن الإقامة هناك لفترةٍ طويلة. كان غوانغ فو من القرية العليا يدرسُ في مركز المحافظة، بعد أكثرِ من شهرٍ أُصيبَ بنوبةٍ حادةٍ من دُوارِ الشارع، وفقدَ قدرًا هائلًا من الوزن. عاد إلى الجبل وهو على حافة اليأس، قال فظيع، فظيع، المدينة ليست مكانَ البشر! تمكّنَ لاحقاً من الحصول على الدبلومة، وحصلَ على وظيفةٍ في المدينة، ما كان

أعجوبةً في نظر أهل ماتشياو. تمثلت خبرته في التعامل مع دُوارِ الشارع: تناول الكثير من المخلل. اعتمد فقط على تناول جرّتين من المخلل والمشى حافي القدمين ليتمكن من الصمود في المدينة لأكثر من عشر سنوات.

كان دُوارُ الشارع أحدَ المواضيع التي تجادلتُ بشأنها دائماً مع أهل ماتشياو، إذ انتابني شكٌّ أن هذا ليس مرضاً حقيقياً، أو أنّه على الأقل مرضٌ أسّيء تشخيصه. فليس ثمة حركة سياراتٍ أو مراكبٍ أو طائراتٍ في المدينة، وأغلبُ الموجود دخانٌ فحمٍ أكثر من الريف، ورائحةُ البنزين، والمبيضاتُ في المياه والضجيج، ومن غير الممكن أن يسبّب مرضاً. في الواقع، لم يعانِ الملايين من سكانِ المدن من هذا المرض. وبعد رحيلي عن ماتشياو، قرأتُ بعضَ الكتب التي زادت من شكوكي حيالَ دُوارِ الشارع، وأنّه مجردُ إشارةٍ نفسيةٍ خاصة، كالتنويم المغناطيسي؛ طالما لديك الميلُ النفسي للقبول، فقد تنامُ حقاً إذا قيلَ لك نَمْ، وربما ترى أشباحاً إذا سمعت حديثاً عن الأشباح. وبالمنطق ذاته، فالشخص الذي تلقى مبادئ مفهوم الصراع الطبقي وتوخي اليقظة إزاء نشاطات العدو على مدى فترةٍ طويلة، من المحتمل أن يرى الأعداء في كلِّ مكانٍ في حياته، بمجرد أن تؤديِ العداوةُ المفترضةً بالنسبة له إلى اشمئزاز الآخرين ونفورهم، وتثيرُ حتى نوعاً من الانتقامِ العكسي، فإنَّ حالةَ العداوةِ الفعلية ستُثبتُ بدورها توقعاته وتجعلُ عدوانه أكثرَ منطقية.

يكشفُ هذا النوعُ من الأمثلة عن نوع آخر من الحقائق. لا، بالمعنى الدقيق للكلمة، إنّها ليست حقيقة، ولكنها حقيقةٌ من الدرجة الثانية أُنشئت حديثاً، أو حقيقةٌ متجدّدة.

لا يملك الكلب لغة، لذلك لا تُصاب الكلاب بدوار الشارع. ما أن يتحوّل البشر إلى كائنات اللغة، تصبح لهم إمكانات مختلفة كلياً عن الحيوانات الأخرى، لذا بمقدورهم تسخير القوى السحرية للغة، فتصبح الكلمة نبوءة، ويخلط الصخب العام بين الصواب والخطأ، فتختلق الخرافات، وتُصنع حقائق عجيبة واحدة تلو الأخرى. وبعد أن راودتني هذه الفكرة، أجريت تجربة على ابنتي. ركبنا السيارة، وأخبرتها في البداية جازماً أنّها لن تُصاب بدوار الحركة، فظلت طيلة الطريق مرحة، ومبتهجة، ولم تشك من شيء. وفي المرة الثانية لركوبنا، حذرنا أنّها ستُصاب بدوار الحركة، والنتيجة، كانت عصبية المزاج، تتلملّم في جلستها، إلى أن قطبت حاجبيها وشحب وجهها وارتمت في حضني، وأُصيبت بالدوار قبل أن تتحرك السيارة. لا يمكنني القول إنّني كررت هذا النوع من التجارب وحصلت على نتائج ملموسة، لكن هذا كان كافياً لإثبات أنّ اللغة ليست شيئاً يُستخفّ به، وأنّها مُنتج خطرٍ ينبغي التعامل معه بحذر واحترام. اللغة تعويذة ما، والقاموس هو صندوق يمكنه إطلاق آلاف الأرواح والأشباح. كمخترع دوار الشارع، هو شخص لا أعرفه، خلق التركيب الفيسيولوجي الفريد لأجيالٍ من أهل ماتشياو، وخلق تجنّبهم المدينة لفترة طويلة.

إذن ماذا عن كلماتٍ مثل «الثورة الثقافية»، «المعرفة»، «مسقط الرأس»، «المدير»، «سجين يقضي عقوبة الإصلاح من خلال العمل»، «الإله»، «الفجوة بين الأجيال»... إلآ أدّت هذه الكلمات في ظل ظروف مماثلة؟ وماذا ستصنع في المستقبل؟

لم يكن بمقدوري إقناع أهل ماتشياو.

علمتُ لاحقاً أنه لولا دُوار الشارع، لكاد بن يي يأكل من حبوب البلد^(١)، فحين عاد من الحرب الكورية، اعتنى بالخيول في مكتب مفوضية المنطقة، وكان من المُحتمل أن يصبح كادراً، كان ثمة مستقبلٌ مشرقٌ يمتدُّ أمامه. لكنّه مثل أهل ماتشياو الآخرين، لازمه شعورٌ أنّ العيش مملٌ في المدينة، فقلماً تعرّض على شاي الزنجبيل بالفول والملح، ولا تسمعُ خريرَ المياه تحت سماء الصيفِ المرصعة بالنجوم، ولا لَسعُ للركبتين وما بين الفخذين بجوار حفرة النار... كان من الصعبِ على الآخرين فهمُ لهجته. كما كان عاجزاً عن الاستيقاظ مبكراً مثل أهل المدينة، ودائماً ينسى زراً بنظونه مفتوحاً، ويتعرّض للسخرية من زملائه، ولم يعتد تسمية (كوخ المرحاض) بدورة المياه، ولا على التفريق بين حمامات الرجال والنساء.

وقد تعلّم بعض العادات من زملائه، مثل غسل الأسنان، واستخدام القلم الحبر، وحتى لعب كرة السلّة. في المرّة الأولى التي لعب فيها، كان يركّض هنا وهناك ويتصبّب عرقاً، إلى حدّ أنّه لم يلمس الكرة. في المرّة الثانية، حين أمسك لاعبٌ من الفريق الآخر بالكرة ليسجّل هدفاً، صرخ بن يي فجأة: «توقّف!»، فتوجهت النظراتُ كلّها إليه، دون أن يحزّر أحداً ما يجري. خرج من الملعب على مهل، وتمخّط، ثم عاد إلى الملعب، ملوّحاً بيديه للاعبين كأنّ شيئاً لم يكن قائلاً: «لم الإسراعُ هكذا؟ لم؟ تمهلوا قليلاً».

(١) ذكرت عبارة «أكل حبوب البلد» في مدخل «الرفيق القديم»، والمقصود الذهاب إلى المدينة والعمل موظفاً أو عاملاً.

لم يعرف لماذا انفجر الجميع ضاحكين في الملعب، كما شعر بشيء من الحُبث في ضحكاتهم، ما هو غير اللائق في تمخّطه؟

في فصل الصيف يشتدّ القيظُ في شوارع المدينة، قيظٌ أشدُّ من الريف، حرارةٌ لا ترحم. حين كان يتجوّل في الشوارع في المساء، يرى بعض الطالبات اللواتي يعبرنَ أمامه، مرتديات ملابسٍ منحطّة، تكشفُ الشورتات عن أفخاذهن وسيقانهن. كما يرى أسرّةً من الخيزران مصفوفةً أسفل ظلال الأشجار، حيث تجلسُ هناك نساءٌ غريباتٌ يهوين على أنفسهن بالمرآوح للنوم. وكانت تفوح رائحةٌ تشبه رائحة اللحم المطبوخ من ذقونهن، أقدامهن العارية، شعور آباطهن أو بياض بشرتهن الذي يظهر بين حينٍ وآخر من ياقات ملابسهن، فتسري سخونةٌ في كلّ جسده، وتتسارع أنفاسه، ويشعرُ بألمٍ شديدٍ يحيطُ برأسه، من المؤكد أنّه دوارُ الشارع. دهن نصفَ علبة «مرهم النمر» دون فائدة، وجعل أحدهم يزيلُ بثوراً حمراء على ظهره، وظلّ ألمُ رأسه شديداً كأنّه سينفجر، وظهرت قروحٌ حول فمه. أمسك كُمّي قميصه وذرع الشارع جيئةً وذهاباً بغضبٍ شديد، ثم ركل سلّةً مصنوعةً من القشّ بعيداً وقال: «أنا راحل!».

عاد من الريف بعد أيام، وقد تبدّد غضبه، وأخرج من جيبه بابتهاجٍ كعك البابا من الجبال، ووزّعه على زملائه لتجربةٍ مذاقٍ جديد.

ما حدث وقتها أنّ إحدى اللي.غي.لانغ (انظر مدخل «لي.غي.لانغ») من بلدة تجانغ جيا فانغ، أرملة تكبره باثني عشر عاماً، سمينة كبرميل، أخذت غضبه.

كان مكتب مفوضية المنطقة يبعدُ عن ماتشياو رحلةً يومين، لذا لم يكن بوسعه العودة دوماً للتخلّص من غضبه. فأخطر مديره بأنّه يعاني

من دُوارِ الشارع، وأنَّ أهلَ ماتشياو كلَّهم يُصابون بهذا المرض الذي يمنعهم من الاستمتاع بحياتهم. كان يأمل العودة إلى الجبال ليعتني بحقله ومساحته اثنا مو. اعتقد المدير أنَّه منزعجٌ من الاعتناء بالخيل، لذا كلَّفه بوظيفةٍ أخرى: حارس في مكتب الأمن العام. ورأى زملاؤه من وجهة نظرهم أنَّه جاحدٌ لهذه الخدمة، إذ إنَّه في اليوم الثاني لتولِّيه الوظيفة، عاملٌ زوجةَ المدير بأسلوبٍ يفتقر إلى اللياقة. كانت المرأة حينها تتفحَّصُ معطفاً على السرير، يداها تمسكان حافَّته، ومؤخرُها مرتفعة. ابتهجَ بن يي إلى حدِّ ما، وصفَعَ تلك المؤخرة الجذَّابة: «إلامَ تنظرين؟». ذهلت المرأة، وتورَّدَ وجهُها ووبَّخته قائلة: «من أين جئت أيها النذل البغيض؟ ما الذي تظنُّ أنَّكَ تفعله؟».

- «لمَ الإهانة؟» ثم قال لسكرتيرٍ يقفُ إلى جانبه: «لماذا فمُّها قدرٌ هكذا؟ لقد ضربتُ ضربة...».

- تصرَّفتَ بوقاحة وتجرَّؤ على الكلام كذلك!

- ما الذي قلَّته؟

بدأ بن يي التحدُّثَ بلهجةٍ ماتشياو وقد سيطرَ عليه التوتر، فخرجت الكلمات متشنَّجة، ولم يستطع أحد فهمَ ما يقول، إلَّا أنَّ تلك المرأة الكريهة تراجعت بعيداً إلى زاوية الجدار، وسمَّعها تنطق كلمةً بوضوح: فلاح!

لاحقاً، أراد المديرُ التحدُّثَ معه، إلَّا أنَّ بن يي لم يفهم السببَ مطلقاً. يا له من شيءٍ مضحك، هل يُعدُّ ما فعله خاطئاً؟ هل هذا تجاوزٌ لحدودِ التأدبِ واللياقة؟ لم يتجاوز الأمرُ صفةً، أيّاً كان الموضع، مَنْ

في القرية لم يصفعه بن يي على مؤخرته؟ تمالك نفسه وكان صبوراً، ولم يتجادل مع المدير.

أصرَّ المديرُ على البحثِ عن سببِ سلوكه الخاطئ.

- «لا يوجد سبب، أنا أعاني فقط من دُوارِ الشارع، كلما جئتُ هنا، اشتدَّت حرارتي، وآلني رأسي، واستيقظتُ منهكاً كلَّ يومٍ كأنني ضُربتُ».

- ماذا تقول؟

- أقول إنني أعاني من دُوارِ الشارع.

- ما دُوارُ الشارع؟

المدير ليس من ماتشياو، لذا لم يفهم ما يعنيه دُوارُ الشارع، كما لم يصدِّق شرحَ بن يي، وأصرَّ على أنَّه يراوغه بالتفوه بالهراء. والأمْر الذي أبهجَ بن يي، أنَّه نال حظاً بسببِ هذه الكارثة، فصفعةٌ واحدةٌ ستؤدي إلى عقابه، وتفصله من عمله، أي بوسعه العودةُ إلى البيت، وشربُ شاي الزنجبيل بالفول والملح كلَّ يوم، والنومُ إلى ساعةٍ متأخرةٍ من النهار! حينَ أخطَرَ بوجوبِ عودتهِ إلى القرية، سبَّ بفرح، وذهبَ بمفردهِ إلى المطعم، وتناول بشرهةً طبقاً من الشعيرية باللحم، وشرب كأسين أو ثلاثة من الخمر.

بعد سنواتٍ، ذهبَ بن يي إلى مركزِ المحافظة لحضور أحد اجتماعاتِ الكوادر، وقابل زميلاً له يُدعى «خو» فلان، الذي عمِلَ مراسلاً مبتدئاً في مكتب مفوضية المنطقة سابقاً. أصبح خو موظفاً حكومياً، وكان يتحدث في الاجتماع عن «القضايا الثلاث الأساسية»، «الروابط الأربعة»،

«الإنجازات الخمسة»، أمورٌ لم يفهمها بن يي مُطلقاً. طريقةٌ خَوْ في حملِ السيجارةِ بخفّةٍ، وتسريحُ شعرِه إلى اليمين وإلى الأعلى، ومضمضةٌ فمِه بعد تناولِ الطعام، واستخدامُ سكينٍ صغيرةٍ لتقشيرِ التفاحة، كانت أشياءً شديدةً الغرابة بالنسبة لـ بن يي، ومثيرةٌ للإعجاب والحسد. أحسَّ بالضياع في غرفةِ الضيوف في النزل حيث يمكثُ زميلُه القديم، غير قادرٍ على النظر إلى المصباح الكهربائي الساطع بعينين مفتوحتين.

- «أنتَ أنتَ، لقد ظَلِمْتَ في البداية، إذ لم تستحق أن تُفصل بسببِ أمرٍ تافهٍ كهذا». كان خو يستعيد ذكرياتِ الماضي، وقدّم له تفاحةٌ مقشرةٌ.

- لا يهم، لا يهم.

تنهد زميلُه القديمُ وأكملَ قائلاً:

- وضعك الآن ليس جيداً، مستواك الثقافي منخفضٌ جداً، وليس من المناسب أن تعود إلى الفريق، هل لديك أطفال؟

- أجل، صبي وفتاة.

- جيد جيد، ومحصولك جيد؟

- مثلك، لديّ ما يؤكّل في القدر.

- جيد جيد، هل والداك على قيد الحياة؟

- لقد أرسلنا إلى تعاونية الأرض الصفراء، إلى فريقِ العملِ لدى ملكِ الجحيم.

- وتجيّد إلقاء النكاتِ كذلك! من أين زوجتك؟

- من شارع تشانغ لي، امرأةٌ صالحة، مزاجيةٌ قليلاً.

- جيد جيد، من الجيد أنَّها مزاجية.

لم يفهم بن يي معنى «جيد جيد»، معتقداً أنَّه فهمَ أحواله، وأنَّه سِرَّتْ له شيئاً، أو يقدِّمُ له خدمة، لكنَّه لم يسمع شيئاً في النهاية. ورغم ذلك كانت الأمسية ممتعة. كان ممتناً لأنَّ زميله القديم خو لم ينسَ، وأنَّه لا يزال يتعاملُ معه باحترام، وأنَّه قدَّم له كوبوناً يساوي عشرة جين من الحبوب. كما تذكَّر ردِّي المرأة المستديرين بعد مرورِ سنواتٍ طويلةٍ على رؤيته لهما، وحظي بلحظةٍ سعيدة. وفي يومٍ مغادرته، طلب منه زميله القديم البقاء ليلةً أخرى، لكن بن يي لم يوافق. قال إنَّه كبر في السن، وإنَّ دُوارَ الشارع أسوأ بكثير، ومن الأفضل له أن يعود. أراد صديقه إيصاله بالسيارة الجيب، إلَّا أنَّ بن يي أشار بيده رافضاً، قال إنَّه يخاف من رائحة الجازولين، وعادةً ما يضطر إلى أخذ طريق آخر عند المرور بمحطة بنزين، لذا لا يستطيعُ ركوبَ سيارةٍ مطلقاً. وردَّ موظفٌ يقف إلى جانبه مؤكداً على كلامه، بأنَّ هذا ليس كلاماً مهذباً، بل إنَّ كثيراً من الناس من ماتشياو يخافون من الجازولين، ويفضلون العودة سيراً على الأقدام. منذ وقتٍ ليس بعيداً، مدَّت شركة النقل بالحافلات في المحافظة خطَّ الرحلات الطويلة إلى لونغ جيا وان لتسهيل حركة الجمهور، ولم تتوقَّع الشركة أنَّ عدداً قليلاً سيستقلُّ الحافلة خلال شهر، لذا اضطرت إلى إلغائه ذلك الخط.

عندها فقط صدَّقه العمُّ خو، ولوَّح بيده، مشيحاً بعينه ظلَّ بن يي وهو ينطلق في الطريق.

الشاي الملوّن

شاي المدينة، أكثر ما لم يعتده بن يي، وقت اعتناؤه بالخيل في مكتب مفوض المنطقة.

عموماً يشرب أهل ماتشياو شاي الزنجبيل، ويدعى الشاي المطحون. يستخدمون مدقة صغيرة وهاووناً لطحن قليل من الزنجبيل، من ثم يضاف الملح، ثم يُصب الماء المغلي من برادٍ مُعلّق ويترك إلى أن يُنقع. أمّا العائلات الميسورة، فلا تستخدم براداً خزفياً، بل براداً نحاسياً مصقولاً حتى اللمعان، متألّقاً ببريق رائع. تضيف ربّات البيوت منكهاتٍ مثل الفول والسّمسم في قدورٍ نحاسية، تُوضع على نارٍ الحطب لتحمّص. لم تكن أيّ منهن خائفةً من التعرّض للحرق، وبينما يشتعل الحطب أسفل الموقد، يهزّز القدر من طرفها بأصابعهن بين حينٍ وآخر، كي لا تحترق المنكهات. كان صوت الهزّ وفرقة حبوب الفول والسّمسم، والرائحة الطيبة التي تفوح بعد وقتٍ قصير، يبعث البهجة في نفوس الضيوف.

يُعدّ نوعٌ أفخم من الشاي بإضافة العنّاب الأحمر والبيض.

عجز بن يي عن استيعاب سبب إصرار أهل المدينة على شرب الشاي الملوّن رغم امتلاكهم المال، وهو الشاي دون منكهات، النوع الأكثر

رداءة. فالشاي الملوّن لا يُغلى سريعاً، بل يُغلى في قِدْرٍ كبيرة، ويُحَفَظُ،
ويُتْرَكُ لمدّة يومين أو ثلاثة، ووظيفته الوحيدة هي إرواء العطش. وفي
الغالب لا تُستخدَمُ أوراقُ الشاي في صنع الشاي الملوّن، بل تُغلى أغصانُ
من شجرِ الشاي حتى يصبحَ لونُها داكناً مثل صلصة الصويا. ومن هنا
جاءت على الأرجح تسميته بالشاي «الملوّن».

أليس مثيراً للسخرية ألاّ يشرب أهلُ المدينةِ إلّا هذا النوعِ من الشاي
ولا يشربون الشاي المطحون؟ أليس هذا مثيراً للشفقة؟

الأنحاء الأجنبية

تختلفُ اللهجاتُ كل عشرة لي. أيُّ مكانٍ ناءٍ، يسمِّيه أهلُ تشانغ لي «الجانب المفتوح»، ويسمِّيه أهلُ شوانغ لونغ «عَبْرَ الطريق»، ويسمِّيه أهلُ تونغ لوه دونغ «الجانبُ الغربي» وتُنطقُ بنغمة هابطة ثم صاعدة، ويسمِّيه أهلُ ماتشياو «الأنحاء الأجنبية» وتنطقُ بنغمة هابطة. ليس ثمة فرق إن كان المكانُ محافظة بينغ جيانغ، تشانغشا، ووهان أو أميركا، سواء كانوا غزالي القطن، أو جامعي الجلود، أو الشباب والكوادر المنقولة إلى الريف، كلُّ هؤلاء قادمون من «الأنحاء الأجنبية». الثورة الثقافية، الحربُ الهندية - الصينية، واعتناءُ بن يي بالخيول في مكتب مفوض المنطقة لمَدَّة عامين، كلُّ هذه تُعدُّ أموراً من «الأنحاء الأجنبية». أظنُّ أنَّه كان لديهم إحساسٌ دائمٌ بأنَّهم في المركز، وشعورٌ داخليٌّ عميقٌ بالثقة والخيلاء، إذ لأيِّ سببٍ يرون كلَّ مكانٍ خارجَ قريتهم الفقيرة «أجنبياً»؟

استُخدمت كلمة «أجنبي - yí» في الصين القديمة للإشارة إلى الأقليات القومية الضعيفة المجاورة. يجمع الرمزُ الصيني «夷» رمزيَّ «gōng - 弓» ويعني قوس» و«- rén 人» ويعني شخص». إذن، لماذا يعتقدُ أهلُ ماتشياو أنَّ تلك المدنَ المزدهرة والمتطورة وراءَ خطِّ الأفق، لا تزالُ

تعتمدُ على الصيدِ من أجلِ لقمةِ العيش؟ أو أنَّ سكانها مجردُ قبائلٍ لم تتعلَّم بعد تقنياتِ الزراعةِ والإنتاج؟

أخبرني أستاذُ في الأنثروبولوجيا الثقافية بأنَّ مائةَ مدرسةٍ فكريةٍ كانت تتجادل في الصين القديمة، وأنَّ مدرسةً صغيرةً واحدةً فقط أنكرت أنَّ الصين في مركز العالم، وهي مدرسةُ المنطقيين في عصر أسرة الربيع والخريف. لم تكن أفكارُ تلك المدرسة مستساغةً من بعض الأشخاص، وبدأوا التشكيك في جنسيتهم؛ فالأسماءُ مثل «غونغ تسون لونغ تزي - gongcun longzi» غريبة، تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ نوعَ الاسم الذي يُمنَح لطالِبٍ أجنبي أو باحثٍ زائرٍ في الصين. أثناء فكِّ النقوشِ على عظامِ السلاحف، رأى الشاعرُ الصيني غوه مورو أنَّ «السيقان العشر السماوية والفروع الأرضية الإثني عشر» تأثرت بالثقافة البابلية. وتكهَّن السيد لينغ تشون شينغ بأنَّ قبيلة «مَلِكَةُ أمَّ الغرب» المذكورة في السجلات التاريخية، ما هي إلَّا ترجمةٌ للكلمة البابلية Siwan (إلهة القمر) وبالتالي استنتج أنَّ الثقافات الأجنبية دخلت إلى الصين قبل وقتٍ طويلٍ من ظهور طريق الحرير، ومن المُحتمَل أن تكون مصادِرُ الثقافة الصينية متنوعةً ومعقدةً للغاية. عزَّزَ كلُّ ذلك شكوكُ الناسِ تجاهَ أصلِ مدرسة المنطقيين.

بالطبع، بالنسبة لثقافةٍ عملاقةٍ كالثقافة الصينية، وإن كان تلامذةُ غونغ تسون لونغ تزي حقاً مجموعةً من الباحثين الأجانب، فصوتُهم كان ضعيفاً، على الأقل لم ينجحوا في زعزعة الفكرة المزروعة في الشعب الصيني بأنَّهم «دولةٌ مركزية»، كما أنَّه من الصعب إضعاف شعورِ الشعب الصيني بالزهو الحضاري. إذن يكشفُ استخدامُ أهل ماتشياو لكلمة

«أجنبي - yí» عن النَّسَبِ الصيني، وتنطوي الكلمةُ على ازدراءٍ ورفضٍ
لأَيِّ شَيْءٍ من الأماكنِ البعيدة. لم يعمل أسلافُ ماتشياو بنصيحةِ تلاميذ
غونغ تسون لونغ زي، واستمرَّ هذا العنادُ في اللغةِ حتى يومنا هذا.

حَقُّ التَّعْبِيرِ

أخبرني بن يبي من قَبْلِ أَنْ أَهَلَ المَدِينَةَ لَا يَشْرَبُونَ الشَّاي المَطْحُون، وَلَا يَجِيدُونَ الخِيَاطَةَ وَالتَّطْرِيزَ، وَأَتَتْهُمْ مَسَاكِين لَا يَمْلِكُونَ قِمَاشاً لَخِيَاطَةِ البَنَاطِيلِ، وَيَرْتَدُونَ شُورَتَاتٍ بِحَجْمِ الكَفِّ، خَائِفَةً لِلسَّاقِينَ، كَحِزَامِ الحَيْضِ الَّذِي تَرْتَدِيهِ النِّسَاءُ. كَانَ أَهْلُ مَاتَشْيَاوِ متعاطفين جداً مع أَهْلِ المَدِينَةِ، وَكَلَّمَا عَدْنَا لزيارتِهَا، طَلَبُوا مِنَّا شِرَاءَ المَزِيدِ مِنَ القِمَاشِ لَخِيَاطَةِ زَوْجَيْنِ مِنَ البَنَطْلُونَاتِ لِأَبَائِنَا وَأُمَهَاتِنَا.

كَانَ مِنَ المُضْحِكِ لِلغَايَةِ أَنَّ هُنَاكَ نَقْصاً فِي الأَقْمِشَةِ فِي المَدِينَةِ؛ تُخَاطُ الشُّورَتَاتُ لِتَكُونَ مُنَاسِبَةً لِلجِسْمِ، وَلطِيفَةً الشَّكْلِ، أَوْ لِتَسْهِيلِ مِمَارَسَةِ الرِّيَاضَةِ.

كَانَ أَهْلُ مَاتَشْيَاوِ يَطْرَفُونَ بِأَعْيُنِهِمْ غَيْرَ مُصَدِّقِينَ.

وَبِمَرُورِ الوَقْتِ، اكْتَشَفْنَا أَنَّهُ مَهْمَا حَاوَلْنَا الشَّرْحَ، لَنْ نَسْتَطِيعَ مَحَوَّ شَائِعَاتِ بَنِ يَبِي، لِأَنَّهَا لَا نَمْلِكُ حَقَّ التَّعْبِيرِ.

بِالكَادِ يُمْكِنُ العُثُورُ عَلَى مُرَادِفٍ لِكَلِمَةِ «حَقُّ التَّعْبِيرِ» فِي المَانَدَرَيْنِ، إِلَّا أَنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنْ أَهَمِّ مُفْرَدَاتِ مَاتَشْيَاوِ، تَدُلُّ عَلَى حَقِّ اللُّغَةِ، الْحَقُّ الَّذِي يَشْغُلُ جِزْءاً مُعَيَّناً مِنَ المَجْمُوعِ اللُّغَوِيِّ. مَنْ يَمْلِكُونَ حَقَّ اللُّغَةِ، لَيْسَتْ

لديهم علامةٌ أو هويةٌ مميزة، لكن باعتبارهم قادةً للغة، بوسع الجميع الشعورُ بوجودهم، والشعورُ بوطاةِ سلطانهم الضمني. بمجرد أن يفتحوا أفواههم أو يسعلوا أو يغمزوا، سيصمت الآخرون ويستمعون، حتى لو اعترضوا، لن يجرؤوا على مقاطعتهم. هذا النوعُ من الهدوءِ هو أكثرُ مظاهرِ حقِّ التعبيرِ شيوعاً، هو الخضوعُ الطوعيُّ الأكثرُ إدراكاً ضمناً والأكثرُ تنسيقاً للديكتاتورية اللغوية. وعلى العكس، فالشخصُ الذي لا يملكُ حقَّ التعبير، لا وزنَ لكلامه ولا رأيَ له، وكل ما يقوله هراء، لن يكثرَ الناسُ لما يقوله، وحتى لن يهتموا إذا كانت لديه فرصةٌ لقولِ ذلك، تتلاشى كلماته دائماً في الأراضي القاحلة الباردة، ولا تحصلُ على أيِّ رد. حين يتكرَّرُ هذا الأمرُ غير المُحتمَل، لا يكونُ من السهلِ على المرءِ الحفاظُ على ثقته في التحدُّث، أو حتى الحفاظُ على قدرةٍ طبيعيةٍ لإصدارِ الصوت. أصبحَ يان تراو في النهاية ثوراً أصمَّ حقيقياً، وهذا مثالٌ على فقدانِ حقِّ التعبيرِ للحدِّ الأقصى.

يتبعُ الجمهورُ المواضيع التي يسيطرُ عليها مَنْ يملكون حقَّ التعبير، ويستخدمُ الجمهورُ كلماتهم، وأنماطَ جملهم ونبرتهم وغيرها، فيتشكَّلُ الحقُّ خلال إنتاجِ هذه اللغة، ويتمُّ تأكيدُه وإدراكُه في عملية التوسُّع والإشعاع لهذه اللغة. كلمة «حقُّ التعبير» تكشفُ عن الخصائص اللغوية للحق. النظامُ الناضج، الفصيلُ القوي، لديه دائماً نظامُ لغته القوي، مصحوبٌ دائماً بسلسلةٍ من الوثائق، الاجتماعات، المراسم، الخطب، الكلاسيكيات، الآثار، المفاهيم الجديدة، الشعارات، والأعمال الفنية، حتى أسماء الأماكن الجديدة أو أسماء العام الجديد ونحو ذلك، هي من أجل الحصول على حقِّ التعبير وإثباته في المجتمع بأسره. القوَى التي لا

تستطيع الحصول على حقّ الكلام، مجرد رعا ع تتبع مَنْ يملكون الثروة أو القوة، أو مثل قُطَاع الطرق الذي اعترضوا طريقَ القوات الحكومية مجموعاتٍ تلو الأخرى بل واحتلوا العاصمة، حتى مع استمرار نجاحهم لفترة قصيرة، إلا أنه كان قصير الأجل.

ولهذا السبب بالتحديد، يُولي الحكامُ دائماً أهميةً للوثائق والاجتماعات. الوثائق والاجتماعات هي محاورُ لضمانِ عملِ السلطة، وكذلك أفضلُ طريقةٍ لترسيخِ حقّ التعبير. تكاد جبالُ الأعمال الورقية، وبحارُ الاجتماعات أن تكونَ أسلوبَ حياةٍ لا غنى عنه للبُروقراطيين، وحيث يكمنُ شغفُهم. حتى لو كانت الاجتماعاتُ تكراراً للكلام فارغ، ودون أيّ تأثير فعلي، فإنهم لا يزالون يستمدون منها مستوىً أساسياً من المتعة. السببُ بسيط جداً، في هذا الوقت فقط يمكنُ إنشاءُ المنصة والقاعة، وتمييزُ المستويات بوضوح، وجعلُ الناسِ على درايةٍ بحقّ التعبير الخاصّ بهم. لا يمكنُ أن ينتشرَ خطابُ الحاكمِ بشكلٍ إلزامي، إلا من خلال العديد من الآذان والدفاتر ومكبرات الصوت ونحو ذلك. في هذا الجو فقط يمكنُ للأشخاصِ الأقوياء الانغماسُ في اللغة التي يعرفونها، والشعورُ أنَّ حقوقهم تتغذى، وتنمو، وتغني وتحمي من خلال هذه اللغة.

غالباً ما يكونُ كلُّ هذا أكثرَ أهميةً من الغرضِ المحددِ للاجتماع. وانطلاقاً من هذه النقطة، فالأشخاصُ في موقعِ السلطة مُعبأون بالحذر والعداوة الفطرية تجاه اللغة التي لم يعتادوا عليها أو يألفوها. حظي ماركس والكاتب لوشون، أثناء الثورة الثقافية، على أعلى درجات الاحترام في الصين، وأصبحت الشخصيات الوحيدة من بين عددٍ قليلٍ

من الشخصيات العظيمة التي لا يزال من الممكن العثور عليها في النهاية في المكتبات الفارغة والمهجورة. حتى في ذلك الوقت، كانت قراءة ماركس ولوشون لا تزال أمراً خطيراً للغاية، وكاد كتابي عن ماركس في الريف أن يصبح دليلاً على أنني «رجعي».. قال كادر الكومونة: «هذا أحد الشباب المتعلم، يقرأ كتاب ماركس ولا يقرأ كتاب الزعيم ماو! بماذا يفكر؟ وبماذا يشعر؟».

أدركتُ أن كوادِر الكومونة لا تعارضُ ماركس عن قصد، كما لا يعرفون ما يقوله ماركس في «برومير الثامن عشر للويس بونابرت» وهل كان بالنسبة لهم يضرُّ بحظرِ زراعة الغابات أو تنظيم الأسرة أو تناول لحوم الكلاب وتقاسم ثمنها. لا، لا يعرفون عنه شيئاً، ولا يهتمون كثيراً أيضاً. لم تكن نظراتهم المحدقة إلا غضباً تجاه كل اللغة التي لا يفهمونها، وشعوراً بأنَّ حقَّ تعبيرهم تحت تهديدٍ وتحدٍّ مُحتمَلين.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح الفنُّ الحداثي شائعاً للغاية، مثل اللوحات التجريدية ومسرح العبث وروايات تيار الوعي والشعر السريالي، وتبع ذلك أيضاً حركة الهيبيز والحركة النسائية وموسيقى الروك وظواهر ثقافية غريبة أخرى. ومن المثير للاهتمام أنَّ هذه الظواهر الجديدة، عُدَّت تقريباً مؤامراتٍ سياسية شريرة. هاجمت الصحف البرجوازية لوحات بيكاسو التجريدية باعتبارها «التكتيكات الشريرة للاتحاد السوفيتي لتخريب المجتمع الديمقراطي الغربي»، «الدعاية الأيديولوجية للبلاشفة»، بينما اشتبَّهت الكنائس والمؤسسات الحكومية في إلفيس بريسلي وجون لينون، العضو الممثل لفرقة البيتلز، بأنَّهما «جاسوسان سريان للحزب الشيوعي»، والهدف «إفساد جيل الشباب وإضعافهم قبل

أن يحاربوا الشيوعية». وظلّت موسيقاهم محظورةً في القواعد العسكرية الأمريكية في أوروبا. من ناحية أخرى، فإنّ أيّ نظام شيوعي كان يفعل الشيء نفسه تقريباً؛ إذ تعرّض الفن الحديث، سواءً سامياً أو مبتدلاً، للتنديد والانتقاد من قبل الحكومات على مدى العقود القليلة الماضية، وتعرّفه الوثائق الرسمية والكتب المدرسية بأنّه «طليعة التطور السلمي»، و«الأيديولوجية المنحطّة للبرجوازية في البلدان الغربية»، و«الأدوية الروحية التي تُسمّم المراهقين» ونحو ذلك.

من الواضح أنّ ردود الفعل هذه تمثّل دفاعاً مفرطاً. تمّ الاعتراف بهذه الحقيقة تدريجياً في وقت لاحق من قبل الجانبين، ما أدّى إلى تخفيف مستويات الرقابة بصورة أو بأخرى، إلى أن أصبحوا مستعدين للاستفادة من القوة التعبيرية لهذه الأشكال الثقافية الجديدة المختلفة لأغراضهم الخاصة، كاستخدام موسيقى الروك لمدح يانان^(١) أو نانيوان^(٢)، أو استخدام اللوحات التجريدية للترويج لتصدير الملابس.

بالطبع، سيكون من السذاجة اعتبار ردود الفعل هذه دفاعاً مفرطاً. في الواقع، اللغة غير المألوفة هي لغة لا يمكن السيطرة عليها، تكاد أن تكون قوة خارج السيطرة. وبغض النظر عن العلامات السياسية الخارجية، فهي تمتلك قوة طاردة فعلية، تتسبّب في إعاقة قنوات المعلومات وانقطاعها، وإضعاف حقّ تعبير الحكام وتفكّكه بدرجات متفاوتة.

(١) يانان: قاعدة ماو الثورية في شمال غرب الصين.

(٢) منطقة نانيوان: خلال حرب المقاومة ضد اليابان، استصلح اللواء ٣٥٩ الأراضي القاحلة فيها لجيش الطريق الثامن، ونفدّ حركة إنتاج واسعة النطاق.

يبدو أنَّ أهل ماتشياو حققوا فهماً عميقاً لمعنى السلطة، وأدركوا هذه النقطة منذ فترة طويلة، لذا لخصوا السلطة في حق التعبير، أي الكلام. دعونا نرى مَنْ في ماتشياو لديه حقوق التعبير:

١- عموماً، لا تملك النساء حق التعبير، اعتدن عدم مقاطعة الرجال أثناء حديثهم، وكُنَّ يجلسن جانباً لإرضاع الطفل أو رتق نعال الأحذية، لذلك لم تطلب الكوادرُ منهن أبداً المشاركة في اجتماعات القرية.

٢- لا يملك الشباب حق التعبير، اعتادوا منذ صغرهم الأقوال القديمة مثل «حين يتحدث الكبار يستمع الأطفال»، لذا يُعطون الأولوية دائماً لكبار السن، حتى لو أرادوا معارضتهم فإنَّهم في الغالب يتمتمون وراء ظهورهم، إذ من البدعة أن يتحدثوا في وجوههم.

٣- لا تملك الأسر الفقيرة حق التعبير، بوسع الأثرياء أن يتصرفوا بوقاحة، بينما الفقراء قانطون. يشعر الفقراء عموماً بالافتقار إلى الكرامة الإنسانية، ولا يرغبون في إظهار وجوههم في الأماكن المزدحمة، لذلك يفقدون بطبيعة الحال العديد من الفرص للتحدث مع الآخرين. ولدى ماتشياو عادة: لا يُسمح للمدنيين، حتى لو كانوا مدنيين بنصف شنغ^(١) من الحبوب، بأداء أدوار مهمة في حفلات الزفاف والجنائزات في القرية مثل رئيس المراسم ورؤساء الكهنة ووصيفات العروس، كي لا يجلبوا الحظ السيء للعائلة. الموضع الأقرب في كل المنزل لخزانة الشاي، إلى جانب موقد النار، هو الموقع الأكثر وضوحاً، وهو ما يُسمَّى الموقع الرئيسي، ولا يمكن لأي ضيف عدا الدائن أن يجلس كما يرغب، وإلا

(١) شنغ: مكيال حبوب يعادل لترًا.

سيهين المضيف. تضمن هذه القواعد أن حق الناس في التعبير يتركز مع الأغنياء الذين يمتلكون حقوق الدائن.

من الواضح أن حق التعبير مقسم بحسب الجنس والعمر والثروة وغيرها من العوامل الأخرى. بالطبع ثمة عامل سياسي شديد الأهمية، وهو كون بن بي سكرتير مكتب الحزب، وهو أعلى سلطة في ماتشواو، وفي أي وقت يتحدث، يجد صوته موطئاً، كل كلمة لها وزن، رجل يحترم كلمته، وتنفذ أوامره بصرامة، وبمرور الوقت اعتاد التحدث بصوت عالٍ وخشن، وغالباً تنهك حنجرته، فيصدر عنها أزيز أكثر منه صوتاً، لكنه كان لا يزال يثرثر في كل مكان بشق الأنفس، حتى لو سار بمفرده في الطريق ويده خلف ظهره، لا يغلق فمه، وفي بعض الأحيان لا يسعه إلا التحدث إلى نفسه والإجابة عن أسئلة: «هل تزرع الفول في هذه الأرض؟» .. «ضاجع تيناً!» .. «الأرض مغمورة بالمياه وستتعفن الجذور» .. «أخشى أنه من الصعب خلط بعض الطين الأصفر» .. «إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين أنت ذاهب؟» .. «إذا كان لديك الوقت لحمل الطين، فمن الأفضل أن تزرع المزيد من الذرة على المنحدر» .. «اللعين اليقظ....».

كان كل هذا في الواقع كلامه هو. أحياناً عندما تمشي خلفه تجد أنه لا يتوقف عن الكلام أبداً، ولا يتردد في مجادلة نفسه، بوسعه إجراء المناقشة بفهم واحدٍ مفتوح.

كان الناس ينادونه «بي الغونغ الكبير - العام الكبير»، ويعرفون أن الأمور ستكون صاحبة أينما ذهب، وعاملت كوادر الكومونة هذا

الـ «بي الغونغ الكبير» باحترام. في أحد اجتماعات الكومونة، وصل بن بي كأنه الخبير بكل شيء، ثم ذهب كالعادة إلى المطبخ وجعد أنفه ليتفقد الروائح هناك، وإذ كان يبحث عن نارٍ في الموقد لإشعال السيجارة، تجهّم وجهه حين وقع بصره على طستٍ ممتلئ بالفجل فقط، ولم يجد لحماً أو عظماً قرب الموقد، فقال: «كم هذا سخيف! ليست لديكم أيّ مشاعر تجاه الفقراء ومتوسطي الحال من الفلاحين! ها؟» اندفع إلى الخارج بغضبٍ شديد، وتوقّف الاجتماع، واتجه مباشرةً إلى الجزّار في تعاونية التوريد والتسويق، وسأله إن كان قد تبقّى لحمٌ أم لا؟ قال الجزّار إنّه باع اللحم كلّهُ. رفع ساطوراً وقال: امسك لي خنزيراً، امسك خنزيراً! قال الجزّار إنّ لوائح الكومونة تسمحُ بذبح خنزيرٍ واحدٍ فقط كلّ يوم. قال بن بي، إذن إن سمحت الكومونة بأن تتناولوا الطعام مجاناً، هل ستصدّق ذلك؟ كان وان يو قد جلسَ للتو، فقال وعلى وجهه ابتسامة: «حسنٌ، طيب، سأتناول أنا أيضاً اليوم طبقاً من حساء الخنزير». حدّق بن بي فيه وقال: «لماذا تجلس هنا؟».

طَرَفَ وان يو بعينه وقال: «أجل، لماذا أجلس هنا؟».

كان بن بي في الأصل شخصاً سريع الغضب، فضربَ بالساطور وقال: «انظر إلى مظهرك الكسول، لا نحتفلُ بعيد الربيع ولا بالأعياد، فماذا تفعل هنا؟ عُدْ معي على الفور! إن لم تنتهِ من عزق هذا الـ مو^(١) من أرض السلجم على المنحدر الشمالي قبل نهاية اليوم، سأمُرُ الناسُ بخنقك!».

(١) مو: وحدة مساحة صينية.

دُعِرَ وان يو من صوتِ الساطور وخرجَ على الفور، ولكن بعد مرورِ بعضِ الوقت، ظهرَ رأسُه الخائفُ اللامع وقال: «أنتَ أنت... ماذا طلبتَ مِنِّي للتو؟».

- أأنتَ أصم؟ طلبتُ منك عزق أَرْضِ السلجم!

- فهمت، فهمت، لا داعي للغضب.

انكمشَ الرأسُ اللامع؛ وأخيراً تنفَّسَ بن بي الصعداء، ولفَّ سيجارة، وأحسَّ بحركةٍ خلفه، وما أن التفت، رأى الابتسامةَ الفاترةَ على وجه وان يو: «أنا آسف، لم أسمع جيداً، هل طلبتَ مني عزق... عزق...».

اعتقدُ أنه كان خائفاً إلى حدِّ أنه فرَّ على الفور، ولم يسمع أيَّ شيءٍ بوضوح.

صاح بن بي «نباتُ السلجم» في أذنيه، وهذا دفعه إلى الرحيل.

سَمِعَ قِبَاعُ خنازيرٍ قادمًا من خلفِ المبنى، فاستعاد وجه بن بي شيئاً من الحيوية. كان يفضِّلُ ذبحَ الخنازيرِ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر، وكان خبيراً أيضاً. وبعد قِبَاعِ خنزيرٍ آخر، عاد إلى الموقِدِ ليدخِّن، وجهه مغطَّى بالوحلِ ويداه ملطَّختان بالدم؛ ذبحَ الخنزيرَ بضربةٍ واحدة، ضربةً حادَّةً ونظيفة. في النهاية، دعا عدداً من أعضاءِ تعاونيةِ التوريد والتسويق للتجمُّعِ حول موقِدٍ يتصاعدُ منه البخار، وتناولَ لحمَ الخنزير وشربَ حساءَ دمه، ثم مسحَ فمَه برضا، وتجنَّساً.

لم يعقد الاجتماع، ولم تجرؤ كوادِرُ الكومونةِ على انتقاده، وحين عاد إلى موقعِ الاجتماعِ بوجهٍ متورِّد، دعتَه الكوادِرُ مع ذلكَ لإلقاءِ كلمةٍ على المنصَّة، لإثباتِ مدى أهميةِ حقِّه في التعبير.

قال: «لن أتحدث كثيراً اليوم، سأحدث فقط عن نقطتين».

كان هذا إعلاناً المعتاد قبل إلقاء كلمته، سواءً تحدث بالفعل عن نقطتين أو ثلاث نقاط أو أربع نقاط أو خمس أو أكثر، سواءً قال بضع كلمات أو ألقى خطاباً طويلاً، فقد كان يذكر مُقدماً أنه سيتحدث عن نقطتين فقط.

تحدث وتحدث ورائحة حساء اللحم تفوح منه، تحدث عن تجربته السابقة في كوريا الشمالية، وكيف استخدم مهارته العسكرية في قتال الجنود الأمريكيين، لإثبات أن مهام بناء نظام الحفاظ على المياه وزراعة الحبوب وتربية الخنازير وتنظيم الأسرة يمكن أن تكتمل، ويجب أن تكتمل! لطالما أشار إلى الدبابات الأمريكية بالجرارات. قال عند خط عرض ٣٨، اقتربت تلك الجرارات الأمريكية، وارتجت الأرض إلى درجة جعلت الناس تتبؤل من الذعر، لكن الجنود المتطوعين كانوا أبطالاً: على مسافة ٣٠٠ متر، لم يطلق أحد النار، ١٥٠ متراً، لم يطلق أحد النار، ١٠٠ متر، لم يطلق أحد النار، ثم أخيراً، فجّرنا جميع الجرارات الأمريكية اللعينة التي دنت بقنبلة واحدة!

نظر حوله برضا وسرور.

صحح «خي» رئيس الكومونة كلامه قائلاً: «ليست جرارات، اسمها دبابات».

طرف بعينه وردّ: «ألا تُدعى جرارات؟ لم أحصل على الكثير من التعليم، أنا نغل -流氓- (liú máng!) وكان يقصد، أنه أمي -文盲- wénmáng، ولا عجب أنه لا يستطيع التمييز بين الدبابة والجرار. ولقد

درس أيضاً كلمةً دبابيةً بجدّةٍ، ولكن في الاجتماعِ التالي، كالعادة، بعد أن اجتاز بمشقةٍ مسافاتٍ ٣٠٠، ١٥٠، ١٠٠ متر، قال إنّها جرار!

لم تؤثر أخطاؤه في هذا النوع من المصطلحات على فهم كلماته على الإطلاق؛ «يموتُ الناسُ فقط بسببِ المرضِ وليس بسببِ العمل»، «الكوارثُ الطبيعىّةُ الكبرى، والحصادُ الوفير، الكوارثُ الطبيعىّةُ الصغيرة، والمحاصيلُ الصغيرة»، «يجبُ على الجميعِ العملُ على تفكيرهم وإحرازُ تقدّمٍ في العالم»، وغيرها من الجُمَلِ غير المنطقية، ولكن لأنّها تصدرُ عن بنِ يبي، انتشرت واستُخدمت تدريجياً. كان يعاني شيئاً من الصمم، وذات مرّة سمعَ من كوادِرِ الكومونةِ مقولةً للزعيم ماو «يجبُ علينا أن نمسكَ بمفتاحِ الطريقِ أماننا» على أنّها «علينا أن نمسكَ بالوتدِ أماننا»، والتي من الواضح أنّها مقولةٌ خاطئة، ومع ذلك، ونظراً لأنّ كلمة «وتد» جاءت من فيه، فلطالما صدّقها أهلُ ماتشياو. وعلى العكس من ذلك، سخروا من الشبابِ المتعلّم لقولهم مفتاحِ الطريق، ما هو «المفتاح»؟

الأحمر يضيء السماء

كان عقدا الستينيات والسبعينيات عقدي «الأحمر يضيء السماء». والأحمر يضيء السماء هو نوع غلايات على هيئة مصابيح كبيرة، تمتد منها فوهتان طويلتان، بها فتائل بسُمك الإصبع الصغير، يمكن إشعالها بزيوت القطن أو الديزل، وينبعث منها دخان أسود. وكان من المألوف في تلك الأيام، أن تُحمّل هذه المصابيح على عود بامبو طويل، وتُستخدم لكسر الظلام الدامس، أو للمساعدة على ارتقاء التلال والنزول إلى الحقول لغرس الشتلات، أو لجمع الناس لعقد الاجتماعات، أو لتنظيم مسيرات الفرق. كانت سنوات لا يكفي فيها ضوء النهار، لذا كان ينبغي حشد الهمة في الليل. صنع الحدادون مجموعات ومجموعات من «الأحمر يضيء السماء» وحققوا مبيعات جيدة. وحين تريد الكوادر عرض الوضع الثوري لفريق أو كومونة، تستخدم كلاماً كهذا دائماً: «اذهبوا إلى بيوتهم، لديهم عشرات من الأحمر يضيء السماء».

جئت إلى ماتشياو مع ازدياد موجة «إظهار الولاء». ولإظهار الولاء للزعيم، كان لزاماً أن نتجمع مساء كل يوم في صالة منزل فوتشا الأوسع قليلاً، والتي تتسع للقوة العاملة لفريق الإنتاج. علّق مصباح

«الأحمر يضيء السماء» على ارتفاع عالٍ، وبدا الناس أسفل نورهِ الخافتِ كأطيافٍ سوداءٍ غائمةٍ لا تُرى، وإن ارتطمت بأحدهم، لا تميّزه إن كان رجلاً أو امرأة.

وقفَ الجميع أمامَ صورةِ الزعيم، وأصدرت الكوادرُ أمراً، فهتفَ العاملون فجأةً بصوتٍ مدوٍ يصمُّ الآذان، وسُمِعَ في نفسٍ واحدٍ خمسةٌ أو ستةٌ من أقوالِ الزعيم ماو، ما أثارَ فينا الفزعَ نحن الشبابُ القادمُ إلى الريف. لم أتوقع أن يحفظَ أهلُ ماتشياو الكثيرَ من هذه الأقوال، وأصابنا الدُّوارُ بين نظرياتهم الثورية.

اكتشفنا بعد فترةٍ أنهم يرددون الشيءَ ذاته، وهي تلك الشعاراتُ القليلة، ف شعرنا بالاطمئنان.

ولأنَّ الشبابَ القادمَ إلى الريف متعلّم، لذا حفظنا بسرعةٍ شعاراتٍ أكثرَ للزعيم، وردّدناها بطلاقةٍ شديدة، وأطحنا بعجرفةٍ أهلَ القريةِ الجامحة. ولاحقاً بعد أن خسروا المعركة أصبحوا أكثرَ تواضعاً، ويسألوننا أولاً إذا كنّا نرغب في سيجارةٍ قبل أن يدخنوا، كما أصبح هتافُهم أكثرَ ضعفاً وخفوتاً. وبعد الهتاف، يكون أحدُ الكوادرِ مسؤولاً -على الأرجح بن يي أو العم لُوّه- عن تقديمِ تقريرٍ عن أحوالِ الزراعةِ للزعيم ماو على الحائط، وبعد ذلك يقولُ برهبة: «عليك أن تنام أيها الرجلُ المسن».

أو يقولون: «هطلَ الثلجُ اليوم، عليك أن تشعل مزيداً من الحطب أيها الرجلُ المسن!».

وحين يبدو أن الزعيم ماو يمنحهم موافقته، يتفرّقُ الناسُ وأيديهم في أكمامهم، ويخرجون واحداً تلو الآخر في الرياح الباردة.

في إحدى المرات توازى تجاو تشينغ وراء الناس ونام، وظلَّ على حاله في الزاوية بعد مغادرة الجميع. لم ينتبه أفراد عائلة فوتشا له، وأغلقوا الباب وذهبوا للنوم، ليستيقظوا عند منتصف الليل على صوت رجلٍ يصرخُ قائلاً: «يا لكم من أشرار! تريدون أن أجمدَ حتى الموت!». لم يعرف فوتشا أيضاً أم يبكي، ولم يسعه إلا القول إنه يلوم الأحرار يضيء السماء لنضوب زيتها، وإنه لم ير بوضوح في الظلام.

وكان من الجلي، أن الجميع أصبح على معرفة أكثر بالنظريات الثورية بسبب هذه الدراسة اليومية. الفرق هو أن أهل ماتشياو يرددون بعض أقوال الزعيم ماو المميّزة، على سبيل المثال: «قال الزعيم ماو إن نباتات الشاي تنمو بشكل جيد هذا العام»، «قال الزعيم ماو إن علينا الاقتصاد في الحبوب، وألاً نتناول العصيدة كل يوم»، «قال الزعيم ماو إن لم يكن ملاك الأراضي صادقين فينبغي شنقهم»، «قال الزعيم ماو إن تجاو القصير لا يلتزم بسياسة الإنجاب، وفيما يتعلق بالأطفال يهتم بالكَم وليس بالجودة»، «قال الزعيم ماو إن أي شخص يُخفف روث الخنازير بالماء، سيُخصم من حصته من الحبوب» وهكذا. تقصيتُ عن هذا الأمر لفترة طويلة، ولم يعرف أحد مصدر هذه التوجيهات العليا، كما لم يعرف أحد من نشر هذه الأقوال في الأساس. لكن مع ذلك، يأخذ الناس هذا الكلام على محمل الجد، ويقتبسونه مراراً في أحاديثهم.

بالطبع لم يكن في ذلك شيء عجيب، إذ بعد قراءتي لتاريخ الأدب الصيني، اكتشفتُ أن أهل ماتشياو لم يفعلوا ما هو أسوأ من بعض مُعلّمي الكونفوشية عبر التاريخ. كان هؤلاء يصرون على «الاقْتباس من الحكماء»، وهم في الحقيقة يخلطون كلمات وأقوالاً شبيهة بأقوال

كونفوشيوس، لاوتزو، شون تزي، ومينغ تزي لإخافة الناس. استشهد
يانغ شيونغ^(١) من أسرة هان بعدد كبير من أقوال كونفوشيوس، وحين
تحقق الناس منها لاحقاً، تبينوا صحة القليل فقط.

(١) فيلسوف وشاعر وسياسي صيني من أسرة هان الغربية، كان معروفاً بكتاباته الفلسفية
ومؤلفاته الشعرية.

أهلية

«الأهلية» كلمة شائعة الاستخدام، معناها قريبٌ من معاني كلماتٍ مثل «الأخلاق - 品格» و«المؤهل - الصلاحية - 资格»، إلا أن معناها لا يقفُ عند هذا الحد. لديك أهليةٌ أم لا؟ فقدت الأهلية أم لا؟ هو المعيارُ الأساسي الذي يستخدمه أهلُ ماتشياو لتقييم الآخرين. مؤهلاتُ الشخص، وخلفيته التعليمية، وأصله، ومكانته، وسمعته، وهيبته، وشجاعته، وقدرته، وممتلكاته، وأفعاله الصالحة أو السيئة، وحتى القدرة الإنجابية وغيرها، كل ذلك يساهم في تغيير أهليته، والأهلية لها علاقةٌ بحق التعبير، يرتبطان معاً بعلاقةٍ متبادلة، داخلية وخارجية، وبعلاقةٍ سببية، فالشخصُ الذي يملكُ أهليةً لديه حقُّ التعبير، ومَن لديه حقُّ التعبير، لديه حتماً أهلية.

عمُّ العمِّ فوتشا في القدرِ نفسها اسمُه مينغ تشي، يناديه الناسُ العم مينغ تشي، وكان قد تعلَّم إعدادَ الموائد في شارع تشانغ لي. كان المسؤول عن خبز المانتو في اجتماعات الكومونة، ما منحه أهليةً كبيرة. وفي كلِّ مرّةٍ يحصلُ على هذه الفرصة، يتحوَّل اسمُ العم مينغ تشي إلى «الأب مينغ تشي». لم يحفظ ماءً وجهه فحسب، بل حفظ أيضاً ماءً وجهِ أهلِ

قرية ماتشياو جميعاً، فإن صادفوا شخصاً عابراً في القرية، يعرفونه أم لا، يذكر أهل ماتشياو على الدوام بقصد أو بغير قصد هذا الرجل بفخر. وإذا رأوا وجه الشخص خالياً من أيّ تعبير، أو بدا عليه عدم الاهتمام، يتغيّر وجه أهل ماتشياو، ويقولون وعيونهم متفتحة بالازدراء: «حتى السيد مينغ تشي لا تعرفه؟ وإن أعدّ لك شياً مطحوناً لضيفتك، فعلى الأرجح ستتحوّل بسبب جمودك أو عدم اهتمامك إلى وعاء بارد من الشاي الملون». يحبّ مينغ تشي بعد انتهائه من إعداد المانتو، التجوّل في القرية عقب عودته، ويداه خلف ظهره، مشيراً إلى الأشياء التي لا تعجبه. وكان الأطفال المشاغبون يشعرون بالرهبة من رائحة خبز المانتو التي تلفه، ويتبعونه بتأدب، بصمت وبرؤوسٍ محنية. نصح مينغ تشي بهدوء شاباً يدعى «الأذان الثلاث» بالتوقف عن جمع العلقات، فحمل الشاب دلوّه وعاد إلى القرية، ما أدهشنا نحن الشباب المتعلّم. إذ كان «الأذان الثلاث» في الغالب لا يخاف شيئاً ولا يهاب أحداً. اقتربت من أذنه وسألته: «ما بالك مهذب اليوم؟»، فتمتّع بعدم اقتناع، وبدا وجهه معترفاً بالنحس: «إنّه يمتلك أهلية، ولا أريد التورط في متاعب اليوم». أدركت حينها فقط، رغم أنّهم كلّهم من أهل ماتشياو، فإنّهم يعيشون مختلفين تماماً وفقاً لامتلاك الأهلية من عدمه.

كان للعم لوه ابن يرسل له المال من أنحاء^(١) أجنبية، ويعادل ذلك إرسال أهلية له. وإلاّ بالاعتماد على عمره فحسب، فبالكاد كان لديه ما يكفي من الأهلية ليحترمه بن يي.

(١) انظر مدخل «الأنحاء الأجنبية».

لا يجيد تجاو تشينغ صُنِعَ خبز المانتو ولا يرسل له ابنُ المال، لكنَّه أنجبَ ستةَ أولادٍ بالتتابع، ما رفعَ من أهليتهِ قليلاً. وحين توزعِ حصصِ البطاطا الحلوة أو الفول، يزيْدُ الكادرُ من حصَّتهِ تعبيراً عن احترامِه.

بالطبع هناك بعضُ الأهلياتِ المؤقتةِ التي تؤدي إلى نتائجٍ مضحكة، على سبيلِ المثال، عاد أحدُ الشبابِ المتعلِّم ولقبه «الوزير أسود» من المدينة، حاملاً معه زجاجةَ صلصةِ الصويا من ماركة «لونغ - التين»، وأعطاهَا لتجونغ تشي مقابلَ دجاجة. كانت صلصةُ الصويا من ماركةٍ معروفة، ويُقالُ إنَّها صلصةُ صويا، تُرسلُ كهديةٍ كلَّ عامٍ إلى بكين لاستخدامِها في طبخِ لحمِ الخنزيرِ المطهو ببطءٍ للزعيم ماو، ولا يستطيعُ أحدٌ إلا الكوادرِ على مستوى المحافظةِ الحصولَ عليها. وحين ذاعَ الخبر، تمَّتَ تجونغ تشي بستةَ أشهرٍ من الأهلية، ستةَ أشهرٍ كانت كافيةً ليسعلَ بثقة. ورغم أنَّه استخدمَ صلصةَ الصويا باقتصادٍ شديد، فإنَّه لم يستطع تحمُّلَ طلباتِ جيرانه المتواصلة، ولا تحمُّلَ زياراتِ كوادر الكومونة وبن بي المتكررة، ففرغت الزجاجةُ في وقتٍ قصير، ومعها هبطتْ أهليتهُ، فيما استعادَ الأهلية الأصلية. توسَّلَ للوزير أسود أن يعطيه زجاجةً أخرى، ويبادلها بدجاجتين. وافقَ الوزير أسود لكنَّه لم يسلمه الزجاجة، ربما كان الطلبُ عليها كبيراً في المدينة. فكَّرَ تجونغ تشي أيضاً في طلبِ المساعدة من الأب مينغ تشي للعثورِ على طريقةٍ يحصلُ بها على صلصةِ صويا التين، وينالُ أهليته. إلَّا أنَّ مينغ تشي كان يملكُ أهليةً كبيرة، إلى حدِّ أنَّ تجونغ تشي تلعثمُ في الكلام، ولمرَّاتٍ عديدةٍ لم يستطع الاقترابَ منه، ولا الحصولَ على فرصةٍ للحديثِ معه.

كان مينغ تشي مشغولاً تلكَ الفترة بإعدادِ المانتو للكومونة، وتديرِ مختلفِ شؤنِ القرية، وكان ما أن يدخلَ في اجتماعاتِ الكوادر، يفسحُ

له الجميع مكاناً على الفور. لم يشعر مطلقاً أنه متطفل، كان يستمع إلى بن بي وهو يوزع مهام العمل، ويوميء برأسه موافقاً أو يهزه إشارة للرفض، كما يقاطع المتحدث أحياناً، ويتحدث في الأغلب عن أمور لا علاقة لها بالشؤون العامة لماتشياو، بل عن حالة الطقس الباردة، وأن العجين يختمر، وعن العمل الرديء لمصانع الخميرة وجودتها وغيرها ممّا له علاقة بالمانتو فقط. كانت الكوادر تستمع له باهتمام، وتشارك بين حين وآخر برأيها عن تكتيكه في إعداد الخبز. وإذا حدث وانجرف في حديثه بحماس، لا يهتم إن عطل الكوادر ساعة أو ساعتين، إذ لم يُصرف من قبل، لأنه يمتلك أهلية.

المؤسف في الأمر، أنه من السهل أن يفقد المرء عقله إن امتلك الأهلية، لا سيما أشخاص مثل مينغ تشي، الذي لم يحصل عليها بسبب قدراته، بل بسبب فرصة مواتية، كان من السهل أن يصيبهم الجنون لتحقيق هذا الطموح. انتشر صيت المانتو الذي يخبزه على نطاق واسع، وكان يُدعى أحياناً لإعدادِه في الاجتماعات الكبيرة في المحافظة؛ لا نعرف كم مرّة ذهب إلى المدينة، وتعرّف هناك على الأرملة لي، وهي عاملة نظافة في دار ضيافة حكومة المحافظة، وقد نشأت علاقة بينهما مع الوقت. كانت الأرملة قد كبرت وعاشت في المدينة، وخبرتها واسعة، وتفهم كيف تكون دافئة في السرير، وأشبع خبز المانتو الأبيض الذي يأتي به من المطابخ جوعها وجوع ابنها، وهكذا، وبمرور الوقت، تعاهدا على الحب. وفي النهاية، أنهى مينغ تشي ما بدأه، وأخذ كيساً من دقيق «الثروة والسلطة» المخصص لرئيس لجنة الحزب في المحافظة إلى منزل الأرملة، وأخذ رأس خنزير كذلك.

بعد انتشار الخبر، فُصِّلَت الأرملة لي من عملِها، واعتمدت على جمع القمامة في كسب لقمة عيشها. أمّا مينغ تشي (أُلغِي لقب الأب)، فقد عاد مكتتباً إلى ماتشياو، ومذاك لم يذهب إلى مركز المحافظة أو الكومونة لإعداد الخبز. ولا داعي للقول إنه قد فقد مكانته في القرية، وأصبح مظهره بائساً بمرور الأيام؛ عنقه منكمش وكتفاه مرفوعتان سواء كان الطقس بارداً أم حاراً، كأنه يريد دفن وجهه. بطبيعة الحال، حُرِّم من حق التعبير، فضلاً عن اجتماع الكوادر، فإن عُقَد الاجتماع لكل أفراد الكومونة، لا يُعطى له دور في الكلام. وإن كان لكل أن يعبر عن رأيه، فإنه يمدُّ رأسه بذعر، ويتحدّث بصوت طنان كالبعوض أو الذباب، فيثير حنق بن يي الذي يوبّخه مرّة بعد مرّة: «تحدّث قليلاً! تحدّث قليلاً! ليس الأمر كأنك لم تأكل!».

كان يُرسل في أغلب الأحيان للقيام بالأعمال الشاقة والأشدّ إرهاقاً، ونقاط عمله أقل من الآخرين.

كره أهل ماتشياو ألا يتحوّل الحديد إلى فولاذ، ومقتوا جشع وشهوة مينغ تشي، وحرمان القرية من هذا الجزء من المجد، كأن القرية كلّها سرقت كيس الطحين ورأس الخنزير، لذا استخدموا طريقة غير مكتوبة للتعامل مع هذا الشخص، وهي «سلب الأهلية»، قذفوا الكلمة في وجهه، ودفعوه إلى حالة من الإحباط واليأس، ودون أن ينتظر أن نرحل إلى ماتشياو ونعود إلى المدينة، تحوّل اكتئابه إلى مرض، وانتقل إلى عالم الينبوع الأصفر^(١). أدركت خلال هذه العملية الشرسة، أن «الأهلية» يمكن أن تكون جماعية أيضاً، ولأن مينغ تشي على وجه التحديد كان

(١) الانتقال إلى عالم الينبوع الأصفر يعني «الموت»، كما يشير الينبوع الأصفر إلى العالم السفلي.

شخصيةً نادرةً في ماتشياو، تحوّلت «أهليته» إلى رأسِ المالِ المشتركِ لأهلِ القريةِ كلّهم، لذا كان شديدَ الأهمية، وتخلّيه عن هذه الأهليةِ بلا مبالاةٍ هكذا جريمةٌ أُرْتُكِبَتْ بحقِّ القريةِ.

عقب عودتي إلى ماتشياو بعد سنواتٍ طويلة، وبينما كنتُ أمشي في أثلامِ الحقول، سمعتُ مجموعةً من الأطفالِ يغنون أغنيةً أسفلَ الشجرةِ:

سرق مينغ تشي دجاجاً،

وقُبِضَ عليه متلبساً،

وأخذوه إلى محافظةٍ ما بين الفخذين،

وخلعوا بنطلونه ومزّقوا ثيابه،

وضربتَه الشرطةُ على مؤخرته،

إذا كنتَ تتباهى في الكلام،

فما أن تتباهى

تُترَكُ بمؤخرةٍ حمراءٍ لامعة...

أُصِبتُ بالذهول، لم أتوقع أن يظلّ مينغ تشي حياً في ماتشياو بعد مرورِ كلّ هذه السنوات، كان حياً في الأغاني الشعبيةِ للجيلِ القادم من ماتشياو، وخلدَ بكيسِ طحينه، ذكرى سلبه الأهليةِ وإقصائه. وربما ستتناقلُ الأجيالُ هذه الذكرى من جيلٍ إلى جيلٍ، حتى يصبحَ بن يي، وفوتشا وغيرُهما، وأنا، وحتى الأطفالُ أسفلَ الشجرةِ غيرَ موجودين في هذا العالم.

طالما اللغةُ موجودة، ربما سيظلُّ حياً دائماً، حياً بعمقٍ في المستقبل.

نفوذ

تحصلُ النساءُ على الأهلية من الرجال؛ بالنسبة للمرأة المتزوجة، إن كان أهل زوجها يمتلكون أهلية، تحصلُ عليها، تفقدُها إن فقدوها، أمّا بالنسبة للمرأة غير المتزوجة، فتعتمدُ الأهلية على الأب، وبعد وفاته تعتمدُ على الأخ.

بالطبع ثمة ظروفٌ استثنائية. تلك المرّة في موقع عمل إصلاح الطريق العام، هرع العمال من كلّ قرية للمشاركة في المهمة، وتزاحموا لأخذ الأدوات، المكان، الطعام والخضراوات، وسادت الفوضى. أثارت رياحُ الشتاء الباردة موجةً من الرمال، وغطّت السماء والأرض بمدٍّ أصفر. كان حاملو الرمل، والذين يدكّون الأرض والذين يسحبون العربات يتحركون برشاقة بفعلِ الرياح، مثل لعبة الظلّ دون إضاءة كافية، لا تميّزُ الشباب من كبار السن.

في غيابِ النساء عن موقع العمل، تبوّّل العمال وتغوّطوا في كلّ مكان. كنتُ قد انتهيتُ من هزّ آخر قطري بول، حين رأيتُ مجموعة تبدو مثل كوادِر قادمة لقياس الأرض ورسم الخطوط، ومن بينهم شخصٌ يرتدي زيّاً عسكرياً قديماً، وقبعة قطنية، ويربطُ منديلاً يغطّي

نصفَ وجهه، حاملاً عصا من البامبو ويوجّه شخصين آخرين جيئةً وذهاباً لرسم الخطوط. صرخ هذا الشخصُ بشيءٍ ما عَبَرَ صوتَ الرياحِ والميكروفونات، لكنَّ الطرفَ الآخرَ لم يسمع، لذا تركَ عصا البامبو، ورمى حجراً كبيراً كان مُلقًى على الجيرِ إلى أسفلٍ منحدرِ التِّل. أُعْجِبْتُ بقوةِ هذا الكادر، إذا كنتُ مكانه، سأطلبُ على الأقل من شخصٍ آخرَ مساعدتي.

توتّر فوتشا حين رأى هذا الشخص، وفركَ يديه قائلاً: «هل تظنُّ أنَّ عملنا... جيد؟».

غرسَ ذلك الشخصُ عصا البامبو في مكبِّ الرَّدَم بقوة، ثم أخرجَها وقاسَ عمقَ الأرضِ ثم قال: «من تخدعون؟ اذهبوا ودكُّوا الأرضِ دكتين».

جحظت عينا فوتشا وقال: «لقد دككنا الأرضَ خمسَ دكات».

- إِذَنْ أَمَا زلتم بشرّاً؟ يمكنكم حكُّ بشرتكم؟ بوسعكم اصطياًدُ الناموس؟

أفقدنا كلامه أعصابنا.

تبعنا هذا الشخصَ إلى مركزِ القيادة للحصول على الأسلاك الحديدية. سمعنا في الطريق أحدهم يناديه «المُعَلِّم وان»، «الأخ الكبير وان»، بيدَ أنَّ هذا الشخصَ عموماً لا يرد، بل يومئُ برأسه للمتحدّث، أو يبتسم ابتسامةً فاترة. «هذا الرجل المُسن، يمتلكُ أهليةً كبيرة». غمغم الشابُّ المتعلِّمُ الذي رافقني بتلك الجملة البذيئة، ولم يخطرُ بباله أنَّ المُعلِّمَ وان أو الأخ وان، الذي تفصلُنَا عنه عشرة أمتارٍ قد سمعه. التفت،

وتوقفت خطواته، وحدّق في زميلي بعينه السوداوين اللامعتين، كأنّه تحذيرٌ صامت.

لم نتوقع أن تكون أذنا هذا الشخص حسّاستين هكذا، كما لم نتوقع أن يكون ردُّ فعله سريعاً وقوياً، دهمنا إحساسٌ مشؤوم: علينا أن نحذر أشخاصاً شرّسين كهؤلاء.

بعد ظهيرة هذا اليوم، اكتشفنا أنّ هذا الشخص المدعو وان... واو... امرأة! وهذا ما حدث: حين ذهاب زميلي لقضاء حاجته، رأى المدعو وان يخلع قُبْعته، وانساب شعرٌ أسودٌ طويلٌ من أسفلها. دُهِش زميلي حتى أنّه لم يذهب إلى الحمام، وحبس بوله ليعود ويُبْلَغ عن الأمر. ذهلتُ أنا أيضاً وذهبتُ لألقي نظرة، فرأيتُ وان تجلسُ بين الرجال وتتناول الطعام، ولم يكن صوتها خشناً فحسب، بل تشرب كثيراً أيضاً، مثلها مثل الرجال. وحسب العُرف المحلي، لا يأكل النساءُ على الطاولة. وبمجرد أن ترى وجه امرأة جالسة على الطاولة، حتى لو كانت تشبه الرجال، سيبدو الأمر كأنّ رملاً دخل عينيك.

علمتُ لاحقاً أنّ «وان» من تجانغ جيا فانغ، واسمها وان شان هونغ، عملت مُدرّسةً خاصةً لمدة عامين، وشغلت منصبَ سكرتير لجنة رابطة الشباب الشيوعي في الكومونة. كان بوسعها حرث الأرض في الحقول، وقطع الأشجار في الجبال، وقيادة الجرار في مصنع الآلات الزراعية. وعليّ الاعتراف بأنّ الأخ وان بعد خلعها القُبْعة كانت ما تزال تتمتعُ بجمالٍ خاص، قوامها ممشوقٌ، ويمتدُّ خطُّ واضحٌ من أسفل أذنها إلى ذقنها. كانت تمشي بين الرجال جيئةً وذهاباً، مثل سكينٍ حادّة تجزّ العشب. لكن يبدو أنّها لا تحبُّ الكلام، فخلال فصل الشتاء الذي

أَمْضَتْهُ مَعْنَا فِي إِصْلَاحِ الطَّرِيقِ السَّرِيعِ، كَانَتْ تَسْتَخْدِمُ صَوْتَهَا الْأَجَشَّ إِلَى حَدٍّ مَا لَتُوجِيهِنَا بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ، مِثْلَ «جَيِّدٍ»، «غَيْرُ مُجَيِّدٍ»، «تَنَاوَلَ الطَّعَامَ»، وَيَبْدُو وَجْهَهَا أَثْنَاءَ كَلَامِهَا جَامِداً كَثْمَرَةً بِأَبَايَا.

مِنَ الْغَرِيبِ الْقَوْلُ إِنَّ كَلِمَاتِهَا كَلِمَاتُ أَقْصَرٍ، كَانَتْ أَقْوَى، وَأَصْبَحَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى النَّاسِ عَصِيَانُهَا. وَبِاسْتِخْدَامِ لَهْجَةٍ مَاتَشْيَاو، كَانَ لَدَيْهَا «sha»، أَوْ «نفوذ»، وَ«shà - 煞» تَعْنِي السُّلْطَةَ وَالْمَهَابَةَ، وَتُجَانِسُ كَلِمَةَ «قَتَلَ - shā - 杀»، وَالَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى الْإِنْتِهَاءِ، مِثْلَ أَنْ نَقُولَ «خَاتِمَةُ» الْبَرْنَامِجِ أَوْ الْمَقَالِ. يُمْكِنُ أَيْضاً تَعْرِيفُ الشَّخْصِ ذِي النُّفُوذِ عَلَى أَنَّهُ الشَّخْصُ الَّذِي يَتَحَدَّثُ فِي النِّهَايَةِ، الشَّخْصُ الَّذِي يَحْدُذُ النِّعْمَةَ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ. كَانَتْ الْأَخْتُ الْكَبِيرَةُ وَانْ، هِيَ وَجْهَ الْمَرْأَةِ الْوَحِيدِ ذَا النُّفُوذِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الرِّيفِ.

لَمْ يَكُنِ التَّوَاصُلُ فِي مَنَاخِ نُّفُوذٍ كَهَذَا تَوَاصُلاً، فَمَهْمَا اقْتَرَبَتْ مِنْهَا، تَبْتَعُدُ عَنْكَ بِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةِ آلَافٍ لِي، كَانَتْ تَصَادِفُنَا كَأَنَّهَا تَصَادِفُ هَوَاءٍ، وَيَعْبُرُ لِمَعَانِ عَيْنَيْهَا السُّودَاوِينِ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِنَا، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى نَقْطَةٍ مَا بَعِيدَةٍ. فِي الْبَدَايَةِ لَمْ نَعْتَدِ عَلَى ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَمْرًا جَيِّداً أَنْ نُحَرِّجَ بِتَحِيَّتِهَا، وَلَا أَمْرًا جَيِّداً أَلَّا نَحْيِيَّهَا، وَبِمَرُورِ الْوَقْتِ، وَحِينَ رَأَيْنَاهَا تَعَامَلُ بِالْآخَرِينَ الْمَعَامِلَةَ ذَاتِهَا، أَصْبَحَ الْأَمْرُ عَادِيّاً بِالنِّسْبَةِ لَنَا، وَلَا نَأْخُذُهُ عَلَى مَحْمَلِ الْجَدِّ. حِينَ ذَكَرَهَا شَخْصٌ مِنْ تَجَانِغِ جِيَا فَا نَغِ ابْتَسَمَ فَقَطْ وَقَالَ: لَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلِي قَوْسَ مَاتَشْيَاو، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مَصَادَقَتَهَا وَنَحْنُ مِنَ الْقَرْيَةِ ذَاتِهَا، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فَهْمَهَا، كَانَتْ تَعِيشُ بَيْنَنَا كَأَنَّ لَا وَجُودَ لَهَا.

إِذْنًا، هِيَ لَيْسَتْ قَرْيَةً مِنْ أَيِّ شَخْصٍ.

كانت تمثل مهمة رسمية فحسب، لذا افتقرت إلى ثقة العديد من الأشخاص هنا. إن أغلقت عينيك وفكرت بها، لن يمكنك إلا اعتبارها وهماً يظهر حيناً ويختفي حيناً آخر. يقول البعض إن خلفيتها معقدة، وإنها بذرة غرسها مدير فريق من فرق إصلاح الأراضي الزراعية. لا أعرف إن كانت هذه الأقاويل حقيقية أم لا. ويقول آخرون، إنها كانت إحدى التلاميذ المشهورين في مركز المحافظة خلال الثورة الثقافية قبل سنوات، وذهبت إلى بكين وشانغهاي، وحملت بندقية وسُجنت، كما التقطت لها صوراً مع بعض كبار قادة الحكومة المركزية، ولا أعرف إن كانت هذه الأقاويل زائفة أم حقيقية. كما يقول البعض، إن الأخت وان على وشك أن تبلغ سنّ الثلاثين وليست متزوجة أو مخطوبة، لأن حبيبها من ضباط القوات الجوية، وقد انضم للأسف إلى فريق لين بياو «فريق الأقدام الصغيرة» أثناء الانقلاب، وبمجرد هزيمة الفريق، زُج بالشاب في السجن، ولم تُسمع عنه أخباراً لسنوات. ولا أدري مدى صحة هذه الأقاويل أيضاً.

بالنسبة لي، ستظلُّ إلى الأبد محض شائعات. تبدّد شبابها في الشائعات، وشيئاً فشيئاً ظهر عليها شحوب متوسطي السن. رأيتها ذات مرة برفقة بعض الأشخاص لأخذ القياسات لتغيير مجرى النهر، وبداءي ظهرها أثناء سيرها منحنيّاً قليلاً.

قرّر بعض الشباب غير المهذبين ذات مرة أن يستفزوها أثناء سيرها في الشارع، وغنوا أغاني منحطة لاستفزازها، وعندما رأوها تصمّ أذنها عنهم، استخدموا لهجةً بذيئة للانتقام منها:

- هيه، أيُّ أهلية تختالين بها، لا نراكِ تزوجتِ رجلاً ثرياً؟

- أتعقدين أنك امرأة جميلة؟ استهلك الجيش أنوثتك حتى فسدت،
والأ لماذا ثدياك كبيران هكذا؟

- لا تتخدع بتظاهرها بالعفة، فأنا لا أصدق أنها لا ترغب الرجال
مطلقاً، انظر إلى هيئتها وهي تمشي ومؤخرتها مرتفعة، أليست
شبهة؟

وعلت موجة من الضحك.

تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً.

كان تجاو تشينغ يجمعُ زهورَ القطن في الحقل، وسخرَ من هؤلاء
الشباب، وقال إنكم حتماً مهووسون بالنساء لإغاظتكم الأنسة وان
بهذه الطريقة، ولا تدركون قدرها. إنها سكرتيرة ورئيسة، هل تظن أن
باستطاعتك الالتصاق بامرأة تملك هذا القدر الكبير من الأهلية؟ وربما
إنجاب أطفال؟ ومغزى كلامه، أن الأهلية أمرٌ حكرٌ على الرجال فقط،
فإن امتلكتها المرأة، فلا تُعدُّ امرأة، على الأقل لا تُعدُّ امرأة عفيفة، وتصبحُ
بذاءةُ الشبابِ غيرَ لائقة. كما أن الأهلية كارثةٌ تؤدي إلى إلغاء الجنس،
والأهلية العالية تؤذي المرء، وهي تهديدٌ لخصوبة الأجيال القادمة.

لا يمكنني فهم منطقِ كلام تجاو تشينغ، لكن وان شان هونغ في
الواقع حافظت على عفتها ولم تتزوج، وحتى موعد رحيلي عن ماتشياو،
كانت تنطلق بمفردها. ويُقال إنه بعد مرور ما يزيد عن عام، وبعد
أن استعاد والدها الحقيقي وظيفته في مدرسة كادر السابع من مايو،
استدعاها إلى المدينة. ويُقال إنها أرسلت إلى مصنع كبير مملوك للدولة
في مقاطعة قانسو، ولا يعرف أحد ما حدث بعد ذلك.

ابن أوى الشرس

بين طيَّاتِ جبال تيان تزي، تقعُ قريةٌ صغيرةٌ تُدعى قوسُ تشاي تزي، وللوصول إلى هناك لا بُدَّ من اجتيازِ جدولٍ صغير، مياهه غير عميقة، وثمره أحجارٌ تشكِّل موطئَ قدم أثناء العبور، بثلاثِ خطواتٍ وقفزتين تكونُ قد عبرت. الأحجارُ القابعةُ بين الأعشابِ المائيةِ مغطاةٌ دائماً بالطحالبِ الخضراء، ولا شيء يميّزها.

عبرتُ مرَّاتٍ عدَّةً من هناك، إذ كنتُ أذهبُ إلى قرية تشاي تزي لكتابةِ أقوال ماوتسي تونغ أو لجمعِ شتلات الأرز. وذاتَ مرَّة، سألني أحدُ الأشخاص الذين رافقوني، إن كنتُ قد لاحظتُ شيئاً مختلفاً أثناء عبورنا الجدولَ المرَّةَ السابقة. فكَّرتُ ثم قلتُ: «لا لم ألاحظُ شيئاً». قال: «فكِّر من جديد». فكَّرتُ مجدداً، وقلتُ: «لا، لم ألاحظُ شيئاً». قال: «ألم تتذكَّر وجودَ صخرةٍ طويلةٍ وكبيرةٍ في الماء؟». لكنني لم أتذكَّر، ولدى معاودتهِ تذكيري، تكوَّنَ لدي انطباعٌ بسيط: حين عبرتُ الجدولَ في المرَّةَ السابقة، يبدو أنَّ صخرةً طويلةً كانت في الناحيةِ المحاذيةِ لأشجارِ الصفصاف، وطأْتُها عند عبوري، حتى أنَّني جلستُ القرفصاء وشربتُ رشفتين من الماء، ربما.

ضحك رفيقي، وقال: «إنَّ هذه ليست صخرةً على الإطلاق، في الفيضانِ الأخير، رأى بعضُ الأطفالِ رعاةَ الماشية من فوق القمة، أنَّ تلك الصخرة ارتفعت فجأة، وأثارت دواماتٍ في الماء، وسبحت مع التيارِ إلى الأسفل - كانت كائناً حياً: ابنُ آوى الشرس».

ابنُ آوى الشرس هو سمكةُ ابنِ آوى^(١)، وتُدعى ابنُ آوى الأخرس. يقولُ أهلُ ماتشياو إنَّ هذه السمكة تتغذى على الأسماك، ولا تتغذى على الأعشاب، وهي الأكثرُ شراسة، وأحياناً، الأشدُّ سكوناً، إذ لم تتحرك منذ أكثر من شهر.

منذ ذلك الوقت، وكلَّما رأيتُ صخوراً كبيرةً أو حطباءً، راودني إحساسٌ بالقلقِ والحذر، كنتُ أخشى أن تتحرك فجأة، وتتحوّل إلى كائنٍ حيٍّ ما يلوذُ بالفرار. أيُّ موضعٍ مغطّى بالطحالب قد يفتحُ عيناً سوداء، وينظرُ إليّ نظرةً لا مبالية.

(١) الشنة - أسماك رأس الأنفى.

الغالي

لـ بن بي لقبٌ آخر، وهو «سائلُ اللعاب»، أعطاه تجي هوانغ هذا اللقب. كانوا يتناولون الطعام في موقعِ العمل، ورأى أعوادَ طعامِ بن بي تدقُّ بحدةٍ على حافةِ الطبق، وعيناه جاحظتان، وتتصارعُ أعوادهُ مع أعوادِ طعامِ الآخرين في أطباقِ اللحم صراعاً مريراً. فسأله تجي هوانغ فجأةً مندهشاً: «لماذا يسيلُ لعابُك بهذه الغزارة؟».

أدركَ بن بي أنَّ عيونَ الجميع تحدقُ به، فمسحَ فمه مرَّتين، «أيُّ لعاب؟»، مسحَ خيطاً من اللعاب، لكنَّه لم يمسح بقايا الأرز والزيت عن لحيته الخفيفة.

أشار تجي هوانغ إليه ضاحكاً: «سألَ لعابُك مجدداً!». وضحك الجميع أيضاً.

شدَّ بن بي كُمَّ قميصه ومسحَ مرةً أخرى، لكنَّه لم ينظف لحيته رغم ذلك، فغمغمَ بشيءٍ ما، وبدا مُخرجاً قليلاً. وحين رفعَ أعوادَ طعام من جديد، اكتشفَ في الحال، أنَّ طبقَ اللحم كان فارغاً، فلم يسعه إلاَّ النظرُ باحثاً في الأفواه المحيطة به، كأنَّه يريدُ ملاحظة قطع اللحم الدهنية الدسمة بنظراته ليعرفَ إلى أين ذهبت، وفي أيِّ معدةٍ شريرةٍ نزلت.

نظر إلى تجي هوانغ باستياء وقال: «تناول طعامك، لماذا تصرخ؟». وعموماً لم يكن بن يي شخصاً تصعب إغاضته، وكان لا يجيد الحفاظ على هيئته خارج الأعمال الرسمية، فيتظاهر بأنه أصم إن تعرض له أحد بكلام غير مهذب - وهو في الحقيقة يعاني شيئاً من الصمم، لكن سمعه ذلك اليوم كان جيداً للغاية، ولا مناص من أن يحافظ على ماء وجهه، فهناك أشخاص من خارج القرية، وأيضاً «خي» رئيس الكومونة، وكون تجي هوانغ أكد على سيلان لعبه في هذه المناسبة، كان ذلك تصرف تجي هوانغ بوصفه «غالي».

و«غالي - 宝» تعني أحق، و«يكون غالياً - 宝气» تعني الحق. عرف تجي هوانغ بحمقه في ماتشياو. فهو على سبيل المثال، لا يفهم أن عليه إفساح المقاعد للكوادر، ولا يفهم كيف يتظاهر بدك الأرض في موقع العمل، واستغرق وقتاً طويلاً لفهم أن النساء تحضن كل شهر، كما أظهر ضربه لزوجته بعنف في السابق كم هو غالي. وبعد طلاقه من زوجته، وعودتها إلى منزلها في بينغ جيانغ، كان يرسل لامرأة الحلم تلك طعاماً وملابس بين حين وآخر، وهذا ما أظهر كونه غالياً بدرجة أكبر. كان هو من استخرج الأحجار من المحاجر الثلاثة في جبال تيان تزي بضربة مطرقة تلو الأخرى، كان بإمكانه عمل جبال من الأحجار التي يستخرجها، والتي تُباع، أو يحملها الناس بعيداً ويستخدمونها في أي مكان، لكن ما أن يتشتت ذهنه، يُصر على أن هذه الحجارة ملكه، وبسبب هذا الأمر، لا يجادله الكثير من الزبائن بأي حال من الأحوال، ولا يستطيعون عمل شيء إزاء كونه غالياً، لذا يوبخونه بحق، وهكذا أصبح يُسب بوسم «هوانغ الغالي».

ذهب إلى بيت أحد الأشخاص لينظف ويغسل حجر الرحي، فجعله نظيفاً كأنه جديد. وأثناء الدردشة تحدثا عن الأوبرا، وكان رأيّه يخالفُ سيدَ المنزل، فتشاجرَ معه حتى تضرَّجَ وجهه. قال صاحبُ المنزل: «ارحلْ ارحلْ، لا تنظف حجرَ الرحي». نهَضَ هوانغ الغالي بعد جمع أدواته، وتذكَّرَ شيئاً بعد خروجه، فعاد وأكملَ كلامه قائلاً: «لا مشكلة إن لم ترغب في تنظيفه، لكن عليك معرفة أنَّ حجرَ الرحي هذا ليس لك، فكَّرْ في الأمر».

فكَّرَ صاحبُ المنزل لمُدَّةٍ لكنه لم يفهم.

مشى هوانغ الغالي بضَعِ خطواتٍ ثم التفت بغضبٍ وقال:

- هل عرفت؟ ليس لك!

- هو لك إذن؟

- لا، ليس لي أيضاً، إنَّه ملكُ والدي.

وكان يقصد أنَّ والده هو الذي استخرج الأحجار، إذن فهو لوالده. ذات مرَّة، جاء رجلٌ من قوس شوانغ لونغ إلى المحجر باكياً، وأخبره أنَّ عمَّه توفَّى، ولا مالَ لديه لإقامة جنازة، ويخشى ألاَّ يحصل على دفنٍ لائق، وتوسَّل إلى تجي هوانغ أن ينحت له حجراً كشاهدٍ قبرٍ، على أن يدفعَ له أجلاً، وحين رأى تجي هوانغ مظهره البائس، قال لتنسَّ أمرَ الدفع، خذ الحجر، لتضمنَ أن يُدفنَ عمُّك بشكلٍ لائق. قال ذلك ثم اختارَ له حجراً بلونين أبيض وأزرق، ونحت له شاهداً، وربطه بحبل، وساعده في حمليه نزولاً من الجبل، وإيصاله. كان المحجرُ في هذا الوقت قد أُعيدَ إلى الجماعة، وكان فوتشا المسؤول عن الحسابات،

واكتشفَ أَنَّهُ أعطى هذا الرجلَ الحجرَ مجاناً، وأخبره أَنَّ عليه البحثُ عن الرجل ومحاسبته، قائلاً إِنَّه ليس لديه الحق في تقديم هذه الخدمة، وتشاجرَ الاثنان شجاراً كبيراً.

قال تحي هوانغ وقد تجهَّم وجهه: «أنا فجَّرتُ هذه الأحجار، وكسَّرتُها، وحملتُها، ونحتُها، كيف تكون للفريق؟ أيُّ منطقٍ هذا؟». إلا أَن فوتشا اضطرَّ إلى خصمِ نقاطٍ من سجلِ عمله.

لا يهتمُّ هوانغ الغالي بنقاطِ العمل، وترك كوادِرَ الفريقِ تخصُّم من نقاطِه، غيرَ عابئٍ بأيِّ شيءٍ إلاَّ الأحجار، فالأشياءُ التي لم يستخرجها بيده، لا تربطُه بها علاقةٌ قوية، وليس لديه أيُّ سببٍ للاهتمام بها. بعد طلاقه من شوي شوي، جاء أهلُها ونقلوا تقريباً جميعَ الأشياءِ من منزله، ولم يهتم أيضاً، بل كان ينظرُ إليهم وهم ينقلون ممتلكاتِ المنزل، ويصبُّ لهم الشاي. كان يعيشُ في القريةِ العليا، وفي موقعٍ ليس بعيداً، تمتدُّ أرضُ من البامبو الجيد أعلى التلال؛ تتدحرجُ جذورُ البامبو على الأرض في الربيع، وتنتشرُ البراعمُ في كلِّ مكان، وأحياناً، يحدثُ فجأةً أن ينبثقَ برعمُ بامبو غليظٌ في بستانِ خضرواتٍ أحدهم، أو أسفل السرير أو في حظيرة الخنازير. ووفقاً للأعراف، تنتمي براعمُ البامبو إلى أيِّ منزلٍ تتدحرج إليه. كان تحي هوانغ يفهمُ هذه النقطة، إلاَّ أَنَّهُ كان ينساها وقتَ التنفيذ. حين ذهبَ لبناءِ عريشةٍ يقطينِ في بستانِه، رأى شخصاً غريباً هناك، على الأرجح عابر سبيل، وما أن رآه الأخير حتى فرَّ مذعوراً. لم يكن هذا الشخص يعرف الطريق، وعوضاً عن سيره في الطريق العام قفز في المصرف، ولم يفلح صراخُ تحي هوانغ، حين رأى بعينين جاحظتين، هذا الشخصَ يطأُ الهواء، ويسقطُ في مصرفِ الماء

العميق، ونصفُ جسده يغرقُ في الطين. صرخ الرجلُ، وأخرج من ذراعِهِ برعمَ بامبو سميكَ.

كان من الجلي أَنَّهُ اقتلع برعمَ بامبو من بستانِهِ. تغاضى تجي هوانغ عن ذلك، ولحق به بسرعة، وأخرج بلطة قطع الأخشاب من خصره، وقطع شجرةً صغيرة، وأنزلَ طرفَ غصنِها إلى المصرف ليتعلّق به الرجل، ثم سحبه على مهلٍ إلى الأعلى.

كان وجهُ الضيفِ العابرِ شاحباً، وارتجف جسده عندما وقع نظره على السكين في يد تجي هوانغ، وحين لم تبدّر عنه أيُّ حركةٍ، بدأ في السير إلى الجانبِ الآخر من الطريق بخطواتٍ قصيرةٍ سريعة.

هتف تجي هوانغ: «هيه! برعمُ البامبو...».

كاد الرجل أن يقع.

- ألا تريدُ برعمَ البامبو؟

ثم ألقى بالبرعمِ إليه.

التقطَ الرجلُ البرعمَ من الأرض، وحدّق إلى تجي هوانغ ببلاهة، وحين تأكّد أنّ الأمرَ يخلو من مؤامرةٍ أو خطر، فرّ كأنّه يلوذُ بحياته، واختفى بعد فترةٍ قصيرة. رأى أنّ ظلَّ ظهرِ الرجل مضحك، ومرّ بعض الوقت إلى أن ظهرت علاماتُ الحيرة على وجهه.

بعد هذه الواقعة، سخر أهلُ القرية من تجي هوانغ، سخرُوا منه لأنّه لم يقبض على اللص، وأنّه قطعَ شجرةً لينقذه. وما هو أكثرُ سخافة، أنّه خشي أن يقطعَ اللصُّ رحلته خالي الوفاض، فرأى أن يقدم له هديةً من بيته. طرفَ تجي هوانغ بعينه أمام هذه التعليقات، ودخّن سيجارته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الغالي (تتمة)

لا بُدَّ أن أتحدّث عن «الغالي».

رأيتُ تجي هوانغ من قبل يرافقُ رجالاً إلى تعاونية التوريد والتسويق، لبناء مبنيين. وما أن وُضِعَت قطعة القرميد الأخيرة، ظهر بن يي من حيث لا يدرون ليتفحصَ جودةَ العمل، يركلُ هنا ويضربُ هناك، وفجأةً اكفهرَ وجهه، وأصرَّ على أن الجدرانَ ليست مستوية، وأن الإسمنت ليس كافياً، وأنه سيخصمُ نقاطَ عملٍ من الجميع!

بحثَ تجي هوانغ عنه للتشاور، وقال له: «أيُّ هُراءٍ هذا، أنا النحات، فكيف لا أعرفُ كميةَ الإسمنت المناسبة؟».

ابتسم بن يي بفتورٍ قائلاً: «هل أنت سكرتيرُ الحزب أم أنا سكرتيرُ الحزب؟ هل يؤخذُ كلامُكَ أنتَ يا تجي اليقظ على محملِ الجَدِّ، أم يؤخذُ كلامي أنا السكرتير على محملِ الجَدِّ؟».

يبدو أنه كان يضمُرُ نيَّةً عدوانيةً لـ تجي هوانغ.

تدخَّلَ المتفرجون لتهذئةِ الأوضاعِ بينهما، وأبعدوا تجي هوانغ، وتحدَّثوا بكلامٍ طيبٍ عنه لاسترضاءِ بن يي. لحقَ تجاو تشينغ بمؤخرة سكرتير الحزب، وانتظره في الخارج حين دخل الحمام، حين دخل المسلخ

انتظره في الخارج، وحين خرج بن يي أخيراً من المسلخ ليدخن سيجارة، رافقه وهو يتفقد الخيار والفلفل على جانب الطريق، إلا أنه لم يستطع أن يجعله يلتفت ببصره وينظر إليه.

رن جرس موعد تناول الطعام في تعاونية التوريد والتسويق، ففرك بن يي يديه في حماس قائلاً: «حسنٌ، لنذهب إلى منزل المدير هوانغ لتناول السلاحف».

وبالكاد استطاع بن يي إخفاء بهجته.

قبل مغادرته، سُمِعَ صوتٌ مفاجئٌ وغيرٌ منتظم من المستودع المبنى حديثاً. جاء أحدهم مسرعاً ليبلغ، غيرٌ معقول، غيرٌ معقول، هوانغ الغالي يهدم المبنى! ما أن سمع بن يي ذلك حتى استجمع طاقته سريعاً، وذهب ليُلقي نظرة، واكتشف أن هذا الرجل غاضبٌ حقاً، وكان هوانغ الغالي يمسك بمطرقة نيزك^(١) ويضرب الجدار بقوة.

كان الجدار الجديد مثل التوفو، قطعة حجرٍ مائلة، وقطعة أخرى بدأت في الميلان، وغبارُ الحطام يتساقط، وإلى جانبه يقف العم هوانغ رئيس تعاونية التوريد والتسويق، ويحاول إيقاف يده. نظر العم هوانغ إلى بن يي وسأله: «ما الذي يجري؟ ما الذي يجري؟ كيف تهدمون مبنى في حالة جيدة؟ إن كنتم لا تكثرثون لعملكم، فأنا أكثرث لأحجاري، الحجر الواحد بأربعة فن، ألا تعرفون ذلك؟».

سعل بن يي في إشارة إلى أنه سيعلم شيئاً.

(١) مطرقة نيزك: سلاح صيني قديم، يتكون السلاح من حبل طويل متصل بطرفيه ثقلان معدنيان، أو طرف مدبب، حيث يمكن استخدامه كسلاح بواسطة الطرف المدبب، والثقل الثاني يستخدم كوسيلة للدفاع.

لم يفهم هوانغ الغالي مغزى سعاله.

- هوانغ أيها الأحمق!

ألقي تيجي هوانغ عليه نظرةً وتجاهله.

«لماذا أنت غالي هكذا؟» تصرَّح وجهُ بن يي حتى رقبتِه، ثم أكمل:
«عليك انتظارُ الكوادرِ لتعاینَ إن كان لا بُدَّ من هدمِ المبنى... ليس لديك
حقُّ التعبير. عُدْ! عودوا كلکم معي!».

بصقَ تيجي هوانغ في يده، ثم حمل المطرقةَ مجدداً وقال: «أنا من جلبتُ
هذه الأحجارَ من الجبل وحملتُها في عربتي، وهذا جداري، وأنا أهدمُ
أحجاري، ما شأنك أنت؟».

لم يستطع أحدٌ مجادلةَ تيجي هوانغ ما أن بدأ الحديثَ عن الأحجار،
ولا مواجهةَ نظراتِه المحدقة. تقدَّم تجونغ تشي ليساعدَ سكرتيرَ الحزب:
«هوانغ، أنت يا ولد، ما هكذا يكون الكلام، هذه الأحجارُ ليست ملكَ
تعاونيةِ التوريد والتسويق، وليست ملكك، هي ملكُ الناسِ في فريقِ
العمل، إذن هذه الأحجارُ التي تجلبُها هي ملكُ الفريق».

- أيُّ منطقٍ هذا؟ إذن «سائلُ اللعاب» هو ملكُ فريقِ العمل؟
وزوجته ملكُ فريقِ العمل، ويمكن للجميع مضاجعتُها، أليس
كذلك؟

سرت ضحكاتٌ خافتةٌ بين الجميع.

لشدَّة غضبِ بن يي ظلَّ صامتاً، وبقي فكُّه الأسفلُ معلقاً لفترةٍ
قبل أن يغلقَ فمه. «حسنٌ إذن، اهدم! اهدم جيداً! لن أخصم نقاطَ
عملِكم اليوم، بل سأعاقبكم حتى تصرخوا! لن أجادلكم، ألا

تعرفونَ أَنَّ المطارق مصنوعةٌ من الحديد، وأنَّ الخنزيرات تركض على الأرض!».

حدث تغيُّرٌ في مجرياتِ الأحداثِ حين سمعوا أنَّهم سيُعاقبون، تغيرت وجوهُ الكثيرِ من الواقفين، وتقدموا صوبَ تجي هوانغ وحاولوا سحبَه وإيقافَه، ودسَّ البعضُ في يده السجائرَ.

- هل هذا ضروري؟ هوّن عليك، هوّن عليك.

- لا تؤذِ الآخرين.

- إذن ليخضموا من نقاطِ عملِنَا، لكن ما هو مبررُ الهدم؟

- أملك جزءاً من هذه الجدرانِ أيضاً، لماذا أهدمُها فقط حين تطلبون هدمها؟

كان تجي هوانغ قوياً، حرَّكَ ذراعَه يميناً ويساراً وأطاحَ برجلين: «لا تقلقوا، أريدُ حجارتي فقط، لن ألمَسَ شيئاً ممَّا يخصُّكم».

وهذا هُراءٌ في الواقع، لأنَّ كلَّ الحجارة التي بناها اليوم هي أساسُ الجدران، فإذا أُقتلَعَ الأساس، هل سيظلُّ الجدارُ معلقاً في الهواء؟

رفع بن يي يديه وغادر. لكن الابتسامة عادت إلى وجهه تجاو تشينغ الذي كان يلاحقه طيلة الوقت، وقال إنَّ بن يي غيَّرَ رأيه، ولن يخصمَ من نقاطِ العملِ مؤقتاً، وسيسوِّي الحساباتِ لاحقاً. تبدَّدَ القلقُ من على وجوه الجميع، وعندما رأوا هوانغ الغالي توقَّفَ عن الهدم، انهمكَ الجميعُ في سدِّ فراغاتِ الأحجارِ التي أخذها.

في طريقِ العودةِ إلى القرية، سارع كثيرون لمساعدةِ هوانغ الغالي في حَمْلِ سَلَّةِ أدواتِه، قائلين لولا وجوده اليوم، أمَّا كان «السيد سائلُ

اللعاب» المُسن سيقضي عليهم؟ أَلَمْ يَكُونُوا سَيَصْبَحُونَ لَحْمًا عَلَى لَوْحٍ
تَقْطِيعٌ؟ تَزَاحَمُوا حَوْلَهُ وَأَثْنُوا عَلَيْهِ بِتَمَلُّقٍ وَضِيعٍ، مَكْرَرِينَ «هُوَانَغِ
الْغَالِي».. «هُوَانَغِ الْغَالِي». وَفِي اعْتِقَادِي، أَنَّ «الْغَالِي - 宝» لَمْ تَحْمَلْ حِينَهَا
مَعْنَى إِزْدِرَائِيًّا، بَلْ اسْتَعَادَتْ مَعْنَاهَا الْأَصْلِي وَهُوَ: الْغَالِي^(١).

(١) 宝 وَتُنْطَقُ bǎo، وَتَعْنِي نَفِيسٌ، ثَمِينٌ، غَالِيٌ، تَحْفَةٌ، كُنْزٌ.

رقصة الأسد

كان تحي هوانغ عازف الطبل في فرقة المسرح القديمة، أي العازف الأساسي، يعزف إيقاعات مثل «إيماء العنقاء»، «قفزة بوابة التين»، «عشر أمنيات مستردة»، «رقصة النمر المزدوجة» وغيرها، زوبعة من العاطفة والجرأة تُنشط تدفق الدم، رعد مفاجئ يسقط على الرأس كضربة فأس. العديد من المقاطع المختزلة والنغمات المنقوطة، وكل أنواع الوقفات المفاجئة الخطيرة والغريبة، تتوقف وتستمر، سريعة وبطيئة، تنقذ نفسها، تعود من الموت إلى الحياة، وتنزل إلى منعطف مفاجئ من حافة الانهيار. إن كان ثمة ما سيدفع كل عظمة من عظامك إلى الاسترخاء، وسيريح كل عضلة، وسيجعل بصرَكَ يندفع إلى أذنك، وتندفع حاسة شمك إلى أذنك، وستحطم كل جزء من دماغك، فإنه لن يكون أي شيء آخر غير إيقاع تحي هوانغ لـ «رقصة الأسد».

يستغرق عزف إيقاع «رقصة الأسد» نصف ساعة كاملة، وتتمزق العديد من الطبول بسبب وقع أقدام الأسد المدوّية، كانت يده اللتان تقتلعان الصخور ثقيلتين.

حاول الكثيرُ من شبابِ القريةِ التعلُّمَ منه، لكن لا أحد منهم أتقنَ فنّه.

كاد تجي هوانغ أن يشارك في فريقنا، فريق الدعاية الفنية لنشر أفكار ماوتسي تونغ. جاء بحماسٍ تلبيةً لدعوة، وما أن وصلَ بدأ في إصلاح المصابيح، وصناعة مطارق الغونغ، وكتبَ على ورقة حمراءَ برموزٍ ماثلة شيئاً ما عن نظامِ فريقِ الدعاية، وانهمك في الأمرِ كلياً. كان يبتسمُ للجميع، ولأنّه شديدُ النحافة، فإنّه يكشفُ حين يبتسمُ عن صفّي أسنانٍ ناصعةِ البياض متبقية في فكّه الأسفل. شارك مرةً واحدةً وتوقّف عن المجيء، وذهب في اليوم التالي لاستخراج الأحجار. ذهب فوتشا لاستدعائه، ووعدّه بزيادة عدد نقاط عمله عن الآخرين بنسبة عشرين في المائة، لكنّه لم يفلح في إقناعه.

يُقال إنَّ السببَ الحقيقي هو أنَّ المسرحيات الجديدة مملة ومضجرة، فلا يمكنه إطلاق العنان لطبوله وللغونغ. فالحوارُ الثنائي، الحوار الرباعي، والأغاني القصيرة، ورقصة الحصاد، كلُّ هذا لا يحتاج لإيقاع الأسد. في مشهدٍ من مشاهد الأوبرا النموذجية «الجيش الرابع الجديد يتعافى في منازل الشعب»، ظهرَ أسدُه أخيراً، ليقضي عليه المخرجُ بحركةٍ من يده.

- «لم أنه عزفي!» صاح باستياء.

- «هل سنستمع لعزفك فقط؟ ألن يُعني الآخرون؟» كان المخرجُ من المركز الثقافي في المحافظة، «هذه مسرحيةٌ للآلات الوترية والهوائية، ستختتم في نهايتها، وهذا يفني بالغرض».

أظلمَ وجهُ تجي هوانغ، وما كان له إلَّا أن ينتظر.

حين صعدت الشياطينُ اليابانيةُ المسرحَ وضجَّ الجمهور، هل سُمِحَ
لـ تجي هوانغ بالعزف؟ اتضح أنَّ المخرجَ أسوأُ ممَّا اعتقد، وسمح له فقط
بقرع بعض الإيقاعات المحاكية لتدفق المياه الجارية، وقرع بعض آلات
الغونغ الصغيرة في النهاية. لم يفهم تجي هوانغ، لذلك أمسك المخرجُ
بمطرقة الغونغ وقرع مرَّاتٍ عدَّةً لئُريه، «هكذا، هل فهمت؟».

- ما هذه النعمة؟

- نعمة؟

- أليس للعزفِ على الطبولِ والغونغِ نعمة؟

- لا، ليس له نعمة.

- إذن أعزفُ كيفما اتفق؟ كطفلٍ يتغَوَّطُ؟

- أنت، لا تعرفُ إلَّا اللحنَ القديم، دائماً رقصةُ الأسدِ رقصةُ

الأسد، أيُّ رقصةِ أسدٍ ستعزفُها عندما تعطي الشياطينُ اليابانيةُ

خشبةَ المسرح؟

لم يكن لدى تجي هوانغ ما يقوله، واضطر إلى الخضوع. وبعد
بروفة استمرت يوماً كاملاً، كان صوتُ الغونغِ والطبلِ في فوضى،
غيرَ متناغم، ما جعله بالطبع يشعرُ بخيبة أملٍ ساحقة، ولم يملك إلَّا
الانسحاب. كان يشعرُ بازدراءٍ تجاه المخرج، وعدا شبيه رن غوي، يانغ
سي لانغ، تشينغ جياو جين، تجانغ في يي وغيرهم، أبى أن يصدِّق أنَّ
ثمةَ مسرحياتٍ جيدةً في العالم، وكان من الصعبِ عليه تصديق أنَّ هناك
العديد من الأشياء التي قد تدهشه وتثير فضوله في هذا العالم. إن حدَّثته

عن المؤثراتِ الخاصةِ في الأفلام، وعن عددِ الركاب الذين يمكن أن تسعهم أكبرُ باخرةٍ في العالم، وعن حقيقة أن الأرضَ مستديرة، بحيث يمكنُ للناسِ المضيُّ قدماً والعودةُ إلى المكانِ الأصلي، وعن حقيقة عدم وجود جاذبية في الفضاء، وأنه يمكنُ لإصبعِ الطفل الصغير رفعُ مائةٍ وثمانيةِ آلافِ جين وغيرِها من الأمور الأخرى، يلخّصُ ردّه في كلمتين بهدوءٍ شديد:

- أنتَ كذاب.

لا يجادل، ولا يغضب، وأحياناً يتسم، لكنّه يلعقُ فمه ويلخّصُ ردّه بثقة: «أنتَ كذاب».

عموماً هو أكثرُ أدباً مع الشبابِ المتعلّم، ولديه احترامٌ كبيرٌ للمعرفة، لا يعني ذلك أنّه لم يكن فضولياً أو دونَ تساؤلات، على العكس، فهو يحبُّ الاقترابَ من أولئك الذين درسوا منّا في المدرسة المتوسطة، وطرح بعض الأسئلة عن الأمور التي لا يستطيع فهمها. كان متشككاً بشدة حيال الأشياء الجديدة بما في ذلك أعمال ماركس، ويحكمُ على الإجابات بسرعةٍ شديدة وبصرامةٍ مطلقة، وينكرُ الأشياء دائماً دون تركٍ أيِّ مجالٍ للنقاش: - تكذبون مجدداً.

على سبيلِ المثال، شاهدَ أفلاماً من قبل، لكنّه لم يصدّق أبداً إمكانية التدرّبِ على فنونِ الدفاع عن النفس في الأفلام النموزجية الثورية. «تدريب؟ لماذا؟ هؤلاء الأشخاص أقتلعت عظامهم منذ أن كانوا أطفالاً، ولم يتبقّ منهم سوى لحم، يقاتلون بضراوةٍ وقوةٍ على خشبة المسرح، ولا يمكنهم حتى حملِ دلوٍ فارغٍ بعد نزولهم عن الخشبة.

في هذا الوقت، إن فكَّرتَ في إقناعه بأنَّ عظامَ هؤلاء الممثلين في
الفنون القتالية لا تزال موجودة، وأنَّهم بالتأكيد لا يواجهون مشكلةً في
حملِ الماء، فهذا أصعبُ من الذهابِ إلى الجنة.

الرئيس هونغ

ذات يوم، بعد انتهائي من العمل، رأيتُ عجلاً صغيراً عند جانب الطريق، دون قرنين، خَطَمه مستديرٌ وثخين، منحنيّاً بشعره الكثيف أسفل شجرة توتٍ ويحترُّ العشب. رغبتُ في جذب ذيله، وما أن مددت يدي، مال برأسه كأنَّ له عيناً خلفيةً وغادر. كنتُ على وشك اللحاق به، فسمعتُ صوتَ خوارٍ قادمٍ من أرضٍ منبسطة بعيدة، واندفع ثورٌ بعينين متسعيتين، وقرنين مصوّيين نحوي، ترتجُّ الأرضُ تحت أقدامه، فألقيتُ معولي وهربتُ مذعوراً.

بعد مرورِ بعضِ الوقت، عدتُ لأخذِ المعول والخوفُ لا يزالُ داخلي.

وأنا ألتقطُ المعول، أطعمتُ العجلَ العشبَ بسرور، وأنا أهرُزُ حزمةَ العشبِ قريباً من فيه، اندفعَ الثورُ البعيدُ مجدداً، مصدراً خواراً حاداً، وببلادةٍ مثيرةٍ للسُّخط، لا يتقبَّلُ أيَّ شيءٍ جيداً كان أو سيئاً.

شراسةُ الثور الكبير تجاهي تعني أنَّه والدَةُ العجل. علمتُ بعدها أنَّ هذه البقرة اسمُها «الرئيس هونغ»، وُلِدَت وجزءٌ من أذنها مبتور، لذا أيقنَ الناسُ أنَّها تناسخٌ لشخصٍ يعيشُ قربَ نهر لُوِه. وكان هذا الرجلُ

الذي يُدعى الرئيس هونغ طاغيةً محلياً، له سبعٌ أو ثماني زوجات، وجزءٌ من أذنه مبتور. يقول الناسُ إنَّه ارتكبَ الكثيرَ من الأفعالِ الشريرة، وقد حكمَ عليه الرب بأن يكون ثوراً طوالَ حياته، وأن يسحبَ المحارِثَ والأشجارَ للناس، ويُضربَ بالسوط لِيُسدّدَ ديونَ حياته السابقة.

قال الناسُ أيضاً، إنَّ للسماءِ عيوناً حقاً، وإنَّه من العدالةِ الإلهية أن يتناسخَ الرئيس هونغ من جديدٍ في ماتشياو. حين حشدَ الجيشُ الأحمرُ الفلاحين لمحاربةِ الطغاةِ المحليين، لم يجرؤ أهل ماتشياو على التحرك في البداية، وحين قُضِيَ على الطاغية في لونغ جيا وان، وقُطِعَ رأسُه، ولم يحدث شيء، تلهّفوا للمحاولة. لسوء الحظ، حين أسسوا جمعيةَ الفلاحين، وشربوا النبيذَ الممزوجَ بدمِ الدجاج وصنعوا رايةً حمراء، اكتشفوا أنَّ الفرصة قد ضاعت: إذ قُضِيَ على كلِّ من اعتُبرَ طاغيةً في المناطقِ المجاورة، وأُفرِغَت مخازنُ الحبوب، ولم تتبقَ إلَّا بضعةُ فئران.

لم يكونوا سعداءَ بشأن ذلك، وتحرّوا عن الأمر مرّاتٍ عدّة، إلى أن عبروا نهرَ لُوّه حاملين البنادقَ والرماح، منطلقين إلى قريةِ الرئيس هونغ للقيام بثورة. لم يتوقعوا أن يكون الفلاحون هناك ثوّاراً أيضاً، قالوا إنَّ الرئيس هونغ هو طاغيَتُهُم المحلي، ولا يمكنُ تقويمُه إلَّا بواسطَتِهِم، وليس من قِبَل أشخاصٍ من أماكنٍ أخرى، وإنَّ حبوبَ عائلةِ هونغ لن تُوزَعَ إلَّا بواسطَتِهِم، وليس من قِبَل أشخاصٍ غرباء، ولن تُروى حقولُ الغرباءِ بمياهِهِم كذلك. فشلت جمعيةُ الفلاحين في القريتين في التوصلِ إلى اتفاقٍ في المفاوضات، وانتهى الأمرُ بالقتال. اعتقد الناسُ في ماتشياو (وليس الناس في ماتشياو فحسب) أنَّ الناسَ هناك يحمون الطغاةَ المحليين، وأنَّ جمعيَتَهُم وثورتَهُم زائفة، فنصبوا مدافعَ الصنوبر

وأطلقوا النارَ على القرية. لم يُظهر الناسُ من الجانبِ الآخر أيَّ علاماتٍ على الضعف أيضاً: دَوَّتْ أصواتُ الغونغِ دويّاً هائلاً، وأزالوا الأبوابَ الخشبيةَ للقريةِ بأكملها، وحركوا آلةَ التذريةِ الدَّوارةَ، وأغلقوا الطريقَ المؤدي إلى القرية، وفي الوقتِ ذاته بدأوا في إطلاقِ النار، حتى ارتجفت الأوراقُ المخبأةُ في أعماقِ الغابة وسقطت على الأرض ممزقةً واحدةً تلو الأخرى.

أصيب شابان من قرية ماتشياو بعد القتال، وفُقد غونغ برونزيٌّ جيد، وبدت الرجالُ والخيولُ كأنَّها تسبحُ في عريقٍ وأوساخ، ولم يأكل أحدٌ شيئاً طوالَ اليوم. لم يصدِّقوا أنَّ الوعيَ الثوري للأخوة الفلاحين هناك منخفضٌ للغاية، وبعد التفكيرِ في الأمر، أصرُّوا على أنَّ الرئيس هونغ وراءَ المؤامرة، وهذا ما شكَّل الكراهية العميقة تجاهه.

إنَّهم راضون جداً الآن، الأمورُ عادلةٌ ومعقولة، أن يرسلَ الربُّ الرئيسَ هونغ إلى ماتشياو لسحبِ المحراثِ للناس، وأن يتعبَ إلى حدِّ الموت، فهذا تسديدٌ لدينه. في صيفِ هذا العام، أرسلت بعضُ الماشية لحرث حقول الشاي، ولم يتبقَّ إلَّا ثورَين في ماتشياو. بعد حرثِ التلِّ الأخير في حقل الأرز المتأخر، استلقى الرئيس هونغ في المياهِ الموحلة الساخنةِ لاهثاً، ولم ينهض مرَّةً أخرى. حين ذبحه الناس، اكتشفوا أنَّ رثيته مليئتان بالدم، وأنَّ كلَّ فقاعةٍ في رثيته انفجرت، وضعوها في طستٍ خشبي، مثل كومةٍ من لب بذرِ البطيخِ المصبوغِ بالدم.

الشعرات الثلاث

سأتحدثُ عن ثورٍ آخر.

يُدعى هذا الثورُ «الشعراتُ الثلاث»، كان الأشدَّ جموحاً، ولا يستطيع أحدٌ من ماتشياو السيطرةَ عليه إلا هوانغ الغالي. يقول الناسُ إنَّه لم يُولد من بقرة، بل قفزَ من بين الأحجار، مثل الملك القرد في (رحلة إلى الغرب). لم يكن ثوراً، بل قطعة من الحجر. ولأنَّ هوانغ الغالي عَمِلَ نحات حجارة، لذا من الطبيعي أن يكون مسؤولاً عن هذه القطعة، كان هذا الرأي مقبولاً بشكلٍ عام لدى الناس.

وانطلاقاً من هذا الأمر، فإنَّ صياح تيجي هوانغ للثيران مختلفٌ تماماً عن الآخرين. يصيحُ معظمُ الناس على الثيران بـ «تشي - تشي - تشي»، وحده تيجي هوانغ يصيحُ على الشعراتِ الثلاث «انزلق انزلق انزلق». «انزلق»^(١) من الكلمات الشائعة عند نحّاتي الأحجار. «ينزلق ابنُ الجنة» أي الضربُ بالمطرقة الحديدية. إذن هل ثمة سببٌ لئلا تخافُ الأحجار من «الانزلاق»؟ إن تقاَتَل الشعراتُ الثلاث مع ثورٍ آخر، ومهما سكب

(١) انزلق: تُكتب الكلمة «溜»، وتُنطق liū، وتعني زلق، ناعم، ومصقول، كما أنَّ فعل وصفة هذه الكلمة يُكتبان ويُنطقان بذات الطريقة.

الناس من ماءٍ بارد -وهي الطريقةُ الشائعة- لا يستطيعون تهدئته. لكن ما أن يصيح هوانغ الغالي «انزلق»، يستديرُ بعيداً مطرقاً رأسه ومذعوراً، ويبتعدُ في وداعةٍ كزهرةِ قطن.

وكما أتذكّر، فإنَّ مهاراتِ تحيِ هوانغ في التعاملِ مع الثورِ جيدةٌ للغاية؛ لا يلمسُ سوطه بدنَ الثورِ مطلقاً، بينما يظلُّ جسده نظيفاً لا تغطيه بقعةٌ طينٍ بعد يومٍ من الحرث، وملابسه نظيفةٌ ومهندمةٌ كأنه عائدٌ من زيارةٍ لأقاربه، وليس من العملِ في الحقل. كان الطينُ الأسود المموج في الحقول التي يحرثها، مثل صفحاتِ كتاب، ناعمة، لامعة، ملساء، لا تشوبها شائبة، يرتفعُ منها دفءٌ، يمنحُ المرءَ شعوراً بالقُدرةِ على التحرك بحريةٍ وسلاسة، تُوحِّدُ الروحَ بالجسد، وتُشعِّركُ بأنَّك لا تستطيعُ لمسها أو تدميرها، وإن نظرنا عن كُتبِ سنرى أنَّ الأثلامَ تكادُ تكون منتظمة. وبغضِ النظرِ عن تفاوتِ مستوياتِ حقلِ الأرز، ومدى صعوبةِ حرثِ الأثلام، إلَّا أنَّه لم يكن يقفزُ فوقها، وقلَّما يتقاطع أو يتكرَّر طريقُ الحرث، كان ببساطةٍ أستاذَ رسم، لا يهدرُ أيَّ نقطةٍ حبر. ذاتَ مرَّةٍ، رأيتُ أثناءَ حرثِ الدورةِ الأخيرة، أنَّ أمامه زاويةً صغيرةً مغلقة، بدا أنَّ عليه التخلِّي عنها بأسف. لم أكن أتوقَّعُ منه أن يُلقِي بالسوطِ فجأةً، ويصرخُ ويعمدُ إلى إمالةِ مقبضِ المحراث، وفي لحظةٍ قلبَ الزاويةَ المغلقةَ بسلاسة. أمرٌ لا يُصدَّق.

أستطيعُ أن أشهدَ أنَّ الزاويةَ المغلقةَ لم تُحرثَ بمحراث. ليس بمقدوري إلَّا التصديقُ بأنَّه يمتلكُ نوعاً من القوةِ السحرية، زخماً غيرَ مرئي، يخترقُ المحراثُ الحديديَّ بالكامل من خلالِ راحةِ يده، وينفجرُ إلى الأمام من الحافةِ اللامعة للمحراث، ثم يقفزُ وينتشرُ في التربة العميقة.

وفي أي لحظة، يمكن أن يصل بقوته إلى ما يمكن أن يصله المحراث، أن يصل بطاقته إلى ما لا يمكن أن يصله بقوته، أن يصل بنيتّه إلى ما لا يمكن أن يصله بطاقته، ويحرث أي زاوية مغلقة بعيدة.

كما أذكر أنّه لم يثق ثقة كبيرة في رعاة الثيران اللعوبين، ودائماً يرمى الثور بنفسه، ويأخذه بعيداً بحثاً عن المياه النظيفة والعشب اللذيذ، ويرحل بعد الاطمئنان عليه. لذا كان آخر من ينهي عمله، ليتحول إلى نقطة سوداء وحيدة فوق التلة، يتحرك أحياناً، ويتوقف أحياناً، خلفه السماء الحمراء المشتعلة، حيث ينتشر صوت جرس الثور ويخفت بين السحب النارية التي تملأ السماء، وحينها تستيقظ النجوم المتناثرة نجمة تلو الأخرى.

لا يمكن تصوّر قرية ماتشياو، ولا تصوّر الغسق دون الصوت المكتوم لأجراس الثور. الغسق دون هذا الجرس الخافت، مثل نهر بلا ماء، مثل ربيع بلا زهور، مجرد صحراء رائعة.

وكان الثور الذي يرافقه، هو الشعرات الثلاث.

تكن المشكلة في أنّه تحتّم على تجي هوانغ الذهاب إلى المحجر أحياناً، ولا سيما بعد مرور فصل الخريف، إذ كانت الأشغال كثيرة هناك. وبانصرافه لا يجرؤ أحدٌ على استخدام الشعرات الثلاث. قررت ذات مرّة أن أنحي الشائعات، وأجرب طريقة تجي هوانغ في «الانزلاق». هطل المطر متقطعاً في ذلك اليوم، وجلّد البرق السحب المتراكمة المظلمة والمنخفضة، وتأرجع في الريح سلكان عاريان يُستخدمان كخطي بثّ، وانبعث منهما شررٌ ناري بسبب البرق والرعد. امتدّ السلكان العاريان عبر رقعة الحقل التي كنتُ أحرثها، إلى حيث يجب أن أتحرك ذهاباً وإياباً،

فشعرت بالتوتر كلما اقتربت منهما. وحين اقتربت من أسفلهما، شعرت بارتجاء ساقي، وكنت أحس أنفاسي مرة تلو أخرى، وأمد رقبتني للأعلى للمراقبة، وأنظر إلى خيط المصير المعلق في السماء يقدح شرراً، ويتملكني خوف بأنني سأتلقي ضربة قاضية في وجهي.

عندما رأيت الآخرين يحفرون القنوات في حقول أخرى تحت المطر، شعرت بالخرج من العودة إلى المنزل دون إذن، وأن حالي سيبدو كأنني خائف من الموت.

اغتنم الشعرات الثلاث الفرصة لإغاطتي، كلما ابتعدت عن الأسلاك، ركض بمرح أكثر، ولم أستطع كبحه مهما سحبه. وكلما اقتربنا من أسفل الأسلاك، تباطأت خطواته ليتبول أو يتغوط، أو يجتر الأعشاب شامتاً بمحاذاة الحقل. وفي النهاية لم يتحرك، رغم صياحي «انزلق»، وكيفما جلدته بالسوط، ودفعته مؤخرته إلى الأمام، كان يتراجع ببدنه إلى الخلف، وحوافره تتسمّر بالأرض.

توقّف تحديداً أسفل الأسلاك، وكان الشر لا يزال يتساقط ويتطاير وينفجر، واندفعت سلسلة منه على طول الأسلاك، ودوّت على مسافة بعيدة. أصبح سوطي المصنوع من الصفصاف أقصر وأقصر من شدة الضرب. لم أتوقع أن يزجر الثور فجأة، ويسحب المحراث من الوحل منطلقاً في خطّ فضي إلى منحدر الجرف. كان الناس يصرخون بذعر من بعيد، وترنّحت من سحيته، وكدت أن أسقط في الوحل. طار مقبض المحراث من يدي، ومال رأس المحراث الحاد إلى الأمام، مباشرة إلى إحدى قدمي الشعرات الثلاث الخلفيتين، كضربة فأس قاسية. ربما لم يشعر بالألم بعد، إذ قفز على تلّ بارتفاع متر وترنّح لفترة وجيزة، ما أدى

إلى انهيارِ كُتْلٍ كبيرةٍ من الطين؛ وفي النهاية لم يسقط، ولكنَّ المحراثَ خلفه عَلِقَ في شقوقِ الصخور، مُصدراً صوتَ قعقعةٍ عنيفاً.

لم أعرف مَنْ كان يصرخُ من بعيد، ولم يكن لدي أيُّ فكرةٍ بماذا يصرخ، إلى أن تذكرت بعد الواقعةِ بوقتٍ طويلٍ، أنَّ الرجلَ طلبَ مني سحبَ المحراثِ بسرعة.

فات الأوان، انكسرَ المحراثُ العالقُ في شقوقِ الصخور، وتهشَّم إطارُه بالكامل إلى قطع، وانقطعَ حبلُ الرِّسن أيضاً. وبحماسٍ الذي نالَ حرِيته، اندفعَ الشعراتُ الثلاثُ بكاملِ قوتهِ إلى التَّلَّةِ مزججراً، وكانت خطواتُه بين حينٍ وآخر تتقاذفُ وتتشني بعدمِ اتزان، في فرحةٍ لم يعهدها من قبل.

كُسِرَ خَطْمُه في ذلك اليوم، وكاد أن يبتَرَّ قدمه، وإلى جانبِ كُسْرِه المحراث، اصطدمَ بعمودِ أسلاكِ البَثِّ وأسقطه، كما اصطدمَ بجدارٍ منخفض، وداسَ على سَلَّة، وقلبَ سقيفةَ روثٍ بُنِيت في القرية، ولو لم يتجنبه الشخصان اللذان بنيا السقيفة بسرعة، لما نجيا بحياتهما.

لم أجروُ على استخدامِ هذا الثورِ مجدداً، وحينَ قرَّرَ الفريقُ بيعه وافقْتُ بشدة.

لكن تجي هوانغ لم يوافق على بيعِ الثور، وكانت أسبابُه غريبةً إلى حدٍّ ما، قال إنَّه من أطعمَ هذا الثورَ الأعشاب، وهو الذي سقاه المياه، والذي يستدعي له الطبيبَ ليسقيه الدواءَ عند مرضه، ولم يطلبَ بيعه، فكيف نجرؤ على بيعه؟ ردَّت الكوادر، إنَّ الثورَ الذي تستخدمه لا يعني أنَّه ملكك، لا بُدَّ من التمييز بين العام والخاص، ولقد اشترى فريقُ

العمل الثورَ بنقوده. ردَّ تجي هوانغ قائلاً: أنفق ملاك الأراضي الأموال على الحقول كذلك، إذن، ألم تُقسِّم حقولهم بعد حركة إصلاح الأراضي الزراعية؟ وذهبت الحقول لمن رعاها، أليس هذا المنطق ذاته؟
رأى الجميع أنه لا شيء خاطيء في منطقهِ.

«لا يمكن تجنب الحوادث، حين تخلى غوان يون تشانغ عن جينغ تجو، هل قتله تجوغه ليانغ، أم باعه؟». حتى حين توقَّف الآخرون عن الكلام وغادروا، كان لا يزال يشيرُ بملاحظاتٍ جديدةٍ لنفسه أثناء تجواله.

لم يُبع الشعراتُ الثلاث، ونفقَ في النهاية على يد سيده تجي هوانغ، وهو أمرٌ لم يصدقه الجميع. أقسمَ بشرِفه، إن آذى هذا الحيوانُ أحداً، سيقتله بيده، لم يكن أمامه خيارٌ إلا تنفيذَ كلمته. ذات يومٍ ربيعي، مع ازدهار كل الأشياء، حيث تتدفقُ الأصواتُ والألوانُ تحت أشعةِ الشمسِ الدافئة، وتواري قلقاً هشاً في الهواء، ساقَ تجي هوانغ الشعراتِ الثلاث إلى الحقل، وفجأةً ارتجفَ بدنُ الثور، وكانت عيناه مثبتتين إلى الأمام، وسحبَ المحراثَ وانطلقَ راكضاً، وداسَ على الوحل، الذي تناثرَ على هيئةِ ستارٍ ماءٍ يرتفعُ وينخفض.

أخذَ تجي هوانغ على حين غرة، ورأى أخيراً بوضوح أن هدفَ الشعراتِ الثلاث كان نقطةَ حمراءَ في الطريق. علمتُ لاحقاً، أنها كانت امرأةً من القرية المجاورة، ترتدي سترَةً حمراءَ.

ليس من الغريب أن تكون الثيرانُ هي الأكثرُ حساسية تجاه اللون الأحمر، وغالباً ما يصبحُ سلوكُها عدوانياً، لكن الغريب في الأمر، أن

الشعراتِ الثلاثِ الذي طالما كان مطيعاً لتجي هوانغ، أصابَه الجنونُ ذلكَ اليوم، وصمَّ أذنيه عن سيدهِ مهما وبَّخه.

في المساء، وصلت الأخبارُ الدقيقةُ إلى ماتشياو من مركزِ الكومونةِ الصحي، لا بُدَّ أن نجمَ المرأةِ كان ساطعاً، وأنها تصارعُ لأجلِ حياتها، بعد أن دفعها الشعراتُ الثلاث وألقاها في الهواء، وكسرَ عظمةً في ساقها اليمنى، وتسبب سقوطها على الأرض في إصابتها بارتجاج في المخ.

لم يذهب تجي هوانغ إلى المركز الصحي، بل جلسَ وحيداً على حافةِ الطريق، حاملاً نصفَ الرِّسن، بينما الشعراتُ الثلاث يجترُّ العشبَ بخوفٍ على مسافةٍ قريبة.

حين عاد إلى القرية عند الغسق، ربط الشعراتِ الثلاث تحت شجرة قَيْقَب في مدخل القرية، وأحضر طستاً ممتلئاً بفول الصويا ودسَّه في فمِ الثور. أحسَّ الشعراتُ الثلاث على الأرجح بحدوث أمرٍ ما، فجثا أمامه، والدموعُ تنهمرُ من عينيه. كان قد أحضرَ جبلَ قُنْبٍ سميك، وربطه على شكلِ دائرة، وأمسك بقوائم الحيوان الأربع على التوالي، وفي يده الأخرى فأسَّ طويلة.

ندَّ عن الثيران في القرية جوارٌّ قلق، جوارٌّ تلو الآخر، اندمجَ معاً، وتردَّدَ صدهاء في الوادي، وفجأة، أظلمت شمسُ المغيب.

ظَلَّ واقفاً أمام الشعراتِ الثلاث إلى أن انتهى من أكلِ فول الصويا. تجمَّعت بضعة نساءٍ حوله، منهن والدة فوتشا، والدة تجاو تشينغ، ووالدة تجونغ تشي؛ جعَّدن أنوفهن، واحمَرَّت عيونهن قليلاً، قلن لتجي هوانغ: «لقد أخطأ، لقد أخطأ، وأنت تصوبُّ الأمرَ هذه المرة». ثم قلن

للشعراتِ الثلاث: «لا تلم الآخرين بسبب مآل الأمور، ألم تكن مخطئاً حين آذيتَ ذلك الثورَ في بلدة تجانغ جيا فانغ في إحدى السنوات؟ ألم تكن مخطئاً في إحدى السنوات حين قتلتَ ثوراً في بلدة لونغ جيا تان؟ وكدتَ في إحدى المرات أن تركلَ طفلَ وان يو، كان علينا قتلُك منذ فترةٍ طويلة. وتلك المرَّة التي أثارت غضبَ الناسِ بشدة، حين أكلتَ فولَ الصويا والبيض، وظللتَ كسولاً، ترفضُ حَمْلَ غطاءِ المحراث، ولو حملته، يضربُك أربعةٌ أو خمسةُ أشخاصٍ لكنَّكَ لا تتحرك نصفَ خطوة، وكدنا أن نحملكَ على محفَّة، ما أثارَ تدمُّرَ الناسِ».

أحصين أخطاءَ الشعراتِ الثلاث على مرِّ حياته، وقلنَ في النهاية: «لقد انتهت معاناتك، ارحل في سلام، ولا تلقي اللومَ علينا، نحن أهلُ ماتشياو، على قسوتنا، ليس لدينا خيارٌ آخر».

قالت والدَةُ فوتشا والدموع في عينيها: «كلُّ يرحل، عاجلاً أم آجلاً، ألم ترَ كيف عانى الرئيس هونغ، حتى أنَّه مات والمحراثُ يعمل؟».

كان الشعراتُ الثلاث لا يزالُ يبكي.

كان وجه تجي هوانغ جامداً، وفي النهاية رفعَ الفأسَ واقتربَ منه... صوتٌ مكتوم.

انفجرَ رأسُ الثورِ إلى حفرةٍ من الدم، تبع ذلك حفرةٌ ثانية، ثم ثالثة... لم يُظهِرِ الثورُ أدنى مقاومة حين انفجرَ الدم وارتفعَ قدماً، ولم يجأ، وكان لا يزالُ جاثياً. وفي النهاية، مال وسقطَ على جانبيه، وانهارَ أخيراً كجدارٍ من الطين؛ مدَّدَ قوائمه مرَّات عدَّة، وكان بدُّهُ مستلقياً باستقامةٍ وبجمودٍ على الأرض، وبدا كأنَّه أطولُ من المعتاد. كان الجلدُ

الرمادي الفاتح الذي يغطي معدته، والذي لا يمكنك رؤيته عادةً،
مكشوفاً تماماً، ارتجف الرأس المدمى بعنف، وحدقت عيناه السوداء وان
اللامعتان إلى الناس، وإلى تجي هوانغ الذي يقفُ أمامه مغطى بالدماء.

قالت والدة فوتشال تجي هوانغ: «إنَّه يتعذَّب، نادِ عليه».

هتف تجي هوانغ: «الشعراتُ الثلاث!». .

ارتعشت عينا الثور.

هتف تجي هوانغ مجدداً: «الشعراتُ الثلاث!». .

ارتخى جفنا الثور العريض أخيراً، وتوقَّف بدُّنه، شيئاً فشيئاً، عن

الارتعاش.

جلسَ تجي هوانغ الليلة بطولها، صامتاً ورأسه بين يديه، أمام تلك

العينين اللتين لن تُفَتَّحا أبداً، حتى صاح الديك في صباح اليوم التالي.

وُلِدَ فِي الْحَظِيرَةِ

لكلِّ ثورٍ في قريةٍ ماتشياو اسمُهُ الخاص، ولدى الناس الكثيرُ من أسماء الثيران، كان هناك ثيرانٌ «تفهم» في إشارةٍ لذكاء الثور، وثيرانٌ «وُلِدَت في الحظيرة» في إشارةٍ إلى الثيران التي تربَّت كفردٍ من الأسرة، والتي لا يمكنُ للصوصِ الثيرانِ سرقَتُها. ومع أنَّ الشعراتِ الثلاث ذو مزاجٍ سيء، فإنَّه كان ثوراً وُلِدَ في الحظيرة. قبل شهرين من موته -وكان قد مرَّ يومان على اختفائه- أرسلَ الفريقُ أشخاصاً للبحثِ عنه في كلِّ مكانٍ ولم يعثروا عليه، فظنُّوا أنَّه لن يعود، وربما قُتِلَ أو باعه لصوصُ الماشية. وفجأة، في الليلة الثالثة، فيما كنتُ أَلْعَبُ الشطرنج في منزل تجمي هوانغ، وبعد عودته من الحَمَّام، قال إنَّ سوطه يقفزُ على الحائط، حتماً ثمة خطبٌ ما، ثمة خطبٌ ما. ربما عاد الشعراتُ الثلاث. سمعنا خواره ما إن خرجنا من المنزل، ورأينا ظلاً أسوداً مألوفاً أمام حظيرة الأبقار.

كان يضربُ بقرتيه السياج، محاولاً الدخولَ إلى الحظيرة، ونصفُ جبلٍ معلقٌ من خَطْمِهِ، ومعظمُ ذيلِهِ مقطوعٌ لسببٍ ما، وبقعُ الدم تغطِّي بدنه، وشعرُهُ مبعثر، ومن الواضح أنَّه أصبحَ أنحف؛ لا بُدَّ أنَّه هامٍ في الجبال بعد الهروبِ من لصوصِ الماشية، ومشى مسافةً طويلةً طويلةً.

أمطار تشينغ مينغ

لا شيء يمكنني قوله وأنا أرى أمواج المطر الضبابي تجتاح الجبال موجة تلو أخرى، تُبَلِّل جانباً واحداً من جدار حظيرة الأبقار، وتُجَعِّدُ صفحة المياه التي تتدفق مع مسار الرياح في الحقول، تدفعها إلى الأمام، لتختفي تدريجياً في أحراج القصب على الضفة الأخرى، فتُحَلِّقُ بصمتٍ من الأحراج ثلاث بطات برية. كان خريز التيار المتناغم يتضخم شيئاً فشيئاً ثم ينكسر، حتى أنه يصعب تمييز صوت كل بطة على حدة، أو معرفة من أين أتت. لم يبق شيء سوى الامتداد الشاسع بين السماء والأرض الذي تحوّل إلى هدير مضطرب، جعل الأرض ترتجف بخفة. رأيت عند الباب كلباً مبللاً، ينبحُ بجنونٍ وذعرٍ صوب مشهد المطر أمامه.

كانت هناك حفرة مغمورة بالمياه أسفل أفاريز المنازل، محتشدة بأعين المحتمين من الأمطار الذين لا مأوى لهم، ومتخمة بالانتظار الممض لعيد تشينغ مينغ.

كانت أوراق الأشجار التي تغطي الجبل تنهشم مرقاً.

أمطار الربيع دافئة، واثقة، هائلة، وحيوية، هي انفجار عميق من أغوار الزمن. أمطار الصيف، بالمقارنة، تبدو كزادٍ شاردٍ الذهن، في حين

أَنَّ أَمْطَارَ الْخَرِيفِ تَبْدُو مُشْتَتَّةً وَضَائِعَةً، أَمَّا أَمْطَارُ الشِّتَاءِ فَغَيْرُ مَبَالِيَةٍ. أَخْشَى أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى أَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَكُونَ عَلَى دَرَايَةٍ بِصَوْتِ كُلِّ مَطَرٍ وَرَائِحَتِهِ، فَضْلاً عَنْ دَرَجَةِ الْحَرَارَةِ الَّتِي يَخْلُفُهَا عَلَى الْجِلْدِ، فَفِي الْأَيَّامِ الْمَمْطَرَةِ فَقَطْ يُمْكِنُنَا سَحْبُ أَجْسَادِنَا الْمُنْهَكَةِ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَالتَّقَاطُ أَنْفَاسِنَا، وَالِاسْتِمْتَاعُ بِفُرْصَةِ الرَّاحَةِ الثَّمِينَةِ.

لَا تَحِبُّ ابْنَتِي الْمَطَرُ؛ أَمْطَارُ الرَّبِيعِ بِالنِّسْبَةِ لَهَا عِبْءٌ مَعْدَّاتِ الْمَطَرِ، وَالْانْزِلَاقُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَالرَّعْدُ وَالْبَرْقُ الْمُخِيفَانِ، وَالْغَاءُ لِقَاءٍ أَوْ نَزْهَةٍ رِيَاضِيَةٍ. لَنْ تَفْهَمُ أَبَدًا حِمَاسِي الْغَامِرِ لِلْمَطَرِ، وَلِمَاذَا هُنَاكَ دَائِمًا هَطُولُ مَطَرٍ غَزِيرٍ فِي أَحْلَامِي حَوْلَ الرَّيْفِ. فَاتَتْهَا - إِلَى الْأَبَدِ - حِقْبَةُ الْاِشْتِيَاقِ إِلَى صَوْتِ الْمَطَرِ.

رَبِمَا يَجِبُ أَنْ أَكُونَ سَعِيداً لَذَلِكَ.

الآن، تَمْطُرُ مُجْدِداً، يَمْنَحُنِي صَوْتُ الْمَطَرِ دَوْماً إِحْسَاساً مَا؛ عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْمَطَرِ، هُنَاكَ، عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ الْمَطَرِ، لَا تَزَالُ آثَارُ أَقْدَامِي الْمَوْحِلَةِ خَلْفِي، تَطْفُو فِي الْأَيَّامِ الْمَمْطَرَةِ، وَتَنْحَسِرُ فِي طَرِيقِ جَبَلِي تَضْرِبُهُ زَخَّاتُ الْأَمْطَارِ.

فِطَّة

سمعتُ هذه الكلمةَ للمرّةِ الأولى أثناء عبور نهر لُوه في موسم الفيضان، حيث صفحةُ النهرِ أوسعَ من المعتاد. كان هناك امرأتان غريبتان على القارب نفسه، جاءتا على الأرجح من مكانٍ بعيد، حالما صعدتا إلى القارب، غطّت كلُّ منهما وجهها بقبّعة، وكشفتا عن أعينهما فقط. نظرَ إليهما المراكبي وطلب منهما النزول، لم يكن للمرأتين أيُّ خيارٍ سوى النزول من القارب وتلطّيح وجهيهما بالطين، فبدت الاثنتان كممثلٍ أوبرا ذي وجهٍ ملوّن. انفجرتا في الضحك لرؤية كلِّ منهما وجهَ الأخرى، ثم صعدتا إلى القارب وهما تمسكان بطنيهما من شدّة الضحك.

كنتُ مندهشاً للغاية؛ لم رسمتا وجهين مضحكين؟

قال المراكبي: «عشرةُ زعماء مثل ماو لا يستطيعون السيطرة على فيضان الأب السادس للتنين، لا يمكنني تحمُّل المسؤولية عن حياة الناس على القاربِ إن حدثَ مكروهٌ ما».

أضاف شخصٌ على متن القارب على الفور مؤكداً على كلامه: «أجل أجل، النارُ والماءُ بلا رحمة، من الأفضل توخّي الحذر». قالوا إنّه في يومٍ ما من شهرٍ ما في الماضي، كانت هناك امرأةٌ فطّنةٌ للغاية إلى حدِّ

أَنَّهَا تسببت في انقلابِ القاربِ وسقوطِ الناسِ في الماء، ولم يستطيعوا الوصولَ إلى الشاطئِ رغمِ محاولتهم السباحة، كأنَّه عملُ شيطان.

علمتُ لاحقاً أنَّ «فضَّة» تعني جميلة، وهذه العبارة قاعدةٌ خاصة: حين تكون الرياحُ قويةً وتيارُ المياهِ جارفاً، لا تستطيعُ المرأةُ غيرُ الدميمةِ العبور. يُقالُ إنَّه منذ زمنٍ بعيدٍ كانت هناك فتاةٌ دميمةٌ لم يُقدَّر لها الزواج، فانتحرت في النهاية بإلقاء نفسها في النهر من على هذه العبارة وماتت. ومُذاك، لم تتبدد روحها، وكلَّما اكتشفتُ أنَّ امرأةً جميلةً على متنِ القارب، أصيبت بالغيرة، وأثارت الرياحَ والأمواج، وتسببت في حوادثٍ لا نهايةَ لها من تدميرٍ للقوارب وفقدانٍ للأرواح. لذا، لا يمكنُ درءُ الكوارثِ عن العبارة، إلَّا إذا لطَّختُ أيُّ امرأةٍ ذاتِ جمالٍ وجهها.

لا أهتمُّ كثيراً بهذه الأساطير ولا أؤمنُ بها، ولا أدرسُ على وجهِ التحديد العلاقةَ بين الجمالِ والكارثة. على سبيلِ المثال، هل من المرجَّح أن يتسبَّبَ الجمالُ في تشتيتِ انتباهِ الناس وتشوُّشهم وجنونهم؟ هل يؤدي بسهولةٍ إلى الإهمال والتخلِّي عن المسؤولياتِ والواجبات؟ ما أثارَ اهتمامي هو كلمةُ «فضَّة»، إنَّها تنطوي على نوعٍ من الاستنتاجِ المخيف. الجمالُ شرٌّ، والخيرُ خطرٌ، والأشياءُ الجيدةُ ستجلبُ دائماً الشَّقَّاق، عدمُ الاستقرار، وعدمُ الرضا، أي ستجلبُ بالتأكيدِ الفتنةَ والكراهيةَ والفظاظة. تسبَّبت قطعةٌ من اليشمِ النفيسِ في حربٍ كبيرة بين ولايتي تجاو وتشين، والحربُ التي خاضتها اليونان واستمرت عشرَ سنواتٍ مع طروادة بسببِ امرأةٍ جميلة تُدعى هيلين، قد تكونُ حاشيةً مهمةً لهذه الكلمة. بوسعِ الأشخاصِ العاديين الانجرافُ فقط مع التيار، والتكيف

مع العالم، وألا يكونوا في تنافس مع الآخرين، ويلطّخوا وجوههم بالطين، ليعمّ السلام في الأرض.

تشير كلمة «فظة» في لهجة ماتشياو إلى الخير، التميز، والتفوق على الآخرين، والتميز عن أقرانك، ونحو ذلك. وباستخدام هذه الكلمة لوصف زوجة بن يي الشابة «تية شيانغ»، فليس هناك أي سبب يمنع الغرباء من خارج ماتشياو من التصبّب عرقاً خوفاً مما سيحدث في مستقبلها.

الروح

يرى أهل ماتشياو أنَّ النساء الجميلات يتمتَّعنَ برائحةٍ خاصة، رائحةٌ عطرة لكن مؤذية. حملت تيبه شيانغ، زوجةُ بن يي هذه الرائحة حين تزوجت وانتقلت من شارع «تشانغ لي» إلى قرية ماتشياو، وبعد شهرين من وصولها ذبلت جميعُ الزهور الصفراء، كلُّ زهرةٍ من الزهور الذهبية، ما إن تضعها في سلتك وقبل أن تصل إلى المنزل، تتحوَّل إلى فقاعةٍ سوداء، تعجزُ عن الإمساكِ بها بين أصابعك. قال كبارُ السن إنَّ أهل ماتشياو توقفوا عن زرع الأزهار الصفراء، ويزرعون عوضاً عنها بعضَ الثمار قبيحةً المظهر، مثل الباذنجان، اليقطين، القرع المر، والجوز وغيرها لهذا السبب.

كانت رائحةُ تيبه شيانغ تثيرُ اضطرابَ جميع حيوانات المزرعة، ومنذ أن رآها كلبٌ في منزل فوتشا تحوَّل إلى كلبٍ مسعور، وكان لا بُدَّ أن يُردى بالرصاص. كان لدى تجونغ تشي «خنزيرُ قدم»، وهو ذكْرُ خنزير، ومنذ أن جاءت تيبه شيانغ لم يهدأ، وكان لا بُدَّ من إخصائه، ثم ذُبَحَ لاحقاً. وأصابَت أوبئةُ دجاج وبطِّ عائلاتٍ أخرى، وألقوا باللوم على أفعال تيبه شيانغ السيئة. وأخيراً، حتى ثور تجي هوانغ الذي يُدعى الشَّعْرَاتُ

الثلاث، اندفع هائجاً صوبها، فصرخت مذعورة، ولولا فطنة تجي هوانغ وسحبهُ رَسَن الحيوانِ بسرعة، لنطحها على الأرجح أسفل المنحدر.

كانت النساء ينظرن إلى تيبه شيانغ بشيء من الاستخفاف، لكن سُمعةَ بن يي كسكرتير لمكتب الحزب منعتهن من التصرّف وفقاً لذلك، بعضهن لم يتخلّ عن الأمر بطيب خاطر، وكلّما رأينها، أُوخزنها بكلماتٍ جارحة. كنَّ يتحدثن بوضوح ودراية عن البذخ وتفاصيل مراسم الزواج ووضع القدر حين جنن إلى منازل أزواجهن في ماتشياو، عن العمّ الأول يحملُ المهر، والعمّ الثاني ينفخُ في البوق، والعمّ الثالث يطلق النار، والعمّ الرابع يحملُ المِظلةَ الحمراء، وغيرها من المبالغات. كان هناك الكثيرُ من الأقمشة الحريرية المطرزة من هانغتشو، الكثيرُ من السترات الجيدة من اليابان، والأساورُ على الرُسغ بهذا الحجم، والحلقاتُ على الأذنين بهذا اللمعان، تحدثن دون كللٍ أو ملل.

شحبَ وجهُ تيبه شيانغ حين سمعت كلّ هذا.

ذاتَ مرّة، تظاهرت امرأةٌ بالدهشة وقالت: «آه، أنتن جميعاً محظوظاتٌ، ومحترماتٌ للغاية، أمّا أنا، فلا يوجد شيءٌ بوسعي فعله سوى الموت، حين هُجِرْتُ في هذا المكان اللعين، كنتُ أحملُ مِظلةً فحسب، مجرد قطعةٍ من اللحم ترتدي سترةً ماندرين!».

ضحك الجميع.

من الواضح أنّ هذه المرأة كانت تشيرُ إلى شدّة فقرِ تيبه شيانغ في بداية مجيئها. لم تستطع تيبه شيانغ التحمّل، فعادت إلى المنزل بسرعة، وبكت بحرقّة وهي تلکمُ اللحافَ والوسادة.

نشأت تبييه شيانغ في عائلة كبيرة، كان لديهم خدمٌ ومربيات، ولا يخلو طبخهم من صلصة الصويا، والشَّمَرِ وزيت السمسم، وبوسعهم التمييز بين الفطائر والكيك، ليس مثل أهل ماتشياو، دائماً يطلقون عليها «حلوى». لكن حين انتقلت إلى ماتشياو، كان والدها قد توفى في السجن، وتدهورت ظروفُ عائلتها. كانت تحمل حقاً مظلةً فقط حين خَطَّت عتبةَ منزلِ بنِ يي على عجل.

كانت تبلغُ ستةَ عشرَ عاماً آنذاك، شفتاها مصبوغتان بقليلٍ من الحُمرة، وبطنُها منتفخٌ إلى الأمام، وجاءت بمفردها إلى ماتشياو تتصبَّبُ عرقاً، وسألت: من هو عضوُ الحزبِ هنا؟ نظرَ إليها الناسُ بغرابة، فظَلَّت تكررُ سؤالاتها، إلى أن أعطوها اسمين. ثم سألت من منهما أعزب، قالوا بنِ يي. سألت عن عنوانِ بيته، واتجهت مباشرةً إلى المنزل المبنى من الخيزران، ألقت نظرةً سريعةً على المنزلِ والرجل:

- أنتَ بنِ يي إذن؟

- أجل.

- أنتَ عضوٌ في الحزبِ الشيوعي؟

- أجل.

- هل ترغب في الزواج؟

- ماذا؟

كان بنِ يي يقطعُ علفَ الخنازير، فلم يسمعها بوضوح.

- أنا أسأل، هل تريدُ زوجة؟

- زوجة؟

أخذت نفساً طويلاً، ووضعت المِظْلَةَ التي تحملُها وقالت:

- أنا لستُ دميمة، أليس كذلك، ويمكنني إنجابُ الأطفال وهذا واضح، إن كنت سعيداً بذلك، إذن أنا...

- ماذا؟

- هذا ما أنا هنا لأجله.

- من أجلِ ماذا؟

لم يفهم بن يي. دَقَّت الأرضُ بقدميها وقالت:

- أنا لك.

- تعطيني ماذا؟

التفتت تيبه شيانغ ونظرت إلى البابِ وقالت:

- سأضاجعك.

ذُعِرَ بن يي، وتصلَّبَ لسانُه حتى أنه عجزَ عن نطقِ جملةٍ واحدة:

- أنتِ أنتِ أنتِ أنتِ من أين أتيتِ أيتها المرأةُ الروح؟؟؟! ... يا إلهي يا إلهي، أين سلَّتي؟

فرَّ إلى داخلِ المنزل. تبعته تيبه شيانغ وسألته:

- ما الذي لا يعجبك؟ انظر إلى وجهي، انظر إلى يدي، وهاتين الساقين، لا ينقصني شيء. سأخبرُك بالحقيقة، لدي قليلٌ من المدَّخراتِ الخاصة، لا تقلق، إنَّ الذي في بطني من رجلٍ متعلم، إن أردته كان بها، إن لم ترده، سأجهضه، أريدك فقط أن ترى أنني قادرةٌ على الإنجاب، وصحتي جيدة...

قبل أن تنهي كلامها، سمعت صوت أحدهم يأتي من الباب الخلفي.
- «لا بُدَّ أنَّ لديك الكثير من الأعمال الصالحة في حياتك السابقة
لستحقَّ أخيراً امرأةً مثلي» دَقَّت تيبه شيانغ الأرضَ بقدميها
بغضب، وسرعان ما انفجرت في بكاءٍ حادٍ.

أرسل بن يي أخاه «بن رن» في القَدْرِ ذاتِها، ليصرفَ هذه المرأةَ الروحَ
من منزله. لكن حين وصل بن رن، اكتشف أنَّ هذه المرأةَ تقطعُ علفَ
الخنازير، ثم مسحَت يديها وطلبت منه الجلوس، وعلَّقت الإبريقَ لغلي
الشاي، ولم تكن دميمةً المظهر، وبان له من مؤخرتها المستديرة وأردافها
المتينة أنَّها من النوع الذي بوسعه إنجابُ الأطفال، غمغمَ ولم تصدر عنه
جملةٌ واضحةٌ ليصرفَها. قال لـ بن يي لاحقاً: «قد تكون روحاً إلى حدٍّ ما،
لكن صحتَها جيدة، إن لم ترغب بها، فأنا أريدها».

في ذلك اليوم، مكثت تيبه شيانغ في منزل بن يي، ولم تغادر.
قُضِيَ الأمرُ بهذه البساطة؛ لم يدعُ خاطبة، لم يشتري هدايا خطوبة، بل
حصل عليها بثمانٍ بخس. حقَّقت تيبه شيانغ رغبتَها أيضاً، حسبما قالت
فيما بعد، فقد سئمت من المراقبة الحكومية وبكاءِ أمهاتِها الأربع طوَّالَ
اليوم، وسئمت التهديدات اليومية وإلحاحِ العامل في المنزل المجاور، لذا
اتخذت قرارَها، وأخذت مِظْلَةً، وأقسمت أن تبحث عن أحد أعضاء
الحزب الشيوعي ليكون سنداً لها. نجحت من المحاولة الأولى، إذ عادت
بعد أيامٍ بجندي ثوري سُرَّح من الجيش، وتولى منصبَ سكرتير مكتب
الحزب، ما أثار إعجابَ جيرانها. بعد إلقاء نظرةٍ على ميدالية مقاومة
أمريكا ومساعدة كوريا، أصبحت الكوادرُ أكثرَ احتراماً لعائلتيها.

ذهب الاثنان إلى مكتب التسجيل الحكومي لتسجيل عقد الزواج، فقال المكتب إنَّها صغيرة السن، وطلبَ منها العودة بعد سنتين. جرَّبت كلَّ طريقةٍ ممكنة لإقناعه بلا فائدة، حدَّقت في السكرتير المسؤول عن الختم بعينيها اللتين تشبهان المشمشَ قائلةً: «إن لم تسجلنا، لن أغادر، وسأنجبُ الطفلَ هنا، وسأقولُ إنَّه طفلكُ، أخشى أنَّك لن تستطيعِ إعانتني!» بُهتَ السكرتير، وبدأ في إتمام المعاملة بارتباكٍ شديدٍ ووجهه مبتلُّ بالعرق. نظرَ إليها وإلى عريسها وهما يتعدان، ثم قال -ولا يزالُ في حالةٍ من الخوف- «هذه المرأةُ الروح، هل ستأتي مرَّةً أخرى؟».

هزَّ الناسُ بجانبه رؤوسَهم أيضاً، وقالوا إنَّها حقاً ابنةُ الأجرةِ التسعة، لقد أكلت طعامَ كلِّ عائلةٍ في المدينة، وبشرةٌ وجهها أكثر سماكة من نعالِ الأحذية، فكيف ستكونُ لاحقاً؟

أدركَ بنُ يي تدريجياً أنَّ هذا الزواج كان بالكادَ أمراً جيداً بالنسبة له. كانت تبيِّه شيانغ تصغره بعشرِ سنوات، ولها الحقُّ في أن تفقدَ أعصابها في المنزل، وحين يغلبُ بشدَّةٍ أن تكونَ روحاً، ولا تجري الأمورُ حسبَ رضاها، وعند أقلِّ استفزاز، تبدأ في سبِّ قوس ماتشياو هذا المكانِ اللعين، هل يصلحُ مكاناً للعيش؟ وتسبُّ طرقَ ماتشياو لأنها غيرَ مستوية، تسبُّ جبالَ ماتشياو لأنها شديدة الانحدار، تلعنُ التيارَ العظيم لأن الناسَ يُدفنون أحياء، تلعنُ الأرز لأنَّ به الكثيرَ من الرمل، تلعنُ الحطبَ لأنه رطبٌ للغاية إلى حدِّ أنَّك تحتنقُ بالسخام، تلعنُ أنَّ عليك السيرَ سبعةً أو ثمانية لي لشراءِ إبرِة خياطة أو صلصة الصويا. وبشتمها هذا وذاك، لا تستطيعُ تجنبَ شتمِ بنِ يي. إذا توقفت لعناتها عند هذا الحد، يُنسى الأمر. لكنَّها ذات مرَّة، في نوبةٍ سبابٍ عنيفة، قطعت رأسَ

سمكة أنقليس، هل هناك قوانين في هذه العائلة؟ لا يزال بن يي رجلها، ولا يزال سكرتير مكتب الحزب، فكيف أوقع نفسه في هذه الفوضى مع رؤوس الأنقليس؟

في حياتها كانت والدته بن يي عاجزة أيضاً أمام زوجة ابنها، إذ لم تسلم العجوز من نوبات غضبها: «ألن تموت أبداً؟ لا أعبأ إن كان عمرك عشرات السنوات أو كم وزنك، لا غطاء على النهر، ولا حجاب على البركة، اذهبي وموتي! لماذا لا تموتين!».

وعموماً كان بن يي يصم أذنيه عن هذا الكلام، لمعاناته في الحقيقة من الصمم قليلاً، حتى لو فقد أعصابه أحياناً وصرخ «سأقتلك بالمعزقة»، فستكون كافية لأن تخرس زوجته مؤقتاً، ولن يؤذيها. كانت أشد مرة نفذ فيها سلطته، حين صفع تيبه شيانغ صفعة دحرجتها بين سرب بط فر مذعوراً في جميع الاتجاهات. على حد تعبيره، كان هذا وقتاً ساد فيه الخير على الشر، وسادت الرياح الشرقية على الرياح الغربية. حين نهضت تيبه شيانغ، أرادت القفز في البركة، لكن أهل القرية منعوها، لذا لم يكن أمامها سوى العودة إلى منزل أهلها، ولم تسمع عنها أخباراً لثلاثة شهور. وفي النهاية جهز بن رن إثني جين من دقيق البطاطا الحلوة، وإثني جين من كعكة البابا، وذهب بالنيابة عن أخيه في القدر ذاتها لمصالحة تيبه شيانغ، وأعادها على عربة خشبية لحمل الرمال.

قد يلاحظ القراء في السرد أعلاه، أن كلمة «الروح» تكررت مرات عدة، ويمكن أن نرى أن أهل ماتشياو يستخدمون كلمة «روح» لوصف جميع أنماط السلوك التي تتعارض مع الأنماط التقليدية والمنطقية. هنا، أهم شيء بالنسبة للناس هو التأكيد على عادية البشر، وأن الناس لا

يمكنهم العيش إلا بطريقة تقليدية. أي انتهاك للقواعد المعمول بها ليس سلوكاً بشرياً في جوهره، لا يمكن أن يأتي إلا من الأشياء التي لا يمكن التنبؤ بها في الظلام، من الطبيعة والمصير اللذين يتجاوزان قدرة الإنسان. إن لم تكن المشكلة عقلية (المعنى الأول لروح - 神)، إذن فهي مسألة أرواح (المعنى الثاني لروح). يستخدم أهل ماتشياو كلمة «الروح» لوصف المعنيتين، وربما اعتقدوا أن الاختلاف بينهما ليس مهماً. تبدأ كل قصة عن الأرواح بتخيُّلات جامحة ذات طبيعة روحية مضطربة.

ثمة ثثرة ورقص ذو طبيعة روحية مضطربة أمام كل المزارات، وربما كانت الاضطرابات الروحية مجرد أرواح في شكل دنيوي مبتذل، وكل «روح سريعة 神速» و«روح شجاعة 神勇» و«روح ماهرة 神效» و«روح غريبة 神奇» و«روح ساحرة 神妙» و«روح لطيفة 神通»^(١)، تُعدّ تجاوزاً مؤقتاً لحدود قدرة الأشخاص العاديين، والتي غالباً ما تُرى في الأشخاص الذين يقتربون من حالة الهوس والجنون التي تصاحب الخلل الروحي، والناجم عن الاستخدام الإيجابي لحالتهم العقلية سواء لا شعورياً أو لا إرادياً، أي اقترابهم من الروح.

قال الجميع، إن روحاً مثل تيه شيانغ، حتماً تستولي عليها قوى شريرة.

(١) بالاتفاق مع الكاتب، ترجمت الرموز سريعة، شجاعة، ماهرة، غريبة، ساحرة ولطيفة حرفياً إلى جانب رمز 神 ويعني الروح. ومعنى الكلمات بالترتيب في قاموس اللغة الصينية: مدهش السرعة، خارق الشجاعة، تأثير سحري وفعال، ساحر، عجيب وغريب، مدهش، قدرة هائلة.

فظة (تتمة)

لم تحب تبييه شيانغ التعامل مع نساء ماتشياو وقضاء الوقتِ معهن، وكانت تسرعُ بعد انتهاء عملِها وتُزاحم الرجال، وتتصرفُ بجموح بينهم. لم يحبّ بن يي ذلك، لكنّه لم يستطع فعلَ شيءٍ إزاءها. كان الذهابُ إلى الجبال وقطعُ الأشجار من اختصاصِ الرجال، ومع ذلك سَعَتْ للانضمام إليهم واللهو. حين ارتقت الجبل، أمسكت بالفأس كأنّها تمسكُ بدجاجة، كزّت على أسنانها وحاولت القطعَ لبعضِ الوقت، لكنّها لم تفلح حتى في قطع ما يساوي أثر سنٍّ واحدة، وفي النهاية أَلقت بالفأس في مكانٍ ما، وجلست على مؤخرتها ضاحكة، وقد تموّجَ جسدها.

بمجرد سقوطِها، ازداد انشغالُ الرجال؛ أمرت هذا بنفضِ الغبار عنها، وطلبت من ذاك أن يقتلعَ الأشواك من أصابعها، وأمرت هذا بالبحثِ عن الفأس، وأمرت آخرَ بحملِ حذائها الذي تبلّل أثناء سقوطِها، وتحت تأثيرِ نظراتها حامَ الرجالُ حولها ببهجة. صرخاتها الحادة، وحركة جسمِها المثيرة، واحتمالُ أن تُظهِرَ من ياقةِ سترتها أو ثنيةِ كُميها - دونِ انتباهٍ منها - أجزاءً أنصعَ بياضاً، جعلَ نظراتِ الرجالِ زائغة، لذا كان عليهم أن يبذلوا أقصى جُهدهم.

لم يكن سقوطها شديداً لهذه الدرجة، لكن بعد بضع خطوات،
أصرت على أنها تتألم بشدة، وطلبت من بن يي أن يحملها على ظهره
ويعود بها إلى المنزل، دون أن تكثر مطلقاً لحديثه مع كادرين من محطة
الغابات.

- يا لك من روح! ألم يكن بوسعك جعل شخصٍ آخر يساعدك؟
كان بن يي منزعجاً.

- لا، أريد أن تحملني أنت.

دقت الأرض بقدمها الصغيرة.

- سيري، بوسعك المشي.

- حتى لو أستطيع المشي أريدك أن تحملني.

- أولاً لم تنزفي، وثانياً لم ينكسر لك عظم.

- ظهر يي يؤلمني.

وهكذا اضطر بن يي للخضوع إلى هذه الزوجة الشابة، وترك محطة
الغابات، وحملها على مرأى الجميع والتزول بها إلى أسفل الجبل. كان
يعلم أنه إذا لم يحملها بعيداً، فربما ستعلن عن نزول دورتها الشهرية أو
أشياء من هذا القبيل. كانت امرأة ثرثارة، تكشف عن أسرار النساء
كلما سنحت لها الفرصة، ما يجعل جسدها موضوع معرفة واهتمام،
موضوع محادثة، وملكية روحية مشتركة لجميع الرجال. كان حيضها
ببساطة احتفالاً كبيراً، وأمرأ جلاً بين جماعة ماتشياو. بالطبع، لن تقول
ذلك مباشرة، لكنها ستقول إن ظهرها يؤلمها، أو تؤكد عدم قدرتها على
الاقتراب من الماء البارد خلال الأيام الماضية، أو سترسل أي رجل

إلى المركز الصحي لشراء أعشاب حشيشة الملاك، أو حتى ستصرخ في الحقل وتطلب من بن يي العودة إلى المنزل ليغلي لها الأعشاب أو يسلق لها بيضة، بالطبع كان كل هذا كافياً لحث الناس على الانتباه لما يحدث في جسدها، والتأكيد على جنسها، وتوجيه خيال الرجال وإطرائهم لها. تُصدر الكثير من أصوات التعجب سواء أكانت مبتهجة أو مدعورة، حتى لو عبّرت عن دهشتها حيال ورقة، تكون نبرة صوتها شديدة النعومة، تدفع الرجال للشعور بأن ثمة خلفية ومصدراً آخر لهذا الصوت، ويستغرقون في تخيلات لوضعيتها في هذا المصدر وهذه الخلفية، والكثير من الأشياء الأخرى. بالطبع، لا تتحمل هي مسؤولية كل هذه التخيلات، هي مسؤولة فقط عن الورقة. لكن يرقتها هذه يمكن أن تتفوق على شاي الزنجبيل المطحون بالملح وحبوب الفول للنساء الأخريات، وغيرها من الضيافات الأخرى، وتأخذ الرجال بعيداً عن هذه المتع ليتبعوها بخنوع، وينجزون أي عمل بدني تطلبه منهم. وكلما حدث هذا، مشّت بين نظرات نساء ماتشياو برأس مرفوع وقامة مشدودة، وغمرها شعورٌ بالنصر لا يمكن إخفاؤه.

سمعت فيما بعد أهل ماتشياو يتهايمسون فيما بينهم، قائلين إن تأوهات هذه المرأة المذهلة والساحرة كانت فظة حقاً، وسيطرت على ثلاثة رجالٍ على الأقل.

بدايةً كان مدير المركز الثقافي في المحافظة، الذي جاء ذات مرة لتفقد العمل الثقافي في المناطق الريفية، وأقام في منزلها، ورافقه سكرتير آخر، والذي كان فوتشا مسؤولاً عنه. منذ ذلك الحين، أصبح مدير المركز مهتماً بقرية ماتشياو، وغالباً ما كان يظهر بوجه ممتليّ مشرق بالبسّات،

ويظهرُ في مطبخِها، كأنَّ له جذوراً متأصلةً تنمو هنا. ويُقال إنَّه أحضرَ كتباً مجانيةً عن الزراعة، وحصصَ أسمدةً مجانيةً كذلك، وإعاناتٍ في حالةِ الكوارث، كلُّ ما تطلبه تيبه شيانغ كانت تحصلُ عليه. جعلت المديرَ ينفذ الأشياءَ أسهلَّ ممَّا لو طلبتها من طفل، بما في ذلك مساعدتها في حملِ دلوِ البول، والذهابُ مترنحاً إلى حديقةِ الخضراواتِ لإفراغِهِ في حُفْرِ السماد. كان الرجلُ الثاني شاباً وسيماً، يُقال إنَّه ابنُ أخ تيبه شيانغ، وكان يعملُ في معهدِ التصوير في محافظةِ بينغ جيانغ، ويأتي إلى الريفِ لمساعدةِ الفقراءِ ومتوسطي الحال من الفلاحين. اصططحته تيبه شيانغ في جولةٍ حول القرية لُتري الناسَ مدى جودةِ صوره، وكانوا متلهِّفين لرؤيةِ الصورِ التي التقطها، بالطبع هناك عشراتُ الصور لتيبهِ شيانغ في وضعياتٍ مختلفة، وهذه هي المرَّة الأولى التي يرى فيها أهلُ ماتشياو كاميرا، لذلك بالطبع كانوا مفعمين بالفضول. في الوقتِ نفسِه، شعروا بالفضول حيالَ ساعةٍ قديمةٍ للشاب، ارتدتها تيبه شيانغ لشهرٍ كامل. يُقالُ إنَّ الخطَّابين رأوا الاثنين من فوق الجبل، ويدُ كلِّ منهما في يدِ الآخر يسيران في الطريقِ الجبلي. هل هذا شيءٌ يحدثُ بين عمَّةٍ وابنِ أخيها؟ ما هذا؟

وأخيراً، تكلم الناسُ عن إغواءِ تيبه شيانغ لـ هوانغ الغالي، قائلين إنَّ هوانغ الغالي حمل على كتفه إلى منزلها حوضَ تغذيةٍ حجري صُنِعَ حسب الطلب، وشرب خمسةَ أكوابٍ من الماء البارد دفعةً واحدة، وعضلاتُ جسده تعلو وتنخفض، ما جعل تيبه شيانغ تُعجبُ به إعجاباً كبيراً، وأصرَّت على أن يقصَّ أظافرَ يدها، لأنها لا تستطيع قصَّ أظافرِ يدها اليمنى بتناسق. بعد ذلك، صنعت سرّاً زوجاً من الأحذية وأرسلته إليه؛ لكن هوانغ الغالي كان غالياً للغاية إلى حدِّ أنَّه لم يفهم نيَّةَ المرأة،

وأعاد الحذاء إلى بن يي قائلاً إِنَّهُ ضَيِّقٌ قَلِيلاً، ويقرصُ قدميه، ويرى أَنَّهُ مناسبٌ له أكثر، حينها لم ينطق بن يي بكلمة، وأظلم وجهه على الفور، ولوى عنقه جانباً.

لم يشاهد أحدٌ ظلَّ تيبه شيانغ خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك. حين ظهرت أمام الناس مرةً أخرى، كان هناك جرحٌ في رقبتها، وحين سُئِلَتْ، قالت إِنَّهُ مَخْلَبُ القطة.

لكنَّها لم تقل الحقيقة، وهي أَنَّ زوجها ضربها.

توقَّفت تيبه شيانغ، ذات الجرح على رقبتها، عن إثارة الجلبة والصخب بين الرجال، وهدأت لبعض الوقت، لكنَّها ما لبثت أَن أصبحت أكثر حميميةً فجأةً مع الآذان الثلاث.

من الصعب القولُ إِنَّ الآذان الثلاث رجل، وهو في نظر أي امرأةٍ يفتقرُ إلى معنى الرجولة، لذا لن تشكل حميميةُ تيبه شيانغ أيَّ خطرٍ. والآذان الثلاث هو الابنُ الثاني لـ تجاو تشينغ، يعيش عالمةً منذ صِغَرِه، ولم يكن مطيعاً أو باراً بوالديه، وقد طرده تجاو تشينغ بفأسه من المنزل. عاش لفترةٍ في منزل الخالدين مع مامينغ، الراهب الطاوي ين، وخو أر، وأصبح كسولاً، وواحداً من الملوك الأربعة السماويين في ماتشياو. جاء لقبُ «الآذان الثلاث» من أذنٍ زائدةٍ تحت إبطه الأيسر، زائدةٍ لحميةٍ تشبه الأذن. يقول بعضُ الناس إِنَّهُ كان عنيداً جداً في حياته السابقة، لذا منحه ملكُ الجحيم أذنًا زائدةً ليستمتعَ إلى كبار السن والحكومة. كان يحتفظُ بأذنه كسلعةٍ نادرة، ولا يكشفها للآخرين بسهولة، من يريدُ رؤيتها عليه أَن يعطيه سيجارة، وإن أردت لمسها عليك أَن تدفع الضعف. يمكنه أيضاً أَن يديرَ يده اليسرى من الأسفل، ويمسك أذنه اليمنى عبر ظهره،

فإن أرادَ الناسَ رؤيةَ هذه الأعجوبة، يجب أن يشتروا له طاسةً نبيذٍ من تعاونية التوريد والتسويق.

كشف لتييه شيانغ آذانه الثلاثة مجاناً، وحين رآها سعيدة، غمرته أيضاً سعادةٌ كبيرة. كان يشعرُ بالفخرِ حيالَ أذنه الزائدة، وبالثقة التامة حيالَ أنفه وعينه وفمه. أيقنَ قبل بضع سنوات، بعد أن نظرَ إلى نفسه كثيراً في المرآة، أنَّه ليس ابن تجاوز تشينغ الحقيقي، وأصرَّ على أن تخبره والدته أين والده، وأبكاها بسؤاله، وتشاجر مع والده، وأصيب الأب والابن. وهذا بالطبع برهنَ بشكلٍ أكبر على استنتاجه: أيُّ أبٍ سامٍ هذا يطاردُه عبر الباب بمدمة؟ هل سيصدِّقُ الأذانُ الثلاث -حتى لو كان يقطأ- كلامَ هذا اللعين؟

ذهب إلى بن يي، وقَدَّم له سيجارة ونظَّفَ حنجرته، وبوجهٍ متجهم أشعرَ الرجلَ بأنَّه سيناقدُ مع سكرتير الحزبِ أموراً كبيرة، مثلاً الاقتصادَ الوطني ومعيشة الشعب. «العم بن يي، كما تعلم، أوضاعُ الثورة في البلد جيدةٌ للغاية، وفي ظلِّ قيادة الحزبِ الشيوعي، استعادت جميعُ العفاريت شكلها وأظهرت وجهها الحقيقي، الزائفُ كان زائفاً، والحقيقيُّ كان حقيقياً. الحقيقةُ الثوريةُ تغدو أكثر وضوحاً، وأصبحت عيونُ الجماهير الثورية أكثر صفاءً. عقدت كومونتنا الشهرَ الماضي أيضاً مؤتمراً للحزب، والخطوةُ التالية هي كيفيةُ تنفيذِ خطةِ الحفاظ على المياه...».

ردَّ بن يي بنفادٍ صبر: «قلْ المفيد، إن كانت لديك ريحٌ، أطلقها بأسرع ما يمكن».

تلعثمُ الأذانُ الثلاث وتطرَّقَ إلى موضوعِ والده الحقيقي.

كَزَّ بِنِ يِي عَلَى أَسْنَانِهِ وَرَدَّ قَائِلًا: «أَلَا تَنْظُرُ إِلَى نَفْسِكَ وَأَنْتِ تَتَبَوَّلُ، أَنْتِ يَا مَنْحُوسٌ، أَيُّ أَبٍ تَرِيدُ؟ لَقَدْ أَسَدَى لَكَ تَجَاوِ الْقَصِيرُ مَعْرُوفًا كُونَهُ وَالذَّكَ».

- لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمِّ بِنِ يِي، لَا أَوَدُّ أَنْ أَسَبِّبَ لَكَ الْإِزْعَاجَ الْيَوْمَ، أَرِيدُكَ أَنْ تَخْبِرَنِي شَيْئًا وَاحِدًا.

- أَخْبِرْكَ مَاذَا؟

- أَخْبِرَنِي كَيْفَ وُلِدْتَ؟

- أَسْأَلُ أَمْلَكَ! لِمَاذَا تَسْأَلُنِي؟

- أَنْتِ كَادِرٌ مِنَ الْحَزْبِ، وَحَتْمًا تَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ.

- مَا الَّذِي تَقُولُهُ؟ كَيْفَ لِي أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ وَلِدْتَ أَمْلَكَ حَتَّالَةً مِثْلَكَ؟ لَمْ أَنْظُرْ إِلَى حَاجَبِي أَمْلَكَ جَيِّدًا، لِأَعْرِفَ إِنْ كَانَا يَرْتَفِعَانِ بِشَكْلِ مُسْتَقِيمٍ أَمْ لَا.

- لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ، مَا عَنِتُّ قَوْلَهُ...

- لَدَيَّ أُمُورٌ أَفْعُلُهَا، أَنَا مُشْغُولٌ.

- إِذْنٌ هَلْ هَذَا قَرَارُكَ الْأَخِيرُ فِي عَدَمِ إِيْخْبَارِي؟

- أَخْبِرْكَ بِمَاذَا؟ مَاذَا تَرِيدُنِي أَنْ أَخْبِرْكَ؟ هَا؟ تَرِيدُ عَثَّةَ الضَّفَدَعِ أَيْضًا الْجُلُوسَ عَلَى سَرِيرِ التَّنِينِ، هَذَا أَمْرٌ يَسْهُلُ تَحْقِيقُهُ، هَلْ تَرِيدُ رَئِيسًا لِفَرِيقِ كَوَالِدِ، أَمْ تَرِيدُ وَزِيرًا كَوَالِدِ؟ أَخْبِرَنِي، وَسَأَصْحَبُكَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ، مَا رَأَيْتُكَ؟

عَضَّ الْأَذَانِ الثَّلَاثَ عَلَى شَفَتَيْهِ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى، وَمَهْمَا أَشَارَ بِنِ يِي إِلَى أَنْفِهِ وَوَبَّخَهُ، ظَلَّ وَجْهَهُ هَادِثًا تَشْوِبُهُ مَسْحَةٌ مِنَ الْكِبَرِيَاءِ،

ونظر إلى أداء سكرتير الحزب كأنّ لديه خطة مدروسةٌ جيداً. انتظرَ بأدبٍ بالغٍ إلى أن انتهى السكرتيرُ من توبيخه، واستدارَ بكآبةٍ وغادر.

وصلَ عند مدخلِ القرية، ونظرَ بهدوءٍ إلى طفلين يلعبان بالتمل، ثم عاد بعد فترةٍ إلى منزله. لا بُدَّ لعمله أن يسيرَ خطوةً خطوةً وبطريقةٍ منهجية، ولن يُعرقَل أو يضطربَ بسببِ بن يي.

ذهب للبحثِ عن العمّ لُوّه، فوتشا، وهوانغ الغالي، وبحث كذلك عن رئيسِ الكومونة. وأخيراً، ذهب إلى المحافظة للسؤال عن موقع الإصلاح عن طريق العمل لـ شي العصا الطويلة، لأنّه شكّ بأنّه ابنه، أراد أن يرى شي بعينه، وأن يأخذَه ليجري فحصَ دم. وإذا اتضحَ أنّ شي والدّه ورفضَ الاعترافَ بذلك، سيحطّمُ رأسَه أمامه. لم يطلب شيئاً طيلةَ حياته غيرَ هذا الأمر، أن يفكّ لغزَ مولده ويُكرِّمَ والدَه الحقيقي، ولو ليومٍ واحد، ولو للحظة، سيكونُ راضياً.

ذهب مرّتين إلى المحافظة، ولم يعثر على شيء، لكن ذلك لم يُوهن عزمته، كان يدركُ صعوبةَ الأمر، ربما كانت تلك مهمةَ حياته، وهو على أتم الاستعداد لها. لم يكن مثل باقي الملوك السماويين في المنزل، يضطجعون طيلةَ اليوم وينامون، أو يتجولون بين الجبالِ ويسبّحون، بل ينهمكُ كلّ يومٍ -ولو قِمت متأخراً- في البحث والاستقصاء، مشغولاً بكلّ الأشياء التي لا تنتهي في العالم. كان كسولاً بطبعه، إلّا أنّ كسلَه مُوارى في داخله، إذ تراه دائماً في تعاونية التوريد والتسويق، والمركزِ الصحي، وصوامعِ الحبوب، ومحطّة الغابات والمدارس، كأنّه يعملُ هناك يومياً، يساعد الطبيبَ في طحن الأعشاب، يساعد الجزارَ في نفخ مثانة الخنزير، يساعد المعلمين في حمل المياه، يساعد في طحن

فول الصويا في مطبخ صومعة الحبوب. وإن تعرَّض صديق لطارئ، فهو على استعدادٍ لبذلِ كلِّ شيءٍ. فُصلَ يان وو من المدرسة في شارع تشانغ لي، لأنَّ منشأه الطبقي عالٍ جداً، ومُنِعَ من الانضمامِ إلى المدرسة المتوسطة التابعة للكمونة. شعر الآذانُ الثلاثُ بالظلمِ الواقعِ على يان وو وهبَّ لمساعدته، ورافقه بغضبٍ إلى المدرسة، ومنحَ المديرَ كلَّ السجائرِ التي بحوزته، وطلبَ من الرجلِ أن يقدمَ له معروفاً، ويضمَّ يان وو إلى المدرسة.

قال مدير المدرسة إنَّه لا يرفضُ قبوله، العقبةُ هي أنَّ الطالبَ الذي طُرِدَ من المدرسة المتوسطة في المحافظة سياسيٌّ بعضُ الشيء، ولم يتحدَّث كثيراً.

لم ينطق الآذان الثلاث بكلمة، بل ثنى كُفَّه، وأخرجَ منجلاً باليد الأخرى، وقطعَ خطأً على بشرته العارية، فظهر خطٌّ من الدم على الفور. ذَهَلَ مديرُ المدرسة.

- هل ستقبله أم لا؟

- أنت، أنت هل تهددني؟

مع قطع أفقيٍّ آخر، يفتحُ جرحٌ جديد.

امتنع وجهاً مديرُ المدرسة ويان وو، واندفعا صوبه ليأخذا المنجل، اشتبك الرجالُ الثلاثةُ معاً، وتلطَّخت ملابسُ الجميع بالدماء، وتلطَّخ كذلك جزءٌ من ناموسية المدير باللون الأحمر. رفع الآذان الثلاث المنجل وقال بصوتٍ أجش:

- أيها المدير تانغ، أخبرني، هل تريدني ميتاً هنا؟

- اهدأ، اهدأ.

خرج المدير لِيبحثَ عن مدرسين آخرين، وتناقشَ معهما، وطلب من يان وو أن يبدأ إجراءاتِ القبولِ على الفور.

كانت ذراعاً الآذانِ الثلاثِ مغطاةً بالجروح، إذ لديه أيضاً الكثيرُ من الأصدقاء. كان الأمرُ الوحيدُ فقط، عدمُ استطاعتهِ العودةَ للعمل في ماتشياو. فضَّلَ التزفَ في الخارج على العودة إلى ماتشياو وبذلِ قطرةٍ عرقٍ واحدة. ارتدى بدلةً عسكريةً قديمة لا يعرف من أين أتى بها، ما أضاف حدةً وصرامةً لمظهره. قال إنه يبيعُ الدم، وإنه سيشتري بعضَ الخردة من مركز المحافظة، وأحزمةً جلدية وأسلاكاً ومفكات ومفاتيح الربط بعد جمع المالِ الكافي، إذ أراد أن يصنعَ حفاراً لفتحِ منجمِ نحاسٍ في قمة تيان تزي، وسيجلبُ منجمُ نحاسه الثروة والعيشَ الرغيدَ لأهل ماتشياو، ولن يضطروا للعمل في المستقبل، ولن يزرعوا الحبوبَ والقطنَ والبطاطا الحلوة بعد الآن، بل سيأكلون ويستمتعون فقط كُلَّ يوم.

لم يتوقع الجميع ما فعله الآذان الثلاث، القبيحُ والسوقي، وتجروه على التبرُّزِ أمام عتبة منزلِ بن يي، والواقعةُ الكبيرةُ التي تبعت ذلك. في ذلك اليوم، عاد بن يي إلى قرية ماتشياو من موقع العمل في خزان مياه باجينغ دونغ، حاملاً معه ثمانين وثلاثين بندقيّةً يابانية الصنع، وحملَ الآذان الثلاث مقيدَ اليدين وراءَ الظهرِ إلى الجرن، مثيراً جلبةً وفزعاً بين عمال القرية. قال بن يي والغضبُ يشتعلُ في عينيه، إنَّ الآذان الثلاث كلبٌ شجاع، ويريدُ اغتصابَ فردٍ من عائلة سكرتير مكتب الحزب، هل سئمَ من الحياة؟ لولا سياسة الحزب بشأن أسرى الحرب، لقطعَ تئينه منذ

وقتٍ طويل. لم يَخَفْ من الإمبريالية الأمريكية في الحرب الكورية، فهل سيخيفه كسولٌ مثل الآذان الثلاث؟

انتبه الناسُ حين قالَ ذلك، أنَّ أنفَ الآذان الثلاث ينزف، وملابسه ممزقة، ولا يرتدي شيئاً إلاَّ شورت، وغطَّت الكدماتُ ساقيه العاريتين. كان رأسه أضعفَ من أن يرفعه، ويميلُ إلى الجانب بوهن، كما لم يكن قادراً على الكلام، وانكمشَت عيناه إلى شقوقِ رماديةٍ بيضاء.

- هل انتهى أمره؟ كان الناسُ مذعورين من مظهره.

ردَّ بن يي بفضاظة:

- إن ماتَ فذلك أفضل، سينقُصُ الاشتراكية نذل.

- كيف يجروُ على اقترافِ فعلٍ شرِّيرٍ كهذا؟

- لقد طعنَ والدَه بمدمَّة، فما الذي لا يجروُ على فعلِه؟

نادى على تجونغ تشي ليساعده في تعليقه على الشجرة، ثم غرف مقداراً من الروث، ورفعَه فوق رأسه. «هل تعترف بأنك مذنب؟ ستعترف أم لا؟».

ألقي الآذان الثلاث نظرةً خاطفةً على بن يي، وزفرَ فقاعةً دمٍ من أنفه، وظلَّ صامتاً.

انقلبَ الرُّوث.

لم يلمح أحدٌ ظلَّ تيبه شيانغ، قال البعضُ إنَّها سقطت مغشياً عليها من الخوفِ منذ وقتٍ قصير، وقال آخرون إنَّها تبكي في منزلها، وأصرَّت على أنَّه لا ينبغي التغاضي عن تهمةِ الاغتصاب، وأن خصرَها وردفِها مخدوشان، ووصفت كلَّ موضعٍ بالتفصيل. ضمَّ الرجالُ في الحقل

رؤوسهم وتهامسوا، وانصبَّ اهتمامهم من جديد على جسدها. إن قلنا إنَّها لم تجذب هذا الانتباه منذ فترة طويلة، إذن، هل يُستخدم الأذان الثلاث الآن كأداةٍ لفعل ذلك؟ هل تخشى أن ينسى الناس رديها وخصرها؟

في وقتٍ متأخرٍ من الليل، أنزل أحدُهم الأذان الثلاث من الشجرة، فمشى بخطواتٍ عرجاءٍ مستنداً على الجدرانِ أو الأشجار، وقطع طريقاً قصيراً في ساعتين لاهثاً، واستراح مرَّاتٍ عدَّة، والألمُ يحتاجُ جسده. كان يبذلُ جهداً في إراحةٍ فخذه، بينما الجرحُ الأخطرُ بين ساقيه، وكيسٌ تنينه ممزق، وكادت إحدى خصيتيه أن تسقط. شعرَ بدوارٍ شديدٍ لفراطِ الألم، لكنه لم يجرؤ على الذهاب إلى المركز الصحي، خوفاً من أن يراه معارفه هناك، ويثيرون جلبه أو يبدون تعليقاتٍ طائشة. كما لم يرغب في العودة إلى المنزل، رغم أن والدته ستُبقي عليه، فإنَّ تجاوز تشينغ اللعين سيصبح حينها أشدَّ فظاظَةً نحوه، فما الداعي لإثارة المتاعبِ معه؟ لم يكن لديه خيارٌ إلا العودة إلى منزلِ الخالدين، وأن يطلبَ من مامينغ مساعدته في العثورِ على إبرةٍ وخيط، واقترب من نور المصباح ليقطب قطباتٍ غير متقنة كيسَ تنينه، في نهاية التقطيب، كان بين ساقيه ملطَّخاً بالدماء، ويدها ترتجفان فلم يستطع الإمساكَ بالإبرة، وجسده يتعرق، وأغميَ عليه قبل أن يتمكن من إحكام الخيط.

نبحت كلابُ القرية طوال الليل.

حين استيقظ مامينغ، لم يكن ثمة أثرٌ للأذان الثلاث في عُشِّ القش، ولم يره لشهورٍ عدَّة.

ذات يومٍ في أوائل الخريف، بينما كان بعض النساء يقلِّبن الكروم في حقل البطاطا الحلوة، صرخت إحداهن صرخةً مدعورة، فصرَّ الجميعُ

أنَّ ثمةَ أمراً ما، وحين التفتنَ رأيين رجلاً يقفُ في الطريق، يحدِّقُ صوبهن بعينين كبيرتين وشعرٍ طويلٍ كذيل حصان. في النهاية أدركت إحداهن أنَّه الآذانُ الثلاثُ المفعمُ بالغضب. لم يُعرفَ من أين أتى، ولا كم من الوقتِ وقف هناك، محدِّقاً بصمت.

مشى ذيلُ الحصانِ مباشرةً صوبَ تيبه شيانغ، حاملاً حقيبةً على ظهره.

تراجعت تيبه شيانغ إلى الورا قائلةً: «ماذا تريد؟ ماذا تريد؟». ارتطامٌ بلطةٍ بالأرض.. وقبل أن يتسنَّى للآخرين رؤيةً ما يجري، كانت البلطةُ ملقاةً تحت قدمي تيبه شيانغ، وكان ذيلُ الحصانِ راکعاً أمامها، وقد مدَّ عنقه قدرَ ما استطاع وقال: «زوجة أخي، اقتليني!».

صاحت تيبه شيانغ في النساءِ الأخريات: «النجدة! النجدة!».

- هل ستقتليني أم لا؟

- «يا مجنون!» امتقع وجه تيبه شيانغ ولاذت بالفرار.

- «وتجروئن على الفرار يا عاهرةٌ قذرة؟!» صاح الآذان الثلاث،

فترنَّحت تيبه شيانغ ولم تجرؤ على الحركة. نهض وتجمَّست على وجهه الجامد ابتسامةً فاترة: «زوجة أخي، كيف ستحظين بحياةٍ

هائلةٍ إن لم تقتليني؟ لقد سكبتِ طستاً من الخراء على رأسي، هل

ظننتِ أنني سأتحملُ ذلك؟» وقبل أن تدركَ تيبه شيانغ ما يجري،

سحبَ من خصره سوطاً سميكاً من قصبِ السكر؛ صوتٌ حاد،

جعل تيبه شيانغ تترنَّح، وبصوتٍ آخر، سقطت على الأرض.

صرخت ورفعت ذراعيها لصدَّ الضربات، لكن حين رأت

النساء الواقفات حولهما مدى فظاعة ملامح وجه الآذان الثلاث، لم تجرؤ إحداهن على التدخل، وكلُّ ما استطعن فعله، العودة إلى القرية والإبلاغ عن الأمر.

- «أنتِ أيتها المرأة القذرة، يا عاهرة قذرة، كيف سينتهي الأمر إن لم تقتليني؟» كان الآذان الثلاث يشتم ويجلدُها، إلى أن تدرجت في الحقل. من بعيدٍ، لا يُرى أحد، لا يُرى غيرُ غبارٍ ورملٍ ضبابين، وحفيفُ أكوامٍ من أوراق البطاطا الحلوة الخضراء تتناثرُ هنا وهناك، وأحياناً تتطايرُ بعضُ الأوراقِ الممزقة. وفي النهاية، خفت الصراخ، وسكنت الأوراق، فتوقَّف الآذان الثلاث، ورمى السوط.

فتح الحقيبة القماشية التي يحملها، وأخرج منها زوجَ أحذية جلدية جديدة، وزوجَ صندلٍ بلاستيكي جديد، وألقاهما في كومة أوراق البطاطا التي سكنت حركتها. «انظري جيداً يا أختي الكبيرة، ما زلتُ أتألم من أجلك». ثم رحل.

حين مشى إلى الشارع التفت وقال للنساء: «أخبرنِ بنِ بي، هذا الحثالة، أنني أنا، ما شينغ لي، ضاجعت زوجته خمساً وعشرين مرة حتى صرخت من كثرة ما ضاجعتها، هاهاها».

بالنسبة لأهلٍ ماتشياو، كان اسمُ «ما شينغ لي» اسماً غريباً للغاية.

ظهورٌ مثبتةٌ بالمسامير

كانت فكرة بي بي القبض على الآذان الثلاث متلبساً. حين عاد من موقع العمل، وأبلغه تجونغ تشي عن علاقة زوجته بالآذان الثلاث، غضب بشدة واستولت عليه نية القتل. بعد كل شيء، لا يزال لديه القليل من العقل ليفهم أن هذا الأمر سيفقده ماء وجهه ويجعل منه أضحوكة، ماذا سيجني من فضح الآذان الثلاث، وإثارة جلبة؟ وبعد تفكير عميق، لم يكن أمامه خيارٌ إلا أن يغلق الباب ويضرب زوجته ضرباً مبرحاً، كسر عصا غسل الملابس على زوجته الخائنة، التي تدرجت على الأرض تحت ضرباته حتى اعترفت مرتعدة بكل شيء. لكنها كانت فطنةً لاحقاً، وتصرفت وفقاً لخطة بن بي، وقادت الآذان الثلاث إلى الفخ. وبينما تشاجر الرجلان، كان واضحاً أن بن بي عاجزٌ عن المقاومة، فنادى على زوجته لتساعده، كان ولاؤها لا يزال لرجلها المسن، وكاد اندفاعها الشديد في منتصف الشجار، وإمساكها ما بين فخذي الآذان الثلاث من الخلف، أن يسقطه مغشياً عليه. وهكذا حرر بن بي يديه، والتقط حبلاً من القنب حصره مسبقاً، وقيد الآذان الثلاث بإحكام كـ تزونغ تزي^(١).

(١) أرز محشو داخل لفائف من ورق البامبو أو القصب، يُلفُّ الأرز اللزج الأبيض بأوراق البامبو أو القصب، ثم يُحزَم بخيوط قطنية حتى يصبح شكله مخروطاً مثلثاً.

على أنَّ بن يبي لم يتوقَّع أنَّ هذا الأمر لن ينتهي: اختفت زوجته الخائنة فجأةً في العام التالي. لم يخطر الآذان الثلاث بباله على الإطلاق، ورأى أنَّ امرأته لن تقفَر في حفرة الروث حتى لو كانت دون مشاعر، أليس كذلك؟ حتى لو كانت عاهرة، أكان يجب أن تصبح لعباً مع مدير المركز الثقافي أو المصور؟ أما كان عليها أن تحفظ ماء وجه زوجها قليلاً؟ لم يخطر الآذان الثلاث في بالٍ معظم أهل القرية، ولم يتخيَّلوا مطلقاً أنَّ امرأةً جميلةً وجذابة كتيه شيانغ، ستركُ طفلاً لا يزال في المدرسة، وتهربُ مع رجلٍ كسولٍ كهذا. حتى لو جمعتها علاقةٌ غرامية بالآذان الثلاث، فهي تلهو مع طفل صغير، فكيف لها أن تمنحه ثقتها مدى الحياة؟ افترض الناس فقط أنَّ شيئاً ما كان يحدث في المركز الثقافي، بل وأرسلوا شخصاً إلى مركز المحافظة لتقصي الأمر.

شعرَ بن يبي أنَّه فقدَ ماءَ وجهه، وتجاهلَ الأعمال العامة لأيامٍ متتالية، وأوصد الباب، ووضعَ لصقتين على جبهته، واستغرقَ في النوم. اشتدَّت رغبةُ القتلِ داخلَه، وفكَّر أنَّه يفضِّلُ القضاءَ على هذه المرأة الفاسقة بضربةٍ سكينٍ واحدةٍ أينما وجدها، على أن يكون في منصبٍ السكرتير.

في خريف العام التالي، وردت أخبارٌ من جيانغشي، فاجأت الناسَ بشكلٍ كبير. أكَّدت هذه الأخبارُ أنَّ تيه شيانغ هربت بالفعل، بل ونهبت مع الآذان الثلاث شاحنةً حبوبٍ على الطريق، ومن بين قُطاعِ الطرق الذين تعقبهم الجيشُ وميليشيا الشعب، تعرَّضَ أحدهم للضربِ حتى الموت وأُعتقلَ عشرةٌ أو نحو ذلك. كان الاثنان الأخيران عنيدين للغاية، فهربا إلى الجبال، ولم يستطع الجيشُ وميليشيا الشعب

الإمساك بهما. اعتمدوا لاحقاً على المزارعين المحليين لتقديم المعلومات، وحاصرتها الميليشيا التي بحثت في الجبال في النهاية وأجبرتها على الدخول إلى كهف، وطوّقت مدخل الكهف، ودعتهم مرّاتٍ عدّة إلى الخروج، لكنّها لم تتلقَ أيّ رد، فألقت في النهاية قبلةً يدوية، وفجّرتها. اكتشفت الميليشيا لاحقاً أنّ الميتين رجلٌ وامرأة، وأنّهما نحيفان لا يزنُ كلّ منهما أكثر من سبعين أو ثمانين جين، وكان بطنُ المرأة منتفخاً، ويبدو أنّها حاملٌ منذ بضعة أشهر. اكتشفوا بين أكياس ملابسهما ختماً رسمياً لبدء كومونة منجم نحاسٍ أو شيءٍ من هذا القبيل، وورقتي وصفاتٍ طبيةٍ فارغتين، وورقتان من ورقٍ خاصّ لإعداد الدروس، وعدداً قليلاً من المظاريف للرسائل الرسمية التي كُتِبَ عليها اسمُ هذه المحافظة وهذه الكومونة. حينها أخطرت الشرطة المنطقة لإرسال شخصٍ للتعرفِ عليهما. ذهب «خي» رئيس الكومونة، وتعرّف على وجهي تبيه شيانغ والآذان الثلاث المشوّهين من الصوّر في مركز الشرطة.

أنفق رئيس الكومونة عشرين كواي، وطلب من مزارعين محلّيين دفنها.

وفقاً لتقاليد ماتشياو القديمة، تبيه شيانغ فاسقة، والآذان الثلاث آثم، كما أنّ الاثنين خائنان وانتهكا قواعد الأسرة والقانون الوطني، لذلك كان يجبُ بعد الموت أن يكون لديهما «ظهورٌ مثبتةٌ بالمسامير». وهذا يعني الانكفاء على وجهيهما في القبر، ودقّ تسعة مساميرٍ في ظهريهما. الوجهُ لأسفل يعني الخزي من مواجهة الناس، والظهُرُ المثبّت بالمسامير يعني أنّهما سيُحبّسان في العالم السفلي إلى الأبد، ولا يمكنهما التناسخ وإيذاء الآخرين.

لم يحصل أهلُ ماتشياو على جثَّتَي الرجلِ والمرأة، لذلك لم يتمكنوا
من دقِّ المساميرِ في ظهريهما. لم يستطع بعضُ كبارِ السن في القرية الحديثَ
عن الأمر دون إخفاءٍ قلقهم من عدم معرفة ما المتاعبُ التي يمكنُ أن
تحدث.

مكتبة

t.me/soramnqraa

بَذَر

أثار هروبُ الآذانِ الثلاثِ مع تيبه شيانغ سُخطاً مبرراً بين أهلِ ماتشياو، ولا سيما النساء اللواتي كنَّ ينقُبْنَ خلفَ ظهرِ تيبه شيانغ، ويبحثنَ مرّةً تلوَ أخرى بفضولٍ عن العلاقةِ بينها وبين رئيس المركز الثقافي، والعلاقةِ بينها وبين الشاب في مركز التصوير، ويُجعدنَ أنوفَهُنَّ ويزمُنَّ شفاهَهُنَّ بينما يتأرجحُ ظهرها جيئةً وذهاباً. الآن، شعرنَ فجأةً أنّه يمكن التسامحُ مع هذه العلاقاتِ والتغاضي عنها، حتى أتمنَّ رأينَ عدم وجود خطأ كبير في سرقةِ شخصٍ ما، المهم هو مَنْ يُسرق. رغم علاقات تيبه شيانغ غير اللاتقة مع الرجال، فإنَّ علاقتها بالآذانِ الثلاث كانت الأسوأ قبولاً. وحول هذه النقطة، خيمَ شعورٌ بالظلم تجاه تيبه شيانغ، وانبثقَ فجأةً شعورٌ بالتسامح الجماعي نحوها، أثارَهن، وألمهن، ومنحنَهن دفتاً، كأنَّ تيبه شيانغ لاعبٌ رَشَحَنه، وخسرَ لسوءِ حظِّه في المنافسة، لذا لا بُدَّ أن يكنَّ ساخطات. كان الآذانُ الثلاث مشيناً للغاية ومُزْدَرَى، حتى أنَّ قفاه كان زَنِخاً دائماً. ورغم أنَّه تصرَّفَ بتهذيبٍ مع أصدقائه القرويين، فإنه لم يتحلَّ بأخلاقٍ حميدةٍ تُذكر، ولا ثروةٍ عائلية، ولا تعليمٍ لائق، حتى والداه كانا من حمالي عِصِّي الحَمَل.

كان أضحوكة، كيف لـ تبيه شيانغ أن تواعده؟ وبشكلٍ غير متوقَّع،
تجبلُ منه؟

لبضعة أشهر، عدَدَن هذا إهانةً جماعية.

ولم يستطعن فهمَ تبيه شيانغ.

ثمة طريقة واحدة لشرح هذه النهاية: المصير. في لهجة ماتشياو، لا
يستخدمُ الناسُ كلمةَ مصير، بل يقولون «الجذر» كما لو كانوا يقارنون
أنفسهم بالنباتات. كما أنَّهم ينظرون إلى خطوطِ اليدِ وخطوطِ القدم،
ويعتقدون أنَّ هذه الخطوط ليست أكثرَ من تجسيدٍ للقَدَر، وهي صورةُ
الجذور. قرأ رجلٌ مُسنٌّ عابِرُ الجذورَ على يدِ تبيه شيانغ، وتنهَّد، وقال
إنَّها جذورُ عتبة، وإنَّ أسلافها ربما كانوا متسوِّلين، وإنَّهم تسوَّلوا عند
الآلافِ من عتباتِ البيوت، كان الجذرُ طويلاً جداً ولم ينكسرَ فيها.

ضحكت تبيه شيانغ غير مصدِّقة. كان والدها داي شي تشينغ زعيمَ
المتسوِّلين، أمَّا الآن فقد أصبحت زوجةً سكرتيرِ الحزبِ وحبیبته، أي
سكرتيرة تقريباً، أيُّ عتبة بابٍ ستتسوَّل عندها؟ لم تتوقع أنَّ كلامَ الرجلِ
سيتحقِّق بعد سنوات: إذ رافقت الآذانَ الثلاث، هذا الرجلُ الفقيرُ إلى
حدِّ أنَّه بالكاد لا يستطيع إلاَّ التسوَّل عند عتباتِ البيوت، وعاشت في
منطقةٍ بعيدةٍ مدى الحياة. كانت مثل شجرة، تبحثُ بيأسٍ عن أشعةِ
الشمس والمطر، بحثت أكثرَ من ثلاثين عاماً، لتدرك أخيراً أنَّه بغضِّ
النظر عن كيفية نمو أغصانها وأوراقها، فلا يمكنُها الانفصالُ عن
الجذر، ولا يمكنها الطيرانُ إلى السماء. كانت الجذورُ الوضيعةُ محفورةً
في كفِّ يدها.

وكلمة «العودة إلى الجذور» مرتبطة بكلمة «جذر»، ولا تشير إلى معنى الكلمة في الماندرين بالهائم الذي «يعود إلى مسقط رأسه»، بل تُشابه كلمة «القَدَر» في المعنى. وباستخدام لهجتهم، «كما يكون الطينُ بعمقِ ثلاثِ بوصات، يكونُ للإنسانِ كذلك ثلاثةُ فروع». خلال فترة الشباب، لا شيء يُحسَب، ولكن بعد انقضاء الفروع الثلاثة للعمر، أي بعد ثلاثة - «اثنَا عشرَ سنة»، في سن السادسة والثلاثين، يبدأ الناس في العودة إلى جذورهم، سواء أكانوا نبلاء أم منحطين، عقلاء أم أغنياء، طيبين أم سيئين، ثم يدركون الأشياء بوضوح. كلُّ شخصٍ هو ما سيكون عليه، كلُّ في مكانه. كان مصيراً لا مفرَّ منه أن تتبَع رجلاً كسولاً كأنَّ مساً أصابها في عيد ميلادها السادس والثلاثين. كانوا مؤمنين بذلك، دون أدنى شك.

ركوبُ العربِ

«ركوبُ العربِ» تعبيرٌ استخدمته تبيه شيانغ، للإشارة إلى ما يحدثُ بينها وبين الآذانِ الثلاث في السرير. سمع تجونغ تشي هذه العبارة، وضحك عليها الناسُ أياماً قبل أن تنتشر، وتصبحُ لاحقاً من أمثال ماتشياو.

ليس في اللغةِ الصينية نقصٌ في المفرداتِ المتعلقةِ بالطعام، للتعبير عن طُرُق الطهو، فهناك الطبخُ على البخار، السلق، القلي العميق، القلي بسرعة في الزيت، التسوية ببطءٍ في الزيت، القلي في زيتٍ قليل، الطهو بالغلي البطيء، التخليل، الطبخُ في صلصة الصويا، الطهو إلى قوامٍ كثيف، الطهو في قدرٍ مغطاةٍ على نار هادئةٍ وغيرها. وللتعبير عن حركة الفم واللسان، هناك: يأكل، يرتشف، يمص، يذوب في الفم، يبتلع، يلعق، يمضغ، يقضم، التدويبُ في الفم، والامتصاص وغيرها. وللتعبير عن المذاق هناك: حلو، لاذع، مالح، حار، حامض، طازج، طري، هَس، لزج، يوخز، صافٍ، لَيّن، مقرمش، بودرة وغيرها. بالمقارنة مع ذلك - ورغم أن الجنسَ أيضاً حاجةٌ فسيولوجية، فإنَّ عددَ الكلماتِ المتعلقةِ بالجنسِ يبدو أقلَّ بكثير، وكما قال منشيوس:

«الطعام والجنس طبيعة بشرية»، إلا أن تراثنا اللغوي قضى على نصف رأيه الموقر.

بالطبع ثمة العديد مما يُعرف بالكلام البذيء، هذه الكلمات هي غالباً منتجات رديئة وسلع شائعة، وإفرازات لفظية منتشرة في كل مكان. ورغم قلة عددها، فإن عيوبها واضحة للغاية. أولاً، هي تتشابه وتكرر بعضها البعض دون إضافة أي معانٍ جديدة، ثانياً، هي تافهة وتفتقر إلى الأصالة، عامة وسطحية، بَرَّاقَةٌ لكنّها عديمة الفائدة، على غرار خطابات سياسيي الدولة أو المديح المتبادل بين المثقفين. والأهم من ذلك، أن أغلبها كلمات مستعارة، لا تعبّر عن المعنى بدقة ووضوح، وتعتمد على الفهم الضمني المؤقت للسياق، وتتجشّع شعوراً بالسخرية كوضع قُبعة السيد تجانغ على رأس السيد لي، أو وصف الحمار بالحصان. «السحب والمطر»، «إعداد التوفو»^(١)، «إطلاق النار»، «صنع المعجنات»، كلمات كلّها تشبه لغة مشفرة للعصابات؛ حين يضطرّ الناس لقول هذا، يتصرفون بمراوغة وسريّة كالعصابات، إذ يُنظر إلى الجنس في النظام الأخلاقي للغة، على أنّه جريمة ترتكبها العصابات، نشاطٌ يُخشى التحدّث عنه بوضوح وتفصيل.

هذه الكلمات الجنسية هي بلا شك نتيجة لكون النشاط الجنسي البشري خشناً، نمطياً، نفعيةً وخفياً. الإثارة والجيشان في التواصل بين الرجل والمرأة، ينبع من رعشات وومضات خفيّة من عمق الجسد، القلق، والمثابرة، والتعاطف والفرح المفاجئ، والمشاعر التي تستحوذ وتُنقذ

(١) تعني عبارتان «السحب والمطر» و«إعداد التوفو»: ممارسة الجنس.

بعضها البعض، والاستكشافات السريّة على الطريق الغامض، والحالة العاصفة والمقفرة على القمة، وحالة السكر، حالة الطيران والانزلاق، نشطة في أجزاء وعملیات محددة ومختلفة... إنه لأمر مؤسف أن كل هذا يُورَى في منطقة عمياء لا يمكن اختراقها والوصول إليها لغوياً.

الفراغ اللغوي هو تحلّي البشر عن التعرّف على أنفسهم، هزيمة مطلقة، وأيضاً علامة على وجود خطر كبير. اللغة هي الصلة بين الإنسان والعالم، إذا قطعنا هذا الاتصال أو فقدناه، سيفقد الإنسان تقريباً السيطرة على العالم. بهذا المعنى، يمكن للناس أن يقولوا إلى حدّ معقول إن اللغة تعني السيطرة. المختبر الكيميائي المعقد ليس أكثر من بستان خضراوات مألوف للخبراء الكيميائيين، بالنسبة لأولئك الذين ليس لديهم معرفة بالكيمياء، فهي ليست أكثر من حقل ألغام هائل حيث يكون الخطر كبيراً. المدينة المزدهرة هي موطن مناسب للغاية وودود للسكان المحليين، لكن بالنسبة لسكان الريف الذين ليس لديهم معرفة وخبرة حضرية، لا تختلف عن الأرض الشائكة التي تختبئ فيها العقبات أو العداوة في كل مكان، فلا يمكنهم دائماً التخلص من خوف لا يمكن تفسيره. السبب بسيط جداً؛ العالم الذي لا يمكن وصفه هو عالم لا يمكن السيطرة عليه.

بحث علم الاجتماع «الشخص الهامشي»، والذي يشير في الغالب إلى الأشخاص الذين يدخلون في ثقافة من أخرى مختلفة. على سبيل المثال، سكان الريف الذين يدخلون المدينة، المهاجرون الذين يدخلون بلداناً أخرى بعيداً عن أرضهم الأم. اللغة هي المشكلة الأولى لهؤلاء الناس، بغض النظر عمّا إذا كانوا أغنياء أو أقوياء، طالما أنهم لم يتقنوا اللغة الجديدة تماماً، فلن يتمكنوا من اكتساب فهم لغوي مفيد للبيئة الجديدة، لن

يتخلصوا أبداً من الشعور بالوحدة وبعدم الانتماء وانعدام الأمان. حين أتى اليابانيون الأثرياء إلى فرنسا، عانى بعضهم من «متلازمة باريس»، وحين أتى الصينيون الشجعان إلى الولايات المتحدة، عانى بعضهم من «متلازمة نيويورك». تمنعهم لغتهم الأجنبية المحدودة من الاندماج في عدم ألفة منطقة أجنبية، لا يكفي ثراؤهم أو شجاعتهم للتخلص من قلق غامض، ومن التوتر والارتباك والخفقان وارتفاع ضغط الدم والبارانويا ووهم التجسس عليهم. أيُّ محادثة لا يفهمها الجيران أو المارة، أيُّ كائن غريب أو منظر طبيعي لا يمكنهم تسميته، قد يفاقم ضغطهم النفسي خفيةً ويصبح مرضاً مُحفَظاً يحيط بهم. في هذه الحالة، غالباً ما يغلق الكثير منهم على أنفسهم في شقق باردة ويهربون مؤقتاً من العالم الخارجي، تماماً مثل تجنب عيون وآذان الغرباء عند ممارسة الجنس.

لا يخاف الناس من إظهار أجسادهم في الحمّامات وغرف الفحص الصحي وحمّامات السباحة وحتى الشواطئ العارية في بعض الدول الغربية، ولا يشعرون بعدم الراحة أو الخوف، بل يشعرون بالحاجة إلى إغلاق الستائر والأبواب حين ممارسة الجنس فقط، مثل فأر يحاول الدخول في حفرة في الأرض. هناك أسباب كثيرة لهذا الاختلاف، السبب الذي تمّ تجاهله - في رأيي، هو أنّ الناس إذا كانت لديهم معرفة جيدة باللغة في أنشطة مثل الاستحمام والفحص البدني والسباحة، فستكون لديهم سيطرة فعّالة على أنفسهم والآخرين، وسيكونون قادرين على التحكم في أنفسهم. فقط حين يخلع الناس ملابسهم ويواجهون المنطقة العميقة والواسعة اللانهائية للجنس، سينشأ الشعور بعدم الأمان في الارتباك والفراغ اللاإراديين، ويعودون إلى مخبتهم دون وعي. إنهم

خائفون من أمرٍ ما. عوضاً عن القول إنَّهم خائفون من الرأي العام حول الآداب العامة، من الأفضل القول إنَّهم يخافون لا شعورياً من أنفسهم، يخافون من الضياع في ليلة جنسٍ مجهولة. بمجرد خلع سراويلهم، سوف يشعرون بالقلق، والعصبية، والذعر، والخفقان، وارتفاع ضغط الدم، والبارانويا، ووهم التجسُّس عليهم. يبدو الأمرُ كما لو أنَّهم وضعوا أنفسهم في باريس أو نيويورك، لكن يتعيَّن عليهم إغلاق أبوابِ ونوافذِ شققهم بإحكام.

تشيرُ الإحصائيات إلى أنَّ معدلَ جرائم «المهمَّشين» مرتفع، وهناك المزيد من مضطربي الأمراض العقلية. بالنسبة للأشخاص المهمَّشين، فإنَّ كلَّ شيءٍ غريبٍ يتجاوزُ الفهم اللغوي هو نوعٌ من التشوُّش الذي يصعبُ الوصولُ إليه بقوة المعرفة، وهو الأسهلُ لتفكيك الوعي والقدرة على الحكم. وبالمنطق ذاته، فإنَّ المنطقة اللغوية العمياء للجنس هي أيضاً الأكثرُ سهولةً لجعلِ الناس مضطربين. قد يكون هذا هو الشرطُ الذي تُحقِّقُ به المغامرة الجنسية سحرَها، ولكنه أيضاً الشرطُ الذي تؤدي فيه الرغبة الجنسية إلى كوارث. في كثيرٍ من الحالات، يمكن أن تؤدي الحيل التي وراءها نساءٌ جميلاتٌ إلى زعزعة القرارات السياسية القوية، الاستراتيجيات الاقتصادية والهيكل العسكرية. يمكنُ لرومانسية ليلة واحدة أن تبدد الإدراك السليم في كثيرٍ من الأحيان، تُلقِي بالناس بسهولة في خطرِ التخيلات، مثلما حدثَ مع تيبه شيانغ من قرية ماتشياو في السابق.

ربما كان الأمرُ هكذا:

١- لم تكن تيبه شيانغ تعرف انحطاط وفقر الآذان الثلاث، لكن

منذ أن تبادل الاثنان جسدَيهما، أصبحت لديها فجأةً رغبةً في خلاصه، واهتمامٌ قويٌّ لخلق المعجزاتِ بجسديها. إذا كانت قد أغرت العديدَ من الرجال المحترمين بالوقوع في الحبِّ من قبل، فإنَّ العمليةَ المتكررةَ ستدفعُها إلى الضجر. لقد رأت ساحةَ معركةٍ جديدة في الأذانِ الثلاث، مهمةٌ أكثرَ تحدِّياً. إنَّها لا تخافُ من الانحطاطِ والفقر، بل إنَّ الانحطاطَ والفقرَ هو ما سحرَها، جعلها التفكيرُ في الشعورِ بالفخرِ الناتج عن إعادةِ بناءِ رجلٍ مفعمةٍ بالمشاعر.

٢- ارتكبَ الأذانُ الثلاثُ الكثيرَ من الأفعالِ السيئةِ التي تقرَّرَ منها الآخرون، مثل استخدامِ العنفِ ضدَّ أبويه، والتشاجرِ مع إخوته، وتبطله في القرية دون عملٍ، وسرقته كيساً من الأسمدة الكيماوية يخصُّ الفريق، كما أنَّه تسلَّقَ جدارَ مرحاضِ النساء في المركز الصحي ذاتَ مرَّةٍ وغيرِها. وقد اعتادت تبيِّه شيانغ السخريةَ من هذه الأفعالِ في الماضي، لكنَّها في وقتٍ لاحقٍ، أصبحت على استعدادٍ لأن تنسبَ كلَّ ذلك إلى سحرِها. تعفَّنَ بطيخٍ وفاكهةٍ ماتشياو بسببِها، وأصيبت مواشي القرية بالجنونِ بسببِها، ألنَّ يتصرفَ الأذانُ الثلاثُ بتهورٍ وطيشٍ بسببِها؟ الأذانُ الثلاثُ؟ لا، إنَّها تفضِّلُ مناداته حبيبي، معشوقها، هو في الحقيقة رجلٌ شهيمٌ وشجاع، وتضحيتُه الكبيرة لمساعدة يان وو في الانضمام إلى المدرسة دليلٌ على ذلك. إن لم يكن قد عشقها سرّاً طوال الوقت، ولم يكن مدفوعاً بجموحٍ إلى حبٍّ دون مقابل، هل كان سيتورطُ مُتهوراً في كلِّ تلك الكوارث؟ عند التفكيرِ في هذا، انتابها شعورٌ بالإدراكِ المفاجئ، وشعورٌ هائلٌ بالزهو، وتدفَّقَ تيارٌ من العاطفةِ الدافئةِ والحنونةِ في قلبها، وجعل جسدها يرتجفُ بشكلٍ لا إرادي.

٣- بعد حادثة الاغتصاب المزعومة، شعرت تيبه شيانغ بالذنب، وأرادت تعويض الآذان الثلاث، لذلك حين عاد الأخير إلى القرية ضربها حتى ازرق أنفها وانتفخ وجهها، لم تشعر بالاستياء فحسب، بل شعرت خفية بالارتياح، وهكذا تعادل الاثنان. والغريب أنها ذقت الحلاوة من الألم والحب الجامح من الجانب الآخر كما هو الحال دائماً. كانت تعتقد أنه فقط حين يكون الرجل في حالة حب يجنون، ستتولد لديه كراهية وعنف يتجاوزان اليأس. ورغم أن بن يي كان يغضب منها في الماضي، فإنه قلماً ضربها، وكان يحطم بعض الأثاث ثم يخرج ويداه خلف ظهره. كما شعر مدير المركز الثقافي والمصور بخيبة الأمل منها، لكنهما لم يضرباها، صفاً واختفيا دون أثر. أغضبها هذا التسامح والتخلي عن الوصول إلى نهاية، ومنعها من إغراء العثور على رجل حقيقي. في المقابل، لكم أحببت السوط والعصا، ولكم فتنت بالاهتمام الشديد والرغبة المجنونة التي يتركها الرجال على جسدها مع ندوب مؤلمة. مرّات عدّة، وبشكل لا تصدّقه، كانت رعشة الجماع تبلّ لها فجأة وهي تتعرض للضرب، تتصرّج وجنتاها بحمرة شديدة، وتتلوى ساقاها دون توقف.

كما أن الآذان الثلاث كان مفتوناً بها وأعطاهما أشياء نسائية أخفتها سرّاً، وكانت تخرجها بين حين وآخر وتنظر إليها، وتفكر في الفرق بين عشيقها وزوجها في السرير.

أخيراً، غادرت في إحدى الليالي وألقت بنفسها مرّة أخرى في الفجوة اللغوية الضخمة بين أهل ماتشياو التي تمثّلها عبارة «ركوب العرب».

فَمَّ.. أُوهُ إِيْهِ

ظهرت هذه الكلمة من قبل في «حوليات وزارة قمع اللصوصية والتمرد»، في الاعتراف الذي كتبه زعيمُ المتمردين ما سان باو بعد اعتقاله: «... في الواقع كنتُ خائفاً جداً، لكن «ما لاو غوا» ذلك الـ«فَمَّ أُوهُ إِيْهِ» خدعني، وقال إنَّ قوات الجيش لن تأتي». حين قرأتُ هذه الفقرة فكَّرتُ: من لم يعيش في ماتشياو، ربما سيرتبك عند عبارة «فَمَّ.. أُوهُ إِيْهِ».

عبارة «فَمَّ.. أُوهُ إِيْهِ» شائعة في ماتشياو إلى اليوم، تشير إلى الأشخاص الذي يتجادلون كثيراً، وإلى الواشين، وتشير أيضاً إلى الكاذبين. ربما استخدم هؤلاء الناس الكثير من صيغ التعجب في كلامهم مثل «أُوهُ» و«إِيْهِ»، والتي قد تكون أصل هذه العبارة. كان تجونغ تشي من القرية السفلى يبلغُ بن يي دائماً بأخبار الزنا وغيرها من الأمور، ويُعدُّ «فَمَّ.. أُوهُ إِيْهِ» معروفاً. لا يوجد سرٌّ في القرية يمكن أن يفلت من أذنيه. وبغض النظر عن درجة الحرارة، كان يرتدي زوجاً من الجرُموق^(١)، وبغض النظر عما يفعله، لا يخلع هذا الحذاء البالي المثير للريبة، حتى لو

(١) حذاء خارجي يلبس فوق الحذاء العادي للتدفئة أو لمنع البلل أو لمنع التلوث بالطين.

كان الجميعُ حفاةً هذا اليوم، حتى لو لم يتطلب عملُ هذا اليوم ارتداءَ حذاء، كان يقفُ عند أثلامِ الحقل، دون أيِّ شيءٍ يفعله إلاَّ تأمُّلِ الناسِ وهم يجنون نقاطَ العمل. لم يعلم أحدٌ أيَّ مشاهدٍ يخبئها حذاؤه هذا، كان يحتفظُ بالسِّرِّ في حذائه، ويستفسرُ عن جميعِ أسرارِ الآخرين في القرية، ويظهر على وجهه نوعٌ من الرضا الناجم عن استغلاله السري للآخرين. أو ربما ينبغي عليَّ قولُ هذا: لأنَّه يحتفظُ بالأسرارِ في الحذاء، عليه أن يكتشفَ مكانَ أسرارِ الآخرين ويجمعها بارتفاعِ رقبةِ حذائه.

كان يقتربُ منِّي بهدوءٍ، ويستعدُّ لبعضِ الوقت، وتكتملُ أخيراً ابتسامةُ وجهه قائلاً: «هل كان طحينُ البطاطا الحلوة الذي تناولته مساء أمسٍ لذيذاً؟» ثم يتظاهر بالخجل لبعضِ الوقت، في انتظار أن أتظاهر بالبراءة أو أقدمَ ذريعتي. حين يرى أنَّني لم أبداً أيَّ ردِّ فعلٍ، يتراجعُ بحذرٍ مبتسماً، ويتوقَّف عن التساؤلِ حولَ تفاصيلٍ أكثر. لم أفهم كيف عرف عن دقيقِ البطاطا الحلوة الليلة الماضية، أو لماذا اعتقد أنَّ الأمرَ مهمُّ جداً إلى حدِّ أنَّه وضعه في الحسبان وأشار إليه؟ وأيضاً، لم أفهم أيَّ جزءٍ منه مسرورٍ بقدرته وإنجازاته في اكتشافِ أدقِّ التفاصيل.

أحياناً يكون نَشِطاً بدرجةٍ غيرِ طبيعية، فيحفِرُ ويحفِرُ في الأرض، ثم يتنهَّد فجأةً بصوتٍ عالٍ، أو يعوي بشكلٍ مرعِبٍ صوبَ كلبٍ في مكانٍ بعيد، وحين لا نبدي أيَّ ردِّ فعلٍ، تبدَّى التعاسةُ على وجهه قائلاً: «أوه أوه أوه، كم هذا فظيع». فيسأله الناسُ بتعجب، ما هو الفظيع؟ فيهزُّ رأسه مرَّةً تلوَ أخرى، قائلاً: «لا شيء لا شيء» ويلوِّح على شفثيه شيءٌ من الرضا، مبتسماً ببرودٍ من خيبةِ أملٍ الجميع ولا مبالاةٍ بهم.

ثم بعد فترة، يعود تعيساً من جديد، ويقول: «فطيع» مرةً أخرى. وبعد إلحاح الناسِ حوله، يأخذ نفساً عميقاً، ويقول: «هناك من يفعلُ أشياءً منحطةً، هناك من لديه مشاكل...» وبمجرد أن يثيرَ اهتمام الآخرين، يتوقف برهة، ثم يرد على سؤالهم بفخر: «خمنوا من هو؟ هل خمنتم؟ خمنوا!!» كان هذا التمتع عن الحديث، يتكررُ خمسَ أو ستَ مرَّات، إلى أن يتوقف الجميعُ عن السؤال، غيرُ مبالين بحزنه وزهوّه، وحتى ملولين، فتظهرُ على وجهه ابتسامةٌ راضية، ويُكملُ حفرَ الأرض، كأنَّ شيئاً لم يكن.

«ما» مُعْتَمَد

لطالما كان تجونغ تشي مؤيداً للحكومة، يُثَبِّتُ زَرَ ماو أحمرَ بحجم بيضةٍ بشكلٍ واضحٍ على صدره، ويُعلق حَقِيبةَ الاقتباساتِ دائماً على كتفه في الاجتماعات، وذلك بعد فترةٍ طويلةٍ من انحسارِ رواجِ تلك الحَقائب. كان يتمتع عموماً بقدرةٍ لا بأسَ بها على الحديثِ السياسي، وينتبهُ إلى ما يقوله، وليس لديه عادةُ الثرثرةِ السيئة.

كان هناك دائماً قلمٌ حبرٍ في جيبِ قميصه، لم يشتره بالطبع، وإذا نظرتَ إلى غطاءِ القلمِ الأحمر الكبير ومشبكهِ الأسود الصغير، ستعرفُ أنَّه نتاجُ تجميعٍ لبقايا خردة، مرَّت بعمليةٍ صقلٍ قاسية. وحسبها أذكر، لم يكن كادراً، حتى أنَّه لم يتولَّ منصبَ رئيسِ جمعية الفلاحين الفقراء وغيره من تلك المناصب، لكنَّه أحبَّ استخدامَ هذا القلمِ كثيراً، وكان يكتب دائماً: «مُعْتَمَد، ما تجونغ تشي». ظهرت كلماته تقريباً على فواتير الفريق، الإيصالات، دفاترِ نقاطِ العمل، دفاترِ الحسابات، والصحف ونحو ذلك. التقط فوتشا ذاتَ مرَّةٍ إيصالاً لشراءِ أسماكِ الطُّعم، ليسجِّلها في دفترِ الحسابات، ودون أن ينتبه، اكتشفَ أنَّ الإيصالَ وقع في يد تجونغ تشي. وقبل أن تُتاحَ له الفرصةُ للصراخ، كان الأخيرُ

قد كتب «مُعْتَمَد»، وغمسَ سِنَّ القلمِ في لعابه، استعداداً للتوقيع المتأني.

سأل فوتشا بغضبٍ: «هل تكتبُ خطابَ جنازتك؟ ما الذي يستدعي موافقتك؟ وما الذي يخولك الموافقة؟ هل أنت قائدُ الفريق أو سكرتيرُ مكتبِ الحزب؟».

ابتسم تجونغ تشي قائلاً: «هل قطعْتُ لحمَك بكتابةِ هاتين الكلمتين؟ لقد اشترينا هذه الأسماءَ بنزاهة، فلماذا نخشى أن أعتمدها؟ أخبرني، هل سرقتَ هذه الأسماء؟».

- لا أريدك أن تكتب! لا أريدك أن تكتب وكفى!
ردَّ تجونغ تشي بظُرف: «هل كتبتُ بشكلٍ خاطئ؟ ماذا لو مزَّقتُ الورقة؟».

- «إنَّه رجلٌ سمج». قال فوتشا للناسِ حوله.
- هل تريدُ أن أكتب «غيرَ مُعْتَمَد» إذن؟
- ممنوعٌ أن تكتبَ أيَّ شيء! هذا ليس المكانُ المخصَّصُ لكتابتك!
إن أردتَ الكتابة، انتظرْ حياتين وعشَ كريماً، ثم نرى.
- حسنٌ، لن أكتب، لن أكتب، يا لك من لئيم.

شعرَ تجونغ تشي أنَّه حقَّق هدفه، فأعادَ قلمَ الحبرِ إلى جيبِ قميصه. في مزاجٍ بين الغضبِ والمزاح، أخرج فوتشا إيصالاً آخرَ من جيبه، وهزَّه أمام الجميع قائلاً: «انظروا، لم أسوِّ الحسابَ معه بعد، جين اللحم الذي أخذَ من أجلِ الفرن لا يمكنُ إضافته إلى حسابِ المصاريف، وقد وقَّعَ على ذلك أيضاً».

احمرَّ وجهُ تجونغ تشي، وألقى نظرةً على الإيصالِ الذي يهزه فوتشا قائلاً:

- لا تضعه إِذْن في الحساب.

- لماذا كتبت «مُعْتَمَد»؟ هل تحكُّك قدمُك الآن؟

- لم أنظرُ إلى الإيصالِ حتى.

- وقَّعتَ على شيء، عليك تحمُّلُ المسؤولية.

- هل يمكنني تغييره؟

سار عائداً، وهو يُخرِجُ القلمَ بسرعة.

- هل يمكن تغييرُ كلماتك التافهة؟ انظر إلى كلماتِ الزعيم ماو،

كلُّ كلمةٍ لها وزن، البلدُ كلُّه يعملُ بكلماته، لا تُعدِّلُ تحت أيِّ

ظرفٍ من الظروف، أمَّا كلماتك كبولِ الكلب، أينما ذهب يرفعُ

قائمته ويرش رش، لا تُحتسبُ شيئاً.

احتقن وجهُ تجونغ تشي حتى رقبتِه، وظهر لمعانٌ صغيرٌ على أُرنبَةِ أنفه:

- فوتشا أيها الولد، أنتَ الكلب، لا أصدِّقُ أنه لا يمكن إضافة

جين اللحم هذا إلى حساب المصاريف؟ الأشياءُ يجبُ أن تُنجزَ،

واللحمُ يجبُ أن يُؤكل.

- لديك مال، اذهب وادفع ثمنه! لن ينتهي يومُك إلَّا بدفع هذا

الحساب!

لم يستطع تجونغ تشي التملُّصُ من الموقفِ المخرجِ أمام الناس، فدقَّ

قدمه في الأرض قائلاً:

- ليكن، سأدفع!

أحدثَ فرقةً بحذائه، وعاد بخطواتٍ مترنحةً إلى منزله، ثم ما لبث أن عادَ لاهثاً، وضربَ الطاولةَ بسوار فضي وقال:

- من يخشى ثمنَ جين لحم؟ فوتشا أيها الولد، اليوم أعطيتُ موافقتي! سادفع!

طَرَفَ فوتشا بعينه ولم يرد، ولم يدِرِ الآخرون كيف يتصرفون. كنّا نضحكُ للتو لإثارة تجونغ تشي، ولم نتوقع أن يأخذ الأمرَ على محمل الجد، وينفدَ كلماته، ويأتي بسوار فضي.

لم يهزم الناسُ تجونغ تشي هذه المرة، ومذّاك بدأ في ختم موافقته بدرجة أكثر تهوراً. إن أخرج بن يي أو أحد الكوادر ورقة، انتزعها وكتب «مُعتمد». أصبحت موافقته عادة، فلا يمكن لأيّ ورقة أن تفلت من قلمه، أو أن تفلت من مراجعته واعتماده غير المقيّد. كان فوتشا أشدّ نظاماً وانضباطاً، واضطرّ لاحقاً إلى تجنيه قدر المستطاع، فما أن يسمع فرقةً حذائه، أو يلمح وجهه، يجمعُ كلَّ الأوراق، ولا يمنحه فرصة لمسيها. كان على تجونغ تشي التظاهرُ بأنّه لم يرَ ذلك، ثم يذهب ليتجول في مكانٍ آخر، باحثاً عن أمورٍ يعتمدُها، مثل انتزاع رسائلنا، رسائل الشباب المتعلّم من يد ساعي البريد. لذلك حمّل كلَّ خطابٍ لي ختم موافقته على اسم المستلم وعنوانه، وأحياناً بصمة إصبعه الحمراء الزاهية.

وجدته منفراً مثلما يراه فوتشا، وعزمتُ على انتهاز فرصة لردّه. وذات ظهيرة، اغتنمتُ فرصة غفوته، وألقيتُ قلمه الخبر في البركة.

بعد يومين، ظهرَ قلمُ خبرٍ جافٍ آخر على صدر قميصه، مشبكهُ لامع، فيما بدا أنّه لا يوجد شيءٌ يمكنُ لأيّ شخصٍ أن يفعله.

القريب الشبح

بعد سنواتٍ عديدة، شاعت قصةٌ في ماتشياو حول تعرّف شخصٍ على أقاربه في حياته السابقة. سمعتُ مثل هذه الشائعات حين كنتُ في ماتشياو، وحين عدتُ إلى المدينة، سمعتُ أنّ أشياءً غريبةً مماثلة حدثت في أجزاءٍ أخرى من هونان، لم أصدق ذلك. بحثَ صديقٌ لي -وهو متخصص في الفولكلور- في هذا الموضوعَ تحديداً، كما اصطحبني إلى مكانٍ حقّق فيه، وطلبَ من شهودِه واحداً واحداً، أن يصفوا لي حياتهم السابقة، وكنتُ لا أزالُ أجدُ ذلك عصياً على الفهم.

بالطبع، أُصِبتُ بدهشةٍ أكبر حين حدثت هذه القصة لأحد معارفي. بحلول ذلك الوقت في الثمانينيات، كان هناك شابٌ يعملُ في محلٍّ للتوفو في شارع تشانغ لي، ويقامرُ بلعب الورق، حتى أوْشك على خسارة الثورت الذي يرتديه، وأصبحت حياته شديدة الصعوبة. وإذا ذهب إلى منزلٍ معارفه، يوصدون البابَ حالما يرونه، ويلوِّحون له بالرحيل.

اسودّت عيناه لشدة جوعه، ولحسن الحظ، كان هناك شخصٌ طيّب القلب، فتاةٌ تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً تعملُ في حانة السعادة

الذهبية، اسمُها خي دانتزي، استغلَّت غيابَ المدير، وأعطت هذا الشاب خلسةً عدداً من فطائر الباوَتزي، ويوانين. بعد هذا الأمر، تفاخَرَ الشابُ أمام أصدقائه: «أيُّ سحرٍ هذا؟ هذا سحرُ الأخ شينغ!».

اسمه شينغ تشيو، وهو ابنُ سكرتير مكتب الحزب السابق بن يي. لا أدري متى علِمَ مديرُ الحانة بهذا الأمر، بأنَّ خي دانتزي وحدها تساعدُ شينغ تشيو، وأنها تستغلُّ العملَ لإعانتِهِ، وتأخذ أشياءً من الحانة لتقديمِ خدماتٍ للآخرين. حقَّقَ المديرُ بعناية مرَّةً واحدة، ولم يجد نقصاً من نقودٍ أو سلعٍ في المتجر، لكنَّه شعرَ بغرابة هذا الأمر. لماذا يستحق هذا المتشرذُّ العاطلُّ عن العمل، الذي تشمئزُّ منه حتى الكلاب عنايةً خي دانتزي؟ كان عمّاً بعيداً لها، ورأى أنَّه من الضروري استجوابها، لذلك استدعاها.

أحنت خي دانتزي رأسها وبكت.

- لماذا تبكين؟

- إنَّه...

- إنَّه ماذا؟

- إنَّه...

- تكلمي، هل أنتما حبيبان؟

- إنَّه...

- تكلمي!

- إنَّه ابني!

فغَرَ المديرُ فاه، وكادَ كوبٌ من الشاي المغلي أن يحرقَ قدميه.

وهكذا انتشرَ الخبرُ المذهل. قال الناس، إِنَّ خي دانتزي - خي دانتزي التي تعملُ في حانةِ السعادةِ الذهبية، تعرَّفت على ابنها في حياتها السابقة، وهذا يعني أنَّها تناسخُ الشخصيةِ الشهيرةِ في ماتشياو تيه شيانغ، ولولا ضغطُ المدير، لم تكن لتجرؤَ على الحديث. لأيامٍ متتالية، تجمع الناس حول الحانةِ وأشاروا إليها. رأت كوادِرُ مجلسِ البلدة ومركزُ الشرطةِ المحلي أنَّ الأمرَ ليس تافهاً، إلى أين يذهب العالمُ الآن؟ عاد القمار، وعاد البغاء، وعادت السرقةُ وقُطَّاعُ الطرق، حسنٌ، بُعثت الخرافاتُ الإقطاعية، وستعودُ الأشباح، يا لها من جلبة.

أمرَت الكوادِرُ بالكشف عن هُراءِ الأشباح ذاك، وتثقيفِ العامة، واستدعى مركزُ الشرطةِ خي دانتزي لاستجوابها، ما جذبَ عدداً كبيراً من المتطفلين الفضوليين، وانتشرت في المركز رائحةُ العرق لشدةِ الزحام، وفي النهاية لم تُحلَّ القضية، وقرروا إعادتها إلى ماتشياو وإعادةِ استجوابها. بما أنَّها استطاعت التعرفُ على ابنها في حياتها السابقة، ألا تستطيع التعرفُ على أشخاصٍ آخرين من الحياة السابقة؟ وإن لم تستطع التعرفُ عليهم، فلن يكون الأوانُ قد فات على إعادةِ مناقشةِ هرائها المضللِّ لعقولِ الناس.

كنَّا ستةَ أشخاص، وعدا خي دانتزي، رافقنا شرطيان، ونائبُ مدير مجلس البلدة، وكادران فضوليان. كان الطريقُ لا يزالُ بعيداً عن ماتشياو، لذا نزلوا من السيارة وتركوا خاي دانتزي تقودُ الطريقَ أمامهم لمعرفة ما إذا كانت تتذكَّرُ مشاهدَ من حياتها السابقة حقاً. قالت الفتاة، إِنَّها تتذكَّرُ بغموضٍ أشياء من حياتها السابقة، وإنَّها قد تخطئُ الطريق. ولكن بعد

أن سارت مسافة قصيرة، اتجهت مباشرةً إلى ماتشياو، وشعرَ الناسُ خلفها بهلعٍ يُجمِّدُ الدَّم في العروق.

عندما مرَّت بمقلعٍ حجارةٍ في الجبال، توقَّفت فجأةً وبكت. كان المقلعُ مهجوراً، وكانت هناك بقايا من روثِ الماشية الجاف على ركامِ الحصى، وانبثقت الأعشابُ البريةُ مزدهرة، وإن بدت أنَّها سرعانُ ما سيغطيها الركام. سألتها الكوادرُ عن سببِ بكائها، قالت إنَّ زوجها في الحياة السابقة عمل «نَحَّاتَ أحجار»، وإنَّه كان يستخرجُ الأحجارَ من هنا. سرَّت الكوادرُ التي تقصَّت عن المزيد من المعلومات مُسبقاً، لأنَّهم يعلمون أنَّ ما تقوله غيرُ صحيح تماماً.

بعد دخول ماتشياو، تردَّدت قليلاً قائلة لم تكن هنا منازلُ كثيرةٌ من قبل، ولم تستطع التعرفَ عليها.

قال نائبُ المدير بسعادةٍ بالغة: «انكشفَ كذبُك؟ لا يمكنكِ إكمالِ اللعبة بعد الآن؟ تعلَّمتِ خداعَ الناسِ ونسجِ الأكاذيبِ في هذه السن الصغيرة، هل تظنُّيننا أغبياءَ لتخدعينا!..»

اختلفَ شرطيٌّ مع نائبِ المدير، وكان متردداً في العودةِ أدراجه، قال: «بما أنَّها وصلت إلى هنا، فلماذا لا تدعها تحاول مرَّةً أخرى؟ على أيِّ حال، لا يمكنُ فعلُ شيءٍ اليوم».

فكَّر نائبُ المدير في الأمر ونظرَ إلى السماء، لكنَّه لم يعترض. بدا الشخصُ الذي أخبرني بهذه القصة متحمساً للغاية، وذكر أنَّ الجزءَ الغريب فيها حدثَ بعد ذلك. قال: «حالما دخلت خي دانتزي منزلَ بن يي، أصابها مَسٌّ، إذ عدا تصرُّفها - كما لو أنَّه منزلها - كانت

تعرف أيضاً مكانَ برادِ الشاي المعلق، ودلوَ البول، وخزانةَ الأرز، وميّزت بنظرةٍ واحدةٍ أنَّ الرجلَ المسنَّ شَبَّهَ المستلقي على السرير هو بنِ يي. فاضت الدموعُ من عينيها، ونادت باسمِ بنِ يي أخي الكبير، وسقطت على الأرضِ مُستسلمةً، وهي تتحب. كان بنِ يي أشدَّ صمماً، وحاولَ بصعوبةٍ فتحَ عينيه، ورأى المنزلَ الممتلئَ بالغرباء، غيرَ مدركٍ لما يجري، لم يفهم شيئاً إلا عندما جاءت زوجته الثانية من بستان الخضرِوات، وتحدّثت إليه زاعقة ببضع جُمَل. عجز بنِ يي عن تقبُّلِ هذه الطفلة -التي تقف أمامه- الساذجة وعديمة الخبرة كالطفل الرضيع. استدارت عيناه كقطعتين نقديتين قائلاً: «اطلبي نقوداً، أو تسوّلي، لماذا تكونين شبحاً؟ إنّها ليست بالغّة حتّى، كيف يمكن أن تكون شبحاً؟».

بكت خي دانتزي من خوفِها، واصطحبها الناسُ إلى الخارج. جاء الكثيرُ من القرويين لمشاهدة هذه الحادثة العجيبة، وانتقادِ مظهرِ خي دانتزي، ومقارنة كلِّ جزءٍ منها بتيه شيانغ الراحلة. وكان الاستنتاجُ النهائيُّ لمعظمِ الناس هو: كيف يمكن أن تكون هذه تيه شيانغ؟ لقد كانت تيه شيانغ خلابةً وساحرة، أيُّ نوعٍ من مُعجّناتِ الملفوفِ المخلل هذه؟ استمروا في نقاشهم إلى أن جلست الفتاة القرفصاءَ على السُّلم وبدأت في البكاء، ثم فجأةً رفعت رأسها، وسألت سؤالاً صادمًا: «ماذا عن شيو جين؟».

كان الاسمُ غريباً جداً بالنسبةٍ لأهلِ ماتشياو، الذين وقفوا يتبادلون النظراتِ فيما بينهم.

- ماذا عن شيو جين؟

هزّوا رؤوسهم واحداً تلو الآخر، وغيوئهم خاوية.

- هل ماتت شيو جين؟

بدأت الفتاة في البكاء مجدداً.

تذكر رجل مسنٌ فجأةً، وقال أجل أجل، يبدو أن امرأة اسمها شيو جين، من عائلة بن رن، وهي عائلة من القدر نفسها لـ بن يي. هرب بن رن إلى جيانغشي منذ سنوات عديدة ولم يعد أبداً، وتزوجت شيو جين من عائلة دوشون، وهي الزوجة الثالثة الآن، أجل، لا تزال على قيد الحياة. لمعت عينا خي دانتزي.

تطلب الأمر القليل من الجهد حتى فهم الناس أن هذه الفتاة التي أمامهم هي تيه شيانغ، وأنها كانت أخت زوجها لما كانت في فترة الزوجة الثالثة، فلا عجب أن تسأل عنها. قادها أشخاص متحمسون للعثور عليها. قالوا: «تعيش الزوجة الثالثة على منحدر بامبو، تعالي معنا». أومأت خي دانتزي موافقة. تبعتهم عبر سلسلة من التلال، ومرّت عبر غابة من الخيزران، ورأيت إحدى زوايا المنزل.

انطلق الفضوليون بالفعل إلى المنزل الطيني، وكانوا يصرخون ويهتفون، ومروا عبر الغرف الفارغة، واكتشفوا أن لا أحد في المنزل. ذهب أحدهم إلى بركة اللوتس مرة أخرى، وبعد فترة قصيرة تعالي صياحه: «هنا، هنا».

وقرب البركة، كانت المرأة العجوز تغسل الملابس.

ركضت دانتزي بأقصى سرعة، وارتمت أمام العجوز قائلة: «الأخ الكبير شيو جين، الأخ الكبير شيو جين، أنا تيه شيانغ...».

نظرت إليها العجوزُ لأعلى ولأسفل، يساراً ويميناً.

- ألا تعرفينني؟

- أيُّ تيهه شيانغ؟

- حين كنتُ تلك المرأةَ في المستشفى، وجلبتُ لي الماءَ والطعام، وفي مساء اليوم الذي غادرتُ فيه المستشفى، ركعتُ أمامك.

- «أنتِ أنتِ أنتِ أنتِ أنتِ...» أرادت العجوزُ قولَ شيءٍ ما لكنها ظَلَّت صامتة، اختنقت الكلمةُ في حلقِها، وبدأت الدموعُ تلمعُ في عينيها.

لم تقولا شيئاً آخر، بكت الاثنتان كُلُّ منهما في حضنِ الأخرى بمرارة، وكان الناسُ حولهما في حيرة لا يعرفون ماذا يفعلون، ولم يجرؤوا على الاقترابِ منهما، واكتفوا بالنظرِ إليهما من بعيد. سقطَ عمودُ غسيلِ الملابس في الماء ودارَ ببطءٍ في دوائر. كما سقطت مجموعةٌ من الملابسِ المعصورةِ في الماء، انبسطت، ثم غرقت ببطء.

الشعلة

هذه الكلمة مُجَرَّدَةٌ وغمضة، ومن الصعبِ للغاية تعريفُها. إذا قلتَ إنَّك لا تؤمنُ بالأشباح، ولم ترَ شبحاً من قبل، سيصرُّ أهلُ ماتشياو قطعاً أنَّ هذا بسبب «شعلتك» المتقدة.

إذن ما هذه الشعلة؟

إذا لم تكن الإجابة عن هذا السؤالِ يسيرةً، فيمكنُ أيضاً طرحه بطريقةٍ أخرى: أيُّ نوعٍ من الناسِ شعلتهم متقدة؟ سيقول أهلُ ماتشياو: سكانُ المدينة، المتعلمون، الذين حققوا ثروة، الرجال، الناسُ في مقتبلِ العمر، الأشخاصُ الأصحاء، موظفو الدولة، الناسُ في النهار، غيرُ المنكوبين بالكوارثِ والمصاعب، الذين يعيشون قريباً من الطريق العام، الناسُ في الأيامِ المشمسة، الناسُ في السهول، الأشخاصُ الذين لديهم العديد من الأقاربِ والأصدقاء، الناسُ الذي أكلوا للتو حتى الشبع... وبالطبع، الذين لا يؤمنون بالأشباح.

ما ينطوي عليه الأمرُ هنا، يكاد يكونُ مشاكلَ الحياةِ برُمَّتها.

وبتكهنٍ واستنتاجٍ ما يقصدونه، أظنُّ أنَّ الشعلةَ تشيرُ إلى حالةٍ من نوعٍ ما: في المواقف التي يجدُ فيه المرءُ نفسه في وضعٍ ضعيفٍ نسبياً،

تخفَّتْ شعلته، وتنطفئ، وتظهرُ أمامه الأشباح. ربما هذا معنى المقولة الشعبية: «الفقراء أكثر رؤية للأشباح». عدتُ بذاكرتي إلى أمي، التي تلقتُ تعليمًا حديثًا، وعملت مُدرّسة، ولم تؤمن يوماً بالأشباح. في صيف العام ١٩٨١، أُصِبتُ بدُمَلٍ متقيح في ظهرها ومرضت، وكانت تدخل دائماً في شبه غيبوبة، ونتيجةً لذلك رأتُ أشباحاً. كانت تصرخُ برعبٍ في منتصفِ الليل، وترتجفُ وتراجعُ إلى زاوية السرير، قائلةً إنَّ شخصاً وراء الباب، امرأة تُدعى وانغ، شبحاً يريدُ أذيتها، ويريدُ قتلها بسكين. في اللحظة التي حدثَ فيه هذا الأمر، انصرفَ تفكيري إلى كلمة «الشُعلة»، أعتقدُ لأنَّ شعلتها خافتةٌ الآن، ترى أشياء لا يمكنني رؤيتها، وتدخلُ استيهاماتٍ لا أستطيعُ دخولها.

لم تتذكّرُ ما حدثَ لاحقاً.

قوةُ العقلِ بلا شكٍّ واحدةٌ من أهم مقوماتِ الشُعلة، وهي علامةُ القوة في الحياة الواقعية، تدفعُ بالثورة، بالعلم والتنمية الاقتصادية، وأينما امتدّت، تختفي ظلالُ الأشباح، ويتبدّد الهُراء والأكاذيب كالغيوم، ويسود نورُ الشمس. تكمنُ المشكلةُ في أنّه إذا فهمتِ الشُعلة كما يفهمها أهلُ ماتشياو، سيكون الأمرُ نسبياً؛ إن كان القويُّ ضعيفاً في مواجهةِ الأشدَّ قوةً، إذن فطرُدُ الأشباح هدفٌ لا يمكننا التفاوضُ بشأنه. ثمة أوقاتٌ تشبُّهُ قوةُ العقل، ولا تكونُ كافية، أو تتفكّكُ وتنهارُ أمام الواقعِ الصّلب. لا تؤمنُ أمي بالأشباح، لكن حين عجزَ عقلُها عن مواجهةِ دُمَلٍ متقيح، حضرتُ الأشباح. لا يؤمنُ المعاصرونُ بالأشباح أيضاً، لكن حين تعجزُ طاقتُهم العقليةُ عن حلِّ مسائل كال حرب، الفقر، التلوث، واللامبالاة، وعن التخلصِ من القلقِ الثقيلِ الكامن في النفس، سُبِعَتْ الخرافاتُ

والأشباح من كلِّ شكلٍ ولون، حتى في أكثر المدن علميةً وتطوراً في القرن العشرين. حتى أولئك الذين ينكرون بشكلٍ قاطع وجود الأشباح، حتى الأشخاص المعاصرين والمتعلمين تعليماً عالياً، ربما لا يزالون يستخدمون صورَ الأشباح (فكّر من فضلك في الرسم الحديث)، أو يستخدمون أصواتَ الأشباح (فكّر من فضلك في الموسيقى الحديثة)، أو منطقَ الأشباح (فكّر في القصائد أو الروايات السريالية الحديثة)... بمعنى ما، الثقافة الحديثة هي واحدةٌ من أكبر مناطقِ الأشباح في هذا القرن، نسخةٌ أكاديمية ممسوسة بالأرواح والأشباح، تنبع من أفراد المجتمع الذين يملكون شعلةً خافتة: الريفيون، غير المتعلمين، الفقراء، النساء، الأطفال والعجائز، المرضى، المنكوبون بالكوارث والمصائب، مَنْ ليسوا من موظفي الدولة، الذين لديهم عددٌ قليلٌ من الأصدقاء والأقارب، الأشخاص في الليل، الأشخاص في الأيام الماطرة، الذين لا يسكنون في السهول، الجائعون الآن... وأيضاً المؤمنون بالأشباح.

وبالنظر إلى السَّير الذاتية لكلِّ كاتبٍ وفنانٍ معاصرٍ مهم، ليس من الصعب اكتشاف أنَّ ذوي الشُّعلة الخافتة الذين ذكَّرتهم في الأعلى، يملكون أطيافهم وعيونهم اللامعة.

أنا شخصٌ لا يؤمنُ بالأشباح، كثيراً ما أقولُ إنَّ الأشباح التي اكتشفها أهل ماتشياو، بما في ذلك الأشباح من أماكن أخرى، لا يمكنها التحدُّث إلا بلهجة ماتشياو، لا تتحدَّث الماندرين، فضلاً عن اللغة الانجليزية أو الفرنسية، أي أنَّها ليست خارج نطاق معرفة مكتشفيها، وهذا يعطيني سبباً للاعتقاد بأنَّ الأشباح من صُنْع الناس بأنفسهم. ربما تكون الأشباح مجردَ هلوسة، تخیلاتٍ، تنشأ حين تكون أجسادُ الناس

ضعيفة (مثل والدتي). أو أرواحهم ضعيفة (مثل الحداثيين اليائسين). وعلى غرار ما يحدث بعد أن يحلم الناس، ويشملون ويتعاطون المخدرات. مواجهة الأشباح، هي في الواقع، مواجهة ضَعِيفنا.

هذه إحدى طرائق فهم الشعلة.

لذلك، أشك بأن ما يُعرفُ بقصة خي دانتزي لم تحدث أبداً بين أهل ماتشياو (انظر مدخل «القريبُ الشبح»)، وبأنه لم يحدث أبداً تناسخ لتيه شيانغ. حين عدتُ إلى ماتشياو، أنكر فوتشا تماماً حقيقة القصة ووصفها بأنها خادعةٌ وعشبية. صدقتُ كلامَ فوتشا. بالطبع، لا أشك في أن أولئك الذين يزعمون أنهم شاهدوا خي دانتزي بأعينهم يخدعونني عن عمد، لا، ربما ليسوا بحاجةٍ إلى ذلك، لقد رأيتُ أن القصة تثير الريبة والشك بسبب أوصافهم السردية المتفرقة والمتناقضة. حاولتُ ذات مرة تحري القصة حتى نهايتها: أين خي دانتزي الآن؟ هل ستأتي إلى ماتشياو؟ أجابوا متلعثمين، فقال البعض إنها تناولت الشبوط الأحمر، ومن يأكل هذا النوع من السمك ربما لا يتذكرُ أشياء من حياته الماضية، ولا يعود مجدداً. وقال آخرون، إن خي دانتزي تبعت عمَّها إلى مدينة ساحلية في الجنوب لكسب المال، واختفت. وقال آخرون إنها تخافُ بن يي، ومعنى هذا: أنها لا تملك الشجاعة أو تقدير الذات للعودة، وهكذا وهكذا.

لم يكن ثمة نهاية محددة.

بالطبع لا داعي لنهاية محددة لأقارن كل نسخة بنفسِي. ليس لدي أدنى شك في أن القصة كلها مجردُ نتاجٍ لشعلتهم الخافتة، تخيلٌ مشترك، تماماً مثل كل ما رأيته والدتي حين اشتد مرضها.

حين يأملُ الناسُ في رؤية شيءٍ ما، فإنَّ هذا الشيء يظهرُ دائماً في أحدِ الأيام! يمكنُ تحقيقُ ذلك عبرَ وسيلتين: في أوقاتِ الشعلةِ المتقدمة، يستخدمون الثورة، العلمَ والتنمية الاقتصادية، وفي أوقاتِ الشعلةِ الخافتة، يستخدمون الأوهام.

لا يمكنُ أن يتشابه الناس. إن لم أتمكن من إثارة شعلةِ معظم الناس في ماتشياو، فأعتقدُ أنَّه ليس لدي سببٌ لحرمانهم من حقِّهم في الحلم، ليس لدي أيُّ سببٍ لمنعهم من تخيُّلِ تبيهِ شيانغ عائدةً إلى ماتشياو، وأنَّها تجاوزت الحدَّ الفاصلَ بين الحياةِ والموت، وتبكي بين أحضانِ أختِ زوجها قربَ بركةِ اللوتس.

أَبُ الْوَرْدَةِ الْحَمراء

الْعَمُّ لُوهُ من خارج قرية ماتشياو، اشتغلَ أجيراً سنوياً قبل حملة إصلاح الأراضي، ثم تولى منصبَ عمدة القرية لسنوات، ويُعدُّ أحدَ كوادِر ماتشياو المخضّرة. اقترحَ عليه الآخرون الزواج، لكنّه كان يرفضُ كلَّ مرّة، عاشَ حياته أعزب. إذا شبع، لا يكون أحدٌ من أفراد أسرته جائعاً، وإذا كان يعمل، يتصبّب الجميعُ عرقاً. كان الناسُ بين حينٍ وآخر يطلقون عليه «أَبُ الْوَرْدَةِ الْحَمراء»، والوردَةُ الحمراء تعني العذرية.

اكتشف الناسُ لاحقاً أنَّ سببَ عزوفه عن الزواج، ليس افتقاره إلى المال، بل لأنّه يتجنّبُ النساءَ بطبيعته ويخافهن، وكلّما صادفَ امرأةً بذلَ أقصى جهده ليتخذَ طريقاً آخر، ولا تجده في أيِّ مكانٍ تتجمّع فيه النساء. كان أنفه حسّاساً وغريباً، يشمُّ رائحةً نتنة تنبعثُ منهن، ويرى أنَّ السببَ الوحيدَ لوضعِ النساءِ البودرة هو إخفاءُ هذه الرائحة، لا سيما في الربيع، وخاصةً النساء اللواتي يتجاوزن سنَّ الثلاثين، تكونُ الرائحةُ النتنة أشدَّ، وممزوجةً برائحةٍ يقطينٍ فاسد، تنتشرُ لمسافةٍ طويلة، فيشعرُ بالدُّوارِ حين تلامسُ أنفه، وإن استمرَّ لساعةٍ في هذه الرائحة، فستقضي

عليه، إذ سيَصْفَرُ وجهه، وتتعَرَّقُ جبهته بعرق بارد، وربما سيتقيأ دون توقُّف.

كان واثقاً من أنَّ هذه الرائحة الزَّيخَة هي التي أفسدت ثماره. خلف منزله شجرتا خوخ، تفتتحُ أزهارهما بوفرةٍ كلَّ عام، لكنَّهما لا تثمران، وإنَّ أثمرتا تتعفنُ ثمارُهما وتتساقط. قال البعضُ إنَّ هاتين الشجرتين معتلتان، هزَّ رأسه قائلاً: «هؤلاء النساءُ المنحطَّاتُ وتصرفاتهنَّ الجاحمةُ كلَّ عامٍ تجعلني مريضاً، فكيف للأشجارِ أن تتحمَّلَ؟».

وكان يشيرُ إلى بستانِ أشجارِ شايٍ قريبٍ من الشجرتين، حيث تأتي النساءُ كلَّ عامٍ لقطعِ الشاي ويضحكن ويثرن صخباً، لذا سيكونُ من الغريبِ ألا تتعفنُ ثمارُ الخوخ.

لم يصدِّق البعضُ كلامه، ورجبوا في اختبارِ إن كان أنفه مختلفاً عن أنوفِ الآخرين، وهل تحملُ حقاً هذه الكراهيةَ الشديدة، لذلك سرقوا ذاتَ مرَّةٍ بعد الانتهاء من العملِ معطفَه المصنوع من سعف النخيل، وجعلوا النساءَ يجلسن عليه ثم أعادوه حيث كان، وانتظروا ليراو كيف سيتصرَّف لاحقاً. ما أدهشَ الناسَ، أنَّه حالما التقطَ المعطفَ، جعدَ أنفه مرتين، وتجهَّم وجهه على الفور:

- ما هذا الفعلُ المنحط، منحطون، من لمسَ معطفي؟

تظاهر الرجالُ الموجودون بأنَّهم لا يعرفون، وتبادلوا النظرات.

- «هل أسأتُ إليكم من قبل؟ هل ظلمتكم من قبل لتسببوا لي هذا الأذى؟». ضرب الأرضَ بقدمه ووجهه مبلَّلٌ بالدموع، وكان في ذروة غضبه.

أما الذي سرق المعطف فقد خاف ولاذ بالفرار.

ترك العمُّ لَوْه المعطف، وعاد إلى المنزلِ لاهثاً. أراد فوتشا تهدئة الوضع، فأخذ المعطفَ وغسله في البركة، وأوصله لعمدة القرية، لكنَّ العمدة لم يرتدِ هذا المعطفَ مُطلقاً في الأيام التي تلت ذلك، ويُقال إنَّه أحرقه.

لم يجرؤ الناسُ بعدها على المزاحِ معه بهذه الطريقة مجدداً. إن دعوته لتناول العشاء، فلا يمكن أن تدعو أيَّ ضيفٍ من النساءِ على الطاولة، ولا يمكنك تعليق ملابسهن على مقربةٍ منه. عند تخصيص مهام العمل له، يجبُ الانتباهُ أيضاً إلى عدم إرسال النساءِ برفقته. طلب منه بن يي ذات مرَّة أن يأخذ الجرَّارَ التابعَ للكومونة ويذهب إلى المحافظة لشراء بذور القطن. أمضى يومين، وحين عاد قال إنَّه شعرَ بالألم في قدميه فجأة أثناء مشيه، لذا فوَّت الجرَّار، واضطرَّ إلى العودة ماشياً، واستغرق زمناً. في وقتٍ لاحق، صادفَ أهلُ القرية سائقَ الجرَّار، وعرفوا أنَّ العمَّ لَوْه فوَّته بالفعل، لأنَّ بضعَ نساءٍ ركبن الجرَّار، فرفض الصعود، وفضَّل المشي، لا يُلامُ إلاَّه.

سار ببطءٍ شديدٍ من المحافظة إلى ماتشياو، واستغرقت مسافةُ ثلاثين لي يوماً كاملاً. ليس هذا فقط، كان بطيئاً في فعلٍ أيِّ شيء، وليس في عجلةٍ من أمره، كأنَّه يعلمُ أنَّ ثمةَ أياماً بعد الأيام، وأنَّ أياماً ستأتي بعد تلك الأيام، لم تكن هناك حاجةٌ لتصريفِ إفطارِك بمجرد تناوله. كان الشبابُ يحبُّون العملَ معه، وكانوا يقضون أياماً أكثرَ استرخاءً ومتعة. في أحد الأيام، ذهب الشبابُ معه إلى قمة تيان تزي لإصلاح الجسر المائي فوق الجبال، كان الجو شديد البرودة، والأرضُ مغطاةً بقشور الجليد،

ورغم أن أقدامهم ملفوفةٌ بحبالِ القش، فقد كانوا ينزلقون في خطواتهم ويسقطون، وترتفعُ أصواتُ صياحهم وضحكاتهم وتحفت. حين وصلَ الجميعُ بخوفٍ إلى موقعِ العمل، ورأوا أن الكوادرَ لم تصل، وأنَّ العمَّ لُوهُ هو الوحيدُ الذي يملكُ حقَّ التعبير، ترجَّوه أن يوافقَ على الانتظار، على الأقل حتى تشرق الشمس ويذوب الثلج ليبدأوا في العمل. أخرج العمُّ لُوهُ التبغَ من حقييته القماشية بعيونٍ ناعسة وقال: «مَن قال خلافَ ذلك؟ كيف يُسحبُ الجميعُ من تحت الحفَّتِهم في يومٍ باردٍ كهذا، كما لو كنت ستدفنُ والديك؟» رغم عدم وضوح كلماته، فإنَّ المعنى كان مفهوماً. تفرَّقَ الجميعُ بسعادة، باحثين عن الدفء وعن مأوى للاختباء من الرياح. عثرَ العمُّ لُوهُ من مكانٍ ما على القليل من الأغصانِ الجافة والأوراقِ الداوية، وأشعلَ ناراً وجلس القرفصاء، جاذباً الكثيرَ من الشبابِ حوله.

- «ربما تريدون جلبَ دلوين من الفحم.. ها؟ أو ربما تجهيزُ مواقدَ عدَّة؟» سئلَ بنُ يي، ثم ألقى هاتين الجملتين الافتتاحيتين المُبهمَتَيْن، اللتين جعلتا الجميعَ يقفزُ من الخوف، لم يعلم أحدٌ من أين ظهر حاملاً عمودَ قياسٍ من الخيزران.

ردَّ العمُّ لُوهُ بهدوءٍ وحرصانة، وعيناه لَزَقَتان^(١): «الطريقُ زَلِقٌ ولا يمكن السيرُ بثبات، كيف لك أن تحملَ عصا حَمْلٍ؟ ألا ترى؟ حتى الكلاب لا يمكنها السيرُ في يومٍ كهذا».

- «أجل، أجل». وافقَ الجميعُ على كلامه.

(١) العَيْنُ اللَّزِقَةُ هي العينُ التي تُنْفِرُ عماصاً نتيجةَ التهابٍ أو شيخوخة.

- «جيد!» ابتسم بن يي ابتسامة فاترة قائلاً: «أنا هنا لأطلب منكم النوم، يمكن لأعضاء الحزب والميليشيات الشعبية أخذ زمام المبادرة وهم نائمون، يمكن للفقراء ومتوسطي الحال من الفلاحين التغلب على الصعوبات بالنوم، علينا أن ننام ليس كظاهرة فقط، بل كجوهر أيضاً، هل تعرفون ما هو النوم؟».

كان يستخدم الفلسفة الماركسية^(١) التي درسها للتو. انتهى من كلامه وخلع سترته المبطنة، وثنى كُمّيه، وبصق في كفه، ورفع قالباً من الطوب، واتجه صوب الجسر المائي. كان قوياً للغاية، وأداؤه مثيراً للإعجاب. تفرّج الجميع بحرّج، وحين رأوا بعض الناس تتحرك، تركوا زواياهم الدافئة على مضض، واستجمعوا قواهم في مواجهة الرياح القارسة.

كظم العمّ لُوه غيظه وأنهى سيجارته، ثم حمل قالب طوب مُغمماً وهو يتبع بن يي، ثم حدث ما هو غير متوقع: ما إن مشى صوب الجسر المائي، حتى صدرت عن بن يي صرخة حادة، وترنّح جسده، وتراخت ساقاه، وحين هوى على الجانب الزلق، بدا كأنه يهوي على الحافة، وأنه سيسقط في الوادي الجبلي حيث تندفع المياه ويتصاعد الهواء البارد. خفقت قلوب الجميع بشدة. وقبل أن يروا خطورة الموقف بوضوح، تصرف العمّ لُوه بسرعة بديهية، فصاح وألقى قالب الطوب عن كتفه، ثم اندفع إلى الأمام، لم يستطع إمساك جسده، بل أمسك قدماً فقط.

لحسن الحظ استقرّت ساق العمّ لُوه خلف عارضة فولاذية في القناة، فاستند عليها وسحب جسد بن يي الثقيل على الجليد إلى حافة الجسر وتوقف.

(١) يقصد الكاتب «تأمل الظاهرة لإدراك الجوهر».

لم يُسمِعْ صراخُ بنِ بي مطلقاً، تلاشى في تيارِ هواءِ الوادي، كأنَّه
طينٌ بعوضٍ يأتي من مكانٍ بعيدٍ جداً في أعماقِ الوادي.

- «ماذا... تقول؟» كلُّ ما رآه العمُّ لُوهُ هو قدَّم تركلُ هنا وهناك.

- ارفعني بسرعة، أسرع قليلاً...

- «لا داعي للعجلة». كان العمُّ لُوهُ يلهثُ أيضاً. «أنتَ من درسَ

الفلسفة، أخبرني، هل طقسٌ مثل هذا ظاهرةٌ أم جوهر؟».

- أسرع قليلاً.

- لا داعي للعجلة، الجو لطيف، وبوسعنا الدردشة.

- آآه...

كان بضعةُ شبابٍ قد اقتربوا من الموقع، منهم من شدَّ الحبل، منهم
من مدَّ يديه، إلى أن استطاعوا بصعوبة وبحذرٍ إنقاذَ سكرتيرِ مكتب
الحزبِ المعلق أسفل القناة.

بعد أن عاد بنِ بي إلى الأعلى، كان وجهه محمراً، ولم يعد فخوراً ولا
فيلسوفاً، وكان عليه الاتكاءُ على أحدٍ أثناء نزوله من القناة بخطواتٍ
حذرة وصغيرة. عاد إلى القرية، وقطَعَ جين من اللحم، ودعا العمَّ لُوهُ
لشربِ النبيذ، وشكره على إنقاذِ حياته.

من وقتئذٍ فصاعداً، كان بوسع بنِ بي توبيخُ أيِّ شخصٍ في
ماتشياو، عدا العمَّ لُوهُ. كلما كان لدى بنِ بي نبيذ جيد، أخذه إلى كوخ
العمِّ لُوهُ المسقوف بالقش، ودعاه لشربِ القليل. قال آخرون، إنَّ تبيه
شيانغ كانت تتشاجرُ مع بنِ بي كلَّ يومين أو ثلاثة، وكان أحدُ الأسباب
هو أنَّ بنِ بي يمكثُ دائماً في منزلِ العمِّ لُوهُ. لم يشربا أو يدرشا فحسب،

بل فعلا بعض الأمور التي رآها الناس غير مفهومة، مثل الاستحمام معاً، والاختباء في الناموسية معاً، فيعلو صرير السرير تحت الضغط، ولم يدرِ أحدٌ ماذا كان يفعلانه بالضبط، ألا يستطيعان النوم تحت اللحاف ذاته، طالما هما أخوان من القدر ذاتها؟ في إحدى المرات ذهب أحدهم إلى بستانِ العمِّ لُوهُ خلف المنزل ليسرقَ براعمَ البامبو، واختلسَ النظرَ عبر ثقبٍ في ورق النافذة، وكانت مفاجأةً كبيرة: لم يكن أيُّ منهما ملتصقاً^(١) بمؤخرة الآخر، أليس كذلك؟

وهذا يشيرُ إلى الأفعالِ الشاذة بين الرجال.

لا يولي أهلُ ماتشياو اهتماماً كبيراً لهذه الأمور، فهي تحدثُ أيضاً بين الناس في بلدة تجانغ جيا فانغ، وكان هناك القليلُ من آباءِ الورودِ الحمراء وأعمامِ الورودِ الحمراء الذي يقومون بهذه الأشياء، لم يكن أمراً نادراً الحدوث. وكذلك حين يرونه مشغولاً طيلة اليوم وبوجهٍ متجهّم، لا يجروُ أحدٌ على الاستفسارِ عن الأمر، لذلك لم تكن هناك طريقةٌ لإثباته.

(١) انظر مدخل «لاصق، يلتصق».

الرجل المُسن (والخ)

لا بد أن تنطق كلمة «الرجل المُسن 老人 len»، فينطق المقطع الأول بصوت ساكن استهلاكي والمقطع الثاني بحرف صوتي^(١).

ليس لهذه الكلمة معنى حقيقي، إنَّها مجرد كلمة بسيطة، يمكن استخدامها للإشارة إلى كبار السن، الشباب وحتى الأطفال، وإذا أفرطت في استخدامها، تفقد معناها المهذب تدريجياً، وتصبح كالسعال أو التثاؤب بين الكلمات وتختفي بينها، ولن يلحظها من اعتادت أذناه على سماعها، ولا ينتبه إليها، أو يشعر بوجودها. على سبيل المثال، قد يسأل أحدهم ما إذا كانت تعاونية التوريد والتسويق قد ذبحت خنزيراً، سيكون الجواب: «ذُبِحَ أيها الرجل المُسن». أو مرةً أخرى: هل اشتريت أيَّ لحوم؟ سيكون الجواب: «اشتريتُ أيها الرجل المُسن». لا بُدَّ على المستمع هنا أن يتجاهل عبارة «أيها الرجل المُسن» وأن يلغيها في أيَّ وقت، وإلا ستكون مزعجة.

(١) مصطلح صوتي صيني يشير إلى أجزاء من المقاطع الصينية عدا الحرف الساكن والنغمة الأولية.

صادفَ العمُّ لَوْه ذاتَ مرَّةٍ فتاةً من الشبابِ المتعلِّمِ في الطريقِ تحملُ شتلاتِ الأرز، فحياها بابتسامةٍ وقال: «هل تحملُ الشتلاتِ أيها الرجلُ المسن؟» كانت الفتاة قد وصلت لتَوَّها إلى ماتشياو، ولم تكن حسنة المظهر كذلك، فلم يسعها إلَّا أن تغادرَ بغضبٍ عارم، وأخبرت الآخرين لاحقاً: «أليس هذا الرجلُ الهرمُ وقحاً للغاية؟ فقط لأنَّ بشرتي سمراءُ قليلاً، لا يعني أنني رجلٌ مُسن، أليس كذلك؟ لا أبدو أكبرَ منه، أليس كذلك؟».

هذه نتيجةُ أنَّ الغرباءَ ليسوا معتادين على عباراتِ ماتشياو المجازية، كما تُظهر أنَّ الشبابَ المتعلِّمَ لم يفهمَ تقليدَ تقديرِ كبارِ السن وازدراءِ الأصغرِ سنّاً الساري في ماتشياو؛ كان من المجاملةِ أن تُنادى بالمُسن، وفي الحقيقة كان نوعاً من الإطراء.

سيُظهرُ الفحصُ الدقيق، أنَّ توزيعَ اللغةِ ونموّها ليسا متساويين. ثمة أفعالٌ تفتقرُ إلى الكلمات، وأقوالٌ تنقصُها الأفعال، لطالما كان هذا الاضطرابُ وعدمُ التوازنِ ماثلاً، إنَّه يشبه الذين يموتون في حالاتِ الجفاف، بينما يموتُ آخرون في الفيضانات، والجميعُ يعيشُ في العالمِ نفسه. حين تكون مياهُ الفيضاناتِ شديدة، ستتفجُّ الكلماتُ الحسنةُ وتتشوّه، حتى لو انحسرت المياه، سيظلُّ أثرُ فيضاناتٍ في كلِّ مكان. حين يزورُ الأجانبُ اليابان، لا يمكنُ إلَّا يلاحظوا بعضَ الكلماتِ الزائدةِ عن الحاجةِ والتي تُدعى «كلماتِ المجاملة». إذا امتدح اليابانيون منتجاتك وأشادوا بخطتك، ولم يناقشوا خطواتِ تعاونٍ محدَّدةٍ معك، يجبُ إلَّا تأخذ الأمرَ على محملِ الجدِّ، وألَّا تجلسَ في المنزلِ ببلاهةٍ مُنتظراً أن يطلبَ الطرفُ الآخرُ طلبية. على الأجانبِ توخِّي الحذرَ كذلك عند

السفر إلى باريس؛ إذا دعاك شخصٌ ما إلى منزله، فمهما كان متحمساً، مهما ربتَ على كتفك وصافحك، أو حتى احتضنك، ولم يعطِكَ عنوانه المحدد ولم يتفق معك على موعدٍ محدد، فعليك أن تُنحِّي الأمرَ بابتسامة، وتُعَدُّ الأمرَ ضرباً من اللطفِ الاجتماعي، ووعداً زائفاً وشائعاً للمودة، وعليك تجاهله. والأكثر، لا ينبغي الاتصال والسؤال: «متى أزورك؟».

لا يمكن القول إنَّ اليابانيين والفرنسيين تحديداً منافقون، فالصينيون لديهم قدرةٌ عاليةٌ على تخريجِ كلماتٍ دون أفعال. ولفترةٍ طويلة، كانت العباراتُ في لهجةٍ ماتشياو مثل «الجماهيرُ الثورية»، «أوضاع البلاد تتحسن، وتصبح أفضل وأفضل»، «تحت القيادة الحكيمة وعناية السلطة العليا»، «نتحدث عمّا في قلوبنا»، «زيادةٌ تحسّن المجال الأيديولوجي إلى حدٍّ كبير»، «لا تسحبُ قواتِ الجيشِ دون نصر»، ونحو ذلك، أمراً لا ينبغي أخذه على محملِ الجد.

مات العمُّ لوه، عمدةُ القرية المسن، كان فلاحاً فقيراً، وركيزةً من ركائز الإصلاح الزراعي، وجندياً قديماً في الحرس الأحمر بشكلٍ ما غامض، بالطبع كان يجبُ أن يحظى بجنازةٍ لائقة. قال بن بي بأسى في قاعةٍ مراسِم التابن نيابةً عن مكتب الحزب: «يرفعُ القردُ الذهبي هراوةً ثقيلة، ينفُضُ الغبارَ عن العالم، تغرق المحيطاتُ الأربعة، تهدرُ الغيومُ والأمطار، تتزلزلُ القاراتُ الخمس، تزاوُّ الرياحُ والرعد، في صعودٍ موجةٍ دراسة فلسفة ماوتسي تونغ وفكره بين الناس في المحافظة بأكملها، في ظلِّ الظروفِ الممتازة للإنتاج الوطني الثوري، تحت القيادة الحكيمة والعناية الطيبة من التنظيم الحزبي على مستوى أعلى، في ظل تنفيذ كتيبتنا بشكل كامل لسلسلة من الخطط الإستراتيجية

من اجتماعات ممثلي حزب الكومونة، عَضَّ كَلْبٌ مسعورٌ رفيقنا لُوهُ
يو شينغ...». عبس كادرٌ شابٌ من مكتب الشؤون المدنية للمحافظة
وسخرَ من بنِ يي قائلاً: «ما الذي تقوله؟ ما علاقةُ هذا بالقيادةِ الحكيمةِ
للرئيس؟» طَرَفَ بنِ يي بعينه وردَّ بتعجب: «هل قلتُ الرئيس؟ قلتُ
للتو كَلْبٌ مسعور». قال كادر مكتب الشؤون المدنية: «قبل ذلك؟
ماذا قلتَ قبل ذلك؟» ردَّ بنِ يي: «لم أقل شيئاً، كلُّه ثناء، ألا يجب أن
أقوله؟».

في البداية، أحدثَ كادرُ مكتب الشؤون المدنية بلبلةً في مراسم
التأبين، إذ لم يكن بنِ يي غاضباً قليلاً فحسب، بل شعرَ الحاضرون
أيضاً بخيبة أملٍ كبيرة. أرى أنَّهم لا يفهمون اختلافَ وقعِ الكلامِ على
أسماعِ الناس. ولفترةٍ طويلة، كان يمكن تطبيقُ كلامِ بنِ يي الذي سبق
«الكلب المسعور» على أيِّ شيءٍ مثل بناءِ خزاناتِ المياه، جمعِ السجاد،
قطعِ الأخشاب، محاربةِ مُلَّاكِ الأراضي، وبناءِ المدارس. وكلِّما شاعَ
استخدامُها صَمَّ الناسُ آذانهم عنها، فتصبحُ خفيَّةً كلياً ولا يسمعونها إلا
الغرباء. كان هذا الغريبُ أصغرَ من أن يفهمَ قدرةَ اللغةِ على خلقِ ازدهارٍ
لفظيٍّ للمبالغةِ والتناقضِ والانفصالِ عن الواقع.

ونظراً لكونها نوعاً من التمويه اللغوي والكلماتِ الزائدة عن
الحاجة، فإنَّ الكثيرَ من الكلماتِ الزائفةِ كالكلماتِ المهذَّبةِ، لا يمكنُ
تنقيتها ودفنها بمرورِ الزمن. في ظلِّ ظروفٍ معينة، قد تتكاثرُ وتتوسَّعُ
فجأةً بأعدادٍ كبيرة، كنوعٍ من تضخيمِ اللغةِ للفضائلِ البشرية، أو بمعنى
آخر، كنوعٍ من الجراحةِ التجميليةِ اللغويةِ للتسرُّرِ على الحقيقةِ القاسيةِ
للشعر.

الحِكمةُ هي القدرةُ على استخدامِ الهُراءِ، أو بمعنى آخر، إنها نوعٌ من الوظائفِ التي يطورها الكثيرُ من الهُراءِ الأخلاقي والسياسي في العالم.

أشاد كاتبٌ أجنبيٌّ في السابق باللغةِ السوقيةِ قائلاً: «إنَّها ليست أقوى لغةٍ فحسب، بل إنها أيضاً أهمُّ كنزٍ للغة». بالطبع، هذا التعليقُ مبالغٌ فيه قليلاً، وإذا كان بوسعي التعاطفُ مع هذا الكاتب من زاويةٍ معينة، فهناك سببٌ واحد فقط: وُجدَ هذا الكاتبُ في أرقى البلدان، وكونه صُدمَ إلى هذا الحد، فيجبُ إرجاعُ ذلك إلى تعرُّضه للقمعِ فترةً طويلةً من هُراءِ كثيرٍ لا يُضاهي من الرُّقي والودِّ والادعاءِ بتعامله مع الآخرين، ما أدَّى في نوبةٍ غضبٍ إلى سيلٍ من الألفاظِ النابية. لا بُدَّ أنَّه كان يَحْتَنقُ تحت وطأة زيفِ اللغة، ولم يستطع منعَ نفسه من بصقِ القذارة، تماماً مثل خلعِ السراويل عن الجميع، والسماح لهم برؤيةِ شَرِّجِ اللغة. فتحةُ الشرجِ مثل الأنفِ والأذنِ واليد، لا يهَمُّ ما إذا كانت تبدو جيدةً أم لا، فلم تكن جميلةً أو قبيحةً منذ البداية؛ فقط في العالمِ المُتخَمِ بالزيف، تصبحُ فتحةُ الشرجِ المنفذُ الأخيرُ إلى الحقيقة، ومعسكراً للمتمردين لتخزينِ الحيوية وحفظِها. لذلك لم يكن من الصعبِ علينا أن نفهم، أنَّه بعد انتهاءِ بن يي من مراسمِ التَّأبينِ في الريف، وحالما خرجَ في الظلام، لم يستطع منعَ نفسه من الصراخِ والسباب:

- سأفسقُ بأَمِّك.

تعثَّرَ بحجرٍ وكادَ أن يوبَّخه.

بعد أن انتهى من السباب، شعرَ أنَّ الدم يتدفقُ سَلِساً في جسده.

طعام (كما يُستخدم في الربيع)

لا يشعرُ الناسُ مع حلولِ الربيع، أنَّ هذا موسمٌ تغيَّرَ اللغة. جاء أحدُ أبناءِ أخ العمِّ لُوِه لاستخراجِ الفحم، وعندما وصلَ إلى منزله، قال العمُّ على الفور: «هل أكلت؟».

و«أكل - 吃饭 - rúfàn» تعني تناولُ الطعام، استخدمَ القدماءُ كلمة «吃» في مقولة «يأكلُ اللحمَ النيءَ ويشربُ الدم» لوصفِ المعنى ذاته. كان من تقاليدِ أهل ماتشياو أن يسألَ الشخصَ الآخرَ إن تناولَ الطعامَ أم لا، وهو نوعٌ من الهدر اللغوي، أي عموماً، عُرِفَ لا يؤخذُ على محملِ الجَدِّ.

الإجابةُ على السؤال، والتي لا تؤخذُ على محملِ الجَدِّ كذلك ينبغي أن تكون: «أكلت»، ولا سيما في فصلِ الربيع، حين يشعرُ معظمُ الناسِ بالجوعِ إلى حدٍّ أن أقدامهم تكونُ ضعيفةً ورُكبتهم باردة.

لم يتوقع العمُّ لُوِه أن ابنَ أخيه سيكونُ أبلهَ قليلاً، ويردُّ بإصرار: «لا لم أتناول الطعام»، وتركَ العمِّ مذهولاً وفي حيرةٍ من أمره للحظات. سأله: «ألم تتناول الطعامَ حقاً؟» فردَّ الشاب: «حقاً لم أتناول». رمشَ العمُّ لُوِه بعينه وقال: «أخبرني بحق، إن أكلت قلَّ إنك أكلت، وإن

لم تأكل قُلْ إِنَّكَ لم تأكل، فهل أكلت حقاً أم لا؟» ردَّ الشابُّ ووجهه ينضجُ بالبؤس: «حقاً لم أتناول الطعام». قال العمُّ لُوهُ وبدا منزعجاً: «أنا أعرفك، لم تكن صادقاً يوماً. إن أكلت تقولُ لم تأكل، وإن لم تأكل تقولُ أكلت، ما هذه الألاعيب! إن لم تأكلُ حقاً، سأطهو لك، الحطب جاهز، والأرز كذلك، بشعلة وسيطهي، وإلا سيكونُ من السهلِ جداً استعارهُ صحنٍ من الآخرين، لا تستحي!» أربكت هذه الكلماتُ الشابَّ إلى حدِّ أنَّه لم يفهم كيف كان كيِّساً، وتعرَّق من فرط الإحراج وردَّ: «أنا... حقاً...» ردَّ العمُّ لُوهُ بنبرة تهديد: «أنت أنت، عليك أن تتزوج، ما زلتَ تتلعثمُ في حديثك، لا تحجل، ولا تتلعثم، أخبرني ما شئت. تصرَّف هنا كأنَّك في منزلك، وليس كغريب، إن أكلت أخبرني أنَّك أكلت، وإن لم تأكل أخبرني أنَّك لم تأكل».

لم يعد الشابُّ قادراً على المقاومة، وأصبح محاصراً، فلم يسعه إلا الردُّ مكرهاً: «لقد... أكلت...».

ضرب العمُّ لُوهُ على فخذه بحماس وقال: «كنتُ أعلم! عرفتُ على الفور، أليس كذلك؟ أنت تخدعني، اقتربتُ من الستين، ولم تقلْ أمامي كلمةً صادقةً أبداً، يا لك من شرير، اجلس».

ثم أشارَ إلى مقعدٍ قربَ عتبة الباب.

أحنى الشابُّ رأسه ولم يجرؤ على الجلوس، فشرب كوباً من الماء البارد، وحمل الفحمَ وغادر. طلبَ منه العمُّ لُوهُ أن يستريح قليلاً، لكنَّ الشابَّ همسَ قائلاً: «سيأخر الوقت».

قال العمُّ لُوهُ: «غَيِّرْ صندلكِ إذن، لأنَّه بال».

ردَّ ابنُ أخيه قائلاً: «إِنَّ الصنادلَ الجديدةَ تؤلمُ قدميَّ، لن أُغيرَ صندلي».

بعد مرورِ فترةٍ قصيرة، وأثناء عبورِ ابنِ أخيه بنهرِ لُوه، نزلَ للاستحمامِ وغرق بسببِ عدمِ حذره. لم يكن للعمُّ لُوه أبناء، وكان يشاركُ في العنايةِ بذريةِ أخيه الذي يعيش بعيداً، وعلى الأرجح خشي أخوه وزوجته أن يحزن، وأن يلومَ نفسه، فأخفوا عنه الأمرَ قائلين إنه عثرَ على عملٍ في المدينة، وغادرَ سريعاً، ولم يتسنَّ له الوقتُ لوداعه. لذا، ولفترةٍ طويلةٍ كان العمُّ لُوه يذكرُ ابنَ أخيه بين حينٍ وآخر مبتسماً. حين يطلبُ منه أحدهم استعارةَ حطب، يقول إنه يحتفظُ بالحطب من أجل ابن أخيه ليصنعَ سريراً لزوجته: «ابنُ أخي يأكل حبوب البلد الآن، ويعرفُ كلَّ شيءٍ عن أمورِ المدينة الأجنبية، عليه أن يطلبَ من نجارِ المدينة صنْعَ سريره الجديد». حين يشتري شخصٌ دجاجةً جبليةً له، كان يتسمُّ قائلاً: «جيد، جيد» ويدخنُها على النار، ويحتفظُ بها حتى يأتي ابنُ أخيه ليأكلها.

وبمرورِ الأيام، انتشرت الشائعاتُ في ماتشياو شيئاً فشيئاً، وعرفَ الجميعُ أن ابنَ أخيه توفى. وشكَّوا فيما إذا كان العمُّ لُوه لا يعرفُ شيئاً حقاً. كانوا يسدّدون إليه نظراتهم كلما ذكرَ ابنَ أخيه. بدا كأنه أحسَّ بشيءٍ ما من نظراتهم، وللحظةٍ باغته إدراكُ قاسٍ، وارتبك كأنه أراد فعلَ شيءٍ ونسيه فجأةً.

وكلّما انتظره الناسُ ليصحَّحَ كلامه، تمسَّك بعناده، حتى أنّه لم يتحمَّل أن يُعِدَّ الناسُ ابنَ أخيه موضوعاً محظوراً، ولا بُدَّ من تجنبه بحذر. حين يرى أبناء الآخرين، يتفوّه بجملةٍ أحياناً، وبصورةٍ مفاجئة:

- يكبرُ الأطفالُ بسرعة، ابنُ أخي كان يلعبُ في ذرِقِ الدجاج، وفي
طَرْفَةِ عَيْنٍ أصبحَ عاملاً للدولة، أليس كذلك؟
- أجل، أجل.

كان الناسُ حوله يغمغمون.

كان العمُّ لَوْه مُتَطَلِّباً للغاية، ولا يسمحُ بهذا الغموض، وعليه
أن يلفتَ المزيدَ من الانتباهِ إلى ابنِ أخيه: «لصيقُ خنازير، لم تصلني
منه أيُّ رسالة، أخبروني، ما الفائدةُ من إنجابِ الأطفال؟ هل هو بهذا
الانشغال؟ لقد ذهبْتُ إلى المدينةِ أيضاً، أيُّ انشغالٍ هناك؟ إنَّهم يلهون
من الصباحِ إلى المساء».

ومع ذلك ظلَّ المستمعون صامتين، يتبادلون نظراتٍ سرَّيةً بينهم.
مسحَ وجهه وقال: «إن كان يقومُ بعملٍ جيد، فلا أريدُه أن يعودَ
لزيارتي، ماذا هنا ليراه؟ إن كان هنا لحم، ألا أعرفُ كيف أتناوله
بمفردي؟ إن كان هنا قطن، ألا أعرفُ كيف أرتديه بمفردي؟».

بعد أن يفرغَ من الحديثِ عن ابنِ أخيه، وبعد أن يفرغَ من التباهي
بدورِ العمِّ الأكبر، وبعد أن أظهرَ ما يكفي من سعادةٍ وضجرِ العمِّ
الأكبر، يشبكُ يديه وراءَ ظَهْرِهِ، ويحني رأسَه متجهاً إلى كوخه المسقوفِ
بالقش. لا بُدَّ أنَّ ظَهْرَهُ يكون غيرَ قادرٍ على تحمُّلِ الكثيرِ من نظراتِ
الناسِ المرتابة، فينحني في طَرْفَةِ عَيْنٍ.

العامل النموذجي

(كما هو مُستخدَم في الأيامِ الصّحة)

طلبت الكومونة من كلّ فريقٍ ترشيحَ عاملٍ نموذجي لدراسة الفلسفة، وحضورِ الاجتماعات في الكومونة، يتولّى العمُّ لُوهُ الأمر حين لا يكون بن بي موجوداً. بعد أن يتناول وجبة الإفطار، يذهبُ إلى الجرن أولاً ويتجوّل هناك برويةٍ لبعضِ الوقت، ويرسلُ حلزوناً يتسلّق الجرن إلى الأجمة، خوفاً من أن يطأه الآخرون، وبعد ذلك يكلّفُ الجميعَ بمهام العمل. كان يَطرَفُ بجفنيه اللذين لا يفتحهما مطلقاً، ويحني رأسه ليلفّ لفافة تبغ من طرفِ عتبة، قائلاً: «هوانغ الغالي، وو تشانغ، وتجاو تشينغ عليهم تولّي رعي المواشي، فوتشا سيتولّي توزيعَ روث الثيران، أمّا يان تزاو، فعليه رُش المبيدات، والنساء والأطفال الذين أرسلوا إلى الريف عليهم عزقُ حقلِ السلجم، والعامل النموذجي، سيُكلّفُ به وان يو». لم أتمالك نفسي من الضحك: «العامل النموذجي، ألا يتمّ التصويتُ على ذلك؟».

تعجّب العمُّ لُوهُ وقال: «من سيُكلّفُ بذلك إن لم يكن وان يو؟ له ظَهْرٌ كالنساء، لا يجيّدُ رعي الثيران، وليس قوياً بما يكفي لتوزيع السباد، وقال أمس إنَّ أصابعه منتفخة، وإنَّ إرساله لعزق حقلِ السلجم

كإرسالِ تَنْينٍ لعزفِ القيثارة. فَكَّرْتُ ملياً في الأمر، لا يوجد شخصٌ آخر، هو الوحيدُ المناسبُ».

رأى الحاضرون أنه من المنطقي اختيارُ وان يو عاملاً نموذجياً، لا يمكن لفوتشا الذهاب، أليس كذلك؟ لو كان الجو ماطرًا، لذهب فوتشا، فمستواه الثقافي مرتفع. تكمن المشكلة في أن طقسَ اليوم صحو، وأنَّ هناك عملٌ لا بُدَّ من إنجازه، إن ذهبَ فوتشا، من سيملأُ حُفَرَ السهاد؟ إذا لم تُملأْ حُفَرُ حقلِ السلحفاةِ بالسهاد، كيف ستحرثُ الأرضُ غداً؟ كيف يكون هذا الوضعُ مجدياً؟

حدّقت في أزواجٍ وأزواجٍ من العيونِ الحائرة، فأدركتُ حينها أن معنى كلمة «العاملُ النموذجي» مختلفٌ في الأيامِ الصحوّةِ عن الأيامِ الممطرة، لذا كان عليّ الموافقةُ على وان يو، وأجعله يذهبُ إلى الكومونة مُعلّقاً ورديّةً حمراء وساماً.

التحدُّثُ بالطاوية

بعد وفاة وان يو، مُرِّرَت قَبَعَةُ دراسةِ الفلسفةِ إلى رأسِ العمِّ لُوَه، ويقال إنَّ مديرَ الكومونة عَيَّنَه قائلاً: يجب أن نصقل مزارعاً مُسنّاً نموذجياً.

كلَّفني الفريقُ بكتابةِ خطابٍ عن تجاربه، كنتُ أقرأُ له جملةً، وأرشده ليقراها، ثم أتركه يذهبُ إلى اجتماعاتِ الكومونة أو المحافظةِ للقيامِ بأعمالِ فلسفية. قالت الكوادرُ إنَّ وان يو لم يحسن الكلامَ عن الفلسفةِ سابقاً في الكومونة، وإنَّ العمِّ لُوَه أكبرُ عمراً، مخضرمٌ، ويملكُ حقَّ التعبير، وإنَّه نَقَذَ عمليةَ إنقاذٍ شجاعةً في القناة، ومن المؤكد أن كبار المسؤولين سيكونون راضين عنه.

كما أخبرني فوتشا سرّاً أنَّ العمِّ لُوَه كان ثورياً قديماً مشهوراً، لكنَّه أُمِّي، ومشوَّشُ الذهن، يتلعثمُ بمجرد أن يبدأ الحديث، يربطُ أشياء لا رابطَ بينها، فيجبُ اتخاذُ الاحتياطاتِ مُسبقاً. يجب أن تجعله يحفظُ خطابه عن ظهرِ قلب.

أدركتُ لاحقاً أنَّه كان من الصعبِ حقاً ألا يتلعثمُ أثناء إعدادِ تقريرِ فلسفي، وبينما يستمرُّ في حديثه كان يبتعدُ عن ملاحظاتِ الخطاب،

وينسى كل شيء حفظه بعد عناءٍ ومشقة، ويستطرّد في الحديث عن الفجل، الملفوف، الطاولات والمقاعد. أحياناً كنتُ أريدُ انتظاره ليجد طريقَ العودة بمفرده، لكنني أكتشفُ لاحقاً أنّه يركضُ دائماً أبعدَ وأبعد، وكلّما ابتعد، أصبح أكثرَ سعادة. لم يتزوج طوال حياته، ولم يقترب من امرأة، لكنّ هذا لم يمنعه من التفوّه ببعضِ الأقوالِ القذرة؛ تسعلُ الأختُ الصغيرةُ دون بلغم^(١) «يعني دون كلام». تنظر الأختُ الصغيرةُ إلى قضيبِي «يعني مصادفةً»، جعلَ الأختُ الصغيرةُ تلد «يعني البلطجة على شخص... كلُّ هذه «الأختُ الصغيرة» لم تتناغم جيداً مع الفلسفة.

رأى المشكلة في عيني وطرفَ بعينه، «لصيقُ الخنازير، هل أخطأتُ مجدداً؟» كلّما تدرّب أكثر، أصبح أكثرُ توتراً، إلى أن ارتكبتُ لاحقاً خطأً بسيطاً: «الرؤساء، الرفاق، أنا لوّه يو شينغ، أبلغُ هذا العام ٥٦ عاماً...». وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنّ هذا ليس خطأً، ولكن وفقاً لترتيباتِ فرع الحزب، زدتُ عمره إلى ٦٥ عاماً، ليعكسَ السماتِ الممتازة لرجلٍ مسنٍ شيوعي بصورةٍ أفضل. إنّ الأهمية الفلسفية للأشخاص البالغين من العمر ٦٥ عاماً الذين يندفعون لحصادِ الدّخنِ الجماعي في المطر، تختلفُ بالتأكيد عن الأشخاص الذين يبلغون من العمر ٥٦ عاماً الذين يهرعون لحصادِ الدّخنِ الجماعي.

نَبّهتُ أنّها الخامسةُ والستون، تذكّر، الخمسةُ أولاً.

(١) ترد الكلمتان «بلغم وكلام» في الجملة، وتُكتب الكلمة الأولى «بلغم» (痰 - rǎn)، وتُجانبُ الكلمة الثانية «كلام» (谈 - tán).

- «استمع لي! آه، ما فائدة العيش وقد كبرتُ في السن؟» تجاهل ضحكى المكبوت، وكسا وجهه تعبيرٌ حزين، ثم رنا إلى السماء، فهدأ واستعاد تركيزه، ثم بدأ مرةً أخرى: «الرؤساء، الرفاق، اسمي لُوَه يو شينغ، أبلغ هذا العام ستة...».

- أخطأت مجدداً!

- اسمي لُوَه يو شينغ، هذا العام... ستة...

كنتُ على حافة اليأس.

قال وقد غضبَ قليلاً: «عمرى ستة وخمسون عاماً! الفلسفة هي الفلسفة، لماذا تغيرون عمري؟ هل السنُّ يعيقُ الفلسفة؟».

- «ألا تريدُ أن تجعلَ قصَّتكَ مؤثرةً أكثر؟» أوضحتُ له المنطق الذي سبق وشرحتَه بالتفصيل، مؤكداً على أنَّ رجلاً مُسنّاً يبلغ من العمرِ سبعينَ عاماً من لونغ جيا تان قد ألقى خطاباً إذاعياً حول فلسفةِ تربيةِ الخنازير، وأنَّ عمرَ الخامسةِ والستينِ أقلُّ بكثيرٍ في الواقع من عمرِ السبعين، ولن يُقنعَ ذلك الناس.

- لطالما علمتُ أنَّ الفلسفةَ ليستُ أمراً جاداً، مجردُ «فمٍ.. أوه إيه»، أشياء قديمةٌ في حُلَّةٍ جديدة، يحبُّ الحزبُ الشيوعي أن يُدسَّ فجلاً بين سيقانِ الأخواتِ الصغيرات، رجالاً زائفون.

أذهلني هذا الكلامُ الرجعي.

حينها فقط جاء أحدُ كوادِرِ الكومونة ورآنا، خرجَ العمُّ لُوَه، وتحدَّثَ عمّا كنَّا نفعلُهُ، وعيناه تطرفان كأنَّه لم يستيقظ بعد: «أدرسُ الفلسفة! أدرس! كيف لا أستطيعُ أن أدرس؟ لقد درستُ بالأمس حتى

منتصف الليل، كلما درستُ أكثر، كان أفضل، وحين تولّت الحكومة الدّمية السلطة، ما كنتُ تستطيعُ الوصولُ إلى بواباتِ المدرسة إذا رغبتُ في الدراسة، أمّا دعوةُ الحزب الشيوعي لك للدراسة، أليست حقّاً اهتماماً بالفقراء ومتوسطي الحال من الفلاحين؟ إنّ دراسة هذه الفلسفة هي دراسة الإدراك والمنطق، دراسة القوة، الدراسة في الوقت المناسب وبالطريقة الصحيحة!». .

ابتسم الكادرُ لسماع هذا، إذ كان العمُّ لُوّه فلاحاً مسنّاً فقيراً حقّاً، وتفكيره واسع الأفق، تأمل تلخيصه الجيّد؟ دراسة الإدراك والمنطق والقوة.

أعجبتُ سرّاً بنهج تكيّف العمِّ لُوّه مع الظروف، وكيف تتدفقُ الكلماتُ من فيه ببلاغة، على الرغم من أنّه يبدو ناعساً دائماً، فإنّه كان يسترسلُ في الحديث، ويصيبُ الوترَ الحساسَ لدى المستمع على الفور. علمتُ بعدها أنّه كان شخصاً من هذا الصنف؛ لا يغضبُ من أصدقائه القرويين، لا تعوزُه الكلمات، يديرُ شراعه حسب الريح، ويتمتعُ بقدرة قوية على التكيّف، ويقول دائماً ما يريد الآخرون سماعه. إذا قابل شخصاً يربّي الخنازير، يقول إنّ تربية الخنازير جيدة: «بوسعك أكل الخنازير التي تربّيها في أيّ وقتٍ شئت، ولا حاجةً للتزاحم عند الجزار، أليس كذلك؟». وإن صادف شخصاً لا يربّي الخنازير، يقول إنّ تربية الخنازير ليست جيدة: «حين تريدُ أكل اللحم، تأخذُ نقودك إلى الجزار ليقطع لك قدرَ ما شئت! ما الداعي لإرهاق نفسك في تربية الخنازير؟ ثلاثُ وجباتٍ يومياً، عليك أن تتأكد أن الخنزير قد شبعَ قبل أن تشبع أنت، أليس ذلك مثيراً للسُّخط!» حين يصادفُ شخصاً أنجبَ ولداً، يقول

إِنَّ إِنْجَابَ الأولاد جيد: «يمكنك الاعتمادُ على الصبي لإنجازِ الأعمال، ورفعِ الحمولات، والاعتناءِ بالثيران، أنتَ محظوظٌ حقاً». وإذا صادفَ شخصاً أنجبَ فتاة، يقول إنَّ إِنْجَابَ الفتيات جيد: «خذ زوجة الابن، وافقد ولداً، زَوْجُ فتاة، واكسب عريساً. هل رأيت من هؤلاء الصبيان لصيقي الخنازير من هو بارٌّ بوالديه؟ خيراً فعلتُ، كما أنَّ الفتيات يهتمنَ دائماً بأمهاتهن وأبائهن، وسيكون لديك كعكاتُ بابا للأكل، وأحذيةٌ وجواربٌ لارتدائها، مبارك، مبارك».

استمراره في الحديث لا يعني أنَّه يكذبُ بالضرورة، بل يُظهرُ صدقه وإخلاصه وقوةَ بلاغته في كلِّ جملة، وتبدو على وجهه المهابة والصرامة. ويقول أهلُ ماتشياو إنَّه الأفضلُ في إجادة «التحدُّث بالطاوية». والطاو تعني الطاوية، طريق الين واليانغ، نعم ولا، الآن هذا ثم ذاك، الطاو في الأساس مرونةٌ لا نهايةٌ واحدةٌ لها، ويمكن التعبيرُ عنه دائماً بوضوح، ودون وضوحٍ على الإطلاق.

ليس لديه أطفالٌ من صُلْبِه، بل ابنٌ بالتبني من محافظة بينغ جيانغ. وفقاً للعاداتِ المحلية، فإنَّ أوَّلَ ضيفٍ يدخلُ المنزل بعد ولادةِ الطفل يكونُ «العَرَّابُ الذي يراه وقتَ الولادة» أو «العَرَّابةُ التي تراه وقتَ الولادة». قبل سنوات، كان العمُّ لُوَه في بينغ جيانغ لبيعِ صمغ شجر التَّنُوب، ذهب إلى منزلٍ عائِلَةٍ على جانب الطريق لطلبِ القليل من الماء للشرب، وصادفَ احتفالاتِ بولادةِ ولد، وهكذا أصبحَ عَرَّاباً، وكلَّما زارَ بينغ جيانغ، تذكَّرَ إحضارَ كيسٍ من البطاطا الحلوة للطفل. لم يتخيل أبداً أنَّ هذا الصبي سينضمُّ لاحقاً إلى الجيش الأحمر، ويُرقَّى إلى رتبة جنرال، وبعد انتقاله إلى المدينة، دعا العمُّ لُوَه للعيش في نانجينغ. قال

إِنَّهُ رَجُلٌ تَعَسُّ الحَظَّ، حَالِماً وَصَلَ إِلَى رَصِيفِ المِينَاءِ الكَبِيرِ فِي نَانَجِينِغْ، رَافِقُ الجُنَرَالِ وَزَوْجَتَهُ إِلَى سَيَارَةٍ صَغِيرَةٍ، وَبِمَجْرَدِ أَنْ تَحَرَّكَتِ السَيَارَةُ، شَعَرَ عَلَى الفُورِ بِأَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ تَدُورَانِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ مَنَعَ نَفْسِهِ مِنَ الصَّرَاحِ طَالِباً الخُرُوجَ مِنَ السَيَارَةِ. أَخيراً، اضْطَرَّ الجُنَرَالُ إِلَى المَشْيِ مَعَهُ، وَالسَيَارَةُ تَتَبَعُهُمَا بِيْطَاءَ.

وَلَمْ يَكُنْ بوسِعِهِ أَنْ يَعتَادَ عَدَمَ وَجُودِ مَدْفَأَةٍ فِي مَنزَلِ الجُنَرَالِ أَوْ دَلْوٍ لِلتَّبُولِ. كَانَ يَمْكَنُ أَنْ تُزْرَعَ المَسَاحَةُ المَفْتُوحَةُ خَلْفَ المَنزَلِ بِالخَضِرَاوَاتِ؛ حَفَرَهَا بِجَهْدٍ كَبِيرٍ وَمَشَقَّةٍ، وَسَوَّاهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنَ العُثُورِ عَلَى دَلْوِ التَّبُولِ، وَحِينَ أَخَذَ دَلْواً وَوَعَاءً مَطْلِياً بِالمِينَا لِمَجْمَعِ الرُّوثِ، أَمْسَكَتْ زَوْجَةُ الجُنَرَالِ وَابْتَهَاها أَنْوْفَهُنَّ، وَصَرَخْنَ وَتَذَمَّرْنَ مِنْ افْتِقَارِهِ إِلَى النِّظَافَةِ وَالتَّحَضُّرِ. غَضِبَ وَلَمْ يَأْكُلْ طَوَالَ اليَوْمِ، وَاضْطَرَّ الجُنَرَالُ إِلَى شِرَاءِ تَذْكَرَةٍ بِاخْرَةٍ لِإِعَادَتِهِ إِلَى مَاتَشْيَاوِ.

- «كسولتان!» هَزَّ رَأْسَهُ مَشِيراً إِلَى حَفِيدَتَيْهِ. «إِنَّهُمَا عِلْمِيَّانِ^(١) جداً، مَجْرَدُ كَتَلٍ مِنَ اللَّحْمِ، لَا يَمْكَنُهُمَا إِطْعَامُ الخَنَازِيرِ، وَلَا غَزْلُ الحَرِيرِ، فَكَيْفَ يَمْكَنُهُمَا وَضْعُ القِدُورِ لِأَسْرَتِي زَوْجِيهِمَا؟».

سَمِعْتُ أَنَّ الجُنَرَالِ يَرْسُلُ لَهُ نَقُوداً فِي كُلِّ عِيدِ رَبِيعٍ، وَلَمْ أَمْنَعْ نَفْسِي مِنَ السُّؤَالِ عَنْ ذَلِكَ بِحَسَدِ.

- «عَنْ أَيِّ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ تَتَحَدَّثُ؟ إِنَّهُ بَخِيلٌ، بَخِيلٌ جداً». أَخْرَجَ التَّبَغَ مِنْ حَقِييَّتِهِ القِمَاشِيَّةِ، وَطَرَفَ بَعَيْنِيهِ لِفَتْرَةٍ وَغَمِغَمَ قَائِلاً: «فَقَط... فَقَط... ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ كَوَايِ».

(١) انظر مدخل «العلم».

- هذا فقط؟

- هل سأكذب وأنا في هذا العمر؟ أقسمُ لك بالشمع في أذنِ الأختِ الصغيرة، هذا هو المبلغ!

- لن أحصل منك على شيءٍ في إصلاحِ الأراضي.

- تعال وفتّش منزلي، فتّش منزلي!

كنتُ معجباً به حقّاً في ذلك الوقت، إذ رأيتُ أنّه يجسّدُ جوهرَ طبقةِ الفلاحين المُسنّين البسطاء الذين يعملون بجِدِّ والفقراءِ (غيرِ الراغبين بالاستمتاع بالحياة المرفّهة في المدينة)، ويُظهرُ تاريخه المجيدُ (علاقته الوثيقة بالجيش الأحمر، على سبيل المثال)، كنتُ أملُ أن أكتبَ ذلك في خطابه. لم أخیلُ أنّه سيتحدّثُ بالطاوية مجدداً بمجرد الدخولِ في التفاصيل، فضلتُ تماماً في غشاواتِ عدمِ الفهم. لطالما مدَحَ الجيشُ الأحمرُ وأشادَ به، إلى أن تغيرت لهجته وقال إنّ الجيشَ الأحمرَ فاسدٌ كليّاً؛ كان هناك زعيمٌ فصيليٌّ له علاقاتٌ مع القرويين، وأصبح أخاً لهم، قتله قائدُ السرية الجديد باعتباره معادياً للثورة. كان قائدُ السرية قصيرَ القامةٍ ويبلغُ من العمر ستة عشرَ عاماً فقط، لذلك حين قطعَ رأسه، كان عليه القفزُ لأعلى للقيام بذلك، واستمر في الجزّ بقوةٍ فاندفعَ الدمُ إلى السماء، ثم غرسَ وجهه في رقبته ليشرب من دمه الحار، أليس ذلك مخيفاً؟ حتى أنّه بكى دموعاً رجعيةً حين تطرّق إلى موضوعِ الأعداءِ الطبقيين. أيُّ جُرم ارتكبه «النّذبةُ ما»؟ كان رجلاً مزارعاً محترماً، وشريفاً. يا للأسف، لقد مرَّ بكلّ هذه المتاعب ليستسلم، وأردتم جميعاً أن يستسلم، وحين استسلم، قلتُم إنّه استسلم زوراً ودفعتموه لابتلاع الأفيون...

مَسَحَ أَرْنَبَةً أَنْفَهُ إِلَى أَعْلَى بِكَفِّهِ.

اضْطَرَرْتُ إِلَى كِبَحِ انْفِعَالِهِ: «ما الذي تبكي بشأنه؟ إِنَّكَ مرتبك، لقد كانت حملاتُ الحزب الشيوعي للقضاءِ على قَطَّاعِ الطرقِ والطَّغاةِ عملاً ثورياً، ما الذي كان غيرَ عادِلٍ بشأن ما حدث لـ «النَّدْبَةِ ما؟»».

- «أنا... لا يجبُ أن أبكي؟» كان مرتبكاً قليلاً.

- بالطبع لا، لا يجب أن تبكي، أنتَ فلاحٌ فقير، فكَّر في الأمر، لَمَنْ كنتَ تبكي للتو؟

- رأسي هذا ليس له فائدةٌ بعد الآن، أخبرتك أنني لا أودُّ التحدُّث، لكنَّكَ تصر!

- هذا ليس صحيحاً تماماً، أحسنتَ القولَ في بعض الأجزاء.

حين ذهبَ لقضاءِ حاجتِهِ، استغرقَ نصفَ ساعة، ما أثارَ استغرابي. وبعد عودته، حشَّته على تذكُّرِ المزيد من جرائمِ رَجْعِيَّي الكوميتانغ، وطلبتُ منه أن يشربَ قليلاً من الماء ويهدِّئَ نفسه، ثم يبدأ مرةً أخرى. حينها فقط عاد إلى كونه فلاحاً مسنّاً فقيراً، تحدَّثَ عن إبادةِ حزب الكوميتانغ للشيوعيين، وكم كان ذلك قاسياً وبشعاً، حتى النساء والأطفال قُتلوا معاً، أُمِسِكَ بالأطفال الذين يبلغون من العمر ثلاث سنوات، وضُربوا بالجدران، وتحطَّمت رؤوسهم قبل أن يتمكنوا حتى من التأوُّه، أُلْقِيَ بعضهم في الأفران وأُحرِقوا، وفاح لحمهم برائحةٍ نتنة، لم تتبدَّد لثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ. لقد تحدَّثَ عن لُؤِ البَثْرة، والذي ربما كان زعيمَ عصاويةٍ تابعةٍ لحزب الكوميتانغ، كان الأكثرَ مكرراً، ينتزعُ أكبادَ جنودِ الجيشِ الأحمر، ويمزجُها سرّاً في قِدْرِ اللحمِ ليأكلها الجميع،

إنَّه لُوَه يوشينغ الذي لم يدرك ذلك في البداية، اكتشفَ فقط بعد أن أكل،
فتقياً حينها بشدَّة كما لو أنَّ أمعاءه ستقلب.

انضمَّ في السابق إلى الجيشِ الأحمرِ لمدة شهر، ثم تركه وعاد إلى
مسقطِ رأسه. وقد أوشك لُو البثرةُ أن ينتزعَ كبده أيضاً، ولحسنِ حظِّه
أنَّه باع تابوتاً كان قد جهَّزه لوالدته، وأقام ثلاثَ مآدبَ بالإضافةِ إلى
تقديمِ الخمرِ لطلبِ الصفع، وسألَ شخصين أن يضمناه، وأنقذَ حياته.

- «لُو البثرة»، سآدوسُ على أسلافه! سليلُ نمِرٍ ولصيقُ خنازير،
أحمقٌ وشرير، حتى لو تأخَّرَ موتهُ سبعةَ أيامٍ وسبعَ ليالٍ لن
تُسوَّى الحسابات! لم يتمالك نفسه من الصراخ لدى ذكْرِ تابوتِ
والدته، وانهمرت دموعُه ومخاطُه مجدداً، ومسحَ أنفه بكفه مرَّةً
أخرى.

جعلتني هذه المسحةُ أكثرَ راحة.

- لولا مجيءُ الزعيمِ ماو والحزبِ الشيوعي، لما كنتُ أنا لُوَه يوشينغ الآن!

- حسناً قلت، قل ذلك على المنصة، ولا بُدَّ أن تبكي.

- سأبكي، بالطبع سأبكي!

كانت النتيجةُ مؤسفةً للغاية: لم يبك، ورغم أنَّه توتر وتلعثم قليلاً،
فإنَّه تحدَّثَ عن ذلك بشكلٍ أساسي وفقاً للمُسوَّدة التي حفظها، من
التاريخِ إلى الواقع، من الفردِ إلى المجتمع، استخدمَ الفلسفةَ مثل
«الجوهر والظاهرة». لم يتحدث فقط عن أعماله البارزة، بل امتدَحَ
الاشتراكيةَ أيضاً. لم يبتعد كثيراً عن الموضوع، ومع تحذيراتي المتكررةِ

مسبقاً، لم يتفوه بكلام أحق مثل أنه عمل حملاً لحزب الكومينتانغ أو أنه تناول طحين أمريكا. على الأكثر، أضاف القليل من الارتجال عند انتقاد الفلسفة التحريفية، قائلاً إن التحريفية أمر سيء حقاً، ليس فقط لأذية الرئيس ماو، ولكن أيضاً لجعلنا نأتي إلى الاجتماع الآن ونؤخر عملنا. ورغم أنه لم يستوعب جوهر الموضوع، فإنه كان متماشياً مع الخط الرئيسي.

لم يذهب مجهودي في جعله يحفظ الخطاب سدى.

بعد ذلك رشحته الكومونة مرّات عدّة للذهاب والتحدّث في الكومونات الأخرى. بحلول ذلك الوقت، نُقلت مؤقتاً إلى المركز الثقافي في المحافظة، لكتابة سيناريوهات مسرحية ولم نكن على اتصال دائم. كل ما سمعته أنه في إحدى المرّات، حين عاد من العمل الفلسفي، هاجمه كلبٌ مسعورٌ في الطريق وعَضَّ ساقه. جاء العلاج الطبي بعد فوات الأوان وظلّ طريح الفراش ستة أشهر. وبعدها، تبدّد (انظر مدخل «تبدّد»).

أذكر المرة الأخيرة التي رأيته فيها، كان يلصق على جبهته لصقةً طبية، وأصبح هزياً إلى حدّ أنك لا ترى إلا عينيه، كان يشاهد الثيران من جانب الحقل و فراشةً صفراء ذهبية تقرض ظهورها.

حين سألتُه عن مرضه، أجابني وعيناه مفتوحتان على اتساعهما: «ألا تظن أن هذا غريب؟ فالكلاب لا تعضّني أبداً، والآن يعضّني كلبٌ في الموقع السابق».

كانت ملاحظته غريبة قليلاً.

رفع ساقه ليريني. ما كان يعنيه هو أن هناك ندبة على هذه الساق؛
جرحه منجل هنا، تعثر وسقط هنا، وأخيراً عضه الكلب هنا. كان حائراً
- لم يفهم تكرار هذا الأمر.

- ستشفى قريباً، أليس كذلك؟

- كيف سأتحسّن إذن؟

- هل عُولِجْتَ بحقنةٍ مُضادَةٍ لعضّة الكلب؟

- يمكن للأطباء علاج المرض، لا علاج القدر.

- يجب أن تكون واثقاً من أنك ستكون بخير.

- ما هو الجيد في التحسّن؟ ألن يتحتّم عليّ أن أكّد كالماشية؟ ما هو
العظيم في زرع الأرز، وحفر التلال؟ أفضل أن أشاهد الثيران
كما أفعل الآن.

- ألا تريد أن تُشْفَى؟

- ما الجيد في التحسّن؟ يؤلمني أن أخطو خطوة واحدة، لا أستطيع
حتى الجلوس في كوخ المرحاض.
يمكنه أن يقول أيّ شيء بسلاسة.

كان يحمل في يده راديو صغيراً ورديّ اللون، على الأرجح اشتراه له
ابنه بالتبني مؤخراً، كان شيئاً نادراً بالنسبة للقرويين.

أشار إلى الراديو قائلاً: «هذا رجل طيب، إنّه يتحدث ويغني طوال
اليوم، لا أعرف من أين يأتي بهذه الطاقة».

وضع الراديو قريباً من أذني، لم أستطع سماع شيء بوضوح، إذ كان
الصوت منخفضاً، ربما البطارية ضعيفة.

- «أعرفُ كلَّ يومٍ ما إذا كانت ستمطرُ في بكين أم لا». قال مبتسماً.
علمتُ في وقتٍ لاحقٍ أنَّه في حالةٍ مرضيةٍ حرجة، وأنَّه وضعَ
حذاءه الجنائزي على رأسِ السرير، خائفاً من أنَّه حينَ تحينُ اللحظةُ لن
يكونَ لديه وقتٌ كافٍ لارتدائه. على أنَّه ظلَّ هادئاً كحالِه دائماً، نهَضَ من
الفراش ليراقبَ الثيرانَ مدَّةَ يومين، ووضعَ طبقةً من العشبِ الطازجِ في
حظيرةِ الثور، وجدَلَ حبلينَ من رَسَن الثور، حتَّى أنَّه تحدَّثَ معي مبتسماً
عن هطولِ المطرِ في بكين.

(١) الحالي - الآن - الماضي 现

هذه الكلمة شائعة في الكثير من المناطق جنوب نهر اليانغستي، ومنها ماتشياو. يتضمن قاموس (اللهجات الصينية الحديثة) (مطبوعة جيانغسو التعليمية ١٩٩٣) هذه الكلمة، مع ثلاثة أمثلة على الأقل:

الكلام الماضي: الكلام المكرر.

الخضار الماضي: الخضار المتبقي.

الطعام الماضي: الطعام البائت، مثال على ذلك: «حتى الكلاب لا تأكل بقايا الطعام الذي قُلي مرّات عدّة».

لذا، يلخص هذا القاموس معنيين لكلمة «الحالي - الآن - الماضي - 现»: ١- الحفاظ على الحالة الأصلية. ٢- الشيء المتبقي. وفي رأيي، «الحالة الأصلية» أو «المتبقي» تشيران إلى القديم، العتيق، الأصلي، الماضي. على

(١) هناك بعض الكلمات في اللغة الصينية التي تعبّر عن الماضي، وكذلك عن الحاضر، مثل عنوان الفصل. وهناك بعض الكلمات التي تعبّر عن الماضي وعن المستقبل، كما هو موضّح في شرح الكلمة في النص. لذلك كان من الأفضل وضع كلمتي «الآن» أو «الحالي» مع كلمة الماضي، ووضع هامشٍ وتوضيح الفرق بين الأزمنة في اللغة العربية واللغة الصينية.

سبيل المثال «عَضَّ الكلبُ الموضعَ الماضي»، أي عَضَّ الكلبُ الجرحَ السابق (القديم، العتيق، والأصلي).

تُعَبِّرُ ماتشياو عن كلمة «الحالي - الآن - الماضي - 现» أيضاً بمعنى مضاد: ليس قديماً، ليس عتيقاً، ليس ماضياً، أي مثلما تستخدم كلمة «الآن - 现在» في الماندرين. ورد في كتاب «أصل الكلمات - تسي يوان» (المطبعة التجارية، طبعة ١٩٨٩) أنَّ هذا المعنى نشأ من البوذية التي تُعَدُّ الماضي والحاضر والمستقبل ثلاثَ حيوات. ووفقاً لكتاب (الآياتُ على خزانة أبهيدارما): «كلُّ شيءٍ به ثلاثُ حيوات... يُسمَّى «الحاضر» إن كان ذا جدوى... و«الماضي» إن كان بلا جدوى».

حين كنت أتناقشُ مع عالم الصينولوجيا الفرنسي أ.كوري حول مفهوم الصينيين عن الزمن، ذكرتُ كلمة «الحالي - الآن - الماضي - 现»، وذكرتُ أيضاً كلمة «前 - السابق»، التي تعبر عن الماضي، مثل «前述 - ما سبق - qiánshù»، «前缘 - قَدَرٌ محتوم - مُسَبَق - qiányuan»، «前夜 - الليلة الماضية - qiányè»، «前因 - حدثٌ سابق - qiányīn» وغيرها، كما تعبَّرُ كذلك عن المستقبل، مثل «前途 - المستقبل - qiántú»، «前景 - آفاق - qiánjǐng»، «前瞻 - التطلع إلى الأمام - qiánzhān» وغيرها. يتمتعُ الشعبُ الصيني بأكبرِ قدرٍ من وعي الإحساسِ بالزمن، لا توجد دولةٌ في العالم لديها مثل هذا التاريخ الكبير والواسع، ويمكن أن يكون سِجْلُ الحقائق التاريخية دقيقاً ومفصلاً لكلِّ عامٍ أو لكلِّ شهرٍ أو حتى كلِّ يوم. لكن من ناحيةٍ أخرى، ليس لدى الصينيين أدنى إحساسٍ بمرور الوقت. فلا تتضمنُ اللغةُ الصينية صيغةَ الفعل، ولا الفعلَ الماضي أو المضارع، أو المستقبل. توجد في اللغةِ الصينية أيضاً متضادات مثل «现

الآن» و«前 - السابق» والتي لا تكشف عن الماضي فحسب، بل تشير أيضاً إلى الحاضر والمستقبل. ربما يؤمن الصينيون بالتناسخ، قد يكون أحد أسلافك هو ذريتك، وقد يكون سليلك هو أيضاً أحد أسلافك. في هذه الحالة، ما هو الفرق بين الماضي والمستقبل؟ أو ما هو المغزى من هذا الاختلاف؟

ليس من الصعب فهم كلمات ذات معانٍ متضادة مثل «现 - الآن» و«前 - السابق» في إطار كهذا.

ينظرُ الكتابُ إلى الوراثة ويكتبون عن بعض الأشياء الماضية، ويتحدثون عن بعض الأشياء الماضية، لكن كل كلماتهم في الواقع تدخل في الحاضر، تصاعدٌ لتفكير وعواطف الحاضر، وهو تمثيلٌ مطابقٌ لكلمة «الحالي - الآن - الماضي - 现» إلى أبعد مدى. اعتاد معظم الكتاب البحث عن الماضي مُتضمناً الحاضر، وعن الحاضر مُتضمناً الماضي، وعاشوا في ظل الزمن إلى الأبد. يكمن تناقضهم في: اكتشاف الزمن، وأيضاً رفضه بشكلٍ قاطع.

محظورات الفم (وقلب قدميك)

طلبَ الفريقُ من نجّاري الخيزران إصلاحَ سلالِ الخيزران و سلالِ التّذريّة، وكان فوتشا -بصفته محاسباً عاماً- مسؤولاً عن الحصول على اللحوم لإكرام النجارين، ولا مَالَ لديه لشراء اللحوم، فظنَّ أنَّ العمَّ لُوّه يملك بعضَ المال الفائض، وأنّه ربما حصل عليه من تحويلات ابنه بالتبني في نانجينغ، وأرادَ أن يقترضَ منه يوانين لتدبير الأمر.

قال العمُّ لُوّه إنّهُ لا مَالَ لديه، كما تساءل: «أيُّ ابن؟ إنّهُ ينفقُ راتبه كلّهُ على رسومِ الحزب، لقد نسي منذ فترةٍ طويلة كلّ شيءٍ عن عرّابه».

لم يصدقهُ فوتشا، وقال إنّهُ سيعيدُ أيّ شيءٍ اقترضه، وإنّهُ لن يحتفظَ بالمال، ما الفائدة من وضعِ المال في صدوعِ الجدار ليتعفن؟

اغتاظ العمُّ لُوّه وقال: «افتراءاتٌ قذرة، افتراءاتٌ قذرة! فوتشا يا ولدي، أنا أكبرُ من والدك بثماني سنوات، لقد شاهدتُك تكبر، أين ضميرُك!».

في ذلك اليوم، تجوّل فوتشا في كلّ مكانٍ لاقتراضِ المال ولم ينجح، وكان منزعجاً وضجيراً من الشمس، فلم يتمالك نفسه من السّبابِ أثناء سيره: «اقلبْ قدميك!».

لا يمكنك تجنب قول هراء كهذا حين تكون الشمس شديدة الحرارة.

على أنه لم يدرك أن «أقلب قدَميك» هي الشتيمة الأشدّ تحريماً لدى أهل ماتشياو، وأشرسُ محظوراتِ الفم، تعادلُ نبشَ قبرِ أسلافِ أحدهم. بمجرد أن خرجت الكلمات من فمه، دُهِشَ نجّاراً خيزران إلى جانبه ونظرا إلى فوتشا مرّةً تلوَ أخرى. على الأرجح كان فوتشا مثلي، لا يعرف أصلَ الكلمة، وغيرَ مقتنعٍ بمحظوراتِ الفم، وقد خرجت الكلمات في لحظة طيش.

في اليوم التالي، عضّ كلبٌ مسعورٌ العمّ لُوّه، ورحلَ إلى طريقه. أصبحت وفاة العمّ لُوّه مصدرَ حزنٍ وألمٍ بالغٍ لفوتشا. تهامس بعض أهالي ماتشياو سرّاً حول مسؤوليته عن ذلك. طبقاً للعُرفِ المحلي، يمكن التراجع عن الشتيمة المحظورة بعد التلفّظِ بها، كلُّ ما تطلّبه الأمرُ لحماية حياة العمّ لُوّه، أن يضع فوتشا أعوادَ البخورِ في إطارِ الباب في الوقت المناسب، ويقطعُ رأسَ دجاجة، ويغسلُ العتبةَ بدمها. لكنّ فوتشا كان مشغولاً في ذلك اليوم، ونسي هذه الطقوس. وأوضح لاحقاً لكثيرٍ من الناس أنها زلّةٌ لسان، وأنّه لم يقصد أبداً أن يلعنَ العمّ لُوّه حتى الموت، كما لم يعرف مدى خطورة الشتيمة، إذ كيف هاجمه كلبٌ مسعورٌ بالصدفة؟ كان يفضّل أن يقولَ هذا الكلام للشباب المتعلّم، لأنّه قادمٌ من الأنحاء الأجنبية، ولا يهتمُّ كثيراً بقواعدِ ماتشياو، لذا أخبروه أن يهوّنَ على نفسه، وأن يتجاهلَ محظوراتِ الفم. حتى أن بعضَ الشبابِ المتعلّمِ ضربَ على صدره بإخلاصٍ قائلين: «اشتمني، اشتمني بأشرسٍ ما تستطيع، لنرَ ما يمكننا أن نلعه!».

بعد مرور وقتٍ قصير، كلَّما تحدَّث عن الجفاف أو حصص الحبوب مع الآخرين، تطرَّق إلى واقعة العمِّ لُوَه على غفلةٍ منه قائلاً إِنَّه لم يتعمَّد ذلك، وإنَّ لسانه زلَّ بسببِ حرارة الشمس. فأصبح الأمرُ مزعجاً ومصدراً للمشاكل.

«محظوراتُ الفم» من المحرَّمات. في الحقيقة، الكلماتُ هي كلمات، مجردُ هبةٍ ريحٍ في الأذن، غيرُ قادرةٍ على إيذاء شعرةٍ واحدةٍ من جسدِ أيِّ شخص. إلَّا أنَّ فوتشا أصابه النحولُ بسرعة، وازدادَّ الشَّيبُ في شعره، إنَّ ابتسم تكونُ ابتسامته فاترةً، جوفاءً، تمريناً للوجه دون جذورٍ في دمه وفي كيانه الداخلي. اعتاد ارتداءَ ملابسٍ أنيقة، وتمشيطَ شعره في المراة قبل الخروج، وكان يشبُّكُ ياقةَ قميصه ببعض المشابك للحفاظ عليها مشدودةً ومهندمةً. ولكن ملاسَه لم تعد نظيفةً الآن، بينها كتفاه ملوثتان بالطين، وتركيزُه مشتَّتٌ، يُزرَّرُ الأزرارَ على نحوٍ خاطئ، أو يفقدُ قلمَه أو مفتاحه. كان يستغرقُ في السابق يوماً واحداً لينهي حساباتِ آخرِ العام، أمَّا الآن فينهيها بمشقةٍ في ثلاثة أيام أو أربعة، وتتراكمُ أوراقُ الحساباتِ في فوضى. لم يعرف أيضاً ما أصابه، يبحثُ في أكوامِ دفاترِ الحسابات، وبعد فترةٍ ينسى ما يبحثُ عنه. أخيراً، بعد أن خسر ٥٠٠ يوان من أموال القطن في تعاونية التوريد والتسويق بطريقةٍ غيرِ مفهومة، رأت لجنة الفريق أنَّه لا يمكن أن يكون محاسباً.

كما شعر هو أيضاً أنَّه لا يمكن أن يكون محاسباً، فسَلَّم دفاترِ الحسابات إلى شخصٍ آخر. لاحقاً رعى سرباً من البط، ثم أُصيبَ السربُ بطاعون البط. تعلَّم النجارة لفترةٍ لكنَّه لم يتقنها كذلك؛ لم تعد أموره سليمة، وانتهى به الأمرُ إلى الزواج من امرأةٍ تتركُ شعرها أشعثَ دائماً.

أنا مندهش من أن عبارة «من محظورات الفم» يمكن أن تؤثر على الشخص لعقود، ألا يستطيع التعويض عن ذلك؟ ألا يمكنه البدء من الصفر؟

في نظر العديد من أهل ماتشياو، لا يمكنه. لقد انتهى الأمر، كما في مسكوب على الأرض، سوف يبقى محظور الفم الذي تلفظ به فوتشا عالماً للأبد، يزداد حجمه كلما طالت مدّة وجوده، وكلما طالت مدّة وجوده، ازدادت قوّته، لن يهدأ أو يخفّي أبداً. مكتبة سر من قرأ تتغلغل قوّة اللّغة بعمق في حياتنا. اللّغة هي تفوّق الإنسان؛ يمكن للإنسان أن يشفق على الحيوانات بسبب افتقارها إلى اللّغة، ولذلك لا تملك المعرفة، ولا يمكن أن تكون مجتمعات، ولا أن تحقّق القوّة الهائلة للتراكم الثقافي والتقدم العلمي. لكن هناك جانب آخر للمسألة، لن تصبح الحيوانات ضائعة لفترة طويلة مثل فوتشا إن جارت بطريقة خاطئة، إلى أن توشك على فقدان قدرتها على البقاء. وفي هذه النقطة، تجعل اللّغة الإنسان أكثر ضعفاً من الكلاب.

«محظورات الفم» تقليد متفوّق عليه بين الناس، إطاراً للحفاظ على مشاعر الرهبة والامتنان. البشر الذين استخدموا اللّغة لفصل أنفسهم عن الحيوانات، يحتاجون إلى إيجاد شكل ما للتعبير عن عواطفهم، وبنائها وترسيخها، لتصبح دعائم نفسية مقبولة لدى الجميع. ترسيخ أهل ماتشياو للمحرّمات اللغوية يشبه تماماً احتياج الناس في العالم الأوسع إلى خواتم للزواج، والبلدان إلى أعلام وطنية، والأديان إلى معبود، والإنسانية إلى أغاني أنيقة وخطب حماسية. بعد أن يستحوذ الناس عليها ويستخدمونها، تصبح أشياء مقدّسة ولا يمكن انتهاكها، لم يعد يُنظر

إلى أيّ إساءةٍ للمستحوذِ والمستخدمِ على أنّها مجردُ إساءةٍ لقطعةٍ معدنيةٍ (الخاتم) قطعةٍ قماشٍ (العلم) قطعةٍ حجرٍ (معبود) وبعضِ الموجاتِ الصوتيةِ (الأغاني والحُطَب)، بل يُنظرُ إليها على أنّها غزوٌ لمشاعرِ الناسِ، على وجهِ الدقة، هي إطارٌ معينٌ لعواطفهم.

لا ينبغي لمن يؤمنُ بالعلم، الذي لا يتبعُ سوى المنطق والتطبيق العملي، ألاّ يعتقدَ فقط أنّ رؤيةَ أهلِ ماتشياو لمحظوراتِ الفمِ سخيفة، بل أن يرى أيضاً أنّ تقديسَ بعضِ المعادنِ والقماشِ والأحجارِ والموجاتِ الصوتيةِ أمرٌ سخيّف، لا يوجد منطقٌ موضوعي يفرضُ على هذه التراكيباتِ النفسيةِ الغريبةِ أن تكونَ كذلك. لكن الأمرَ لا يمكنُ أن يكونَ إلّا هكذا. لم يعد الإنسانُ كلباً، ومن المستحيلُ أن نعتبرَ المادةَ مادةً فحسب. حتى لمن يؤمنُ بالعلم، غالباً ما يمنحُ بعضَ الموادِ هالةً روحيةً وهمية، على سبيلِ المثال، سيفصلُ قطعةً من المعدنِ عن كومةٍ من الأشياءِ المعدنية (خاتمَ حبيبتهِ أو والدتهِ أو جدّتهِ)، وينظرُ إليها نظرةً مختلفة، ويمنحُها مشاعرَ خاصة. في هذا الوقت، يكونُ سخيّفاً قليلاً، وليس علمياً، لكنّه بدأ يتصرفُ كشخصٍ طبيعي.

حين لا يُنظرُ إلى الخاتمِ على أنّه معدنٌ فقط، فإنّ العلمَ يكونُ قد تنازلَ عن الساحةِ للإيمان، لجميعِ أشكالِ التفكيرِ غيرِ المنطقي، وتكاملُ عبثيةِ الحياةِ وقداستها بشكلٍ غريب.

إنّ مقولةَ منشيوس «الرجلُ الحقيقيُّ يبقى بعيداً عن المطبخ»، هي بالطبع إطارٌ عاطفي، فلم يتحمّلْ رؤيةَ مشاهدِ الذبحِ الدموية في المطبخ، لكنّ ذلك لم يمنعه من أكلِ اللحوم. امتناعُ البوذيين عن القتلِ وحتى عن اللحوم والأسماك هو أيضاً إطارٌ عاطفي. كما أنّهم لا يعرفون أنّ

النباتات هي أيضاً حياة، وفقاً لعِلْمِ الأحياء الحديث، لا يمكن للشجرة أن تطلب المساعدة، بل تعاني من الألم، وردود الفعل العصبية وحتى حركات الجسم المرنة. لكن هل يمكننا أن نسخر من أطريهم العاطفية؟ أو بشكلٍ آخر، بأيّ معنى وإلى أيّ مدى يمكن أن نسخر من سخافتهم ونفاقهم؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، إذا شجعنا كلَّ شخصٍ، وشجعنا حتى كلَّ طفلٍ على ذبح الدجاج والكلاب والقطط والبجع وجميع أنواع الكائنات الحية، وإذا رأينا طفلاً في مثل هذا الكرنفال الدموي دون أن تحفّق قلوبنا، سيتلاشى النفاق والعبثُ حتماً، ولكن، ألنْ نفقد شيئاً في الحياة في الوقت ذاته؟

ماذا نستطيع أن نفعل؟ هل نمنع الأطفال من أكل اللحم أو أيّ شيءٍ آخر، أو أن نهزأ ونقضي على تعاطفهم مع أيّ مخلوقٍ جميل؟ هذا التعاطفُ النابعُ من منشيوس والبوذيين وغيرهم من أسلاف الثقافة؟ فهمتُ فوتشا حين فكّرتُ في هذه النقطة، لم يكن لديه وقتٌ للتراجع عن محظورات الفم، أو لقطع رأس دجاجة وغسل العتبة بدمائها لإنقاذ العمّ لوه، لذلك غرق في ذنبٍ لا سبيل للخلاص منه.

كان غير عقلانيّ تماماً.

وعقلانياً تماماً.

طوق العشب المعقود

أنهى فوتشا المرحلة الثانوية، وكان واحداً من المثقفين القلائل في المناطق المجاورة، وبالإضافة إلى كونه محاسباً بارعاً، ويميدُ عزفَ الناي، وعزفَ الهوتشن، ويعاملُ كبارَ السنِّ بتهذيبٍ واحترام، فقد كان حريصاً ودقيقاً أثناء إنجاز الأعمال، واستحوذَ وجهُه الناعمُ الشاحب على اهتمام النساء أينما ذهب، كان يتجاهلُ كلَّ ذلك، ولم تكن نظرائه مشتَّةً أبداً، بل موجَّهةً أمامه مباشرةً، موجَّهةً إلى هدفٍ آمِنٍ وموثوق، مثل الحقولِ أو وجوه كبار السن. أما كان يدركُ تهامسَ النساء، خجلهن أو دهشتهن؟ أم يتظاهرُ بعدم المعرفة؟ لا أحد يعرف.

حين يراه بعضُ النساءِ قادماً، يغرسن شتلات الأرز بعشوائية عن عمد، ليرينَ إن كان سيهتَمُ بذلك أم لا. كان كادراً، وبالطبع سيهتَم، ودون أيِّ تعبيرٍ على وجهه، يقولُ شيئاً بصرامة كأنه ينجزُ عملاً مثل «اغرسن الشتلات جيداً» ثم يمضي دون توقُّف. رآته امرأةٌ أخرى، وسقطت عن عمد، وتناثرت أوراقُ الشاي من السلَّة التي تحملها على كتفها، وصرخت من الألم لترى إن كان سيهبُ لمساعدتها. كان كادراً، بالطبع سيساعدها، لكنَّه بوجهٍ هادئٍ كالمتعاد، ساعدها في جمع أوراق

الشيء ووضعها في السلّة، ورفعها على كتفها، ثم غادر. لم يشعر أن أحداً ما يزال جالساً على الأرض يمسح دموعه، وأن هذا أمرٌ أهمُّ من الشيء. كما أن ردّه الفوري: «آسف، يجب أن أغادر» لم يكن كافياً على الإطلاق. ولم يعتقد أن إكثار النساء من ارتداء ملابس ملونة، أو إكثارهن من تزيين شعرهن بأزهار الخوخ أو الغار، له أيُّ علاقة به.

«يا له من متعجرف! ما العيب في النظر إلينا؟» أصبحت النساء أقلّ تسامحاً وأشدّ غضباً من غطرسته الباردة. بعد أن سعى بعض الناس من المناطق المجاورة إلى والدّة فوتشا لطلب الزواج ورفضه رفضاً قاطعاً، اتخذ هذا السُّخطُ تدريجياً سمّةً جماعية، امتدّ من ماتشياو إلى ما حولها، وأصبح موضوعاً مشتركاً بين الفتيات العازبات. حين يصادفنه في السوق، أو في اجتماعات الكومونة، لا يكون لديهن خياراً أحياناً إلا التجمع والمشاركة في ذمّ العدو، مثل انتقاد عزفه الناي أو الهوتشن، أو وجهه الشاحب. ثم قلن إنَّ هناك أبَ وردةٍ حمراء في ماتشياو بالفعل، وخشين أن يظهر أبُ وردةٍ حمراء ثانياً، عُذراً، لا، ربما سيظهرُ مخصيٌّ لا يرغب به الإمبراطور. كن سعيدات بخبثهن، وضحكُن حتى دَمَعَت عيونُن.

ربما لم يكن بهذا الغضب، لكن مشاعرهن دائماً تتضخّم ضمن المجموعة، بمجرد أن تتجمع النساء، تكون الأمور مختلفة. لقد فقدن السيطرة على خلاياهن ونهاياتهن العصبية، وشعرن بألم حيث لا يوجد ألم، وبحكّة حيث لا يشعرن بالحكّة، وشعرن بالسعادة حين لم يكن سعيدات، وغضبُن حين لم يكن غضبات، وكان عليهن إثارة كثير من الضجة المفرطة حول كلِّ شيء، وإلا فلا شيء آخر يمكن فعله.

في النهاية، عقد أكثر من عشرةٍ منهن العشب سرّاً كقسم على ألا يُسمَح لإحادهن بالزواج من هذا الرجل. وإن فعلن ذلك، فليُمسَخَنَّ إلى خنازيرٍ وكلاب، ولتلعنهن السماء والأرض.

يُعرف هذا بطوق العشب المعقود.

مرَّ الزمنُ عاماً بعد عام، وفوتشا لا يعلم شيئاً عن طوق العشب هذا، ولا يعرف أن طقساً مقدساً كهذا ضده. في النهاية، لم يفز بأيّ ابنةٍ لملك التّنين، ولا بأميرةٍ لإمبراطور اليشم، واتخذَ زوجةً شعرها سيّئ التمشيط، تبدو كما لو أن عُشَّ دجاجةٍ يطفو فوق رأسها. أصبح عُش الدجاج نهايةً مملةً لأكثر من عشرِ نساء التزمّن بوعدهنّ، واتحدن ضدّ العدو لأكثر من عشرِ سنوات. بالطبع، كنَّ قد غادرن منازلَ عائلاتهنّ، وأصبحن زوجاتٍ لأشخاصٍ آخرين. كان بإمكان ثلاثٍ منهنّ أن يخرجنَ خلاف ذلك، إذ إنّ خاطبةً فوتشا ذهبت من قبل إلى منازلهن لنقل رغباته ووالدته. لكن كان لديهن اتفاقٌ مُسبقٌ وعقدن طوقاً عشياً، لا يمكن النكوص به ومواجهة أخواتهن بالخزي. كان لديهن شعورٌ بالولاء لقسمهنّ السابق، وشعرن بفرح الانتقام، وبإحساسٍ الإثارة الجماعية التي تُلزِمُ الإيثار، وهزرن رؤوسهن بحزم.

بالنسبة لي، كان القَسَمُ -مثل محظورات الفم- استبداداً لغوياً أيضاً. واحدةٌ من النساء الثلاث، اسمُها تشيو شيان من بلدة تجانغ جيا فانغ، أُجبرت على هذا الاستبداد، وتزوجت طبيباً بيطرياً. لا يمكن القول إنَّ هذا النوع من الإكراه كان ذا تأثيرٍ سيّئٍ شديد، إذ تعلّمت الخياطة، وكانت عائلتها ميسورة الحال، لكنّها وزوجها لم تنسجم طباعهما، هذا كلُّ شيء.

ذات يومٍ، كان المطرُ على وشك الهطول، أنهت عملها من بابٍ إلى

بابٍ وركبت درَّاجتَهَا إلى المنزل. تملكها شعورٌ خفيٌّ بالضيق، ولم ترغب في العودة إلى المنزل. قررت المبيتَ في منزل عمِّ لها من القَدْرِ ذاتِها، وفي الطريق قابلت رجلاً يضربُ طفلاً، خفق قلبُها بشدَّة، عاجزةٌ تماماً عن تصديق ما تراه: الكثيرُ من الشعرِ الأبيض، الكثيرُ من تجاعيدِ الجبهة، البنطلونُ في فوضى، ساقُ أقصرُ من أخرى، إنَّه فوتشا القديم! إن لم يكن رأسُ هذا الرجلِ المُسنِّ قد انكمشَ بخجلٍ في حركةٍ تقتربُ من إيماة، لظنَّت أنها ميَّزت الشخصَ الخطأَ حتماً.

- أيها الأخ فوتشا... شعرتُ بأنَّ هذه الكلماتِ الثلاث أصبحت غريبة.

- هيه... ظهرت ابتسامةٌ مصطنعةٌ على وجهه: «ألا ترين أنَّه مزعج، لا يريدُ المغادرة، والمطرُ على وشك الهطول».

- «كي كي، هل تريدُ الركوبَ على درَّاجتي؟» كانت نظراتها معلقةً على الطفل.

لمعت عينا طفلٍ حين رأى المرأةَ ودَّرَّاجتَهَا.

- لن أركب، أخبرَ العمَّ الصغير، لن أركب، لن أعيقَها عن أمورِها.

- لا عليك، سأمرُّ بهاتشياو على كلِّ حال.

نظرَ الطفلُ إلى والدِه، ثم نظرَ إليها، ثم نهَضَ بسرعة، وصعدَ بمهارة على المِصَدِّ الأمامي للدَّرَّاجة.

وقف فوتشا حائراً لا يدري ماذا يفعل، وربما لم يكن من السهل عليه أن يمسكَ بالطفل، لذا ضربَ قدمَه بمكانٍ وقفَتِ البعيدةُ قائلاً: «هل ستنزُل أم لا؟ هل تريدُ أن أضربَكَ؟».

- كي كي، أخبر والدك أنك لا تعطيني.

- أبي، لا أعطها!

- اسأل والدك، هل يريد الركوب؟

- أبي، هل تريد الركوب؟

- لا... لا أستطيع...

- اطلب منه أن يركب الدراجة.

- أبي، العم الصغير يريدك أن تتركب الدراجة.

- لا لا، انطلقا...

تردّدت شيو تشيان قليلاً، ثم ما لبثت أن سمعت رذاذ المطر على الجبالِ المقابلة، فأعطت فوتشا مظلتها، ثم صعدت على درّاجتها وانطلقت. كان الطفل متحمّساً بشدّة للهواء الذي يلفح وجهه، يُصدرُ تارةً صوتَ سهيلِ حصان، وتارةً صوتَ سيارة، وحين يرى الأطفال الآخرين على جانبِ الطريق، تصبحُ هذه الأصواتُ أعلى ويشتدُّ صراخه.

- كي كي، هل يعامل... والدك... والدتك جيداً؟

- أجل، هيّا، انطلقني.

- هل يتشاجران؟

- لا، لا يتشاجران.

- لا يتشاجران حقّاً؟

- تقول والدتي، إنّ طباعَ والدي جيدة، فلا داعي للشجار.

- لم يتشاجرا ولا مرّةً واحدة؟

- لا.
- لا أصدّق ذلك.
- حقّاً لا يتشاجران.
- إنّ والدتك محظوظة.
- كان ثمة خيبة أملٍ في نبرتها.
- صَمَتَتْ لبرهة، ثم سألتُه مجدداً: «هل ... تحبّ والدتك؟».
- أحبّها.
- ماذا تحبّ فيها؟
- تصنع لي كعكة البابا.
- وماذا أيضاً؟
- «وأيضاً... حين لا أكتبُ واجبي، ويريد فوتشا ضربي، توبّخُه».
- كان ينادي والدَه باسمِه مباشرةً حين يكونُ مستاءً.
- هل اشترتْ لك والدُتك الألعابَ من قبل؟
- لا.
- لم تأخذك إلى المدينة لرؤية القطارات؟
- لا.
- هل تَحيّدُ والدُتك ركوبَ الدّراجة؟
- لا... لا تستطيع.
- هذا مؤسف... أليس كذلك؟
- ابتهجت شيو شيان قليلاً.

- ليس مؤسفاً، فأنا لا أريدها أن تركب الدراجة.

- لماذا؟

- لأنها قد تسقط، كاد جرّار أن يقتل والدّة غوي شيانغ أثناء ركوبها الدراجة.

- إنك ولدٌ شقيّ، ألا تخاف على العمّ الصغير أن يسقط من على الدراجة أيضاً؟

- إذا سقطت، فهذا كلام فارغ.

وكلام فارغ تعني لا داعي للقلق.

سألته شيو شيان بقلق: «لماذا هو كلام فارغ؟».

- «لأنك... لست والدتي، هممم». رأى الطفل منحدرًا آخر، وأرسل بفرح إشارة للإسراع.

كانت تشيو شيان في حالة ذهول، وشعرت فجأةً ببلى في عينيها كاد يسيل، كزت على أسنانها، وانطلقت بالدراجة. لحسن الحظ، بدأ تساقط أمطار الخريف.

سؤال الكتب

حين رأيتُ فوتشا مجدداً، كان شعرُهُ أشعث، وساقُ بنطالِهِ أقصرَ من الأخرى، فركَ يديه، وأصرَّ على أنْ أذهبَ إلى منزله. في الحقيقة لم يكن لديَّ وقت، لكن حين رؤيته واقفاً ينتظرُ بصمت، لم يعد لديَّ خيار إلا الإذعان له. أدركتُ لاحقاً أنَّه يريد اغتنامَ الفرصة ليُريني كتابه؛ كومة من المسوداتِ مكتوبة على ورقِ الحسابات، معبأة في كيس سماوي بلاستيكي وممزوجة بنثرِ أعشاب. لم تكن جودة الحبر جيدة أيضاً ويبدو باهتاً في كثيرٍ من الأماكن. اكتشفتُ مندهشاً أنَّ هذه هي الدراسة الأكثرُ جرأةً التي رأيتها حتى الآن:

أرادَ تغييرَ النسبة بين المحيطِ والدائرة «باي» المُعرِّفِ بها عالمياً. لا أفهمُ الرياضيات، ولا يمكنني تقديمُ أيِّ نصيحة بشأن بحثه، ولدي شكوكٌ حول نظريته المبتكرة. ابتسمَ ابتسامةً باهتة، وفركَ التبغَ برفق، وعباً قصبة البامبو. قال إنَّ ثمة فرقاً شاسعاً بين المهنتين، لذا على الأرجح لن تفهم، هل تعرفُ أشخاصاً في مناصبٍ عليا؟

- أيُّ نوعٍ من الأشخاص؟

- شخصٌ يفهمُ الرياضيات.

أجبت بسرعة: «لا».

بدا أثرُ خيبةٍ أملٍ في عينيه، لكنَّه قال والابتسامةُ لم تفارق وجهه: «لا بأس، سأبحثُ مجدداً».

بعد عودتي إلى المدينة، أرسل لي خطاباً، ولم يتحدث عن الـ«باي»، بل عن بعض المسائل اللغوية، فهو يعتقدُ على سبيلِ المثال، أنَّ كلمة «يُسَدَّد - 射» وكلمة «قصير - 矮» كلمتان معكوستان تماماً. فالرمزُ «射» يتكون من رمزيّ «身» ويعني جسد» و«寸» ويعني إنشاً»، إذَن تعني «قصير». أمَّا كلمةُ قصير «矮» فتكون من رمز «矢» ويعني سهماً، وتحملُ معنى «يُسَدَّد ويُصَوَّب». كتبَ هذا الرأي في رسالةٍ إلى مجلسِ الدولة واللجنة الوطنية لإصلاح اللغة والكتابة، وطلبَ مني العثورَ على معارفٍ لتسليم الرسالة إلى «المتخصصين في المسائل اللغوية».

في رسالةٍ أخرى، قال إنَّ أهلَ ماتشياو كانوا يطلقون على القراءة في السابق (وتعني أيضاً يتعلَّم ويدرس 讀) «سؤالُ الكتب»، وهو ما قاله والده. التعلُّم - السؤال - التعلُّم - السؤال، كيف ستعلَّم إن لم تسأل؟ وفي المقابل، فإنَّ «قراءةُ الكتب» الآن لا تعني شيئاً، بل تُظهرُ ميلاً إلى المبالغة في التأكيد على الحفظِ عن ظهرِ قلب. واقترحَ أن تعيدَ المدارسُ في جميع أنحاء البلاد إحياءَ مصطلح «سؤال الكتب»، كعبارةٍ أكثر فائدةً للتحديثِ الوطني.

الوزير أسود

ذات ليلة، سمعتُ فجأةً أصواتَ صرخاتٍ في القرية، تعلو وتنخفض، «آه، آه، آه»، بعد لحظةٍ بدأت الكلابُ تنبحُ أيضاً، كأنَّ أمراً جليلاً قد حدث. نزلتُ من السرير وفتحتُ الباب، لأكتشف عبرَ نور القمرِ الباهت، أنَّ صوتَ وان يو حادُّ بدرجةٍ مرعبة. اتضحَ أنَّ خنزيراً جبلياً كبيراً تسلَّلَ إلى القرية، وتعرَّضَ للضربِ والإصابةِ من الرجال، مُخلفاً وراءه خيطَ دمٍ ونُتفاً من شعره، ولم يعرفوا إلى أين فرَّ. قال الرجالُ إنَّه أمرٌ مؤسفٌ للغاية، واستمروا في إطلاقِ الصرخاتِ صوبَ الجبالِ المعتمة.

في هذه اللحظة، فُتحتَ جميعُ الأبوابِ، وحذا جميعُ الرجالِ حذو الآخرين، حتى وان يو بخصره الرفيع كالأفعى وصوته الأثوي، خرج يحملُ فأساً، متفحّصاً الأرجاء خلفهم. قال فوتشا لاهثاً، هذا ليس شيئاً جليلاً. الأمرُ ليس متعلّقاً بالوزيرِ الأسودِ فحسب، فأني حيوانٍ بري يدخلُ القرية، ستُفتَحُ جميعُ الأبوابِ إذا صرخ شخصٌ واحدٌ فقط. إن أُغلقَ بابٌ في وقتٍ كهذا، لا تتخيل أن بوسعك حفظُ ماءٍ وجهك. أطلقوا على الخنزيرِ الجبلي «الوزير أسود».

بعد فترةٍ من الصراخ، تلتها فتراتٌ من الأصداءِ المتصاعدة، خَمَنَ
الجميعُ أنَّ لا أملَ الليلة، وعادوا إلى منازلهم مستائين. حين وصلتُ
عند إفريزِ المنزل، دهمني دعرٌ شديد، إذ لمحتُ بنظرةٍ عابرةٍ شيئاً أسودَ
يستلقي تحت النافذة. عقبَ مناداتي لعددٍ من الشبابِ المتعلِّم، اكتشفتُ
أنَّه لم يتحرك، فاستجمعتُ شجاعتي واقتربتُ منه قليلاً، لكنَّه ظلَّ
ساكناً. ركلته ركلةً، فاتضحَ أنَّه لم يكن خنزيراً برياً، بل حزمة حطب
تُصدِرُ صريراً.

كنتُ مغموراً بعرقٍ بارد.

الوزير أسود (تتمة)

حين يقول أهل ماتشياو «مطاردة اللحم» فإنَّهم يقصدون الذهاب للصيد.. «صنعُ حذاء» يعني إسقاطَ السيف.. «دعوةُ الضيوف» تعني السُّم.. «الركوبُ في سيارة» يعني حفرَ الأفخاخ.. «صافرةُ الجَنَّة» تعني البنادق، ونحو ذلك. لقد اشتبهوا في أنَّ الحيوانات تجيّدُ الكلامَ البشري، وقالوا إنَّه عند الصيد، وحتى لو كنتَ في المنزل، فعليك استخدامُ لغةٍ مُشفَّرة، للحماية من كشفِ الأسرار التي يمكن أن تنتصّت عليها الفريسة.

كان من الضروري إعادةُ الاتفاقِ على كلماتِ الاتجاه: «الشمال» تعني في الواقع «الجنوب»، و«الشرق» تعني «الغرب» (والعكس صحيح). وذلك لأنَّه عند محاصرة الوزير أسود، قرع الناسُ الغونغ وأثاروا ضجةً بالكلام، لإخفاءِ جهاتِ إطلاقِ النار أو الأفخاخ. لا يمكن إرباكُ الحيواناتِ إلَّا بالاتفاق على لغةٍ سرية، يصرخون باتجاه الشرق بينما يهاجمون الغرب، ويخلطون الحقيقي بالزائف.

كان مو جي شينغ يعلمُ كلَّ هذا بوضوح، لكنَّه لا يأخذه على محملِ الجد، ولا يمكنُ لعقله أن يستوعبَ الأمرَ في اللحظة الحاسمة. كان

طالباً في المدرسة المتوسطة العام ١٩٨٢، يكبرني بسنة دراسية واحدة، وقد أرسلنا إلى الريف معاً. ذات مرة، أثناء عودتنا من ضفة نهر لُوه بعد شراء حمولية من شتلات الأرز، قال إنه يريد العودة في وقت مبكر ليغسل حذاءه، واندفع بمفرده متقدماً بسرعة، واختفى في طرفة عين. تذرنا بغضب: يا له من مزعج، أي حذاء يريد غسله؟ متى غسل حذاءه من قبل؟ كان الأمر أننا قلقون في حالة عدم تمكن شخص ما من الاستمرار في طريق العودة، وربما شعر بالحرَج لأنه لن يقدم المساعدة بصفتي الأقوى. على أي حال، سواء ساعد في ذلك أم لا، لم يكن مضطراً إلى الهروب بهذه السرعة مثل اللص، يا له من متعب!

في الحقيقة لم يسبق لمو جي شينغ أن غسل حذاءه، حين يكتشف أن الحذاء زلّ من الداخل، يربط الفردتين برباط الحذاء، ويعلقهما في التيار الذي يجري وسط الحقول، ويتركه ليجف في الشمس لثلاثة أو خمسة أيام ثم يرتديه مرة أخرى؛ قال إن هذه طريقة غسل الأحذية الأوتوماتيكية. ولا داعي للقول إن الأحذية التي تُغسل بهذه الطريقة تظل كريهة الرائحة، وكلما بدا أن صاحب الحذاء سيخلعه، فإن أي شخص بجانبه سيهرب بأقصى سرعة ما أن يشم الرائحة.

كان تخميننا صحيحاً، لم يغسل حذاءه ذلك اليوم، ليس هذا فحسب، فحين عدنا إلى المنزل، لم نر حمولة شتلات الأرز، وهذا يعني أنه لم يرجع بعد، ولم نره طوال فترة ما بعد الظهر بعد أن انتهينا من غرس العديد من شتلات الأرز في الحقول على التلال، وبعد عودة الأشخاص المتأخرين في المسير. مع حلول الظلام، سُمِع صوت خطى ثقيلة، وصوت أنفاس تشبه المنفاخ، شكرت السماء والأرض، وشعرت بالارتياح كثقل أزيح

عن قلبي. كان مغطى بالطين، يتعثّر في مشيته وخطواته غير متزنة، وحزمة صغيرة من شتلات الأرز معلّقة في عصا الخيزران بشكل غير مستقر. قال شاتماً: «اللعة على هذا المكان الملعون للسلاحف، أشباه السلاحف الملعونين»^(١)! كلامهم فساء! خدعوني لأتجوّل في الجبال، وأوشكت أن أقع في فخ! سأفسق بأمهاتهم!». لم أعلم من كان يسبّ.

سألناه ما الخطب، وأين كان طوال اليوم؟ بدا وجهه غاضباً وتجاهل الجميع، واتجه إلى غرفته وهو يركل كل شيء يصادفه. استغرقنا وقتاً طويلاً لنذكر أنّه قد نسي عادة عكس الاتجاه لدى السكان المحليين، ولم يكن معتاداً على اللهجة المحلية، وأنّه سيكون على ما يرام ما دام لن يسأل عن الطريق، وأنّه سيضلل بسؤاله، لذا حمل شتلات الأرز الثقيلة إلى قوس شوانغ لونغ في شرق ماتشياو، ثم حملها إلى لونغ جيا تان في جنوب ماتشياو، وأخيراً انطلق في جولة كبيرة في الجبال إلى أن حلّ الظلام، حينها اشتبه أحد السكان المحليين الذي مرّ به أنّه لم يفهم، وذكره بقاعدة الاتجاه، فكاد أن يُغمى عليه من الغضب. ضحكنا جميعاً.

رأى الفلاحون أنّ الأمر مضحك أكثر بعد معرفتهم، قال العمّ لوه: «بما أنّه مجرد كتلة كبيرة من اللحم لا تستطيع فهم الكلام البشري، ألا يجب أن نطلق عليه الوزير أسود؟».

(١) من شتائم هونان المميزة، وتشير إلى عدم رضا شخص أو دهشته من سلوك شخص آخر، وتعبر عن الازدراء والاشمئزاز.

كان هناك عددٌ أقلّ وأقلّ من الحيوانات البرية على الجبل، ونادراً ما
استُخدمَ تعبيرُ «الوزير أسود»، وبشكلٍ غير متوقّع، أعادَ موجي شينغ
إحياءَ هذا التعبير عبرَ تغيير معناه فحسب. كان يذهبُ إلى العملِ عادةً
دون ارتداءِ قُبْعَةٍ من الخيزران، ويعرّي الجزء العلوي من جسده ويكشفه
لأشعةِ الشمسِ المتأجّجة، حارقاً ظهره وكتفيه المتينتين بلونٍ أسمرٍ لامع،
وحين يركض يتموّجُ جسده بموجاتٍ سوداء، لذا يبدو لقبُ الوزير
أسود مناسباً لمظهره.

تمتع بلياقة بدنية عالية، وكان يحبُّ المصارعةَ مع أيِّ شخص،
ويستمتعُ بالتنافس مع «أهل السلاحف» المحليين. فحين يحملُ أفرادُ
السلاحف سلّتين من الحبوب، يحملُ أربعَ سلالٍ على عمودين أو
ثلاثةٍ من أعمدةِ الحُمْل، وما أن يخيفَ الناسَ بإخراجِ لسانه، حتى يُنزلَ
أعمدةَ الحُمْل بعجرفة، ويكبحُ لهاته، ويستسلمَ مزهواً. إن ارتدى أهلُ
السلاحف الستراتِ المبطنَةَ بالقطن، يرتدي شورت، فتتحوّلُ شفتاه
في الطقس الثلجي شديد البرودة إلى اللونِ الأرجواني، وبمجرد أن
يثيرَ إعجابَ الناسِ حوله، يكرّزُ على أسنانه، ويدخلُ إلى المنزل متردداً
ومدفعواً بإقناعِ الناسِ له.

كان يحبُّ لعبَ كرةِ السلّة، ولا يرتاح في ظهيرة أيام الصيف الحارة،
بل يتحدّى أشعةَ الشمسِ اللافتة بمفرده في الجُرْن، يراوغُ بالكرة
ويقذفها، ويتصبّبُ عرقاً غزيراً دون سلّة. كان القيظُ شديداً إلى حدٍّ أن
حشرات السيكادا لا تطن، ولا يُسمَعُ نقيقُ الضفادع أو صياحُ الدجاج،
يُسمَعُ فقط ارتطامُ كرتِه في جميع أنحاء القرية، ما يجعلُ المزارعين عاجزين
عن الكلام.

- «كنتُ ما زلتُ أشربُ حليبَ الثدي في الثالثة عشرة! كان العملُ يجعلُ أُمِّي بعيدةً دائماً، وتجبرني المِرضعةُ على شربه». كان يصرِّحُ بمثل هذه الأشياء دائماً، لشرح أسباب قوته الجسدية التي لا تضاهى، والتلميح إلى أنَّه جاء من عائلةٍ من الكوادر الثورية.

الحليبُ شيءٌ جيد، رأى الفلاحون أنَّ هذا التفسيرَ مقنعٌ للغاية. أعرب تجونغ تشي على الفور عن اهتمام خاصٍّ تجاهه. حين يحلُّ الشتاء كان تجونغ تشي يحملُ مجمرةً من الخيزران على شكل سِلَّةٍ ويتجوَّلُ بها طيلةَ وقتِ الراحةِ من عمله. كان حجمُ المِجمرةِ كافياً لحرقِ ثلاثِ قطعٍ من الفحم، يحملُها شخصٌ واحدٌ ويضعُها تحت ساقيه أو قريباً من صدره، ورغم حجمها الصغير كانت تُعدُّ مصدرًا للنار، وتبثُّ القليلَ من الدفء. لم يسمح تجونغ تشي لأيِّ شخصٍ آخرَ بالاستمتاع بمِجمرته، حتى حين تأتي النساءُ لتدفئةِ أيديهن، يضحكُ مرحباً بهن، ولكنَّه يفرضُ مُهلةَ وقتٍ محدَّدة، ويوجِّهُ تحذيراتٍ متكررةً بشأن استهلاكهن الفحم، وإهدارهن الهائلِ للحرارة. وحده الوزيرُ الأسود من تُركت له جهةٌ من المِجمرة، ومع طقطقةِ حذائه، أوصلَ له المِجمرة طواعية. لكن مع الأسف، لم يكن الوزيرُ أسود مهتماً بهذا الشيء، فصحتُه جيدة ولا يشعرُ بالبرد أبداً، ألقي نظرةً واحدة، ونخرَ مغادراً.

كان تجونغ تشي يعرف الكثيرَ من أسرارِ القرية، ولا يفصحُ عنها بسهولة، أحياناً يقول شيئاً واحداً على الأكثر، وحين يستفسرُ الآخرون، يبدأ تشويقه المُفاخر: «خمن، خمن»، فيرتبُّك الآخرون ويعجزون عن فهمه. كان على استعدادٍ لمشاركة الأسرار مع الوزير أسود فقط، سرُّ

اليوم: «كومةٌ من ريشِ الدجاج كانت في منزل فوتشا أمس». وسرَّ آخرُ غداً: «تعثَّرَ العمُّ لُوهُ على الجبل منذ يومين» وآخرُ بعد غدٍ، ويُحْفَضُ صوته: «شخصٌ زارَ منزلَ أهل شوي شوي، وأحضرَ خنزيرين صغيرين».

لم يكن موجي شينغ مهتماً بهذه الأسرار، وأراده أن يحكي البذيء منها. شعر تجونغ تشي بالإحراج، وبعد أن تلعثمَ وتردَّدَ لبعض الوقت، وتورَّدَ وجهه، قرَّرَ أن يحكي شيئاً. تحدَّثَ عن والدَةِ فوتشا، قال إنَّها قبل سنواتٍ كانت نائمةً ذاتَ ظهيرة، واستيقظت في حالةٍ ذهول، لتجدَ رجلاً فوقها، ولم يكن بالطبع والدَ فوتشا، لكنَّها كانت ناعسةً للغاية، فلم تقاوم، ولم يكن لديها أيُّ رغبةٍ في معرفةٍ من هذا الرجل، فنادت صوبَ الغرفةِ الأخرى: «أيها الابن الثالث، تعالَ بسرعة، والدتُك تشعرُ بالحرِّ الشديد! تعالَ وانظرْ ما الذي يفعله هذا الرجلُ الأحمق!». كان ابنها نائماً في الحجرةِ الأخرى ولم يستيقظ، لكن هذه الصرخة كانت كافيةً لإخافةِ الرجل الغامض، فتقلَّبتَ براحتهِ وأكملت نومَها.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء.

- «هذا كلُّ شيء؟» شعرَ موجي شينغ بخيبةِ أملٍ كبيرة، ورأى أنَّ هذا السرَّ بلا معنى.

اكتشفتُ لاحقاً أنَّ العلاقةَ بين تجونغ تشي ومو تزدادُ قوة. اعتاد مو إثارةَ جلبةٍ حين إطفاءِ الضوء والذهاب إلى الفراش ليلاً، لكنَّه الآن يخرجُ في الغالب بمفرده وأحياناً يعود إلى المنزل متأخراً، وحين نسأله أين كان، يردُّ بغموضٍ ومراوغة، وإحساسٌ بالزهو يتوارى بين حاجبيه، وكان يتجشأُ بلا مبالاةٍ برائحةِ العنَّابِ أو البيض، ممَّا أذهلنا وأشعرنا بغيره

شديدة، لم يكن يسمح لنا بمشاركة حفظه الجيد في الأكل، حتى لو ضربناه حتى الموت لن يكشف الحقيقة، هذه نقطة نعرفها جيداً. علمنا لاحقاً أنّ تجشؤه كان مرتبطاً بـ تجونغ تشي، وأنه أعدّ له كعك الأرز اللزج، وأنّ زوجته غسلت له لحافه وحذاءه. وجدنا الأمر عصياً على الفهم: كان تجونغ تشي الأشدّ بخلاً، ولم يكن ليساعد أيّ «لي» أو أيّ «تجانغ»، فلم يتزلّف إلى الوزير أسود الأحق؟

في إحدى الليالي -بعد نومنا بقليل- استيقظنا مذعورين على صفقة باب عنيفة، أشعلنا القناديل فاكشفنا أنّ الوزير أسود يجلس على السرير ويُنفّس عن غضبه العارم.

- ماذا بك؟

- سأخبره حتى الموت!

- من؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

لم ينطق بكلمة.

- هل تقصد السيد «مُعتمد»؟

لم ينطق بكلمة.

- كيف أساء لك؟

- «ناموا!». أصدر صريراً عالياً على لوح السرير، وأيقظ الجميع، لكنه كان أوّل من ارتفعَ شخيره.

عصرَ اليوم التالي، سُمِعَت طقطقة جرموق تجونغ تشي عند الباب، ولمع على صدر قميصه زرّ الزعيم ماو بحجم بيضة. «قال الزعيم ماو، على الدائن تسديد دينه، أيّ سبب يمنع سداد الدين في الاشتراكية؟»،

سَعَلَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ وَأَكْمَلَ: «لَمْ أَكُنْ لَأَتِي الْيَوْمَ إِلَّا لْغَرَضٍ مُّحَدَّدٍ، إِنْ لَمْ يَسُدِّدْ مُوجِي شَيْئِنْغٍ بِالنَّقُودِ، سَتَفِي الْحُبُوبُ بِالْغَرَضِ».

انْدَفَعَ مُو مِنْ الْغُرْفَةِ وَقَالَ: «تَسْدِيدُ أَيِّ أَمْوَالٍ؟ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْخَرْفُ!».

- سَدَّدْتَ أَمْ لَمْ تَسُدِّدْ، أَنْتَ تَعْرِفُ مَا أَعْنِيهِ.

- أَنْتَ الَّذِي دَعَوْتَنِي لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ مَرَّةً بَعْدَ الْآخَرَى، لَمْ أَتَسَوَّلْ وَلَمْ أَكُنْ رَاغِبًا، وَكُلُّ مَا تَنَاوَلْتُهُ تَبَرَّزْتُهِ، إِنْ أَرَدْتَهُ اذْهَبْ إِلَى كُوْخِ الْمَرَحَاضِ!

- أَيُّهَا الرِّفِيقُ، لَا تُنْكِرْ، عَلَيْكَ أَنْ تَجْتَهِدَ فِي الدِّرَاسَةِ، أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُونَ لَمْ تَنْمُ أَجْنَحْتُكُمْ بَعْدَ، وَمَا زِلْتُمْ تَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَتَوَسِّطِي الْحَالِ مِنَ الْفَلَاحِينَ، هَلْ تَفْهَمُ ذَلِكَ؟ وَلَا أَخْفِي عَلَيْكَ الْقَوْلَ، إِنَّنِّي أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْكَ أَيُّهَا الْوَزِيرُ أَسْوَدَ، لَكُنَّنِي لَا أَفْشِيهِ. إِنَّنِّي أَعْذَرُكَ!

كَانَتْ نَبْرَةٌ صَوْتٍ تَجُونُغُ تَشِي مَشُوبَةً بِتَهْدِيدٍ.

- تَكَلَّمْ! هَاتِ مَا عِنْدَكَ!

- تَرِيدَنِي أَنْ أَتَكَلَّمُ؟ تَصْرُ عَلَى أَنْ أَتَكَلَّمُ؟

- سَأَعْطِيكَ تَيْنِي إِنْ لَمْ تَتَكَلَّمْ!

- حَسَنٌ إِذَنْ، وَقْتَ زِرَاعَةِ مُحْصُولِ الْفُولِ السُّودَانِي الْعَامَ الْفَائِتِ،

كَانَتْ الْبَذُورُ تَنْقُصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْفَرِيقِ، وَكَانَ فِي بَرَاكِ فُولِ سُوَادَنِي، هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّنِي لَمْ أَرَّ ذَلِكَ؟ وَقَبْلَ عِدَّةِ أَيَّامٍ، قُلْتُ إِنَّكَ تَسْتَحِمُّ، لَكِنْ مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ فِي الْوَاقِعِ؟...

احمرَّ وجهُ الوزير أسود، واندفع نحوه وأمسكه، واتجه خارجاً، ثم ضرب رأسه في إطارِ الباب، وصرخَ تجونغ تشي: «سيقتلني! سيقتلني!». خشينا حقاً أن تقع جريمة قتل، فأمسكنا ذراعَ الوزير أسود، وحاولنا فضّ الاشتباكِ بينهما بكلِّ ما أوتينا من قوة. انتهز تجونغ تشي هذه الفرصة، وانسلَّ من تحت إبطي، مُطقطقاً بحذائه في الجُرن. حين ابتعدَ صوتُ السَّباب، سألنا مو عما يحدث بالضبط.

- ما يحدث؟ طلب مني فعل أشياءٍ منحطة.

- ماذا؟

- ممارسة ذاك الأمرِ مع زوجته.

- أيُّ أمر؟

- يا شبَّية السلحفاة، ألا تفهم؟

عمَّ الصمتُ للحظة، ودُهشنا دهشةً كبيرة، ثم ضحكنا بشدة. هربت فتاةٌ من الشبابِ المتعلِّم من الخوف، ولم تظهر مرَّةً أخرى.

أدركنا لاحقاً أنَّ تجونغ تشي يعاني العقم، واختارَ الوزير أسود لينجزَ العملَ بدلاً منه. «الأخ مو، أنت الملام».. «لديك طعامٌ وشراب ومن تضاجعه، تعيشُ مثل الخالدين».. «شيءٌ جيدٌ كهذا عليك أن تحتفظَ به لنفسك». كنَّا سعداءٍ للغاية، وعازمين على رفضِ تبريرِ الوزير أسود، ومصمِّمين على عدمِ السماحِ له بالهروب من سريرِ منزلِ تجونغ تشي.

- «أشبه السلاحفِ هؤلاء!». قال متظاهراً بأنَّه لم يسمع.

- من تسبُّ الآن؟ أخبرنا الحقيقة، هل ضاجعتها أم لا؟

- هل تجرؤ أنت على مضاجعتها؟ هل رأيت زوجته؟ نظرة لها تُفقدك الشهية! أفضل مضاجعة الخنازير.

- لم تضاجعها لكنك تأكل دجاج منزله؟

- أي دجاج تتحدث عنه؟ يستغرق الأمر شهراً لتناول دجاجة في منزلهم، يغرفون مغرفة شوربة واحدة كل مرة، ويفرغ الوعاء قبل أن تتذوق أي شيء. انس الأمر، مجرد ذكره يبعث في الغضب.

أصبح موضوع الوزير أسود الموضوع الرئيسي للحديث في الحقول بعد ظهيرة ذلك اليوم. ما أدهشني هو أنه باستثناء فوتشا، لم يعتقد أي شخص آخر في القرية أن تجونغ تشي ارتكب أي خطأ، وقرّر المسكين أن يكون والوزير أسود أصدقاء، هل تعتقد أنه من السهل أن يقدم لك الطعام والشراب؟ إنه رجل مريض، أراد فقط استعارة بذرة لينتج سليلاً، أمر طبيعى للغاية، لم يجبرك على الزواج، لقد أراد فقط أن يستعير شيئاً لا يهم، ما الصعوبة في ذلك؟ إنه خيار لمن ليس لديه خيار. قال تجاو تشينغ أيضاً، على كل حال، سواء وافق الوزير أسود أم لا، فقد أكل الكثير من الطعام، وسيكون من الخطأ عدم سداذه.

بالطبع، لم يوافق الشباب المتعلم على هذه التصريحات الغريبة، واستمرّ شجارنا بعد الظهيرة حتى جفت حلوقنا، وكنا سنقدّم تقريراً للكومونة، يجب ألا ندع تجونغ تشي، هذا الموظف كبير السن، يغري شبابنا المثقف الثوري. ثرثر الجميع عن الأمر ونسوه. بصفته سكرتير فرع الحزب، لم يكن لدى بن بي أي كلام منطقي لضيفه أيضاً، استدعى الشباب المتعلم إلى اجتماع، وطلب أولاً من أحدنا قراءة صفحات من افتتاحيات الصحف.

حين انتهت القراءة، واستيقظ من غفوته، ثأب وسأل موجي شينغ: «هل سرقَ الكثير من الفول السوداني من الفريق العام الماضي؟».

- أخذتُ حَفَنَاتٍ قليلة.

- إن زرعت حَبَّةَ فول سوداني، فسوف تنتج الكثير، هل تعلم ذلك؟

- يا عم بن يي، نتحدَّث اليوم عن تجونغ تشي، وهو أمرٌ يختلفُ كلياً عن الفول السوداني.

- «ما الفرق؟ تُظهِرُ الأمورُ الصغيرةُ موقفَكَ من المجموعة، وتوضِّحُ ما هو شعورك تجاه الفقراء ومتوسطي الحال من الفلاحين، أليس هو^(١)، هو الذي ضربَ طفلَ تجاو تشينغ الشهرَ الماضي إلى أن أبكاه حين كنَّا نحفرُ البركة؟» حدَّق بن يي في الجميع.

لم يرد أحد.

- حين تنظرُ إلى مشكلةٍ ما، عليك النظرُ إلى الأمرِ برُمَّته، عليك النظرُ إليه تاريخياً! يقول الرئيس ماو: «مهما حدث فمن الخطأ ضربُ الناس».

دافع موجي شينغ عن نفسه بإحساسٍ بالذنب: «كنتُ غاضباً جداً...».

- لا يمكنك ضربُ الناسِ وأنت غاضب، أيُّ نوعٍ من السلوكِ هذا؟ هل أنت شابٌّ متعلِّمٌ أم بلطجي شوارع؟
- لن أضربَ أحداً لاحقاً...

(١) انظر مدخل «هذا هو».

- هذا أفضل، إذا أخطأت عليك الاعترافُ بخطأك، من الكرامة أن تكونَ صادقاً، ما الذي تتجادلُ بشأنه حين تكونُ مخطئاً؟ حسنٌ إذن، لا داعي لكتابة النقد الذاتي، سأخصمُ منك ثلاثين جين من الحبوب.

نهض بن يي ويداه خلفَ ظهره، وبدأ راضياً تماماً عن حلّه للمشكلة، وأثناء خروجه جَعَدَ أنفه كأنه شمَّ رائحة الضفدع والفلفل الأخضر من مطبخنا، أمّا مسألة تجونغ تشي فقد قال إنه سيحلّها، سيحلّها.

لم تُثرْ هذه المسألة مرّةً أخرى، وبالتالي بقيت دون حل.

حين أفكّرُ في الأمر الآن، أدركُ أن الحقيقة مفيدةٌ وغيرُ مجدية، واضحةٌ وغيرُ واضحة. في مواجهة المنطقِ الفريد لفرع الحزب في ماتشياو والجماهير العامة، فإنَّ حيرتنا وغضبنا لا يجديان نفعاً على الإطلاق. ظلَّ موجي شينغ يتحمّلُ اللومَ العام، فقد أصبحَ رفضه سدادَ دين تجونغ تشي نقداً أو عينا، أو دفعَ غرامة الحبوب دليلاً قاطعاً على ظلّمه. مذكاً بدأت تظهرُ عليه علاماتُ الاكتئاب وتعمّد القيام بأعمالٍ غريبة وفظيعة، مثل ابتلاع قطع البورسلين أو رفع عربة كاملة بذراع واحدة، أو تشغيل معصرة الزيت بمفرده وإخبار جميع رفاقه أن يذهبوا إلى النوم، ولكن كان من الصعب جداً إثارة دهشة الناس من جديد، أو جذب ثنائهم ومساعدتهم. كما هجرته الأنسة شيا، لم ترغب هذه الفتاة من الشباب المتعلّم، ذات الملامح الطفولية، في ربط نفسها بزوجة تجونغ تشي، ورغم أن هذه الروابط لا أساس لها إطلاقاً، فإنّها لم تتمكن من الهروب من هذه التصورات. في النهاية، ظهر الوزير أسود فجأة ذات يوم أمامنا، وصدّره مغطّى بأزرارٍ ماو.

- لماذا ترتدي هذا أيها الأخ مو؟

ردّ مبتسماً: «سأذهبُ لتحريرِ تايوان».

حدّقتُ بدهشةٍ في عينيه، واكتشفتُ أنَّ نظراتِه أصبحت غريبةً كلياً. شُخّصَت حالته هستيرياً، وأُعيدَ تسجيلُ إقامته إلى المدينة. كان لا يزالُ متينَ العود، ولا يزالُ بإمكانه لعبُ كرةِ السلة، مشاهدةُ الأفلام، تدخينُ السجائر، وركوبُ الدراجة في الشوارع. كان يعيشُ حياةً غنية، كان الأمرُ فقط أنَّه لم يكن ماهراً في تمييزِ الأشخاص، يثرثر، ويعاني من تقلباتٍ مزاجيةٍ عشوائية، ربما كان في مرحلةٍ مبكرةٍ من الهستيريا. قبله أحدُ زملائه القدامى في الشارع، لكزه، فطرفَ بعينه، وتردّدَ لفترةٍ وجيزة، ثم استدارَ وغادر.

طحنُ اللعنات

إحدى الطرائق التي يتخذها أهل ماتشياو للانتقام من الأشرار القادمين من الأنحاء الأجنبية هي «طحنُ اللعنات». على سبيل المثال، إذا تبوّل أحدهم على قبر أسلاف أهل ماتشياو، أو تعامل مع نسائهم بوقاحة، يدور أهل ماتشياو حول الشخص الغريب ثلاث دورات، بصمت، ودون أن تتغير أصواتهم أو تعابير وجوههم، بعد ذلك ينتظرون بهدوء أن ينطلق هذا الغريب إلى الجبال أو الغابات. وحين بلوغ هذه اللحظة يتلون كلمات، نوعاً من القوافي شديدة التعقيد، شديدة التداخل، بها تلاعب بالألفاظ، تُفصل جميع أسماء الجبال، كانت هذه تعويذة الجبل السحرية الخاصة بهم. تعمل التعاويذ جيداً. ومما لا شك فيه، سيدور الغرباء الأشرار في الغابات، غير قادرين على تحديد الاتجاهات، سيسIRON ويسIRON إلى أن يعودوا إلى حيث كانوا، مواجهين السماء التي تُظلم شيئاً فشيئاً، ولن يفيدهم طلبُ المساعدة. قد يُضطرون إلى المعاناة من البرد والجوع في الجبال، أو قد يطؤون المصائد الحديدية لصيد الحيوانات، وربما يثيرون الدبابير والنمل السام، فيلدغون وتتورم أجسادهم. ويُقال إن غريباً من الأنحاء الأجنبية سرق ثوراً لقي حتفه

هنا، إذ ظلَّ عالِقاً في غاباتِ أشجارِ التنوب غير الكثيفةِ على جبالِ تيان تزي.

كان ثمة تعاويذُ لقبضِ الأرواح، كُلُّ ما عليك فعلُهُ هو أن تأخذَ خُصلةً من شَعْرِ الشرير، وتطحنَ كلماتِ التعويذة مراراً وتكراراً، وسيغيمُ عقلُهُ إلى أن يصبحَ زومبياً يمشي.

بعد عودةِ الوزير أسود إلى المدينة بسببِ مرضِهِ، انتشرت شائعاتٌ خفية، إذ اشتبه بعضُ الناسِ أنَّ زوجةَ تجونغ تشي طحنت تعاويذَ للوزير أسود، وبالطبع لم أقتنع بهذه الشائعات. لقد رأيتُ تلك المرأة: رغم أنَّها تضمُرُ الكراهيةَ للوزير أسود، فإنَّها لم تتذمَّر منه. كانت تتنهدُ أحياناً ببلاهةٍ أمام النساءِ في منزلِ جارتها، حولَ أنَّها لم تسعَ طيلةَ حياتِها إلى الثروة أو ترغب في حياةٍ طويلة، بل أرادت إنجابَ ولدين قويين وضخمين ومهذَّبين كالوزير أسود. على الأقل، لم يكن ثدياها سيظلان مُعلَّقين عبثاً طوالَ حياتِها.

الثواني الثلاث

تمتّع مو جي شينغ بحيوية مفرطة، حين كان في ماتشياو، ويلعبُ كرة السلة بعد انتهاء العمل، وإذا كان الشباب المتعلّم متعباً ولا يرغبُ في اللعب، يلعبُ مو جي شينغ مع أطفالٍ محليين، وأحياناً يركّض أكثر من لي إلى المدرسة المتوسطة في الكومونة ويلعبُ حتى منتصفِ الليل، ويهزُّ تقافزُ الكرة نورَ القمر.

كان صارماً للغاية مع طلابه، يُصفّرُ أحياناً، ويشيرُ إلى طالبٍ في الملعبِ قائلاً: «اربطُ بنطالك وارفعه إلى الأعلى قليلاً».

كان حَكماً ومدرّباً مهتماً حتى بالبناطيل.

جعلَ طلابه يُتقنون القواعدَ الأشدَّ صرامةً في ملعبِ كرة السلة، بما في ذلك قاعدةُ «الثواني الثلاث». قبل ذلك، لعبَ الجيلُ الأصغرُ في ماتشياو كرة السلة، لكنَّ القواعدَ كانت قليلةً نسبياً، إذ بالإمكانِ المراوغةُ بالكرةِ مرّتين، أو الركّضُ بها إن كان الوضعُ خطيراً، الشيءُ الوحيدُ الممنوعُ هو الضرب. درّبَ مو جي شينغ طلابه وفقاً لمعاييرِ الفريقِ الأقوى على مستوى المقاطعة، وعرّفهم على قاعدة «الثواني الثلاث». وحين زرتُ ماتشياو مجدداً بعد سنواتٍ لاحقة، وجدتُ القريةَ تحتوي

على غرفة ثقافية خاصة ونصف ملعب لكرة السلة. كان بعض الطلاب الصغار يصرخون ويلعبون كرة السلة، وجوه غريبة جداً بالنسبة لي. ما كان مألوفاً، والذي خفق له قلبي، هو صوت هتافهم المستمر الذي ترجع صدهاء في أذني لـ «الثواني الثلاث».

لا يعرف هؤلاء الطلبة الشباب المتعلم، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الذين جاؤوا إلى القرية وعاشوا فيها سنوات قصيرة، ولا عن الغرباء من الأنحاء الأجنبية الذي حلّوا ضيوفاً على القرية ولم يكن لديهم فهم عميق بهاتشياو، ولم يكن ثمة حاجة لأن يُبدوا اهتماماً. تجوّلتُ عبر القرية؛ لم تترك ماتشياو أي آثار لماضيها، ولا حتى الخدوش المألوفة على الجدران الطينية. ما زلتُ أتذكّر بصعوبة بعض أصدقائي القدامى، الذين فُقدت آثارهم واحداً تلو الآخر، ماتوا العام الماضي أو العام الذي سبقه أو قبل ثلاث سنوات أو قبل ذلك. دفع موثهم قرية ماتشياو إلى الغرق جزءاً فجزءاً في ذاكرتي، وقرية ستختفي دون أثر.

عشتُ هنا ستة أعوام. الآن - مثلما تُبددُ الريح الغيوم - تبددت أيام تلك السنوات الست، ولم يتبق سوى ذلك الأثر القديم، وهو «الثواني الثلاث». ورغم تغير معنى الكلمة، فإن «الثواني الثلاث» - حسب ملاحظتي - كانت مهمة للغاية للطلاب الصغار في الملعب، إذ لم تحظر التعلّق بالكرة لأكثر من ثلاث ثوانٍ تحت السلة فحسب، بل شملت أيضاً انتهاك جميع القواعد: الضرب والدفع والجري بالكرة. «الثواني الثلاث» هي مرادف للخطأ وانتهاك القواعد. كان بالتأكيد أمراً لم يتوقعه موجي شينغ في تلك السنوات التي عاشها هنا.

جوهرة يَشِمِ الخس

في الشتاء، حين تريدُ الجهاتُ العليا بناءَ مخزنٍ للحبوبِ أو مدرسةٍ متوسطة، فإنَّها ترسلُ الأوامرَ، وتقضي بأن يُسلَّم كلُّ شخصٍ خمسَ قطعٍ من الآجر. لم تملك ماتشياو ثمنَ شراء الطوب، ولم يكن بيدها خيارٌ إلا الذهابَ إلى التلالِ واستخراجه من القبور، بالطبع من تلك القبور المهجورة التي لا أصحاب لها.

يعيشُ معظمُ سكانِ الجبال في أكواخ أو منازل خشبية، لكنَّ قبورهم لم تُترك من دونِ عناية، وكانوا يستخدمون أكواماً ضخمةً من الآجر، ليكسبها مظهراً خالداً موعلاً في القدم. استمرت هذه القبور زمناً طويلاً؛ كانت تلالُ المقابر مهذّمة، ومغطّاةً بالعشبِ الكثيفِ والأشواك، ومتصلةً بالأشجارِ والأعشابِ على الأرض، ويصعبُ من نظرةٍ خاطفةٍ أن تميّز مكانَ القبر. كنا نستخدمُ المنجلَ لقطعِ الغطاءِ النباتي على القبر، ونزيلُ التربةَ السطحيةَ بالمِدَمات، فينكشفُ آجرُ المقبرة الأسود طوبهً طوبة. في هذه اللحظة، كانت الفتياتُ ضعيفاتُ الجنان من بين الشبابِ المتعلّم يهربن ويختبئن خائفات. بينما الرجال، وليبدو كلُّ منهم أشجع من الآخر، يتنافسون في غرسِ أسنانِ المِدَمّة في الشقوقِ

بين الأحجار، ويهزونها ببطءٍ إلى أن تتفكَّك، ثم يقتلعون الطوبة الأولى بحركةٍ عنيفة.

إذا كان القبر محفوظاً جيداً، فهو مثل وعاءٍ بقدرة عزلٍ حراريٍّ جيدة؛ حين يُشَقُّ القبر لا بُدَّ أن تندفع موجاتُ بخارٍ أبيض من الشَّق، وتنتشر رائحة هيكلي عظمي كريهة، تبعثُ في شعوراً بالغثيان، وحين يتبدَّد البخارُ الأبيض ببطء، نتقدَّم بخوفٍ إلى الأمام، ونختلس النظر إلى العالمِ المُظلم داخل القبر من خلالِ شَقِّ الطوبِ المكسور، وعبرَ خيطٍ مرتعشٍ من ضوءِ الشمسِ المتسلِّل، يمكننا رؤيةَ الهيكلِ العظمي الذي اختبرَ الحياة، أو تجويفِ العينِ الفارغ أو الحوضِ العريض، ويمكننا أيضاً أن نرى أكواماً عشوائيةً من الترابِ والأخشابِ المتعفَّنة. عموماً لا نتوقع نحن حفَّارو القبور، العثورَ على أيِّ ذهبٍ وفضة، وسنكون محظوظين لو عثرنا على قطعةٍ أو قطعتين من البرونز أو الفخار. والأكثرُ من ذلك، أنَّ العديدَ من الهياكلِ العظمية التي رأيناها كانت في وضعية الاستلقاء على البطن، وحسب السكانِ المحليين، فهؤلاء الذين ماتوا ميتاتٍ بشعة، مثل الذين صعقَهم الرعد، الذين سُنِّقُوا، والذين ماتوا رمياً بالرصاص، ولا ترغب الأجيالُ اللاحقةُ بعودتهم إلى العالمِ القديم واستئنافِ حظِّهم العاثر واستكمالِهِ، ولا يريدون أن تتناسخَ أرواحُهم، فيجعلون وجوههم إلى الأسفل، وهو إجراءٌ حاسمٌ لمنعهم من رؤيةِ الضوءِ مرَّةً أخرى.

لا يتساوى الناسُ في عيَشهم، وبعد موتهم يُعاملون أيضاً بطريقةٍ مختلفة.

ذاتَ مرَّةٍ، نبشنا جثةَ امرأة، واكتشفنا أنَّ شعرَها أسودَ فاحماً ولا معاً وبه حيوية، يصلُ طوله إلى خصرِها، رغم أنَّها تحوَّلت إلى عظامٍ بيضاء.

لم تتحلَّل أسنانها الأمامية، وكانت لامعة وممتدةً إلى الأمام تقريباً بطول ثلاثة إنش، هربنا مذعورين. في النهاية قررت لجنة الفريق تقديم اثني جين من اللحم وجين من النيذ للوزير أسود الذي لا يخشى المصائب، ليسكب زيت الديزل على تلك الجثة ويحرقها، وليمنع تلك المرأة الشبح من إثارة أيِّ متاعب. علمتُ من أحد الباحثين بعد سنواتٍ عديدة أن هذا لم يكن أمراً نادراً. في الحقيقة، موْتُ الإنسانِ عمليةٌ بطيئة، الشعرُ والأسنانُ عضوان استثنائيان، يمكنهما الاستمرارُ في النمو لفترةٍ زمنيةٍ طويلة إذا ما توافرت بيئةٌ مناسبة، وأجرت الدوائرُ الطبيةُ الأجنبيةُّ أبحاثاً كثيرةً حول هذا الموضوع.

بدأنا في حَمَلِ المزيد والمزيد من طوبِ القبورِ من الجبل، بالطبع كانت الهياكلُ العظميةُ مبعثرةً على التلال. يُقالُ إنَّ النسورَ تكثُرُ على هذا الجزء من الجبل، تُخلِّقُ في السماءِ هنا وهناك، وربما تثيرُ الرائحةَ الكريهةَ شهيتها. وقال آخرون إنَّهم سمعوا أصواتَ رجالٍ ونساءٍ يصرخون في الليل على الجبال، بالتأكيد كانت الأشباحُ تسبُّ حقَّاري قبورهم وهي تتجمَّدُ من البرد. ورغم ذلك، كنَّا لا نزالُ نذهبُ إلى الجبالِ كلَّ يوم، لارتكابِ فعلنا الخسيس.

كان تجاو تشينغ في العادة جباناً، لكنَّه لم يتخلف أبداً عن حفرِ قبورِ الأسلاف. علمتُ لاحقاً أنَّه يأخذُ زمامَ المبادرةِ دوماً، لأنَّه أرادَ العثورَ على شيءٍ نادرٍ وقيمٍ في حفرةِ القبر، ينمو على لسانِ الميت، حجمه يشبه قطعةً غيرَ متساويةٍ من الملفوف، لونه أحمرُّ زاهٍ يخطفُ الأبصار، يبدو كأنفاسٍ تخثَّرت على مدى فترةٍ طويلةٍ في القبر ثم ازدهرت بجمالٍ لا يُصدَّق. يطلقُ الفلاحون على هذا الشيء الذي يشبه الملفوف «يَشْمُ

الحس»، ويُقال إنه أفضل منشط يكثف القوة الجسدية، والتي من شأنها أن تنظم الطاقة الحيوية وتنشط الدم، يمكن أن تغذي الين وتقوي اليانغ، يمكن أن تحمي الجنين وتطيل العمر. والعبارة التي ذُكرت في كتاب «حكمة الأمثال القديمة»: «مثلما لا يوجد ذهبٌ مزيف، لا يوجد يشمُ خَسٌ حقيقي» تشير إلى هذا الشيء، الذي يبدو نادراً. قالوا أيضاً إنه لا يمكن لأيِّ شخصٍ أن ينفث يشمَ الحس من فيه بعد وفاته باستثناء أفواه الأثرياء، أولئك الذين تذوقوا أفضل الأطياب، وناموا على وسائد قطنية، الذين غُذيت أجسادهم بالذهب واليشم أثناء حياتهم، ستؤتي ثمارها على أفواههم بعد مائة سنة.

ذات يوم، كان تجاو تشينغ يحفر، وفجأة نذت عنه تنهيدة حزينة طويلة.

- «لن يحدث، لن يحدث، ما الفائدة من العيش؟» هز رأسه وأكمل: «لن ينمو في فمي يشمُ خَس بعد موتي».

فهم الآخرون ما يقصد، وكسا الحزن وجوههم. فكروا في شرائح البطاطا الحلوة وجبّوب الذرة البائتة، والخضراوات المجففة التي يبتلعونها كلّ يوم وقد اسودّت، حتى مؤخراتهم لا تطلق أيَّ روائح كريهة، فأَيُّ يشمُ خَس يظنون أنه سينمو في أفواههم؟

- «ستنمو للعمّ لُوّه». قال وان يو بثقة شديدة: «لديه ابنٌ بالتبني يرسل له النقود من الأنحاء الأجنبية».

قال تجاو تشينغ: «بن يي منضبط، وطاقته كافية، ولحم جسمه وافر، ابنُ العاهرة هذا كلّما ذهب إلى السلطات العليا لعقد اجتماعاتٍ

كُلَّ يَوْمين أو ثلاثة، ذبح خنزيراً في كُلِّ اجتماع، وتكادُ أَعوادُ طَعامِهِ أن تَشْثني من ثِقَلِ اللحم».

رَدَّ تَجونغ تَشْي: «عَقْدُ الكَوادرِ لِلاجتماعات هي أَعْمالُ ثورية، هل تَشْعُرُ بِالغيرَةِ؟».

- أيُّ أَعْمالٍ، أَلَا يَعْنِي هَذَا إِنْماءَ يَشْمِ الحَس؟

- ما هَكَذا يُقالُ الكلام، إِنَّ نَمّا يَشْمُ حَسٌّ لِكُلِّ شَخْصٍ، سَيَصْبَحُ رَخِيصاً جِداً، ولا يَسْتَحِقُّ المَال، هل تَعْتَقِدُ أَنَّهُ كان سَيُذَكَّرُ في كِتاب «حِكمَةُ الأَمْثالِ القَدِيمَةِ»؟

- «في السَّنَةِ التي بَدَأَ فيها إِصلاحُ الأَرْضِ الزِراعيةِ، أَوْشَكْتُ أن أَكونَ كادِراً». انصَرَفَ تَجاوُ القَصيرُ بِتَفكيرِهِ إلى المَاضِي بِاسْتِغْراقٍ حَالِمٍ.

- «أَنْتَ يا تَجاوُ القَصيرِ، حَتَّى اسْمُكَ لا تَسْتَطِيعُ كِتابَتَهُ بِشَكْلِ صَحِيحٍ، فَكَيْفَ سَتَصْبَحُ كادِراً؟ إِذا أَصْبَحْتَ كادِراً، سَأَنْهَضُ كُلَّ يَوْمٍ وَأَمْشِي على يَدَيَّ في الشَّارِعِ». ضَحَكَ تَجونغ تَشْي من هَذَا الكلامِ كَثِيراً.

رَدَّ تَجاوُ تَشينِغ: «يا تَجونغ الأَعرجُ، انظُرْ إلى تَنينِكَ، تَحْمَلُ كِتابَ الاقْتِباسِ الخَاصَّ بِكَ كُلَّ يَوْمٍ، وَتَرْتَدِي زَرَّ الزَعِيمِ ماو، مَن الَّذِي تَحاولُ إِثارةَ إِعْجابِهِ؟ وَتَظُنُّ أَنَّهُ سَيَنمو في فَمِكَ يَشْمَ حَس؟».

- لا أَرِيدُ.

- لَنْ يَنمو لَكَ.

- لَنْ يَنمو لي، وَهَكَذا لَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ لِيَنْبِشَ قَبْرِي.

- هل سيكون لك قبرٌ لينبشه أحد؟

كانت جملة تجاو تشينغ شديدة القسوة، لم يكن لتجونغ تشي أولاد، وكان في نظر الناس معرضاً لخطرٍ ألا يُدفنَ بعد موته، فيما تجاو تشينغ لديه خمسة أو ستة أبناء، ومن الواضح أنَّ كلام تجاو تشينغ هذا نابعٌ من تفوقه، وقد داس بكلامه على القدم المؤلة للطرف الآخر.

- تجاو البغيض، أنت رجلٌ قاسٍ دون قلب.

- يا لصيق الخنزير.

- لم يغسل والداك فمك من قبل؟

- لا داعي لغسل فمك، فهو مليءٌ بالخراء.

اشتدّ تلاسُنُ الاثنين وازداد غضبُهما، وكان من الصعب أن يقاطعهما الآخرون. ولتلطيف الموقف، ذكر فوتشا «تجو» سكرتير الكومونة، قائلاً: «كيف نقارنُ بن يي به؟ يعتقد خمسة اجتماعاتٍ في الشهر، ويحشو فمه بين حينٍ وآخر بشحمٍ لا يكفي لإذابة ما في معدته من البطاطا الحلوة والأرز. تنعم كوادِرُ الكومونة فقط بأفضل ما في الحياة، يتجولون هنا اليوم، وغداً هناك، ويُستقبلون أحرَّ استقبالٍ كأنّها ليلة رأس السنة. انظرُ إلى لحم السكرتير تجو المتورّد، يُمكن أن يُقلَى في قدرٍ كبيرةٍ من الزيت. لا تزال حنجرته الذهبية صادحةً، يبدو وقعها مثل غونغ حتى بعد قضاء ليلةٍ في كتابة التقارير، وصوته أعذب من صوت تيه شيانغ، هل تعتقدُ أنَّ يشمَّ الخس الذي سينمو سيكون صغيراً؟».

تولّى العمُّ لوه الحديث قائلاً: «هذا صحيح، لن تعرف الأشخاص إلا بالمقارنة بينهم. إن افترضنا أنَّ بن يي سينمو في فمه يشمُّ خس،

فسيكون بحجم حبة بطاطس كأقصى حد، وعشر حباتٍ لن تضاهي حبة واحدة للسكرتير تجو. إن كنا سنحفرُ قبراً في المستقبل، فمن الأفضل أن يكون قبر السكرتير تجو».

بعد الحديث عن السكرتير تجو، تحدّثوا عن الرئيس خي، وعن بعض الشخصيات الهامة في المقاطعة والمحافضة، وأخيراً تحدّثوا عن الزعيم ماو؛ رأوا جميعاً أنَّ الرئيس ماو هو الأوفر حظاً، وأنَّه الأكثرُ امتلاكاً للحظِّ السعيد، وأنَّ يشمَّ الخسَّ الذي سينمو له بعد مائة عام سيكون استثنائياً، لن يكون فقط دواءً لجميع الأمراض، بل أكسيرٌ سحريٌّ للحياة. ورأوا أنَّ كنزاً وطنياً مثل هذا يتطلب موادَّ حافظةً كيميائيةً متطورة، وعدداً ضخماً من الحراس ليلاً ونهاراً.

بعد التفكير ملياً، اتفقَ الجميعُ على أنَّ هذا ما سيكون عليه الأمر. بحلول ذلك الوقت، كانت الشمسُ مائلةً بالفعل إلى الغرب، لذلك رفعوا مِدْمَاتهم على أكتافهم وتوجهوا إلى منازلهم.

بعد بضعة أيام، زار السكرتير «تجو» ماتشياو لفحصِ الوضع والبحث عن الأجر، وبينما كان يتحدّث عن ذلك، طلبَ مني مساعدته في كتابة بعض المواد الرسمية على ورق الكربون، وظلَّ يثني على تقليدي الجيد لخطِّ سونغ. وبينما أحدّق في وجهه السمينِ المبتهج، ظلَّت أفكارِي شاردة، وتخيلتُ أنَّ في فمه خساً كحبة ملفوفٍ كبيرة، ترافقه في كلِّ مكان. كان صوته رناناً بالفعل، ويقلّد دائماً الموسيقى في البرامج الإذاعية، ويغني أحدث أغنية في مديح بكين. كان يسألني كثيراً عن رأيي في غنائه، مستمعاً إلى إعاداتٍ لا تنتهي من تحياتي المزيفة. سألني أيضاً، ماذا لو أصبحَ مديراً لدائرة ثقافة المحافظة؟ قلتُ: «بالطبع، بمهاراتك الفنية، من الواضح أنَّ

لديك ما يلزم». أسعده هذا أكثر، ولم يستمر في الدندنة والغناء فحسب، بل ورحب أيضاً بأي شخص رآه بحرارة، وسأله عن حال أطفاله وخنزيره. بدا أن الثقة تنضج من جسده تجاه الخس الأكبر حجماً الذي سينمو على فمه في المستقبل.

طلب من بن يي أن يرشده إلى مكان جلب الأجر. في رأيي، كان يشم خس كبير يقوده يشم خس صغير، ربما سيكون هناك يشم خس يحمل الأجر. لم تفارقني هذه التأملات العبثية، وأربكتني، وخيل إلي أنني نبشت قبوراً كثيرة في تلك الفترة، فامتلاً رأسي برائحة الجثث، وفسد داخله.

- أخبرني، عدا تقليد خط سونغ، ما الخطوط الجميلة الأخرى؟

- يشم الخس.

- ماذا تقول؟

- آه، أنت تسألني عن...

- أسألك عن الخطوط الجميلة الأخرى.

انتبهت فجأة، وأسرعت إليه للإجابة عن سؤاله.

تقديم الكرمة

الكروم الصفراء هي نوع نباتاتٍ شديد السُمِّيَّة، تذهبُ النساءُ إلى المنحدر لقطفه إن أردن الانتحار، ويستخدمه الرجال كذلك لتسميم الروبيان والأسماك عند المنعطف الضحل للنهر حيث يتدفق الماء ببطء. تُقطعُ حزمةٌ من النبتة وتُعقدُ ثلاث عقد، وتُغرس فيها ريشة دجاجة أو تُغمسُ في صحنٍ مملوءٍ بدمها، ويُرسَلُ شخصٌ لتسليمها إلى العدو، إذ يعني هذا الإنذار الأخير قبل التقاء السيوف، ويعني الوصولُ إلى هذه المرحلة أنَّ الأمور تدهورت إلى حدٍّ خطير، ومن غير المرجح أن تُحلَّ المسألة دون خسائرٍ في الأرواح.

يقول الناسُ إنَّ قريةَ ماتشياو في بدايةِ سنواتِ تأسيسِ الجمهورية، قدَّمت كرمَةً ذاتَ مرَّةٍ إلى لونغ جيا تان، وكان فيها رجلٌ يُدعى «الأب شينغ جيا»، اشترى ذاتَ يومٍ بقرةً ومرَّ أثناءَ عودته بقريةٍ له، وحلَّ ضيفاً في منزله للأكلِ وشربِ النبيذ، وربطَ البقرةَ في الخارج. وحين وصلَ الثَّالِة، سمعَ خوارها في الخارج، فطلبَ من أحدِ الأطفالِ إلقاءَ نظرة. ذهبَ الطفلُ وعادَ قائلاً: «إنَّ ثوراً أسودَ جاءَ من حيث لا يدري، وامتنطى ظهرَ بقرتهم». غضبَ الأبُ شينغ جيا بشدة، فبقرةَته جاءت

للتوّ من السوق، أي نوع من البهائم المزعجة هذا الثور؟ يأتي لاغتصاب بقرته قبل أن تتسنى لها الراحة؟

اندفع الجميع خارجاً، ولم يعثروا على صاحب الثور الأسود. كان ابن أخ الأب شينغ جيا قد زاد من شربه للتوّ، وبتأثير الخمر أمسك شوكة تقليب الفحم الحديدية وسدّها مباشرة في مفصل قائم الثور الأسود، جأر الثور وانطلق راكضاً بالشوكة المتأرجحة. ويُقال إن طعنة الشوكة كانت عميقة للغاية وأصاب قلبه، وقد نفق في اليوم نفسه بعد عودته. كان الثور لقرية ماتشياو، وفي اليوم التالي قدّمت كرمّة صفراء مغموسة في دم دجاجة.

استمر القتال عشرة أيام، فقد خلاها أهل ماتشياو كرامتهم. كان لعائلة بينغ في بلدة لونغ جيا تان معبد أسلاف كبير، وقد تعاونت مع ست وثلاثين عائلة تحمل اللقب نفسه «بينغ» من الأقواس القريبة والبعيدة للهجوم على ماتشياو وهزيمتها. فاق عددهم عدد أهل ماتشياو، الذين لم يكن لديهم خيار آخر بعد أن وصلوا إلى حافة اليأس إلا استدعاء وسطاء بين الطرفين. بعد الوساطة، لم يرد أهل ماتشياو ثمن البقرة فحسب، بل كان عليهم - قبل تسوية المسألة برمتيها - هدم الصوامع وبيع الحبوب، وتعويض لونغ جيان تان بغونغ نحاسي، أربعة خنازير، وإعداد ست موائد عشاء.

كان عدد ممثلي ماتشياو الذين ذهبوا إلى لونغ جيا تان لتقديم الهدايا ثمانية أشخاص، يقرعون الغونغ؛ أربعة عجائز، وأربعة شباب، بناطيلهم مربوطة حول رؤوسهم، حاملين على ظهورهم حزم قش، للتعبير عن قبولهم عار الفشل والهزيمة. ورغم أنهم تلقوا النيذ من عدوهم كبادرة

صداقة، فإنَّهم عادوا إلى القرية والدموعُ تُبَلَّلُ وجوههم، وركعوا واحداً
تلو الآخر أمامَ شاهدِ الأسلاف، وكرَّروا طلبَ الصَّفحِ منهم، قائلين
بأيِّ كرامةٍ سيعيشون الآن؟ شربوا النبيذَ طوالَ الليلِ حتى احمرَّت
عيونُهم، ثم تنافسوا على ابتلاعِ الكرومِ الصفراء. في صباحِ اليومِ التالي،
نُقِلَت ثمانِي جثثٌ متصلِّبةٌ من قاعةِ المعبد، وسطَ عويلٍ جميعِ أهلِ القريةِ
وصراخِهم. ويُقالُ إنَّ بعضَ القبورِ المجهورةِ التي حفرُها بعد عقودٍ
تعودُ لهؤلاءِ الناس.

تنهد تجاو تشينغ قائلاً: إنَّ أحفادَهم إمَّا ماتوا أو هربوا، وإنَّ العامَ
الذي قُدِّمَت فيه الكرمَةُ كان عامَ مجاعةٍ أيضاً، لم يكن لدى أيِّ من الموتى
الكثيرَ لياكله، ولم تُشَبَّعِ العصيدةُ جوعَهم، لذلك فإنَّه أمرٌ طبيعيٌّ للغاية
ألا ينمو (يَشُمُ الخس) عند قبورهم.

بعد الانتهاء من العملِ في المقبرة، ألقى رجالُ ماتشياو نظرةً على
عظامِ الجثثِ المبعثرة، وابتعدوا عنها قدرَ استطاعتهم، كانت عيونُهم
تُشَيِّ بالخواء، وطلبوا من وان يو أن يغني شيئاً ما، ربما كنوعٍ من إظهارِ
شجاعتهم. انكمش وان يو أسفلَ دَرَجِ ترابي بعيداً عن الريح، ومسحَ
مخاطاً عن أنفه الأحمر المتجمَّد، وبدأ متمهلاً يغني:

أربعةٌ إخوةٌ وأربعةٌ قرون،

كُلُّ منهم يذهبُ إلى طريقه، يحملُ قرناً،

بعد خمسمائةِ عامٍ، تعودُ الأوراقُ إلى جذورها،

لا يمكنُ لكفِّ اليدِ أن تفارقَ ظهرها.

الأكبرُ ذهبَ إلى القمةِ الجنوبيةِ الشرقية،

الثاني ذهبَ إلى المنحدرِ الشمالي الغربي،
والثالثُ نَزَلَ إلى بحرٍ مِينِغٍ تَجْوُ^(١)،
والرابعُ قَطَعَ نَهْرَ تُونِغَ تِيَانِ^(٢)،
بعدَ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ وَخَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ أُخْرَى،
يَنْتَظِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ.
الدُّرُوبُ طَوِيلَةٌ وَخَالِيَةٌ،
مَتَى تَتَشَابَكُ قُرُونُ الْإِخْوَةِ؟

(١) بحر اللؤلؤ الساطع.

(٢) النهر الذي يصل إلى السماء.

العابزُ المُسن

أثناء حملة أعمالِ بناءِ الطرقِ العظيمة، كان تجاو تشينغ الأقلَّ شعبيةً في كوخ العمال. قال الناسُ إنَّه حين يصلُ إلى موقعِ العمل، لا يجلبُ شيئاً إلاَّ تَبْنِيَه العاري، ويتعاملُ مع ممتلكاتِ الآخرين كممتلكاتٍ مشتركة، إذا اقتربَ موعدُ تناولِ الطعام، واكتشفتَ أنَّ عَصِيَّ طعامِكَ اختفت، فعلى الأرجح أنَّه سرقها أولاً، واستخدمها لتناولِ طعامه. إذا اكتشفتَ أنَّ منشفتَكَ اختفت، فسيكونُ هو الذي أخذها للتو، ومسحَ بها صدره المتين أو أنفه المُسطَّح. لاحظَ الشابُّ المتعلِّمُ أسنانه الصفراء، وأنفه الطويل، لكنَّ أكثرَ شيءٍ كرهوه سرقة مناشفهم. بعد أن نتزعَّ منه المنشفة، كان علينا أن نغسلها مرَّاتٍ عدَّة بالصابون، ورغم ذلك يظلُّ يراودنا شكُّ في أنَّ قذارة أنفه عالقةٌ فيها.

كان يبتسمُ بوقاحة، بل ويتهمُّ الطرفَ الآخرَ بالبخل، وأحياناً يكونُ وقحاً ويقول: «لم أمسحْ ما بين فخذي وزوجتي بالمنشفة، لماذا أنتَ متوجس؟».

كان يُقحمُ ما بين الفخذين في كلِّ شيء، إذا أُصيبَ أحدُهم بنزيفٍ في الأنف، يقول هل جاءك الحيض؟ إذا ذهبَ أحدُهم ليتبول يقول هل

تُخرجُ رأسه ليرى الشمس؟ كان بوسعه إلقاء هاتين النُكْتَيْنِ مائةَ مرَّةٍ دونِ أن يملَّ، أو يشعرَ بأنَّ ثمةَ ما هو رتيب.

ذكر أيضاً ابنه الآذانَ الثالث، ذلك الابن العاق الذي أغوى تبيه شيانغ وفرَّ معها: «كان قد ضاجع امرأةَ المدينةِ تلك قبل أن تُتاح لي فرصة التصرفِ معه، ألا ترى أنَّ هذا مثيرٌ للغضب!».

كانت الفتياتُ من الشبابِ المتعلِّمِ الأشدَّ مقتاً له، ورَفَضْنَ مرافقته إلى العمل.

لم يستخدم الصابونَ مطلقاً في المنزل، لكنَّه لم يتحمَّل أن تكون للآخرين أغراضُ خاصَّة، ولا شيء في العالمِ يمكنُ أن يُفلتَ من تطفُّله. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أصبحَ مهتماً بالصابون، فيسرقُ صابونةً مع المنشفة. كان ينهمك بنشاطٍ في الغسيل، يغسلُ سترَةَ ماندرين بعنفٍ في طستٍ مليءٍ بالرغوة، ممَّا كان في الواقع مشهداً مريعاً لصاحبِ الصابون. حين عاد مو جي شينغ من العمل، وجد أنَّ قطعةَ الصابونِ التي اشتراها للتو قد ذابت إلى قطعة صغيرة، ولم يتمكَّن من التعرفِ عليها، وعجزَ عن منع نفسه من الشعورِ بالحزنِ والغضب: «تجاوز القصير، يا لك من رجلٍ بلا أخلاق، هل تعلمُ أنَّك تتعدَّى على ممتلكاتِ الآخرين وتخالِفُ القانون؟».

ردَّ تجاوز بوجهٍ مستاء: «علامَ تصرخ؟ أنا جدُّ، وأحفادي يرعون الماشية، ويجمعون الخطب، هل استخدامُ القليلِ من الصودا الخاصَّة بك مخالفٌ للقانون؟».

- لماذا تستخدمها؟ تعويض! أريدُ تعويضاً منك!

- سأعوّضك! ألا تعتقد أنني لا أستطيع تعويضك بقطعة صودا؟

سأعطيك عشرة يوان، انظر إلى نفسك!

قال شخص يقفُ قربَه مازحاً: «عوّضه بتينيك!».

احتقن وجهه تجاؤ تشينغ وردّ: «هل تظنُّ أنني لا أستطيع تعويضه؟ ولدتُ خنزيرتي خنانيص تَأْكُلُ قِدرَ علفٍ كلَّ يوم، وتوشكُ على الخروج من الحظيرة».

كان الطرفُ الآخرُ لا يزال يتحدثُ بعقلانيةٍ ومنطق: «حتى لو تبرّزت خنزيرتك ذهباً، ستعوّضني».

- سأعوّضك، سأعوّضك! سأعوّضك ببطلوني.

قفز مو جي شينغ قائلاً: «لا أريدُ بنطلونك، هل تعتقد أنني سأرتدي بنطلونك هذا؟».

- ولماذا لا ترتديه؟ لم يمرَّ شهرٌ على خياطته.

- إنّه مثل بنطلون النساء، لا مكان من أجلِ التبولِ أو التغوط.

كان مو جي شينغ يزدي بناطيل الفلاحين، تلك التي تُربطُ بعودٍ من القُنْب، دونِ مشابكٍ للأحزمة، ولا شكل لها على الإطلاق، مجردُ أنبوبين فضفازين، الخلفُ مطابقٌ للأمام. كان الناسُ يعكسون تلك البناتيلَ لدى ارتدائها، وينتهي الأمرُ غالباً بالجزءِ الخلفي المتنفخ في المقدمة، ما يُشعِرُ المرءَ أنَّ أسفلَ جسده متصلٌ بالاتجاهِ المعاكس.

- ماذا ستفعلُ إذن؟

لم يخطر ببال مو جي شينغ أيُّ شيءٍ جذّابٍ يمتلكه تجاؤ القصير، وفي خيرةٍ من أمره اضطرَّ إلى تأجيلِ مسألةِ الصابونة وحلّها في وقتٍ لاحق.

أدرکت حينها لماذا يطلق أهل ماتشياو على تجاو تشينغ «العابر المسن»، وتعني كبير السن البخيل، أو البخيل، أو الشيطان البخيل. وفي مفردات ماتشياو، كلمة «津 - عابر - يعبر بالمعدية - وتُنطق jīn» وكلمة «岩 - صخر - yán» متضادتان. إذ إنَّ كلمة «岩» تشير إلى الغباء أو الاستقامة والصراحة المباشرة، طبيعة تشبه الجبال، أمَّا «津» فتشير إلى المكر والدهاء، طبيعة تشبه الماء، كما أنَّها تتطابق مع القول المأثور «الخيرون يحبون الجبال، والعقلاء يحبون الماء» مع الأخذ في الاعتبار أنَّه في العصور القديمة، حيثما كانت هناك أنهار، كانت هناك مواصلات وتجارة والمزيد من الحسابات والخطط، لذا كان من المنطقي استخدام كلمة «津 - عابر» لوصف الشخص الماهر في الحسابات.

نمتُ إلى جانب تجاو تشينغ على سريرٍ واحدٍ أياماً عدَّة، وأكثرُ ما لم أحمِّله هو طحن أسنانه؛ لم يعلم أحدٌ لمن كان يحملُ هذا الحقدَ الدفينَ ليطحنَ أسنانه كلَّ ليلة، طوالَ الليلِ دونَ توقف، كأنَّه يمضغُ كتلاً صلبةً من المسامير أو الزجاج، فتهترُّ أكواخُ العمالِ كُلِّها، حتى الذين يعانون من الأرق على بعد بضعة أكواخ، لا بُدَّ أنَّ أعصابهم شُدَّت وسُحِقَتْ بسببِ أسنانه. لاحظتُ أنَّ الكثيرَ من الناسِ يستيقظون في الصباحِ بعيونٍ مُحْتَقنة، وجفونٍ منتفخة، وشعرٍ أشعث، وسيقانٍ وأيادٍ واهنة، منهكين ومتألمين، كأنَّهم مرُّوا بصدمة. لولا طحنُ تجاو تشينغ لأسنانه، لما أصابنا على الأرجح الذعرُ هكذا.

لكنَّ تجاو تشينغ كان يتصرفُ كأنَّ شيئاً لم يحدث، يسيرُ بهدوءٍ وخفَّةٍ، يبتسمُ أحياناً مُظهراً أسنانه الصفراء، ويخبئُ الحقدَ الذي يحمله في الليل دون أن يترك أثراً.

تحدثت عن الأمرِ معه، وردَّ متباهياً: «ألم تنم جيداً؟ لماذا لم أسمع شيئاً؟ نمتُ نوماً عميقاً إلى حدِّ أنني لم أثقلَّ».

- أنتَ مريضٌ بالتأكد، أو معدتُك مليئةٌ بالديدان.

- يجبُ أن أذهبَ لزيارة الطبيب، أقرضني القليلَ من المال، ثلاثةَ يوانات، خمسةَ يوانات، أيَّ مبلغٍ سيُفي بالغرض.

اقتراضُ المالِ مجدداً. بعد تجربةٍ مريرةٍ سابقةٍ في إقراضِ المالِ وعدمِ استعادته، استشطتُ غضباً حين سماعي ذلك: «هل لديك الجرأةُ لتطلب؟ هل تظنُّ أنني بنك؟».

- أقرضني إياها لمدةِ يومين أو ثلاثةِ أيام، يومين أو ثلاثةٍ فقط، سأردُّها لك ما أن تخرجَ الخنازيرُ من الحظيرة.

لا يمكنني تصديقه، أعلمُ أنني لستُ وحدي، ولكنَّ جميعَ الشبابِ المتعلِّمِ تقريباً ارتكب خطأ إقراضه، كان من الصعبِ استعادةُ النقودِ ما أن تخرجَ من يديك. يبدو أنَّ اقتراضَ المالِ أصبحَ هواية، نوعاً من الشغف، نوعاً من الترفيهِ المتحضِّرِ الذي لا علاقةَ له بالهدفِ الفعلي، غالباً ما كان يقرضُ حين لا يحتاجُ المالُ على الإطلاق. ذاتَ مرَّةٍ، فضَّل أن يوبَّخه الوزير أسود ويمطره بوابلٍ من الشتائم، إذ اقترضَ منه يواناً واحداً في الصباح، وأعادَه بعد الظهرِة تحت تهديدِ قبضته، دون أن يفعلَ بالمالِ شيئاً. بالطبع، اقترضَ المالِ في حدِّ ذاته مسألةَ ورقةٍ تدفئُ جيبه لبضع ساعات، وينعمُ براحةِ البالِ والسرور. «هل كلُّ الأموالِ متشابهة؟» سأل مرَّةً بجديَّة: «استخدامُ المالِ ليس بالأمرِ المهم، يمكنُ للجميعِ استخدامه، ما نوعُ المالِ الذي يجبُ استخدامه وكيفيةُ استخدامه بسعادة، هو ما يجبُ

أَنْ نَنْتَبِهَ إِلَيْهِ». ثُمَّ أَرَدَفَ: «يَعِيشُ الْإِنْسَانُ حَيَاةً وَاحِدَةً، وَيَعِيشُ الْعَشْبُ خَرِيفًا، مَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْمَالِ؟ يَجِبُ أَنْ يَحَاوَلَ النَّاسُ فَقْطَ الْعِيشَ بِسَعَادَةٍ». كَانَ كَلَامُهُ فِلْسَافِيًّا لِلْغَايَةِ.

وَاصَلَ طَحَنَ أُسْنَانَهُ كَالْعَادَةِ، وَتَجَاوَزَ الْأَمْرُ قَدْرَتِي عَلَى التَّحْمَلِ، فَطَرَدْتُهُ إِلَى كُوخٍ آخَرَ. لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَا يُحْمَلُ، لَا لِحَافَ، لَا صَنْدُوقَ، لَا صَحْنَ، لَا عِيدَانِ طَعَامٍ، وَلَا حَتَّى عَمُودَ حَمَلٍ أَوْ مِعْوَلَ يَخْصُهُ. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي أَكْوَاخِ الْعَمَلِ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِاسْتِقْبَالِهِ، رَغْمَ اسْتِقْرَارِهِ الْبَرِيِّ لِلْمَمْتَلِكَاتِ، حَتَّى ابْنِ عَمِّهِ مِنَ الْقَدْرِ نَفْسُهَا تَذَمَّرُ لِعَدَمِ امْتِلَاكِهِ حَصِيرَةٍ، وَرَفَضَ أَنْ يَشَارَكَهُ الْفَرَاشَ. مَرَّتْ أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ دُونَ أَنْ يَعْتَرَّ عَلَى مَكَانٍ يَأْوِيهِ.

لَمْ يَكُنْ أَمْرًا مَهْمًا، كَانَ مِثْلَ الْآخَرِينَ، يَعِيشُ الْيَوْمَ بِيَوْمِهِ، يَشْقُ طَرِيقَهُ بِصُعُوبَةٍ، وَتَحْتَ سِتَارِ الظَّلَامِ، يَدْفَعُهُ اللَّيْلُ إِلَى إِطْلَاقِ وَضَاعَتِهِ، فَيَغْسِلُ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ وَقَدَمَيْهِ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ، وَيَرْسُمُ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةً ظَرِيفَةً شَقِيَّةً، وَيَتَسَلَّلُ إِلَى الْأَكْوَاخِ كَوَخًا تَلَوَ الْآخِرَ، مِثْلَمَّسًا طَرِيقَهُ وَبَاحِثًا خَلْسَةً عَنْ هَدَفٍ، وَيَسْتَلْقِي عَلَى السَّرِيرِ الْفَارِغِ إِنْ وَجَدَ وَاحِدًا؛ تَخَلُّ عَنْ حَذْرِكَ وَسِينْدُسُ فِي زَاوِيَةِ السَّرِيرِ، وَإِذَا تَرَدَّدَتْ مَجْدَدًا سَيَتَظَاهَرُ بِالشَّخِيرِ. وَمَهْمَا وَبَّخْتَهُ وَضَرَبْتَهُ، وَشَدَدْتَ شَعْرَهُ وَقَرَصْتَ أُذُنِيهِ، لَنْ يَفْتَحَ عَيْنِيهِ وَلَنْ يَتَحَرَّكَ.

بَوْسَعَكَ أَنْ تَضْرِبَهُ حَتَّى الْمَوْتِ.

كَانَ رَأْسُهُ صَغِيرًا، نَحِيلًا مِثْلَ ضَفْدَعٍ ضَامِرٍ، يَكَادُ يَشْبَهُ قَبْضَةً صَغِيرَةً عِنْدَمَا يَنَامُ فِي زَاوِيَةِ السَّرِيرِ، مَعَ عَمُودِهِ الْفَقْرِيِّ الْمُنْحَنِيِّ وَسَاقِيهِ الْمُنْكَمَشَتَيْنِ، لِذَا لَا يَشْغُلُ مَسَاحَةً كَبِيرَةً.

إن كان الآخرون في كاملٍ يقظتهم وحذرهم، فلن يعثر في الحقيقة على فجوة ثلاثم جسده، وحينها سيضع عمودَي حَمَلٍ في مكانٍ ما بعيداً عن الريح والأمطار، ويقضي الليلة مرتدياً ثيابه. هذه واحدة من مهاراته الفريدة، حتى أنه كان ماهراً في النوم على عمودٍ واحد، ينأى بعمق لساعات، دون أن يحرك عضلة، ولا يسقط، وكان عموده الفقري كافياً لإذهال لاعبي الأكروبات الذين يسرون على الأسلاك الفولاذية.

إنه يفضل أداء مهارة عمود الحَمَلِ كل ليلة، على العودة إلى المنزل لجلب حصيرة من القش، وما كان غريباً إلى حدٍّ ما، أنه لم يُصَب بأي مرضٍ رغم نومه في العراء تحت الطل والصقيع، بل كان دائماً حيواً ومرحاً كديكٍ صغير. في كل مرةٍ أستيقظ، يكون منهمكاً في العمل منذ وقتٍ مبكر، يجلس في نورِ الفجر الضبابي يفتل حبلاً أو يشحذُ شفرة فأس، وبحلول الوقت الذي أذهب فيه إلى موقع العمل بعينين ناعستين، يكون قد تفصّد عرقاً. الشمس مشرقة، تحرق الضباب الممتد على مرمى البصر، وتصبغُ جسدَ تجاو القصير بلونٍ برتقاليٍّ متوهج، أذكرُ تحديداً أن أسلوبَ حفره كان بديعاً للغاية؛ كأنه لا يرفع رأس المِدمّة الثقيل، بل يقفز تلقائياً، ووفقاً لخطواته ترسمُ خطوطُ الحرثِ ممتدةً ومتهاوجةً ومتسقةً بدقة، في اللحظة التي يسقطُ فيها المشط، يستديرُ رسغُه ببراعة، ويستديرُ المشطُ معه، ويُحطّمُ الكتلَ بدقة في الوقت المناسب. كانت قدماه تتحركان بإيقاعٍ منتظم وقوي، عملٌ نظيفٌ دون أدنى إهدارٍ للوقت والجهد. لا يمكنُ تحليلُ أفعاله بشكلٍ منفصل، كانت كلُّ أفعاله في الواقع فعلاً واحداً غير قابلٍ للفهم، حركةٌ سلسلة، حيث يتبعُ الشكلُ التفكير، سلسلةٌ وسهلة، كرقصةٍ لا

تشوبها شائبة. كان يحني رأسه مؤدياً الرقصة المبهرة الأنيقة في الضباب البرتقالي.

بالطبع، حصلت آلة الإنتاج على أكبر عددٍ من نقاطِ العمل، إذا كُلفَ بمهامٍّ، ينجزُ الأعمال التي تستغرق يومين أو ثلاثة في يومٍ واحد، مثيراً حسدَ وذهولَ الجميع. ورغم ذلك، كان يقضي الليل على عمودِ الحُمْل. علمتُ لاحقاً أنه عاش هكذا في منزله، يُعيلُ سبعةً أو ثمانية أطفال، وكانت الأحفدةُ الممزقةُ على السريرين تغطي أطفاله، لكنها لا تغطيّه.

أشدُّ ما أثارَ استياءه أنه في بداية حركة تنظيم الأسرة، أصبح هدفاً رئيسياً لإجراء عملية قطع القناة الدافقة. قال إنَّ الحزبَ الشيوعي يحكمُ السماء والأرض، لماذا يحكمُ ما بين الفخذين أيضاً؟

في وقتٍ لاحق، أذعنَ وذهبَ إلى المركز الصحي للكومونة، هناك العديدُ من الأقاويل حول سببِ ذهابه، وليس ذهاب زوجته لإجراء عملية التعقيم. قال إنَّ زوجته مريضة، ولا يمكنها إجراء العملية، فيما قال آخرون إنه قلقٌ من خيانة زوجته، وإنَّها بإجراء العملية ستتمكنُ من إخفاء الأمر. وقال آخرون، ياله من هراء، كلُّ من يُجري عملية التعقيم سيُمنَحُ مكافأةً من الحكومة تتمثلُ في عبوتين من حلوى العنب وخمسة جين من لحم الخنزير. لم يتذوق تجاؤ القصير حلوى العنب من قبل، فسعى إلى أن يكونَ تحت المِشرط، ليتمتعَ بمذاقها.

بعد عشرة أيام أو نحو ذلك، خرجَ وذهبَ إلى العمل، كان وجهه نظيفاً ومحلوقاً، وبشرته أكثرَ تورداً، يبدو أنَّ حلوى العنب تصنعُ المعجزات. ضحك الشباَّبُ منه، وقالوا النساءُ فقط يذهبن لإجراء عملية

التعقيم، كيف يمكنُ لرجلٍ أن يجريها؟ «ما أن يتمَّ القطع، ألن تصبحَ
مخصياً؟» ردَّ بانفعالٍ شديدٍ قائلاً إِنَّ الحكومةَ ضمنتَ عدمَ حدوثِ ذلك.
ولمَّا رأى أنَّهم لا يزالون لا يصدِّقونه، أنزلَ سرواله ليرى الجميعُ ويزيلَ
عنه هذا الافتراء.

الوزير أسود الذي لا يزالُ يحملُ ضغينةً تجاهه بسببِ الصابون لم
يتركه وشأنه، وقال: «قد يبدو شكلُ الصابونة كما هو، لكن من يدري إن
كانت تصلحُ للاستخدام؟».

ردَّ تجاؤ تشينغ: «أيها الصغير، قل للآنسةِ شيا أن تأتي، وستعرف إذا
كانت تصلحُ للاستخدام أم لا».

والآنسة شيا هي إحدى الشاباتِ المتعلِّمات، والتي كان الوزير
أسود يرغبُ في التودد إليها.

احمرَّ وجهُ الوزير أسود وقال: «أنت يا شبيه السلاحف النذل!».
ربط تجاؤ القصير سرواله ببطءٍ وقال: «قلبك يتألمُ عند ذكرِ الآنسة
شيا؟ مؤخرَةُ الآنسة شيا المستديرة، ألا تجعل المرء...».

اندفعَ الوزير أسود صوبَه قبل أن ينهي كلامه، وألقاه على ظهره
بحركةٍ مصارعةٍ منغولية، حين رفعَ رأسه كان وجهُه كُلُّه مغطَّى بالوحل.
نهض بوجهه المغطَّى بالوحل وركض بعيداً، وهو يسبُّ ويصرخ:
«أيها الطفل، يا لك من طفل، كلُّ أحفادي يرعون الثيران، وأنا مريضٌ
خرج للتو من المستشفى بعد إجراءِ عمليةٍ جراحية، حتى «خي» رئيس
الكمونة جاء لمواساتي، وقال إنَّني قدمتُ مساهمةً للوطن، كيف تجرؤ
على ضربِي؟ كيف تجرؤ؟».

عاد إلى المنزل ممسكاً ببطنه وقال إِنَّ الضربة سبَّبت له إصابة داخلية، وأنفق خمسة يوانات على الأعشاب الطبية. كان قد أخذَ معولاً يَخْصُرُ الوزير أسود، ورهنه بثلاثة يوانات، ومنشفة تساوي نصف يوان، ولا يزال الوزير أسود مدينًا له بيوانين، ولا بد أن يعيدها، هذا أمرٌ مفروغٌ منه.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت عملية قطع القناة المنوية سبباً يتكئ عليه في طلبٍ مقابلٍ لكلِّ شيء، وترخيصاً للحصول على معاملة تفضيلية أينما ذهب. اليوم يريدُ حرثَ الحقول (كان هناك الكثير من نقاطِ العمل في الحرث) لأنَّه خضعَ لعملية قطع القناة الدافقة، غدًا لن يحرثَ الحقول (كان هناك المزيد من نقاطِ العمل في عصرِ الزيت)، لأنَّه خضعَ لعملية قطع القناة الدافقة، وغداً يريدُ سَنَجَةَ الميزانِ صاعدة (حان الوقتُ ليورِّعَ الفريقُ حصصَ الحبوب) لأنَّه خضعَ لعملية قطع القناة الدافقة، اليوم يريدُ أن تهبَّطَ سَنَجَةُ الميزان (عند تسليم السَّهَادِ إلى الفريق) أيضاً لأنَّه خضعَ لعملية قطع القناة الدافقة. تكللت مساعيه بالنجاح، حتى أنَّه حاولَ توسيعَ هذا النجاح إلى خارج ماتشياو. حين ذهب مع فوتشا إلى المقاطعة لبيعِ البذور، استقلَّ باصاً في شارع تشانغ لي، وأصرَّ على عدمِ شراءِ تذكرة، كان لديه المال، المال العام الذي لم يكسبه بنفسه، ورغم ذلك كان لديه نفورٌ غريزيٌّ من إنفاقه، ويغضبُ من سعر أيِّ تذكرة. «١, ٢ يوان؟ ماذا تعني بـ ١, ٢ يوان؟ اثنا جياو على الأكثر مقابلِ خطواتٍ قليلة!».

وظلَّ مصرَّاً على موقفه.

ضحكتُ بائعةُ التذاكر بشدَّة قائلة: «من طلبَ منك ركوبَ الحافلة؟ تريدُ الركوب، هذه التكلفة، لا تريد، انزل فوراً!».

- ثلاثة جياو؟ ماذا عن ثلاثة جياو؟ أربعة جياو؟ ٥, ٤ جياو؟
- هذه حافلة عامة، لا يمكنني المساومة معك!
- هذا غريب، تجارة دون مساومة، حين نشترى السهاد من هناك نتفاوض.
- اذهب واشترِ السهاد إذن، لم يطلب منك أحد ركوب الحافلة.
- أي نوع من الكلام هذا من فتاة صغيرة؟
- هيا هيا هيا، ١, ٢ كواي، هات النقود.
- أنتِ أنتِ أنتِ، علام تريدن كل هذه النقود؟ لا أصدق أن عجلات سيارة كبيرة مثل هذه تحمل الكثير من الناس، هل تحتاج حقاً إلى الانعطاف كثيراً؟
- «انزل، انزل». دفعته بائعة التذاكر إلى الأسفل بنفاد صبر.
- «ساعدوني، النجدة!» تعلّق تجاوز تشينغ بباب الحافلة، وجلس على أرضيتها. «لقد أجريت للتو عملية قطع القناة الدافقة، وجاء كل كوادِر الكومونة لمواساتي، كيف تجرؤين على منعي من ركوب الحافلة؟».
- لم يتمكن السائق ولا المُحصّلة من إقناعه، وبدأ الركاب المحتشدون في الحافلة بالصراخ غاضبين، وحثوا السائق على الإسراع والانطلاق. شعر فوتشا بالخوف، فأخرج النقود بسرعة واشترى التذكرة.
- كانت سحنته مكفهرّة بعد الواقعة، يلكز النافذة، ويشدّ وسادة المقعد، ويبصق بغضب، ورفض النزول عند وصولهما المحطة، واكتشف بعد أن ناداه فوتشا مرّات عدّة، أنّه الراكب الأخير في الباص، ورغم ذلك

تباطأ في النزول: «الناس في الأنحاء الأجنبية محتالون، ثمن اثني جين من اللحم، هو مقدار الوقت الذي يستغرقه الجلوس في هذا الخراء». ثم أتبع ذلك بشتائم بذيئة.

حين عاد من المحافظة، قال إنه لن يستقل الحافلة بعد الآن، وكان يشعر بالسخط تجاه جميع الحافلات، فإن وقعت عيناه على إحداها في الشارع، يصرخ بسيل من الشتائم المصحوبة بالبصاق صوب الحافلة المسرعة: «عاهرات نبتات»، «لصوص وضيعون». في النهاية، لم تستثن أي حافلة من بغضه، وكان يسدّد لها نظرات شرسة. ذهب إلى مدينة هوانغ، وصادف سيارة جيب دهست بطّة أحد الفلاحين، ورفض سائقها تعويض الفلاح عن البطّة وتشاجر معه، أمر لا علاقة له تجاوز تشينغ به. استحوذ عليه غضب هائل إلى حدّ اندفاعه من بين الحشد، ودون أن ينطق بكلمة، لكم السائق لكمة أسقطته جالساً، ونزف أنفه على الفور. كان المتفرجون متعاطفين مع صاحب البطّة، وخائفين من هيبة السائق، فلم يجرؤ أحدهم على نطق كلمة، وما أن رأوا أحداً يتولّى زمام المبادرة، اندلعت صيحاتهم، وامتقع وجه السائق ورفيقه من الذعر، فأخرج النقود لتجنب المتاعب.

انطلقت سيارة الجيب في ذعر. كان صاحب البطّة ممتناً جداً لـ تجاوز، وقال إن هذا السائق يعمل موظفاً في حكومة المحافظة، وبلطجي معروف اعتاد المجيء هنا، ومنذ قليل لم يرفض فقط دفع تعويض عن البطّة، بل اتهم البطّة بعرقلة أداء واجباته الحربية، ولولا تصرف تجاوز تشينغ النابع من الشعور بالعدالة، لأخذه السائق إلى حكومة المحافظة.

لم ينتبه تجاو تشينغ لامتناهٍ وإعجاب الآخرين، ولم ينتبه أحدٌ لما تعنيه حكومة المحافظة، كان لا يزال غاضباً، ونادماً لأنَّ السيارة الجيب اختفت بسرعةٍ كبيرة، لو كان يعلم أنَّ هذا سيحدث، لعثر على عمودٍ حَمَلٍ لنزع الإطارات.

واصل فوتشا طريقهما، محاولين ركوب جرَّارٍ في الطريق، وبعد محاولاتٍ عدَّة رفض جميع السائقين أن يركبا معهم، ولم يكن أمامهما خيارٌ إلا السير بمحاذاة الشارع العام في القيط. كان فوتشا يتصبَّب عرقاً غزيراً أثناء سيره، ولم يمنع نفسه من التذمر: «أعطانا قائد الفريق أموال الحافلة على أيِّ حال، فلماذا تصرُّ على توفيرها؟ أنت من يجلبُ الشقاء لنفسه!».

- «لا بُدَّ أن يحتجَّ الناس ويغضبوا من هذا الغلاء!» وكان تجاو تشينغ يقصدُ سعرَ التذاكر، ثم أردف: «يمكنني أن آكل القليل، وأرتدي الثياب الرثة، لكنِّي لا أستطيع منع غضبي».

مرَّ بعلامات الطريق علامةٌ تلو الأخرى، وشعرا بعطشٍ شديدٍ إلى حدِّ أنَّ عيونهما وحلقيهما كأنَّهما تحترقُ من شدَّته، وحين صادفا كشكاً صغيراً على جانب الطريق يبيع الشاي، اشترى كلُّ منهما وعاءً به فِن. شرب فوتشا صحتين، وأرادَ من تجاو تشينغ أن يشرب مثله. رmqه تجاو تشينغ بنظرة غاضبة، لم يرد، ولم يشرب، انحنى للنوم أسفل ظلِّ شجرة. تحمَّلاً حرارة الشمس لعشرة لي، ومرَّ ببئرٍ، فاستعار تجاو تشينغ صحناً من كوخٍ على جانب الطريق، وشرب ثمانية صحنٍ دفعةً واحدة، شرب حتى قرَّرت جوفهُ، وابتضت عيناه، وسأل لعبه، وكادت أنفاسه أن تنقطع. أعطى فوتشا نصيحةً متباهياً: «أيها الصبيُّ اليقظ، لم ينمُ الشَّعُرُ

حول تئنيك بعد، ولا تعرفُ كم هي الحياةُ شاقة، لا يمكنُ لأشخاصٍ
مثلنا كسبُ المال للآخرين، يمكننا فقط كسبُ المالِ لأنفسِنا».

خَصَّصَ الفريقُ إعانةً للوجباتِ قدرُها خمسة جياو للأشخاصِ
المسافرين في رحلةٍ عمل، فجوَّعَ تجاو تشينغ نفسه ليومٍ كاملٍ من المشي،
وعادَ بالمبلغِ إلى المنزل، كما حصلَ على وعاءٍ من الكوخِ الذي على جانب
الطريق.

الدماغُ المُتَطَم (وغيرُها)

حين يتحدثُ تجاو تشينغ عن مبلغٍ من المال، يصعبُ على الناس فهمُه دائماً، وبمجرد أن يتكلَّم، يتحدث بلهجة غامضة، على سبيل المثال، حين قال سعر تذكرة القطار، فوجئَ بائعُ التذاكر، وحين أدرك تجاو تشينغ ذلك، غيَّرَ كلامه إلى «ثلاثة جياو».

يتحوَّل رقم «ثلاثة - sān - 三» حين ينطقُه إلى «نán - 南 - تُنطَق - nán» وتعني الجنوب». هناك بعض الكلماتِ المماثلة أيضاً: «jiā - 加 - تُنطَق - jiā» تعني يضيف» (واحد)، «tián - 田 - تُنطَق - tián» وتعني حقل» (اثنان)، «fēng - 风 - تُنطَق - fēng» وتعني رياح» (أربعة)، «tāng - 汤 - تُنطَق - tāng» وتعني حساء» (خمسة)، «gǔn - 滚 - تُنطَق - gǔn» وتعني تدحرج» (سنة)، «cǎo - 草 - تُنطَق - cǎo» وتعني عشب» (سبعة) وغيرها، لا أستطيعُ تذكرُ كلِّ شيء. هذه الكلمات ليست شائعة الاستخدام خارجَ ماتشياو. على سبيل المثال ناحية قوسِ شوانغ لونغ ونهر لُوِه، ربما يُعبَّرُ عن عدد (أربعة) بـ «gē - 戈 - تُنطَق - gē» تعني فأس» أو «xī - 西 - تُنطَق - xī» تعني غرب»، وربما تعني «lǎo luó jiā - 老罗家 - منزل لُوِه المُسن».

ربما تكون الأرقامُ الصينيةُ هي الأكثرُ وفرةً وغمابةً، إذا جمعت الأرقامَ التي سمعتها في هونان وهائنان، على الأرجح ستكفي لتأليفِ

كتاب كبير. كلُّ مكانٍ، وكلُّ حرفَةٍ تقليدية، كان لها مسمّياتٌ خاصةٌ للأرقام، وكلُّها سرّيةٌ ومشفرةٌ، تتغيّرُ باستمرارٍ، وتُظهرُ دافعاً لإخفاءِ الحقيقة. تحوّلت الأرقامُ إلى حواجزٍ، ومنحت الناسَ دوائرَ أصغرَ وأصغرَ من الأسرار. لم يكن من السهلِ في هذه الحالة أن يعرفَ المسافرُ القادمُ من بعيدٍ ما يحدثُ في المكانِ الذي يذهبُ إليه.

أصبحت الأرقامُ واحدةً من أشدّ أساليبِ مقاومةِ الاندماجِ الاجتماعي ثباتاً.

في ماتشياو، يُعبّرُ عن الرقمِ الأكبر، أو «الكثير الكثير»، بكلمة «الدماغُ المُحطّم». ربما اعتقدَ الأسلافُ أنَّ القُدرةَ يجبُ أن تكونَ محدودةً، وأنَّ الدماغَ سينفجرُ عند التفكيرِ في المزيدِ من الأشياء.

على سبيل المثال، يقولُ طلابُ المدارس الابتدائية إنَّ المدرسين فرضوا الكثيرَ من الواجبات المنزلية، ودائماً يكرّزون على أسنانهم بشدّة: «الواجبات المنزلية، دماغٌ مُحطّم دماغٌ مُحطّم!».

ملاحمُ تثيرُ الشفقة

ذهبَ تجاو تشينغ إلى مركز المحافظة ورأى العالمَ مرّةً، واستغلّه بعضُ الفضوليين للسؤالِ عن حياةِ الشوارع هناك. لم يكن في مزاجٍ جيدٍ ليحكى عن أحوالِ المدينة بتفصيلٍ، وصرفهم جميعاً على عجل. حين سألَه الناسُ عن المنازل، عن السيارات، عن ملاحمِ الناس، ردَّ قائلاً: «وماذا في كلِّ ذلك؟ ملاحمُ تثيرُ الشفقةَ للغاية».

«ملاحمُ تثيرُ الشفقة» تعني فاتنة جميلة.

لم يبتسم، ولم يكن في مزاجٍ للدردشة، فتبادلَ بضَعِ جملٍ عفويةٍ مع السائل وذَهَبَ لحفْرِ الأرض.

علمتُ لاحقاً من المعلّم غوانغ فو في المحافظة، أنَّ الرجل المُسن تجاو تشينغ لم يذهب إلى أيِّ مكانٍ أثناء وجوده في المدينة، وكان يجلسُ منكمشاً بجسده الصغير على كرسيٍّ في منزل المعلّم، حتى أنّه لم يُلِقْ نظرةً إلى خارجِ النافذة. كان الاستياءُ الشديدُ يبدو على وجهه، ولم يرغب في النظر إلى تلك المباني العالية الجميلة، ويقول: «ما الجميلُ بشأنها؟ لسنا أفضلُ منكم يا رَوّاد الشوارع، ينقبُضُ قلبُنا بمجرد النظر إليها، يا للعذاب، منزلٌ ضخّمٌ كهذا، كم عددُ الأشخاصِ وجحُمُ المجهودِ الذي يتطلّبه بناؤه؟».

في المرة الأولى التي رأى فيها أكوامَ الأحجارِ الشبيهةً بالجبال في محطةِ القطارِ استعداداً لشحنِها إلى الجنوب، ورأى لوحَ الرخامِ الصافي كمرآة، انفجَرَ في بكاءٍ حاد، ومسحَ مخاطهَ بكمِّ قميصه. «يا إلهي يا إلهي، كم من الأزاميلِ ذابت لاستخراجِها؟».

أفزعَ الناسَ حوله.

بعد عودته إلى القرية، أصبح يأكل القليل على غير عادته، ويثيرُ غضبه كلبُ الجيران، فيصبحُ مزاجه سيئاً. كان القرويون يعرفون أنَّ والدَه الراحلَ عَمِلَ «نَحَّاتاً»، وأنَّه اشتغلَ في استخراجِ الأحجارِ طيلة حياته.

في رأيي، يحتفظُ بكاءُ تجاو تشينغ بالمعنى الأصلي لعبارة «ملامحُ تثيرُ الشفقة»، مقارنةً بمدحِ الشبابِ للمدينة. لا يستخدم أهل ماتشياو كلمة «جميل»، بل تُستبدَلُ بكلماتٍ مثل «标致 biāozhì - حَسَنٌ - بهي»، «乖 guāizhì - لطيف» و «乖 guāi - مهذب»، والكلمةُ الدارجةُ والأكثرُ استخداماً «ملامحُ تثيرُ الشفقة». لطالما ارتبطَ الجمالُ والشفقةُ في اللغةِ الصينية ارتباطاً وثيقاً، وهذا ليس غريباً على وجهِ التحديد. الجمالُ مؤلم، لذا هناك كلمة «疼爱 réngài - الحبُّ إلى حدِّ الشعورِ بالألم»، والجمالُ يُشعركَ بالشفقة، لذا هناك كلمة «怜爱 liánài - أحبهُ بحنان». كلُّ الأشياءِ الجميلةِ في اللغةِ الصينية تشوبُّها مَسَحةُ حزن. قرأتُ مقالاً لباحثٍ غربي عن الكاتبِ الياباني ياسوناري كواباتا، يذكرُ في المقال أنَّ كواباتا لا يحبُّ استخدامَ كلمة «悲 - تُنطقُ bēi - وتعني حزن»، بل يستخدمُ دائماً كلمة «哀 - تُنطقُ āi - وتعني أسي»، لأنَّ كلمتي «أسي» و«حب - تُنطقان ài - 爱 متجانستان لفظياً، وترتبطُ عاطفتينِ عبرَ الصوت. بعبارةٍ أخرى

-من وجهة نظر كواباتا- هما في الواقع نوعٌ واحدٌ من المشاعر، تقسمُها الكلماتُ بقسوةٍ؛ وانطلاقاً من زاويةٍ واحدة، يناقشُ المقالُ المشاعرَ الحزينةَ في الموقفِ الجمالي لكواباتا. وفي الحقيقة، لا يعرفُ كاتبُ هذا المقالِ أنَّ الكلمةَ الصينية «悲 bēi - حزن» تحملُ أيضاً تأويلاً للجمال. ذكرَ القدماءُ «悲角 bēi jiǎo - حنُّ البوق الحزين»، «悲商 bēishāng - صوتُ رياح الخريف الموحشة»، «悲丝 bēisī - أنغامُ الآلاتِ الوتريةِ الحزينة»، «悲管 bēiguǎn - صوتُ الناي الحزين»، «悲歌 bēigē - أغنيةٌ حزينة»، «悲响 bēixiǎng - نغمٌ حزين» وغيرها، فيمكن تقريباً أن تُستبدَلَ كلمة «حزن» بكلمة «جمال». هذا ما قاله أستاذُ الأدبِ الكلاسيكي أثناء دراستي في الجامعة، إذ اعترض على حصر طبعة ١٩٦٤ من كتاب «تسي يوان - أصلُ الكلمات» معنى كلمة «حزن 悲» في الألم والحزن فحسب، وبهذا أصبح عصياً على الفهم سببُ استخدامِ القدماءِ كلمةَ «الحزن - 悲» لوصفِ جميعِ أنواعِ الموسيقى، بما في ذلك الموسيقى البطولية أو موسيقى الأفراح.

أتفقُ مع أستاذِ الأدبِ الكلاسيكي.

انصرفَ تفكيري في تلك اللحظةِ إلى ماتشياو، وتذكرتُ عبارة «ملاحُ تثيرُ الشفقة»، وفكرتُ في تجاوشينغ الذي لم يسعه إلا البكاءُ أمامَ المباني العالية. يتدفقُ جمالُ الصين دائماً في المقاطع «哀 - أسى»، «悲 - حزن»، «怜 - شفقة - عطف»، لذا، تنهمرُ دموعُ تجاوشينغ دائماً أمامَ الجمالِ الحديث.

تربة الأسنان القرمزية

تربة الأسنان القرمزية هي التربة الشائعة في ماتشياو، تُرى في كل مكان، هي التربة العادية، لذا لا تتطلب الكثير من التفسيرات. ليست أكثر من تربة حمضية، صلبة وقاحلة، وتختلف عن الطمي المعدني كونه أبيض نقياً، بينما تربة الأسنان القرمزية لوئها أحمر غامق تتخللها بقع بيضاء، تشبه جلد النمر إلى حد ما.

حقيقة الأمر أنك إن لم تعرف شيئاً عن تربة الأسنان القرمزية، فلا يمكنك أن تفهم ماتشياو حقاً. لفترة طويلة، كانت هذه هي التربة التي يتعين على أهل ماتشياو مواجهتها كل يوم، التربة التي جعلت عدداً لا يحصى من المدمات ترتجف بشدة، التربة التي حولت تقرحات الأيدي إلى تشوهات مُدَمَّاة، التربة التي تدمر المعادن أسرع من تدميرها الجلد، التربة التي تغمر سروالك بعرق يمتد إلى القدمين ويتحول إلى بقع ملحية، التربة التي تترك عيون الناس مُطفأة، في حالة من الدوار والارتباك، ويعيشون أمواتاً، التربة التي تحول الوقت إلى خواء، وتقصي الوعي وتحول جميع الرغبات إلى لهات، التربة التي تُفقد الصيف الحار حرارته، وتُفقد الشتاء البارد برودته، فتشابه الأيام كلها، التربة التي

تدفعُ الرجالَ إلى الجنون، والنساءَ إلى اليأس، والأطفالَ إلى الكهولة في طَرَفَةِ عين، التربةُ الشاسعةُ إلى الأبد، التربةُ التي تجبرُ الناسَ على الكراهية، الشجار، الضربِ وسحبِ السكاكين، التربةُ التي يكثرُ فيها تقوُّسُ الأجساد، العرجُ، العمى، الإجهاضُ، الحَبْلُ، الربو، تضخُّمُ الغدةِ الدرقية والموت، التربةُ التي تدفعُ الناسَ إلى الفرار، التربةُ التي تدفعُ الناسَ إلى الانتحار، التربةُ التي تحوِّلُ الحياةَ إلى أيامٍ من الشقاء، بغضُ النظر عن أيِّ شكلٍ من أشكالِ الاضطراباتِ أو المعاناةِ التي قد تحدث، تظلُّ هي التربةُ التي، التربةُ التي، التربةُ التي، التربةُ التي، التربةُ التي - التربةُ التي هناك.

تنسأحُ هذه التربةُ وتمتدُّ من ضفافِ نهر لُوِه، من أراضي شرق هونان الأبعد، تتوقَّفُ فجأةً عند سفحِ جبال تيان تزي، ثم تتجه إلى القرى في الجنوب؛ تتكثَّفُ مثل الحديد، بحرٌ شاسعٌ من النار عذابه حارقٌ لكلِّ أيامِ الناس.

دُفِنَ ابنُ تجاو تشينغ الأولُ حيًّا في هذه التربة. كان يساعدُ في إصلاحِ خزانِ المياه وإزالةِ الترابِ لبناءِ سد، ومن أجلِ إنهاءِ تجهيزِ الأرضِ بسرعة، وكغيره من العمالِ الآخرين، كانت التربةُ تُستخرجُ من الأسفلِ إلى عمقٍ معيَّن، ثم يُتركُ الجزءُ العلوي يهوي، فيما يُسمَّى «إطلاقِ التربة الخالدة»، والتي من شأنها تحسينُ كفاءةِ العمل. لكنَّ تجاو القصير كان جشعاً قليلاً، بعد أن جرفَ التربةَ إلى عمقِ ثلاثة أمتار، ظنَّ أنَّ تربةَ الأسنانِ القرمزية صلبة، وأنَّ التربةَ الخالدةَ في الأعلى لن تهوي بسرعة، وبينما كان يلتقطُ قُبَعَتَه المصنوعةَ من الخيزران، اندلَعَ خلفه ضجيجٌ مفاجئ، والتفتَ ليرى تساقطَ كُتْلٍ تلوَ كُتْلٍ من انهيارٍ وتدحرجٍ

أحمر اللون، كُتِلَ كبيرةً من اللونِ الأحمرِ تتأرجحُ وتطير، ولا أثرَ لابنه، لم تصدرُ عنه صرخة.

كان ابنُه يلعبُ هناك منذ لحظة.

ألقيَ بنفسِه هناك وبدأ يحفر، يحفرُ الأحمر، ثم أحمر أكثر، يحفرُ أحمر بعد أحمر، يحفرُ حتى نزلت جميعُ أصابعه، ولم يرَ حتى طرفاً من أطرافِ ملابسِ ابنه المفضَّل الذي كان قادراً على قولِ أشياء كثيرة بعد أن أتمَّ عاماً، وتمكَّنَ بعد عيدِ ميلاده الثاني من التعرفِ على دجاجِ أسرته وطردِ دجاجِ جيرانه خارجَ المنزل. وكانت لديه شامةٌ سوداءُ كبيرةٌ على جبهته.

ينتهي البستان

لطالما افتقد تجاو تشينغ ابنه، وتمنى ولادته من جديد، وحتى بعد إنجابه الطفل الثامن لم يحقق مبتغاه، ولم يعثر على الشامة في الجبهة. في سنوات تحديد النسل، كان من الواضح أن عدد أطفاله الكثير ليس مناسباً. وبدءاً من الطفل الرابع، كانت أسماء أبنائه تحمل كلمة «元 - تُنطَق «yuán»: «guì yuán - 桂元»، «yuán chāng - 昌元»، «mào yuán - 茂元» و«yuán kuí - 魁元». وفي لهجة ماتشياو، كلمة «元» وكلمة «完 - wán» تعني انتهى، الأخير «متجانستان». بعبارة أخرى، أبنائهم هم الآخرون. أما لماذا لم ينته الأمر مرة بعد مرة، فلم يكن لديه تفسير واضح.

كان بن يي سكرتير فرع الحزب غاضباً جداً من عدم أمانته، وقدم ذات مرة تقريراً في الاجتماع العام وتذكّر فجأة هذا الأمر، فأضاف محتداً: «هناك أحدهم يُسمّى هذا «يوان» وذاك «يوان» ويقول «انتهى» منذ فترة طويلة. إذا لم تنته البستان، في طرفة عين، ستظهر ليفة خريفية أخرى! ما هذا الذي يفعله؟». ثم أكمل: «نحن لا نهتمُّ بالجودة في الإنجاب، وإذا أنجبتم «أدمغةً محطمةً»^(١) من الأطفال، وليس بينهم من هو بهيُّ الطَّلعة،

(١) انظر مدخل «دماغٌ محطَّم».

فقط، مَنْ يتساقط حاجباه وَمَنْ أنْفُه مُسَطَّح، إن لم تشعر بالخزي، فأنا أشعر بالخزي!».

غمغم تجاؤ تشينغ أسفل المنصة، ولم يجرؤ على الرد.

لفهم هذا الكلام، نحتاجُ إلى فهم معنى «ينتهي البستان». «ينتهي البستان» عبارة شائعة في الزراعة، تشيرُ إلى الجولة الأخيرة من الحصاد في الحقول والبساتين، تنظيف الحقول بتفريغها وإزاحتها. امتدَّ معنى الكلمة فيما بعد إلى (١) «خريف» أو (٢) «ينتهي». «حلَّ انتهاء البستان (الخريف)، وحن الوقت لارتداء معطف»، «الإمبريالية الأمريكية توشكُ على انتهاء بُستانها» «الانتهاء» وغيرها. وبالنسبة إلى بن يي، فإنَّ زوجة تجاؤ تشينغ حقل قرع لن ينتهي بستانه أبداً.

الأرواح الطافية

لطالما كان موتُ تجاو تشينغ لغزاً.

قبل يومٍ من اختفائه، ذهبتُ معه إلى تجانغ جيا فانغ للمساعدة في حَرْثِ مزرعةِ الشاي، وحين سَمِعَ أَنَّ لَحْماً سَيُقَدَّمُ في منتصفِ النهار، أَحْضَرَ ابْنَهُ الصَّغِيرَ كوي يوان، وكان قد أعطاه أَعْوَادَ طَعَامٍ صَغِيرَةٍ، وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، سَارَ الْأَبُ وَالابْنُ إِلَى مَقْدَمَةِ الْحَشْدِ، مَتَّجِهَيْنِ مُبَاشَرَةً بِحَيَوِيَّةٍ إِلَى الْمَطْبَخِ، إِلَى صَوْتِ وَشِيشِ اللَّحْمِ فِي الْقَدْرِ. لَمْ يُحْتَسَبِ الطِّفْلُ، لَكِنَّ فَمَهُ الْمَفْتُوحَ عَلَى اتِّسَاعِهِ كَانَ وَاضِحاً جِداً لِجَمِيعِ الْحَاضِرِينَ. تَجَمَّعَ النَّاسُ فِي مَجْمُوعَاتٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْخَاصٍ، خُصِّصَ وَعَاءٌ مِنَ اللَّحْمِ لِكُلِّ مِنْهَا. لَمْ يَرِغِبْ أَحَدٌ فِي قَبُولِ الْفَمِ الْإِضَافِيِّ غَيْرِ الْمَحْسُوبِ الَّذِي يَقِفُ خَلْفَهُ، وَتَجَادَلُوا إِلَى أَنْ غَضِبَ تِجَاو الْقَصِيرُ: «كَمْ بَوْسَعٍ صَبِيٍّ وَاحِدٍ أَنْ يَأْكُلَ؟ أَلَيْسَ لَدَيْكُمْ ضَمِيرٌ، أَلَيْسَ لَدَيْكُمْ أَطْفَالٌ؟ أَلَمْ تَنْجِبُوا أَطْفَالاً؟ تَرِيدُونَ أَنْ تَصْبَحُوا مِنْ «أَسْرِ الضَّمَانَاتِ الْخَمْسَةِ»، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

لَمْ تَقْبَلِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَشْخَاصِ ذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ سَمَحُوا - عَلَى مَضَضٍ - لِلْأَبِ وَالِابْنِ بِالتَّرَاحِمِ وَإِصْدَارِ أَصْوَاتِ الْقَضْمِ وَالْمَضْغِ. وَاضْطَرُوا أَيْضاً

إلى تحمّل اندفاع تجاو تشينغ للأمام في اللحظة الحاسمة، لسكب مرق اللحم لطفله أولاً في وعاءٍ خزفيٍّ كبيرٍ بإمالة القدرِ على الوعاء، فحجب وجهه الصغيرَ تماماً.

لم يكن في وعاءٍ تجاو القصير طعام، فالتقطَ بعضَ الفلفلِ الأخضر من وعاءِ ابنه.

كان كوي يوان الأكثرَ أهميةً بالنسبة له، وأينما أُتيحت له الفرصة لتناول اللحم، لا ينسى اصطحابَ هذا الفم الصغير الذي يمضغ ويقضم. قبل ذلك بوقتٍ قصير، سمعتُ أنه حلّم في الليل أن شخصاً في ثيابٍ بيضاء سرقَ من كوي يوان قطعةً من كعكة البابا أثناء هُوه في الجبال، حتى بعد الإفاقة من الحلم، كان لا يزالُ غاضباً، فأخذ سكيناً صغيرةً وذهب إلى الجبال، للبحث عن هذا الشخص المرتدي ثياباً بيضاء والانتقام منه. كان شيئاً يستحيل تصديقه، أيُّ روح وصلَ لها العابرُ المسن، ويريدُ استعادة كعكة بابا فُقدت في حلم؟

لم أصدّق أن هذا قد حدثَ حقاً، لذا لم أستطع منع نفسي من سؤاله عندما وصلنا الحقول. لم ينطق بكلمة، فما أن يصلَ الحقول، يكون مستغرقاً تماماً، وغير راغبٍ في المشاركة في ثروة فارغة تؤثرُ على كفاءة العمل.

قلتُ له: «لقد أسقطتَ بعضَ المالِ خلفك».

التفتَ ونظر.

- حقاً يوجدُ مال، انظر جيداً.

- «هذا سيكونُ مدخراتِ أختكِ الصغيرة، أليس كذلك؟». وأكملَ الحفرَ بتأنٍ وثبات.

فقط حين شعرَ بالعطش ونظرَ إلى زمزميتي، بدأ في التعاملِ معي بلطفٍ، مقلداً ببراعةٍ لهجةَ الشبابِ المتعلّم من الأنحاءِ الأجنبية: «تعال، دعني أرى زمزميتك».

- إن أردت الشربَ اشرب، ما الذي ستفعله بالنظرِ إليها؟

- هاها، لا أعلم لم الجوُّ حارّاً اليوم!

- هل تتحدثُ معي فقط حين تريدُ شيئاً؟

- ماذا؟ هل عليّ أن أركع للحصولِ على جرعةٍ ماء؟

لم يمنع نفسه من العدّ أثناء شربه: «زوج، زوجان...» كلُّ زوج يعني جرعتين.

قلتُ باستياءٍ: «اشرب إن كنتَ ستشرب، لماذا تُعدّ؟».

ضحكٌ مُحرّجاً وردّ: «مجردُ عادة، سأتوقف إذن».

حين ارتوى، أصبحَ مهذباً قليلاً، لكنّه ظلَّ غامضاً إلى حدٍّ ما بشأنِ الذهابِ إلى الجبلِ بمنجلِ العشب، لم يقل إنّه حدث، لكنّه لم ينفِ حدوثه كذلك. وأكدَّ بغضبٍ على أنّه حلّم بالرجلِ المرتدي ثياباً بيضاء مرّات عدّة، مرّةً سرقَ يقطينة، مرّةً سرقَ دجاجة، ومرّةً أخرى صفعَ كوي يوان دون أدنى سبب. «يا له من مزعج، أليس كذلك؟» كزّ على أسنانه، ولم أرْد على سؤاله، وفهمتُ من كلماته أنّ الأقاويلَ حولَ تصميمه على الانتقام بمنجلِ العشب ربما كانت صحيحة.

كان الأمرُ غريباً كذلك، لماذا يقتحمُ هذا الرجلُ المرتدي الأبيض أحلامه دائماً؟ كيف كانت تغشاه الكثيرُ من الأحلامِ الغريبة؟ لم أشعرُ إلا بالارتباك وأنا أستعيدُ الزمزمية.

كانت هذه المرة الأخيرة التي استخدمَ فيها زمزميتي. بعد ظهر اليوم التالي، جاءت زوجته بحثاً عن الكوادر، وقالت إنَّ تجاوز القصير لم يعد إلى المنزل منذ ليلة أمس، ولا تعرف إلى أين ذهب. نظر الجميع حولهم نظراتٍ مرتابة، وتذكروا أنَّه لم يأتِ إلى العملٍ منذ الصباح.

قال الوزير أسود ضاحكاً: «هل ذهب إلى بركة ماوشينغ؟».

- «لكن لماذا استغرقَ كلُّ هذه المدة الطويلة؟». لم تفهم زوجته ما قاله.

- «أنا... كنتُ أخنُّ فحسب». ثم غيَّرَ الوزير أسود الموضوع.

«بركة ماوشينغ» هو اسمُ مكانٍ في قريةٍ مجاورة، مكانٌ منعزلٌ لا يعيش فيه غير أسرتين، وكان لـ تجاوز القصير حبيبةٌ هناك، لكننا لا نعرفُ مَنْ هي بالضبط. وكلَّما ذهب إلى هناك لإنجازِ أيِّ عملٍ، جَمَعَ الأغصانَ الملقاة على الأرض في حزمةٍ كالخطب، وأخذها إلى بركة ماوشينغ متى سنحت له الفرصة، تعبيراً عن عاطفته، ثم يعودُ بسرعةٍ إلى الحقول لإكمالِ عمله. كانت سرعته لا تُصدِّق، ليس دجاجةً لينجزَ ذاك العملَ بهذه السرعة، أليس كذلك؟

عاد فوتشا في المساء من بركة ماوشينغ، وقال إنَّ تجاوز القصير ليس هناك، ولم يرَ أحدٌ ظلَّه، حينها فقط شعرنا بخطورة المسألة. تجمَّع القرويون وتهامسوا فيما بينهم، وعثروا على خبرٍ كان له القَدْرُ الأكبرُ من الأهمية؛ كان شخصٌ ما من القرية السفلى قد عاد لتوّه من محافظة بينغ جيانغ، حاملاً رسالةً من زوجة تجي هوانغ السابقة في القَدْر، كانت تُذكِّره امرأةُ الخُلم بأن يرتدي حذاءه جيداً.

كانت هذه طريقة شائعة لتحذير أهل ماتشياو بشأن «الأرواح الطافية». في لهجة ماتشياو، تشير الروح الطافية إلى نذير شؤم يقع حين يكون الناس على وشك الموت. بعد الكثير من الاستقصاء، اكتشفت أنَّ لما يُسمَّى بالروح الطافية حالتين:

١- أحياناً، إذا رأيت أنَّ الشخص الذي يمشي أمامك اختفى فجأة، ثم عاودَ الظهور، فيمكنك من ذلك أن تعرف أنَّ روحه غادرت جسده، وأنَّه سيتبدَّد قريباً. إذا كانت نيتك طيبة، فستذهب وتُحذَّر هذه الروح الطافية، لكن لا يمكنك تحذير صاحبها تحذيراً مباشراً، لا يمكن أن تفصح عن الحقيقة. عوضاً عن ذلك يمكنك سؤاله: لَكُم ركضت سريعاً للتو؟ هل فقدت حذاءك؟ أسئلة من هذا القبيل. حين يسمع الطرف الآخر ذلك، سيكون على بينة من الأمر، ويسرع إلى المنزل في الحال لإشعال البخور، وتقديم قربان، أو دعوة راهبٍ طاوي لطرد الأرواح، ويبدأ قصارى جهده لدرء الكارثة.

٢- وأحياناً، إذا نام أحدُهم أو شعرَ بالإغماء للحظة، وحلَّم أنَّ ملكَ الجحيم أرسله لقبض روح شخصٍ آخر -وربما يكون من معارفه- فعليه بعد استيقاظه أن يتبع المبدأ ذاته في التكتُّم، وأن يحذَّر الشخص الآخر بطريقة ذكية. إن كان ولا بُدَّ من إفشاء الأمر، فعلى الشخصين أن يغادرا الأرض، على سبيل المثال، يتسلَّقان شجرةً ويتهاامسان، لتجنب أن يسمع الجدُّ الأكبر للأرض، فيُخبر ملكَ الجحيم ويثير غضبه. حين يسمع الطرف الآخر تحذيراً كهذا، سيشعر بالامتنان وليس بالغضب، لكن لا يمكن تقديم هدية للتعبير عن الشكر، أو دليلٍ قد يكشفه ملكُ الجحيم.

اشتدت خطورة الوضع الآن، بعد أن ذكرت شوي شوي امرأة الحلم الحذاء، ولأن منزل أهلها بعيد جداً، فقد أصبح الوقت متأخراً حين عاد المبعوث إلى ماتشياو، وقبل أن تصل رسالته، كان تجاوز تشينغ قد اختفى. أرسلت القرية مجموعات للبحث عنه، وحين تذكروا أمر الشخص الذي يرتدي الأبيض، أرسلوا عدداً من الأشخاص إلى الجبال. وفي النهاية، تهادى عويل زوجة تجاوز تشينغ الأجش، متكسراً من الجبال عبر الرياح.

لقد طفت روحه، مات ميتة مروعة، سقط على حافة الجدول، وكان رأسه مفصولاً عن جسده، ومنتفخاً في المياه على بعد أكثر من تشانغ، وتغطيه العلقات بكثافة. أثارت قضية القتل هذه قلق الكومونة والأمن العام للمحافظة، وجاء بعض الكوادر للتحقيق فيها مرة بعد مرة. كانت شعلة الكوادر متقدة، ولا يؤمنون بأي أرواح طافية أو أقدار، وكان تخمينهم الأول أن جواسيس حزب الكومينتانغ قد أسقطوا من الهواء على الجبل، أو أن لصوص ماشية من بينغ جيانغ كانوا مسؤولين عن هذا العمل الإجرامي. ولتهدة عامة الناس وكشف بعض الشائعات الغريبة، بذل كبار المسؤولين جهوداً مضيئة لحل القضية، وأجروا تحقيقات سرية غامضة في كل مكان، وأخذوا بصمات الأصابع، وخاضوا جولات من الاشتباكات مع بعض ملاك الأراضي المشبوهين والفلاحين الأغنياء، وأثاروا ضجة كبيرة، لكنهم لم يعثروا في النهاية على تفسير. كما نظمت الكومونة لميليشيا الشعب التناوب على الحراسة ليلاً، لمنع حدوث مأسى مماثلة مرة أخرى.

كانت مهمة الحراسة شاقة للغاية؛ في المساء يكون الطقس شديد

البرودة، والنعاسُ ثقيلاً، أضْعُ رِمْحاً تحتِ إِبْطِي، وساقاي مَجْمَدَتَانِ، وبين حينٍ وآخرَ أَقْفُزُ لَأَسْتَعِيدَ الإِحْسَاسَ في أَطْرَافِ أَصَابِعِي. سَمِعْتُ حَفِيفَ خَطْيٍ يَأْتِي مِنَ الطَّرِيقِ المؤدِّي إلى قَمَةِ تِيَانِ تَزِي، أَرْهَفْتُ السَّمْعَ وَقَدْ اقشَعَرَّ جَسْدي، ثم اخْتَفَى الصَّوْت. اخْتَبَأْتُ في زَاوِيَةِ جِدَارٍ لِلوَقَايَةِ مِنَ الرِّيحِ، إِلَّا أَنَّنِي ظَلَلْتُ أَرْتَجِفُ لَا إِرَادِيّاً لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقْت. وَبَعْدَ تَرَدُّدٍ، تَرَاجَعْتُ بَضْعَ خُطَوَاتٍ وَعَدْتُ إلى غُرْفَتِي، مُرَاقِباً اللَّيْلَ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ عِبْرَ النَّافِذَةِ، إِذْ كَانَ عَلَيَّ اعْتِبَارُ الأَمْرِ مُهِمَّةً وَمَجَارَاتُهُ فِي الوَقْتِ الرَّاهِنِ. فِي النِّهَايَةِ، لَمْ أَسْتَطِعْ تَحْمُلَ بَرُودَةَ قَدَمِي، وَنَظَرْتُ إلى اللَّحَافِ مَرَّاتٍ عَدَّةً، فَانْدَسَسْتُ تَحْتَهُ أَخيراً، جَالِساً وَسَاقَايَ مَمْدَدَتَانِ عَلَى السَّرِيرِ، وَقَرَرْتُ مُرَاقَبَةَ الخَارِجِ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، وَأَلَّا أَنْسَى يَقْظَتِي الثَّوْرِيَّةَ.

كُنْتُ قَلِقاً مِنْ ظُهُورِ رَجُلٍ فِي ثِيَابٍ بَيضاءَ فَجَاءَ خَارِجَ النَّافِذَةِ. اسْتَيْقَظْتُ فِي حَالَةٍ مِنَ الدُّوَارِ، وَاكْتَشَفْتُ أَنَّ النَّهَارَ قَدْ أَشْرَقَ، فَهَرَعْتُ إِلَى الخَارِجِ مُسْرِعاً، لَكِنِّي لَمْ أَرِ أَحَداً. عِنْدَ حَظِيرَةِ الثَّيْرَانِ تَعَالَى صَوْتُ الصَّرَاحِ المَعْتَادِ، كَانَ ثَمَّةَ شَخْصٍ يَسْتَعِدُّ لِرَعِيهَا. كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنٌ، وَاطْمَأْنَنَ قَلْبِي حِينَ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ لَتَفْقُدَ مَهَامَ الحِرَاسَةِ.

وإِلَى أَنْ نُقِلْتُ لِلْعَمَلِ فِي المَحَافِظَةِ، وَصَادَفَتِ يَانُ وَوُ أَثْنَاءَ قُدُومِهِ إِلَى المَدِينَةِ لِبَيْعِ الطَّلَاءِ، وَتَحَدَّثْنَا عَنْ وَفَاةِ تَجَاوِ تَشِينِغِ الغَرِيبَةِ، حَصَلْتُ عَلَى تَحْمِينٍ آخَرَ. قَالَ يَانُ وَوُ، إِنَّهُ أَبْلَغَ مَرْكَزِ الشَّرْطَةِ حِينَهَا، أَنَّ تَجَاوِ تَشِينِغِ لَمْ يُقْتَلْ، بَلْ انْتَحَرَ، أَوْ بِشَكْلِ أَكْثَرِ دَقَّةٍ، انْتَحَرَ بِقَتْلِ نَفْسِهِ دُونَ قَصْدٍ. وَكَانَ رَأْيُهُ: لِمَاذَا مَاتَ عِنْدَ حَافَةِ الجَدُولِ؟ لِمَاذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ دَلِيلٍ لَصَرَاحِ فِي المَوْقِعِ؟ لَا بُدَّ أَنَّهُ عَثَرَ عَلَى سَمِّكَ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ فِي الجَدُولِ، مَخْتَبِئاً بَيْنَ الأَحْجَارِ، فَاسْتَخْدَمَ مَقْبِضَ مَنَجْلِ العُشْبِ لِإِخْرَاجِهِ. وَلَا بُدَّ أَنَّهُ أَفْرَطَ

في استخدام قوته، دون أن ينتبه إلى أن نصل المنجل يتجه مباشرة نحو مؤخرة عنقه، بطعنة واحدة في الهواء، وسحبة سكين واحدة، قطع رأسه من الخلف.

كانت هذه الفكرة جريئة للغاية.

استخدمت من قبل منجل العشب، يُطلق عليه أحياناً منجل «الحصان ذو رأس التنين»، وهو سكين بمقبض خشبي طويل جداً يتيح لك قطع أعشاب البوط^(١) أثناء الوقوف في وضع مستقيم، إذ يكون النصل والمقبض الخشبي في زاوية قائمة. حين فكّرت في الأمر وفق فرضية يان وو، سرت قشعريرة في مؤخرة رقبتني.

لسوء الحظ، لم يكن المنشأ الطبقي لـ يان وو جيداً في ذلك الوقت، ولم يأخذ مركز الشرطة كلامه على محمل الجد. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لديه أي دليل.

(١) أسماء أخرى: التيفا وعُشبة البرك والديس.

مستترخ

هكذا، ودون سببٍ واضح، فَقَدَ تجاوز تشينغ رأسه. حين كنتُ في خدمة الحراسة في وقتٍ متأخِرٍ من الليل، تطلَّعتُ إلى جبال تيان تزي التي غدت أقربَ في نورِ القمر، وتذكَّرتُ حياته. لأنَّه كان شديدَ الانحطاط، وشديدَ البخل، لم أتحَدَّثْ عنه بكلامٍ طيبٍ من قبل. بعد وفاته فقط انصرف تفكيري إلى تلك المرَّة التي أُمِرتُ بتسلُّقِ الحائط وكتابةِ اقتباساتِ الزعيم ماو، وبدأ السُّلَمُ فجأةً في الانزلاقِ إلى أسفل دون توقف، فتشبَّثتُ بعارضةِ أفقية قريبةٍ مني ولم أسقط. رأى تجاوز تشينغ -الذي كان بعيداً عني- كلَّ ذلك، وتملَّكه الخوفُ حتى أنَّه أسقطَ صحنَ الطعامِ على الأرض مُصدراً صوتاً حاداً، وانطلقَ صارخاً: «النجدة! النجدة! فظيع!». قفزَ صارخاً مدعوراً، قفزَ ذهاباً وإياباً حتى شعرَ بالدُّوار، وعندما لم يفعل شيئاً قفزَ عائداً، وانفجرَ باكياً.

ربما لم أكن في خطرٍ كبير، وما من داعٍ لـ"تحتب"، أو يقفز، ولا أن يفعلَ أيَّ شيءٍ لمساعدتي، لكن في ذلك الوقت، لم يكن أيُّ من أصدقائي ومعارفي الحاضرين خائفاً ومرتبكاً، ولم تستولِ على أحدٍ رغبةٌ مفاجئةٌ لذرفِ الدموعِ من أجلي. كنتُ ممتناً لدموعه، رغم أنَّها لم تدم إلا للحظةٍ

قصيرة، وستختفي قريباً في زوج من العيون التي لن أتمكن من الشعور
بالألفة معها أبداً. ولاحقاً، أينما ذهبتُ، ومهما نسيْتُ العديدَ من المدنِ
والقرى، لم أستطع نسيانَ نظرتي إلى الأسفلِ في تلك اللحظة: وجهٌ،
وجهٌ واحدٌ فقط، تضخّمَ في منظور، طمسَ الجسدَ النحيلَ الضئيلَ خلفه
تماماً، وذرفَ من أجلي دموعاً صفراء.

أردتُ قولَ شيءٍ لشكره، ليأخذَ شيئاً مني في المقابل، بضعة يوانات
على سبيل المثال، قطعة من الصودا، لكنه رفض.

حملتُ بطانيةً قطنيةً قديمةً إلى منزله، وطلبتُ من زوجته تبطينَ نعشه
بها. لقد اعتادَ النومَ طيلةَ حياته على أعمدةِ الحِمْل، ولا بُدَّ أن ينعمَ بنوم
هادئٍ من الآن فصاعداً. كان مشغولاً طوالَ حياته، ومن الآن فصاعداً
يجبُ أن يُسمَحَ له بأن يكونَ مسترخياً.

وكلمة «懈 - 懈» تُنطق «hài»، وتعني الراحة في لهجة ماتشياو.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الأبخرة الوبائية للعشب الأصفر

حين كنتُ في ماتشياو، أخبرني تجاو تشينغ أكثر من مرّة ألا أذهب إلى الجبل في الصباح، يجب أن أنتظر على الأقل حتى تشرق الشمس. وأوضح لي أن كثافة زرقاء بين الأشجار المتناثرة على الجبل، كخيوطٍ معلّقة على الأغصان والأوراق، تطفو بهدوءٍ إلى الخارج، تشكّل حلقةً تلوّ الأخرى، تُسمّى أبخرةً وبائية. هناك أنواعٌ مختلفة من الأبخرة الوبائية: في الربيع الأبخرة الوبائية للعشب الربيعي، وفي الصيف الأبخرة الوبائية للبرقوق الأصفر، وفي الخريف الأبخرة الوبائية للعشب الأصفر، وكلّها شديد السميّة. إذا خطا الشخص داخلها دون حذر، ستتقرّح بشرته حتماً، ويميل لون وجهه إلى أصفر مخضّر، وتسود أصابعه، وربما يموت.

قال أيضاً عليك أن تكون حذراً حتى عند صعودك إلى الجبال في النهار؛ في الليلة التي تسبق الذهاب إلى الجبل، لا يمكنك التدخين أو شرب الخمر، لا يمكنك الدردشة والثرثرة أو ممارسة الجنس، عليك أن تشعل بخوراً وتتضرّع إلى إله الجبل. ومن الأفضل في اليوم الثاني عند خروجك من المنزل أن تشرب جرعتين من نبيذ الأرز لتدفع الجسم

وتقوية اليانغ. من الضروري أيضًا قطعُ عودِ بامبو في الركن الشمالي الشرقي من المنزل لطرد الأرواح الشريرة.
هذا ما قاله تجاو تشينغ.
كان هو من قال لي ذلك، أنا أذكر.

التأكيد على الأسماء

لم أتعرف على كوي يوان حين التقيتُه بعد عدّة سنوات، كان قد كَبُرَ وكَبُرَتَ تفاحةُ آدم في عنقه، ونبت شاربُه. كان يرتدي بذلة ذات حواف ملفوفة، وحذاء جلد مُقدمته مفتوح، وتفوح من شعره رائحة شامبو عَطرَة، ويحمل حقيبة جلدية سوداء لا يُغلقُ سحابها. قال: «أنا كوي يوان حقاً، ابنُ ما تجاو تشينغ الأصغر، يا عم شاو غونغ أَلَمْ تعرفني؟ يا لها من ذاكرة هاهاها!».

استغرق الأمرُ وقتاً طويلاً لأتذكّر وجهَ طفلٍ منذ سنواتٍ بعيدة، وأقارنُ بين ملامحه وبين الوجهِ غير المألوفِ أمامي. تعرّفتُ أيضاً على رسالةٍ أراها لي، أجل، أنا كتبتها، كتبتها منذ سنواتٍ إلى فوتشا، أتحدثُ فيها عن مسألةٍ متعلّقةٍ باللغة.

قال إنه افتقدني، وجاء إلى المدينة خصيصاً لرؤيتي، تفاجأتُ وسألته كيف تمكّن من العثور عليّ. ردّ قائلاً دعنا لا نتحدث عن الأمر، إذ واجه صعوبةً كبيرةً في العثور على الطريق. ما أن وطأ رصيف الميناء حتى سأل عن محلّ إقامتي في كلّ مكان، لكنّ أحداً لم يعرف، وفي النهاية، سأل عن عنوان حكومة البلدية، ولم يعرف أحداً أيضاً. بعد أن فقد أعصابه، سأل

عن مكانِ حكومةِ المقاطعة، وأخيراً وجَّههُ أحدُهم. ابتسمْتُ، إن كنتَ تبحثُ عني فابحثُ عني، ما شأنك بالبلدية أو بحكومةِ المقاطعة؟ قال إنَّه يقومُ بزيارتين كلَّ عام، إلى ووهان، غوانغزُو، وشنجن، كان خبيراً في التجوال. ردَّ على سُؤالي بهذه الإجابة.

لم يوضح ما إذا كان قد عثَرَ على المكتبِ الحكومي أم لا، لكنَّه تذرَّ من هاتفي، وقال إنَّه حتماً مُعطل، ولم يتمكَّن -مهما حاول- من إجراءِ مكالمة. في الواقع، علمتُ لاحقاً أنَّه لا يعرفُ رقمي مطلقاً، السماءُ فقط تعلمُ بمن اتصل!

أخيراً، طلبَ سيارةَ أجرة، وأنفقَ خمسين يواناً، أي أنفقَ ما تبقى من أمواله تقريباً، للعثورِ على الجامعةِ التي أعملُ بها. ويبدو أنَّه لم يكن على درايةٍ بتعرِّفِ سياراتِ الأجرة هنا، وصادفَ سائقاً سيئاً، ولا شكَّ أنَّه احتالَ عليه بسببِ كرمه.

هذا بالطبع ليس مدعاةً للقلق، لطالما عُرفَ بكرمه واعتبرَ المالَ شيئاً زائلاً. باختصار، اتصلَ بمكتبِ الحكومة، وأجرى مكالمةً هاتفية، واستقلَّ سيارةَ أجرة، وأنهى كلَّ شيءٍ يجبُ على رجلٍ بالغٍ القيامُ به، إلى أن التقى بأحد معارفي فدَّله على منزلي. قال إنَّه لم يصدِّقُ أبداً أنَّه لن يتمكن من العثورِ عليّ -وكما كان متوقعاً- ودون أيِّ مشقة، أكمل بأعجوبةٍ مدهمةٍ طويلة المسافةِ إلى منزلي، وجلبَ شاباً آخرَ لا أعرفه. الآن وقد وصلَ إلى المنزل، خلَعَ معطفه وساعته، وحذاءه وجوربه، وفركَ العرقَ والوحلَ عن قدميه. حين جالَ بعينه في المكان، اندهشَ لرؤيةِ أني لا أملكُ أريكةً جلديةً حقيقية، أو تلفزيوناً ملوَّناً كبيراً بزاوية قائمة، أو ورقَ جدرانٍ الفينيل الملونة، أو إضاءةً متغيرة الألوان أو

ستيريو كاريوكي. كانت معرفته بحياة المدينة أغنى بكثير ممّا أعرفه. قلتُ إنَّ ستيريو كاريوكي غابَ جداً، أربعون وربما خمسون يوماً لقرصٍ واحد، فصَحَّ خطأي، قائلاً: «ما الذي تتحدّثُ عنه، القرصُ الجيدُ سيكلفُ مائتين على الأقل». سألتُ: «هل ارتفعَ سعرُه؟ لطالما كان سعرُه هكذا». أجبتُه بعدمِ اقتناع، أنَّ صديقاً لي اشترى قرصاً أصلياً منذ يومين بهذا السعر. قال إنَّ القرصَ ليس 3D، وليس رقمياً، لن يرغب أيُّ شخصٍ يلهو بالمسجِّل في شيء كهذا!

ولأنني لا أعرفُ شيئاً عن 3D، لم أجروُ على التعمُّقِ في الحديث، ووافقتُ على إرشاداتِه في صمت.

بعد الاستحمام، ارتدى ملابسِي وقال إنه عرفَ منذ البداية أنَّه لن يحتاج إلى جلبِ ملابسٍ إضافية. وقال لعائلته من قبل، أتعرفون أيَّ نوعٍ من الأشخاص هو العم شاو غونغ؟ هل سأخشى عدمَ وجودِ ملابسٍ أو طعامٍ أو عملٍ حينَ أصلُ إلى منزله؟ حينَ تكونُ في المنزل، اعتمدُ على الوالدين، بعيداً عن المنزل، اعتمدُ على الأصدقاء... وقال وهو يربّتُ على كتفي بحفاوة.

أبعدتُ يده.

قلتُ إنَّ الأمرَ ليس بهذه البساطة، وعلى كلِّ حال، استقرَّ أولاً ثم نرى.

رافقتُهما إلى فندق. حينَ التسجيل، اكتشفتُ أنَّ لقبَه لم يعد «ما»، وأنَّه تغيَّرَ في بطاقةِ الهوية إلى «خو». حينها فقط علمتُ أنَّ والدته بعد وفاة والده لم تستطع إعالة الكثير من الأطفال وأنها تنازلت عنه لشخصٍ

آخر، كما تنازلت عن أخ كبير له وأخت كبيرة كذلك. وعلمت أيضاً أنه في المكان الذي قدما منه، لا يتمتع الأطفال بالتبني بحقوق الميراث قبل «التأكيد على الأسماء».

ذهب كوي يوان إلى المدرسة الابتدائية والمتوسطة بعد انضمامه إلى عائلة خو، وعاش حياةً ميسورةً إلى حدٍّ ما، كلُّ ما في الأمر أنه لم «يؤكد على الأسماء» بعد، لذلك لا يمكنه أن يرث الممتلكات، ولا أن يكون مستقلاً وينشئ عائلة.

«التأكيد على الأسماء» طقوسٌ تُجرى لإضفاء طابعٍ رسمي على الانضمام إلى عشيرة، ويتم إجراؤها بعد جنازة الأب بالتبني؛ يُغني شيوخ العشيرة اسم الأب بالتبني، واسم الجدّ بالتبني، واسم والد الجدّ بالتبني، واسم الجدّ بالتبني، واسم الجدّ للجدّ بالتبني، واسم والد الجدّ بالتبني للشخص الذي سينضم للعشيرة. تُغني أسماء جميع الآباء الذين يمكنهم تبنيهم، للتأكيد على أن الشخص الذي سيتبنى سيرث ممتلكات الأجداد وتجارتهم، ولمنعه من العودة إلى عائلته الأصلية والاستيلاء على الأرض أو الممتلكات لاحقاً. من وجهة نظرهم، الأسماء مقدّسة، وأسماء الموتى لها قوةٌ غامضة، يمكنها قمع الأرواح الشريرة، ومعاقبة العاقين، وحماية الأجيال القادمة. قال كوي يوان إنَّ لدى عائلة خو الكثير من الممتلكات، منزلٌ وخيولٌ ومواشي، لكن للأسف، لا يزال بوسع الرجل الكهل أن يخرج ويعمل في الحقول، حتى في سنِّ السبعين والثمانين. في العام الماضي، قضى ثلاثة أشهرٍ مريضاً في الفراش، يسعلُ البلغم والدم، وبدا كأنَّ نهايته اقتربت، ولم يتوقع أحدٌ أنه سيعودُ للحياة بعد هذا الاحتضار الطويل... ما رأيك في هذا؟ قال كوي يوان وقد

اتسعت عيناه في ذهول. ما كان يقصده هو أن آلامه لم تنته، ولم يُؤكَّد بعدُ
على الأسماء، وبالتالي لم يحصل إلى الآن على حقوق ملكية المنزل.
لذا ليس بوسعه الانتظار للأبد، وتحتَّم عليه الذهابُ إلى المدينة
ليشقَّ طريقاً آخر.

كسول (كما يستخدّمها الرجال)

كان لديّ صديقٌ في المدينة يعملُ مديراً، ويترأّسُ فريقاً هندسياً، عرّفته على كوي وان والشاب الذي جاء معه، واشتغلا هناك عاملين مبتدئين، أي ما يُعِينُهُما على كسبِ صحنِ أرز.

لم أتوقع أن يطرق الاثنان بابي بعد مرور بضعة أيام، ويقولان بوجه مكفهر، إنَّهما من المستحيل أن يُنجزا العمل، أجل من المستحيل أن يُنجزا العمل.

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

- أُصِبتُ بدوار الشارع؟

- لم يسبق لي أن أُصِبتُ بدوار الشارع، بل ... احترقت.

- تقصد لفحتك الشمس؟

- أجل.

- ألا ترتدي قُبْعَةً؟

- ارتديتُ ولكن لفحتني الشمسُ مع ذلك.

- ألا تلفحك الشمس في مسقط رأسك؟

- أنا... لا أذهب مطلقاً للعمل في الحقول.

- إذن ماذا تفعل طوال اليوم؟

- «لا أفعل شيئاً، أحياناً أساعد الأخ يان وو في جمع القليل من

الحبوب، أو تحصيل بعض الديون، ومعظم الوقت ألهو وألعب

الورق، وأجلس بلا طائل في بيوت الآخرين». ابتسم كوي

يوان، وغمز للشاب الآخر الذي كان يصوب نظرات جانبية إلى

التلفزيون ويقضم بذور عبّاد الشمس، ويتسّم في الوقت ذاته.

- «أنتما شابان، وكسولان هكذا؟». تفوّهت بكلمة شديدة الأهمية.

- «أجل، في الحقيقة كسولان». ردّ كوي يوان بسعادة بالغة، «وأنا

كسول أيضاً في المنزل، فلا أجلبُ الخطب، ولا الماء، ومنذ

صغري إلى الآن لا أعرف كيف يُغسل الأرز وكيف يُغلى علف

الخنازير».

قال الشاب الذي يقضم بذور عبّاد الشمس: «وأنا أيضاً، إن سألتني

أين مكان المنجل في المنزل، أو كم حصّة الخنازير من الطعام في كلّ وجبة

فحتماً لن أعرف».

- حين أذهب للعب الورق، أقضي أسبوعين في اللعب.

- أنا لا ألعب الورق، بل أذهب إلى المحافظة للهو في منزل عمي،

وركوب الدراجة البخارية ومشاهدة التلفزيون.

تفاجئت قليلاً، فمن نبرتها الفخورة، ومن المبالغة في التعريف

بنفسيهما، أدركت تغيير معنى الكلمة، وأنّ حركة لغوية لإعادة تعريف

الكلمات قد بدأت لا أعلم عنها شيئاً. كانت كلمة «كسول» التي أمقتها، قد تحولت منذ فترة طويلة إلى وسام يتنافسان للاستحواذ عليه وتعليقه على صدريهما. أصبح الكسل الذي أنتقده مرادفاً للذكاء والراحة والكرامة والقدرة، كانا يتلهفان ويتوقان إليه بعيون لامعة، كيف سأحدث معها إذن؟

بالطبع، ربما لم يلغوا المعنى الأصلي لكلمة «كسول»، على سبيل المثال، حين يتعلّق الأمر ببحث الآخرين عن زوجات، يتناقشان عمّن كانت زوجته كسولة ومن لم تكن، وتوصم النساء بالإدانة المهينة المتكرّرة. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فهم يضعون فقط قاموساً خاصاً بالرجال، قاموساً غير مناسب للنساء، حيث تكتسب كلمة «كسول» تالفاً مذهلاً. وإذا عُرِّفت كلمة «كسول» هكذا، فيمكننا أن نستنتج أنّ كلمات كالمخادع، الاستغلاي، العنيف، الشيطاني، الغادر، النذل، الفاسد، اللص، الانتهازي، المُبتذل، الفاسد، الوضع، الخنوع وغيرها، يمكن، أو أصبحت بالفعل، كلمات تدلّ على المديح والاحترام في أحدث قاموس للرجال، على الأقل بالنسبة لعدد كبير من الرجال. في نظريهم، إن كان لا يزال هناك رجال لا يعترفون بهذا القاموس، فهذا لا يعني أنّه غير موجود، بل هو دليل فقط على أنّ هؤلاء الرجال غرباء عن اللغة، مثيرون للشفقة تماماً، مستبعدون من تيار الابتكار لمعاني الكلمات، متخلّفون في الظلال المعتمّة للتاريخ.

ينشأ الحوار الإنساني في الغالب ضمن قاموسين أو عدّة قواميس، ولا يلاحظ جميع الناس دائماً صعوبات ترجمة معنى الكلمة، ولا سيما التغلّب بسهولة على المزالق اللانهاية لترجمة ما تعنيه الكلمات على

المستوى العاطفي العميق. زرت «مستعمرة الفنانين» في فيرجينيا عام ١٩٨٦، وهي مركزٌ إبداعيٌّ للفنانين، ولطالما أزعجتني كلمة colony «مستعمرة»، التي علمتُ لاحقاً أنَّها بالنسبة للعديد من الغربيين الذين يعيشون في بلدانٍ استعمارية، لا تحملُ صورَ القتلِ والحرقِ والاغتصابِ والنهبِ وتهريبِ الأفيونِ ومثل تلك الصور، بل على العكس تماماً، تشيرُ إلى معنىٍ مسالمٍ، مجردُ اسمٍ آخرٍ لمستوطنةٍ في الخارج، مسكن، بل إنَّها تنضجُ بصدى رومانسي وشاعري للمطوَّرين والرُّواد، للتطور المرتبط بالقوانين والدلائل المختلفة المتعلقة بتطوير المساعدات الخارجية، والاستكشافِ البحري، وانتشارِ الحضارة التي هي جزءٌ من الذاكرة الإمبراطورية. المستعمرةُ هي مركزُ النبلاء ومعسكرُ الأبطال وجنَّةُ الظافرين. يستخدم الغربيون هذه الكلمة للإشارة إلى المكان الذي يعمل فيه الفنانون بجِد، ولا يرونها غيرَ لائقة.

قابلتُ هانسن في الولايات المتحدة، كان يجيد اللغة الصينية، وتزوَّج امرأةً صينية وعملَ مراسلاً للطبعة الآسيوية لإحدى الصحف الكبرى. بعد الاستماع إلى حديثي عن معاناة الشعب الصيني، أعربَ عن عميق تعاطفه تجاهه، وغضبه تجاه المتسبِّين في المعاناة، لكنني وجدتُ فجأةً أنَّه -بعد التعاطف والغضب- قام بحركة غريبة: تألقت عيناه المبتسمتان في عدسات نظارته، وإصبعُ السبابة يرسمُ ذهاباً وإياباً في وضعٍ معينٍ على الطاولة، مثل كتابة كلمةٍ في الهواء، أو قيادة موسيقى مثيرة في ذهنه. لم يستطع التحكم في حماسه، وفي النهاية اتصل بأصدقائه مستخدماً اللغة الانجليزية، ودعاهم لمقابلتي، وقال إنَّ بعضَ القصص التي حكيتها مؤثرةٌ للغاية وقيِّمة! ورأى أنَّ هذه أروعَ قصصٍ في العالم! وأزعجت

سمعي كلمة «أروع». حين انتحرَ والدي غرقاً في قاع النهر، هل رأى أن ذلك «رائع»؟ حين أُعدمَ الأخ الأصغر لأحد أصدقائي رمياً بالرصاص بسببِ حكمٍ خاطئ، ومع اقترابِ إعدامه، صرخَ وبكى، غيرَ قادرٍ على العثورِ على وجهِ والديه في الحشدِ لتوديعه، فهل رأى أن ذلك «رائع»؟ حين قُتلَ ابنُ صديقٍ لي بالخطأ على يدِ أحدِ رجالِ العصابات، وأعادَ الأبُ رُفاتَ ابنه من جامعته، ولم يكن يتوقَّعُ أبداً بأنّه -وليس أحداً آخر- سينقشُ الكلامَ على شاهدِ قبرِ ابنه، هل رأى أن هذا «رائع»؟ لا أريدُ أن أشكَّك في تعاطفِ هانسن، لا، لقد ظلَّ يطالبُ بالعدالةِ في جريدته، ويبذلُ قصارى جهده لمساعدةِ الشعبِ الصيني، بما في ذلك مساعدتي في الحصول على الامتيازات والمساعدات المالية للباحثين الزائرين، لكنَّ «روعته» آتيةٌ من قاموسٍ لا أفهمه. من الواضح أن المعاناة في هذا القاموس ليست معاناةً فحسب، ولكنها أيضاً مادةٌ للكتابةِ أو الحوار، شرطُ ضروريٍّ لإثارةِ المقاومةِ والثورة، وبالتالي كلما زادت المعاناة كان ذلك أفضل، وكان توهجُها... أكثر... روعة. ثمة قاعدةٌ ضمنيةٌ في هذا القاموس: من أجل القضاء على المتسببين في المعاناة، كانت هناك حاجةٌ إلى المزيد من المعاناة كدليل، لإقناع المزيد من الناس بضرورةِ إلحاحِ وسموِّ هذا النضال. وهذا يعني أنّه من أجل القضاء على المعاناة، يجب أن تكونَ هناك معاناةٌ أولاً. فحيث تكمن معاناةُ الآخرين، تكمن شفقةُ المُقذّنين ورحمتُهم، وتكمن متعتُهم وسعادَتُهم كذلك، إنّها النتيجةُ الأكثرُ أهميةً في سجلِ بطولاتهم.

لم أعد أشعرُ بالرغبةِ في الحديث، وفجأةً غيَّرتُ رأيي، مُصرّاً على ألا يدفعَ صديقي ثمنَ البيتزا، ما جعله حائراً.

غالباً ما أدركت بوجلٍ، أن الحديث ليس سهلاً، وأن كلماتي تتعرض أحياناً لكل أنواع سوء الفهم بمجرد خروجها من فمي. واكتشفت أيضاً أنه حتى آلة الدعاية القوية تفتقر إلى القوة المسيطرة على الفهم، وبالمثل تغرق في مستنقع الالتباس مرةً تلو أخرى. وعليّ أن أذكر الشاب الذي جاء برفقة كوي يوان إلى منزلي. علمت لاحقاً أن لقبه تجانغ، وكان يعمل موظفاً في شركة أفلام المحافظة، لكنه طرد من وظيفته لإنجابه طفلاً إضافياً. لم يكن السبب فشله في فهم عواقب التجاوز لحصة المواليده^(١)، فقد أحدثت هولات الدعاية الحكومية الضخمة والمملة، حول العقوبات والمكافآت التي جاءت مع لوائح تنظيم الأسرة ثقباً في طبلة أذنه. كما أنه لم يكن يحب الأطفال أيضاً، إذ قلما رآه ولداً، وكانا يحصلان منه بمشقة على ابتسامة، وطالما مثلاً له عقبةً وعبئاً أمام نيته في الطلاق. لم يكن لديه أي سبب على الإطلاق لإنجاب طفل آخر. بعد أن تحدثت معه، وتأملت مختاراً الأمر ملياً، استخلصت استنتاجاً واحداً فحسب: أن لديه نظام مفرداتٍ آخر. في هذا النظام، العديد من الكلمات لها معانٍ تتجاوز خيال الناس العاديين. على سبيل المثال «انتهاك القانون والنظام» لم يكن بالضرورة أمراً سيئاً أو قبيحاً، بل على العكس تماماً، انتهاك القانون والنظام دليل على القوة، وامتياز للقوي، وأهم مصدر للسعادة والمجد. إذا قلنا إن «انتهاك القانون والنظام» يتضمن الفساد، التهريب، التربح الرسمي، والدعارة، تجاوز الإشارات الحمراء، البصق العشوائي، وأكل المال العام ونحو ذلك، إذن لا يوجد أي شيء جيد

(١) المقصود هنا «سياسة الطفل الواحد» التي كانت تعمل بها الصين لضبط زيادة السكان.

يمنع هذا الشاب من التوق إليه. لم يفعل كل شيء، لأنه يفتقد القدرة على القيام بذلك في الوقت الحالي.

ولأن تجاوز حصّة الإنجاب أصبح ضمن «انتهاك القانون والنظام»، وفي نطاق قدرته، فسيقرر ما ينوي فعله دون تردد.

كان تجاوزه حصّة الإنجاب أمراً غير منطقيّ تماماً، ولم ينبع من أيّ تقييم للمنفعة الشخصية، بل من القصور الذاتي لفهمه، من السعي المنذع إلى كل السلوكيات المتميزة. ربما كان السبب أنه في الماضي تعرّف على مدير أو مسؤول إداري كبير، أنجب ثلاثة أطفال بفخر وهيبة، بينما كان الآخرون غير قادرين على ذلك، ربما أضمّر في نفسه حسداً. لذلك، وبمجرد أن يفعل ما لم يجروا الناس العاديون على فعله - أو لا يستطيعون فعله - فسوف يمنحه ذلك إحساساً بالتميز، وبأن رأسه مرفوع فوق رؤوس الآخرين وأكتافهم، كأنه مدير أو مسؤول إداري. كانت جهوده لإخفاء حقائق تجاوزه السلطات المعنية شاقةً مثل شخص اختلس مليون يوان، بما يكفي لجعله مزهواً بنفسه خفية، ومتذوقاً باستمرار إنجازاته المتهورة.

إذن ما فائدة الدعاية لأمثاله؟ ما فائدة دعاية الالتزام بالقانون والنظام؟ بالطبع ثمة فائدة: تقوية شغفه بالمخاطرة، وإغراؤه يوماً بعد يوم.

لا أجد أيّ تفسير آخر.

إذا كان توضيحي أعلاه جيداً، فإن الأمر برُمته مجرد مسألة لغوية، مصادفةً عبثيةً لتشابك واختصار معاني كلمات. في النهاية، فقد المخالف للقانون صحن الأرز، ودفع ثمناً باهظاً لكلمة أو كلمتين عاديتين

لِلغَايَةِ . وَتَكَادُ الدَّعَايَةُ الَّتِي وَجَّهَتْهَا السُّلْطَاتُ الْمَعْنِيَّةُ لَهُ ، كَتَسَلَّقِ شَجَرَةً
لِاصْطِيَادِ سَمَكَةٍ ، كَالذَّهَابِ جَنُوبًا بِالْإِتِّجَاهِ شِمَالًا ، عَدِيمَةً الْجَدْوَى وَلَمْ
تَوُدَّ الْغَرَضُ . وَفِي مُوَاجَهَةِ قَامُوسٍ غَرِيبٍ تَمَامًا ، وَمُسْتَمْعٍ لَا يُمْكِنُ التَّنَبُّؤُ
بِهِ ، أَنْجَبَ طِفْلَةً بِرَأْسٍ مُشْعِرٍ ، تَصْرُخُ وَتَبْكِي . كَانَتْ هَذِهِ الطِّفْلَةُ غَيْرَ
ضَرُورِيَّةٍ لِّجَمِيعِ الْأَطْرَافِ الْمَعْنِيَّةِ ، لَكِنْ هَذَا الْخَطَأُ لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ ، أَوْ
طَلَاؤُهُ بِسَائِلِ التَّصْحِيحِ ، أَوْ حَذْفِهِ بِاسْتِخْدَامِ مِمْحَاةٍ .

سَوْفَ تَكْبُرُ وَتَعِيشُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

كَانَتْ جُمْلَةً مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ أُسَيِّتَ تَرْجُمْتُهَا .

غشاء فقاغة (والخ)

راجت في ماتشياو خلال التسعينيات الكثير من الكلمات الجديدة، وشاع استخدامها مثل: «التلفزيون»، «الطلاء»، «الريجيم»، «التشغيل»، «ني بينغ» (مضيف تلفزيوني معروف)، «رقص الديسكو»، «الطريق السريع ١٠٧»، «المأكولات البحرية»، «تذاكر اليانصيب»، «بناء الجدار العظيم (الماجيانغ)»، «عربة ضرب المؤخرة (الدراجة النارية)»، «حمل السلة (أي العمل كوسيط)» وغيرها. كما ظهرت مرة أخرى مجموعة من الكلمات القديمة التي لم تُستخدم كثيراً بين الخمسينيات والسبعينيات، وقد نخطئ الذي لا يعرف هذه الكلمات ويظن أنها كلمات جديدة، مثل: - «الْقَطْع 做脱»: أي القتل، وهي كلمة شائعة الاستخدام عند العصابة الحمراء^(١).

- «تدبير المشكلة 了难»: تستخدم العصابة الحمراء هذه الكلمة أيضاً، وكان استخدامها يكثر في الدعاوي القضائية، إلى أن شاع استخدامها بين الباعة المتجولين، واتسع نطاق معناها، وأصبحت تشير

(١) فرع من جمعية «تيان دي Tiandi»، وكانت منظمة سرية في المجتمع الصيني القديم.

بشكل عام إلى كل أساليب حل المشكلات والصعوبات. استُخدمت هذه الكلمة أيضاً في الصحف وعناوين الأخبار مثل: «الإصلاح سيدبر كل شيء».

- «رأس الثور 牛头»: يشير إلى وسيط أو مُحكّم ذي سلطة، مهمة كانت تُوكّل عادةً إلى أكبر المُسنّين وأكثرهم احتراماً. لا تنتخب الحكومة أو تعيّن رأس الثور، فاختياره منوطٌ بالناس، لتكوين اتفاق بصورة طبيعية خلال فترة زمنية معينة.

- «نقود صنادل القش 草鞋钱»: يُستخدم للإشارة إلى الإكرامية التي يطلبها الأشخاص القادمون من أماكن بعيدة لإنجاز المهمات العامة من صاحب المصلحة بعد إنجازها. ظل معنى الكلمة دون تغيير منذ ظهورها مرّة أخرى في أواخر الثمانينيات، لكن معظم نقود صنادل القش تذهب الآن إلى الكوادر الذين يرددون أحذية جلدية أو أحذية مطاطية، وأفراد قوات الأمن العام، والمتحمسين الذين ينقلون أخباراً جيدة أو سيئة ونحو ذلك، ولم تعد تُدفع على شكل حبوب أرز كالسابق.

- «غشاء فقاعة 泡皮»: تشير إلى الكسول الشقي، وهي تعادل تعبير «الجلد الخشن - 泼皮» في الماندرين، لكنها تفتقر إلى معنى الخشن والشرس في كلمات مثل «泼赖 - مخادع ولئيم - pōlài» و«泼悍 - شرس وقاسي - pōhàn»، وتدل بشكل أكبر على شيء أكثر ضالة، أكثر جناً وتزلفاً، شيء يشبه الطبيعة الهشة والخواوية للفقاعة.

سمعت التعبير من كوي يوان، الذي كان يتّسم بطبيعة غشاء الفقاعة. حين وبّخته على كسله في غرفة معيشتي، أوماً برأسه موافقاً:

أجل أجل أجل، كدجاجة تنقرُ حبوبَ الأرز. لم يستطع إبقاءَ بصره مُركّزاً، وكان في حالةٍ من الارتباك، ساعياً لموافقتي بكلِّ طريقةٍ ممكنة. قلتُ إنني حين كنتُ في سنّه، كان عليّ أن أعملَ حوالي عشرِ ساعاتٍ في اليوم؛ قال: «أيُّ عشرِ ساعاتٍ فقط؟ خمسَ عشرةَ ساعةً على الأقل، لن أرى ضوءَ النهارِ في أي من الحالتين، أليس كذلك؟». قلتُ: «حتى في الريف لا يزالُ لديك مستقبل، ما دمتَ مستعداً للحفر، لتربية الدجاج والأسماك والخنازير، ستجني عشرةَ آلافِ يوان سنوياً». ردّاً: «أيُّ عشرةِ آلافِ يوان سنوياً؟ أصبحَ البعضُ مديري شركات، ولديهم مكاتبُ في الخارج، ألم تشاهد التقاريرَ على التلفزيون؟».

بالغَ في موافقتي، ثم وجّهَ إليَّ الأسئلة.

في النهاية، بعد أن امتنعَ تقريباً عن ضربٍ فيه، وعن الصباح بغضبٍ بتمني الموتِ لنفسه، جمعَ على عجلٍ الشورتاتِ والجواربَ التي علّقها للتو لتجف، ودسّها في الحقيبةَ الجلدية السوداء ذاتِ السحابِ المكسور، وطلبَ مني شريطاً بلاستيكياً أحمر، وربطَ الحقيبةَ السوداءَ بإحكام، ثم خلعَ القميصَ الذي أعرّثه له، وقال إنّه سيغادرُ اليوم، ولا يزالُ أمامه وقتٌ للحاقٍ بالقاربِ الأخيرِ في رصيفِ الميناء.

لم يشربَ الشايَ حتى.

كانت ساعةً متأخرةً من الليل، وشعرتُ فجأةً بالضيق تجاه هروبه المفاجئ، لم يكن مضطراً إلى الإسراعِ في العودةِ أثناء الليل، أو إعادةِ قميصي إليّ، كان بإمكانه -على الأقل- إنهاءَ شربِ الشاي قبل مغادرته. - «لا داعي للعجلة. بما أنكما أتيتما ولم تعثرا على عمل، فلا بأس في

البقاء بضعة أيام للهو، من الصعب أن تُتاح لكما فرصة كهذه مرةً أخرى». أصبحت نبرتي أكثر لطفاً.

- هونا، هونا بما يكفي.

- ماذا لو غادرتما غداً بعد الإفطار؟

- كان علينا الرحيل على كلِّ حال، كما أنَّ الطقسَ أبردُ في الليل.

بدا أنَّه والشابُّ الذي كان معه يتسابقان مع الزمن للعودة إلى الريف، دون تأخير وإضاعة ولو لحظة واحدة. كانا غريبين عن المدينة، مجهلان تماماً ما إذا كانا قادرين على معرفة طريقهما، أو العثور على حافلةٍ للوصولِ إلى رصيف الميناء، وما إذا كان بإمكانهما اللحاقُ بالقاربِ الأخير، وكيف سيقضيان هذه الليلة الطويلة إن فوّتا القارب. دُعِرا من توبيخي، إن كان أمامهما جبالٌ من السكاكين وبحارٌ من النيران، لقفزا على عجلٍ ودون أدنى تفكير. حين ذهبتُ لأستعيرَ سيارةً من أصدقائي لإيصالهما، صرخوا من بعيد، ثم انزلقا في الليل الأسود، وفي طرفة عين، اختفيا بلا أثر.

زنزانه الديموقراطية (كما يستخدمها المّدانون)

لم يعد كوي يوان إلى القرية بعد أن غادرَ منزلي، وبعد حوالي عشرة أيام، طرقَ أحدهم بابي، وحين فتحتُ رأيتُ صبيّاً بشعرٍ أشعث ووجهٍ مُتسخ، سلّمني علبةَ سجائرٍ مُجعدّة، كُتِبَ عليها سطران بقلمٍ جاف. كان واضحاً جفافُ سنِّ القلم، وقد ثقبَ الورقةَ بضَعِ مرّاتٍ دون أن يتركَ أثراً، فكان عليّ تخمينُ المكتوب بصعوبةٍ تحت الضوء.

- «عم شاو غونغ، عليك أن تأتي وتنذقني، فوراً!». كان موقّعاً بـ «انب أخيك»^(١) - كوي يوان». سألتُ عما يجري، ولم يكن لدى الصبيّ أيُّ فكرةٍ أيضاً. فهو لا يعرفُ أيّ كوي يوان. كلُّ ما في الأمر أنّه وقبل أن يُطلقَ سراحه اليوم، دسَّ أحدهم عشرةَ يوانات في يده، وطلبَ منه إيصالَ رسالة. إن عَرِفَ قبلاً مدى صعوبةِ العثورِ على منزلي، لم يكن ليفعلَ ذلك مقابلَ ثلاثين

(١) المقصود: تنذني - ابن أخيك. كما ورد الخطأ في النص الأصلي، إذ كتب كوي يوان (就 - jiù) بدلاً من كلمة تنذني وتكتب (救 - jiù)، وكلمة (至 - zhì) بدلاً من كلمة ابن أخيك (侄 - zhí)، فكتبْتُ الكلمتين بشكل خاطئ كأقرب طريقة لترجمة المقصود.

يواناً. تباطأ في مكانه لبعض الوقت ورفض الذهاب، ولم يغادر إلا حين أعطيته خمسة يواناتٍ أخرى.

كان الأمر واضحاً أنَّ كوي يوان ارتكب جريمةً، وزُجَّ به في السجن.

شعرت بالغضب والقلق، وإن كان هذا الشاب كوي يوان أمامي، أخشى أنني لن أتحمل وسأكيل له الضربات. لكنَّ الضرر قد وقع، لا يمكنني نفْض القمل عني، لا يهْمُ ماءٌ وجهي، لا خيارَ لديّ سوى استجماع شجاعتي، وتهيئة نفسي للتعامل مع مجرمٍ سيء السمعة. في البداية، كان عليّ الاستفسار عن مكان مركز الاحتجاز، والذي تضمن التمييز بين مراكز المقاطعة والبلدية، وبين مراكز الحراسة ومراكز الإيواء المؤقتة ومراكز الاستجواب، ونحو ذلك. استمع جميع المعارف الذين أجابوا على أسئلتي إلى شروحي الصبورة إلى النهاية، وهم مفعمون بشكوكٍ لا يستطيعون الحديث عنها. ثم ذهبتُ إلى وحدة عملي لإصدار بعض الوثائق التي قد تكون مفيدة، وأخذت بعض المال، واتجهت مباشرة إلى الضواحي في عاصفة رملية متصاعدة. ولأنني كنتُ أُسرِعُ بالدراجة النارية، أوقفني شرطي المرور مرتين وعوقبتُ بغرامة، وبحلول الوقت الذي عثرتُ فيه على مركز الاحتجاز، كان الظلام قد حلَّ، وانتهت ساعات العمل، لذلك لم يكن لدي خيارٌ إلا العودة في اليوم التالي. بعد العديد من الابتسامات والمجاملات، والكثير من السجائر، وتقليد مختلف اللهجات، لأتقرب إلى كل رتبة عالية، تمكّنتُ من مزاحمة الحشد المحيط بالمكتب والتحدّث إلى ضابطة شرطة بلهجة سيتشوان، وفهمتُ أخيراً أنَّ قضية كوي يوان هي: «المقامرة

على أرصفة الموانئ»، ورغم أنَّ القضية جاءت في إطار «اتخاذ تدابير صارمة ضدَّ الأنشطة الجسيمة الإجرامية وغير القانونية»، فإنَّها لم تكن خطيرة للغاية، إضافةً إلى أنَّ الزنازين مكتظة، لذلك كانت عقوبته الغرامة. شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ بالكلمات الأربع الأخيرة وأعربتُ عن شكري بلهجة سيتشوان.

لم أكن أحملُ مالا كافياً، فعدتُ مضطراً إلى المنزل وجلبتُ مبلغاً إضافياً، وسلَّمتُ ما يكفي لدفعِ الغرامة، وتكاليفِ المعيشة، والموادِّ التعليمية لإعادة التأهيل ونحو ذلك، وأخرجته من السجن، لكن انعطافاً صغيراً حدثَ قبل إخراجِه، ربما بسببِ العددِ الكبير جداً من السجناء ولأنَّ التسجيلَ خاطئ، لم يعرفَ حارسُ السجن في أيِّ زنزانيةٍ حُبس؛ كانوا مشغولين للغاية، وأبقوني منتظراً لحوالي ساعتين أو ثلاث ساعات، وفي النهاية تعاطفَ معي البعض، وسمحوا لي بالدخول إلى منطقة الزنازين كاستثناءٍ والبحث فيها. لمحتُ صفين طويلين من الأبواب المعدنية الرمادية تمتدُّ بعيداً، كلُّ بابٍ به كُوَّةٌ صغيرة مكتظة بالوجوه، أو بالأحرى بالعديد من العيون المتداخلة من زوايا مختلفة في كتلةٍ مربعة، والمكدسة بشكل أكثر كثافةً من شرائح لحم أُخْرِجَتْ للتو من المبرِّد. كانت كلُّ عينٍ تحدِّقُ إليَّ، وتنتظرني. بدأتُ من الزنزانية الأولى، وطلبتُ بمشقةٍ من شرائح اللحم المربعة التفرَّق مؤقتاً، وفتحَ شِقُّ لأستطيعَ عبْرَه مناداةً كوي يوان، ثم قَرَبْتُ أذني، لأصغي إلى الحركة في الداخل، سمعتُ طنيناً من الأصوات، وشممتُ روائح العرق والبول التتنة، وشعرتُ لأكثرٍ من مرَّةٍ بخيبة الأمل، إذ لم يرد أحد.

بعد المرور على عشرين نافذة، وما أن بدأ الأملُ يمزقُ حلقي، طفت
إجابةً واهنةً كأنها قادمة من أفقٍ بعيدٍ بعيدٍ جداً، وتحوّلت إلى همسٍ عبرَ
القضبانِ الحديدية. دهشتُ لأنَّ مساحةَ كلِّ زنزانة تبلغ عشرين أو ثلاثين
متراً مربعاً على الأكثر، كيف للصوت أن يكون بعيداً جداً؟ كيف يبدو،
كأنه قادمٌ من عالمٍ آخرٍ لانهائي، وبعيدٍ المدى وممتدّ خلفَ النوافذِ الحديدية؟
- «آه آه...» بدا كأنَّ أحداً يقبضُ على حنجرتِه.

استلمَ من الشرطةِ الحقيبةَ الجلديةَ السوداء التي لا يُغلقُ سحابُها،
وعبرَ للشرطةِ عن ندمِه بالقليلِ من الكلماتِ الصادقة، ثم لم يتفوّه بأيِّ
شيءٍ آخر، جلسَ فحسب على المقعدِ الخلفي للدرّاجة النارية، متأملاً
النظراتِ على وجهي خفية. بعد أن قطعنا كيلومترات عدّة، شعرتُ أنَّ
الشخص خلفي يهزُّ قدميه، وبددت الرياحُ رائحته الكريهة قليلاً.

حين وصلتُ إلى المنزل، كان أوّلُ شيءٍ فعلته هو أن أمرته بالوقوفِ
عند الباب، وعدمِ التحركِ وعدمِ الجلوس، وعدمِ لمسِ أيِّ شيءٍ في منزلي.
خلعَ ملابسه على الفور ووضّعها في الحّمّام، وجمعتها زوجته ووضعتها
في الغسالة. كما هو متوقع، عثرتُ زوجتي على قملٍ وبَقِّ الفراش وبقعِ
دماءٍ على ملابسه، فصرخت مذعورةً عند الغسالة. خرج كوي يوان
من الحّمّام وابتسامَةٌ خجولةٌ على وجهه، وسرّحَ شعره وهو يقول: «أين
المرأة؟».

أشرتُ إلى مكانها.

- كان حظّي سيئاً، دخلتُ هذه المرّة زنزانة الديموقراطية.

لم أفهم ما يقوله.

- من الجيد نجاتي عند حدّ الموت.

- ما زنانة الديموقراطية؟

- ألا تعرف زنانة الديموقراطية؟

- لم أرتكب جريمة من قبل.

- إنَّها... إنَّها... الجميع ديموقراطيون.

- ماذا تعني؟

- بمجرد إقامة الديموقراطية، سيزداد القمل والبُق، القتال، وسفك الدماء.

لم أفهم ما يعنيه.

بدأ في تناول الطعام. وقال إنَّ أكثر الناس استمتاعاً في السجن هو «ملك السجن»، وعموماً، حين يتناول ملك السجن الطعام، يُهوي له أحدهم، ويغني له آخر، فيما يقدم له ثالث منشفةً ليمسح وجهه. حين يأتي الطعام، بالطبع يختار ملك السجن أولاً، ويلتقط كل الأشياء الجيدة مثل اللحم. بعد ملك السجن يأكل «الملوك الأربعة السماويون» و«الملوك الثمانية السماويون»، مُنتقِنَ طبقةً أخرى من الأشياء الجيدة. ويأكل النكرات بقايا الحساء والأرز. حين يريد ملك السجن النوم، يحصل على أفضل مكان، وحين يريد رؤية المدانات، يقف هو فقط عند النافذة، مرفوعاً على أكتاف البعض من داعميه لمدة تصل أحياناً إلى ساعتين، حتى ترتجف أرجلهم من الإرهاق.

لم يكن أمام الوافد الجديد خيارٌ إلا الخضوع، لا حاجة لملك السجن أن يفعل أي شيء، فالملوك السماويون، أو أولئك المدانون في انتظار الترقية

لأن يصبحوا ملوكاً سماويين، سيضربونك حتى توشك على الموت. كان هذا يُسمَّى «الجلدُ الأوَّلِي»، أو يلصقون بك تهمة، ويظهرون للحراس المسؤولين عن التأديب مسامراً أو شفرة حلاقة، لإثبات أنك انتهكت قواعد السجن، وينتهي بك الأمرُ مقيداً بالسلاسل أو أغلال القدمين. قال كوي يوان رغم أن ملك السجنٍ شرير جداً، فإنَّ السجناء في أيِّ زنازةٍ يسيطر عليها يلتزمون بالقانون، أي عموماً، ثمة قائدٌ يمسك بزمام كلِّ شيءٍ فلا تنشبُ معاركُ جماعية، بينما تبقى الزنازةُ نظيفةً وصحيةً إلى حدٍّ ما، والمناشفُ معلقةً بترتيب، والألحفةُ مطويةً فوق بعضها، ما يُسعدُ الكوادرَ التأديبية. كانت زنازةُ الديموقراطية هي الأكثرَ رعباً على الإطلاق بالنسبة للمُدانين، كيف سيقضي السجينُ أيامه هناك دون ملكٍ للسجن؟ أو إذا اندلعت المنافسة بين اثنين أو ثلاثة ملوك؟ تعليقٌ واحدٌ طائش وسيندلعُ صراخٌ وشجار. إن استطعتَ المحافظةَ على عينيك وأنفك ويديك وقدميك بعد أشهرٍ في الديموقراطية، سيكونُ أمراً جيداً. فركَ كوي يوان رأسه الذي استطاعَ الحفاظُ عليه إلى الآن، وقال بنبرةٍ يشوبها الخوف، إنَّ زنزانته ليست هذه ولا تلك، كانت مجردَ ديمقراطية. هناك مجموعةٌ من سيتشوان، ومجموعةٌ من غوانغدونغ، ومجموعةٌ من شمال شرق الصين، خاضوا معاركَ ثلاثاً كبرى^(١) دون أيِّ نتيجة، حتى تكبيل الكوادرِ التأديبية لقادة المتعاربين بالقيود الحديدية لم يحل المشكلة. حاصره الرعبُ كلَّ يوم، ولم يحظَ ولو لمرةٍ واحدةٍ بنوم هانئ.

(١) إحالة على الحملات الثلاث الكبرى في حرب التحرير في لياو تشين، هواي خاي وبينغ جين، دلالة على ضراوة القتال.

ابتسمتُ ابتسامةً فاترةً وقلت: «حصلتَ على خبرةٍ كبيرةٍ في السجن، أليس كذلك؟».

دافعَ عن نفسه بسرعةٍ قائلًا: «لا، لا، أنا أكثرُ شخصٍ يلتزمُ بالقانون، إذا ألقى شخصٌ ما أمواله أمامي، لا أجرؤُ على التقاطها».

- كم مرَّةً دخلت السجن؟

- هذه المرَّةُ الأولى، المرَّةُ الأولى على الإطلاق، ليصعقني البرقُ وتحرقني النارُ إن كنت أكذب، لقد سمعتُ بعضُ الأشياءِ عن السجن من الأخ يان وو.

لا أتذكَّرُ هذا الاسم.

تعجَّبَ بشدَّةٍ وقال: «ألا تتذكَّرُ حتى الأخ يان وو؟ مدير مجلس الإدارة، شقيق يان تراو الصغير! ألم تلعب معه الكرة من قبل؟».

حين ذكَرَ يان تراو، خطرت لي أن له أخاً - على ما يبدو - باسم يان وو، كان لا يزال يدرسُ حين جئتُ إلى ماتشياو لأوَّلِ مرَّةٍ، سمعت لاحقاً أنَّه كتبَ شعاراتٍ رجعيةً على خشبةِ المسرح ورجَّ به في السجن. بحلول ذلك الوقت كنتُ قد نُقلتُ إلى العملِ في مكانٍ آخر. أدركتُ أن ذاكرتي تزدادُ تدهوراً.

تيان أن مين^(١)

حين عدتُ لزيارة ماتشياو مجدداً، أخبرني العديدُ من الناس، أنَّ لدى ماتشياو الآن تيان آن مين، التي أصبحت تقريباً بقعةً شهيرةً ذاتَ مناظرٍ خلَّابة، حتى أنَّ المسؤولين الذي يأتون في مهماتٍ عملٍ -بعد زيارة ضريح تشو يوان والنصب التذكاري لثورة المحافظة- يقودون سياراتهم لإلقاء نظرة.

على وجه التحديد، لا يقع تيان آن مين في ماتشياو، بل على الحدود مع بلدة تجانغ جيا فانغ، قريباً ممَّا أصبح لاحقاً الطريق السريع الوطني ١٠٧، لكنَّ ارتباطه بماتشياو له علاقةٌ بتجارة يان وو. كان في الواقع منزلاً كبيراً، يغطِّي مساحة عشرات المِو، مزيناً بأجنحةٍ وشرفات، وبركةٍ لوتس، وحدائقٍ زهور، وغاباتٍ خيزران، وممرٌ فوق الماء، وتلالٍ اصطناعيةٍ وصخور. كانت الحديقةُ مقسَّمة، وكلُّ قسمٍ له اسمُه الخاص، قسمٌ يسمَّى «جنةٌ عدن»، والآخرُ يسمَّى «نُزلُ نهر شيانغ»، مزيجٌ من الشرق والغرب. كان البناءُ بدائياً بعض الشيء؛ ووضعت قطعُ بلاطٍ

(١) ميدانُ السلام السهاوي.

مسطحةً وبارزة، جميعها مائلة ومغطاة بإسمنتٍ جافٍّ لم تتم تسويته. لا يمكن فتح العديد من النوافذ، إذ تكون دائماً عالقة بسبب شيء ما. تسبَّب هذا في قلقٍ لا مفرٍّ منه: إذا كانت لين دايو^(١) قد أمضت اليوم في الحداثق تدفع النوافذ وتغلقها، فكيف وجدت الوقت الكافي لدفن الزهور وحرق القصائد؟ ومع مرور الأيام ما كانت لتُغني نشاراً أكثر من جملِ كاريوكي قليلة.

كان هناك فندقٌ صغيرٌ من طابقين على الطراز الغربي قيد الإنشاء، وقيل إنه بعد إكمال بنائه سيوظَّف عشر فتيات من جيغيانغ كنادلاتٍ لاستقبال الصحفيين والكتاب والضيوف الآخرين.

لم أرَ المالك، ويُقال إنَّ يان وو مستقرٌّ في المحافظة، ويعودُ فقط بين الحين والآخر لزيارة المكان، وتفقدُ مصنعين هنا. لمحتُ منزله من بعيد، مبنى فخم من طابقين وسطَ بركة اللوتس. وبعد نظرة أخرى حوله، رأيتُ ثلاثة أو أربعة أجهزة تكييف بارزة من كلِّ جدار، عددها يفوق الحدَّ المعقول، لا بُدَّ أنَّ الحِمَامات كانت شديدة البرودة. بدا المنزل كأنَّه وحشٌ إسمنتي مغطى بأورام حديدية.

قبل سنوات، سمعت أنَّ الفلاحين هنا أصبحوا أثرياء واشتروا سبع أو ثماني مراوح كهربائية دفعةً واحدة، وعندما لم يجدوا أماكن أخرى لوضعها، وضعوها في حظائر الخنازير. الأمر الذي لم يتوقعوه، هو رواج المكيفات الهوائية في طرقة عين. كان المرشد يصرُّ على عدِّ مكيفات الهواء، ويبدأ في عدّها بالتفصيل كلما رآني مشتت التركيز. كان تركيزه المفرط

(١) بطل الرواية الكلاسيكية الصينية «حلم المقصورة الحمراء».

على نطقِ كلِّ رقمٍ مشوباً بحسَدٍ خفي، وأيضاً بنوعٍ من الفخر، تدفقَ بصوتٍ رنانٍ في أذني، كما لو أنَّ هذه الأورامَ الحديديةَ ذاتُ علاقةٍ بهؤلاء الفلاحين الأثرياء، كما لو أنَّهم يريدون إجباري على الإعجابِ بالنتائجِ المبهرةِ لسياسةِ الفلاحين الأغنياء.

شعرَ المرشدُ أنَّ هذا لا يزال غيرَ كافٍ، وفي وقتٍ ما ذهبَ للبحثِ عن مساعد، وعن شابٍ زعمَ أنَّه يعرفني، كان أحدَ طلابي في أحدِ الفصول التي درَّستها في الماضي. أخذ مفتاحاً وأراد أن يصطحبني لرؤية المنزل. وبدافعٍ من اللطف، اضطررتُ إلى الذهابِ معه، وعبورِ الممرِّ المتعرجِ وبابين أو ثلاثة أبوابٍ حديدية، لأدخلَ ذلك القصرَ المُجلجلَ وسطَ البركة. كان تصميمه جيداً حقاً، مساحةٌ تحتوي على ثرياتٍ متلألئة رائعةٍ وورقٍ حائط. لسوء الحظ، لم تكن الكهرباءُ قويةً بما يكفي، ولم يعمل أيُّ من مكيفاتِ الهواء، لذلك أعطى المديرَ الجميعَ مراوحَ من أوراقِ التيفال لتجفيفِ عرقهم. لم ييْث التلفزيون أيُّ برامج، وقيلَ إنَّ برجَ التلفزيون القريب لم يُشَيَّد بعد. كان في المنزلِ هاتفان، أسودٌ وأحمر، وبدا من الذراعِ الدوارة التي لم تُبرَمَج بعد، أنَّني قد لا أتمكن من سماعِ أي أصواتٍ أخرى هنا. قال الناسُ إنَّ عاملةَ البدَّالة في حكومةِ البلدة لم تكن تعمل أبداً، وتقضي معظمَ وقتِها في رعايةِ طفلها.

- «اشربُ الشاي، اشرب الشاي». كان شخصٌ ما مهذباً معي.

- «حسنٌ». في الواقع، كنتُ أفُضِّلُ أن أجِدَ بعضَ الماءِ لأزِيلَ عرقِي.

- شاهدُ التلفزيون، هيا.

- حسنٌ، سأشاهد.

بعد أن أمضى المساعدُ فترةً طويلةً في ضبطه ومؤخرته معلقةً في الهواء، ظهرت أخيراً شاشة الـ color bar بشكلٍ باهت، ثم ظهرت صورةً ملوّنةً زاهية، من شريط فيديو لإعلانٍ أجنبي يتضمّنُ رقصاً وموسيقى، ظلّ يدور إلى أن ظهرت الشاشة المخطّطة مرةً أخرى. قلتُ ربما الشريطُ تالف، وعرضتُ عليهم تغييره بآخرٍ ليس تالفاً. بعد بحثٍ مطوّلٍ اكتشفتُ عدمَ وجودِ أشرطةٍ أخرى لمشاهدتها، سوى شريطٍ فيلمٍ لفنونٍ الدفاعِ عن النفس من هونغ كونغ، وكان في حالةٍ أسوأ.

حينها كنتُ أتصبّبُ عرقاً. كان البخارُ يتصاعدُ من بركة اللوتس، والسجادةُ القرمزية الساخنةُ تحت الأقدامِ تلعُجُ الجميعَ حتى فاحت منّا رائحةُ اللحمِ المطبوخ. اضطررتُ إلى الاختباءِ خارجَ البابِ والتقاطِ أنفاسي، إلى أن انتهى الآخرون من مشاهدة الغناء والرقصِ المتقطع.

علمتُ لاحقاً أنّ هذا المكان يُسمّى «تيان آن مين»، إشارةً إلى بوابة فناء المنزل، الذي كان تقليداً مصغراً للعمارة في ميدان تيان آن مين. يمكنُ لدجاجةٍ مُطاردةٍ مذعورة أن تُخلّقَ عالياً إلى البوابة. كان المبنى يحتوي على أقواسٍ ومداخلٍ وخنادقٍ وجسورٍ للمشاة، طُلّيت بلونٍ أحمر غامق تقليداً لجدرانِ القصر، وأمامَ المدخلِ الرئيسي انتصبَ أسدان حجريان مُكشَّران. لسوءِ الحظ لم يكن ثمة ماءٌ في الخندق، بل أعشابٌ متناثرة يتقاذفُ منها ضفدعٌ أو اثنان أحياناً. وإذا صعدت إلى برج المبنى، لن ترى أمامك ميداناً أو نُصباً تذكاريّاً، بل خشبةً مسرحٍ مهجورة، صفٌّ من الأزقة التجارية المزدهمة بدكاكين البقالة والشعيرية التي تبدو أعمالها راكدة، وطاولةً بلياردو فارغةً مغطّاةً بغبارٍ أصفر، ومجموعةً شبابٍ تجلس القرفصاء تحت الأفاريز كدجاجاتٍ تستريح، لا شيء يشغلهم.

وكان هناك أيضاً مبنى تعلوه لافتة كبيرة: «نادي الإمبراطور الدولي للثقافة»، يُقال إنَّ صاحبَ ميدان تيان آن مين قدَّم خدماته للقرويين مجاناً.

كجزءٍ من النادي، شُيِّدَ مسرحٌ كبيرٌ يسارَ المبنى. قال المرشد إنَّه في الشهر الأول من ذلك العام، جاءت فرقةُ المسرح بالمحافظة لتغني الأوبرا هنا لثلاثة أيام، دفع خلالها يان وو تكلفةَ الترفيه المجاني لأبناء قريته.

بالطبع، فوجئتُ بأنَّ يان وو بنى منزلاً كبيراً هكذا بطرازٍ جامع، إن كان قد بناه قبل عشرِ سنواتٍ أو نحو ذلك، ألنَّ يُدانَ باعتباره مؤامرةً معاديةً للثورة يُعاقبُ عليها بقطعِ الرأس؟ قابلتُ تجي هوانغ، أحدَ معارفي القدامى، وعرفتُ السببَ وراء ذلك. قال تجي هوانغ، حينَ التحق يان وو بالمدرسة المتوسطة، كان منشأُ عائلته الطبقي عالياً، ومُحتقراً من الناس، وعلَّقَ ذاتَ مرَّةٍ صورةَ ميدان تيان آن مين فوق سريره، وصادرها كادرُ الصف. قال الكادر، إن كان الفلاحون من الطبقة الدنيا والفقراء لا يمتلكون صوراً كهذه، فما هو الحقُّ الذي كان لحثالة مالك أرضٍ مثله ليتوقَّ للرئيس ماو؟ ورؤية تيان آن مين كلَّ يوم؟ هل يريدُ استخدامَ المتفجراتِ لقتلِ قائدٍ عظيم؟

على الأرجح ترسَّخت هذه الحادثة داخله، الآن وبعد ثرائه، بنى ميدان تيان آن مين أولاً قبل فعلِ أي شيءٍ آخر.

لم يكن لديه الحقُّ في رؤية الميدان من قبل، حسنٌ، يريدُ الآن إخبارَ الناسِ أنَّه لا يراه فقط، بل يمكنه أيضاً بناءً واحدٍ أمامَ أنوفكم، والسماحُ لزوجته وطفليه بالعطس واللعبِ مع الجداجد والكلاب، وتناولِ كعكاتِ السمسَم في تيان آن مين، ثم سماعه يهتف «يحيا الشعب!».

كان مديناً بالكثير من الديون للمشروع، وقبض عليه مُحصِّلو الديون
أكثر من مرّة وأرادوا قطع ساقه، كما اقتيد مرّة في سيارة شرطة تابعة لوحدة
التفتيش.

وحشي

كلمة «وحشي - تُكْتَبَ 狠 - وَتُنْطَقَ hěn» وتعني في ماتشياو القدرة، المهارة والموهبة العالية. تكمن المشكلة في أنَّ كلمة «وحشي» تعني أيضاً القسوة، الشر، الخبث، وإضرار النية السيئة. كنتُ أشعرُ دائماً بالانزعاج لتوحيد المعنيين في كلمة واحدة. وكما ذكرتُ سابقاً، خطُّ يدي جيّد، وحين كنتُ في ماتشياو، أُمِرتُ في كثيرٍ من الأحيان باستخدام الطلاء الأحمر والأصفر، وكتابة اقتباسات الزعيم ماو في كلِّ مكان. حين رآني الفلاحون أكتبُ على الجدران، ولا أستخدمُ النموذج ولا أتتبع الرموز. أتسلَّق السُلَّم وأكتب، همهموا بإعجاب: «هذا الصبيُّ المنقول إلى هنا وحشيٌّ جداً!».

لا أستطيعُ تحديدَ مقدارِ الشَّاءِ أو النقدِ الذي تحمُّله العبارة. الكتابةُ بشكلٍ جيّدٍ أمرٌ وحشيٌّ، معرفةُ الكثيرِ من الرموزِ وحشيٌّ، مساعدةُ الفريقِ في إصلاحِ الدَّرَاسَةِ وحشيٌّ، الغوصُ وملءُ الحفرةِ في البركةِ أمرٌ وحشيٌّ، حتى المصانع من الأنحاء الأجنبية التي تصنعُ الأجهزةَ وزيتَ الديزل والأسمدة الكيماوية وصفائح البلاستيك، بالطبع، تنمُّ عن ذكاءِ العَمَّال، وأيضاً عن وحشيَّتهم! ربما لا يدركُ أهلُ

ماتشياو عند قولهم ذلك أنهم ضمّنوا جميع المعرفة والمهارات في منزلة الوحشية والفساد الأخلاقي.

أظنُّ أنّه في تجربتهم السابقة: الأشخاص ذوو المعرفة والمهارات يتصفون بطبيعة الحال بغريزة العدوان والهيمنة، مثل الآلات الهادرة التي رأوها للمرّة الأولى، القنابل اليابانية التي أُلقيت عليهم من السماء، مثل مُكبّر الصوت الذي رأوه للمرّة الأولى أيضاً وقطع «ذيوهم الرأسمالية» بمصادرة أراضيهم الخاصة. ما الذي كان سيطمئنهم أنّ الأشخاص الأذكياء الذين سيأتون لاحقاً، لن يتسببوا في الأذى ذاته؟

في هذه الحالة، ما الخطأ في استخدامهم لكلمة «وحشي»؟

ليست لغة ماتشياو فقط.

في العديد من الأماكن في سيتشوان، يُوصف الأشخاص ذوو القدرات العالية بـ «الشراسة - 猓 - تُكتب 猓 وتُنطق xiōng»، وهي مرادفٌ لكلمة «وحشي - 猓». يقولون بإعجابٍ عن الشخص ذي المهارة العالية: «شرسٌ جداً!».

في أجزاء كثيرة من الشمال، يُوصف الأشخاص ذوو القدرات العالية بـ «شرير»، وهي أيضاً مرادفٌ لكلمة «وحشي». يقولون بإعجابٍ عن الشخص ذي المهارة العالية: «هذا الشرير!».

من الكلمات الدارجة في الماندرين كلمة «厉害 - lì hai - تنطق - li hai - وتعني حاد»، وتدلُّ على درجة من القدرة المتميزة، كما أنّها مثالٌ على معنى الاستخفاف في هيئة المديح، والقلق المخفي داخل المتعة. «厉 - تعني حاد وشرس»، أمّا «害 - فتعني يؤذي» هي تحذيرٌ واضحٌ ومباشر.

ويشيرُ وصفُ الشخصِ في لهجةِ هونان «بالقاسي أو الحاد»، إلى الشخصِ الماهرِ ذي القدرة، لكنَّه يريدُ استغلالَ الآخرين، شخصٌ شرير.

ومن هنا، ارتبطت المعرفةُ والمهارةُ والشرُّ في الكثيرِ من اللهجاتِ الصينية (أو الوحشية، والقسوة، والأذى ونحو ذلك) بجوهرٍ داخليٍّ وخارجيٍّ واحد. منذ أكثرَ من ألفي عام، أعربَ الفيلسوفُ جوانغ تزي عن قلقه وكرهه لِكُلِّ المعارفِ والمهارات. «هناك عددٌ قليلٌ من الأشخاصِ الطيبين في العالم، ولكن هناك الكثيرُ من الأشخاصِ السيئين. وهناك القليلُ من الحكماء الذين يستفيدون من العالم، والعديدُ منهم يؤذيه». (جوانغ تزي، الفصول الداخلية، الفصل ١٠: السرقة). كان يعتقدُ أنَّه فقط من خلالِ إبادةِ المعرفة، سيَقْضَى على لصوصِ الوطن، فقط بعد تدميرِ الجواهر سينخفضُ عددُ لصوصِ الممتلكات، فقط من خلالِ إتلافِ الأختامِ والمستندات، سيصبحُ الناسُ مخلصين في أداءِ واجباتهم، فقط من خلالِ كسرِ الموازين، لن يهتم الناسُ بالمساومةِ والجدل، فقط من خلالِ تدميرِ القوانين والعقائد، سيصبحُ الناسُ قادرين على فهمِ الطبيعةِ والطريقِ النهائي لحياة الإنسان... تحوَّلَ تحذيرُ جوانغ تزي في العصرِ الحديث، وفي ظلِّ التكنولوجيا المتقدمة بشكلٍ متزايد، إلى أثرٍ ناءٍ مندثر، إلى ضوءِ نجمٍ خافتٍ وراءَ الأفق، لن تأخذه الأغلبيةُ على محملِ الجد.

لكنَّه كامنٌ في تراثِ اللغة، وعلى الأقلِ في العديدِ من اللهجاتِ الجنوبية التي ذكرتها أعلاه، ولا يزالُ يصادفُ الناسَ خفيةً من وقتٍ لآخر.

الموهبة الغريبة

في لهجة ماتشياو، يُطلَقُ على الأشخاصِ ذوي الموهبةِ العالية: «الموهبةُ الغريبة». يقدِّمُ كتابُ «تسي يوان - أصلُ الكلمات» (المطبعة التجارية ١٩٨٩) ثلاثةَ تعريفاتٍ لكلمة «怪 - guài - غريب»، الأول: غريب، عجيب. الثاني: لا سِيَّما، للغاية، جداً؛ وعلى ما يبدو أَنَّهُ يُنظرُ إلى التعريفِ الثاني كتطورٍ تدريجيٍّ للتعريفِ الأولِ نحو كلمةٍ وظيفية. أما الثالث: اللوم، والتوبيخ، مثل «ضع اللومَ عليّ»، وتعني الانتقاد. بهذه الطريقة، ترتبطُ الأشياءُ الغريبةُ في اللغةِ الصينيةِ دائماً باللومِ والتوبيخ، وهو خارجُ عن المألوفِ بدرجةٍ خطيرة.

كان يان وو «أغربَ موهبة» في ماتشياو. حين ورَّعتَ الدفعةَ الأولى من الشبابِ المتعلِّمِ للعملِ أو تقاعدتُ بسببِ المرض، بقي اثنان فقط، كنتُ واحداً منهما؛ رحَلَ أولئك الذين يستطيعون غناءً أوبراً بكين الثورية، وبالكاد يستطيع فريقُ الدعايةِ الفنيةِ عزفَ الغونغ حين يُطلَبُ منهم العزف، لذا رَشَّحَ البعضُ يان وو. كان لا يزالُ طالباً في المدرسةِ المتوسطة، لكنَّه استجاب للطلبِ وغنَّى جيداً على النقيض ممَّا هو متوقع، رغم أَنَّهُ لا وقتٌ لديه للبروفات، وقامته قصيرةٌ على الصعود إلى خشبةِ

المسرح، فإنه يختبئ في بقعة مظلمة وراء الكواليس، ويغني الأوبرا من البداية إلى النهاية، الأخيار، الأشرار، الأدوار الرجالية، الأدوار النسائية، كل الكلمات التي حفظها خرجت ما أن فتح فمه، وما كان على الممثلين على خشبة المسرح إلا ترديد ما يغنيه. غنى العديد من النغمات العالية شديدة الصعوبة بسلاسة، أدهشني الصوت الغني المتدفق الذي يُحلق في سماء الليل فوق القرية. كان رأسه يظهر في مستوى خصور الناس، ومن المستحيل أن يرى وجهه بوضوح دون انحناء. وكى لا يغيب عن الفصل، كان يهرب بعد الغناء ويختفى في الليل، قبل أن يتسنى لي إلقاء نظرة واضحة عليه.

اكتسب غناؤه لأوبرا بكين وعروض الأوبرا النموذجية شهرة كبيرة، وكلما كان هناك أداء مشترك في محافظة بينغ جيانغ، أرسلوا شخصاً ليطلب منه المساعدة، فبوسعه عزف الناي أو الهوتشن. إذا طلبوا منه تصميم مشهد أو زي، كان يحك رأسه قائلاً إن لديه فكرة جيدة.

رأيت وجهه حقاً بعد تخرجه وعودته إلى المنزل، كان وجهه طفولياً مستديراً، كأنه لم يصل سن البلوغ بعد، ولا يشبه كثيراً أخاه الكبير يان تراو بغمه الحاد وملامحه الشبيهة بالقرد. بعد مشاهدتي وأنا ألعب دورات شطرنج، تجرباً وانضم إلى اللعب. تعاملت معه باستخفاف ورغبة في إرشاده، لكنني لم أتوقع أنه بعد عدة خطوات، سيحطم دفاعاتي ويضعني في موقف حرج. في لعبة أخرى، نهب وسلب من اليسار واليمين بقسوة مُعلّم كبير وعدو شرس، كان عنيداً يطارد بشدة ويهاجم بعنف، يقطع العشب ويحترق الجذور، يفضل قتل ثلاثة آلاف بطريق الخطأ على إطلاق سراح واحد.

أُعجبتُ به بصمتٍ وهُزمتُ هزيمةً مُرةً.

قال بتواضع: «أنا آسف للغاية، لستُ بارعاً، لستُ بارعاً». كان ثمة أثرٌ من الفخرِ بين حاجبيه لا يمكن إخفاؤه.

بعد ذلك، درستُ بعضَ كتيباتِ الشطرنجِ بجديّةٍ في الخفاء، وبحثُّ عنه للعبِ مباراة، فتحجَّجَ بذهابِهِ إلى الصيدلية أو بعملِهِ في الخارجِ وهربَ، وحرمني من فرصةٍ للانتقامِ من إذلالي. يمكنني تخيُّلُ السعادةِ التي شعرَ بها بعد أن أدارَ ظهرَه حين رأى نفاذَ صبري ويأسِي.

لم يكن يعمل كثيراً في القرية، ويقضي أياماً قليلةً في المنزل، حتى أنّه لم يعد حين اشتدَّ مرضُ والدتهِ العجوز. حين خصَّصَ قائدُ الفريقِ مهامَ إصلاحِ الريِّ للجميع، أنجزَ يان تزاو المهمةَ عوضاً عنه، ولا يظهرُ غيرُهُ في أرضِ عائلتهِ. أولاً تعلَّم يان وو أن يكون دهناناً، وقد التقينا ذاتَ مرّةٍ على الطريق وهو يحملُ حقيبةَ أدواتٍ ومغطّى بالطلاء، ثم التقيتُ به بعد فترة، وعلمتُ أنّه درسَ الطبَّ الصيني التقليدي، كان يعالجُ المرضى بالإبر وقيسُ نبضهم بمهارة. بعد ذلك درسَ الرسمَ والنحتَ أيضاً، ويُقالُ إنّهُ يبيعُ لوحاتِ فن الخط في المحافظة وشارع تشانغ لي، بالإضافةِ إلى نقشِ قصائدِ الرئيس ماو بخطِّ ارتجاليٍّ رشيقي على فُرشِ حِبرِ الزبائن أثناء انتظارِهِم وبسعرٍ معقول. باختصارٍ، لم يكن هناك شيءٌ لا يستطيعُ إتقانه، ولا شيءٌ يمنعه من التباهي بموهبتهِ الغريبةِ الخارقة التي ذاعَ صيتها في كلّ مكان، وعرفه الجميع، كباراً وصغاراً. ورغم أنّه كان خائناً للصين (انظرُ مدخل «خائن للصين»)، فإنَّ أهلَ ماتشياو لم يزدروه، وكانوا متسامحين للغاية مع رحلاتِهِ الغامضة خارجَ القرية.

على العكس تماماً، كان فخر ماتشياو، فخراً جماعياً لقرى عديدة حول قوس ماتشياو. إذا انتشرت شائعةٌ أن ثمة طالباً جامعياً في مكانٍ ما، يردُّ أهلُ ماتشياو بعدم اقتناع، وماذا في الأمر؟ يا للأسف، كان يان وو خائناً للصين، وإلاَّ لكانَ درسَ في ثلاثٍ أو أربع جامعات. إذا انتشرت شائعةٌ أن شخصاً من مكانٍ ما، وُزِعَ للعملِ فنياً للريِّ في المحافظة، ويتناولُ حبوبَ البلد، يردُّ أهلُ ماتشياو بعدم اقتناع: كيف لشخصٍ كهذا أن يصبحَ فنياً للريِّ؟ يا له من أمرٍ مؤسف أن منشأ يان وو الطبقيَّ عالٍ، وإلاَّ لما حظيَ هذا الرجلُ بهذه الفرصة.

كان ابنُ بنِ بي في صراعٍ طويلٍ مع المرض، وقرَّرَ أخذه إلى مركز المحافظة، فتأكَّد أهلُ ماتشياو أنَّه هالكٌ لا محالة، إذا لم تنجح وصفاتُ يان وو في علاجه، فما الفائدةُ من إرساله إلى مركز المحافظة؟ أليس ذلك إنفاقاً للمالِ دون داعٍ؟ إلاَّ أنَّه بعد مرورِ ستَّة أشهر، شُفي ابنُ بنِ بي هناك. لم يتفاجأ أهلُ ماتشياو بشأن ذلك، وكان لديهم ما يقولونه أيضاً. قالوا إنَّ الأمرَ لا يتعلقُ بسوءِ وصفاتِ يان وو، بل ألقوا اللومَ على نقصِ الأدويةِ في الريف، وإلاَّ لما كانت هناك حاجةٌ على الإطلاق لأن يذهبَ طفلُ بنِ بي إلى المحافظة، ويكلِّفَ علاجهُ كلَّ هذه الأموال ويخوِّضَ هذه المعاناة، حتى أنَّ جسدَ الطفلِ تعرَّضَ للشَّقِّ بالمِشرط، واستؤصِّلَ قلبُه ورئتاه وكبدُه وغُسلت كخُضارٍ مخلل، وفقدَ عشرَ سنواتٍ على الأقل من عمره الطويل.

اتفق بنِ بي نفسه مع هذا الرأي.

كان بنِ بي سكرتيرَ فرع مكتب الحزب، ويحملُ ضغينةً تجاه والد يان وو، ويردِّدُ أنَّ موهبةَ يان وو أكثرُ غرابةً من والده، ولديه ما يكفي

ليصبح مجرمًا ومعادياً للثورة. لكن ذلك لم يمنع إعجابه بموهبة يان وو الغربية، وأحاطه باحترام خاص، حتى إذا مرض فردٌ من عائلته استدعى يان وو لقياس النبض، ودون فعلٍ ذلك كان سيشعر بالقلق.

لم يتقاضَ يان وو أجرًا مقابل علاج أهل القرية، وكان أكثر احتراماً للكوادر. ذات مرة، طلب مني سيجارة، وبعد أن أخذها، انطلق هارباً واختفى في طرفة عين. عندما ذهبْتُ إلى القرية السفلى لإنجاز بعض الأعمال، اكتشفتُ أن «خي» رئيس الكومونة يجلس في الجرن، ويدخن سيجارتي ماركة «جبل تشيولو»، ويان وو قربَه يفرُّكُ يديه، وعلى وجهه ابتسامةٌ خجولةٌ وصادقة، مصغياً إلى تعليقات المدير. اكتشفتُ لاحقاً أنه لا يدخن، ليس لأنه لا يريدُ ذلك، بل لأنه يمقتُ السجائر؛ كان يعملُ خارجَ القرية دهاناً وطيباً ورساماً ونقاشاً، ويجمعُ السجائر التي تُقدَّمُ له ويحفظُها بعناية، ثم يهديها إلى الكوادر بعد عودته، ولا سيما بن يي، لذلك فسجائرُه دائماً خليطٌ من العلامات التجارية.

لبعض الوقت، كانت علاقته وثيقةً برئيس الكومونة «خي»، كلما أرادَ الرئيسُ أيَّ شيء، أتى مبتسماً بمجرد استدعائه. صبيٌّ مطيعٌ دائماً، موهبةٌ تُظهرُ معرفتها في أيِّ وقت، لكنه ينسب فضلَ معرفته إلى رعاية وتنويرِ قادته. ذات يوم، وبعد عمله يومين متواصلين في الطلاء دون أن يغمضَ له جفن، عاد إلى ماتشياو في وقتٍ متأخرٍ من الليل، سائراً بخطواتٍ مترنحةٍ لشدة شعوره بالنعاس، فسمعَ من جيرانه أن رئيس الكومونة أرسلَ رسالةً قال فيها إنَّ المنبَهَ مكسورٌ ويريده أن يأتي لإصلاحه. ودون أن يجرؤَ على التوقُّفِ هرعَ في الليلِ إلى شارع تشانغ لي ليستعيرَ أدواتٍ من صانع ساعات، ثم اتجه إلى الكومونة. لدى عبوره جبال تيان تزي،

سقط من منحدر مرتفع، وفي صباح اليوم التالي، مرَّ أشخاص من هناك وعثروا عليه - كان وجهه، ويداه، ولا سيما قدماه المكشوفتان، مغطاةً بالعَلَقَاتِ الجبلية، كما لو أنَّ جذوراً حمراء نمت على كامل جسده خلال الليل. ساعده العابرون على الفور في القضاء على العَلَقَات، وتلطّخت أيديهم بالدماء. وبعد أن أيقظته ضرباتهم، انفجر في البكاء مذعوراً ما أن رأى لطخات الدم على جسده.

لو لم يمرَّ شخصٌ ما عن طريق الصدفة، أخشى أنَّ العَلَقَات كانت ستمتصُّ دمَ يان وو خلال ساعاتٍ قليلة.

لم يساعده تباهيه في النهاية كثيراً، ولم تكن لموهبته الغريبة فائدة كبيرة. استقدمت الجامعةُ مرَّتين طلاباً من العمال والفلاحين والجنود، وتولَّى المدير «خي» عملَ بن يي، ورشح يان وو للجهات المعنية كـ «شابٍ قابلٍ للتعلُّم» ولكن بمجرد أن وصلَ الترشيحُ للمسؤولين أُعيدَ مرةً أخرى. كان الذهابُ لتفتيش منزله عشية كلِّ عطلةٍ مهمة، وإلقاء توجيهاتٍ على إخوته، عملاً كُلِّفت به ميليشيا الشعب، حتى لو كان من واجباتها الروتينية، فلا يزالُ يتعينُ عليها القيامُ بهذه الإجراءات حتى لو وضعت شعوره في الاعتبار.

بعد توزيعي إلى العمل في المحافظة، سمعتُ أيضاً أنَّ مكتبَ الأمن العام هناك زجَّه في السجن للاشتباه بكتابة شعاراتٍ رجعية. عُثِرَ على الشعاراتِ خلال العرضِ الفني لليوم الوطني، وقيلَ إنَّها كُتِبَت على طولِ خشبة المسرح المؤقتة. لم أعرف محتوى الشعارات، كلُّ ما أعرفه هو سببُ اعتقال الشرطة له: كان يعزفُ الهوتشن في الكواليس، ويغني قريباً للغاية من موقع الحادث، ولديه خلفيةٌ عائليةٌ معاديةٌ للثورة، كان

مثقفاً، ذا مكانة، وأغرب موهبة، أليس من المرجح أن ينخرط في أنشطة رجعية تحت جُنع الليل؟

أجد الأمر غريباً أنَّ المعجيين بـ يان وو، رجال ونساء ماتشياو، الكبار والصغار، لم يهتموا كثيراً بإلقاء القبض على مثلهم الأعلى، ورأوا أنَّ معاداة الثورة شيءٌ منحهم هبةً وكرامةً. كان ردُّ فعلهم شديد الهدوء، بدا أنَّ نتيجة الأمر طبيعيةٌ للغاية ومعقولة، شيءٌ كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً. كانوا ينخرون بازدراءٍ إذا تحدَّث أحدٌ من القرى المجاورة عن مشتبهِ به: هو رجعي؟ هذه الجملة التي كتبها، يمكن لـ يان وو أن يكتبها بقدمه، على الأرجح سرق بقرةً أو حبوباً، لا شيء أكثر.

بالنسبة لهم، لم تكن معاداة الثورة مجرد سرقاتٍ تافهة، بل أمرٌ يتجاوزُ قدرة الأشخاص العاديين. كان يان وو أكثر شخصٍ مؤهلٍ ليكون معادياً للثورة، وأرقى رجعي. وركوبه سيارة الشرطة بوجهٍ شاحب، يشبهُ رحلته المجيدة البعيدة إلى المدينة للدراسة الجامعية.

لا أحد يستطيع تقليد امتيازاته.

حتى أنَّهم تشاجروا بسبب ذلك. جاء شخصٌ من بلدة لونغ جيا تان لرعي الخنازير، وذكر - أثناء الدردشة - أنَّ هناك شخصاً في البلدة شديد الرجعية، قريبٌ لرجلٍ في شينجايغ، وكان قائد فوجٍ قبل سنوات، والتقطت صورته مع كبار الشخصيات مثل لين بياو. لم يقتنع شباب ماتشياو بهذا الكلام، وقالوا: أيُّ قائد فوج، سمعنا أنَّه كان مجرد مسؤولٍ مستودع، ودون أيِّ سلطةٍ عسكرية. لو كان يان وو قد وُلِد قبل عشرين عاماً، لأصبح قائداً للجيش، فضلاً عن أن يكون قائد فوج، ربما أصبح

مسؤولاً رفيع المستوى تحت قيادة شيانج كاي شيك، ويركب السيارات الآن في تاويان كل يوم.

قال الرجل من لونغ جيا تان: «يمكن لموهبة يان وو أن تكون غريبة، لكنها ليست شديدة الغرابة، فصورة الرئيس ماو، برأس كبير وجسم نحيف، تبدو مثل وانغ المسن الذي يعمل في تعاونية التوريد والتسويق».

ردّ رجل من ماتشياو: «هل تعتقد أن يان وو ليس رساماً؟ إنّه رجعي، بالطبع سيكون رسمه هكذا».

- كيف يجعله رسم رأس معادياً للثورة؟

- أنت لم تره يرسم التنانين، بوسعه رسم واحد في طرفة عين.

- رسم التنانين ليس بأعجوبة، يمكن لأيّ دهان رسمها.

- إنّه يجيد التدريس أيضاً.

- ألا يدرّس «لي شياو تانغ» كذلك؟

- كيف لـ «لي» كبير السن أن يكون ماهراً مثله في التدريس؟

قدّم شاب من ماتشياو مثلاً، قائلاً: «حين يشرح يان وو معنى كلمة «رقبة»، يستغرق تفسيره عشر دقائق. ما «الرقبة»؟ إنّها أسطوانة من أنسجة الجسم بين الرأس والكتفين، تحتوي على كثير من الأوعية الدموية التي يمكن أن تنكمش وتدور، هل ترى مستواه؟ هل يملك لي شياو تانغ هذا القدر من المعرفة؟ الرقبة هي الرقبة، ويربّت «لي» على رقبته مرتين وينتهي الأمر، هل يُعدّ ذلك تدريساً؟».

ردّ الرجل من لونغ جيا تان: «أرى أن ضربتين أفضل».

تجادلوا لفترة طويلة عما إذا كانت موهبة يان وو غريبة أم لا، عما إذا كان رسم عن عمد صورة لا تشبه الرئيس ماو، وعما إذا كان معادياً للثورة أم لا، ثم داس الرجل من لونغ جيا تان دون قصد على قدم شخص فاشتعل هذا غضباً، ورش الشاي على وجهه! ولولا وجود أناس لإيقافهما، لتحوّل الشجار إلى أمر جلل.

وكما ذكرت سابقاً، كلمة «غريب» تعني دائماً تلقّي اللوم (- 责怪 zé guài - ملام). وكانت تبعث في كلمة «الموهبة الغريبة» شعوراً خفياً بالاضطراب، وأنها لن تؤدي إلى أي نتائج جيدة، وأكد مكتب الأمن العام وأهل ماتشياو ذلك أخيراً. حين واجهوا الشعارات الرجعية، لم يشتهوا في يان تراو - شقيق يان وو في القدر ذاتها - أو في العناصر الأربعة في القرى المجاورة، والسبب الرئيسي أنه لا يان تراو، ولا أي شخص آخر، يضاهيه في موهبته الغريبة أو يملكها. اعتبروا - بمنطق مبرر وعقلاني ودون تأمل - الذكاء عدوّاً، والفطنة شراً، رغم أنهم كانوا يمجّدون خفية الذكاء والفطنة. لم يكن تعقّباً للشعارات الرجعية وإنما لإدراكهم منذ فترة طويلة أن عبارة «الموهبة الغريبة» الشاذة، سيكون السجن مال صاحبها عاجلاً أم آجلاً.

ورغم ذكاء يان وو طيلة حياته، فإنه للأسف لم يتحرّر بعناية معنى هذه العبارة، ولم يلاحظ بدقة التوجّه الخطير لها في لهجة ماتشياو. كان فخوراً بموهبته الغريبة لسنوات عديدة، وكيف تقرب من الكوادر والقرويين بموهبته الغريبة، وأدار مصيره بواسطتها وأصبح مفرط التفاؤل.

لا أدري إن أدرك ذلك وهو في السجن أم لا. كل ما أعرفه أنه كان مميزاً أثناء سجنه، واستغل أي فرصة لممارسة موهبته الغريبة. وفي

المكان الذي تُصادَرُ فيه حتى الأحزمة نجحَ مرّةً في الحصولِ على فرصةٍ للانتحار. تدرجَ على الأرضِ ممسكاً بطنه لِيأليَ عدّة، يصيحُ ويئن، إلى أن حضرَ الطبيبُ لحقنِه بالدواء، فخبأَ الزجاجةَ، وفي النهايةِ كسرها وابتلعها.

كانت الدموعُ تنهمرُ على وجهه، والدماءُ تملأُ فمه، وحين فقدَ وعيه، أرسله الحراسُ إلى المستشفى لتلقّي العلاج، وحين عَلِمَ الطبيبُ أَنَّهُ ابتلعَ شظايا زجاج، قال إِنَّه يصعبُ تحديدُ مكانها بمنظارِ الأشعة السينيّة، ولا يمكنُ إجراءَ جراحةٍ كذلك، ولا إمكانيةً لعلاجِه. ما أن سمعَ الصبيانُ المتّهمان اللذان أُمرَا بحمله إلى المستشفى ذلك، انخرطا في بكاءٍ دفعَ صوته رجلاً كبيرَ السن من مطبخِ المستشفى إلى المجيء. لحسنِ الحظ، لا يزالُ الرجلُ يملكُ خبرةً، واقترحَ عليه شُرَبَ الكُرّاث، قائلاً إِنَّ الكُرّاثَ غيرَ المقطّع، المطهو قليلاً، سيلتفُ بعدَ تناوله حولَ شظايا الزجاجِ في المعدةِ والأمعاء، إلى أن تخرجَ مع البراز. فعَلَ الأطباءُ ذلك مرتابين، ودُهِشوا بعد ذلك لرؤيةِ كُرّاتِ الكُرّاثِ في برازه، واحدةً تلو الأخرى وبها شظايا الزجاج.

تناسخ الأرواح

يُطلقُ أهلُ ماتشياو على ذبح الخنازيرِ والماشيةِ والأعمالِ الدموية الأخرى «إطلاقُ التناسخ»، والذي يُضفي على الفعلِ أُنَاقَةً ونُبْلًا. قال المُسنِّون إنَّ الحيواناتِ الأليفةَ لها حيواتٌ أيضاً، وإنَّها ارتكبتُ آثاماً في حيواتِها السابقة وتكفَّرُ عنها في هذه الحياة، وإنَّها عانت أكثرَ من أيِّ مخلوقٍ آخر، وبذبحِها يُسمَح لها بالتناسخ في وقتٍ مبكر، والتخلُّص من بحرِ مرارتِها، وهذا عملٌ خَيْرٌ عظيم. وهكذا، يذبحُ الجزارون بثقة، والآكلون يمضغون ويقضمون وأفواهُهم ملطخةٌ بالدهن وقلوبُهم مطمئنة.

يمكنُ للغَةِ أن تغيَّرَ مشاعرَ الناس؛ تغيِّرُ كلمةً ما يمكنُ أن يُخَفِّفَ أو يقضي على تعاطفِ الناسِ إزاءَ المسلخ، ولا يحفِزُ الدَمَ المراقَ ولوحَ تقطيعِ اللحمِ سوى تحديقٍ فارغٍ لا مبالٍ.

بعد أن تخلَّى بن يي عن منصبه كسكرتير، كان يكسبُ لقمةَ العيشِ لسنواتٍ عدَّةٍ كمتقمِّصٍ أرواح. ومع بداية تدهورِ صحته وإن غادرَ السرير، وسمعَ قُبَاعَ خنزيرٍ، يذهبُ ليلقى نظرةً دون دعوةٍ من أحد، كان يوجِّهُ أصابعَ الاتهامِ عشوائياً، فيلعنُ أسلافَ هذا الشخص، ويلعنُ

أَمْ ذَاكَ، وَلَا يَفْلَتْ شَخْصٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسْلُخِ مِنْ سَبَابِهِ دُونَ سَبَبٍ. كَانَ مَدْمَنًا عَلَى اسْتِخْدَامِ سَكِّينِهِ، وَبَارِعًا جَدًّا فِي ذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا كَانَ أَشْهَرَ جَزَائِرِهَا خِلَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُسَاعَدَةِ أَحَدٍ فِي الْقَبْضِ عَلَى الْخَنَازِيرِ أَوْ تَقْيِيدِهَا، مَهْمَا بَلَغَ حَجْمُ الْخَنَزِيرِ أَوْ مَدَى مُقَاوَمَتِهِ، كَانَ يَعْرِفُ مَا الَّذِي سَيَفْعَلُهُ بِمَجْرَدِ نَظَرَةٍ. يَمْسُكُهُ فَجْأَةً وَيَرْفَعُ السَّكِّينَ، وَبِكُلِّ قُوَّتِهِ - كَأَنَّهَا قُوَّةٌ مُسْتَعَارَةٌ - يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ بِأَقْلَ جَهْدٍ وَيَغْرُسُ السَّكِّينَ فِي صَدْرِهِ، وَيَدِيرُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً عَمِيقًا فِي الصَّدْرِ، ثُمَّ يَسْحَبُهَا بِسُرْعَةٍ. تَمْسُكُ يَدُ الْأُذُنِ الْخَنَزِيرِ وَالْيَدُ الْأُخْرَى تَمْسُكُ اللَّحْمَ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَيَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ يَتَسَنَّى لَهُ الصِّيَاحُ. ثُمَّ وَهُوَ يَضْحَكُ، يَمْسَحُ بِنِيبِي لَطَخَاتٍ دَمٍ عَنِ كَوْمَةِ اللَّحْمِ الْمُرْتَعِشَةِ، وَيَنْظِفُ السَّكِّينَ بِهَدْوٍ وَبَطْءٍ.

يُطَلِّقُ عَلَى ذَلِكَ «الذَّبْحُ أَثْنَاءَ الْجَرِيِّ، أَوْ الذَّبْحُ الصَّامِتِ»، وَكَانَ مَاهِرًا فِيهِ.

حِينَ يَفْرُطُ بِنِيبِي فِي الشَّرَابِ، تَنْزَلُقُ يَدُهُ، وَلَا تَنْجُزُ ضَرْبَةُ السَّكِّينِ الْمَهْمَةَ، فَيَقْفُزُ الْخَنَزِيرُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَرْكُضُ بِجَنُونٍ. كَانَ يَحْدِّقُ بِحَنَقٍ، وَتَحْتَقِنُ أَوْرَدَةُ رَقَبَتِهِ بِغَضَبٍ مَكْبُوتٍ، وَيَلَاَحِقُهُ فِي الْمَكَانِ بِسَكِّينٍ مَلْطَخَةٍ بِالْدَّمَاءِ، وَيَلْعَنُ بِقَسْوَةٍ حِينَهَا: «أَرَاكَ تَرْكُضُ، أَرَاكَ أَيُّهَا الْمَوْهَبَةُ الْغَرِيبَةُ، أَرَاكَ مَحْظُوظًا، أَرَاكَ طَمُوحًا...».

لَمْ يَكُنْ لَدَى النَّاسِ عَمُومًا أَدْنَى فِكْرَةٍ عَمَّنْ كَانَ يَشْتُمُ.

كَانَ يَقْرَأُ نَصْفَ رَمِزٍ «勃 - يُنْطَقُ bō» فِي عِبَارَةِ «野心勃勃». وَصَحَّحَ لَهُ آخَرُونَ مَرَّاتٍ عَدَّةً، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَحْفَظُ: «تُقْرَأُ «bó»؟ رُبَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ «力 - تَنْطَقُ lì»؟». وَمَعَ ذَلِكَ، يَنْطَقُهَا الْمَرَّةَ الْقَادِمَةَ «力力 - lìlì».

عوضاً عن «勃勃 - bóbó». جاره الناس بعدما اعتادوا ذلك. كلُّ ما
في الأمر أنَّ حقَّ تعبيره ليس جيداً كما كان من قبل، ولن تنتشر أخطاؤه
لتنحوّل إلى أخطاء الجميع.

مكتبة

t.me/soramnqraa

جاردينيا أو ياسمين

ستمطر، لا أظنُّ أنَّها ستمطر. (فيما يتعلَّق بالطقس).

شِيعت، شِيعت، لكن أريدُ تناولَ صحنٍ آخر. (فيما يتعلَّق بالأكل).
أعتقدُ أنَّ الحافلةَ لن تأتي، فمن الأفضلِ أن تنتظر. (فيما يتعلَّق
بانتظارِ الحافلة).

هذه المقالةُ مكتوبةٌ بأسلوبٍ جيد، لا أستطيعُ فهمَ كلمةٍ واحدة.
(فيما يتعلَّق بقراءةِ الصحيفة).

إنَّه رجلٌ أمين، لكن لا يتحدثُ بصدق. (فيما يتعلَّق بتجونغ تشي).

كان على أيِّ شخصٍ يأتي إلى ماتشياو أن يعتادَ هذا النوعَ من الكلامِ
المزدوج: غامض، مبهم، مُتزعزع، متذبذب، هذا ثم ذاك. كانت هذه
الطريقةُ المقلقةُ في الحديث هي ما أطلقَ عليها أهلُ ماتشياو «جاردينيا أو
ياسمين». اكتشفتُ أنَّهم -عموماً- لم يكونوا مرتبكين بسببِ هذا الأمر،
ولم يجدوه غريباً، وبدا أنَّهم سعداءٌ للتحدُّثِ بكلامٍ غيرِ عقلائي لا يستندُ
إلى منطق. يبدو أنَّهم لم يعتادوا مبدأَ عدمِ التناقض، فإذا اضطروا أحياناً

إلى التحدّث بطريقة أكثر وضوحاً، يعدون ذلك مهمة شاقة، لا مناص منها، نوعاً من الإكراه على التكيّف مع العالم الخارجي. لا يسعني سوى الشك بأنهم يشعرون -وبصورة أساسية- بأن الغموض هو تعبيرٌ عن دقّتهم.

لهذا السبب، لم أفهم أبداً كيف مات «ما تجونغ تشي». وتلخيصاً لما قاله الناس: كان تجونغ تشي جشعاً قليلاً، لكنّه لم يكن جشعاً جداً. كان واسع الأفق، ومخادعاً قليلاً أيضاً، لم يعانِ أبداً، لكنّ حظّه كان سيئاً. كان من الواضح أنّ مرض زوجته كان قابلاً للشفاء، ومن المؤسف أنّهم لم يتمكنوا من العثور على الدواء المناسب. كان يتصرف دائماً ككادرٍ أينما ذهب، لكنّه لا يشبه كادراً. بنى منزلاً جديداً، لكنّه لم يمتلكه. كان هوانغ لاو وو أفضل من عامله معاملّة طيبة، لكنّه لم يساعده أبداً. كان نبيلاً، لكنّه لم يتمتع بحقّ التعبير. من الظلم القول إنّهُ سرق أشياء، لكنّه خرج من عند الجزار بقطعة لحم لم يدفع ثمنها، تناول كرمّة صفراء بإرادته، لكنّ الانتحار لا يتناسب مع الحقائق... بعد كلّ هذا، هل كان هناك شيء مفهومٌ بالنسبة لي؟ أم لم أفهم شيئاً؟

كنت أعلم أنّ تجونغ تشي رعى زوجة مريضة لفترة طويلة، وأنّ المعيشة صعبة للغاية، ولم يكن لديه ما يكفي من النقود لشراء اللحوم. وعشيّة مهرجان التاسع المزدوج، لم يستطع منع نفسه من سرقة قطعة لحم من الجزار، وقبض عليه متلبساً، وعُلّق نقدّه الذاتي على الحائط. ربما شعر أنّه عاجزٌ عن تحمّل العار، فشرّب في اليوم التالي منقوع الكرمّة الصفراء. كان الأمر بهذه البساطة، لكنّ أهل ماتشياو لا يستطيعون شرح الأشياء البسيطة بوضوح ودقة، عليهم أن ينزلقوا إلى طريقة أكثر غموضاً من

ال «جاردينيا أو ياسمين»، وهذا يثبت فقط أنَّ أهل ماتشياو غيرُ قادرين على تقبُّل هذه الحقيقة، أو غيرُ راغبين في تقبُّل حقيقة هذه البساطة. ربما يشعرون أنَّه عدا كلَّ رابطٍ واقعي، ثمة المزيد من الحقائق غير الواضحة؛ الكثير من كلماتهم مشوشةٌ، ومدمَّرةٌ، وممزقةٌ بسبب تلك الحقائق غير المرئية، والتي لا يمكن أن تكون إلا متناقضة كهم حصانٍ على رأسِ ثور.

كتبَ تجونغ تشي طيلة حياته عدداً لا يُحصى من «مُعتمد»، وآخر «مُعتمد» كتبها بحكم العادة على نقده الذاتي لسرقته قطعة اللحم، والذي علَّق على الجدار ليراه الجميع. وفي النقد الذاتي، شتم نفسه بأنَّه لص، ورجلٌ بلا شرف، وعنصرٌ رجعيٌّ ينجُل من الوقوف أمام الحزب والحكومة والأسلاف. كان بعض ما كتبه مبالغاً فيه، ما يدفع المرء لتخيُّل مدى خوفه في ذلك الوقت. في الواقع، كان يعرف طوال حياته الكثير من أسرار الآخرين، ويعرف عن العديد من الأفعال الشريرة والخدع اللانهائية، فيما ظلَّ هو ملتزماً بالقانون طوال حياته، ولم يجرؤ على أخذ قشة أرزٍ ليست له، فهل جلبَ له التزامه أيَّ منفعة؟ لا، لقد استبعدته مجموعة أشخاصٍ رفضهم تماماً بنفاذ بصيرته، وشاهدتهم بعينين واسعتين يصبحون أثرياء، فيما كان يمرُّ بأوقاتٍ تشتدُّ صعوبةً يوماً بعد الآخر، حتى جرَّة شحم الخنزير لا تُشَمُّ منها رائحةٌ مُقبضة. هل كان بحاجة إلى التغيير؟ كما أنخيل، دخلَ محلَّ الجزار، وقلبَ جيوبه الفارغة، وهو يتنفسُ أجواء العيد الطاغية، ليقرَّر في النهاية أن يبدأ في تغيير نفسه بقطعة لحم. لسوء الحظ، لم يحصل على اللحم، بل تعرَّض لإدانةٍ وتوبيخٍ علنيين لا نهايةَ لهما.

ماذا كان عليه أن يفعل حينها؟

هل عليه أن يكمل واجبه، أم يتصرّف باستهتار؟

لو كان أمامي، وسألني مثل هذا السؤال، ربما كنتُ سأتردّد قليلاً،
وسأجدُ صعوبةً بالغةً في الإجابة. في وقتٍ كهذا، ربما كنتُ سأشعرُ خفيةً
بغشاواتٍ من «جاردينيا أو ياسمين» تلمُّ بي بطريقةٍ تستحيلُ مقاومتها.

كوي يوان

في العام ١٩٦٨، شاركتُ في استطلاع. أرادت جمعية جماهيرية تسمى «إلى الأبد... إلى الشرق» في جهاز لجنة الحزب الشيوعي الصيني بمقاطعة هونان فصل كادرين من لجنة الحزب بالمقاطعة، لذا كان لا بد من إجراء تحقيق سياسي شامل ومسبق لأقارب هذين الكادرين. ولتجنب التعرض للهجوم من الفصائل المعارضة، وافقوا على قبول الرقابة الاجتماعية، ودعوا الحرس الأحمر إلى إرسال شخص للمساعدة في الاستطلاع. وهكذا التحقت بفريق تفتيش الكوادر، وأنا لا أزال شاباً لا خبرة لي، وحصلت على وظيفة جيدة للتجول عبر البلاد على نفقة القطاع العام.

ذهبنا أولاً إلى عدّة سجون في بكين، جيتجو وشنيانغ، للتعرف على ابن عم أحد الكوادر، الذي عمل مذبحاً في محطة إذاعية مهمة، ولكن بعد أن أخطأ في نطق اسم عضو الحزب الشيوعي المهم «آن تزى وين»، ونطق اسم عضو حزب الكوميتانغ «سونغ تزى وين» خلال البث المباشر في الخمسينيات، أُدين وحُكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، وقضى عقوبته في السجون المذكورة أعلاه. فوجئت حين

اكتشفتُ أنَّ جميعَ المحققين رأوا أنَّه يجبُ أن يهدَرَ خمسةَ عشرَ عاماً من حياته مقابلَ كلمةٍ واحدة، بغضِّ النظر عن عددِ عرائضِ الاستئناف التي كتبها، وحين تحدثنا معه، كان قد فكَّرَ في الأمرِ ملياً وراجعَ نفسه واعتذرَ للزعيم ماو وللحزب، وشعرَ أنَّ عقوبتهَ مستَحَقَّة، وأطلقَ عليَّ أنا الذي أبلغ من العمر خمسةَ عشرَ عاماً فحسب لقب «الحكومة»، قال: «أيتها الحكومة، لن أستأنفَ مرَّةً أخرى، سأعملُ بجِدٍّ على إصلاح تفكيري».

اجتاحني الرعبُ وأنا أُخرجُ من أسفلِ الأسلاكِ الكهربائيةِ والأسوارِ العاليةِ عائداً إلى النَّزْلِ الذي كنَّا نقيمُ فيه، رعبٌ غامضٌ تجاه كلمة «安 - آن»، و«宋 - سونغ» وغيرها من الكلمات.

خارجَ النَّزْلِ، كان دويُّ إطلاقِ نيران، وحواجزُ وثقوبُ رصاصٍ ودخانٌ في كلِّ مكان، وتعبُرُ في أغلبِ الأحيان قوافلُ مركباتٍ معبأةٍ بالبنادق في الشوارع، يتعالى منها الصراخُ والصيحات، توقظُ الناسَ في النَّزْلِ من نومهم مذعورين. في لياونينغ العام ١٩٦٨، كان «القسمُ الأحمر» يهاجمُ «القسمَ الثوري»، وفصيلُ «فكر ماوتسي تونغ» يطوِّقُ ويقمعُ فصيلَ «الماوية». وتسبَّبتْ معركةٌ شرسةٌ عند محطةِ السكَّة الحديدِ في توقُّفِ القطار، ما دفعني وثلاثةَ مسافرين إلى البقاءِ في النَّزْلِ لمدةِ أسبوعين. ربما يكونُ من الصعبِ جداً على الأجيالِ اللاحقةِ كابتنتي - على سبيلِ المثال - فهمُ كلِّ هذا. في نظرِ الأجيالِ اللاحقة، لا يوجدُ شيءٌ مختلفٌ بين الجانبين المتقاتلين من حيث التفكير، النظرية، المنهج، الذوق، التعبير، الملبس واللغة، عدا الاختلافاتِ اللغويةِ الطفيفة بين كلماتٍ مثل «الفصيل الأحمر» و«الفصيل الثوري». وفي ظروفٍ أخرى،

كانوا سيتاجرون أو يعملون، أو يدرسون للحصول على الدبلومة أو يضاربون على الأسهم، كانوا سينخرطون في الأشياء ذاتها. إذن كيف انبثق حبُّهم للمنازعاتِ الدموية بينهم؟

وهذا يشبه عدمَ تمكُّني من فهمِ الحروبِ الصليبية. لقد قرأتُ الإنجيلَ والقرآنَ، وعدا الاختلافاتِ بين المصطلحاتِ، بين «الرب» و«الله»، فيما يتعلَّق بتعزيزِ القوانينِ واللوائح الأخلاقية، وتحذيرِ الديانتين للناسِ من القتلِ، ونهيِّهما عن السرقةِ والزنا والكذبِ ونحو ذلك، فإنهما متسقتان بصورةٍ مذهشةٍ، وهما تقريباً ترجمتان لكتابٍ واحد، فلماذا تندلعُ حروبٌ جهاديةٌ حرباً تلو الأخرى على نطاقٍ كبيرٍ بين الهلالِ والصليب؟ ما القوةُ السحريةُ التي يستخدمونها لدفعِ هذا العددِ الكبيرِ من الناسِ للقتلِ من الشرقِ إلى الغربِ ومن الغربِ إلى الشرقِ، تاركين وراءهم العظامَ في كلِّ مكانٍ وبكاءَ عشراتِ الآلافِ من الأيتامِ والأرامل؟ في الفراغِ الشاسعِ المظلمِ الكئيبِ، أليس التاريخُ مجردَ حربٍ بين الكلمات؟ هل تُولِّدُ معاني الكلماتِ شراراتٍ؟ هل تتصارعُ خصائصُ المفرداتِ في الوحل؟ هل تُقطعُ رؤوسُ النحوِ وأذرُعُه؟ هل هو الدمُ المتدفقُ من تركيبِ الجملةِ الذي يغذي نباتَ شوكِ الإبلِ في السهول، ويتجمدُ في ملحِ البصرِ إلى ومضاتٍ تحت غروبِ الشمس؟

منذ ظهورِ اللغةِ في العالمِ، اندلعت مراراً وتكراراً صراعاتٌ بين الناسِ بدايةً من الجدالاتِ إلى الحروبِ، وتسبَّبت في جرائمَ باسمِها. لكنني لا أعتقدُ أنَّ هذا يرجعُ إلى سحرِ اللغة، لا، على العكس، فما أن تدخلَ كلماتٌ معينةٌ حيزَ القداسةِ الذي لا يمكنُ المساسُ به، حتى تفقدَ ارتباطَها بالحقائقِ فوراً، وتنبثقُ أعظمُ المرادفاتِ حين لا يمكنُ التوفيقُ

بين الأطراف المتصارعة، لتتحوّل إلى غطاءٍ لا معنى له للسلطة، المجد، الملكية والأرض السيادية لقادة الحروب.

إذا كانت اللغة تُستخدم كأداةٍ لتعزيزِ تطورِ الثقافةِ وتراكمِها، فيمكن أن تحطّ من وزنها وتتغيرَ في ظلّ الهالة المقدسة، وتصبحُ مؤذيةً للناس.

يوشكُ القرنُ العشرون على الانقضاء، وقد حقّق إنجازاتٍ عظيمةً في العلوم والاقتصاد، لكنّه خلّف أيضاً أزمةً بيئيةً غيرَ مسبوقة، وخلّف الشكوكَ والتحرّرَ الجنسي والفقر، خلّف سجلاتِ حربين عالميتين ومئات الحروب الأخرى، ما جعلَ عددَ القتلى يتجاوزُ العددَ الإجمالي لقتلى الحروب في القرن التاسع عشر. ظهرت في هذا القرن وسائلُ إعلام ولغاتٌ لا حصرَ لها، التلفزيون، والصحف، والإنترنت، وعشراتُ الآلاف من الكتبِ المنشورة كلّ يوم، الفلسفاتُ الجديدةُ والكلماتُ الرائجةُ التي تتجدّد كلّ أسبوع، التي تعزّزُ النموَ السريعَ للغة والانفجارَ اللغوي، وتشكّلُ طبقةً سميكةً وثقيلةً تغطّي سطحَ الكرة الأرضية. مَنْ يضمن ألا تؤدّي بعضُ هذه الكلماتِ إلى اندلاعِ حربٍ جديدة؟

الهوسُ اللغوي من أمراضِ الحضارة، وهو الخطرُ الأكثرُ شيوعاً الذي تواجهه اللغة. الإشارةُ إلى هذه النقطة لا تمنعني من تنفّسِ اللغةِ وامتصاصِها كلّ يوم، وأن أحيّا في محيطها، وأتعرّف على أفكارٍ ومشاعرٍ جديدةٍ عبرَ الكلمات. إنّ تذكّرَ تلك الرحلةِ إلى لياونينغ جعلني أكثرَ وعياً باللغة؛ بمجرد أن تصبحَ اللغةُ جامدة، بمجرد أن تتوقفَ عن كونها أداةً للبحثِ عن الحقيقة، وتصبحَ الحقيقةُ بذاتها، بمجرد أن تنكشفَ قوةُ تبجيلِ الذاتِ وعشقِها على وجوه مستخدمي اللغة، ويظهرُ هوسُ اللغةِ

في هجومها الوحشي على الغرباء، فكلُّ ما يمكنني فعله هو التفكير في قصة.

حدثت القصة في ماتشياو، في الخامس عشر من يوليو، يومَ تقديم القرايين للأسلاف، أُعيدَ اعتبارُ ما وِن جيهه، عمِّ يان وو، وتوقَّفَ الجميعُ عن ذكرِ دورِ والدِه كخائنٍ للصين. ولأنَّ أيّاً منهم لم يحظَ بجنازةٍ لاثقةٍ في الماضي، فقد كان عليهم تعويضُ ذلك الآن. استأجر يان وو -الرجلُ الأكثرُ ثراءً في ماتشياو- فرقةً مسرحيةً أجنبية، وأخرى للموسيقى الصينية التقليدية، ليستمتعَ الناسُ ويقضوا وقتاً مرحاً، كما جهزَ ثمانِي مَادب، وأرسلَ بطاقاتِ دعوةٍ إلى الأقاربِ والأصدقاءِ داخلَ القريةِ وخارجها.

تلقَى كوي يوان، الذي عادَ إلى القريةِ لتقديمِ القرايين لأسلافه، بطاقةَ دعوةٍ أيضاً، وما أن فتحها، حتى تغيَّرتْ ملامحُ وجهه. كان اسمه «خو كوي يوان - تُكتبُ كوي في الاسم «魁 - kuí» وتعني رئيس»، في حين كُتِبَ على البطاقة «خو كوي يوان - 亏 - kuī - وتعني يخسر، يعجز».

كانت كلمة «亏» مشؤومةً، وعدوانية، رغم أنَّه من المحتمل جداً أن يرجعَ هذا فقط إلى إهمالِ الكاتبِ وكسَلِه وقتها.

- سأفسيقُ بأمِّه.

ثم مرَّقَ الدعوةَ بغضب.

عدمُ تسامحه مع كلمةِ يخسر «亏»، يبدو كعدمِ تسامحِ القاضي مع كلمة «سونغ تزي ون» قبل خمسةَ عشرَ عاماً، وكعدمِ تسامحِ مقاتلي

«الفصيل الأحمر» مع كلمة «الفصيل الثوري»، وكعدم تسامح جنود الحروب الصليبية مع كلمة «الله». هذا هو المكان الذي تبدأ فيه حروب اللغة المقدسة.

لم يذهب إلى المأدبة، بل جلس يقضمُ بوحشية بطاطا حلوة نيئة، بينما يشاهدُ الناسُ يعودون من منزل يان وو، ويمسحون أفواههم المزيّنة. وأخبرَ عائلته أنه يريدُ تسوية الحسابات مع عائلة يان وو. كان في الواقع هزيراً كقرد، وأضعف من أن يقيّد دجاجة، وبعد أن خرج، ذهبَ أولاً إلى منزلِ هوانغ الغالي لفترةٍ من الوقت، ثم ذهبَ إلى حديقة الخضروات في منزل فوتشا ليقطفَ خيارة، وأخيراً ذهبَ إلى تيان آن مين، وتفرّجَ على شبابٍ يلعبون تنس الطاولة، وتفرّجَ على مجموعةٍ أخرى تلعبُ المايجانغ، ولم يجرؤَ على الإطلاق على البحثِ عن يان وو، حتى أنه خشي أن يعرفَ بمجيئه، وبرغبته في الشجار. كان زخمُ منزل تيان آن مين كافياً لاحتباسِ بوله من الخوف، فهل كان يجرؤُ على الشجارِ معه؟

لحسن الحظ، اكتشفَ أثناءَ تجواله أنَّ أسرةَ يان وو، تركتَ مثقاباً كهربائياً على أرضية متجرٍ لم يُكملوا ديكوراتِهِ، ربما - حين انقطعت الكهرباء - ذهب العمالُ لشربِ الشاي ولم يأخذوه، كما أنَّ يان تراو الذي كان يساعدهم للتو، اختفى أيضاً، ربما انشغلَ بشيءٍ آخر. ألقى كوي يوان نظرةً حوله، ودسَّ المثقابَ بين ذراعيه بسرعةٍ وخفّة، وأخذ لوحيْن للمقبس، وانسلَّ من البوابة، وركضَ إلى حقلِ البطاطا الحلوة لأخيه الثالث، وحفرَ حفرةً ودفنَ الأشياءَ مؤقتاً. كان يعلمُ أنَّ أشياءَ مثل هذه يمكنُ بيعها لاحقاً في أيِّ مكان.

عاد إلى المنزل على مهلٍ، مسح عرقه وهوى على نفسه، وركل الكلب الذي يتبعه، فعوى الحيوان مذعوراً، كأن كوي يوان له الحق في ركله هكذا.

قال لوالدته بحماس: «أبقوا عيونكم مفتوحة، من بوسعه أن يخدع كوي يوان؟».

- ماذا قال يان وو هذا؟

- ماذا سيقول؟ هو مسؤول عن جميع العواقب.

لم يذكر ما العواقب، وكيف سيكون مسؤولاً. رأت والدته أنه مشغول بخلع حذائه وتلميعة، ونست أن تسأل عن الأمر، وذهبت لتعدّ له الطعام. وقفت امرأتان متزوجتان تحملان أطفالاً عند الباب لفترة من الوقت، يراودهما شكٌ إلى حدٍّ ما حول العواقب، دفعنا كوي يوان إلى التباهي مجدداً: «حتى وإن كان يان وو يملك المال؟ حين أعود للبحث عنه، سيعرف ذلك».

بعد أن انتهى من تناول الطعام، لم يتمكن كوي يوان من البقاء في المنزل، وخرج لمشاهدة التلفزيون، وحين وصل إلى تقاطع الطريق، اعترضه ثلاثة رجال، وعبر نور القمر، رأى أحد خدام يان وو، ولقبه وانغ، فتظاهر كوي يوان بعدم رؤيته، وأراد تجاوزهم.

- «إلى أين أنت ذاهب؟»، أخذ وانغ بتلابيبه وقال: «انتظرتك طويلاً، أخبرني، هل ستحدث أم نبرحك ضرباً؟».

- ما الذي تحدث عنه؟

- وتظاهر بالغباء أيضاً؟

- أَمْزُحُ أَيْهَا الْأَخُ الْكَبِيرُ وَانْغ.

ابْتَسَمَ كُوي يُوَانُ وَأَرَادَ أَنْ يَرِبْتَ عَلَى كَتِفِ الطَّرْفِ الْآخَرِ، وَقَبْلَ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ، كَانَ الطَّرْفُ الْآخَرُ قَدْ دَفَعَ قَدَمَهُ وَأَسْقَطَهُ أَرْضاً عَلَى رَكْبَتَيْهِ، وَضَعَ ذِرَاعِيهِ حَوْلَ رَأْسِهِ وَصَرَخَ: «لِمَاذَا تُضْرِبُونَنِي؟».

تَلَقَّى لَكَمَةً مِنْ ظِلِّ أَسْوَدَ: «مَنْ ضَرَبَكَ؟».

- أَخْبِرْكُمْ، لَدَيَّ إِخْوَةٌ أَيْضاً...

وَتَلَقَّى ضَرْبَةً أُخْرَى فِي ظَهْرِهِ.

- تَكَلِّمْ، مَنْ ضَرَبَكَ؟

- لَمْ يَضْرِبْنِي أَحَدٌ، لَا أَحَدٌ...

- لَا أَحَدٌ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَذَا أَفْضَلُ، أَخْبِرْنِي إِذَنْ، أَيْنَ خَبَّاتِ الْمُتَقَابِ؟ وَلَا تُثْرُ غَضَبِنَا.

- لَمْ أَرْغَبُ أَبَدًا فِي إِثَارَةِ غَضَبِ أَيِّ شَخْصٍ، لَكِنِ الدَّعْوَةُ الَّتِي أَرْسَلْتُمُوهَا الْيَوْمَ تَفْتَقِرُ إِلَى الْاحْتِرَامِ، وَلَمْ أَخْبِرِ الْأَخَ يَانُ وَوُ بِذَلِكَ...

- مَا الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟

- أُوهِ أُوهِ، أَقْصِدُ أَنَّنِي لَمْ أَتَحَدَّثْ مَعَ «الرَّئِيسِ مَا» إِلَى الْآنَ...

وَقَبْلَ أَنْ يَنْهِيَ كُوي يُوَانُ كَلَامَهُ، شَعَرَ أَنَّ يَدًا قَبِضَتْ عَلَى شَعْرِهِ، وَرَأْسُهُ تُسَحَبُ إِلَى الْأَعْلَى لَا إِرَادِيًّا، وَتَسْتَدِيرُ نَاحِيَةَ لَحْيَةٍ وَانْغ الْكَثِيفَةِ، كَانَتِ اللَّحْيَةُ أَمَامَهُ مَائِلَةً بِشَكْلِ حَادٍ.

- مَا زِلْتُ تَرِيدُ الْعِبَثَ مَعْنَا؟

- سأتكلم، سأتكلم، حسنٌ حسنٌ سأتكلم...

- تحرك!

ثم شعرَ بألمٍ حادٍّ آخرَ على مؤخرته.

اصطحبَ الرجالَ الثلاثةَ إلى حقلِ البطاطا الحلوة، وأزال قليلاً من التربة، وأخرجَ المثقابَ الكهربائي وألواحَ المقابس، ونفضَ عنها الترابَ دون ضرورة، وانتقدَ جودتها: «هذه منتجاتٌ مزيفةٌ وردية، أعرفُها من أوّل نظرة».

- «أعطينا قليلاً من نقودِ الصنادلِ القش». أخذتِ الظلال السوداء المثقابَ الكهربائي، وانتزعت ساعة يد كوي يوان قائلين: «سنترك الآن، إن لم تفهم ما قلناه، سنقطعُ أذنك قبل أن نتكلم».

- حسنٌ، حسنٌ.

كان كوي يوان حائراً بشأن كيفية اكتشافهم للأمر، لكنه لم يجرؤ على السؤال، لم يجرؤ على إصدار صوتٍ إلى أن ابتعدت الظلال السوداء، واختفى وقعُ الخطوات، فنهض وسبَّ بوجهه تعيس: «أنذال أنذال، إذا لم أقتلكم جميعاً سأكونُ بلا كرامة».

لمسَ معصمَه فوجده خالياً، بحث في الحفرة، فكانت خاليةً كذلك. فقرَّر الذهابَ إلى عمدة القرية.

لم يرغب عمدة القرية مطلقاً في سماعه يتحدث عن يوان الرئيس ڤي أو يوان عاثر الحظ ڤي، أو عن ساعة اليد، وحين سمعه يبكي، حدّجه بنظرة من زاوية عينه. كان العمدة هاوياً للأوبرا، وذهب في المساء لحضور

عرض أوبرا في تيان آن مين، لكن للأسف لم يكن ثمة عرض أوبرا جيد ذلك اليوم. صعدت خشبة المسرح فرقة من منطقة قريبة من قوس شوانغ لونغ، تغني ألحاناً وتؤدي رقصات طبول غير متناغمة، وكان غناؤها، حركاتها، مكياجها وقرع طبولها شديد العشوائية. بدا أعضاء الفرقة كعدد من الأشخاص اجتمعوا معاً لدرس الحبوب وتجفيفها على خشبة المسرح. كانوا يغنون كلمات غير متسقة، ولم تكن كلمات حقاً، بل كلاماً فارغاً أو بديئاً بالغمز والاتفاق بينهم، لانتزاع ضحكة من المتفرجين، فألقى الكثير من الجمهور صنادل القش على المسرح.

لم يعثر عمدة القرية على زوج بالٍ من صنادل القش، فخرج من المسرح وذهب إلى منزله للنوم، وفجأة دوى صوت صرخة خلفه، وقبل أن يلتفت، قبضت يداها على عنقه، ودفعته إلى الأمام، اصطدمت جبهته بشيء ما، ولمعت نجوم في رأسه. أراد أن يرى من ورائه، وما الذي يحدث، لكنه شعر بقشعريرة في أذنه اليمنى، حين لمسها بيده كانت غير موجودة. «أذني...» صرخ برعب. سمع من ورائه صوت تمزق ملابس، وسمع ظلاً أسود خلفه يمضغ شيئاً ما بسرعة، ثم يبصقه، ثم قفز بعنف وخطأً بقدمه على الأرض، ثم التقط ذاك الشيء، وقذفه بعيداً حيث يتزاحم الناس، استغرق كل هذا لحظة.

- يا وانغ، التقط أذنك اللينة.

كانت تلك صرخة كوي يوان الحادة وقد فاحت برائحة الخمر.
- وانغ النذل، هذا ما يحدث حين لا تسمع كلام النبلاء، سأطعم أذنك للكلاب.

كان من الواضح أن كوي يوان قطع أذن الشخص الخطأ.

- «كوي النذل، ستلقى حتفك، لقد استهدفت الشخص الخطأ». صاحب شخص قربه.

تراحم الناس حولهما، اندفع أشخاص وأمسكوا كوي يوان الذي بدا كالمجنون من خصره. وبعد فترة من الشجار، أسقط كوي يوان الرجال، وتخطى كل ما اعترضه، وركض إلى ليل المنحدرات المظلم.

كان جسد العمدة لا يزال يرتجف من شدة الصدمة، ويغطي الجرح النازف في الجهة اليمنى من رأسه، ويبكي بحرقة: «أذني... آه يا أذني...» جثا على أربع مثل كلب باحثاً عنها، تذكر أحدهم فجأة أن كوي يوان قذف شيئاً صوب المطعم، ربما رمى الأذن؟ لذا اتجهت أنظار الناس إلى تلك الجهة، بينما حرك الواقفون هناك أرجلهم على الفور ليفسحوا المجال للعمدة القرية النازف، ولبضعة مصابيح يدوية تضيء الأرضية جيئةً وذهاباً. انحنوا وسرعان ما عثروا على علبة سجائر، وقطع من قشور البطيخ، أكوام من روث الخنازير، لكنهم لم يجدوا قطعة لحم. في النهاية، وجد طفل حاد البصر قطعة اللحم هذه في صندل قش بال، لكنّها للأسف كانت مشوهة، وملطخة بحبيبات الرمل والأوساخ السوداء، باردة تماماً، كأنّها لم تكن جزءاً من إنسان. قال الناس إنها نعمة في سوء الحظ أن الكلب لم يلتقطها.

استرخت أقدام الناس، وصار بوسعهم أن يطأوا الأرض بأريحية، دون قلق من أن يدوسوا على شيء ثمين، وهكذا استعادت الأرض تحت أقدامهم صلابتها ورسوخها مجدداً.

كان الوقت قرب الشروق حين عاد عمدة القرية من المركز الصحي

بضمادةٍ على أُذنه، وقيل إنَّ أُذنه خِيطَت دون دَقَّة، فما فعله هذا النذل كوي يوان كان استثنائياً، إذ مضَّغَهَا حتَّى تشَوَّهت. وقال الطبيبُ إنَّه غيرُ متأكِّدٍ من إمكانيةِ إنقاذِ الأُذن، ولنَجربَ ربطَهَا أولاً.

تجمعَ الكثيرُ من الناسِ حوْلَ منزله، ومدُّوا رؤوسَهُم ليرَوْا ما يحدثُ في الداخل.

وبعدَ مرورِ ثلاثةِ أشهر، حُسِمَت قضيةُ كوي يوان أخيراً في محكمةٍ محلية. كان قد فَرَّ إلى يوي يانغ، وألقى فريقُ الدفاعِ المشتركِ للأمنِ العامِ الذي أرسله يان وو القبضَ عليه، ووجَّهتْ إليه تهمَةُ الاعتداءِ والسرقةِ وحُكِمَ عليه بالسجنِ ثمانِي سنوات. لم يوكِّل محامياً وبدأ غيرَ مبالٍ. أثناءَ وقوفِهِ في المحكمة، كان يبتسمُ ابتساماتٍ عريضةٍ لشبابٍ يقفون خلفَه من أصدقائه، ويُلقِي بشعرِهِ إلى الخلفِ من وقتٍ لآخر، ولولا تدخلِ الحارس، لناولَه هؤلاء الشبابُ سِجائرَ مشتعلة.

- «لا أستطيعُ التدخينَ كذلك!». كان متفاجئاً.

اندهش بشدَّة حين سألَه قاضي المحكمة إن كان لديه شيءٌ أخيرٌ يضيفه:

- هل أجمت؟ يا لها من مزحة، ما جريمتي؟ رأيتُ الشخصَ الخطأَ ليس إلَّا، خطأي الوحيدُ أنِّي أسرفتُ في الشرابِ قليلاً ذلك اليوم. أنتم تعرفون أنِّي عادةً لا أشربُ الخمر، إلَّا إذا كان «ريمي مارتن كونيكا»، «XO البراندي»^(١)، «نيبذ سور الصين العظيم الأبيض الجاف»، و«نيبذ كونفوشيوس»، ولا أشربُ إلَّا

(١) يُطلق على البراندي XO، أي «eXtra Old»، أي «المعتق»، على غرار نيبذ الأرز.

كأساً صغيرة. مشكلتي أنَّ أصدقائي كثيرون، ما أن أقابل أحداً حتى يصرَّ على أن أشرب، ما الذي أستطيعُ فعله؟ سأخذلهم إن لم أشرب، لا بُدَّ من مرافقةِ الأصحابِ مهما كلفَ الأمر، كما أنَّ ذلك اليومَ كان منتصفَ شهر يوليو، وبابُ الأرواحِ مفتوح، إن لم أشرب سأخذلُ الأسلاف...

بعد أن قاطعه القاضي مجدداً، أوماً برأسه مرّةً تلوَ أخرى قائلاً: «حسنٌ حسنٌ حسنٌ، سأدخلُ في صُلبِ الموضوع، وأتحدّثُ عن الأمرِ المهم، بالطبع ارتكبتُ فعلاً غيرَ متحضّرٍ إلى حدٍّ ما، لكنّه ليس جريمة، بالتأكيد ليس جريمة، خانتني عيني على أكثر تقدير، انزلت يدي، مثل كسرِ صحن، ألا تظنون ذلك؟ أعتقدُ أنّه بعد محاكمةِ اليوم، أصبحت هذه المسألة واضحةً للغاية، الحقائقُ تتحدّثُ بصوتٍ أعلى من الكلمات، لقد شرحتُ هذه المسألةَ للسلطاتِ العليا. سيكونُ المدير «لي» من مكتب مفوض المحافظة هنا بعد قليل، هو مديرُ مكتبِ الحبوب، لقد تناولت وجبةً معه منذ وقتٍ ليس بعيداً...» بعد أن طلبَ منه القاضي مرّةً أخرى بصبرٍ يكادُ ينفد، حذفَ أوصافه المتنوعةَ للطقس، للبيئة، ولقائمةِ طعام اليوم الذي تناولَ فيه الوجبة، اضطرَّ مجدداً إلى الانصياع. «حسنٌ إذن، لن أتحدّثَ عن المدير لي، لدى الرؤساءِ آراءٌ حولَ هذه المسألة. يعتقدُ «هان» رئيسُ التحرير في المقاطعة أيضاً أنّني لم أفعل شيئاً خاطئاً، تعرفون جميعاً رئيسَ التحرير؟ ماذا؟ حتى «هان» رئيسُ التحرير لا تعرفونه؟ كان صديقٌ والدي المفضل! كان يعملُ في المركز الثقافي لمحافظةِتنا! نصيحتي لكم هي إجراءُ مكالمةٍ هاتفية، واسألوهُ عن رأيِ حكومةِ المقاطعة في هذا الأمر...».

استمرت ثرثرته عشرين دقيقةً كاملة.

حدّق القاضي إلى أسنانه البنيّة، ورأى أنّ حُجَجَه غيرُ منطقية، ورفض استئنافه، وأمرَ الشرطةَ بأخذه. كانت الصورةُ التي تركّها للناسِ مُديرًا ظهره، صورةَ سروالٍ بدليّةٍ طويل، يتدلّى إلى كعبيه ويمسحُ الأرضَ ذهاباً وإياباً، في فوضى موحلةٍ مُبلّلة.

فَتْحُ الْعَيُونِ

بعد قضائه عاماً في السجن، مات كوي يوان بسبب المرض، وحين وصل الخبرُ إلى ماتشياو اختنقت والدته بحزنها وماتت. ومع وصول الأمور إلى هذا الحد، تعمّقت العداوة بين عائلة كوي يوان وعائلة يان وو. باختصار، كسر ثلاثة إخوة كبار لـ كوي يوان زجاجة في تيان آن مين، وجرحوا يان تزاو، ثم أرسل يان وو مجموعة من الناس لاقتحام جنازة كوي يوان، وإلقاء براز كلاب على لوح الروح والمذبح، وعلى نعشَيْن أيضاً. وحين رأى القرويون أنَّ العائلتين تهددان بعضهما بالسكاكين والنار، استدعوا رأس ثور للوساطة بينهما.

وكنتيجة للوساطة، قدّم يان وو بعض التنازلات، ووافق على منح عائلة كوي يوان ثمانمائة يوان كـ «أجرة تعزية»، وعلى عائلة كوي يوان أن تنسى الماضي، وتمحو الضغينة والعداوة. ووفقاً للعُرف القديم، ترأس رأس الثور طقوس فَتْحِ العيون: ذبح ديكاً أسود، ثم ملأ نحو عشرة أوعية بدمائه، وشربها الرجال من كلا الطرفين، أخرج ممثل كل طرف سهماً مُرتجلاً من الخيزران، وأحدث كل منهما قطعاً في السهم، ثم وضع السهمين معاً وكسراه بكل قوتيهما، لإظهار أنَّهم لن يتقاتلوا

في المستقبل، واتخذَ كُلٌّ من الطرفين طرفَ السهمِ المكسورِ عهداً على ذلك. في النهاية، طلبَ الطرفان من أرملتين عجوزَين دون أبناءٍ أو أحفادٍ التقدّمَ إلى الإمام. كانتا تمثلان طرفي الخصومةِ وتحملان وعاءً من الماءِ الصافي، بداخله عملةٌ نحاسية، أخرجت إحداهما العملةَ ومسحتها ببطءٍ على عينِ الثانية. قال طرفُ يان وو مخاطباً خصمَه: «أخطأتُ عائلةً «ما يان وو» مع عائلتك، فلا تغطّوا أعينكم، يجب أن تفتحوا أعينكم، من الآن فصاعداً سيكونُ وفاقٌ بيننا...»، وردَّ طرفُ كوي يوان قائلاً: «أخطأتُ عائلةً خو كوي يوان، إخوةٌ في القدرِ نفسِها في عائلتك، فلا تُغطّوا أعينكم، يجب أن تفتحوا أعينكم، من الآن فصاعداً سيكونُ وفاقٌ بيننا...».

بدأت المراتان تغمغان بأغنية:

كُلُّ شخصٍ لديه فم،

طرقَ الحقيقةِ كثيرة.

لكلِّ شخصٍ أذنان،

طرقَ الحقيقةِ تدومُ عبرَ السنين.

افتحْ عينيك اليوم، انظرْ بوضوحٍ غداً،

أيها الإخوةُ الأعزاءُ ابسموا.

اليوم نلتقي وغداً نفترق،

تفصلُنَا الجبال، تفصلُنَا الأنهار، لكننا جميعاً تحتَ السماءِ ذاتِها.

وكلما كانت المرأة أشدَّ بؤساً وفقراً، زادت أهليتها لتكون الشخصَ الذي تُفْتَحُ عيناه في مناسبة كهذه، لا أحد يستطيع أن يشرح سبب ذلك. بعد أن فُتِحَت العيون، استعاد الطرفان علاقة الأخوة والودِّ بالآخر؛ لا أحد، تحت أي ظرفٍ من الظروف، يستطيع إثارة العدواة تلك مجدداً. بعبارة أخرى، وجود أو عدم وجود كلِّ منطقيِّ وأسبابٍ للعدواة غُسِلَ تماماً بوعاءٍ ماءٍ يجري من الأفاريز.

مع دخول العصر الجديد، اتخذت كلمة «فَتَحَ العيون» بالطبع المزيدَ والمزيدَ من المعاني الجديدة. سيناقشُ رأسُ الثور الوضعَ الوطنيَّ الحالي، والألعابَ الآسيويةَ التي ستقامُ في الصين، أو تنظيمَ الأسرةِ على سبيل المثال، كإرشادٍ لفتحِ العيون. يجبُ على الطرفين أيضاً إعطاءَ مظلوفٍ أحمرٍ لرأسِ الثور، بدلاً من إعطاءِ خَطَمٍ خنزيرٍ كمكافأة - كما في السابق - تعبيراً عن شكره. كما يتعيَّنُ على الطرفين أيضاً دفعُ «تكاليفِ القلق» لأولئك الذين شاهدوا الصراعَ عن كَثَب، التكاليفُ الباهظةُ أي توفيرُ وجبة، والتكاليفُ الخفيفةُ أي علبَةُ سجائر.

كان بعضُ الشباب الذين صادقهم كوي يوان يتجولون مُسترقين النظرَ منذَ عدَّةِ أيامٍ في انتظارِ حدوثِ ذلك. كان الأمرُ كما لو أنَّهم يريدون فعلَ شيءٍ ما، لكنَّهم لا يستطيعون الإفصاحَ عنه، لذلك لم يفعلوا شيئاً في النهاية. كانوا مثل عثَّاتٍ تنجذبُ إلى النور، يتجهون دائماً إلى حيث الصخب، وجوهُهم قلقةٌ على كلِّ شيء، معربين عن رغبتهم في تحقيقِ العدالةِ في العالم، لكن أينما حلُّوا، يشربون شاياً لا يُعرَفُ مصدرُهُ، ويدخنون سجائرَ لا يُعرَفُ مصدرُها، ويتجمَّعون بشكلٍ غامضٍ في مجموعاتٍ ثنائيةٍ وثلاثيةٍ، يغمزون إلى بعضهم أو يتسمون، وربما ينهض

أحدهم فجأةً ويصيح: «هيا بنا!»، ويدفعُ شخصاً في الخارج إلى الاعتقاد بأنَّ شيئاً ما على وشكِ الحدوث. وفي الحقيقة، لن يحدث شيء، ستذهبُ المجموعةُ لإلقاءِ نظرةٍ على دكانٍ صغير، ويغيّرون الشجرةَ التي يجلسون تحتها، وينتظرون في مجموعاتٍ ثنائيةٍ أو ثلاثيةٍ مجدداً، يتنازعون أحياناً على سيجارة وهم يضحكون، لا أكثرَ من ذلك.

ركّزوا على ماتشياو أياماً عدّة، وأخيراً حصلوا على المكافأةِ النهائية؛ أرسل يان وو أحدهم لشراء بعض السجائر، واصطحب الأفواه واشترى زجاجاتٍ مشروباتٍ باردةٍ لصرفهم بعيداً.

كانوا يخطّطون في الأصل لزيارة منزل كوي يوان، وحين وصلوا صادفوا شخصاً يُدعى هوانغ الغالي، اعترض طريقهم ووبّخهم بشدّة. كان رجلاً غريباً عنهم، فتبادلوا النظرات وتغامزوا، ورفعوا حواجبهم، إلى أن أطلق أحدهم صيحةً أخرى: «هيا بنا!». انفجر الجميع ضاحكين وغادروا.

إيقاف الجثة

تَبَنَّتْ عائلةُ «خو» كوي يوان، ولأنَّه لم يُؤكَّد على الأسماء، فلم يُحَسَّبْ أَنَّهُ دَخَلَ العشيرةَ رسمياً، لذلك دُفِنَ في ماتشياو. حين عرفت فانغ ينغ الأخ الأكبر الصغيرَ له بخبرِ موته، وكانت متزوجةً وتعيشُ في محافظة بينغ جيانغ البعيدة عند نهر لُوِه، عادت وبكت أمام نعشِ أخيها الصغير. لم تشارك في مراسمِ فَتْحِ العيون، ورفضت أيَّ أموالٍ من عائلةِ يان وو، ليس ذلك فحسب، بل قالت إِنَّهَا لن تسمحَ بدفنِ كوي يوان، وستمكثُ أمام القبر، ولن تسمحَ لأحدٍ أن يحركَ مجرقة. طلبت من عدَّة أشخاصٍ مساعدتها في وضعِ التابوتِ بشكلٍ عمودي، وإسناده من الجانبين بقطعٍ من الصخور.

يُطْلَقُ على ذلك «إيقافُ الجثة - 企尸» و«企» تعني «الوقوفُ على أطرافِ الأصابع» وتُنطَقُ «jǐ». «إيقافُ الجثة» وسيلةٌ للتعبيرِ عن التَّظَلُّمِ، وطريقةٌ لجذب انتباهِ الناسِ العاديين والمسؤولين. تشيرُ الحجارةُ حول التابوتِ إلى أَنَّ الظَّلْمَ الواقعَ ضخمٌ كالجبل، بينما يدلُّ وَضْعُ التابوتِ بشكلٍ عمودي على أَنَّ الموتى لم يموتوا بسلام، وأنَّهم لن يُدفنوا ما لم يُكشَفَ عن الظلم. بغضِّ النظر عَمَّا يقوله الآخرون، كانت فانغ ينغ

موقنةً بأنَّ شقيقَها الأصغر ماتَ ظلماً، وأنَّه أضطهدَ حتى الموتِ من مجموعةٍ رجالٍ تابعين لعائلةٍ يان وو.

وأعلنتُ في القرية أنَّها ستمنحُ عشرةَ آلافِ يوانٍ، مكافأةً لمن سيساعدها في إعادةِ اعتبارِ كوي يوان ورفعِ الظُّلم عنه. وإذا كانوا لا يريدون المالَ وأرادوها بدلاً من ذلك، فلا بأسَ أيضاً، ستتعاقدُ كزوجةٍ لمدةِ عامٍ، ولن تتقاضى أيَّ مقابلٍ للقيامِ بالأعمالِ المنزليةِ وإنجابِ الأطفالِ خلالَ هذه السنة. كلُّ ما تريده هو أن تستعيدَ جسدَها بعد عامٍ أو عامين.

سمعتُ آنذاك أنَّ الوضعَ متوترٌ عندَ الحدودِ، وقد أمرتِ الكومونةُ جميعَ القرى بحفرِ ملاجئٍ للحمايةِ من الغاراتِ الجوية، والتي تُسمَّى أيضاً كهوفُ الاستعدادِ للحرب. وقيلَ إنَّ الاتحادَ السوفيتي سيقا تلُ من الشمال، وستقاتلُ الولاياتُ المتحدةُ من الجنوب، وستقاتلُ تايوان من الشرق، ولا بُدَّ من حفرِ كهوفِ الاستعدادِ للحرب قبل شهرِ ديسمبر. وقيلَ أيضاً إنَّ قنبلةً كبيرةً جداً أُطلقت من الاتحاد السوفيتي، وستسقطُ علينا خلالَ يومٍ أو يومين، إن لم تتمكن الطائراتُ الصينيةُ من إسقاطها، لذا تحتَمُ على الفريقِ العملُ ليلاً ونهاراً في ثلاثِ نوباتٍ متتالية، لإنجازِ المهمةِ قبل الحربِ العالمية.

عَيَّنَ رجلانَ وامرأةً لكلِّ مناوبة، يتولَّى الرجلانِ العنايةَ بالحفرِ وحملِ ونقلِ التراب، بينما المرأةُ الأضعفُ قليلاً مسؤولةٌ عن التربةِ السطحية، وتلك هي اللحظةُ التي رافقتني فيها فانغ ينغ أنا وفوتشا إلى الكهف، تحملُ مجرفةً بمقبضٍ صغيرٍ مشقوق.

كان الكهفُ صغيراً للغاية، فقط، يتسعُ لمرورِ شخصين. كلما تعمَّقنا في الحفر خفتَ الضوء، وسرعان ما احتجنا إلى ضوءِ مصباحٍ

الكيروسين، ولتوفير وقوده أشعلنا فقط مصباحاً صغيراً، أضواء بضوءٍ أصفر باهت دائرة صغيرة مكان سقوط الفأس، وما عداها ظلّ محاطاً بظلام لا حدود له. عليك أن تحكم على كل شيء من حولك من خلال الصوت والرائحة، سواء أكان شريكك قد عاد من نقل التربة، أو أنزل قبّعة المصنوعة من البامبو مُتظراً، أو أحضر الشاي أو الطعام. بالطبع، في مساحة صغيرة كهذه، يمكنك بسهولة التقاط رائحة أجساد الآخرين إلى جانب رائحة دخان المصباح، رائحة عرق امرأة، وشعرها، ولعابها على سبيل المثال، وإلى جانب ذلك بعض روائح الرجال غير الواضحة. بعد ساعات من الحفر، بدأت بالتأرجح والتمايل، شعرت أكثر من مرة بوجهي يصطدم بالخطأ بوجه آخر يتصبّب عرقاً، أو يلامس خصلات شعرٍ طويلٍ مجمّد. إذا حرّكت ساقِي الحِدْرَة برفقٍ لأعدّل وضعيتي في الحفر، وإذا تشبّت ذهني، قد أصطدم بساقٍ في مكان ما خلفي في الظلام، أو بحضنٍ أستطيع أن أشعر بنعومته وامتلائه، ويمكنني أيضاً أن أشعر بتهرّبهِ السريع.

لحسن الحظ، كان من الصعب أن يرى كل فرد وجه الآخر بوضوح؛ يضيء الضوء الخافت المرتعش الجدار الطيني أمام أنفك، يضيء الموقف اليائس الذي لا مفرّ منه أمامك، يضيء علامات الفأس التي تتقاطع بكثافة أمامك، وتنعكس أشعة ضوءٍ أصفر من مواضع عدّة.

انصرف تفكيري إلى وصف أسلافنا للجحيم.

هنا، لا فرق بين الليل والنهار، ولا فرق بين الصيف والشتاء، ولا حتى ثمة ذكرى للعالم الخارجي البعيد. لولا الاصطدامات العرضية بوجه آخر متعرق، لن يكون ثمة إدراك: ستكتشف أنّك لا تزال

موجوداً، وأنتَ إنسانٌ حقيقيٌّ له اسمٌ ولقبٌ وجنسٌ على سبيلِ المثال. في الأيامِ القليلةِ الأولى لبدءِ الحفر، كان بوسعنا أنا وفانغ ينغ الحديثُ عن بعضِ الأشياء، بعد اصطداماتٍ مُروّعة، توقّفتُ عن الحديثِ واكتفتُ بالهمهمةِ على أكثرِ تقدير. اكتشفتُ لاحقاً أنَّ «آه» التي تصدرُها لها نغماتٌ وحِدَّةٌ مختلفة، يمكنُ أن تعبّرَ عن الشكوكِ والوعودِ والقلقِ أو الرفض. «آه» هي خلاصةٌ لغيتها كلّها، خطابٌ متغيّرٌ باستمرار، بحرُّ معانٍ لا ينضب.

لاحظتُ أيضاً أنَّها بدأت في تجنّبِ الاصطداماتِ بعناية، وأنَّ أصواتَ لهاثها غالباً ما تكونُ في مكانٍ بعيدٍ جداً خلفي. لكنّ كلّما انتهينا من العمل، التقطتُ بهدوءٍ الملابسَ التي نسيْتُها في الكهف، ووضَعْتُها في يدي في اللحظةِ المناسبة. حين تناولِ الطعام، كانت تضيفُ قطعتي بطاطا حلوةٍ أو ثلاث قطعٍ إلى وعائي، بينما يظلُّ وعاءُها فارغاً تقريباً. وأخيراً، وبينما كنتُ راکعاً على الأرضِ وأتعرّقُ بغزارة، وعضلاتي مشدودة، أشعرُ ببرودةٍ تسري على ظهري، ومنشفةٍ تمسحُ ظهري العاري.

- «انسي الأمر...» كان العرقُ قد تسرّبَ إلى فتحةِ أنفي ومنعني من التحدّثِ بلطف.

مسحتُ المنشفةُ وجهي برفق.

- لستُ بحاجةٍ إلى...

أشحتُ بوجهي بعيداً، وحاولتُ منعَ المنشفة، لكن في الظلام لم تكن يدي مطيعة، فلم تمسكِ المنشفة، حاولتُ الإمساكَ بها مرّتين في الظلام، لكنني أمسكتُ يداً في النهاية. أدركتُ بعد وقتٍ طويلٍ أنَّها يدٌ

صغيرةً وناعمة، لا، لا بُدَّ أنْ أصحَّحَ ذلك، تلك الذكرى مجردُ فكرةٍ خطرت لي متأخراً. في الواقع، بمجرد أن يتعلَّق الأمرُ بالوقتِ الذي تكونُ فيه القوةُ الجسديةُ مستنفدةً تماماً، حين يطغى لهاثُك على اللهاثِ اللاحق، يختفي الجنس، لا تعودُ اللمسةُ مباغتهً فحسب، بل تصبحُ أيُّ لمسةٍ فارغةً أيضاً، ولا يكونُ ثمةَ فرقٍ بين إمساكِ يدِ امرأةٍ والقبضِ على حفنةٍ من الطين. حين تعثرتُ، ربما لمستُ كتفها، ربما احتضنتُ خصرها، ربما أشياء أخرى... ربما وربما، لكن كلَّ هذه الأشياءِ لم تتركْ أيَّ ذكرى، ولا يمكنُ تأكيدُها.

أعتقدُ أنَّها في هذه اللحظة، فقدتُ هي أيضاً إحساسها باللمس، وانتهى الخجلُ والتحفُّظُ إلى لهاث، وللمرَّةِ الأولى في حياتي، اختبرتُ هذه اللحظةَ المحايدةَ جنسياً.

بعد ذلك، استعدتُ طاقتي تدريجياً، واستعادتُ جنسها، وتراجعت بعيداً.

تزوَّجت لاحقاً. كان والداها يفضلان الأولادَ على البنات، وسمحا لها بإنهاءِ المدرسةِ الابتدائيةِ فحسب، وكسبِ نقاطِ العملِ في القرية، وما أن عثرا على شخصٍ ما زال بإمكانه تناولُ الأرزِ الأبيض، أرسلها في أبكرِ وقتٍ ممكن. في اليومِ الذي انتقلت فيه لبيت الزوجية، كانت ترتدي سترةً ورديةً جديدةً، وزوجاً من أحذيةِ التنس على الموضوعة إلى حدِّ ما، وحوها تثرثرُ مجموعةٌ من الفتيات. لسببٍ ما، لم تنظر إليَّ أبداً، لا بُدَّ أنَّها سمعت صوتي وعرفت أنَّني هنا، لكن لسببٍ ما لا أعرفه، كانت تتحدَّثُ إلى أيِّ شخص، وتنظرُ بعينيَّ أيِّ شخص، لكنَّها لم تُلقِ نظرةً عليَّ، لا يوجد شيءٌ بيني وبينها، لا توجد أيُّ أسرار. باستثناءِ فترةِ الحفر - لم

يكن بيننا اتصالٌ آخرٌ يُذكر. إن كان ثمة شيءٌ مميز، فهو يدها التي تخيلتها فيما بعد، وأنَّ الفرصة قد أُتيحت لها لمشاهدةٍ أشدَّ لحظاتِ معاناتي. لن تكون أيُّ امرأةٍ أخرى في العالم قريبةً جداً منِّي مثلها، وتراني مثل كلب، أرثدي شورت، أركعُ أحياناً، وأحياناً أستلقي على جَنْبي، يغطي جسدي الوحلُ الممزوجُ بالعرق، أكابدُ في الظلام السحيق تحت الأرضِ وألهثُ، وجهي مغمورٌ بالغبار، وحولَ فتحتي أنفي ينتشرُ السخام، ولا يمكن تمييز إلا عيني فقط. لقد رأت النظرة التي تشبه سمكةً ميتة، وسمعت لهاثي وأنيبي كشخصٍ موشكٍ على الموت، وشممت من جسدي الروائح النتنة التي لا تُطاق، هذا كلُّ شيء.

بالطبع، سمعتُ بكائي المكتوم، فبسببِ الإساءاتِ الغاضبة من بن يي، كان يجبُ أن نحفرَ الكهفَ قبل سقوطِ قنابلِ الإمبرياليين والرجعيين والمعادين للثورة. حطمتُ خلالَ هذه الفترة على الأقل خمسَ أو ستَ فؤوس. ذاتَ مرَّةٍ لم أنتبه، فانزلقت الفأسُ من قبضتي وهوت على قدمي، وبكيتُ من شدَّةِ الألم.

بكت هي أيضاً، وحين هرعْتُ لمساعدتي في تضميدِ الجرح، سقطتُ قطرةً ماءً باردٍ على كاحلي، أعتقدُ أنَّها لم تكن قطرةً عرق، بل دمعة.

كنتُ أحفر في أصلبِ قطعةٍ من تربةِ الأسنانِ القرمزية، لذا لم يكن خطأها أنَّها لم تستطع تقديمَ المساعدة، ولا خطأها أنَّها لم تستطع تجنبَ رؤيةِ مظهري المخزي والمثير للشفقة، وإن كان بوسعنا أن نعتبرَ ذلك سراً، فلم يكن خطأها أنها لم تُعذلي هذا السر، بل حملته معها بعيداً جداً. نظراً لأنَّ ذروةَ ما تصلُّ إليه الحياةُ في عمرِ الإنسانِ محدودٌ للغاية، فقد كان هذا السرُّ مهماً وثنميناً وفريداً في ذاكرتها. ربما أدركت فانغ ينغ

هذه النقطة، ممّا دفعَ داخلها شعوراً بالرعبِ كأنّها لم تسدّد الدّين، ولم تجرؤ على إلقاء نظرةٍ عليّ حين غادرتُ للزواج.

- «أخشى أن تُمطر، من الأفضل أن تأخذي مظلتكِ معك». قال لها أحدهم.

أومات برأسها وتمتّت مؤكدة: «آه».

سمعتُ «آه» التي قالتها تنشرُ جناحيها، وتحلّقُ عبرَ جموعِ الناس، وعبرَ أطفالٍ يتناولون الفاكهةَ المحلاة، مباشرةً إلى أذني. بالطبع لم يكن ردّاً متعلقاً بالمظلة، بل تعبيرٌ عن الوداعِ والأمنياتِ الطيبة.

لم أنتظر رحيلها، ولم أتابع بنظراتي أشقاءها الثلاثة يحملون جهازَ العروسِ على أكتافهم، والقَدَرُ الجديدةَ على ظهورهم، وسطَ صخبِ الأطفال الذين يتبعونهم، حيث تخطو الخطوة الأولى تجاه رحلتها الطويلة بعيداً عن مسقطِ رأسها. ذهبتُ إلى منحدرِ التلّ الخلفي، وجلستُ لأستمعَ إلى الريحِ بين الأوراق، وأراقبَ عشبَ الخريفِ الذي يغطيَ الجبلَ وينتظرنِي؛ فجأةً ارتفعَ صوتُ السُّونا الذي يعزفُ برفقةِ العروسِ إلى منزلها الجديد، حتى أنّ أعشابَ الخريفِ حولي بدأت ترتجفُ وتتأرجحُ إلى أن أغرقَتْها أخيراً دموعُ عيني. بالطبع كان لديّ أسبابٌ للبكاء، بكيْتُ لأنّ عائلتي نسيّنتني (لم أتلّق خطاباً منهم في عيد ميلادي) بكيْتُ بسببِ إهمالِ أحدِ الأصدقاء لي في وقتٍ حرجٍ (حين جاء هذا الصديقُ إلى المدينةِ للهو، فقدَ بلا مبالاةٍ خطاباً هاماً يتعلّقُ بوظيفتي المستقبلية، كنتُ ألحُّ عليه مراراً وتكراراً). وبالطبع كنت أبكي أيضاً على العروس، عروسٌ لا تربطني بها أيُّ علاقةٍ على الإطلاق، ومن المستحيل أن تربطني بها أيُّ

علاقة، وقد نفاها صوتُ الناي، وستختفي سترُها الورديةُ بعيداً عند عائلةٍ غريبة، تسلبُ بعضاً من هذه الـ«آه» للأبد.

حين رأيتها بعد سنواتٍ عديدة، كانت أنحفَ ووجهُها شاحبٌ وذابلٌ لامرأةٍ في منتصفِ العمر، ولولا أن عَرَفْنَا أحَدُ الأشخاصِ الواقفينِ بجواري، لكنْتُ تعرَّفْتُ على ملامحِ وجهِها حين قابلتها في الماضي بصعوبةٍ بالغة. حدَّقتُ فيَّ للحظة، وظهرَ شروذٌ في عينيها، ثم أشاحت بهما بعيداً عن وجهي على الفور. كانت مشغولةً، بتحقيقِ في نزاعٍ مدنيٍّ في عائلتها يجريه كادرُ البلدة الذي رافقني للقرية، وبجنازةٍ والدتها وشقيقها، بما في ذلك انتقادُها لعودتها إلى منزلٍ والدتها للتظلم وإيقافِ جثَّتِه (انظرُ مدخل «إيقافُ الجثة»). «ما هو غيرُ المفهوم؟ لماذا على الميتِ أن يقف؟ لا يعودُ الميتُ إلى الحياةِ بإثارة الضجة، بغض النظر عما إذا كنت على صوابٍ أو على خطأ، لا معنى لإثارة ضجة». تحدَّث الكادرُ الرفيُّ بلهجةٍ توبيخية، فأوماً أشقاؤها برؤوسهم موافقين. سقطتُ على ركبتيها، وقبل أن يدركَ الكادرُ ما الذي يجري، كانت قد سجدت وضربت رأسها بالأرضِ مراتٍ عدَّة.

سارعت امرأتان قربها لسحبها، واستمرت لبرهةٍ في جذبها، إذ كانت تتعَثَّرُ وتقاوم والدموعُ تبلُّلُ وجهها، بينما تُدلي بشكاواها.

حين أخذها النساءُ بعيداً، أطلقتُ أخيراً صياحها الأجرس. بالطبع لديها أسبابٌ للبكاء، البكاءُ لأجلِ والدتها وشقيقها (اللذين توفيا للتو، وماتا ميتةً مؤسفة)، البكاءُ لأنَّها لا تستطيعُ إنصافَهما (حتى إختوتها الصغار الذين لا يريدون التورطَ في متاعبٍ لا يمكنهم مساعدتها). في رأيي، ربما كان بكاءُها تعويضاً سرياً لي. عشرون عاماً، عشرون عاماً،

لَا بُدَّ أَنَّهَا سَمِعَتْ حَزَنِي عَلَى مَنْحَدِرِ التَّلِّ قَبْلَ عَشْرِينَ عَامًا، وَلَمْ يَكُنْ
أَمَامَهَا خِيَارٌ إِلَّا الْبُكَاءُ لِتَسْدِيدِ دِيُونِ الدَّمُوعِ الَّتِي لَنْ تُفْصِحَ عَنْهَا أَبَدًا.
كَانَتْ أَعْشَابُ الْخَرِيفِ الَّتِي غَطَّتْ سَفْحَ الْجَبَلِ دَلِيلًا عَلَى دَيْنِ
الدَّمُوعِ، دَفَعَتْهَا الرِّيحُ فِي مَوْجَاتِ صَوْبِ الْقَمَّةِ، وَرَبِمَا تَشَرَّبَتْ بِهَدْوِ
الكَثِيرِ مِنَ الْبُكَاءِ فِي الْعَالَمِ، فَبَدَتْ ذَابِلَةً وَذَاوِيَةً.

بَعْدَ سِنَوَاتٍ لَاحِقَةٍ، ذَهَبْتُ لَزِيَارَةِ كَهْفِ الاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ الَّذِي
حَفَرْتَهُ فِي الْمَاضِي، لَمْ تَبْدَأِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَحَوَّلَ الْكَهْفُ
إِلَى قُبُورٍ لِتَخْزِينِ بَذَوْرِ الْبَطَاطَا وَالْبَطَاطَسِ، وَغَطَّتْ الطَّحَالِبُ الْخَضِرَاءُ
جُدْرَانَ الْكَهْفِ بِسَبَبِ الرُّطُوبَةِ، وَفَاحَتْ رَائِحَةُ الْبَطَاطَا الْحُلُوةِ الْفَاسِدَةِ
مِنْ مَدْخَلِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَّتْ هُنَاكَ بَقْعُ دَخَانٍ دَائِرِيَّةٍ فِي بَعْضِ التَّجَاوِيفِ
حَيْثُ وَضَعْنَا مَصْبَاحَ الْكَيروسِينِ.

كَانَ هُنَاكَ كَهْفٌ آخَرُ فِي الْقَرْيَةِ السُّفْلَى، حَفَرَهُ أَيْضًا أَشْخَاصٌ آخَرُونَ
فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ تَقْرِيْبًا، كَانَ مَدْخَلُهُ مَغْلَقًا الْآنَ بِلَوْحَيْنِ خَشْبِيَّيْنِ وَخَلْفَهُمَا
كُومَةٌ مَبْعَثَرَةٌ مِنْ قَشِّ الْأُرْزِ، وَعَدَدٌ قَلِيلٌ مَبْعَثَرٌ مِنْ عِلْبِ سَجَائِرَ مُتَعَدِّدَةٍ
الْأَلْوَانِ، وَزَوْجٌ مِنَ الْأَحْذِيَةِ الْمَمْزُوقَةِ، كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدًا لَا يَزَالُ يَعِيشُ هُنَا.

إخوة القِدرِ المنفصلة

- جاء ضيفٌ عزيز، تفضَّل واجلسْ في الكهف.
- كان مألوفاً، لكنني لم أتذكَّر من هو.
- أيها الرفيقُ هان، كيف صحَّتك؟
- بخير.
- كيف العمل؟
- جيّد.
- كيف الدراسة؟
- جيّدة، لا بأس.
- كيف حالُ والدك والكبارِ الموقرين؟
- لا بأس.
- هل أبناؤك وبناتك مُطيعون؟
- لديّ ابنةٌ واحدة، شكراً على اهتمامك.
- «أوه»، أوماً برأسه وأكمل: «هل الإنتاجُ الصناعيُّ في المدينة جيّد؟».

- بالطبع...

- هل تتدفق التجارة في المدينة...

خشيتُ أنَّ الطرفَ الآخرَ على وشك الاستفسارِ عن كلِّ مهنةٍ وتجارةٍ في المدينة، فقاطعتُ هذا التبادلَ المتوازي للعباراتِ على عجلٍ: «أنا آسف، أنت...».

- «لا تتذكّرني، وقد تفرّقنا مؤخراً». وابتسم لي، ظهرَ هذا الرجلُ الكهل أثناء زيارتي ملجأ الغارات الجوية.

- لستَ مألوفاً لي.

- الموقرُ كثيرُ النسيان.

- هذا ليس غريباً، فقد رحلتُ عن هنا منذ عشرين عاماً.

- «حقاً؟ عشرون عاماً؟ غريبٌ حقاً! هل يمكنُ أن يساوي يومٌ في الكهفِ ألفَ عامٍ في العالمِ الخارجي حقاً؟». فرقعَ بلسانه، وهزَّ رأسه بارتباك.

من بعيدٍ ضحك رجلٌ وصرخ: «إنَّه مامينغ!».

- أجل، لقبي المتواضع «ما»، واسمي المتواضع مينغ.

- أنت مامينغ؟ من منزلِ الخالدين؟

- يا للعار، يا للعار.

تذكّرته، وتذكّرتُ حين ذهبتُ إلى منزله لأكتبَ اقتباساتٍ للرئيس ماو، ولاحظتُ أنَّ قطرةً مخاطٍ تتدلى من طرفِ أنفه، كأنّها على وشك السقوط، لكنّها لا تسقط. كانت كلُّ تجعيده في وجهه تحتوي طبقةً غنية من الطين، لكنَّ الشيوخوخة لم تبدُ على وجهه على الإطلاق. كان وجهه

متورداً، وصوته قوياً. ولا يزال على حاله السابق، يرتدي سترة قطنية ملطخة بأوساخ لزجة، ويداه داخل كُميه. كان التغيير الوحيد على ما يبدو أنه يُعلّق على صدره شارة إحدى الجامعات، لا أعرف من أين التقطها.

- هل لا تزال تعيش في... بيت الخالدين؟

- «من حسن حظي أنني انتقلت إلى منزل جديد، انتقلت إلى منزل جديد». ابتسم، وكان يحمل حزمة من جذور اللوتس مغطاة بالطين، وأشار إلى ملجأ الغارات الجوية.

سأله مندهشاً: «هل تستطيع العيش في مكان رطب كهذا؟».

- «أنت فقط لا تفهم. تطوّر الإنسان من القروء، والقروء تطوّرت من الأسماك، والأسماك تسبح بلا خشية في البحر طوال العام، كيف يمكن أن تخشى الرطوبة حين تصبح بشراً؟».

- ألا تمرض؟

- «أشعر بالخجل، في حياتي هذه، أكلت كل أنواع المأكولات اللذيذة ولم أعرف أبداً طعم الدواء» وبينما قال ذلك، هرعت امرأة قائلة إن يقطينة كبيرة اختفت من حديقته، وتريد معرفة إن كان مامينغ قطعها. حدّجها مامينغ بنظرات حائقة وسألها: «لماذا لا تسأليني إن كنت قاتلاً أم لا؟». حين لاحظ ذهولها، اقترب منها وكرّ على أسنانه قائلاً جملة أخرى: «لماذا لا تسأليني إن كنت قد قتلت الزعيم ماو أم لا؟». ثم بصق على الأرض، ونسي وجودي أنا الضيف، وانصرف دون أن يلتفت.

في مكانٍ ما بعيد كان بعضُ الأطفالِ يضحكون، وتفرقوا مذعورين بعد نظرةٍ من طرف عينه.

وهكذا انصرفَ مستاءً. كانت آخرَ مرّةٍ رأيتهُ فيها حين غادرتُ ماتشياو، رأيتهُ واقفاً كعادته على منحدرٍ جبليّ خلفَ القريةِ العليا، متكئاً على عصا، وحيداً، في عزلة، يرنو بعيداً إلى الحقولِ الشاسعةِ الضبابية، وضوءُ الفجرِ الوردي يطفو فوقَ الوديانِ الجبلية، بدا كأنّه في حالةٍ من الاستغراقِ التام. سمعتهُ أيضاً يدندنُ بلحنٍ غريبٍ، كأنّه أنينٌ يخرجُ من أحشائه، واتضحَ أنّه لحنٌ يعرفه جميعُ الناسِ من التليفزيون.

من أين أتيتَ؟ يا صديقي،
كأنَّ فراشةً حلَّقتُ صوبَ نافذتي.
لا أعرفُ كم ستبقى،
افترقنا منذ وقتٍ طويلٍ طويلٍ...

لم أجرؤ على تحيَّته، ولم يكن من المناسبِ أن أزعجَ مزاجه الجمالي الذي يشبه الفراشة.

علمتُ في وقتٍ لاحقٍ، أنَّ الكلماتِ القليلة التي تلقَّيتها من مامينغ، كانت ألطفَ مُجاملةٍ لي. لعديدٍ من السنوات، قطعَ علاقته كُلِّياً بأهلِ القرية، لم يعاملهم بلطفٍ، وينفرُ من الحديثِ معهم. كان يتجوَّل كلَّ يومٍ حراً طليقاً، يعبرُ الجبالَ والأنهار، متأملاً العالمَ بنظرةٍ باردةٍ لا مبالية. ذاتَ مرّةٍ، سقطَ طفلٌ في البركةِ دون أن يلحظه أحدٌ من أهلِ القرية، رآه هو فقط بينما يقفُ على منحدرِ التلّة، أنقذَ الطفل ولم يكثرث لشكرٍ وامتنانٍ.

والديه، ألقى لحم الخنزير المقدّد الذي أرسلاه إلى بابِه في حفرة السّمادِ قائلاً إِنَّه سيلوثُ فمه. كان يفضّل أن يأكل النملَ وديدانَ الأرضِ على الطعامِ الشائعِ لعامةِ الناسِ، أو على قبولِ صدقاتِ القرويين.

كان قد انتقلَ من منزلِ الخالدين، وانهارَ أقدمُ مسكنٍ في ماتشياو. اصطحب تيجي هوانغ مجموعةً من الناس، وهدمَ بعضُ أساساتِ المنزلِ لصُنعِ النترات. كان عددٌ قليلٌ من الآجرِ لا يزالُ صالحاً للاستخدام، لذلك بنى القرويون براجولا على جانبِ الطريق، ومنزلاً صغيراً له. ذهبَ لإلقاءِ نظرةٍ ويداه في كُمّيه، لكنّه لم ينتقلِ إلى المنزلِ الجديد، دلالةً على أنّه لن يعقدَ صلحاً، وفضّلَ الانزواءَ في ملجأِ الغاراتِ الجوية.

لم يكن ينامُ كثيراً في الكهف، بل ينامُ في العراء، في الجبالِ وسطَ الرياحِ والندى. سأله أحدُهم ذاتَ مرّةٍ إن كان يخشى أن تلتهمه الحيواناتُ البريةُ أثناءِ نومه فوقِ الجبل، قال: «وما الذي يهّمُ إن أكلني حيوانٌ بري؟». أكل خلالِ حياته الكثيرَ من المخلوقاتِ البرية، لذا من العدلِ أن يأكله مخلوقٌ بريٌّ في المقابل.

في السنواتِ الماضية، كان بن يي أولاً، ثم يان وو، أكثرَ شخصين يكرههما، يشتمهما من وراءِ ظهريهما «أولادُ الشيطان»، ولا أحدَ يعرفُ من أين جاءت هذه العداوة. في الواقع، كانت ملاحظتهم متشابهةً إلى حدٍّ ما: وجوهٌ طويلةٌ ونحيلة، جفونٌ مزدوجة، ذقونٌ مترهلةٌ قليلاً، لكنّها مرفوعةٌ وتبرزُ شفاههم السفلية. حين أفكّرُ في هذه النقطةِ أحياناً، يراودني فجأةً تكهنٌ لا أساسَ له، لكنني لا أجروّ على البوح به:

هل هذه الوجوه الثلاثة المتشابهة من الأب نفسه؟

إذا كان الأمر هكذا، وباستخدام كلمات أهل ماتشياو، يُطلق على هؤلاء الثلاثة «إخوة القدر المنفصلة»، أي الإخوة المتفرون الذين لا يمكن جمع شملهم، وسواءً أكان ذلك الانفصال نتيجةً للتبني الشرعي، أو بسبب ولادة سرية غير شرعية، أو فرض بسبب الانجراف والتشتت السكاني عقب نوبات النهب والفوضى، فلم يكن ذا أهمية تُذكر، وليس له مسميات مميزة. عاملان فقط كانا كافيين، الأول أنهم منفصلون في القدر، والثاني أنهم إخوة، ويبدو أن أهل ماتشياو يولون اهتماماً كبيراً لهاتين الحقيقتين الأساسيتين.

أدرك أن هناك من يعلم في القرية بواطن «الشفة السفلية البارزة قليلاً»، لكنه لن يخبرني. وأعلم أن مامينغ، بن يي ويان وو يعرفون شيئاً إلى حد ما، فمن المستحيل ألا تراودك شكوك عند رؤية وجهين يشبهانك كأنك تنظر في مرآة.

لكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا بهذه الانعكاسات؟

البدايةُ (النهاية)

في لهجة ماتشياو، تُنطق كلمة «yuán» «完» مثل كلمة «元». تعني كلمة «完» النهاية، وتعني كلمة «元» البداية، أي أنَّ المعنيين المتضادين موحدان في صوتٍ واحد، وأنَّ طرفي العملية مرتبطان صوتياً. لذا حين يقول أهل ماتشياو «العودة إلى yuán»، هل يقصدون العودة إلى النهاية؟ أم إلى البداية؟

إذا وصلت كلَّ الأشياء إلى نهايتها، فإنَّ العملية عبارة عن خطأ مستقيم لن يتكرَّر أبداً، وسيكون الأمام والخلف، هنا وهناك، الصواب والخطأ في شكلٍ ثابتٍ دائماً، يوحى برؤية لإجراء المقارنات والأحكام. وعلى النقيض، إذا بدأت كلَّ الأشياء، تكون العملية عبارة عن دائرة تدور وتدور إلى الأبد، ويكون الأمام والخلف، هنا وهناك، والصواب والخطأ متداخلين ومنعكسين بدرجةٍ مُربكة.

في رأيي، يصرُّ المتفائلون بالتاريخ ببساطة على الفصل بين البداية والنهاية، ويعتبرون التاريخ خطأً مستقيماً يمضي قُدماً إلى الأبد، وأنَّ وقائع الشرف والعار والنجاح والفشل والثناء واللوم والمكاسب والخسائر مُسجَّلةٌ بدقة، وستخضع لحُكمٍ نهائيٍّ دقيقٍ وعادل، وستجني

المثابرة مكافأتها النهائية. لكنَّ المتشائمين بالتاريخ يصرون على وحدة البداية والنهاية، وينظرون إلى التاريخ على أنه حلقة تتكرر إلى الأبد، وحيث يستمرون في تراجعهم، يستمرون في الخسارة، ويصبح كلُّ شيءٍ عديم الجدوى.

أيُّ yuán سيختار أهل ماتشياو؟ البداية أم النهاية؟

أم هل النهاية هي البداية؟

هكذا كانت قرية ماتشياو؛ قرية صغيرة يصعب العثور عليها في الخريطة، مع عشرات الأسر في القرية العليا والسفلى، وحقول وقنوات على امتداد الجبال. تحتوي ماتشياو على عدد كبير من الحجارة وكميات كبيرة من التربة، صمدت هذه الأحجار والتربة عبر آلاف السنين، ومهما أمعنت النظر لن تلاحظ تغيرها. كلُّ ذرة منها إثباتٌ على الخلود؛ التدفق اللانهائي لمياهها الجارية يضجُّ بأصواتٍ ملايين السنين، حبات الندى منذ آلاف السنين، لا تزال معلقةً على أوراق العشب على جانب الطريق، ضوء الشمس منذ آلاف السنين يضيء الآن ساطعاً، حتى أننا لا نستطيع فتح أعيننا، مدُّ من حرارة بيضاء تطنُّ أمامنا.

من ناحية أخرى، لم تعد ماتشياو مثل ماتشياو في الماضي، أو حتى ماتشياو منذ لحظة، ظهرت تجاعيد، تساقط شعر أبيض، فقدت يدٌ نحيلة حرارتها، كلُّ شيءٍ هبط في السكون، وجوه تظهرو وجهاً تلو آخر، ثم تختفي وجهاً تلو آخر، لتؤكد حقيقة أنها لن تعود أبداً. عبر هذه الوجوه فحسب، ندرك مذعورين أثر الزمن، لا يمكن لأيِّ قوة أن توقفه، لا توجد قوة بوسعها منع تعاقب الوجوه هذا من الغرق في تربة ماتشياو - كنغمات تُعزف على الأوتار ثم بهدوءٍ تتلاشى.

كلام فارغ^(١)

لهذه الكلمة ثلاثة معاني:

١- معنى يشير إلى اللغة الصينية الحديثة، العامية، عكس اللغة الأدبية الكلاسيكية.

٢- معنى يشير إلى الثروة غير المهمة، غير الجادة والصادقة، ثروة من أجل التسلية فحسب، بل حتى نوع من الخداع، مثل كلمة «捏白» - niēbái - الكذب أو الهراء، وهنا «白» - تعني أبيض - نقي في اللغة الصينية، من الواضح أنه بعيد عن معنى «平白 - píngbái - بسيط» و«明白 - míngbái - واضح»، إذ يسلط الضوء على الطبع المتمثل في التفاهة، انعدام الكفاءة والأخلاق والفجور، وفي الغالب ملاحظات تهكمية عرضية مثل «قال شيئاً بلا جدوى».

٣- في لهجة ماتشياو، تُنطق «白 - bái» pá «بنغمة هابطة، وهو لفظ يُجانس كلمة «怕 - pà - وتعني خائف وخيف»، إذن الكلام الفارغ

(١) تُكتب الكلمة 白话، وتُنطق báihuà.

أيضاً كلامٌ مخيف، ويشيرُ غالباً إلى قصصِ الأشباح والجرائم، التي تُروى في الكثير من الأحيان لإمتاع المستمعين وإثارتهم.

«الكلامُ الفارغ» بالنسبة لأهلِ ماتشياو، هو ما يمكنُ أن يسمّيه الناسُ في سيتشوان ثرثرة، هذا النشاطُ لتزجية الوقتِ ليلاً أو في الأيامِ الممطرة، ودفعني هذا إلى الشكِّ في أنَّ بداياتِ العاميّةِ الصينيَّة نشأت أسفل هذه الأفاريزِ القائمةِ المصنوعة من القش، وأنها متجذرةٌ في بعضِ الحكاياتِ والقصصِ المبتذلةِ والمواضيعِ الممتعةِ الشائعة، حتى في بعضِ حكاياتِ الرعب. اعتبرَ جوانغ تزي الرواياتِ كلماتٍ تافهةً وسطحية، بينما عرّفها بان غو بأنها «ثرثرةٌ وشائعاتُ الشوارع والأزقة»، يقتربُ كلا الرأيين عموماً من هذا الفهم، من «حكاياتٍ عن الأرواح والخالدين» من فترةِ وي جين إلى «حكاياتٍ لياو تجاي» في بدايةِ عصرِ أسرة تشينغ، وهي المصدرُ الأساسيُّ للعاميّةِ الصينيَّة، والتي كانت مليئةً بالحكاياتِ الشاذة والغريبةِ عن الشياطين والأرواح التي تشنُّ هجماتٍ متكررةً على أعصابِ المستمعين. هنا تختفي حكمةُ الدولةِ الكونفوشية التي تحضُّ على مساعدةِ الوطن والآخرين حين يملكُ الشخصُ المقدرة، والتي تدعو إلى تهذيبِ الشخصِ لذاته بمفرده، تطهيراً للعقلِ وكبحاً للرغبات. وعلى عكسِ الصينيَّة التقليدية، لم يُنظرَ إلى اللغةِ العاميّة «باي هوا» مطلقاً كلغةٍ نبيلةٍ تمتلكُ القدرةَ على إثارةِ العاطفة، وحثِّ الروحِ المطلقّة.

«باي هوا» هي مجردُ منتجٍ استهلاكيٍّ يومي، لغةٌ سُوق. لم يُحدثْ تغييرُها - بسببِ اللغاتِ الغربيَّة ونضجها وتطورها في العصرِ الحديث - أيَّ اختلافٍ في أحكامِ القيمةِ المتحيزةِ ضدها من قبل أغلبيةِ الناس. في

القاموس الذي يستخدمه أهل ماتشياو، حتى التسعينيات على الأقل، كانت الـ «باي هوا» كلاماً فارغاً، و«الكلام الواضح» أيضاً كلاماً فارغاً، و«الكذب» أيضاً كلاماً فارغاً، ولا يزال منفصلاً تماماً عن أي موضوع ذي أهمية، لا يزال مرادفاً لـ «ثرثرة الشوارع والأزقة». لم يشعر أهل ماتشياو بعد بالحاجة الملحة لاستخدام مسمى حقيقي جديد، للتمييز بوضوح بين المعاني الثلاثة لكلمة «白» والتخلص من ارتباك المفهوم نفسه. ربما اعتبروا أنفسهم بعض الأشخاص الوضيعين، وأشخاصاً أجلاً جاهلين، شعروا أنهم لا يستطيعون إلا اللوج إلى معنى عامي وعديم الجدوى من كلمة «白 - فراغ»، إلى هذا الشكل من الانحطاط اللغوي، وهذا لا يختلف عن ذنب ومنفى لغوي مفروض على النفس. من وجهة نظرهم، يبدو أن المعرفة الحقيقية يُعبّر عنها بلغة أخرى غامضة وغير محدودة، تتجاوز قدرتهم على التعبير عنها.

افترضوا أن هذه اللغة ربما تكون قد اندثرت، عدا بعض المفردات الغربية المتناثرة التي خلفها أسلافهم. قد يكون هذا الشكل من اللغة نجباً في تعاويذ الكهنة، وفي هيستريا نساء الأحلام، ومتوارياً في رعد الطبيعة، لكنهم لا يستطيعون فهمها.

كان هؤلاء الناس شديدي النحافة، بشرتهم داكنة جداً، ومفاصلهم متيبسة، وكانوا ذوو شعرٍ وعيونٍ صفراء اللون، يتنازلون عن القوة العليا للغة لأشخاص لا يعرفونهم، ثم يتبعون طريق الحياة بشكلٍ أعمى حتى نهايته. الأمر المؤسف أن محاولتي لكتابة الرواية، وأهم ذكريات شبابي المتعلقة باللغة، بدأت من تغذيتهم لي باللغة العامية، من انكماشهم في مجموعاتٍ صغيرة في الأمسيات أو الأيام الماطرة، وتبادلهم الترهات

والهراءَ سرور. بسبب هذه الخلفية غير القابلة للتغيير، سيسخرون قطعاً من رواياتي، ولن يرووها إلا هراء لا يصلح للعالم. بمعنى آخر، أنا ممتنٌ لتذكيرهم واستهجانهم. على الرغم من حبي لهذا النوع الأدبي المتمثل في الرواية، فهي رواية على كل حال، ما هي إلا رواية، لا شيء أكثر. أنتجت البشرية عدداً لا يُحصى من الروايات الجميلة، إلا أن الحروب في البوسنة والشرق الأوسط لا تزال مستمرة. النازي الذي قرأ دوستوفسكي وغوته سيواصل قتل الناس، الغشاش الذي يقرأ تساو شويه تشين^(١) ولوشون سيواصل الخداع، لا ينبغي المبالغة في دور الروايات.

إضافةً إلى ذلك، ليست الروايات فحسب، بل كل اللغات ليست إلا لغات، مجرد رموز للحقائق، تماماً مثلما أن الساعات رمزٌ للزمن، بغض النظر عن كفاءتها في تشكيل إحساسنا بالزمن وفهمنا له، فلا يمكن أن تكون هي الزمن نفسه. حتى لو تحطمت الساعات والمنبهات، حتى لو تحطمت جميع المؤقتات، سيستمر الزمن رغم ذلك. لذا يجب أن نقول حقاً إن كل لغة بالمعنى الدقيق للكلمة هي «كلام فارغ»، ولا ينبغي المبالغة في دورها.

على مدار أكثر من عشر سنوات، كتبت عدداً من الروايات، وما كنتُ جديراً بمهنة الكاتب، لكنني في الأساس لم أحقق شيئاً أكثر مما حققه أهل ماتشياو، فرواياتي المتتالية هي في الواقع أشبه بما يفعله فوتشا في هذه اللحظة، يقيس مدى عمق حُفرنا اليوم ويتنفس الصعداء:

(١) تساو شويه تشين: روائي وشاعر صيني عاش خلال عهد أسرة تشينغ، من أشهر أعماله الرواية الكلاسيكية «حلم المقصورة الحمراء».

«سوف تتعفنُ ألسنتنا من طول الصمت، فلتحدث قليلاً من الكلام الفارغ». أنزل عصا الحمل، ومطَّ عنقه، وابتسم بمرح.

كان الكهف دافئاً جداً، ولا حاجة لارتداء المزيد من الملابس، استلقينا على جوانبنا على أكوام ناعمة من الأرض، ورُكَبنا متساندة، مُحدِّقين في وميض المصباح الضبابي على جدار الكهف.

- هيا، تحدث إِذن.

- ابدأ أنت أولاً.

- بل ابدأ أنت أولاً، قرأت هذه الكتب، لا بُدَّ أنك قرأت الكثير من الأحاديث الفارغة.

شعرتُ أنَّ ثمة شيئاً خاطئاً بشأن هذه الجملة، لكنني لم أستطع تصحيحها.

- حسنٌ، سأحكى لك قصةً مضحكة عن بن يي: حدث ذلك الشهر الفائت حين كنَّا نتلقى تدريبات ميليشيا الشعب، وغادرت أنت لحضور اجتماع. هرعَ إلى الجُرن، وقال: «أليس هتافُ أوامري واضحاً وقوياً؟». وطلب مني أن أقفَ جانباً، وأرى كيف يكون الهتاف. هتف: «إلى اليسار»، ثم هتف: «إلى اليمين»، ثم هتف: «إلى الخلف»، وأخيراً: «إلى الأمام وانعطف». انشت أجسادُ الشباب الستة، ولم يعرفوا كيف ينعطفون إلى الأمام، حدَّق إليهم بن يي بنظراتٍ غاضبة، ورسم دائرةً على الأرض قائلاً: «هكذا تدورون، هكذا تدورون...».

انفجرَ فوتشا ضاحكاً، وارتطم رأسه بجدار الكهف.

- «حسنٌ، سأحكى أنا قصةً أخرى». نظَّفَ حنجرته بحماس، وبدأ يحكى قصةً أشباح. قال إنَّ شخصاً في بلدةٍ شوانغ لونغ، بنى منزلاً محاذياً للجبل، عالياً جداً، وبارزاً فوق الماء. كان يعيشُ في الطابق العلوي وفي إحدى الليالي استيقظَ ورأى رأساً خارجَ النافذة، تطلَّعَ حوله وظنَّ أنَّه لص، لكنَّه أدركَ بعد تفكيرٍ أنَّ ذلك ليس منطقياً، فهو ينامُ في الطابق العلوي، والنافذة على ارتفاعٍ اثني تشانغ، فكيف للصَّ أن تكونَ له مثل هاتين الساقين الطويلتين؟ تلمَّسَ المصباحَ اليدوي وأناره فجأة، خنَّ ماذا رأى؟ - «ماذا؟». اقشعرَّ بدني ذعراً.

- لم يكن لهذا اللص عينان، ولا أنف أو فم، كان وجهه مسطحاً. أرهفنا السمعَ لوقعِ أقدامٍ عند أوَّلِ الكهف، وأدركنا أنَّ فانغ ينغ عادتُ من المنزل، إذ ذهبتُ منذ قليلٍ لجلبِ بعض كعك البابا. قال فوتشا مبتسماً، وهو يقطعُ كعكةَ البابا التي لا يزال البخارُ يتصاعدُ منها: «نحكى قصةً عن الأشباح، تريدين سماعها؟». قالت «آه» بعجالة، واختفى وقعُ خطواتها في الظلام.

- هناك أشباحٌ في الخارج، ألا تخافين؟
توقَّفَ وقعُ الخطوات.

ضحك فوتشا بسرور.

- هل يتساقط الثلجُ في الخارج؟
لا إجابة.

- هل ستشرقُ الشمسُ قريباً؟

لا إجابة كذلك.

- حسنٌ حسنٌ، لن نتحدث عن الأشباح، ادخلي ادخلي، الجو دافئٌ هنا.

بعد لحظة صمتٍ، اقترب صوتُ الحفيفِ قليلاً، إلّا أنّي لم أرَ فأنغ
ينغ، بل رأيتُ وميضَ مشبكٍ حذائها المعدنيّ في الظلام، لذا أدركتُ أنّ
إحدى قدميها لم تكن بعيدةً عني.

لا أعرفُ متى، لكنني بدأتُ أسمعُ ضجيجاً مدوياً فوق جبهتي، ثم
بعد فترة، بدأ دويٌّ ثقيلٌ آخر، ارتجاجٌ جعل ضوءَ المصباحِ يرتجف، لم يبدُ
كأنّه قادمٌ من فوق رأسي بل كأنّه من الأمام أو من اليسار أو من اليمين أو
من جميع الجهات. بدا فوتشا متوتراً قليلاً، وسألني: ماذا يجري؟ قلتُ: لا
أدري! قال: إنّ جبلاً فوقنا، وإنّ الوقتَ ليلٌ، ولا ينبغي أن يُسمَعَ هناك أيُّ
صوت. قلتُ: أجل، لا ينبغي أن يُسمَعَ هناك أيُّ صوت. قال ربما حفرنا
وصولاً إلى قبر؟ وصادفنا أشباحاً حقاً؟ أجبتُ أنّي لا أوّمنُ بهذا. قال: إنّ
الفريقَ القديمَ أخبره عن كهفٍ في قمة تيان تزي يفضي إلى النهر، هل يمكنُ
أن نكونَ قد حفرنا عبّره؟ ربما تكونُ بكين في الخارج، أو أمريكا؟ فأجبتّه:
لقد اجتزّت المرحلةَ المتوسطة، هل تظنُّ أنّنا حفرنا أكثرَ من عشراتِ
الأمّات؟ أخشى أنّنا لم نصلَ حتى إلى سقيفةِ السهادِ المجاورةِ لمنزلِ بن رن.
ابتسمَ ابتسامةً خجولةً قائلاً: إنّ هذا الأمرَ يصيبه بالارتباك أحياناً:
عندما يكون مكانٌ ما بعيداً، لماذا يجب أن يظلّ بعيداً إلى الأبد؟ إذا حدثَ
أمرٌ منذ وقتٍ طويل، لماذا يجب أن يظلّ دائماً منذ وقتٍ طويل؟ ألا توجدُ
طريقةٌ أخرى، حفرُ حفرةٍ على سبيلِ المثال، والحفرُ والحفرُ حتى نصلَ
إلى عالمٍ آخر؟

كان هذا حلم طفولتي. أدسُ رأسي في اللحافِ غالباً، آملاً أن أرى معجزةً مشرقةً عندما أخرجُ من طرفِ اللحافِ الآخر.

انتظرنا سماعَ أصواتٍ جديدة، انتظرنا فترةً، لكن لا شيء.

تثاءبَ فوتشا بخيبةٍ أملٍ قائلاً: «حسنٌ إذن، انتهى الوقت، لتتوقفَ عن العمل».

قلتُ: «ارفع المصباح».

قال: «أحكمِ ملابسك جيداً، الجو باردٌ في الخارج».

أصبح نورُ المصباح خلفي، فامتدَّ ظلي أمامي وتضخَّم، وابتلعني دفعةً واحدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

طريق المسؤولين

في مُسَوِّدَتِي، تستحضرُ عبارة «طريق المسؤولين» طريقاً ضيقاً مرصوفاً بالحجارة، ملتوياً ومتعرجاً، يمتدُّ خارجَ الجبالِ ويفضي إلى ماتشياو. ولا يُطلَقُ على كلِّ دربٍ اسم «طريق المسؤولين»، لذلك لا بُدَّ لي من تخمين تاريخ شيء كهذا. في الماضي، حين كان يغادرُ شخصٌ من القرية ليتولَّى منصباً رسمياً في مكانٍ آخر، يتعيَّنُ عليه أن يعود ممتطياً حصاناً لزيارة أقاربه، وكان الطريقُ الممهّدُ ضرورياً، لذلك يصبحُ أوَّلُ عملٍ له كمسؤولٍ تمهيدَ طريقٍ إلى قريته، أيّ شقُّ طريق المسؤولين. كانت طرقُ المسؤولين تُمهّدُ عادةً من قبل المدانين وفقاً لخطورة جرائمهم، وحدد المسؤولون العقوبات بمسافات البناء عشرة أو عشرين تشانغ. لم يكن تمهيدُ الطرق شهادةً على الثروة والشرفِ فقط، بل امتدادٌ لتراكمِ الجرائم في الماضي.

لا المسؤولون ولا المجرمون من ماضي ماتشياو تركوا أسماءهم. بمرورِ الوقت، أصبحَ الطريقُ في حالٍ سيئة، تحطّمت بعضُ الألواح الحجرية أو اختفت تماماً، غرقت الشظايا المتبقية في الطبقة السطحية من الطين، فقط الجزء الذي لم ينبثق إلى السطح، يدوِّسه الناسُ حفاةً، وقد

أصبح زلقاً كصفٍّ مُشحَّمٍ بالزيتِ والعرقِ من الأعمدةِ الفقريّةِ البشريّةِ،
خاضعاً إلى الأبدِ تحت أقدامنا. اعترتني فجأةً رغبةٌ في استخراجِ هذه
الأعمدةِ الفقريّةِ من التربةِ، وأن أدعَ الجماجمَ كما هي في الطرفِ الآخرِ
تنفضُّ عنها الوحلَ وتنهضُ من الظلامِ الطويلِ وتنظرُ إليّ، مَنْ هُمْ؟
حين تنبعثُ رائحةُ الروثِ من طريقِ المسؤولين، تكونُ قد وصلتَ
القريةَ، وثمة شجرةٌ برقوقيّ لامعة تطلق حفيفاً وامضاً.
التفتُ لاهثاً وسألت: «ألم نصل ماتشياو بعد؟».

هرعَ فوتشا إلى الأمام، وساعدنا -نحن الشباب المتعلّم- في حملِ
أمتعتنا قائلًا: «على وشك الوصول على وشك الوصول. ألا يمكنكم
رؤيتها؟ إنّها في الأمام، ليست بعيدةً، أليس كذلك؟».

- أين؟

- أسفل شجرتي القيقب.

- هذه ماتشياو؟

- هذه ماتشياو.

- لماذا تُدعى بهذا الاسم؟

- لا أعلم.

تملّكني حزنٌ بينما أسيرُ خطوةً خطوةً إلى المجهول.

حاشية

البشرُ مخلوقاتٌ ذاتُ قدرةٍ لغويةٍ، لكنَّ الكلامَ في الواقعِ صعبٌ للغاية على الإنسان.

في العام ١٩٨٨، انتقلتُ إلى جزيرة هاينان في أقصى جنوب الصين، لم أستطع التحدُّثَ بلهجةِ هاينان، ووجدتها عصيَّةً على التعلُّم. ذاتَ يومٍ، ذهبتُ أنا وصديقي إلى سوقِ الخضار، ورأيتُ سمكةً لم أكن أعرف اسمَها، فسألتُ بائعاً من السكان المحليين، قال: إنَّها سمكة. قلتُ إنَّني أعرفُ أنَّها سمكة، ما نوعُها من فضلك؟ قال مُحدِّقاً بي: «سمكُ البحر». ضحكْتُ وأجبتُ: أعلمُ أنَّها سمكُ البحر، هل يمكنُ أن تخبرني أيَّ - نوعٍ - من - أسماك - البحر - هي؟ حدَّقَ البائعُ إليَّ مطولاً، وبدا نافذَ الصبر: «سمكةٌ كبيرة!».

فكرْتُ أنا وصديقي في هذه المِحادثةِ بعد ذلك، ولم نتمالك أنفسنا من الضحك.

يملكُ سكانُ هاينان أكبرَ منطقةٍ بحريةٍ في الصين، وعدداً لا يُحصى من قرى الصيدِ وتاريخاً طويلاً في مهنةِ صيدِ الأسماك. علمتُ لاحقاً أنَّ لديهم أكبرَ عددٍ من المفرداتِ المتعلِّقةِ بالأسماك. وضعَ الصيادون

الحقيقيون مفرداتٍ محددةٌ لمئاتِ الأنواعِ من الأسماك؛ لكلِّ جزءٍ في الأسماكِ ولكلِّ حالة، تعبيراتٌ وأوصافٌ دقيقة ومفصلة، تكفي لتأليفِ قاموسٍ سميك، لكن لا يمكنُ دمجُ معظمِها في لغةِ الماندرين. حتى «قاموسِ كانغ شي» الذي يجمعُ أكبرَ عددٍ من الكلمات -أربعون ألفَ كلمةٍ بعيدةٍ جداً عن هذه الجزيرة- استبعدَ الكثيرَ من المشاعرِ العميقة والغنية خارجَ مجالِ رؤيتها، واستبعدَ ما وراءَ السيطرةِ الإمبراطوريةِ على فرشاةٍ ومحبرةِ العلماء. حينَ أتحدّثُ الماندرين مع الناسِ هنا، حينَ أجبرُهم على استخدامِ لغةٍ ليسوا على درايةٍ بها، يمكنُهم فقط استخدامِ «أسماكِ البحر» أو «السّمكةِ الكبيرة» بلا مبالاة.

كدتُ أسخّرُ منهم، وظننتُ أنّهم فقراءُ في اللغةِ بدرجةٍ مثيرةٍ للشفقة. بالطبع كنتُ مخطئاً. بالنسبةِ لي، ليسوا الأشخاصَ الذين أراهم، وليسوا الأشخاصَ الذين أتحدّثُ عنهم، كانت سخريتُهم وصياحُهم وثرثرُهم وجلبتُهم مخبئةً إلى حدٍّ كبيرٍ خلفَ حاجزِ اللغةِ الذي لا يمكنني النفاذُ إليه، متواريةً في الليلِ المظلمِ الذي لا يمكن أن تضيئه الماندرين، وقد عانقوا هذا الليلَ المظلم.

دفعني هذا للتفكيرِ في مسقطِ رأسي. لقد درست الماندرين لسنواتٍ عديدة، وأدركُ أنّ هذا ضروري، من الضروري أن أكون مقبولاً من الجيرانِ والزملاءِ والبائعينِ والشرطةِ والمسؤولين، من الضروري بالنسبةِ لي التواصلُ مع التلفزيون والصحف ودخولِ العصرِ الحديث. لقد صدمتني تجربتي في شراءِ الأسماكِ من سوقِ الخضار: لقد أصبحتُ ماندرينياً، هذا يعني في الوقتِ نفسه أنّ مسقطَ رأسي في ذاكرتي أصبح ماندرينياً، وأنّه يُصَفَّى كلَّ يومٍ من خلالِ لغةٍ غريبة، وعبرَ هذه التصفيةِ

أُخْتُزِلَ للوصفِ البسيطِ والجافِ لـ «سمكةٍ كبيرة» و«سمكةٍ البحر»،
ليذبل شيئاً فشيئاً في صحراءِ الترجمة.

هذا لا يعني أَنَّهُ لا ينبغي الحديثُ عن مسقطِ رأسِك. لا، يمكنُ
التحدُّثُ عنه أيضاً بالماندرين، بالفيتنامية، بالكانتونية، بلهجة فوجيان،
ولهجة التبت، والويغور وغيرها من اللغاتِ الأجنبية الأخرى، ولكن
هل سيكونُ عزفُ «السيمفونية الخامسة لبيتهوفن» على كمان أوبرا بكين
هو «السيمفونية الخامسة لبيتهوفن»؟ التفاحةُ التي غادرت أرضها،
تفاحةٌ مطبوخةٌ بالبخارِ ومخلَّلة، هل لا تزالُ تُعتَبَرُ تفاحةً؟

بالطبع، اللهجةُ ليست الحاجزُ اللغويُّ الوحيد، ولا المحليةُ السمةُ
الوحيدةُ للغة. بصرفِ النظر عن المحلية، فإنَّ اللغةَ بشكلٍ أساسي لها أيضاً
تدرُّجاتٌ زمنية. قبل أيامٍ قليلة، كنتُ أُمَدِّدُ مع أصدقائي، وأعرِبتُ عن
أسفي لأنَّ تطوُّرَ وسائلِ النقلِ والاتصالاتِ قد عزَّزَ الروابطَ الأفقيةَ عبرَ
البشرية، وسرَّعَ المزيَدَ والمزيَدَ من عمليةِ التجديدِ الثقافي، وأنَّه قد يقضي
جذرياً في المستقبلِ القريبِ على الاختلافاتِ الثقافية الإقليميةِ ويذوِّبها،
لكنَّه قد يوسِّعُ ويضاعفُ اختلافاتِ الأزمنة. الأشخاصُ من الجيلِ
ذاته في القرية العالمية، يأكلون الطعامَ ذاته، ويرتدون الملابسَ ذاتها،
ويعيشون في المنازلِ ذاتها، وينشرون الأفكارَ ذاتها، بل ويتحدَّثون اللغةَ
ذاتها، لكن بحلولِ ذلك الوقت، قد يكونُ من الصعبِ أن يفهمَ الناسُ في
الخمسينياتِ من القرنِ الماضي الناسَ في ثلاثينياتِ القرنِ الماضي، أن يفهمَ
الأشخاصُ الذين وُلِدوا في العام ٢٠٢٠ الأشخاصَ الذين وُلِدوا في العام
٢٠١٠، كما هو الحالُ بالنسبةِ لأهلِ هونان الذين لا يمكنهم فهمُ ثقافةِ
جزيرة هاينان، وكما هو بقدرِ صعوبةِ فهمِ الصينيين للثقافةِ البريطانية.

في الواقع، هذه العملية قد بدأت بالفعل. لا تنعكس «فجوة الأجيال» المزعومة داخل اللهجة الواحدة في مفهوم الموسيقى، الأدب، الملابس، العمل، والسياسة ونحو ذلك فحسب، بل تنعكس أيضاً في اللغة، لقد أصبح واقعاً حولنا رؤية شخص كبير السن يضطرُّ إلى بذل جهدٍ حقيقيٍّ لفهم مفردات أطفاله. «ثلاثة في واحد»، «كوبونات فول الصويا المخمر»، «خريجو المدارس يُجبرون على الاستقرار في الريف»، «المنشأ الطبقي»؛ مجموعة كاملة من المصطلحات التي سرعان ما أصبحت ألفاظاً مهجورة، لم تستقر في الكتب القديمة، ولم تنسحب من الحياة اليومية، ولا تزال تنتشر في دوائر اجتماعية معينة، تماماً كما لا تزال اللهجة سائدة في دوائر أبناء القرى. إنها ليست المنطقة بل الحُقبة، وليس المكان بل الزمان الذي يُنتج كل هذه الأنواع الجديدة من المجتمعات اللغوية.

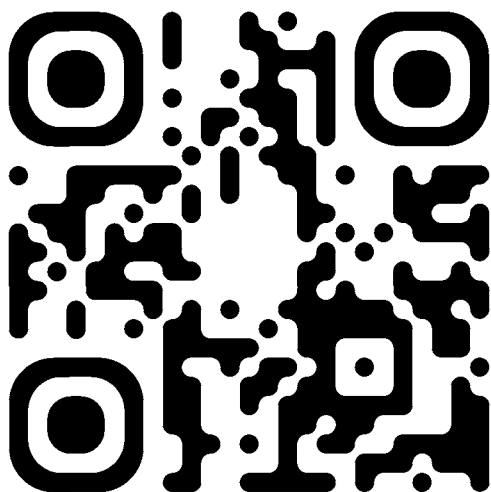
يمكننا أن نتعمق في الحديث عن هذه المسألة. حتى لو تجاوزَ الناس حواجز المنطقة والأزمة، فهل يمكنهم العثور على لغةٍ مشتركة؟ أجرى أستاذ اللغويات تجربة ذات مرة، وذكر كلماتٍ في قاعةِ الدرس مثل «الثورة»، وطلبَ من الطلاب ذكر الصورة الأولى التي تومض في أذهانهم حين سماعها. جاءت الإجابات متنوعة: أعلامٌ حمراء، قاعدة، عواصف، آباء، مآدب، سجون، معلمون، سياسيون، صحف، أسواق خضارٍ وأكورديون، قدّم الطلاب تفسيراتٍ مختلفةً كلياً في اللاوعي لكلمة «ثورة»، وفقاً لتجارِبهم الحياتية المختلفة تماماً. بالطبع، بمجرد دخولهم في التواصل العام فإنَّ عليهم الخضوعَ لمعايير السلطة مثل القواميس الكبيرة. هذا هو التنازل الذي يقدّمه الفرد للمجتمع، تنازلٌ خبرات الحياة لصالح التقاليد الثقافية. لكن مَنْ بوسعِه أن يقولَ على وجه

اليقين إنّ الصورَ سريعةَ الزوالِ التي تمّ تجاهلها خفيةً في هذه التنازلات لن تُحزَنَ في طبقةٍ مظلمةٍ من الوعي، وتتطورَ إلى لغةٍ يمكنُ أن تندلعَ في أيّ لحظةٍ وتغيرَ مسارَ الأحداث؟ مَنْ يستطيعُ القولَ على وجهِ اليقين، إنّ الناسَ بينما يبحثون ويستخدمون لغةً معياريةً على نطاقٍ واسع، وبينما يتغلبون على الحواجز اللغوية المختلفة سعيًا إلى التواصل فيما بينهم، فإنّ الاختلافات الجديدة في الصوت والشكل والمعنى واللوائح التنظيمية لن تظهرَ في تيارٍ لا نهايةَ له؟ أليست عمليةُ عدمِ التعميمِ أو مناهضةُ التعميمِ تنمو في الوقتِ ذاته في نفوسِ الناس؟

بالمعنى الدقيق للكلمة، إنّ ما يُسمّى بـ «اللغة المشتركة»، سيظلُّ إلى الأبد هدفًا بعيدَ المنالٍ للبشرية. إذا لم نرغب في أن يصبحَ التواصلُ نوعاً من التحييدِ المتبادل، والاستنزافِ المتبادل، فيجبُ أن نحافظَ على حذرنا ومقاومتنا تجاهَ التواصل، وأن نحافظَ في هذه التسوية على أشكالِ التعبيرِ الصارمةِ الخاصةِ بنا، هذا شرطٌ مسبقٌ للتواصلِ اللطيف. هذا يعني أنّه حين يتحدّثُ الناس، يحتاجُ كلُّ شخصٍ -إن أمكن- إلى قاموسٍ خاصٍّ به.

الكلماتُ كائناتٌ حيّةٌ تتكاثرُ بكثافة، تتغيّرُ إلى ما لا نهاية، تتجمّعُ وتتشتّت، تنجرفُ حُرّةً، تهاجرُ وتزوج، تمرّضُ وتُتوارث، لديها طباعٌ وعواطف، تزدهرُ، وتنحدرُ، وتموت، تعيشُ حياةً طويلةً أو قصيرةً ضمنَ مواقفٍ واقعيةٍ محددة. ولبعضِ الوقتِ الآن، قبضتُ على عددٍ من هذه الكلماتِ وسجنتُها في دفترٍ ملاحظاتي. ومرةً تلوَ أخرى حمّنتُ وبحثتُ واستقصيتُ، وسعيتُ بجهدٍ كمُحقّقٍ لاكتشافِ القصصِ المتوارية خلفَ هذه الكلمات، ولذلك خُلِقَ هذا الكتاب.

وبالطبع، هذا فقط قاموسٌ خاصٌ بي، وليس له أهميةٌ معياريةٌ
للآخرين، ما هو إلا إحدى الإجاباتِ المتنوعةِ لتجربةِ أستاذ اللغويات،
تُنسى بمجرد انتهاءِ الدرس.



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

يارا المصري

مترجمة مصرية، درست اللغة الصينية في كلية الألسن جامعة عين شمس في القاهرة، وفي جامعة شاندونغ للمعلمين في مدينة جينان بالصين. نشرت قصصاً ونصوصاً شعرية ودراسات مترجمة عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية، في مجلات وصحف منها: مجلة العربي، جريدة الأهرام، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد، أخبار الأدب، وغيرها من الدوريات الثقافية العربية. شاركت في مؤتمر مترجمي الأعمال الأدبية الصينية الذي عقد في الصين أغسطس ٢٠١٦ وأغسطس ٢٠١٨، كما شاركت في ورشة للكتابة والترجمة في أكاديمية لوشون للآداب في بكين نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٧.

فائزة بالمركز الأول في مسابقة جريدة أخبار الأدب للشباب في الترجمة ٢٠١٦ عن ترجمتها لرواية (الذواقة) للكاتب الصيني «لو وين فو». حائزة على جائزة الإسهام المتميز في الكتاب الصيني العام ٢٠١٩. فائزة بالمركز الأول لجائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي، الدورة السابعة ٢٠٢١ في الترجمة من الصينية إلى العربية.

أعمال منشورة

العظام الراكضة

المؤلفة: آشه، مجموعة قصصية، بيت الحكمة للنشر والإعلام ٢٠١٥.

الفرار في عام ١٩٣٤

المؤلف: سوتونغ، رواية، دار الصدى / مجلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى ٢٠١٥
مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ٢٠١٧.

رياح الشمال

المؤلفة: بينغ يوان، مجموعة قصصية، دار الحكمة للإعلام والنشر ٢٠١٦

الذواقة

المؤلف: الكاتب الراحل لو وين فو، رواية، سلسلة الجوائز التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٦.

أحتضنُ نمرأً أبيض وأعبرُ المحيط

المؤلف: الشاعر الراحل خاي زي، مختارات شعرية، دار النسيم بالتعاون مع
مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين ٢٠١٧.

زوجات ومحظيات

المؤلف: سوتونغ، رواية، مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٧.
حياة أخرى للنساء

المؤلف: سوتونغ، ثلاث روايات قصيرة، مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى
٢٠١٨

معابد معتمدة

المؤلف: شي تشوان، مختارات شعرية، مسعى للنشر والتوزيع، بالتعاون مع
مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين، الطبعة الأولى ٢٠١٨

شيء اسمه حجر يليه كوكب مصر

المؤلف: أويانغ جيانغ خي
مختارات شعرية

مسعى للنشر والتوزيع، بالتعاون مع مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين
للمعلمين، الطبعة الأولى ٢٠١٩

الحب في القرن الجديد

المؤلفة: تسان شيه، رواية، دار سرد - الطبعة الأولى ٢٠٢١.

أحتضنُ نمرأً أبيض وأعبرُ المحيط

المؤلف: خاي زي، شعر، منشورات تكوين - الطبعة الثانية - طبعة مزيدة
ومنقحة - ٢٠٢٢.

الطيور البنية المهاجرة

المؤلف: غي في، مجموعة قصصية، دار روايات - الطبعة الأولى ٢٠٢٢.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فيا نقرأ كلمةً بعد أخرى، في "قاموس ماتشياو" سنكتشف أن الكلمات ليست فقط تعبيراً عن معاني واضحة أو مُضمرة، وإنما هي الحياة كذلك، لدى سكان قرية "ماتشياو" في جنوب الصين، الأمر الذي يمكنُ مقارنته بقاموس أي قرية في العالم وبحياة سكانها.

الكلمات إذن ليست مجرد رموز دلالية، والقاموس حتى لو بدا محايداً، فإنه من مكان إلى مكان آخر، يصبح تأصيلاً لأشكال الحياة لدى الناس ومداركهم وانحيازاتهم، ويقدم الكاتب "هان شاو غونغ" تأصيلاً لحياة سكان قرية "ماتشياو" من خلال "قاموسهم اليومي" وبالكلمات التي تكتسب دلالاتها من استخدام سكان القرية لها.

هذه الرواية الاستثنائية الفذة في الأدب الصيني الحديث، وفي الأدب العالمي كذلك، لا نظير لها سوى رواية "قاموس الخزر" للكاتب الصربي "ميلوراد بافيتش" التي صدرت عام ١٩٨٤، إذ يعتمد الكاتبان الصيني والصربي القاموس أو المعجم منهجاً للسر الروائي، وإذا تُرجمت رواية "قاموس الخزر" إلى لغات كثيرة ليس منها اللغة العربية، فإن هذه هي الترجمة العربية الكاملة عن اللغة الصينية لرواية "قاموس ماتشياو".

وعلى أي حال، إن كنت تعتقد أن كلمات مثل "تبدد" أو "طعام" أو "أهلية" لها دلالة موحدة حتى داخل الصين نفسها، فإن قراءة "قاموس ماتشياو" ستعيدك من الكلمات إلى الحياة، كما لو كنا نخترع الكلمات لأول مرة للإشارة إلى الواقع، وهو هنا واقع قرية ماتشياو وقاموس سكانها" وسنعرف أن ثمة قواميس إنسانية للكلمات تعني البشر والحياة والمجتمعات قبل أن تعني اللغة في حد ذاتها.

الترجمة

مكتبة

t.me/soramnqraa

馬
橋
詞
典

هان شاو غونغ
قاموس ماتشياو



9

789921

723786

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

